الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر
آية الله الشّيخ
ناصر مكارم الشّيرازي

المجلد الثالث

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

٦/٥

النساء
المائدة

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

٥ - ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الخامس

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق منتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

مدنيّة وعدد آياتـها مائة وستٌّ وسبعون

قبل الخوض في تفسير آيات هذه السورة يلزم أن نذكّر القارىء الكريم بعدّة نقاط هي:

١ - موضع نزول هذه السورة

كل آيات هذه السورة (باستثناء الآية ٥٨ حسب نقل بعض المفسرين) نزلت في المدينة المنورة، وتقع من حيث ترتيب النّزول بعد سورة الممتحنة، لأنّ التّرتيب الفعلي للسّور القرآنية - كما نعلم - لا يطابق ترتيبها في النزول، بمعنى أنّ كثيراً من السّور التي نزلت في مكّة تقع في الترتيب الحاضر في آخر القرآن الكريم، وكثيراً من السّور التي نزلت في المدينة تقع في أوائل القرآن.

على أنّنا قد نوّهنا في بداية المجلد الأوّل من هذه المجموعة التّفسيرية، بأنّ ثمّة دلائل تؤكد أن جمع السّور القرآنية على الشكل الفعلي قد تمّ في زمن النّبي ﷺ نفسه، وعلى هذا الأساس يكون النّبي الكريم ﷺ قد أمر بأن ترتب السّور على النحو الموجود الآن (بأن يكون أوّلها الحمد وآخرها النّاس) لأسباب مختلفة منها أهمّية المواضيع التي تضمنتها السور، وكذلك الترتيب الطبيعي لهذه السور الموجود حالياً، بدون أن يكون قد تغيّر من هذا الترتيب أو زيد أو نقص في الحروف والآيات والسور.

إنّ هذه السّورة تعتبر من حيث عدد الكلمات والأحرف - أطول السور بعد سورة البقرة، وتحتوي على (١٧٦) آية، وتسمّى بسورة النساء نظراً لتضمنها أبحاثاً كثيرة وحديثاً مفصلاً حول أحكام «المرأة» وحقوقها.

٢ - محتويات هذه السورة

هذه السّورة - كما قلنا - نزلت في المدينة، بمعنى أنّ النّبي الأكرم ﷺ عندما كان مقبلاً على تأسيس حكومة إسلاميّة وتكوين مجتمع إنساني قويم، نزلت هذه السورة وهي تحمل جملة من القوانين التي لها أثر كبير في إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية.

ومن ناحية أُخرى فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهلية وانحرافاتها ورواسبها، لذلك يتعين قبل أي شيء تطهير عقولهم، وتزكية أرواحهم ونفوسهم من تلك الرّواسب، وإحلال القوانين والبرامج اللازمة لإعادة بناء المجتمع محل تلك العادات والتقاليد الجاهلية الفاسدة.

وعلى العموم فإن المواضيع المختلفة التي تحدثت عنها هذه السّورة هي عبارة عن:

١ - الدّعوة إلى الإيمان والعدالة، وقطع العلاقات الودّية بالأعداء الألداء، والخصوم المعاندين.

٢ - ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

٣ - العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، وبيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

٤ - قانون الإرث والتوارث بنحو طبيعي وعادل في قبال الكيفية القبيحة التي كان عليها وضع التوريث في ذلك الزمان، حيث كان يحرم الضعفاء بحجج واهية، وأعذار غير وجيهة.

٥ - القوانين المتعلقة بالزّواج والبرامج التي تصون العفاف العام.

٦ - القوانين العامّة لحفظ الأموال العامّة.

٧ - حفظ وتحسين حالة الوحدة الأساسية للمجتمع، أي العائلة.

٨ - الحقوق والواجبات الفردية المتقابلة في المجتمع.

٩ - التعريف بأعداء المجتمع الإسلامي وتحذير المسلمين منهم.

١٠ - الحكومة الإسلامية ووجوب طاعة قائد هذه الحكومة.

١١ - حثّ المسلمين على مجابهة الأعداء وجهادهم.

١٢ - الكشف عن الأعداء والخصوم الذين قد يتوسلون بالعمل السري.

١٣ - أهمية الهجرة ووجوبها عند مواجهة مجتمع فاسد غير قابل للتأثير فيه وتغييره.

١٤ - البحث مجدداً عن الإرث ونظام التوريث، وضرورة تقسيم الثروات المكدّسة بين الوارثين.

٣ - فضل تلاوة هذه السّورة

عن النّبي الأكرم ﷺ كما في رواية أنّه قال: «من قرأها (أي سورة النساء) فكأنّما تصدق على كلّ مؤمن ورث ميراثاً، وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرّراً»(١).

ومن البيّن أنّ المقصود في هذه الرواية وأمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التي تكون مقدمة للفهم والإدراك الذي هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السّورة في الحياة الفردية والاجتماعية.

ومن المسلّم به أنّ المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السورة في حياتهم لنالوا كل هذا الأجر مضافاً إلى النتائج الدنيوية.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

التّفسير

مكافحة التّمييزات والاستثناءات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الخطاب في الآية الأُولى من هذه السّورة موجّه إلى كافة أفراد البشر، لأنّ محتويات هذه السورة - هي في الحقيقة - نفس الأُمور التي يحتاج إليها كل أفراد البشر في حياتهم.

ثمّ إنّ الآية تدعو إلى التقوى باعتبارها أساساً لأيّ برنامج إصلاحي للمجتمع، فأداء الحقوق والتقسيم العادل للثروة، وحماية الأيتام، ورعاية الحقوق العائلية، وما شابه ذلك، كلها من الأُمور التي لا تتحقق بدون التقوى، ولهذا تفتتح هذه السورة - التي تحتوي على جميع هذه الأُمور - بالدعوة إلى التزام التقوى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج ٣، ص ١.

وللتعريف بالله الذي يراقب كلّ أعمال الإنسان وتصرفاته أُشير في الآية إلى واحدة من صفاته التي تعتبر أساساً للوحدة الاجتماعية في عالم البشر: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وعلى هذا الأساس لا مبرر للتمييز العنصري، واللغوي، والمحلي، والعشائري وما شابه ذلك ممّا يسبب في عالمنا الرّاهن آلافاً من المشاكل في المجتمعات. ولا مجال لهذه الأُمور وما يترتب عليها من الأمجاد الكاذبة والتفوق الموهوم في المجتمع الإسلامي، لأنّ كافة البشر على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأقطارهم يرجعون إلى أب واحد وأُمّ واحدة.

وتتّضح أهمّية مكافحة هذا الأمر - أكثر فأكثر - إذا لاحظنا أنّ ذلك قد تمّ في زمن كان يعاني بقايا ورواسب نظام قبلي وعشائري ظالم، ونعني عصر النّبي ﷺ.

هذا وقد ورد نظير هذا التعبير في موارد أُخرى من القرآن الكريم أيضاً، وسنشير إلى كل ذلك في موضعه.

والآن يجب أن نرى من هو المقصود من «نفس واحدة»؟

هل المراد من «نفس واحدة» هو شخص معين، أو أنّه واحد نوعي (أي جنس المذكر)؟

لا شك أنّ ظاهر هذا التعبير هو الشخص المعين، والواحد الشخصي، وهو إشارة إلى أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الكريم بـ«آدم» ويعتبره أبا البشر.

كما وقد عبّر عن البشر ببني آدم في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

فاحتمال أن يكون المراد من نفس واحدة هو الواحد النوعي بعيد عن ظاهر الآية جدّاً.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قد فهم منه بعض المفسّرين أنّ حواء قد خلقت من جسم آدم واستشهدوا لذلك بروايات وأحاديث غير معتبرة تقول: إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم[1] (وهو أمر قد صرّح به في سفر التكوين من التوراة أيضاً)[2].

لكن مع ملاحظة سائر الآيات القرآنية يرتفع كلّ إبهام حول تفسير هذه الآية، ويتضح

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٨٠؛ وسائل الشيعة، ج٢٦، ص ٢٨٧ و ٢٨٨.

(٢) في سفر التكوين، باب٢، رقم ٢١ و ٢٢ أنّ الله ألقى على آدم نوماً ثقيلاً، ولمّا استولى عليه النوم أخذ بضلعه وكساه لحماً وأنّ الله خلق من ذلك الضلع امرأة (حوّاء) ثم أتى بها إلى آدم.

أنّ المراد منها هو أنّ الله سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أي جنس البشر) ففي الآية (٢١) من سورة الروم نقرأ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ كما نقرأ في الآية (٧٢) من سورة النّحل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

ومن الواضح أنّ معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ هو أنّه خلقهم من جنسكم لا أنّه خلقهن من أعضاء جسمكم.

ووفقاً لرواية منقولة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام - كما في تفسير العياشي - أنّه كذّب بشدّة فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وصرح عليه السلام بأنّه خلقت من فضل الطينة التي خلق منها آدم.

كيف كان زواج أبناء آدم؟

قال سبحانه: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ هذه العبارة يستفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، وتكاثره قد تمّ عن طريق آدم وحواء فقط، أي بدون أن يكون لموجود ثالث أيّ دخالة في ذلك.

وبعبارة أُخرى إنّ النسل البشري الموجود إنّما ينتهي إلى آدم وزوجته من غير أن يشاركهما في ذلك غيرهما من ذكر أو أُنثى.

وهذا يستلزم أن يكون أبناء آدم (أخوة وأخوات) قد تزاوجوا فيما بينهم، لأنّه إذا تمّ تكثير النسل البشري عن طريق تزوجهم بغيرهم لم يصدق ولم يصح قوله: «منهما».

وقد ورد هذا الموضوع في أحاديث متعددة أيضاً، ولا داعي للتعجب والاستغراب إذ - طبقاً للاستدلال الذي جاء في طائفة من الأحاديث المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام - إنّ هذا النوع من الزواج كان مباحاً حيث لم يرد بعد حكم بحرمة «تزوج الأخ بأخته».

ومن البديهي أنّ حرمة شيء تتوقف على تحريم الله سبحانه له، فما الذي يمنع من أن توجب الضرورات الملحة والمصالح المعينة أن يبيح شيئاً في زمان، ويحرمه بعد ذلك في زمن آخر.

غير أنّه قد صرّح في أحاديث أُخرى بأنّ أبناء آدم لم يتزوجوا بأخواتهم، وتحمل بشدّة على من يرى هذا الرأي ويذهب هذا المذهب.

ولو كان علينا عند تعارض الأحاديث أن نرجح ما وافق منها ظاهر القرآن لوجب أن نختار الطائفة الأُولى، لأنها توافق ظاهر الآية الحاضرة كما عرفت قبل هذا.

ثمّ إنّ هاهنا احتمالاً آخر يقول: إنّ أبناء آدم تزوجوا بمن تبقى من البشر الذين سبقوا آدم ونسله، لأن آدم - حسب بعض الروايات - لم يكن أوّل إنسان سكن الأرض.

وقد كشفت الدراسات والتحقيقات العلمية اليوم أنّ النوع الإنساني كان يعيش في الأرض منذ عهد ضارب في القدم، في حين لم يمر على تاريخ ظهور «آدم» في الأرض زمن طويل، فلا بدّ إذن من قبول النظرية التي تقول بأنّه كان يعيش في الأرض قبل آدم بشر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا، فما المانع من أن يكون «أبناء آدم» قد تزوجوا ببقايا النوع البشري السابق الذي كان في أواخر انقراضه؟

ولكن هذا الاحتمال هو أيضاً لا يتوافق وظاهر الآية الحاضرة (وهذا البحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).

الدّعوة إلى العناية بالرّحم

بعد ذكر ما بين أبناء النوع الإنساني من وشيجة القربى قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِۦ وَالْأَرْحَامَ﴾(١).

إنّ أهمّية التقوى، ودورها في بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت في أن تذكر مجدداً في نهاية الآية الحاضرة، وأن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنّه تعالى أضاف إليها جملة أُخرى إذ قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي اتقوا الله الذي هو عندكم عظيم، وتذكرون اسمه عندما تطلبون حقوقكم وحوائجكم فيما بينكم.

ثمّ إنّه يقول: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ وهو عطف على ﴿اللَّهَ﴾، ولهذا كانت القراءة المعروفة هي نصب ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ فيكون معناها: واتقوا الأرحام، ولا تقطعوا صلاتكم بهم.

إنّ ذكر هذا الموضوع هنا يدلّ أوّلاً على الأهميّة الفائقة التي يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم ووشيجة القربى إلى درجة أنّه يذكر اسم الأرحام بعد ذكر اسم الله سبحانه، وهو إشارة - ثانياً - إلى الأمر الذي ذكر في مطلع الآية، وهو أنّكم جميعاً من أب واحد وأُمّ واحدة، وهذا يعني - في الحقيقة - أنّ جميع أبناء آدم أقرباء وأرحام، وهذا الارتباط والترابط يستوجب أن يتحابّ الجميع ويتوادّوا دون تفريق أو تمييز بين عنصر وآخر، وقبيلة وأُخرى، تماماً كما يتحاب أفراد القبيلة الواحدة.

---

(١) تساءلون: من مادة تسال، وتساءل بالله من قولهم أسألك بالله أن تفعل كذا. وهذا يدل على تعظيم الناس لله تعالى.

ثمّ يختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

والرقيب أصله من الترقب، وهو الانتظار من مكان مرتفع، ثمّ استعمل بمعنى الحافظ والحارس، لأن الحراسة من لوازم الترقب والنظارة.

وارتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحية الظاهرية بكون الرقيب يرقب على مكان مرتفع، ويمارس النظارة من ذلك الموقع، وقد يكون من الناحية المعنوية.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ أي إنّه يحصي عليكم نيّاتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراها جميعاً، كما أنّه هو الذي يحفظكم أمام الحوادث، والتعبير بـ «كان» المفيد للماضي، إنّما هو للتأكيد.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾

سبب النزول

روي أنّ رجلاً من بني غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه، فخاصمه إلى النبي ﷺ فنزلت: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ . . .﴾ فلما سمع الغطفاني ذلك ارتدع وقال: أعوذ بالله من الحوب الكبير(١).

التّفسير

لا... للخيانة في أموال اليتامى

كثيراً ما يحدث في المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال صغار آباءهم بسبب الحوادث والنكبات والكوارث، فتلك حالة كثيراً ما تقع، فإنّ المجتمعات المريضة التي تعاني من صراعات وحروب ونزاعات داخلية مستمرة مثل المجتمع الجاهلي العربي يقع فيها هذا الأمر بنسبة أكبر، ولذلك يكثر فيها عدد الأيتام، وهو ما يجب أن تهتمّ به الحكومة الإسلامية، بل ويهتمّ به كل المسلمين، فيتكفّلوا أمر اليتامى وشؤونهم.

---

(١) الدّر المنثور، ج ٢، ص ١١٧. تفسير القرطبي، ج٥، ص٨، ذيل الآية مورد البحث، ؛ اسباب النزول للواحدي، ص٩٤.

وفي هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامى:

١ - ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعة عندكم، ويكون تصرفكم في هذه الأموال على نحو تصرف الأمين والنّاظر والوكيل لا على نحو تصرّف المالك.

٢ - ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي لا تأخذوا أموالهم الطّيبة وثرواتهم الجيدة وتضعوا بدلها من أموالكم الخبيثة والمغشوشة، وهذا التعليم - في الحقيقة - يهدف إلى المنع ممّا قد يرتكبه بعض القيّمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم والرفيع منه وجعل الخسيس والرديء مكانه، بحجّة أنّ هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، أو لأنّه لا تفاوت بين ماله والبديل، أو لأن بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف والضياع وغير ذلك من الحجج والمعاذير.

٣ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ يعني لا تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملّك الجميع، أو أنّ المراد لا تخلطوا الجيد من أموالهم بالرديء من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامى وضياع حقوقهم، ولفظة «إلى» في العبارة بمعنى (مع) في الحقيقة.

ماذا يعني الحوب؟

ثمّ إنّه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع والتأكيد عليه يختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

يقول الرّاغب في مفرداته: «الحوبة حقيقتها هي الحاجة التي تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم» وحيث إنّ العدوان على أموال اليتامى ينشأ - في الأغلب - من الحاجة، أو بحجّة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظة الإثم في هذه الآية لفظة «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.

إنّ ملاحظة الآيات القرآنية المختلفة - في هذا المجال - تكشف عن أنّ الإسلام يولي هذا الموضوع أهمّية كبرى، ويهدد الخائنين في أموال اليتامى بالعقوبات الشديدة، ويدعو القيمين على اليتامى بكلمات صريحة وجازمة إلى مراقبة أموالهم والمحافظة عليها مراقبة شديدة، ومحافظة بالغة، وسيأتي تفصيل كلّ هذا في نفس هذه السورة في الآيات القادمة، وفي ذيل الآيات (١٥٢) من سورة الأنعام، و(٣٤) من سورة الإسراء.

إنّ اللهجة القوية التي اتسمت بها هذه الآيات قد تركت من التأثير البالغ في نفوس المسلمين بحيث خافوا أن يخالطوا اليتامى وأن يشتركوا معهم في الطعام، ولهذا كانوا يهيئون طعاماً خاصّاً لأنفسهم ولأولادهم، وطعاماً مستقلاً لليتامى ولا يخلطون طعام اليتامى بطعامهم خشية الإجحاف بهم، وقد شقّ هذا على الجميع - اليتامى والأولياء - ولهذا أمرهم سبحانه في الآية (٢٢٠) من سورة البقرة قائلاً: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي إن كان في خلطهم لطعام اليتيم بطعامهم خير ومصلحة لليتيم فلا بأس(١).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾

سبب النّزول

لقد نقل لهذه الآية سبب نزول خاص، فقد كان المتعارف في العهد الجاهلي قبل الإسلام أن يتكفل أغلب الناس في الحجاز أمر اليتيمات، ثمّ يتزوجون بهنّ، ثمّ يمتلكون أموالهنّ، وربّما ينكحونهنّ بدون صداق أو بصداق أقل من شأنهنّ، بل وربّما يتركونهنّ لأدنى سبب أو كراهية بكل سهولة، وبالتالي لم يكونوا يعطونهنّ ما يليق بهنّ - كزوجات - بل وحتى كبقية النساء العاديات - من الاحترام والمكانة، فنزلت هذه الآية توصي أولياء اليتيمات إذا أرادوا الزواج بهنّ أن يلاحظوا جانب العدل معهن، وإلاّ فليختاروا الأزواج من غيرهنّ(٢).

يقول سبحانه في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ وقد جاء هذا الكلام بعد ما جاء في الآية السابقة من الحث على حفظ أموال اليتامى من التلف وعدم التفريط فيها، فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، وهو هذه المرّة يتعلق باليتيمات خاصّة.

التّفسير

بملاحظة ما ذكرناه في سبب النزول يتّضح تفسير هذه الآية والمراد منها، كما يتّضح

(١) للتفصيل راجع ما ذكرناه في تفسير هذه الآية في سورة البقرة في الجزء الثاني من هذا التّفسير.
(٢) مجمع البيان، ج ٣، ص ٥ و٦. فقه القرآن، ج٢، ص٩٥، ٩٦، ٩٧؛ وتفسير القرطبي، ج٥، ص١١.

الجواب أيضاً على السؤال المطروح هنا، وهو: لماذا تبتدىء الآية بذكر اليتامى، وتنتهي بمسألة الزواج، ويرتفع ما قد يتوهم من المنافاة بين تلك البداية، وهذه النهاية، فالبداية والنهاية كلتاهما تتعلقان بمسألة الزواج، غاية ما في الأمر أنّ الآية تقول: إذا لم يمكنكم الزواج باليتيمات ومعاشرتهنّ على أساس من العدل والقسط فالأفضل أن تتركوا الزواج بهنّ، وتتزوجوا بغيرهنّ من النساء تجنباً لظلم اليتيمات والإجحاف بحقوقهنّ، والجور عليهنّ.

فالذي يستفاد من جوّ الآية - وإن اختلفت وجهات نظر المفسرين وكثرت أقوالهم وتعددت في المراد منها - هو ما ذكرناه في سبب النزول، وهو أنّ الخطاب موجّه إلى أولياء اليتيمات اللاّتي جاء الحثّ في الآية السابقة على حفظ أموالهنّ ضمن اليتامى.

فهذه الآية تعليم آخر ووصية أُخرى بهم، ولكنّها هذه المرّة تتعلق بمسألة الزواج باليتيمات، وأنّ على أوليائهنّ أن يعاملوهنّ في مسألة الزواج على أساس من العدل والقسط كما يعاملونهنّ في مسألة المال، فعليهم أن يراعوا في أمر الزواج مصلحة اليتيمة، وإلاّ فمن الأحسن أن يَدَعوا الزواج بهنّ، ويختاروا الأزواج من غيرهنّ من النساء.

هذا وممّا يؤيد ويوضح هذا التّفسير ما جاء في الآية (١٢٧) من نفس هذه السّورة[(١)] حيث حثّ سبحانه على التزام العدل في الزواج باليتيمات، وسيأتي تفصيل ذلك في محله.

كما أنّ ثمّة أحاديث نقلت في الكتب المختلفة تشهد بهذا الاتجاه، وتؤيد هذا التّفسير[(٢)].

وما نقل عن الإمام علي عليه السلام من الأخبار بسقوط أو حذف شيء كثير من القرآن بين مطلع هذه الآية[(٣)] ونهايتها، غير معتبر من حيث السند أصلاً، فهذه الأحاديث وما يشابهها من الأحاديث التي تدل على حذف شيء من الآيات القرآنية وإسقاطها أو وقوع

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٣٨ وتفسير المنار في تفسير هذه الآية.

(٣) بحار الانوار، ج٨٩، ص ٤٧؛ واحتجاج الطبرسي، ج١، ص٢٥٤.

التحريف فيها إمّا أنّها من موضوعات أعداء الإسلام وخصومه والمنافقين بغية الحط من اعتبار القرآن وأهمّيته ومكانته، وإمّا لأنّها ناشئة من عجز البعض عن التوفيق بين صدر الآية وذيلها وفهم الارتباط الطبيعي بينهما، ولهذا توهّموا بأنّ هناك حذفاً وإسقاطاً وقد تطور هذا الوهم حتى اتّخذ صورة الحديث المروي والخبر المنقول، في حين يتّضح الارتباط الوثيق بين هذه الجمل والعبارات بالتأمل والتدبر والإمعان.

«مثنى» و«ثلاث» و«رباع»

وتعني «مثنى» في اللّغة اثنتين اثنتين، و«ثلاث» ثلاثاً ثلاثاً، و«رباع» أربعاً أربعاً، وحيث إنّ الخطاب في هذه الآية موجّه إلى المسلمين كافة، كان المعنى: إنّ عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنباً من الجور عليهنّ، وأن تتزوجوا بالنساء اللاتي لا تسمح مكانتهنّ الاجتماعية والعائلية بأن تجوروا عليهنّ، وتظلموهنّ، ويجوز لكم أن تتزوجوا منهنّ باثنتين أو ثلاث أو أربع، غاية ما في الأمر حيث إنّ الخطاب هنا موجّه إلى عامّة المسلمين، عبَّر بالمثنى، والثلاث، والرّباع فلا شك في أنّ تعدد الزوجات - بالشروط الخاصّة - لا يشمل أكثر من أربع نساء.

ولابدّ من التنبيه إلى أنّ «الواو» هنا أتت بمعنى «أو»، فليس معنى هذه الجملة هو أنّه يجوز لكم أن تتزوجوا باثنتين وثلاث وأربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأنّ المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر ذلك بصراحة فيقول: وانكحوا تسعاً لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة.

هذا مضافاً إلى أنّ حرمة الزّواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامي، وأحكامه القطعية المسلَّم بها.

وعلى كلّ حال فإنّ الآية الحاضرة دليل صريح على جواز تعدد الزوجات، طبعاً بشروطه التي سنذكرها قريباً.

ثمّ إنّه سبحانه عقّب على ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي التزوج بأكثر من زوجة إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكاملة بينهنّ، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكي لا تجوروا على أحد.

ثمّ يقول: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي يجوز أن تقتصروا على الإماء اللاّتي تملكونهنّ بدل الزوجة الثانية لأنهنّ أخفّ شروطاً (وإن كن يجب أن يحظين ويتمتعن بما لهنّ من الحقوق أيضاً).

ويقول: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي أن هذا العمل (وهو الاقتصار على زوجة واحدة أو الاقتصار على الإماء وعدم التزوج بزوجة حرّة ثانية) أحرى بأن يمنع من الظلم والجور، ويحفظكم من العدوان على الآخرين (وسيكون لنا حديث مفصّل عن الرّق في الإسلام عند تفسير الآيات المناسبة إن شاء الله).

ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟

قبل الخوض في بيان فلسفة تعدد الأزواج في الشريعة الإسلامية يجب أن يتّضح أوّلاً المراد من العدل بين الأزواج الذي هو من شروط جواز التعدد، فما هو المقصود من العدل هنا يا ترى؟

أهي العدالة في الجوانب المادية كالمضاجعة وتوفير وسائل العيش وتحقيق الرّفاه والمتطلبات المعيشية؟ أم أنّ المراد أيضاً هو العدالة في نطاق القلب والعواطف والأحاسيس الإنسانية؟ وبعبارة صريحة: العدالة في الحبّ والرغبة، مضافاً إلى العدالة في الجوانب المادية.

لا شكّ أنّ مراعاة العدالة في الميل القلبي، والحبّ، والرغبة شيء خارج عن نطاق القدرة البشرية.

فمن ذا يستطيع أن يضبط حبّه من جميع الجوانب، ويعطيه الحجم الذي يريد، والحال أنّ موجباته وعوامله خارجة عن نطاق قدرته، وإطار إرادته؟

ولهذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هذه العدالة حيث قال سبحانه في الآية ١٢٩ من نفس هذه السّورة - النساء: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي لا يمكنكم مهما أردتم أن تعدلوا بين الأزواج في الميل القلبي، والحبّ والمودّة.

إذن فلا ضير في الحبّ والميل القلبي الذي لا يوجب تفضيل بعض الأزواج في المواقف العملية، وعلى هذا الأساس فإنّ ما يجب على الرجل مراعاته هو العدالة بين أزواجه في الجوانب العملية الخارجية أي في نوع التعامل العملي خاصّة إذ يستحيل مثل هذه المراعاة في المجال العاطفي.

من هذا الكلام يتّضح بجلاء أنّ الذين أرادوا من ضمّ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ إلى قوله تعالى في الآية (١٢٩): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أن يستنتجوا حرمة تعدد الأزواج مطلقاً بحجّة استحالة مراعاة العدالة بينهن قد وقعوا في خطأ كبير، لأنّ العدالة المستحيلة مراعاتها - كما أسلفنا - هي العدالة في

المجال العاطفي، وليس هذا من شرائط جواز التعدد في الأزواج، بل إنّ من شرائط جوازه هو مراعاة العدالة في المجال العملي(١).

ويشهد بذلك ما جاء في ذيل الآية (١٢٩) من نفس هذه السّورة حيث يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي أنكم إذ لا تقدرون على مراعاة المساواة الكاملة في محبّة الزوجات وودّهنّ، فلا أقل أن لا تميلوا في حبّ بعض الأزواج ميلاً شديداً يحملكم على أن تذروا التي لا تميلون إليها، فلا هي ذات زوج ولا أيّم.

وخلاصة القول ونتيجته، أنّ الذين أمسكوا بقسم من هذه الآية، ونسوا القسم الآخر وتورّطوا في رفض تعدد الزوجات في خطأ يدهش كل محقق، ويستغرب منه كل باحث.

أضف إلى ذلك أن مسألة جواز تعدد الأزواج بشرائطها على درجة من الثبوت والوضوح في الفقه الإسلامي ومصادره الشيعية والسنية بحيث لا يبقى مجال للجدل، ولا محل للنقاش، بل هي من ضروريات الفقه الإسلامي ومسلّماته وبديهياته، ولنعطف عنان البحث الآن إلى معرفة فلسفة هذا القانون الإسلامي.

تعدد الزّوجات ضرورة إجتماعية

لقد أجازت الآية الحاضرة تعدد الزوجات (ولكن بشرائط ثقيلة وفي حدود معينة) وقد أثارت هذه الإباحة جماعة، فانطلقوا يوجّهون إليها الاعتراضات والإشكالات، وتعرض هذا القانون الإسلامي لهجمة كبيرة من المعارضين الذين تسرعوا في إصدار الحكم على هذا القانون الإسلامي متأثرين بالأحاسيس، ودون أن يتناولوه بالدرس والتمحيص، والتأمل والتحقيق. وكان الغربيون أكثر هذه الجماعة معارضة لهذا القانون وهجوماً عليه، متسائلين: كيف يجوز للإسلام أن يسمح للرجال أن يقيموا لأنفسهم حريماً ويتخذوا زوجات متعددة على نحو ما كان شائعاً في الجاهلية؟

كلاّ، إنّ الإسلام لم يسمح لأحد بأن يقيم حريماً بالمعنى الذي تصورتم، ولا أنّه أباح تعدد الزوجات دون قيد أو شرط، ودون حدّ أو قانون.

ولتوضيح هذه الحقائق نقول: إنّ دراسة البيئات المختلفة قبل الإسلام تكشف لنا أنّ

(١) أصول الكافي، ج٥، ص٣٦٢ و٣٦٣.

تعدد الزوجات دونما تحديد بعدد معين كان أمراً عادياً وشائعاً، لدرجة أنّ بعض الوثنيين أسلموا وتحت الرجل منهم عشر زوجات أو أقل، من هنا لم تكن مسألة تعدد الزّوجات ممّا أبدعه الإسلام، نعم إنّ ما فعله الإسلام هو وضع هذا الأمر في إطار الحاجة والضرورة الحيوية الإنسانية، وتقييده بطائفة من القيود والشروط الثقيلة.

إنّ قوانين الإسلام وتشريعاته تدور على محور الحاجات الإنسانية، وتقوم على أساس مراعاة الضرورات الحيوية في دنيا البشر، لا الدعاية الظاهرة ولا المشاعر الموجهة توجيهاً غير صحيح، ومسألة تعدد الزوجات من هذا القبيل أيضاً، فقد لوحظت هي الأُخرى من هذه الزاوية، لأنّه لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ الرجال أكثر تعرضاً من النساء لخطر الفناء والموت بسبب كثرة ما يحيط بهم من الحوادث المختلفة.

فالرجال يشكّلون القسم الأكبر من ضحايا الحروب والمعارك.

كما أنّه لا يمكن إنكار أنّ أعمار الرجال من الناحية الجنسية أطول من أعمار النساء في هذا المجال، فالنساء يفقدن القدرة الجنسية (والقدرة على الإنجاب) في سنّ مبكّرة في حين يبقى الرجال محتفظين بهذه الطاقة والقدرة مدّة أطول بكثير.

كما أنّ النساء - في فترة العادة الشهرية وشيء من فترة الحمل - يعانين من موانع جنسية بصورة عملية في حين لا يعاني الرجل من أي مانع جنسي من هذا النوع.

هذا كلّه مضافاً إلى أنّ هناك نساء يفقدن أزواجهنّ لبعض الأسباب، فلا يتيسر لهن أن يجلبن اهتمام نظر الرجال إلى أنفسهن كزوجة أُولى، فإذا لم يسمح بتعدد الزوجات، وجب أن تبقى تلك النسوة بلا أزواج، كما نقرأ ذلك في الصحف المختلفة حيث يشكو هذا النوع من النساء الأرامل من صعوبات الحياة ومشكلات العيش بسبب تحديد مسألة تعدد الأزواج أو إلغائها بالمرّة، وحيث يعتبرن المنع من التعدد نوعاً من القوانين الظالمة الجائرة والمعادية لهنّ.

بالنظر إلى هذه الحقائق، وعندما يضطرب التوازن بين عدد النساء والرجال نجد أنفسنا مضطرين لأن نختار إحدى طرق ثلاث هي:

١ - أن يقنع كل رجل بزوجة واحدة فقط في جميع الحالات والموارد، ويبقى العدد الإضافي من النساء بلا أزواج إلى آخر أعمارهن، ويكبتن حاجاتهنّ الفطرية ويقمعن غرائزهنّ الباطنية الملتهبة.

٢ - أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة بصورة مشروعة ثمّ يترك حرّاً لإقامة علاقات

جنسية مع من شاء وأراد من النساء اللائي فقدن أزواجهن لسبب أو لآخر على غرار اتّخاذ الأخدان والعشيقات.

٣ - أنْ يسمح - لمن يقدر أن يتزوج بأكثر من واحدة ولا يقع في أية مشكلة من الناحية «الجسمية» و«المالية» و«الخلقية» من جراء هذا الأمر، كما ويمكنه أن يقيم علاقات عادلة بين الزوجات المتعددة وأولادهن - بأن يتزوجوا بأكثر من واحدة (على أن لا يتجاوز عدد الأزواج أربعاً)، وهذه هي ثلاثة خيارات لا رابع لها.

وإذا أردنا اختيار الطريق الأوّل يلزم أن نعادي الفطرة والغريزة البشرية، ونحارب جميع الحاجات الروحية والجسمية لدى البشر، ونتجاهل مشاعر هذه الطّائفة من هذه النّسوة، هذه الحرب والمعركة لن يكون فيها أي انتصار، وحتى لو نجح هذا الطرح وكتب له التوفيق، فإن ما فيها من الجوانب اللاإنسانية أظهر من أن يخفى على أحد.

وبعبارة أُخرى إنّ تعدد الزوجات في الموارد الضرورية يجب أن لا ينظر إليه أو يدرس من منظار الزوجة الأُولى، بل يجب أن يدرس من منظار الزوجة الثانية أيضاً.

إنّ الذين يعالجون هذه المسألة وينظرون إلى خصوص مشاكل الزوجة الأُولى في صورة تعدد الزوجات هم أشبه بمن يطالع مسألة ذات زوايا ثلاث من زاوية واحدة، لأنّ مسألة تعدد الزوجات ذات ثلاث زوايا، فهي يجب أن تطالع من ناحية الرجل، ومن ناحية الزوجة الأُولى، ومن ناحية الزوجة الثانية أيضاً، ويجب أن يكون الحكم بعد ملاحظة كل هذه الزوايا في المسألة، ويتمّ على أساس مراعاة مصلحة المجموع في هذا الصعيد.

وإذا اخترنا الطريق الثاني وجب أن نعترف بالفحشاء والبغاء بصورة قانونية، هذا مضافاً إلى أنّ النساء العشيقات اللائي يجعلن أنفسهنّ في متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهن الجنسية يفتقدن كل ضمانة وكل مستقبل، ويعني ذلك سحق شخصيتهنّ سحقاً كاملاً - في الحقيقة - إذ يصبحن حينئذ مجرد متاع يقتنى عند الحاجة ويترك عند ارتفاعها دون التزام ومسؤولية، ولا شك أنّ هذه الأُمور لا يسمح بها أي عاقل مطلقاً.

وعلى هذا الأساس لا يبقى إلاّ الطريق الثالث، وهو الطريق الذي يلبّي الحاجات الفطرية والغريزية للنساء، كما أنّه يجنّب هذه الطائفة من النساء عواقب الفحشاء ويحفظهنّ من الإنزلاق إلى الفساد، وبالتالي ينقذ المجتمع من [السقوط في] مستنقع الآثام والذنوب.

على أن من الواجب أن نلتفت إلى أنّ السماح بتعدد الزوجات مع أنّه ضرورة اجتماعية في بعض الموارد ومع أنّه من أحكام الإسلام القطعية، إلاّ أن توفير شرائطه يختلف اختلافاً كبيراً عن الأزمنة الماضية، لأنّ الحياة كانت في العصور السابقة ذات نمط بسيط ومواصفات سهلة، ولهذا كانت رعاية المساواة والعدالة بين الزوجات المتعددات أمراً ممكناً وميسراً لأكثر الناس، في حين يجب على الذين يريدون الأخذ بهذا القانون الإسلامي في هذا العصر أن يراعوا مسألة العدالة من جميع الجوانب، وأن يقدموا على هذا الأمر إذا كانوا قادرين على الوفاء بجميع شروطه.

وبالجملة يجب أن لا يقدم أحد على هذا العمل بدافع الغريزة الحيوانية فقط.

هذا والملفت للنظر هنا هو أنّ الذين يعارضون مبدأ تعدد الزوجات (كالغربيين) قد واجهوا طوال تأريخهم ظروفاً ألجأتهم إلى هذا المبدأ بصورة واضحة.

ففي الحرب العالمية الثانية برزت حاجة شديدة في البلاد التي تعرضت لويلات الحرب هذه وبالأخص ألمانيا، إلى هذا الموضوع مما دفع بطائفة من المفكرين في سياق البحث عن حلّ لهذه المشكلة إلى إعادة النظر في مسألة المنع عن تعدد الزوجات، إلى درجة أنّهم طلبوا من الجامع «الأزهر» بالقاهرة البرنامج الإسلامي حول تعدد الزوجات للدراسة، ولكنهم اضطروا - وتحت ضغوط شديدة من جانب الكنائس - إلى التوقف عن المضي في دراسة هذا البرنامج، وكانت النّتيجة تفشي الفحشاء والفساد الجنسي الشديدين في جميع البلاد التي تعرضت للحرب وويلاتها.

هذا بغضّ النظر عن أنّه لا يمكن إنكار ما يحسّ به طائفة من الرجال من الميل إلى اتّخاذ زوجات متعددة، فإن كان هذا الميل والرغبة ناشئين من الهوى والهوس لم يكن جديراً بالنظر، أمّا إذا كانا ناشئين عن عقم الزوجة عن إنجاب الأولاد من جانب، ورغبة الرجل الشديدة في الحصول على أبناء له - كما هو الحال في كثير من الموارد - من جانب آخر، فهو ميل معقول ورغبة منطقية جديران بالاهتمام والرعاية.

كما أنّه لو كانت الرغبة في تعدد الزوجات ناشئة من الميل الجنسي الشديد لدى الرجل وعدم قدرة الزوجة الأُولى على تلبية هذا الميل كما ينبغي، ولهذا يرى الرجل نفسه مضطراً إلى اتخاذ زوجة ثانية حتى لا يقدم على إشباع هذه الحاجة من طريق غير مشروع لإمكان إشباعه من طريق مشروع، ففي هذه الصورة أيضاً لا يمكن إنكار منطقية هذا الميل لدى الرجل، ولهذا تكون إقامة العلاقات مع النساء المتعددات أمراً رائجاً

عملياً حتى في البلاد التي تحظر تعدد الزوجات، فيعقد الرجل الواحد علاقات غير مشروعة مع نساء عديدات.

إنّ المؤرخ الفرنسي المعروف «غوستاف لوبون» يعتبر قانون تعدد الزوجات، الذي يقرّه الإسلام ضمن حدود وشروط خاصّة، من مزايا هذا الدين، ويكتب عند المقارنة بينه وبين طريقة العلاقات الجنسية الحرّة غير المشروعة الرائجة في الغرب قائلاً: «وفي الغرب حيث الجو والطبيعة لا يساعدان على تعدد الزوجات، وبرغم أنّ القوانين الغربية تمنع التعدد، ولكن الغربيين قلّما تقيدوا بهذه القوانين وخرقوها بعلاقاتهم السرّية الآثمة.

ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، بل أرى ما يجعله أسمى منه»(١).

طبعاً لا يمكننا إنكار أنّ هناك بعض مدَّعي الإسلام يستخدمون هذا القانون الإسلامي من دون مراعاة الروح الإسلامية فيه فيتخذون حريماً كلّه فساد وفجور ويتعدون على حقوق أزواجهم، بيد أنّ هذا ليس بسبب عيب في هذا القانون الإسلامي ولا يجوز اعتبار أعمالهم القبيحة وأفعالهم الرخيصة هذه من الإسلام، فهي ليست من أحكام الإسلام في شيء، ترى أيّ حكم أو قانون جيد من الأحكام والقوانين لم يستغله النفعيون والمصلحيون استغلالاً سيئاً؟

سؤال

ثمّ إنّ هاهنا من يسأل أنّه قد تتوفر الشرائط والكيفيات المذكورة أعلاه بالنسبة إلى امرأة أو نساء، فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس صعباً كما يمكن أن يتصور، وذلك:

أوّلاً: إنّ الرغبة الجنسية لدى الرجال (على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس) أقوى وأشدّ بأضعاف من النساء، وإن المرض النفسي الذي تصرّح به أكثر الكتب النفسية والطبية هو «البرود الجنسي» لدى المرأة في حين أنّ الأمر في الرجال

(١) حضارة العرب، ص ٣٩٨.

على العكس، ولا يقتصر هذا الأمر على البشر، ففي عالم الحيوانات كذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسية من إناثها.

ثانياً: إنّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوي على أية مشاكل اجتماعية وحقوقية، في حين أنّ السماح بتعدد الأزواج للنساء (أي لو أنّنا سمحنا لامرأة أن تتزوج برجلين) يسبب مشاكل كثيرة أبسطها ضياع النسب، إذ لا يعرف في هذه الصورة إلى من ينتسب الولد، ولا شك أنّ مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أي واحد من الرجال، بل ويعتقد بعض العلماء أنّ الولد المجهول الأب قلّما يحظى حتى بحبّ الأُمّ واهتمامها به، وبهذه الصورة يصاب الولد الناشىء من مثل المرأة ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحية العاطفية، كما أنّه يكون - بطبيعة الحال - مجهول الحال من الناحية الحقوقية أيضاً.

ولعلّه لا يحتاج إلى التذكير بأنّ التوسل بوسائل منع الحمل للحيلولة دون انعقاد النطفة وحصول ولد، لا يورث الاطمئنان مطلقاً، ولا يكون دليلاً قاطعاً على عدم حمل الزوجة بولد، لأنّ ثمّة كثيراً من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن في استخدامها فيلدن وينجبن أولاداً، ولهذا لا يمكن لأيّة امرأة أن تسمح لنفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتماداً على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأة بتعدد الأزواج أمراً منطقياً، في حين أنّه بالنسبة للرجال - ضمن الشروط المذكورة سابقاً - أمر منطقي، وعملي أيضاً.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

التّفسير

«النِّحلة» في اللغة تعني الدّين، كما أنّها بمعنى العطية أيضاً، يقول الرّاغب الأصفهاني في مفرداته: «واشتقاقه فيما أرى أنّه من النحل نظراً منه إلى فعله فكأن نحلته أعطيته النحل».

و«صدقاتهن» جمع الصداق وهي بمعنى المهر...

والآية الحاضرة التي جاءت بعد البحث المطروح في الآية السابقة حول انتخاب

الزّوجة تتضمن إشارة إلى أحد حقوق النساء المسلّم بها، وتؤكّد قائلة: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي أعطوا المهر للزوجة كاملاً واهتموا بذلك كما تهتمون بما عليكم من ديون فتؤدونها كاملة دون نقص (وفي هذه الصورة نكون قد أخذنا لفظة النّحلة بمعنى الدّين).

وأمّا إذا أخذنا لفظة النِّحلة بمعنى العطية والهبة فيكون تفسير الآية المذكورة بالنحو التالي: «أعطوا النساء كامل مهرهنّ الذي هو عطية من الله لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر في المجتمع وينجبر بهذا الأمر ما فيهنّ من ضعف جسمي نِسبي».

ثمّ بعد أن يأمر الله سبحانه - بصراحة - في مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهورهن كاملة ودون نقصان حفظاً لحقوقهنّ، يعمد في ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه احترام مشاعر كلا الطرفين، ومن شأنه تقوية أواصر الودّ والمحبّة والعلاقة القلبية، وكسب العواطف إذ يقول: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي لو تنازلت الزوجة عن شيء من المهر ووهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، وإنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا تكون البيئة العائلية والحياة الزوجية ميداناً لسلسلة من القوانين والمقررات الجافة، بل يكون مسرحاً للتلاقي العاطفي الإنساني، وتسير المحبّة في هذه الحياة جنباً إلى جنب مع المقررات والأحكام الحقوقية المذكورة.

الصّداق دعامة اجتماعية للمرأة

لمّا كانت المرأة - في العصر الجاهلي - لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها - الذي هو حقها المسلّم به - إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، ويعتبرونه حقّاً مشروعاً لهم لا لها، وربّما جعلوا التزوج بامرأة صداقاً لامرأة أُخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، فيكون هذا صداق الزوجتين.

ولقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد والأعراف الظالمة، واعتبر الصداق حقّاً مسلّماً به خاصاً بالمرأة، وأوصى الرجال مرّات عديدة وفي آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق لها.

على أنّه ليس للصداق حدّ معين في الإسلام، فهو أمر يتبع اتفاق الزوجين، وإن تأكد في روايات كثيرة على التخفيف في المهور، ولكن هذا ليس حكماً إلزامياً، بل هو أمر مستحب.

وها هنا يُثار هذا السؤال، وهو إذا كان الرجل والمرأة يستفيدان من الزواج بشكل متساوٍ، وكانت رابطة الزوجية قائمة على أساس مصالح الطرفين فلماذا يجب على الرجل أن يدفع مبلغاً - قليلاً أو كثيراً - إلى المرأة بعنوان الصداق والمهر؟ ثمّ ألا ينطوي هذا الأمر على إساءة إلى شخصية المرأة، ألا يسبغ هذا الأمر صبغة البيع والشراء على مشروع الزواج؟

إنّ هذه الأُمور هي التي تدفع بالبعض إلى أن يعارضوا بشدّة مبدأ المهر ومسألة الصداق، ويقوي هذا الاتجاه لدى المتغربين خاصّة ما يجدونه من عدم الأخذ بهذا المبدأ في الزيجات الغربية، في حين أن حذف الصداق والمهر من مشروع الزواج ليس من شأنه رفع شخصية المرأة فقط، بل يعرض وضعها للخطر.

وتوضيح ذلك هو أنّه صحيح أنّ المرأة والرجل يستفيدان من مشروع الزواج، وإقامة الحياة الزوجية على قدم المساواة، ولكن لا يمكن إنكار أنّ الأكثر تضرراً لدى افتراق الزوج عن زوجته هو المرأة، وذلك:

أوّلاً: إنّ الرجل - بحكم قابلياته الجسدية الخاصّة - يمتلك - عادة - سلطاناً ونفوذاً وفرصاً أكثر في المجتمع، وهذه هي حقيقة ساطعة مهما حاول البعض إنكارها عند الحديث حول المرأة، ولكن الوضع الاجتماعي وحياة البشر - حتى في المجتمعات الغربية والأوروبية التي تحظى فيها النساء بما يسمّى بالحرّية الكاملة ترينا بوضوح - وكما هو مشهود للجميع - أنّ الفرص وأزمّة الأعمال المربحة جدّاً هي في الأغلب في أيدي الرجال.

هذا مضافاً إلى أنّ أمام الرجال إمكانيات أكثر لاختيار الزوجات، وإقامة حياة عائلية جديدة، بينما لا تتوفر مثل هذه الإمكانيات للمرأة، فإن النساء الثيّبات - خاصّة تلك اللاتي يصبن بهذه الحالة بعد مضي شطر من أعمارهنّ، وفقدان شبابهنّ وجمالهنّ - يمتلكن فرصاً أقل للحصول على أزواج لهنّ.

بملاحظة هذه النقاط يتضح أنّ الإمكانات التي تخسرها المرأة بالزواج أكثر من الإمكانات التي يفقدها الرجل بذلك، ويكون الصداق والمهر - في الحقيقة - بمثابة التعويض عن الخسارة التي تلحق بالمرأة، ووسيلة لضمان حياتها المستقبلية، هذا مضافاً إلى أنّ المهر والصداق خير وسيلة رادعة تردع الرجل عن التفكير في الطلاق والافتراق.

صحيح أنّ المهر - في نظر القوانين الإسلامية - يتعلق بذمّة الرجل من لحظة انعقاد الرابطة الزوجية وقيامها بين الرجل والمرأة، ويحق للمرأة المطالبة به فوراً، ولكن حيث إنّ الغالب هو أن يتخذ الصداق صفة الدَّين المتعلق في الذّمة فيكون ذلك بمثابة توفير للمرأة تستفيد منه في مستقبلها، كما يعتبر خير دعامة لحفظ حقوقها، إلى جانب أنّه يساعد على حفظ الرابطة الزوجية من التبعثر والتمزّق (طبعاً هناك استثناءات لهذا الموضوع، ولكن ما ذكرناه صادق في أغلب الموارد).

وأمّا تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطىء، واعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأنّ الإسلام لا يعطي للصداق الذي يقدمه الرجل للمرأة صفة الثمن كما لا يعطي المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع والشراء، وأفضل دليل على ذلك صيغة عقد الزواج الذي يعتبر فيه الرجل والمرأة كركنين أساسيين في الرابطة الزوجية، في حين يقع الصداق والمهر على هامش هذا العقد، ويعتبر أمراً إضافياً، بدليل صحّة العقد إذا لم يرد اسم المهر فيه، وليس كذلك في صيغة البيع والشراء وغير ذلك من المعاملات المالية إذ بدون ذكر الثمن تبطل هذه المعاملات (طبعاً لا بدّ من الانتباه إلى أن على الزوج - إذا لم يذكر الصداق ضمن عقد الزواج - أن يدفع للمرأة مهر المثل في صورة الدخول بها).

من كلّ ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، وبمثابة الدعامة القوية التي تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، ولعل التعبير بالنِّحلة التي هي بمعنى العطية في الآية إشارة إلى هذه النقطة.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

التفسير

الآيات الحاضرة تكملة للأبحاث المرتبطة باليتامى، التي مرّت في الآيات السّابقة.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ بل انتظروا رشدهم، ونضجهم في المسائل الاقتصادية لكي لا تتعرض أموالكم للتلف والفناء.

من هو السّفيه؟

قال الرّاغب في المفردات: «السّفه خفّة في البدن (يحصل بسببها عدم التوازن في المشي) ومنه قيل زمام سفيه أي كثير الاضطراب، واستعمل في خفّة النفس لنقصان العقل في الأُمور الدّنيوية، والأُخروية».

ولكن من الواضح أنّ المراد من السّفه في الآية الحاضرة هو عدم الرشد اللازم في الأُمور الاقتصادية بحيث لا يستطيع الشخص تدبير شؤونه الاقتصادية وإصلاح ماله على الوجه الصحيح، ولا يتمكن من ضمان منافعه في المبادلات والمعاملات المالية، أي أنّه عرضة للغبن والضرر، ويدل على هذا المعنى ما جاء في الآية الثانية إذ يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

وعلى هذا الأساس فإنّ الآية الحاضرة وإن كانت تبحث حول اليتامى، لكنّها تتضمّن حكماً كلياً وقانوناً عامّاً لجميع الموارد، وهو أنّه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يعطي أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الارتباط، إليه إذا كان سفيهاً غير رشيد، ولا فرق في هذا الحكم بين الأموال الخاصّة والأموال العامّة (وهي أموال الحكومة الإسلامية) ويشهد على هذا الموضوع - مضافاً إلى سعة مفهوم الآية وخاصّة كلمة «السّفيه» - روايات منقولة عن أئمّة الدين في هذا الصدد.

ففي رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام نقرأ أنّ شخصاً يدعى إبراهيم بن عبد الحميد يقول: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: «**كلّ من يشرب المسكر فهو سفيه**[1] **فلا تعطوهم أموالكم**».

وفي رواية أُخرى نجد النهي عن اختيار شارب الخمر لجعله أميناً على الأموال.

وخلاصة القول أنّنا نجد توصيف شارب الخمر بالسفه في أحاديث كثيرة وموارد متعددة، وهذا التعبير إنّما هو لأنّ شارب الخمر فقد رأس ماله المادي ورأس ماله المعنوي، وأي سفه أشدّ من أن يعطي الإنسان ماله، وعقله أيضاً، ويبتاع الجنون... ويضحي في هذا السبيل بكل طاقاته البدنية والروحية، ويتسبب بأضرار اجتماعية كثيرة وكبيرة.

(١) تفسير البرهان، ج ١، في ذيل هذه الآية مورد البحث، ؛ وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣٦٨.

ثمّ إنّنا نلاحظ أن رواية أُخرى تصف كلّ من لا يوثق به بالسفيه، وتنهى عن تسليم الأموال الخاصّة والعامّة إليه، فعن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: «ولا تؤتوا السّفهاء أموالكم» قال: «من لا تثق به»(١).

ومن هذه الرّوايات يتبيّن أنّ للفظة السفيه معنى واسعاً، وأنّ النهي يشمل تسليم الأموال الخاصّة والعامّة إليه، غاية ما في الأمر أن هذا النهي يكون في بعض الموارد نهي تحريم، وفي بعض الموارد الأُخرى التي لا تشتد فيها درجة السفه يكون نهي كراهة.

وهنا يأتي سؤال وهو: إذا كانت هذه الآية في مورد أموال اليتامى فلماذا قال تعالى: «أموالكم» ولم يقل «أموالهم»؟

يمكن أن تكون النكتة والسرّ في هذا التعبير، بيان مسألة اجتماعية واقتصادية مهمّة في المقام وهي أنّ الإسلام يعتبر الأفراد في المجتمع بمثابة فرد واحد بحيث لا يمكن أن تنفصل مصالح الفرد عن مصالح الآخرين، وهكذا تكون خسارة فرد عين خسارة الآخرين، ولهذا السبب أتى القرآن في هذا المقام بضمير المخاطب بدل ضمير الغائب إذ قال: «أموالكم» ولم يقل «أموالهم»، يعني أنّ هذه الأموال - في الحقيقة - ليست مرتبطة باليتامى فقط، بل هي مرتبطة بكم أيضاً، فإذا لحق بها ضرر، يكون ذلك الضرر قد لحق بكم بصورة غير مباشرة أيضاً، ولهذا يجب أن تحرصوا في حفظها كل الحرص.

ثمّ إنّ هناك تفسيراً آخر لهذا التعبير وهو أن المقصود من «أموالكم»، هو أموال نفس الأولياء لا أموال اليتامى، فيكون المعنى إذا أردتم مساعدة الأيتام الذين لم يرشدوا ربّما أعطيتموهم شيئاً من أموالكم - تحت تأثير العاطفة والإشفاق - واخترتموهم لبعض الأعمال التي لا يقدرون عليها. فلا تفعلوا ذلك، بل عليكم أن تعملوا شيئاً آخر مكان هذا العمل غير العقلائي، وهو أن تقوموا بالإنفاق على مأكلهم وملبسهم ومسكنهم حتى يبلغوا سن الرشد، فإذا بلغوا هذه المرتبة، وحصلت لديهم البصيرة الكافية أعطوهم ما شئتم، وانتخبوهم لما تريدون من الأعمال.

وهذا في الواقع درس اجتماعي كبير يُعلمه القرآن لنا حيث ينهانا عن تكليف اليتامى بأعمال لا يقدرون عليها، وذلك بدافع مساعدتهم وتحت تأثير الإشفاق والعاطفة، لأنّ

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ذيل الآية المبحوثة وهكذا في تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٤٢.

هذه الأعمال وإن كانت تنطوي على بعض الأرباح القليلة، ولكنّها من الممكن أن تجرّ على المجتمع أضراراً وويلات كبيرة، فلابدّ إذن من إدارة أُمور هذه الطائفة من المجتمع عن طريق تقديم الهبات لهم أو تشغيلهم في أُمور سهلة وصغيرة.

من هنا يتّضح أنّ بعض قاصري النظر يختارون الضعفاء والقصّر لبعض المسؤوليات التبليغية والدينية رفقاً بهم وإشفاقاً عليهم، وهذا لا شك من أضرّ الأعمال، وأكثرها بعداً عن العقل والمنطق الصحيح.

أموالكم قوام لكم

ثمّ إنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكورة في مطلع الآية الحاضرة بقوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ هو تعبير جميل ورائع جدّاً عن الأموال والثّروات، فهي قوام حياة الناس والمجتمع، وبدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء والمسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها، بل ربّما أفسدوها وأتلفوها وألحقوا بسبب ذلك أضراراً كبيرة بالمجتمع.

ومن هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالأُمور والشؤون الاقتصادية والمالية، وعلى العكس نقرأ في الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم إنّه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات»[1] في حين يرى الإسلام أنّ الأُمّة الفقيرة لا تستطيع أبداً الوقوف على قدميها. وإنّه لعجيب أن نرى تلك الطائفة بلغت ما بلغت من المراتب في عالمنا الراهن في حقل التقدم الاقتصادي مع ما هم عليه من التعاليم الخاطئة، في حين نعاني نحن من هذا الوضع المأساوي مع ما نملك من التعاليم الحيوية العظيمة.

غير أنّه لا داعي للعجب، فهم تركوا تلك الخرافات والأضاليل - في الحقيقة - فوصلوا إلى ما وصلوا إليه، بينما تركنا نحن هذه التعاليم الراقية، فوقعنا في هذه الحيرة وهذا التخلف.

تعليمان في شأن اليتامى

ثمّ إنّ الله سبحانه يأمر - في شأن اليتامى - بأمرين مهمين هما:

أوّلاً: رزق اليتامى وكسوتهم من أموالهم حتى يبلغوا سن الرشد إذ يقول: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

(١) إنجيل متى الإصحاح، ١٩ - ٢٣.

والجدير بالنظر هو أنّ الله تعالى عبّر في هذه الآية بلفظة «فيها» أي في أموال اليتامى لا «منها» أي من أموالهم، إذ المفهوم من هذا التعبير هو أن تدبير شؤون اليتامى والإنفاق عليهم يجب أن يتمّ من أرباح أموالهم، إذ لو قال سبحانه: وارزقوهم منها لفهم من ذلك أنّ على الولي أن يقتطع من أصل أموالهم شيئاً فشيئاً، وهذا يعني أن يفقد اليتامى شيئاً كبيراً من أموالهم حينما يبلغون ويصلون إلى سن الرشد، ولكن القرآن الكريم باستبداله لفظة «منها» بلفظة «فيها» يكون قد أوصى أولياء اليتامى بأن يحرصوا كلّ الحرص على أموال اليتامى، ويحاولوا الإنفاق عليهم من أرباح رؤوس أموالهم وذلك باسترباح هذه الأموال واستثمارها ولو بقدر نفقات اليتامى كيما تبقى هذه الأموال على حالها حين بلوغهم سن الرشد.

ثانياً: مخاطبة اليتامى والتكلم معهم بقول طيب ورقيق إذ قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وذلك لإزالة ما يشعر به اليتامى من نقصان روحي وعُقد نفسية، فيساعدون بذلك على ترشيدهم وبلوغهم حدّ الرشد العقلي، وبهذا يكون بناء شخصية اليتيم وترشيده عقلياً من وظائف الأولياء ومسؤولياتهم أيضاً.

تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم

ها هنا تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم، إذ يقول سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ فإذا بلغوا سن الرشد الذي آنستم فيه قدرتهم على إدارة أموالهم والتصرف فيها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وها هنا نقاط لابدّ من الالتفات إليها.

١ - إنّه يستفاد من التعبير بـ«حتى» أنّه يجب اختبار اليتامى قبل بلوغ سنّ النكاح، وأن يتمّ هذا الأمر بصورة مستمرة ومتكررة حتى يعرف بلوغهم حدّ النكاح ويتبيّن أنّهم بلغوا الحدّ اللازم من الرشد العقلي لإدارة الأُمور المالية على الوجه الصحيح.

كما أنّه يستفاد - ضمناً - أنّ المراد من الاختبار والابتلاء هو التربية التدريجية والمستمرة لليتامى، وهذا يعني أن لا تتركوا اليتامى وتهملوهم حتى يبلغوا سن الرشد ثمّ تعمدوا إلى إعطائهم أموالهم، بل لابدّ أن تهيّئوهم - قبل البلوغ - للحياة المستقلة وذلك بالبرامج التربوية العَملية.

وأمّا كيف يمكن اختبار اليتيم فطريقه أن يعطى مقداراً من المال، فيتّجر به ويشتري ويبيع مع نظارة الولي بنحو لا يسلب اليتيم استقلاله فإذا تبيّن أنّه قادر على الإتجار

والتعامل كما ينبغي ومن دون أن يغبن، وجب تسليم أمواله إليه وإلاّ فلابدّ أن تستمر تربيته وإعداده حتى يبلغ تلك الدرجة التي يستطيع فيها أن يستقل بإدارة شؤونه وتدبير معيشته، وأخذ زمام حياته المستقبلية بيده.

٢ - إنّ التعبير بجملة ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ إشارة إلى أنّ الرشد المطلوب هو أن يبلغ اليتيم درجة القدرة على الزواج، وواضح أنّ الذي يقدر على الزواج لابدّ أنّه يقدر على تشكيل عائلة، ولا شك أنّ الإنسان بدون امتلاكه لرأس مال لا يتوصل إلى أهدافه، ولهذا فإنّ بداية الحياة العائلية تتزامن مع بداية الحياة الاقتصادية المستقلة.

وبعبارة أُخرى إنّ الثروة لا تعطى لهم إلاّ عندما يصلون إلى البلوغ الجسمي، فيحتاجون إلى المال بشدّة ويصلون إلى البلوغ الفكري، ويتمكنون من المحافظة على أموالهم في وقت واحد.

٣ - إنّ التعبير بجملة ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ إشارة إلى أنّه يجب أن يتأكد من رشدهم، لأنّ الإيناس بمعنى المشاهدة والرؤية وهذه المادة مشتقة من مادة «الإنسان» الذي من معانيه ناظر العين وعدستها التي بها تبصر (والرؤية إنّما تتمّ بالاستعانة بإنسان العين - في الحقيقة - ولهذا عبّر عن المشاهدة بالإيناس).

ثمّ إنّه سبحانه قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ وهو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بل أن يحافظوا على أموال اليتامى ولا يتلفوها أبداً.

ثمّ إنّه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وبهذا أذن الله تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب في حفظها، وحراستها، على أن يراعوا جانب العدل والإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الأُجرة، هذا إذا كان الولي فقيراً، أما إذا كان غنياً فلا يأخذ من مال اليتيم شيئاً أبداً.

وقد وردت في هذا الصدد كذلك روايات توضح وتبيّن ما أشير إليه من مضمون الآية.

ومن هذه الأحاديث ما روي عن الإمام الصّادق عليه السلام إذ قال: «فذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم أموالهم فإن كان المال قليلاً (ولا يستغرق ذلك وقتاً كبيراً طبعاً) فلا يأكل منه شيئاً»[1].

(١) البرهان، ج ١، ص ٣٤٤، الحديث ٩. أصول الكافي، ج ٥، ص ١٣٠؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص٢٢١.

ثمّ يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ لكي لا يبقى أي مجال للاتهام والتنازع، وهذا آخر حكم في شأن الأولياء واليتامى جاء ذكره في هذه الآية.

واعلموا أنّ الحسيب الواقعي هو الله تعالى، والأهم من ذلك هو أنّ حسابكم جميعاً عنده ولا يخفى عليه شيء أبداً ولا يفوته صغير ولا كبير فإذا بدرت منكم خيانة خفيت على الشهود فإنّه سبحانه سيحصيها عليكم، وسوف يحاسبكم عليها ويؤاخذكم بها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

سبب النّزول

كانت العرب في الجاهلية تورث الذكور دون الإناث، وكانوا يعتقدون أنّه لا يرث من لا يطاعن بالرماح ولا يقدر على حمل السلاح، ولا يذود عن الحريم والمال، ولهذا كانوا يحرمون النساء والأطفال من الإرث، ويورثون الرجال الأباعد، ولو كان من الورثة من هو أقرب منهم.

حتى إذا مات أنصاري يدعى «أوس بن ثابت» وقد ترك صغاراً من بنات وأولاد، فاقتسم ابنا عمومته خالد وعرفجة أمواله بينهما ولم يورثا زوجته وأولاده الصغار من تركته أبداً، فشكت زوجته إلى النّبي ﷺ، ولم يكن في ذلك حكم إلى ذلك الحين، فنزلت هذه الآية فاستدعى رسول الله ﷺ ذينك الشخصين، وأمرهما بأن لا يتصرفا في أموال الأنصاري، وأن يتركا تلك الأموال إلى ورثة الميت من الطبقة الأُولى وهم زوجته وأولاده، بانتظار أن تنزل آيات أُخرى توضح كيفية تقسيمها بين هؤلاء الورثة(١).

التّفسير

خطوة أُخرى لحفظ حقوق المرأة

هذه الآية - في الحقيقة - خطوة أُخرى على طريق مكافحة العادات والأعراف الخاطئة التي تؤدّي إلى حرمان الأطفال والنساء من حقوقهم المشروعة الطبيعية، وعلى

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ١٢٢؛ وتفسير القرطبي، ج ٥، ص ٤٥.

هذا الأساس تكون هذه الآية مكملة للأبحاث التي مرّت في الآيات السابقة، لأن العرب الجاهليين كانوا - حسب تقاليدهم وأعرافهم الظالمة - يمنعون النساء والصغار من حق الإرث، ولا يسهمون لهم من المواريث، فأبطلت هذه الآية هذا التقليد الخاطىء الظالم إذ قال سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

ثمّ قال سبحانه في ختام هذه الآية بغية التأكيد على الموضوع ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد في هذا المجال.

ثمّ إنّ الآية الحاضرة - كما هو ملاحظ - تذكر حكماً عامّاً، وشاملاً لجميع الموارد، ولهذا فإن ما يتصوره البعض من أنّ الأنبياء لا يورثون، أي إنّهم إذا تركوا شيئاً من ثروة ومال لم يرثهم أقرباؤهم، خلاف الآية (طبعاً المقصود من الأموال التي يتركها النّبي ﷺ هي تلك الأموال الخاصّة به، وأمّا الأموال المتعلقة ببيت المال الذي هو من حق المسلمين عامّة، فالحكم الإسلامي فيها هو صرفها في مواردها).

كما أنّه يتبيّن من إطلاق الآية الحاضرة والآيات الأُخرى التي تأتي في ما بعد حول الإرث أنّ القول بالتعصيب (وهو إعطاء شيء من التركة إلى عصبة الميت وهم من ينتسبون إليه من طرف الأب، وذلك في بعض الموارد كما يذهب إليه علماء السنة) يخالف هو أيضاً ما جاء به القرآن الكريم من تعاليم في مجال الإرث، لأن ذلك يستلزم حرمان النساء من الميراث في بعض الموارد، وهذا ضرب من التمييز الجاهلي الذي رفضه الإسلام وأبطله بالآية الحاضرة والآيات المشابهة لها.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

التّفسير

حكم أخلاقي

نزلت الآية الحاضرة بعد قانون تقسيم الإرث حتماً إذ تقول: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وعلى هذا الأساس يتضمّن محتوى هذه الآية حكماً أخلاقياً استحبابياً في شأن

طبقات محجوبة عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث، فالآية تقول: إذا حضر مجلس تقسيم الإرث جماعة من الأقرباء من الطبقة الثانية والثالثة، وكذا بعض اليتامى والمساكين فارزقوهم من الإرث، وبهذا تكونون قد منعتم من تحرك شعور الحسد والبغضاء لدى من يمكن أن يثور لديهم ذلك الشعور بسبب حرمانهم من الإرث، ولا شك أنّ هذا العمل من شأنه أن يقوي أواصر القرابة الإنسانية بينكم.

إنّ كلمتي «اليتامى» و«المساكين» وإن ذكرتا بنحو مطلق في هذه الآية، غير أنّ الظاهر أنّ المراد منهما هم اليتامى والمساكين من قربى الميت، لأنّ الأقرب يحجب - في قانون الإرث - الأبعد من الإرث، وعلى هذا فلو حضر أحد من هذه الطبقات قسمة الميراث فإنّه ينبغي أن يعطيه الورثة شيئاً من الميراث هدية (يتوقف مقدارها على إرادة الوراث على أن يكون ذلك من مال الورثة الكبار دون الصغار).

هذا ويحتمل جماعة من المفسرين أن يكون المراد من اليتامى والمساكين في هذه الآية مطلق اليتامى والمساكين سواءً أكانوا من قرابة الميت أم لا، ولكن هذا الاحتمال يبدو بعيداً في النظر، لأنّ الأجانب ليس لهم طريق إلى المجالس العائلية غالباً.

كما أنّه يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية تتضمن حكماً وجوبياً لا استحبابياً، بيد أنّ هذا الأمر فيها لو كان على نحو الوجوب، لوجب تعيين وتحديد ما يلزم إعطاؤه لهاتين الطائفتين، في حين ترك الأمر فيه إلى إرادة الورثة.

ثمّ إنّه سبحانه يختم هذه الآية بدستور أخلاقي إذ يقول: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني أنّه مضافاً إلى تقديم مساعدة مادية لهؤلاء اشفعوا ذلك بموقف أخلاقي واستفيدوا من المعنى الإنساني لكسب مودّتهم، وحتى لا يبقى في قلوبهم أي شعور عدائي تجاهكم، وهذا الدستور علامة أُخرى ودليل آخر على أن الأمر بإعطاء شيء من الميراث إلى اليتامى والمساكين إنّما هو على نحو الندب لا الوجوب.

من كل ما ذكرناه اتّضح أنّه لا مبرر أبداً لأن يقال إنّ الحكم المذكور في هذه الآية منسوخ بالآيات التي تعين السهام في الإرث، لعدم وجود أية منافاة وتعارض بين هذه الآية وتلك الآيات المحددة للأسهم.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾

التّفسير

دعوة إلى العطف على اليتامى

يشير القرآن الكريم - بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبة لليتامى - إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً، وتلك الحقيقة هي أنّ على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحبّ أن يعامل الناس يتاماه.

تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم يعيشون تحت كفالة شخص قاسي القلب خائن لا يرعى مشاعرهم، كما لا يراعي جانب العدالة في حقّهم.

أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم، كم يؤلمكم ويحزنكم ذلك؟ هل تحبّون مثل ذلك لأبنائكم الصغار من بعدكم؟ كلا حتماً، فكما تحبّون ورثتكم فأحبّوا ورثة غيركم ويتاماهم، واحزنوا لما يحزنهم.

وعلى هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ هو أنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة في شؤون اليتامى ويخافوا مغبة إيذائهم.

وأساساً: إنّ القضايا الاجتماعية تنتقل في شكل سنّة من السنن - من اليوم إلى الغد، ومن الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يُروّجون في المجتمع سنّة ظالمة مثل إيذاء اليتامى فإنّ ذلك سيكون سبباً لسريان هذه السنّة على أولادهم وأبنائهم أيضاً، وعلى هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد آذى يتامى الآخرين وورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده ويتاماه أيضاً.

لهذا وجب أن يتجنّب أولياء اليتامى مخالفة الأحكام الإلهيّة، ويتقوا الله في اليتامى ويقولوا لهم قولاً عدلاً موافقاً للشرع والحق، قولاً ممزوجاً بالعواطف الإنسانية والمشاعر الأخوية، لكي يندمل بذلك ما في قلوب أُولئك من الجراح، وينجبر ما في أفئدتهم من الكسر، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

إنّ هذا التعليم الإسلامي الرفيع المذكور في العبارة السابقة إشارة إلى ناحية نفسية في مجال تربية اليتامى - جديرة بالاهتمام والرعاية، وهي أنّ حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر في الطعام والكساء، بل مراعاة مشاعرهم وأحاسيسهم القلبية هي الأهم، وهي ذات تأثير كبير جدّاً في بناء مستقبلهم، لأنّ الطفل اليتيم إنسان كغيره، يجب أن يحصل على

غذائه اللازم من الناحية العاطفية، فيجب أن يحظى بالحنو والرعاية كما يحظى بذلك أي طفل آخر في حضن أبيه وأُمّه، أنّه ليس «حملاً» يخرج مع القطيع للرعي عند الصباح، ويعود عند الغروب، بل هو إنسان يجب - مضافاً إلى الرعاية الجسدية - أن يحظى بالرعاية الروحية، والعناية العاطفية، وإلاّ نشأ قاسياً مهزوماً، عديم الشخصية، بل وحاقداً خطيراً.

إيضاح ضروري

عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام مبتدئاً: «من ظلم سلّط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه، قال (أي الراوي) فذكرت في نفسي فقلت: يظلم (و) هو يتسلط على عقبه وعقب عقبه؟ فقال لي قبل أن أتكلم: إن الله يقول: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾»(١).

إنّ السؤال الذي خالج ذهن الراوي يخالج أذهان كثيرين، فيتساءلون: كيف يحمل الباري تعالى جزاء شخص على شخص آخر، بل وماذا فعل أبناء العاصي حتى يبتلوا بمن يظلمهم، ويتحملوا وزر ما جناه والدهم؟

إنّ جواب هذا السؤال يتضح من الإيضاح الذي ذكر في الحديث السابق وهو أنّ ما يرتكبه الأشخاص في المجتمع من أعمال تتخذ شكل السنّة شيئاً فشيئاً، وينتقل إلى الأجيال اللاحقة، وعلى هذا الأساس فإنّ الذين يظلمون اليتامى في المجتمع، ويرسون قواعد هذا السلوك الظالم سيصاب أبناؤهم بلهيب هذه البدعة يوماً ما أيضاً، ويعدّ هذا في الحقيقة أحد الآثار الوضعية التكوينية لمثل هذا العمل، وأمّا نسبته إلى الله فهي لأجل أنّ جميع الآثار التكوينية وكل خواص العلّة والمعلول منسوبة إلى الله ومستندة إليه تعالى، ولا يظلم ربّك أحداً أبداً.

خلاصة القول: إذا ساد الظلم في المجتمع فإنّه سوف يسري ويصيب الظالم وأولاده أيضاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٤٦؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٩٨.

التّفسير

الوجه الحقيقي لأفعال البشر

لقد ذكرنا في مطلع هذه السّورة أن آيات هذه السورة نزلت لبناء مجتمع صالح وسليم، ولهذا تسعى آياتها في تطهير المجتمع من الرواسب الجاهلية وما تبقّى في نفوس بعض المسلمين الحديثي العهد بالإسلام من العادات السيئة أوّلاً، لتتهيأ الأرضية لإقامة ذلك المجتمع الصالح المنشود.

وأية عادة ترى أقبح من أكل أموال اليتامى؟ ولهذا ابتدأت هذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصرف في أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع، وغير صحيح، والآية الحاضرة هي أوضح هذه العبارات.

تقول هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

ولقد ورد نظير هذه العبارة في موضع آخر من القرآن الكريم وذلك في شأن الذين يكتمون الحق، ويحرفون الكلم عن مواضعه لتحقيق بعض المكاسب المادية الشخصية إذ يقول سبحانه عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾(١).

ثمّ إنّه سبحانه يقول في بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

و«يصلى» من «الصليّ» بمعنى الدخول في النار والاحتراق بلهيبها، وأمّا «السعير» فبمعنى النار المشتعلة.

ويقصد القرآن من هذه الجملة أنّ الذين يأكلون أموال اليتامى مضافاً إلى أنّهم يأكلون النار - في الحقيقة - في هذه الدنيا، سيدخلون عمّا قريب ناراً مشتعلة الأوار وحارقة اللّهب في الدار الآخرة.

ويستفاد من هذه الآية أنّ لأعمالنا مضافاً إلى وجهها الظاهري وجهاً واقعياً أيضاً، وجهاً مستوراً عنّا في هذه الدنيا، لا نراه بعيوننا هنا، ولكنّه يظهر في العالم الآخر، وهذا الأمر يعبِّر عن مسألة تجسّم الأعمال المطروحة في المعتقدات الإسلامية.

إنّ القرآن يصرح في هذه الآية بأنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً وجوراً، وإن كان

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

الوجه الظاهري لفعلهم هذا هو الأكل من الأطعمة اللذيذة الملونة، ولكن الوجه الواقعي لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة، وهذا الوجه هو الذي يظهر ويتجلّى على حقيقته في عالم الآخرة.

إنّ بين الوجه الواقعي للعمل والكيفية الظاهرية للعمل تناسباً وتشابهاً دائماً، فكما أنّ أكل مال اليتيم وغصب حقوقه يحرق فؤاد اليتيم، ويؤذي روحه، فكذا يكون الوجه الواقعي للعمل ناراً محرقة.

إنّ الانتباه إلى هذا الأمر (أي الوجه الحقيقي الواقعي لكل عمل) خير رادع للذين يؤمنون بهذه الحقائق، كيما لا يرتكبوا المعاصي ولا يقترفوا الذنوب، فهل يوجد ثمّة من يحب أن يأخذ بيديه قبسات من النار، ويضعها في فمه ويبتلعها؟

إنّه من غير الممكن - والحال هذه - أن يقدم المؤمنون على أكل مال اليتيم ظلماً، ولو أنّنا وجدنا ثمّة من لا يقدم على هذا الفعل، بل ولا يفكر في المعصية أبداً (كالأولياء)، فلأنّهم يرون - بفضل ما لديهم من الإيمان والعلم، وما حصلوا عليه من تربية خلقية - حقائق الأفعال البشرية ووجوهها الواقعية، فلا يفكرون في اقتراف هذه الأعمال السيئة، فضلاً عن الهمّ باقترافها.

إنّ الطفل الجاهل هو الذي يمكن أن يسحره ويجذبه جمال الجذوات المتّقدة وألسنة اللهب المندفعة منها فيمد يده إليها، ولكن الإنسان العاقل الذي جرّب حرارة النار وذاق ألمها، كيف يمكن أن يفكر يوماً في ذلك؟!

هذا ولقد وردت أحاديث كثيرة تنهى بشدّة عن أكل مال اليتيم والعدوان على حقوقه، وتؤكّد على أنّها كبيرة موبقة، بل وتعتبر أبسط الأعمال من هذا النوع مشمولاً بهذا الحكم الصارم وموضوعاً لهذه العقوبة القاسية.

ففي حديث عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليه السلام لما سئل في كم يجب لأكل مال اليتيم من النار؟ قال: في درهمين[1].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ ۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ ۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣١ ذيل الآية مورد البحث.

وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

سبب النّزول

لمّا مات عبد الرحمن بن ثابت الأنصاري أخو حسان بن ثابت الشاعر المعروف في صدر الإسلام وقد خلف امرأة وخمسة إخوان، اقتسم اخوانه ميراثه بينهم ولم يعطوا زوجته شيئاً ممّا تركه من المال، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الحاضرة التي تبيّن وتحدد سهم الأزواج من الإرث بنحو دقيق(١).

كما نقل عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال: مرضت فعادني رسول الله ﷺ فأُغمي عليَّ، فطلب النّبي ماء وتوضأ ببعضه وصب بعضه الآخر علي فأفقت فقلت: يا رسول الله كيف أصنع في مالي (أي كيف يجب أن يكون أمره من بعد وفاتي) فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فنزلت آية المواريث تبيّن نظام الإرث وتحدد أسهم الورثة(٢).

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٤٤٣.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وصحيح البخاري، ج ٧، ص ٤.

الإرث حق طبيعي

قبل أن نعمد إلى تفسير الآيات الحاضرة لابدّ أن نشير إلى عدّة نقاط.

أوّلاً: قد يتصور كثيرون أنّ من الأفضل أن تعود أموال الشخص بعد وفاته إلى الملكية العامّة، وأن تضاف إلى بيت مال المسلمين، ولكن الإمعان في هذا العمل يكشف لنا عن كونه خلاف العدل، لأنّ مسألة الإرث والتوارث مسألة طبيعية منطقية جدّاً، فكما أن الآباء والأمهات ينقلون قسماً من صفاتهم الجسمية والروحية إلى أبنائهم - حسب قانون الوراثة الطبيعي - فلماذا يستثنى من ذلك أموالهم فلا تنتقل إلى أبنائهم؟

هذا مضافاً إلى أنّ الأموال المشروعة هي نتاج جهود الإنسان المضنية، ومساعيه وأتعابه فهي في الحقيقة طاقاته المتجسدة في صورة المال وهيئة الثروة، ولهذا لابدّ من الاعتراف بأنّ كل شخص هو المالك الطبيعي لحاصل جهوده وثمرة أتعابه، وهذا حكم فطري.

وعلى هذا، فعندما يمتنع أن يتصرف الشخص في أمواله بعد وفاته ويحال بينه وبين ثروته بسبب الموت، تصبح هذه الأموال من حق أقرب الناس إليه، والذين يعتبرون - في الحقيقة - بشخصيتهم ووجودهم امتداداً لشخصيته ووجوده.

على هذا الأساس نجد الكثيرين لا يتركون الكد والعمل، والكسب والتجارة حتى آخر لحظة من حياتهم رغم ما يملكون من ثراء طائل، وذلك بغية أن يوفروا لأبنائهم مستقبلاً زاهراً ويضمنوا لهم حياة سعيدة بعدهم، وهذا يعني أنّ الإرث وقانون التوريث قادر على إعطاء العجلة الاقتصادية دفعة قوية ويزيد من حركتها ودورانها ونشاطها، وأمّا إذا عرف الشخص أنّ أمواله بعد موته، لامتناع تصرفه في تلك الأموال بسبب الوفاة تعود إلى الملكية العامة، فإنّه قد يفقد قسطاً كبيراً من نشاطه الاقتصادي، ويصاب بالفتور والكسل.

ويشهد بهذا الأمر ما وقع في فرنسا قبل حين، عندما أقدم مجلس النواب الفرنسي - كما قيل - على إلغاء قانون الإرث قبل مدّة وأقرّ بدل ذلك إلحاق أموال الأشخاص بعد موتهم بخزينة الدولة، وصيرورتها أموالا عامّة، فتؤخذ من قبل الدولة وتصرف في المصارف العامّة بحيث لا يحصل ورثة الميت على أي شيء من التركة، فكان لهذا القانون أثر سيىء وظاهر على الحركة الاقتصادية، فقد لوحظ اختلال كبير في أوضاع التصدير والاستيراد، كما خف النشاط الاقتصادي هناك بشكل ملحوظ، فأقلق ذلك بال

الحكومة، وكان السبب الوحيد وراء هذه الحالة «إلغاء قانون الإرث» ممّا دفع بالدولة إلى إعادة النظر في هذا القرار.

وعلى هذا لا يمكن إنكار أنّ قانون الإرث ومبدأ التوريث مضافاً إلى كونه قانوناً طبيعياً فطرياً، له أثر قوي وعميق في تنشيط الحركة الاقتصادية.

الإرث في الأمم السابقة

لما كان لقانون الإرث جذوراً فطرية فإنّه شوهد وجود الإرث والتوريث في الشعوب والأمم السابقة في أشكال وصور مختلفة.

أمّا بين اليهود - وإن ادّعى البعض عدم وجود مبدأ التوارث عندهم - ولكننا حينما نراجع التوراة نجدها تذكر هذا القانون في سفر الأعداد بصورة صريحة إذ تقول:

وتكلم إسرائيل قائلاً: أيّما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته، وإن لم تكن له ابنة تعطوا ملكه لإخوته، وإن لم يكن له أخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه، وإن لم يكن لأبيه أخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاءً كما أمر الرّب موسى(١) يدور لدى بني إسرائيل.

ويستفاد من هذه العبارات أنّ مبدأ التوارث كان على محور النسب فقط، ولهذا لم يرد ذكر عن سهم الزوجة في الميراث.

وأمّا في الدين النصراني فالمفروض أن يكون مبدأ الإرث المذكور في التوراة معتبراً أيضاً، وذلك لما نقل عن المسيح عليه السلام من أنّه قال: «أنا لم أُبعث لأُغير من أحكام التوراة شيئاً» ولهذا لا نجد في كتابات الفتاوى الدينية أي كلام حول الإرث، نعم ورد في هذه الكتب بعض مشتقات الإرث في بعض الموارد، ولكنها تعني جميعاً الإرث المعنوي الأُخروي.

هذا وقد كان التوارث لدى العرب الجاهليين يتحقق بإحدى هذه الطرق الثلاث:

١ - بالنسب، وكان المقصود منه عندهم الأبناء الذكور والرجال خاصّة، فلا يرث الصغار والنساء أبداً.

٢ - بالتبني، وهو من طرده أهله من الأبناء، فتكفّله وتبناه شخص آخر أو عائلة أُخرى، وفي هذه الصورة يتحقق التوارث بين المتبنى والمتبني له.

---

(١) التوراة، سفر الأعداد الإصحاح السابع والعشرون ص ٢٥٣: آيات ٨ - ١١.

٣ - بالعهد، يعني إذا تعاهد شخصان أن يدافع كل واحد منهما عن الآخر طيلة حياتهما ويرث أحدهما الآخر بعد وفاته، فإنّه يقع التوارث بينهما بعد وفاة أحدهما.

وقد حرّر الإسلام قانون الإرث الطبيعي الفطري مما علق به من الخرافات، ولحق به من رواسب التمييز العنصري الظالم الذي كان يفرق بين الرجل والمرأة حيناً، وبين الكبار والأطفال حيناً آخر، وجعل ملاك التوارث في ثلاثة أُمور لم تكن معروفة إلى ذلك الحين:

١ - النّسب وذلك بمفهومه الوسيع، وهو كل علاقة تنشأ بين الأشخاص بسبب الولادة في مختلف المستويات من دون فرق بين الرجال والنساء والصغار والكبار.

٢ - السبب وهي العلاقات الناشئة بين الأفراد بسبب المصاهرة والتزاوج.

٣ - الولاء وهي العلاقات الناشئة بين شخصين من غير طريق القرابة (السبب والنسب) مثل ولاء العتق، يعني إذا أعتق رجل عبده، ثمّ مات العبد وخلف من بعده مالاً ولم يترك أحداً ممن يرثونه بالسبب أو النسب، ورثه المعتِق، وفي هذا حثّ على التحرير والإعتاق، وكذلك ولاء ضمان الجريرة، وهو أن يركن شخص إلى آخر - لا سبب بينهما ولا نسب - ويتعاهدان أن يضمن كل منهما جناية الآخر ويدافع كل منهما عن الآخر، ويكون إرث كل منهما للآخر، و«ولاء الإمامة» يعني إذا مات أحد ولم يترك من يرثونه ممن ذكر ورثه الإمام عليه السلام، أي إنّ أمواله تنتقل إلى بيت المال الإسلامي، وتصرف في شؤون المسلمين العامّة.

هذا، ولكل واحدة من هذه الطبقات أحكام وشرائط خاصّة مذكورة في الكتب الفقهية مفصلةً.

التّفسير

قال الله تعالى في الآية الأُولى من هذه الآيات ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وهو بذلك يشير إلى حكم الطبقة الأُولى من الورثة (وهم الأولاد والآباء والأُمهات)، ومن البديهي أنّه لا رابطة أقوى وأقرب من رابطة الأُبوّة والبنوة ولهذا قدموا على بقية الورثة من الطبقات الأُخرى.

ثمّ إنّ من الجدير بالاهتمام من ناحية التركيب اللفظي جعل الأُنثى هي الملاك والأصل في تعيين سهم الرجل، أي أنّ سهمها من الإرث هو الأصل، وإرث الذكر هو

الفرع الذي يعرف بالقياس إلى نصيب الأُنثى من الإرث إذ يقول سبحانه: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، وهذا تأكيد على توريث النساء ومكافحة للعادة الجاهلية المعتدية القاضية بحرمانهن من الإرث والميراث، حرماناً كاملاً.

وأمّا فلسفة هذا التفاوت بين سهم الأُنثى والذكر فذلك ما سنتعرض له عمّا قريب إن شاء الله.

ثمّ يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي لو زادت بنات الميت على اثنتين فلهنّ الثلثان أي قسّم الثلثان بينهن.

ثمّ قال ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي لو كانت البنت واحدة ورثت النصف من التركة.

وها هنا سؤال:

القرآن يقول في هذا المجال ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي لو كانت بنات الميت أكثر من بنتين استحققن ثلثي التركة يقسّم بينهن، وهذا يعني أن القرآن ذكر حكم البنت الواحدة، وحكم البنات فوق اثنتين، وسكت عن حكم «البنتين»، فلماذا؟

الجواب:

بملاحظة المقطع الأوّل من الآية الحاضرة يتضح جواب هذا السؤال، ونعني قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، ولو إجمالاً، لأن ورثة الميت إن انحصروا في ابن واحد وبنت واحدة كان للابن الثلثان وللبنت الثلث، فإذا كانتا بنتين كان لهما الثلثان حسب هذه العبارة.

وخلاصة القول: أنّه إذا قال للذكر مثل حظ الأُنثيين وكان أوّل العدد ذكراً وأُنثى للذكر الثلثان وللأُنثى الثلث، عُلِمَ من ذلك أنّ للبنتين الثلثين، ولعل لوضوح هذا الأمر لم تتعرض الآية لبيانه (أي لذكر سهم الأختين) واكتفت بذكر سهم البنات المتعددات فوق اثنتين، وهو الثلثان.

على أن هذا المطلب يتّضح أيضاً بمراجعة الآية الأخيرة من سورة النساء، لأنّها جعلت نصيب الأُخت الواحدة النصف (مثل نصيب البنت الواحدة) ثمّ تقول: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ﴾ فمن هذا يتضح أن سهم البنتين هو الثلثان أيضاً.

هذا مضافاً إلى ورود مثل هذا التعبير في الأدب العربي، إذ يقول العرب أحياناً «فوق اثنتين» ويكون مرادهم «اثنتان فما فوق».

وبغضّ النظر عن كل ما قيل فإنّ الحكم المذكور من الأحكام القطعية المسلَّم بها من وجهة نظر الفقه الإسلامي والأحاديث الشريفة، والرجوع إلى السنة المطهرة (أي الأحاديث) كفيل برفع أي إبهام في الجملة المذكورة إن كان.

لماذا يرث الرّجل ضعف المرأة؟

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضعف ما ترثه المرأة، إلاّ أنّه بالإمعان والتأمل يتّضح أنّ المرأة ترث - في الحقيقة - ضعف ما يرثه الرجل إذا لاحظنا القضية من جانب آخر، وهذا إنّما هو لأجل ما يوليه الإسلام من حماية لحقوق المرأة.

توضيح ذلك: إن هناك وظائف أُنيطت بالرجل (وبالأحرى كلِّف بأدائها تجاه المرأة) تقتضي صرف وإنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأة، في حين لا يجب على المرأة أي شيء من هذا القبيل.

إنّ على الرجل (الزوج) أن يتكفل بنفقات زوجته حسب حاجتها من المسكن والملبس والمأكل والمشرب وغير ذلك من لوازم الحياة كما أنّ عليه أن ينفق على أولاده الصغار أيضاً، في حين أُعفيت المرأة من الإنفاق حتى على نفسها، وعلى هذا يكون في إمكان المرأة أن تدخر كل ما تحصله عن طريق الإرث، وتكون نتيجة ذلك أنّ الرجل يصرف وينفق نصف مدخوله على المرأة، ونصفه فقط على نفسه، في حين يبقى سهم المرأة من الإرث باقياً على حاله.

ولمزيد من التوضيح نلفت نظر القارىء الكريم إلى المثال التالي: لنفترض أنّ مجموع الثروات الموجودة في العالم والتي تقسم تدريجاً - عن طريق الإرث - بين الذكور والإناث هو (٣٠) ميليار دينار، والآن فلنحسب مجموع ما يحصل عليه الرجال ونقيسه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث.

فلنفترض أنّ عدد الرجال والنساء متساوٍ فتكون حصة الرجال (٢٠) ميليارا، وحصة النساء (١٠) ميليارات.

وحيث إنّ النساء يتزوجن - غالباً - فإن الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال، وهذا يعني أن تحتفظ النساء بـ (١٠) ميليارات (وهو سهمهنّ من الإرث)، ويشاركن الرجال في العشرين ميلياراً، لأنّ على الرجال أن يصرفوا من سهمهم على زوجاتهم وأطفالهم.

وعلى هذا يصرف الرجال (١٠) ميليارات على النساء (وهو نصف سهمهم من الإرث) فيكون مجموع ما تحصل عليه النساء ويملكنه هو (٢٠) ميلياراً وهو ثلثا الثروة العالمية في حين لا يعود من الثروة العالمية على الرجال إلاّ (١٠) ميليارات، أي ثلث الثروة العالمية (وهو المقدار الذي يصرفه الرجال على أنفسهم).

وتكون النتيجة أنّ سهم المرأة الذي تصرفه وتستفيد منه وتتملكه واقعاً هو ضعف سهم الرجل، وهذا التفاوت إنّما لكونهنّ أضعف من الرجال على كسب الثروة وتحصيلها (بالجهد والعمل)، وهذا - في حقيقته - حماية منطقية وعادلة قام بها الإسلام للمرأة، وهكذا يتبيّن أنّ سهمها الحقيقي أكثر - في النظام الإسلامي - وإن كان في الظاهر هو النصف.

ومن حسن الصدف أنّنا نقف على هذه النقطة إذا راجعنا التراث الإسلامي حيث إنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بداية الإسلام وخالج بعض الأذهان، فكان الناس يسألون أئمّة الدين عن سرّ ذلك بين حين وآخر، وكانوا يحصلون على إجابات متشابهة في مضمونها - على الأغلب - وهو أنّ الله إذ كلّف الرجال بالإنفاق على النساء وإمهارهنّ، جعل سهمهم أكثر من سهمهنّ(١).

[عن محمد بن سنان] أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه في ما كتب من جواب مسائله: علّة إعطاء النساء نصف ما يعطي الرجال من الميراث: لأنّ المرأة إذا تزوجت أخذت، والرجل يعطى، فلذلك وفّر على الرجال، وعلة أُخرى في إعطاء الذكر مثلي ما تُعطى الأُنثى لأن الأُنثى من عيال الذكر إن احتاجت، وعليه أن يعولها وعليه نفقتها، وليس على المرأة أن تعول الرجل ولا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفّر على الرجال لذلك(٢).

إرث الأب والأُمّ

وأمّا ميراث الآباء والأُمهات الذين هم من الطبقة الأُولى، وفي مصافّ الأبناء أيضاً، فإنّ له كما ذكرت الآية الحاضرة (أي الآية الأُولى من هذه المجموعة) ثلاث حالات هي:

الحالة الأُولى: إنّ الشخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، ورث كل من الأب والأُمّ السدس: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾.

---

(١) أصول الكافي، ج ٧، ص ٨٥، باب علة كيف صار للذكر سهمان وللأنثى سهم.

(٢) البرهان، ج ١، ص ٣٤٧.

الحالة الثّانية: إن لم يكن للمتوفى ولد، وانحصر ورثته في الأب والأُمّ، ورثت الأُمّ ثلث ما ترك، يقول سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وإذا كنّا لا نجد هنا أي ذكر عن سهم الأب فلأنّ سهمه واضح وبيّن وهو الثلثان، هذا مضافاً إلى أنّه قد يخلف الميت زوجة فينقص في هذه الصورة من سهم الأب دون سهم الأم، وبذلك يكون سهم الأب متغيّراً في الحالة الثانية.

الحالة الثالثة: إذا ترك الميت أباً وأُمّاً وإخوة من أبويه أو من أبيه فقط، ولم يترك أولاداً، ففي مثل هذه الحالة ينزل سهم الأم إلى السدس، وذلك لأنّ الإخوة يحجبون الأُم عن إرث المقدار الزائد على السدس وإن كانوا لا يرثون، ولهذا يسمى إخوة الميت بالحاجب، وهذا ما يعنيه قول الله سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

وفلسفة هذا الحكم واضحة، إذ وجود إخوة للميت يثقل كاهل الأب، لأنّ على الأب الإنفاق على إخوة الميت حتى يكبروا، بل عليه أيضاً أن ينفق عليهم بعد أن يكبروا، ولهذا يوجب وجود إخوة للميت من الأبوين أو من الأب خاصّة تدنّي سهم الأُمّ، ولا يوجب تدني سهم الأب، ولا يحجبونها عن إرث ما زاد على السدس إذا كانوا من ناحية الأُمّ خاصّة، إذ لا يجب لهم على والد الميت شيء من النفقات. كما هو واضح.

سؤال:

ويرد هنا سؤال، وهو أنّ القرآن استعمل في المقام صيغة الجمع إذ قال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ ونحن نعلم أن أقل الجمع هو ثلاثة، في حين يذهب جميع الفقهاء إلى أنّ الأخوين يحجبان أيضاً، فكيف التوفيق بينهما؟

الجواب:

إنّ الجواب يتّضح من مراجعة الآيات القرآنية الأُخرى، وإذ لا يلزم أن يكون المراد كلّما استعملت صيغة الجمع، الثلاثة فما فوق، بل استعملت أحياناً على شخصين فقط كما في الآية (٧٨) من سورة الأنبياء ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

والآية ترتبط بقضاء داود وسليمان، وقد استخدم القرآن الكريم ضمير الجمع في شأنهما، فقال «لحكمهم».

ومن هنا يتّضح أنّه قد تستعمل صيغة الجمع في شخصين أيضاً، ولكن هذا يحتاج طبعاً إلى قرينة وشاهد، والشاهد في المقام هو ورود الدليل من أئمّة الدين على ذلك،

وإجماع المسلمين، إذ أجمع فقهاء المسلمين سنة وشيعة (إلاّ ابن عباس) أنّ الحكم المذكور في الآية يشمل الأخوين أيضاً.

الإرث بعد الوصية والدّين

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ فلابدّ من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته، أو أداء ما عليه من دين أوّلاً، ثمّ تقسيم البقيّة بين الورثة.

(وقد ذكرنا في باب الوصية أنّ لكل أحد أن يوصي بأُمور في مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصي بما زاد على ذلك إلاّ أن يأذن الورثة بذلك).

ثمّ قال سبحانه: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ وهذه العبارة تفيد أن قانون الإرث المذكور قد أُرسي على أساس متين من المصالح الواقعية، وأن تشخيص هذه المصالح بيد الله، لأنّ الإنسان يعجز عن تشخيص مصالحه ومفاسده جميعاً، فمن الممكن أن يظن البعض أنّ الآباء والأُمهات أكثر نفعاً لهم، ولذلك فهم أولى بالإرث من الأبناء وأنّ عليه أن يقدمهم عليهم، ومن الممكن أن يظن آخرون العكس، ولو كان أمر قسمة الإرث متروكاً إلى الناس لذهبوا في ذلك ألف مذهب، ولآل الأمر إلى الهرج والمرج والفوضى، وانتهى إلى الاختلاف والتشاجر، ولكن الله الذي يعلم بحقائق الأُمور كما هي أقام قانون الإرث على نظام ثابت يكفل خير البشرية ويضمن صلاحها...

ولأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الأُمور، ويتخذ صفة القانون الذي لا يحتمل الترديد، ولا يكون فيه للناس أي مجال نقاش، يقول سبحانه: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ وبذلك يقطع الطريق على أي نقاش في مجال القوانين المتعلقة بالأسهم في الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض

في الآية السابقة أشير إلى سهم الأولاد والآباء والأُمهات، وفي الآية التي تليها يقول الله سبحانه: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ﴾ ويشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإنّ الزوج يرث نصف ما تتركه الزوجة هذا إذا لم يكن للزوجة ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (ولو من زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تتركه فقط، وإلى هذا يشير تعالى في نفس الآية: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾.

على أن هذا التقسيم يجب أن يتمّ بعد تنفيذ وصايا المتوفاة، أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

وأمّا إرث الزوجة مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (وإن كانوا من زوجة أُخرى) ورثت الزوجة الثمن لقوله سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾.

ويكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾.

على أنّ هذا التقسيم يجب أن يتمّ أيضاً من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركة: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

والملفت للنظر في المقام هو انخفاض أسهم الأزواج إلى النصف إذا كان للميت ولد، وذلك رعاية لحال الأولاد.

وأمّا العلّة لكون سهم الأزواج ضعف سهم الزوجات فهي ما ذكرناه في البحث السابق حول علّة الفرق بين سهم الذكر والأُنثى.

ثمّ إنّ هاهنا نقطة مهمة يجب التنبيه إليها أيضاً، وهي أنّ السهم المعين للنساء (سواء الربع أو الثمن) خاص بمن ترك زوجة واحدة فقط (فإنّها ترث كل الربع أو كل الثمن) وأمّا إذا ترك الميت زوجات متعددة قسم ذلك السهم (الربع أو الثمن) بينهن بالتساوي، وهذا ما يدل عليه ظاهر الآية مورد البحث أيضاً.

إرث إخوة الميت وأخواته:

ثمّ إنّه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض، يعمد إلى ذكر أسهم إخوة الميت وأخواته فيقول: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً...﴾.

وفي هذه العبارة نواجه مصطلحاً جديداً ورد في موضعين من القرآن فقط، أحدهما، في الآية المبحوثة هنا، والثاني، في آخر آية من سورة النساء وهي كلمة «كلالة».

إنّ ما يستفاد من كتب اللغة هو اشتقاق كلالة من الكلال، وهو ذهاب القوّة، فقد جاء في صحاح اللغة: الكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوّة.

ولكنّها استعملت في ما بعد في إخوة الميت وأخواته الذين يرثونه، ولعل التشابه بين المعنى الأوّل والثّاني هو أن الإخوة والأخوات يعتبرون من الطبقة الثانية في طبقات الإرث، وهم لا يرثون إلاّ مع عدم وجود الأب والأُمّ والأولاد للميّت ومثل هذا الفاقد

للأب والأُم والأبناء لابدّ أن يعاني من الضعف الشديد، وذهاب القوّة، ولهذا قيل له كلالة، قال الراغب في كتابه المفردات: «الكلالة اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة».

وروي أنّ النّبي ﷺ سئل عن الكلالة، فقال: من مات وليس له ولد ولاوالد[1]، فجعله اسماً للميت، كلا القولين صحيح[2] فإنّ الكلالة مصدر يجمع الوارث والموروث جميعاً.

وأمّا تعبير القرآن الكريم عن إخوة الميت وأخواته بالكلالة فلعله لأنّ على أمثال هؤلاء ممن عدموا الآباء والأُمهات والأولاد أن يعلموا أنّ أموالهم ستقع من بعدهم في أيدي من يمثلون ضعفه، ويدلون على ذهاب قوتهم، ولذلك ينبغي لهم أن يصرفوها في مواضع أكثر ضرورة ولزوماً، وينفقونها في سبيل المحتاجين وفي حفظ المصالح العامّة.

عودة إلى تفسير الآية

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ أي إن مات رجل ولم يترك إلاّ أخاً أو أُختاً، أو ماتت امرأة ولم تترك سوى أخ أو أُخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أخاً واحداً وأُختاً واحدة.

أمّا إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثاً واحداً، أي قسم مجموع الثلث بينهم: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾.

ثمّ أضاف القرآن: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي تكون قسمة الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثة من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثمّ قال: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث وكذا الدين مضرّاً بالورثة، أي أن لا يكون أكثر من الثلث، لأن تجاوز الوصية أو الدين عن حد الثلث إضرار، كما أنّه يتوقف إمضاء الزائد على الثلث على إذن الورثة ورضاهم بذلك، أو أن يخبر الميت عن ديون كذباً، ليحرم ورثته من الإرث ويضرّ بهم، كما نصت على ذلك روايات كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

---

(١) كنز العمال، ج ١١، ص ٧٨؛ تفسير الميزان، ج ٤، ص ٢١٢.

(٢) والكلالة اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة وقال ابن عباس: هو اسم لمن عدا الولد وروي أن النبي ﷺ سئل عن الكلالة فقال: من مات وليس له ولد ولا والد فجعله اسماً للميت وكلا القولين صحيح، تفسير الميزان، ج ٤، ص ٢١٢.

ثمّ إنّه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي إنّ هذا المطلب وصية من الله يجب أن تحترموها، لأنّه العالم بمصلحتكم وخيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمة، كما أنّه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنه تعالى حليم لا يعاقب العصاة فوراً، ولا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

بحوث أُخرى حول هذه الآية

هذا وتجب الإشارة - هنا - إلى عدّة أُمور:

١ - إنّ ما ورد في الآية السابقة حول إرث الإخوة والأخوات وإن كان في ظاهره مطلقاً يشمل الإخوة والأخوات من الأبوين أو من الأب وحده أو من الأُم وحدها، إلاّ أنّه بملاحظة آخر آية من سورة النساء (التي يأتي تفسيرها قريباً) يتّضح أنّ المراد - هنا - هو الأُخوة والأخوات من جانب الأُم فقط (أي الذين ينتسبون إلى الميّت من جانب الأُم فقط)، في حين أنّ المقصود في الآية الأخيرة من السورة هو الإخوة والأخوات من جانب الأبوين أو من جانب الأب خاصّة (سنتعرض لذكر الأدلة على هذا الأمر عند تفسير الآية الأخيرة من هذه السورة إن شاء الله).

وعلى هذا الأساس فإن الآيتين وإن كانتا حول إرث «الكلالة» (أي إخوة الميّت وأخواته) ويبدو للنظر تعارض الآيتين، إلاّ أن التدبر والإمعان في مضمون الآيتين يكشف لنا أنّ كل واحدة منهما تقصد طائفة خاصّة من إخوة الميت وأخواته، وأنّه لا تعارض بين مفاد الآيتين أبداً.

٢ - من الواضح أنّ هذه الطبقة لا ترث إلا عند فقدان الطبقة الأُولى (وهم الأب والأُم، والأولاد) مطلقاً، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(١) كما تدل عليه روايات متظافرة وردت في هذا الصعيد تعيّن طبقات الإرث، وترجح بعضها على البعض الآخر.

٣ - إنّ لفظة ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ تفيد أنّ إخوة الميت وأخواته أي «الكلالة» إن كانوا أكثر من أخ وأخت يقتسمون الثلث فيما بينهم بالتساوي، من دون فرق بين الذكور والإناث، لأنّ المفهوم من «الشركاء في الثلث» هو تساوي الأسهم.

٤ - يستفاد من الآية المبحوثة أنّه لا يحق للإنسان أن يعترف بديون - كذباً - ليضرّ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

بالورثة ويضيع حقوقهم ويحرمهم من إرثه، إنّه يجب عليه فقط أن يعترف - في آخر فرصة من حياته - بما عليه من الديون واقعاً، كما له أن يوصي بوصايا عادلة عبّر عنها في الروايات بأن تكون في حد «الثلث» وإطاره.

فقد وردت في روايات الأئمّة عليهم السلام - في هذا الصعيد - عبارات شديدة النكير على من يوصي بوصايا مضرّة بالورثة منها قولهم: «إنّ الضرار في الوصية من الكبائر»(١).

إنّ الإسلام الحنيف بسنّه لهذا القانون يكون قد حفظ للميّت نفسه شيئاً من الحق في ماله، إذ يهيىء له إمكانية الاستفادة والانتفاع بمقدار الثلث، كما حفظ حقوق الورثة أيضاً حتى لا ينشأ في أفئدتهم أية ضغينة، وحتى لا تتزعزع وشائج المودّة وروابط القربى التي يجب أن تستمر بعد وفاة المورّث.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾

التّفسير

«الحدود» جمع حدّ، ويعني في أصل اللّغة المنع، ثمّ أُطلق على كلّ حائل وحاجز بين شيئين يفصل بينهما ويميز، فحدّ البيت والبستان والدّولة يراد منه الموضع الذي يفصل هذه النقطة عن غيرها من النقاط الأُخرى.

هذا ولقد بدأت الآية الأُولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التي مرّت في الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي تلك حدود الله التي لا يجوز تجاوزها وتجاهلها لأحد، فإنّ من تعدى هذه الحدود كان عاصياً مذنباً.

وقد وردت هذه العبارة ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وقد جاءت دائماً بعد ذكر سلسلة من الأحكام والقوانين والمقررات الاجتماعية، ففي الآية ١٨٧ من سورة البقرة مثلاً تأتي هذه العبارة بعد الإعلان عن حرمة اللقاء الجنسي بين

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٢٦٨.

الزوجين حال الإعتكاف، وبعد ذكر سلسلة من الأحكام المتعلقة بالصوم، كما جاءت في الآيتين (٢٢٩ و٢٣٠) من سورة البقرة، والآية (١٠) من سورة الطلاق بعد بيان قسم من أحكام الطلاق، وفي الآية (٤) من سورة المجادلة بعد بيان كفارة «الظهار».

وفي جميع هذه الموارد أحكام وقوانين مُنع من تجاوزها، ولهذا وصفت بكونها «حدود الله»(١).

ثمّ بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود الله يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، وهو بذلك يشير إلى النّتيجة الأُخروية للالتزام بحدود الله واحترامها، ثمّ يصف هذه النتيجة الأُخروية بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ثمّ يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير في صورة المعصية، وتجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: «ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها».

على أنّنا نعلم أن معصية الله - مهما كانت كبيرة - لا توجب الخلود والعذاب الأبدي في النار، وعلى هذا الأساس يكون المقصود في الآية الحاضرة هم الذين يتعدون حدود الله عن تمرد وطغيان وعداء وإنكار لآيات الله، وهم في الحقيقة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يستبعد هذا المعنى إذا لاحظنا أن «حدود» جمع، وهو مشعر بأن يكون التعدي شاملاً لجميع الحدود والأحكام الإلهيّة، لأنّ الذي يتجاهل كل القوانين الإلهيّة لا يؤمن بالله عادة، وإلاّ فإنّه يحترم ولو بعضها على الأقل.

إنّ الملفت للنظر في الآية السابقة أنّ الله تعالى عبّر عن أهل الجنّة بصيغة الجمع حيث قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بينما عبر عن أهل النّار بصيغة المفرد حيث قال ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

إنّ هذا التفاوت في التعبير - في الآيتين المتلاحقتين - شاهد واضح على أنّ لأهل الجنّة اجتماعات، أو بعبارة أُخرى أنّ هناك حالة اجتماعية بين أهل الجنّة ونزلائها، وتلك في حد ذاتها نعمة من نعم الجنّة، ينعم بها ساكنوها وأصحابها، بينما يكون الوضع بالنسبة إلى أهل النار مختلفاً عن هذا، فكل واحد من أهل النار مشغول بنفسه - لما فيه من العذاب - بحيث لا يلتفت إلى غيره، ولا يفكر فيه، بل هو مهتم بنفسه، يعمل لوحده، وهذه هي حالة المستبدين المتفردين بالرأي والموقف، والجماعات

---

(١) لقد مرّ حول «حدود الله» وتفسيره بحث أكثر تفصيلاً في الجزء الثاني من هذا التّفسير.

المتحدة والمجتمعة في المقابل، في هذه الدنيا أيضاً، فالفريق الأول يمثل أهل جهنم، بينما يمثل الفريق الثاني أهل الجنّة.

ميزات قانون الإرث الإسلامي

في قانون الإرث عموماً، وفي نظام الإرث الإسلامي خاصّة مزايا نشير إلى قسم منها في ما يلي:

١ - في نظام الإرث الإسلامي، وفي ضوء ما أقرّ من الطبقات للورثة لا يحرم أيّ واحد من أقرباء المتوفى من الإرث، فليس في الإسلام ما كان متعارفاً (أو لا يزال) عند العرب الجاهليين، أو في بعض المجتمعات البشرية من حرمان النساء والأطفال من الإرث لعدم قدرتهم على حمل السلاح والمشاركة في الحروب وما شاكل ذلك، بل يشمل نظام الإرث الإسلامي كل من يمتّ إلى المتوفى بوشيجة القربى.

٢ - يلبي هذا النظام الحاجات الإنسانية الفطرية والمشروعة، لأنّ كل إنسان من أبناء البشر يحب أن يرى حصيلة جهوده وثمرة أتعابه ونتاج كدّه وكدحه بيد من يعتبره امتداداً لوجوده وشخصيته، ولهذا يكون سهم الأبناء - حسب هذا النظام - أكثر من سهام غيرهم، في حين تكون سهام الآباء والأُمهات وغيرهم من الأقرباء وأنصبتهم بدورها سهاماً وأنصبة محترمة وجديرة بالاهتمام أيضاً.

٣ - إنّ هذا القانون يشجع الأشخاص على السعي والعمل وبذل المزيد من الفعالية في سبيل تحصيل الثروة، وتشغيل عجلة الاقتصاد.

وذلك لأنّ الإنسان إذا عرف أنّ نتاج كده وكدحه وحصيلة جهوده وأتعابه طوال حياته ستنتقل إلى من يحبّهم ويودّهم، فإنّه يتشجع على المزيد من العمل والنشاط مهما كان عمره وسنّه، ومهما كانت ظروفه وملابساته، وبهذا لا يحدث أي ركود في فعاليته ونشاطه مطلقاً.

وقد أشرنا في ما مضى - كيف أنّ إلغاء قانون الإرث والتوارث في بعض البلاد، وتأميم أموال الموتى، وحيازتها من قبل الدولة أدى إلى آثار سيئة في المجال الاقتصادي، وظهر في صورة ركود اقتصادي مخيف دفع بالدولة إلى إعادة النظر في إلغاء قانون الإرث وحذفه.

٤ - إنّ قانون الإرث الإسلامي يمنع من تراكم الثّروة، لأنّ هذا النظام يقضي بتقسيم الثّروة - بعد كلّ جيل - بين الأفراد المتعددين بصورة عادلة، وهذا ممّا يساعد على تفتيت الثروة، كما يساعد على التوزيع العادل لها.

هذا والجدير بالاهتمام أنّ هذا التقسيم لا يعاني ممّا تعاني منه بعض الأشكال السائدة في عالمنا الراهن لتقسيم الثروة، والتي ترافق غالباً سلسلة من المضاعفات والآلام الاجتماعية السيئة، فهو نظام فريد من نوعه يشمل الجميع برحمته، ولا يتسبب في انزعاج أي شخص أو جهة.

٥ - إنّ الأسهم والأنصبة في قانون الإرث الإسلامي لم تنظم على أساس الارتباط والانتساب إلى المتوفى برابطة النسب خاصّة، بل على أساس الحاجات الواقعية عند الورثة، فإذا رأينا الذكور من أولاد الميت يرثون ضعف ما ترثه الإناث، أو يرث الأب - في بعض الموارد - أكثر من الأُمّ، فهو لأجل أنّ الرجال يتحملون مسؤولية مالية أكبر في النظام الإسلامي، ولأنّ عليهم أن يتحملوا الإنفاق على زوجاتهم وعوائلهم، ولهذا لابدّ أن يسهم لهم - في الإرث - أكثر من الإناث.

ما هو العول، وما هو التعصيب؟

في كتاب الإرث نقف على بحثين أحدهما تحت عنوان «العول»، والآخر تحت عنوان «التعصيب» وهما حالتان تعرضان لمسألة الإرث عندما تكون الأسهم المذكورة في الآيات المتقدمة أقل من التركة أحياناً، أو أكثر أحياناً أُخرى.

وللمثال نقول: إذا ترك الميت أُختين من جانب الأب والأُمّ، وزوجاً، وورثت الأُختان ثلثي المال وورث الزوج النصف، فيكون المجموع $\frac{7}{6}$ أي بزيادة $\frac{1}{6}$ على مجموع المال، وهنا يطرح السؤال التالي وهو: هل ننقص هذا السدس الزائد $\frac{1}{6}$ من جميع الورثة - حسب سهامهم - وبصورة عادلة، أم يجب أن تنقص من نصيب أشخاص معينين خاصّة؟

المعروف عن علماء السنة أنّهم يذهبون إلى إدخال النقص على جميع الورثة، وسمّى الفقهاء هذا القسم عولاً، لأنّ العول يعني في اللغة الارتفاع والزيادة.

ففي المثال الحاضر يقول فقهاء السنة: إنّ السدس الزائد يجب أن يقسم على الجميع، وأن ننقص من جميع الورثة من كل واحد حسب سهمه[1]، وهكذا يكون

(١) فتكون طريقة الحساب هنا هي أنّنا يجب أن ننقص ٦/١ من سهم الأُختين الذي هو ٦/٤ وسهم الزوج الذي هو٦/٣ بمقدار أسهمهم أي نقسم ٦/١ على ٧ أقسام فننقص من سهم الأختين بمقدار ٤، ومن الزوج بمقدار ٣، وذلك طبقاً لقانون الإسهام بالنسبة المذكورة في الرياضيات فتكون النتيجة أنّه ينقص من سهم الأختين بمقدار ٤٢/٤ ومن سهم الزوج بمقدار٤٢/٣.

العمل في الموارد الأُخرى، وفي الحقيقة ينزل الورثة - هنا - منزلة الغرماء الذين لا تفي أموال المفلس بتسديد ديونهم جميعاً وبصورة كاملة، فهنا يدخل النقص على جميع الغرماء بنسب متناسبة مع مقادير ديونهم.

ولكن فقهاء الشيعة يذهبون في هذا المجال مذهباً آخر، فهم يدخلون النقص على أشخاص معينين، لا على جميع الورثة.

فهم في المثال الحاضر، مثلاً يدخلون النقص على الأُختين، ويقولون كما جاء في حديث شريف: «إن الذي أحصى رمل عالج - أي المتراكم من الرمل الداخل بعضه في بعض - ليعلم أنّ السهام لا تعول» أي لا تتعدى الأسهم ولا تؤول إلى الكسر، فلابدّ أن يكون سبحانه قد وضع لمثل هذه الحالة قانوناً، وذلك هو أن بين الورثة الذين ذكرهم القرآن الكريم من له سهم ثابت من حيث الأقل أو الأكثر كالزوج والزوجة والأب والأُمّ، ومن ليس له سهم كذلك كالأُختين والبنتين، ومن هنا نفهم أنّ النقص يجب أن يدخل دائماً على من ليس له سهم محدد في جانب القلّة أو الكثرة (أي الذي ليس له حدّ أقل أو حدّ أكثر معين) أي الذي يكون عرضة للتغير والاضطراب، ولهذا لا يدخل النقص المذكور على سهم الزوج، فهو يرث سهمه من التركة وهو النصف بلا نقصان بسبب العول، وإنّما يدخل النقص على سهم الأُختين فقط (فلاحظ ذلك بدقّة).

وقد يكون مجموع الأسهم أقلّ من مجموع المال - فيفضل شيء من المال بعد أخذ كل واحد من أفراد الطبقة الوارثة فرضه.

فمثلا إذا توفي رجل وخلف بنتاً واحدة وأُمّاً، فإن سهم الأم هو $\frac{١}{٦}$ وسهم البنت هو $\frac{٣}{٦}$ فيكون مجموع الأسهم هو $\frac{٤}{٦}$ أي يفضل $\frac{٢}{٦}$ من المال، في هذه الصورة يذهب علماء السنة وفقهاؤهم إلى إعطاء هذا الفاضل من التركة إلى عصبة الميت(١) وهم رجال الطبقة الثانية من الإرث (كالإخوة) ويسمى هذا القسم بالتعصيب.

ولكن فقهاء الشيعة يذهبون إلى أنّ ذلك الفاضل يجب أن يقسّم بين الوارثين المذكورين أي بنسبة ١ و٣، لأنه مع وجود الطبقة السابقة لا تصل النوبة إلى الطبقة اللاّحقة، هذا مضافاً إلى أن إعطاء الفاضل من التركة إلى رجال الطبقة اللاّحقة يشبه ما كان سائداً في العهد الجاهلي حيث تحرم النساء من الإرث.

هذا والبحث الراهن من الأبحاث العلمية المعقدة، وقد أعطينا هنا خلاصة موضحة منه تبعاً للحاجة، وأمّا التفصيل فموكول إلى محله في الكتب الفقهية المفصّلة.

---

(١) العصبة هم الرجال الذين ينتسبون إلى الميت بلا واسطة كالإخوة.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

تعني لفظة «الفاحشة» حسب اللّغة: العمل أو القول القبيح جدّاً - كما أسلفنا -، ويستعمل في الزنا لقبحه الشديد، وقد وردت هذه اللفظة في (١٣) مورداً من القرآن الكريم، وقد استعملت تارةً في «الزّنا» وأُخرى في «اللواط» وتارةً في الأفعال الشديدة القبح على العموم.

والآية الأُولى - من هاتين الآيتين - تشير كما فهم أكثر المفسرين - إلى جزاء المرأة المحصنة التي تزني. فتقول: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

وما يدل على أنّ الآية المبحوثة تعني زنا المحصنة - مضافاً إلى القرينة المذكورة في الآية اللاّحقة - التعبير بـ ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي زوجاتكم، لأنّ التعبير بهذه اللفظة عن الزوجات قد تكرر في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وعلى هذا يكون جزاء المحصنة التي ترتكب الزنا في هذه الآية هو الحبس الأبدي.

ولكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ فإذن لابدّ أن يستمر هذا الحبس في حقهنّ إلى الأبد حتى يأتي أجلهنّ، أو يعين لهنّ قانون جديد من جانب الله سبحانه.

ويستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أي الحبس الأبدي للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، ولهذا ذكر من بداية الأمر أنّه سوف ينزل في حقهنّ قانون جديد، وحكم آخر في المستقبل (وبعد أن تتهيأ الظروف والأفكار لمثل ذلك) حينئذ ستتخلص النساء اللاّتي شملهنّ ذلك الحكم (أي الحكم بالحبس أبداً) من ذلك السجن إذا كن على قيد الحياة طبعاً، ولا يشملهنّ حكم جزائي آخر، وليس الخلاص من السجن إلاّ بسبب إلغاء

الحكم السابق، وأما عدم شمول الحكم الجديد لهنّ فلأنّ الحكم الجزائي لا يشمل الموارد التي سبقت مجيئه، وبهذا يكون الحكم والقانون الذي سيصدر في ما بعد - مهما كان - سبباً لنجاة هؤلاء السجينات، على أنّ هذا الحكم الجديد يشمل حتماً كل الذين سيرتكبون هذا المنكر في ما بعد. (فلاحظ بدقّة هذه النقطة).

وأمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ هو أنّ الله سبحانه قد جعل الرجم للمحصنات الزانيات في ما بعد، وبذلك سيكون للسجينات سبيل إلى النجاة والخلاص من عقوبة السجن، فهو احتمال مردود، لأنّ لفظة «لهنّ سبيلاً» لا تتلاءم أبداً مع مسألة الإعدام، فكلمة «لهنّ» تعني ما يكون نافعاً لهنّ وليس الإعدام سبيلاً لنجاتهنّ، والحكم الذي قرّره الله في الإسلام للمحصنات الزانيات في ما بعد هو الرجم (وقد ورد هذا الحكم على لسان السنّة النبوية الشريفة أي الأحاديث قطعاً، وإن لم ترد في القرآن الكريم أية إشارة إليه)[1].

من كلّ ما قلناه اتّضح أنّ الآية الحاضرة لم تنسخ قط، لأنّ النسخ إنّما يكون في الأحكام التي ترد مطلقة من أوّل الأمر لا التي تذكر مؤقتة ومحدودة، والحكم المذكور في الآية الحاضرة (أي الحبس الأبدي) من القسم الثّاني، أي أنّه حكم مؤقت محدود، وما نجده في بعض الرّوايات من التصريح بأنّ الآية الحاضرة قد نسخت بالأحكام التي وردت في عقوبة مرتكبي الفاحشة، فالمراد منه ليس هو النسخ المصطلح، لأنّ النسخ في لسان الروايات والأخبار يطلق على كل تقييد وتخصيص (فلاحظ ذلك بدقّة وعناية).

ثمّ لابدّ من الالتفات إلى ناحية مهمّة، وهي أنّ الحكم بحبس هذا النوع من النساء في «البيوت» من صالحهنّ من بعض الجهات، لأنّه أفضل - بكثير - من سجنهنّ في السجون العامّة المتعارفة، هذا مضافاً إلى أن التجربة قد دلّت على أنّ للسجون والمعتقلات العامّة أثراً سيئاً وعميقاً في إفساد المجتمع، إذ إنّ هذه المراكز تتحول - شيئاً فشيئاً - إلى معاهد كبرى لتعليم شتى ألوان الجريمة والفساد بسبب أنّ المجرمين سيتبادلون فيها - من خلال المعاشرة واللقاء وفي سعة من الوقت وفراغ من الشغل - تجاربهم في الجريمة.

ثمّ إنّ الله سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن غير إحصان إذ يقول: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا

---

(١) بحار الانوار، ج ٩، ص ٦٩؛ ونهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ويقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا».

والآية وإن كانت لا تذكر قيد «عدم الإحصان»، صراحة، إلاّ أنّها حيث جاءت بعد ذكر حكم المحصنة وذكر عقوبتها التي تختلف عن هذه العقوبة التي هي أخف من العقوبة المذكورة في الآية السابقة، استفيد منها أنّها واردة في حق الزنا عن غير إحصان، وأنّها بالتالي عقوبة الزاني غير المحصن والزانية غير المحصنة اللّذين لا يدخلان في عنوان الآية السابقة، وبالتالي حيث إنّ الآية السابقة اختصّت - بالقرينة التي ذكرت - بالزانية المحصنة استنتجنا أنّ هذه الآية تبيّن حكم الزنا عن غير إحصان.

كما أنّ هناك نقطة واضحة أيضاً، وهي أنّ الحكم المذكور في هذه الآية (أي الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التي تذكر أن حدّ الزنا هو (١٠٠) جلدة لكل واحد من الزاني والزانية تفسيراً وتوضيحاً لهذه الآية وتعييناً للحكم الوارد فيها، ولهذا لا يكون هذا الحكم منسوخاً أيضاً.

ففي تفسير العياشي روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «يعني البكر إذا أتت الفاحشة التي أتتها هذه الثيب فآذوهما»(١).

وعلى هذا يكون المراد من «اللذان» - وإن كان للإشارة إلى مثنى مذكر - هو الرجل والمرأة أي من باب التغليب.

هذا وقد احتمل جماعة من المفسرين أن يكون الحكم الوارد في هذه الآية وارداً في مجال «اللواط» واعتبروا الحكم في الآية السابقة وارداً في مجال «المساحقة»، ولكن رجوع الضمير في «يأتيانها» إلى «الفاحشة» في الآية السابقة يفيد أنّ العمل المستلزم لهذا الحكم الصارم في هذه الآية هو من نوع العمل المذكور في الآية السابقة لا من نوع آخر، ولهذا فإنّ اعتبار أنّ هذه الآية واردة في شأن اللواط، والآية السابقة واردة في شأن المساحقة خلاف الظاهر، (وإن كان كلا العملين - اللواط والمساحقة - يشتركان في عنوان كلي، وهو الميل إلى الجنس المماثل) وعلى هذا تكون كلتا الآيتين واردة في حدّ الزنا وحكمه.

هذا مضافاً إلى أنّنا نعلم أنّ عقوبة «اللواط» في الإسلام هي القتل والإعدام وليست

---

(١) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٢٧.

الإيذاء والجلد، وليس ثمّة أي دليل على انتساخ الحكم المذكور في الآية الحاضرة.

ثمّ إنّ الله سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة والعفو عن مثل هؤلاء العصاة، فيقول: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وهذا التعليم في الحقيقة يفتح طريق العودة ويرسم خط الرجعة لمثل هؤلاء العصاة، فإن على المجتمع الإسلامي أن يحتضن هؤلاء إذا تابوا ورجعوا إلى الطّهر والصواب وأصلحوا، فلا يطردون من المجتمع بعد هذا بحجّة الفساد والانحراف.

هذا ويستفاد من هذا الحكم أيضاً - أنّه يجب أن لا يعيَّر العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب وتابوا وأصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، وأن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة، فإذا كان الحكم الشرعي والعقوبة الإلهيّة يسقطان بسبب التوبة والإنابة، فإنّ من الاولى أن يغض الناس الطرف عن سوابقهم، وهذا بنفسه جارٍ في من نفذ فيه الحدّ الشرعي ثمّ تاب بعد ذلك، فإنّه يجب أن تشمله مغفرة المسلمين وعفوهم.

العقوبات الإسلامية السهل الممتنع

قد يتساءل البعض أحياناً: لماذا قرر الإسلام عقوبات صارمة، وأحكاماً جزائية قاسية وثقيلة؟ فمثلاً: لماذا حكم بالحبس الأبدي أوّلاً على الزانية عن إحصان، ثمّ قرّر الحكم بالقتل والإعدام في شأنهما في ما بعد، ألم يكن من الأفضل أن يتّخذ الإسلام موقفاً أكثر تسامحاً وليناً تجاه هذه الأفعال، لتتعادل الجريمة والعقوبة ولا يرجح أحدهما على الآخر؟

غير أنّ العقوبات الإسلامية وإن كانت تبدو في الظاهر صعبة وقاسية وثقيلة، إلاّ أنّ إثبات الجريمة في الإسلام في المقام ليس سهلاً، أيضاً فقد عيّن الإسلام وحدد لإثبات الجريمة شروطاً لا تثبت - في الأغلب - إلاّ إذا وقعت الجريمة علناً.

فمثلاً: تصعيد عدد الشهود في الزنا إلى الأربعة - كما في الآية الحاضرة - من الأُمور الصعبة جدّاً بحيث لا تثبت الشهادة به إلاّ على من كان مجرماً جسوراً جدّاً، ولا شك أنّ مثل هؤلاء لابدّ أن ينالوا عقاباً ثقيلاً وقاسياً ليعتبر بهم الآخرون، فتطهر بذلك البيئة الاجتماعية من لوث الفساد والانحراف والتورط في الجريمة، كما أنّ المواصفات والشروط المعتبرة في الشهود مثل رؤية العملية الجنسية بعينها، وعدم الاكتفاء بالقرائن، ومثل الاتحاد في الشهادة وما شاكل ذلك تجعل إثبات الجريمة صعباً جدّاً.

وبهذا الطريق جعل الإسلام احتمال التعرض لمثل هذه العقوبة القاسية الثقيلة نصب

عيني هذا النوع من المجرمين، وهو احتمال مهما كان ضعيفاً من شأنه أن يؤثر في ردع الأشخاص، وكبح جماحهم. وأمّا الدقّة في كيفية إثبات هذه الجريمة، والتشدد في الشرائط التي اعتبرها في الشهادة والشهود فهو لأجل أن لا تتسع دائرة هذه الأعمال الخشنة، ولا يقتصر استعمال العقوبات القاسية فيها على أقل الموارد، وفي الحقيقة أراد الإسلام أن يحافظ على الأثر التهديدي لهذا القانون الجنائي من دون أن يعرض أفراداً كثيرين لعقوبة الإعدام من جانب آخر.

ونتيجة ذلك أنّ هذا الأسلوب الإسلامي في تعيين العقوبة وطريق إثبات الجريمة من أكثر الأساليب تأثيراً ونجاحاً في خلاص المجتمع من التورط في الآثام والمعاصي في حين لا يتعرض لمثل هذه العقوبة أفراد كثيرون، وهكذا نصف هذا الأسلوب بالأسلوب «السهل الممتنع».

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

شرائط قبول التوبة

في الآية السابقة بيّن الله تعالى بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتكبي الفاحشة ومعصية الزّنا إذا تابوا وأصلحوا، ثمّ عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ مشيراً بذلك إلى قبول التوبة من جانب الله أيضاً.

وفي هذه الآية يشير سبحانه إلى شرائط قبول التوبة إذ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

وهنا يجب أن نرى ماذا تعني «الجهالة» هل هي الجهل وعدم المعرفة بالمعصية، أم هي عدم المعرفة بالآثار السيئة والعواقب المؤلمة للذنوب والمعاصي؟

إنّ كلمة الجهل وما يشتق منها وإن كانت لها معانٍ مختلفة، ولكن يستفاد من القرائن أنّ المراد منها في الآية المبحوثة هنا هو طغيان الغرائز، وسيطرة الأهواء الجامحة وغلبتها على صوت العقل والإيمان، وفي هذه الصورة وإن لم يفقد المرء العلم بالمعصية، إلاّ أنّه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحة، ينتفي دور العلم ويفقد مفعوله وأثره، وفقدانه لأثر العلم مساوٍ للجهل عملاً.

وأمّا إذا لم يكن الذنب عن جهل وغفلة، بل كان عن إنكار لحكم الله سبحانه وعناد وعداء، فإنّ ارتكاب مثل هذا الذنب ينبىء عن الكفر، ولهذا لا تقبل التوبة منه، إلاّ أن يتخلّى عن عناده وعدائه وإنكاره وتمرده.

وفي الحقيقة إنّ هذه الآية تبيّن نفس الحقيقة التي يذكرها الإمام السجاد عليه‌السلام في دعاء أبي حمزة ببيان أوضح إذ يقول: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي وغلبني هواي»(١).

ثمّ إنّ الله سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ يقول: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

هذا وقد وقع كلام بين المفسّرين في المراد من «قريب» فقد ذهب كثيرون إلى أنّ معناه التوبة قبل أن تظهر آثار الموت وطلائعه، ويستشهدون لهذا الرأي بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الذي جاء في مطلع الآية اللاحقة، ويشير إلى أنّ التوبة لا تقبل إذا ظهرت علامات الموت.

ولعل استعمال لفظة «قريب» إنّما هو لأجل أنّ نهاية الحياة الدنيوية مهما بعدت فهي قريبة.

ولكن بعض المفسرين ذهب إلى تفسير لفظة «من قريب» بالزمان القريب من وقت حصول المعصية، فيكون المعنى أن يتوبوا فوراً، ويندموا على ما فعلوه بسرعة، ويتوبوا إلى الله، لأنّ التوبة الكاملة هي التي تغسل آثار الجريمة وتزيل رواسبها من الجسم والروح بشكل مطلق حتى لا يبقى أي أثر منه في القلب، ولا يمكن هذا إلاّ إذا تاب الإنسان وندم قبل أن تتجذر المعصية في كيانه، وتتعمق آثارها في وجوده فتكون له طبيعة

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٨٨.

ثانية، إذ في غير هذه الصورة ستبقى آثار المعصية في زوايا الروح الإنسانية، وتعشعش في خلايا قلبه، فالتوبة الكاملة - إذن - هي التي تتحقق عقيب وقوع الذنب في أقرب وقت، ولفظة «قريب» أنسب مع هذا المعنى من حيث اللغة والفهم العرفي.

صحيح أنّ التوبة التي تقع بعد زمن طويل من ارتكاب المعصية تقبل أيضاً، إلاّ أنّها ليست التوبة الكاملة، ولعل التعبير بجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ (أي على الله قبولها) كذلك إشارة إلى هذا المعنى، لأنّ مثل هذا التعبير لم يرد في غير هذا المورد من القرآن الكريم، ومفهومه أن قبول التوبة القريبة من زمن المعصية حق من حقوق العباد، في حين أنّ قبول التوبة البعيدة عن زمن المعصية تفضّل من الله وليس حقاً.

ثمّ إنّه سبحانه - بعد ذكر شرائط التوبة - يقول: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ مشيراً بذلك إلى نتيجة التوبة التي توفرت فيها الشروط المذكورة.

ثمّ يقول تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ وهو إشارة إلى من لا تقبل توبته.

وعلّة عدم قبول هذا النوع من التوبة واضحة، لأنّ الإنسان عند الاحتضار في رحاب الموت تنكشف له الأستار، فيرى ما لم يكن يراه من قبل، فهو يرى بعد انكشاف الغطاء عن عينيه بعض الحقائق المتعلقة بالعالم الآخر، ويشاهد بعينيه نتائج أعماله التي ارتكبها في هذه الدنيا، وتتخذ القضايا التي كان يسمع بها صفة محسوسة، وفي هذه الحالة من الطبيعي أن يندم كل مجرم على جرمه وأفعاله السيئة، ويفرّ منها فرار الذي يرى اقتراب ألسنة اللهب من جسمه.

ومن المسلم به أن التكليف الإلهي والاختبار الرباني للبشر لايقوم على أساس هذا النوع من المشاهدات والمكاشفات، بل يقوم على أساس الإيمان بالغيب، والمشاهدة بعيني العقل والقلب.

ولهذا نقرأ في الكتاب العزيز أنّ أبواب التوبة كانت تغلق في وجه بعض الأقوام العصاة عند ظهور طلائع العذاب الدنيوي والنقمة العاجلة، وللمثال نقرأ قول الله سبحانه عن فرعون إذ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾[1].

(١) سورة يونس، الآيتان: ٩٠ - ٩١.

كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية: (مثل الآية ١٢ من سورة السجدة) إنّ العصاة يندمون عندما يشاهدون العذاب الإلهي في الآخرة، ولكن لات حين مندم، فلا فائدة لندمهم في ذلك الوقت، إنّ هؤلاء أشبه ما يكونون بالمجرمين الذين إذا شاهدوا أعواد المشنقة وأحسّوا بالحبل على رقابهم ندموا على جرائمهم وأفعالهم القبيحة، فمن الواضح أنّ مثل هذه التوبة وهذا الندم لا يعدّ فضيلة، ولا مفخرة ولا تكاملاً، ولهذا لا يكون له أي تأثير.

على أنّ هذه الآية لا تنافي الروايات التي نصّت على إمكان قبول التوبة حتى عند اللّحظة الأخيرة من الحياة[1]، لأنّ المراد في هذه الروايات هي اللحظات التي لم تظهر فيها بعد ملامح الموت وآثاره وطلائعه، وبعبارة أُخرى لم تحصل لدى الشخص العين البرزخية التي يقف بها على حقائق العالم الآخر.

هذا عن الطائفة الأُولى الذين لا تقبل توبتهم، وهم من يتوبون عندما تظهر أمام عيونهم ملامح الموت وتبدو عليهم آثاره.

وأمّا الطائفة الثّانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفاراً، إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

ولقد ذكر الله سبحانه هذه الحقيقة في آيات أُخرى من القرآن الكريم[2].

وهنا يطرح سؤال وهو: متى لا تقبل توبة الذين يموتون كفاراً؟

احتمل البعض أن لا تقبل توبتهم في العالم الآخر، واحتمل آخرون أن يكون المراد من التوبة - في هذا المقام - ليس هو توبة العباد، بل توبة الله، يعني عود الله على العبد وعفوه ورحمته له.

ولكن الظاهر أنّ الآية تهدف أمراً آخر وتقول:

إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافية والإيمان ولكنهم يموتون وهم كفار لا تقبل توبتهم ولا يكون لها أي أثر.

وتوضيح ذلك أنّنا نعلم أنّ من شرائط قبول الأعمال «الموافاة على الإيمان» بمعنى أن يموت الإنسان مؤمناً، فالذين يموتون وهم كفار تحبط أعمالهم السابقة حتى الصالحة

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٨٦، باب ٩٢.

(٢) آل عمران - ٩١، البقرة، ١٦١، البقرة، ٢١٧، محمّد - ٣٤.

منها حسب صريح الآيات القرآنية[1]. وتنتفي فائدة توبتهم من ذنوبهم حتى إذا تابوا حال الإيمان في هذه الصورة أيضاً.

وخلاصة القول إنّ قبول التوبة مشروط بأمرين:

الأوّل: أن تتحقق التوبة قبل أن يرى الشخص علائم الموت.

والثّاني: أن يموت وهو مؤمن.

ثمّ إنّه يستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ على الإنسان أن لا يؤخر توبته، إذ يمكن أن يأتيه أجله على حين غفلة، فتغلق في وجهه أبواب التوبة ولا يتمكن منها حينئذ.

والملفت للنظر أن تأخير التوبة الذي يعبّر عنه بالتسويف قد أُردف في الآية الحاضرة بالموت حال الكفر، وهذا يكشف عن أهميّة التسويف وخطورته البالغة في نظر القرآن.

ثمّ يقول سبحانه في ختام الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ولا حاجة إلى التذكير بأنّ للتوبة مضافاً إلى ما قيل شرائط أُخرى مذكورة في آيات مشابهة من الكتاب العزيز.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

سبب النّزول

روي في مجمع البيان عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «نزلت في الرجل يحبس المرأة - من دون أن يعاملها كزوجة - عنده لا حاجة له إليها ينتظر موتها حتى يرثها»[2]، أي يأخذ أموالها من بعد وفاتها.

وروي عن ابن عباس أنّ الآية الحاضرة نزلت في الذين أمهروا نساءهم بمهور كبيرة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير روح المعاني، ج ٤، ص ٢٤١.

ثمّ يحبسونهن من دون حاجة إليهن، ولا يطلقونهن لغلاء المهر وثقله، ويؤذونهن حتى يقبلن بالطلاق بعد أن يتنازلن عن تلك المهور(١).

وقد روى جماعة من المفسرين سبباً آخر للنزول لا يناسب هذه الآية، بل يناسب الآية (٢٢) من هذه السورة، وسنذكر ذلك الرأي عند تفسير تلك الآية بإذن الله تعالى.

التّفسير

الدّفاع عن حقوق المرأة

قلنا في مطلع تفسير هذه السورة إنّ آيات هذه السورة تهدف إلى مكافحة الكثير من الأعمال الظالمة والممارسات المجحفة التي كانت رائجة في العهد الجاهلي، وفي هذه الآية بالذات إشارة إلى بعض هذه العادات الجاهلية المقيتة وتحذير من الله سبحانه للمسلمين من التورّط فيها، وتلك هي:

١ - لا تحبسوا النساء لترثوا أموالهنّ، فلقد كانت إحدى العادات الظالمة في الجاهلية - كما ذكرنا في سبب نزول الآية - أنّ الرجل كان يتزوج بالنساء الغنيات ذوات الشرف والمقام اللاّتي لم يكن يحظين بالجمال، ثمّ كانوا يذرونهن هكذا فلا يطلقونهنّ، ولا يعاملونهنّ كالزوجات، بانتظار أن يمتن فيرثوا أموالهن، فقالت الآية الحاضرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ وبهذا استنكر الإسلام هذه العادة السيئة.

٢ - لا تضغطوا على أزواجكم ليهبن لكم مهورهنّ، فقد كان من عادات الجاهليين المقيتة أيضاً أنّهم كانوا يضغطون على الزوجات بشتى الوسائل والطرق ليتخلين عن مهورهنّ، ويقبلن بالطلاق، وكانت هذه العادة تتّبع إذا كان المهر ثقيلاً باهظاً، فمنعت الآية الحاضرة من هذا العمل بقولها: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي من المهر.

ولكن ثمّة استثناء لهذا الحكم قد أُشير إليه في قوله تعالى في نفس الآية: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ والفاحشة هي أن ترتكب الزوجة الزنا وتخون بذلك زوجها، ففي

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

هذه الحالة يجوز للرجل أن يضغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، وتهبه له ويطلقها عند ذلك، وهذا في الحقيقة نوع من العقوبة، وأشبه ما يكون بالغرامة في قبال ما ترتكبه هذه الطائفة من النساء.

هذا والمقصود من الفاحشة المبينة في الآية هل هو خصوص الزنا، أو كل سلوك ناشز مع الزوج؟ فيه كلام بين المفسرين، إلاّ أنّه روي في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام التصريح بأنّه كل معصية من الزوجة[1] (طبعاً يستثنى من ذلك المعاصي الطفيفة لعدم دخولها في مفهوم الفاحشة التي تشير إلى أهميّة المعصية وخطرها، والذي يتأكد بكلمة «مبينة»).

٣ - عاشروهن بالمعاشرة الحسنة، وهذا هو الشيء الذي يوصي به سبحانه الأزواج في هذه الآية بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي عاشروهن بالعشرة الإنسانية التي تليق بالزوجة والمرأة، ثمّ عقب على ذلك بقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

فحتى إذا لم تكونوا على رضا كامل من الزوجات، وكرهتموهنّ لبعض الأسباب فلا تبادروا إلى الانفصال عنهن والطلاق، بل عليكم مداراتهنّ ما استطعتم، إذ يجوز أن تكونوا قد وقعتم في شأنهنّ في الخطأ وأن يكون الله قد جعل فيما كرهتموه خيراً كثيراً، ولهذا ينبغي أن لا تتركوا معاشرتهنّ بالمعروف والمعاشرة الحسنة ما لم يبلغ السيل الزبى، ولم تصل الأُمور إلى الحدّ الذي لا يطاق، خاصّة وأن أكثر ما يقع بين الأزواج من سوء الظن لا يستند إلى مبرر صحيح، وأكثر ما يصدرونه من أحكام لا يقوم على أُسس واقعية إلى درجة أنّهم قد يرون الأمر الحسن سيئاً والسيّىء حسناً في حين ينكشف الأمر على حقيقته بعد مضي حين من الزمن، وشيء من المداراة.

ثمّ إنّه لابدّ من التذكير بأنّ للخير الكثير في الآية الذي يبشّر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهم مفهوماً واسعاً، ومن مصاديقه الواضحة الأولاد الصالحون والأبناء الكرام.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٥٩؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ١٣٢.

سبب النّزول

كان التقليد المتبع قبل الإسلام أنّه إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته، ويتزوج بأُخرى أن يتّهم الزوجة الأُولى بالزنا والخيانة الزوجية فراراً من دفع مهرها، أو يعمد إلى معاملتها بقسوة حتى تردّ مهرها الذي قد أخذته من قبل إلى الرجل، ليستطيع أن يعطي ذلك المبلغ للزوجة الجديدة التي يبغي الزواج بها، ويمهرها به.

فنزلت هذه الآيات تستنكر هذا العمل القبيح الظالم بشدّة، وتشجبه وتقبحه وتدعو إلى إنصاف الأزواج وعدم ظلمهنّ في مهورهنّ(١).

التّفسير

نزلت الآيتان الحاضرتان لتحميا قسماً آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت الآية الأُولى تقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فهي تخبر المسلمين - إذا عزموا على تطليق الزوجة واختيار زوجة أُخرى - أنّه لا يحق لهم أبداً أن يبخسوا من صداق الزوجة الأُولى شيئاً أو يستردوا شيئاً من الصداق إذا كانوا قد سلّموه إلى الزوجة مهما كان مقداره كثيراً وثقيلاً، والذي عبّر عنه في الآية بالقنطار، والقنطار - كما سبق - يعني المال الكثير، وقد جاء في المفردات للراغب أنّ القنطار جمع القنطرة، والقنطرة من المال ما فيه عبور الحياة تشبيهاً بالقنطرة(٢).

لأنّ المفروض أن تطليق الزوجة الأُولى - هنا - يتمّ لأجل مصلحة الزوج، وليس لأجل انحراف الزوجة عن جادة العفاف والطهر، ولهذا لا معنى لأن تهمل حقوقها القطعية.

ثمّ إنّ الآية تشير في مقطعها الأخير إلى الأُسلوب السائد في العهد الجاهلي حيث كان الرجل يتّهم زوجته بالخيانة الزوجية لحبس الصداق عنها، إذ تقول في استفهام إنكاري: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي هل تأخذون صداق الزوجة عن طريق بهتهنّ، واتهامهنّ بالفاحشة، وهو إثم واضح ومعصية بيّنة، وهذا يعني أنّ أصل حبس

(١) تفسير الصافي، ج ١، ص ٤٣٤؛ وتفسير روح المعاني، ج ٤، ص ٢٤٣ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) ولمزيد التوضيح راجع من تفسيرنا هذا ذيل الآية ١٥ من سورة آل عمران.

الصداق عن الزوجة ظلم ومعصية، والتوسل لذلك بمثل هذه الوسيلة الأثيمة معصية أُخرى واضحة، وظلم آخر بيّن.

ثمّ أضاف سبحانه - في الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين - وضمن استفهام إنكاري بهدف تحريك العواطف الإنسانية لدى الرجال بأنّه كيف يحق لكم ذلك، وقد عشتم مع الزوجة الأُولى زمناً طويلاً، وكانت لكم معهنّ حياة مشتركة، واختليتم بهن واستمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحاً واحدة في جسمين، أفبعد ما كانت بينكما هذه العلاقة الزوجية الحميمة يحقّ لكم - أيّها الأزواج - أن تبخسوا حق الزوجة الأُولى؟ وقد لخص سبحانه كل هذا بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى[1] بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أفيصح أن تفعلوا ذلك وكأنّكما غريبان لا رباط بينكما ولا علاقة؟

وهذا يشبه قولنا لمن عاشا صديقين حميمين زمناً طويلاً ثمّ تنازعا: كيف تتنازعان وقد كنتما صديقين حميمين سنوات طويلة وأعواماً عديدة؟

وفي الحقيقة أن ارتكاب مثل هذا الفعل في حق الزوجة شريكة الحياة ما هو إلاّ ظلم للنفس.

ثمّ إنّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي كيف تبخسون الزوجة حقّها في الصداق وقد أخذت منكم - لدى عقد الزواج بينكما - ميثاقاً غليظاً وعهداً موثقاً بأن تؤدوا إليهنّ حقوقهنّ كاملة، فكيف تتنكرون لهذا الميثاق المقدس وهذا العهد المأخوذ منكم لها حالة العقد؟

ثمّ يجب أن نعرف أنّ الآية الحاضرة وإن وردت في مقام تطليق الزوجة الأُولى لغرض إحلال زوجة أُخرى مكانها إلاّ أنّها لا تختصّ بهذا المورد خاصّة، بل تعمّ كل موارد الطلاق الذي يتمّ باقتراح من جانب الزوج ولا تكون لدى الزوجة رغبة في الافتراق، فإنّه يجب على الزوج في هذه الحالة أن يعطي الصداق بكامله إلى الزوجة إذا أراد أن يطلقها، وأن لا يسترد شيئاً من الصداق إذا كان قد أعطاه إياها، سواء قصد أن يتزوج بامرأة أُخرى أو لا.

وعلى هذا تكون عبارة: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ ناظرة في الحقيقة إلى ما كان سائداً في العهد الجاهلي، وليس له أي دخل في أصل الحكم، فهو ليس قيداً.

---

(١) الإفضاء أصله من الفضاء، وهو السعة، وبذلك يكون معنى الإفضاء إيجاد السعة، لأنّ الإنسان بسبب الاتصال والتعايش مع شخص آخر يكون وكأنه وسع دائرة وجوده، ولهذا استعمل الإفضاء بمعنى الملامسة والاتصال.

على أنّه ينبغي التنبيه أيضاً إلى أن لفظة «استبدال» تعني طلب البديل، ولهذا يكون قد أخذ فيها قيد الإرادة، فإذا قرنت بكلمة «أردتم» فإنما ذلك لأجل التنبيه إلى نقطة في المقام، وهي أنكم - عند تهيئة المقدمات والعزم على استبدال زوجة بأُخرى - يجب أن لا تبدأوا من المقدمات غير المشروعة الظالمة، فتضيّعوا مهر زوجتكم إذا أردتم زوجة أُخرى.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

سبب النّزول

كانت العادة في الجاهلية أنّه إذا مات رجل وخلف زوجة وأولاداً، وكان الأولاد من زوجة أُخرى ورثوا زوجة أبيهم كما يرثون أمواله، أي أنّه كان يحق لهم أن يتزوجوا بها أو يزوجوها لأحد، وأن يتصرفوا فيها كما يتصرفون في المتاع والمال، وقد حدث مثل هذا - بعد ظهور الإسلام - لأحد المسلمين، فقد مات أحد الأنصار ويُدعى أبا قيس وخلف زوجة وولداً من زوجة أُخرى، فاقترح الولد عليها الزواج بها، فقالت تلك المرأة له: إنّي أعتبرك مثل ابني وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله ﷺ فأستأمره وأستوضحه الحكم، فأتته فأخبرته، فقال لها رسول الله ﷺ: «ارجعي إلى بيتك» فأنزل الله هذه الآية تنهى عن هذا النوع من النكاح بشدّة(١).

التّفسير

هذه الآية - كما ذكرنا في شأن النّزول - تبطل عادة سيئة من العادات الجاهلية المقيتة فتقول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا تنكحوا زوجة أبيكم.

ولكن بما أنّ القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك النّهي بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ثمّ إنّه سبحانه لتأكيد هذا النهي يستخدم ثلاث عبارات شديدة حول هذا النوع من

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

الزواج والنكاح إذ يقول أوّلاً: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي عملاً منفراً لا تقبله العقول، ولا تستسيغه الطباع البشرية السليمة، بل تمقته وتكرهه، ثمّ يختم ذلك بقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي أنّها عادة خبيثة وسلوك شائن.

حتى إنّنا لنقرأ في التاريخ أنّ الناس في الجاهلية كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح ويصفونه بالمقت، ويسمّون ما ينتج منه من ولد بالمقيت، أي الأولاد المبغوضين.

ومن الواضح أنّ هذا الحكم إنّما هو لمصالح مختلفة وحكم متنوعة في المقام، فإنّ الزواج بامراة الأب هو من ناحية يشبه الزواج بالأُمّ، لأن امرأة الأب في حكم الأُمّ الثانية، ومن ناحية أُخرى اعتداء على حريم الأب وهتك له، وتجاهل لاحترامه.

مضافاً إلى أنّ هذا العمل يزرع عند أبناء الأب الميت بذور النفاق بسبب النزاع على نكاح زوجته، وبسبب الاختلاف الواقع بينهم في هذا الأمر (أي في من يتزوج بها).

بل إنّ هذا النوع من النكاح يوجب الاختلاف والتنافس البغيض بين الأب والولد، لأنّ هناك تنافساً وحسداً بين الزوجة الأُولى والزوجة الثّانية غالباً، فإذا تحقق هذا النكاح (أي نكاح زوجة الأب من جانب الولد) في حياة الوالد (أي بعد طلاقها من الأب طبعاً) كان السبب في الحسد واضحاً، لأنّ امرأة الأب ستحظى بهذا الزواج بمنزلة أرفع، ممّا يؤدّي إلى تأجج نيران الحسد لدى الزوجة الأُخرى أكثر، وأمّا إذا تحقق بعد وفاته فإنّه من الممكن أن يوجد لدى الابن نوعاً من الحسد بالنسبة لأبيه.

هذا وليس من المستبعد أن تكون التعابير الثلاثة الواردة في ذم هذا النوع من النكاح إشارات إلى هذه الحِكَم الثلاث لتحريم نكاح امرأة الأب على وجه الترتيب.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

التّفسير

تحريم الزّواج بالمحارم

في هذه الآية أشار سبحانه إلى النساء اللاتي يحرم نكاحهنّ والزواج بهنّ، ويمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب وهي:

١ - الولادة التي يعبّر عنها بالارتباط النّسبي.

٢ - الزّواج الذي يعبّر عنه بالارتباط السّببي.

٣ - الرّضاع الذي يعبّر عنه بالارتباط الرّضاعي.

وقد أشار في البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النّسب وهنّ سبع طوائف إذ يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾.

ويجب التّنبيه إلى أنّ المراد من «الأُمّ» ليس التي يتولد منها الإنسان دونما واسطة فقط، بل يشمل الجدّة من ناحية الأب ومن ناحية الأُمّ وإن علون، كما أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسطة، بل تشمل بنت البنت وبنت الابن وأولادهما وإن نزلن، وهكذا الحال في الطوائف الخمس الأُخرى.

ومن الواضح جدّاً أنّ الإنسان يبغض النكاح والزواج بهذه الطوائف من النسوة، ولهذا تحرّمه جميع الشعوب والجماعات (إلاّ من شذ وهو قليل)، وحتى المجوس الذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح في مصادرهم الأصلية ينكرونه ويشجبونه اليوم، وإن حاول البعض أن يردّ هذه المبغوضية إلى العادة والتقليد القديم، ولكن عمومية هذا القانون وشيوعه لدى جميع أفراد البشر وطوائفه وفي جميع القرون والأعصار تحكي - عادة - عن فطرية هذا القانون، لأن التقليد والعادة لا يمكن أن يكون أمراً عامّاً ودائمياً.

هذا مضافاً إلى أنّ هناك حقيقة ثابتة اليوم، وهي أنّ الزواج بين الأشخاص ذوي الفئة المشابهة من الدم ينطوي على أخطار كثيرة، ويؤدّي إلى انبعاث أمراض خفية وموروثة، وتشددها وتجددها (لأنّ هذا النوع من الزواج يولد هذه الأمراض، بل يساعدها على التشدد والتجدد والانتقال) إلى درجة أنّ البعض لا يستحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين (فضلاً عن المحارم المذكورة هنا) مثل الزواج الواقع بين أبناء وبنات

العمومة(١) ويرون أنّه يؤدّي هو الآخر أيضاً إلى أخطار تصاعد الأمراض الوراثية.

إلاّ أنّ هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أية مشكلة لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب) فإنّه لا شك يسبب مضاعفات خطيرة لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهرة وحدة الدم وتشابهه.

هذا مضافاً إلى ضعف الرغبة الجنسية والتجاذب الجنسي لدى المحارم عادة، لأنّ المحارم - في الأغلب - يكبرون معاً، ويشبّون معاً، ولهذا لا ينطوي الزواج فيما بينهم على عنصر المفاجأة وصفة العلاقة الجديدة، لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم، فلا يكون أحدهم جديداً على الآخر، بل العلاقة لديهم علاقة عادية ورتيبة، ولا يمكن أن يكون بعض الموارد النادرة مقياساً لاستنباط القوانين الكلية العامّة أو سبباً لنقض مضاداتها، ونحن نعلم أنّ التجاذب الجنسي شرط أساسي لدوام العلاقة الزوجية واستمرار الرابطة العائلية، ولهذا إذا تمّ التزاوج بين المحارم فإنّ الرابطة الزوجية الناشئة من هذا الزواج ستكون رابطة ضعيفة مهزوزة وقصيرة العمر.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

يشير الله سبحانه في هذه الآية إلى المحارم الرّضاعية، والقرآن - وإن اقتصر في هذا المقام على الإشارة إلى طائفتين من المحارم الرضاعية، وهي الأُم الرضاعية والأُخت الرضاعية فقط - إلاّ أنّ المحارم الرضاعية - كما يستفاد من روايات عديدة - لا تنحصر في من ذكر في هذه الآية، بل تحرم بالرّضاعة كل من يحرمن من النساء بسبب «النسب» كما يصرّح بذلك الحديث المشهور المروي عن رسول الله ﷺ «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب»(٢).

على أن بيان مقدار الرّضاع الموجب للحرمة والشروط والكيفية المعتبرة فيه، وغير ذلك من التفاصيل والخصوصيات متروك للكتب الفقهية.

وفلسفة حرمة الزواج بالمحارم الرضاعية هي أن نشوء ونبات لحم المرتضع وعظمه

---

(١) طبعاً إنّ الإسلام لم يحرّم التزاوج بين أبناء وبنات العمومة، لأنّ هذا النوع من التزاوج ليس مثل الزواج بالمحارم في الخطورة، واحتمال ظهور مثل هذه الحوادث الخطيرة في هذا النوع من الزواج أقل، وقد لاحظنا بأنفسنا موارد ونماذج عديدة من نتائج هذا النوع من الزواج حيث يكون الأولاد - في هذه الحالة - أكثر سلامة وأفضل فكراً وموهبة من غيرهم.

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ١٥٥، اصول الكافي، ج ٥، ص ٤٣٧، ٤٤٢.

من لبن امرأة معينة تجعله بمثابة ابنها الحقيقي، فالمرأة التي ترضع طفلاً مقداراً معيناً من اللبن ينشأ وينبت معه ومنه للطفل لحم وعظم، فإنّ هذا النوع من الرضاع يجعل الطفل شبيهاً بأبنائها وأولادها لصيرورته جزءاً من بدنها كما هم جزء من بدنها، فإذا هم جميعاً (أي الإخوة الرضاعيون والإخوة النسبيون) كأنّهم إخوة بالنسب.

ثمّ إنّ الله سبحانه يشير - في المرحلة الأخيرة - إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتي يحرم الزواج بهنّ ويذكرهنّ ضمن عدّة عناوين:

١ - ﴿وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني أنّ المرأة بمجرّد أن تتزوج برجل ويجري عقد النكاح بينهما تحرم أُمها وأُم أمها وإن علون على ذلك الرجل.

٢ - ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ يعني أنّ مجرّد العقد على امرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثّاني، بل يشترط أن يدخل بها أيضاً مضافاً على العقد عليها.

إنّ وجود هذا القيد في هذا المورد ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ يؤيد كون حكم أُمّ الزوجة الذي مرّ في الجملة السابقة ﴿وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ غير مشروط بهذا الشرط، وبعبارة أُخرى إن هذا القيد هنا يؤيد ويؤكّد إطلاق الحكم هناك، فتكون النتيجة أنّه بمجرّد العقد على امرأة تحرم أُمّ تلك المرأة على الرجل وإن لم يدخل بتلك المرأة، لخلو ذلك الحكم من القيد المشروط هنا في مورد الرّبيبة.

ثمّ إنّ قيد ﴿فِى حُجُورِكُم﴾ وإن كان ظاهره يفهم منه أنّ بنت الزوجة من زوج آخر إذا لم تربَّ في حجر الزوج الثّاني لا تحرم عليه، ولكن هذا القيد بدلالة الروايات، وقطعية هذا الحكم - ليس قيداً احترازياً - بل هو في الحقيقة إشارة إلى نكتة التحريم - لأن أمثال هذه الفتيات اللاتي تقدم أُمّهاتها على زواج آخر، هنّ في الأغلب في سنين متدنية من العمر، ولذلك غالباً ما يتلقين نشأتهنّ وتربيتهنّ في حجر الزوج الجديد مثل بناته، فالآية تقول إن بنات نسائكم من غيركم كبناتكم أنفسكم، فهل يتزوج أحد بابنة نفسه؟ واختيار وصف الربائب التي هي جمع الرّبيبة (لتربية الزوج الثاني إيّاها فهي مربوبته) إنّما هو لأجل هذا.

ثمّ يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلاً: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي إذا لم تدخلوا بأُمّ الربائب جاز لكم نكاح بناتها.

٣ - ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾[1] والمراد من حلائل الأبناء زوجاتهم، وأمّا التعبير بـ ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ فهو في الحقيقة لأجل أنّ هذه الآية تبطل عادة من العادات الخاطئة في الجاهلية، حيث كان المتعارف في ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصاً ثمّ يعطي للشخص المتبنى كل أحكام الولد الحقيقي، ولهذا كانوا لا يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجة الولد الحقيقي تماماً، والتبني والأحكام المرتبة عليه لا أساس لها في نظر الإسلام.

٤ - ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ يعني أنّه يحرم الجمع بين الأُختين في العقد، وعلى هذا يجوز الزواج بالأُختين في وقتين مختلفين وبعد الانفصال عن الأُخت السابقة.

وبما أنّ الزواج بأُختين في وقت واحد كان عادة جارية في الجاهلية، وكان ثمّة من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهي المذكور بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ يعني أنّ هذا الحكم كالأحكام الأُخرى لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم الله على هذا الفعل وإن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأُختين، ويفارقوا الأُخرى، بعد نزول هذا الحكم.

يبقى أن نعرف أنّ سرّ تحريم هذا النمط من الزواج (أي التزوج بأُختين في وقت واحد) في الإسلام لعلّة - أن بين الأُختين - بحكم ما بينهما من نسب ورابطة طبيعية - علاقة حبّ ومودّة، فإذا أصبحتا متنافستين في ظل الانتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلك المودّة والمحبّة والعلاقة الودية بطبيعة الحال، وبهذه الصورة يحدث هناك تضاد عاطفي في وجود كل من الأُختين يضرّ بحياتهما، لأن كلّ واحدة منهما ستعاني حينئذ وبصورة دائمية من صراع حالتين نفسيتين متضادتين هما دافع الحب، وغريزة التنافس، وهو صراع نفسي مقيت ينطوي على مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها.

ثمّ إنّ بعض المفسّرين احتمل أن تعود جملة ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ إلى كل المحارم من النسوة اللاّتي مرّ ذكرهنّ في مطلع الآية فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد في الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهنّ لم يشمله حكم تحريم الزواج

---

(١) الحلائل جمع الحليلة، وهي من مادة حل، وهي بمعنى المحللة، أي المرأة التي تحل للإنسان، أو من مادة حلول معنى المرأة التي تسكن مع الرجل في مكان واحد وتكون بينهما علاقة جنسية، لأنّ كل واحد منهما يحل مع الآخر في الفراش.

بهنّ هذا، وكان ما نتج من ذلك الزواج الذي حرم في ما بعد من الأولاد شرعيين، وإن وجب عليهم بعد نزول هذه الآية أن يتخلوا عن تلكم النساء، ويفارقوهنّ.

وتناسب خاتمة هذه الآية أعني قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا المعنى الأخير.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

هذه الآية تواصل البحث السابق حول النساء اللاتي يحرم نكاحهنّ والزواج بهنّ وتضيف قائلة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي ويحرم الزواج بالنساء، اللاتي لهنّ أزواج.

والمحصنات جمع المحصنة وهي مشتقة من «الحصن»، وقد أُطلقت على المرأة ذات الزوج لأنّها بالزواج برجل تكون قد أحصنت فرجها من الفجور، وكذا أُطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتي يعشن في كنف رجل وتحت كفالته وبذلك يحفظن أنفسهنّ ويحصنها من الفجور والزنا.

وقد تطلق هذه اللفظة على الحرائر مقابل الإماء، لأن حريتهنّ تكون بمثابة حصن يحفظهنّ من أن يتجاوز أحد حدوده معهنّ أحد دون إذنهنّ، إلاّ أنّه من الواضح أنّ المراد بها في الآية الحاضرة ذوات الأزواج.

إنّ هذا الحكم لا يختص بالنساء المحصنات المسلمات، بل يشمل المحصنات حتى غير المسلمات، أي إنّه يحرم الزواج بهنّ مهما كان دينهنّ.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتابيات اللاّتي أسرهنّ المسلمون في الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابة الطلاق من أزواجهنّ، وأذن أن يتزوج بهنّ المسلمون بعد انقضاء عدتهنّ(١) أو يتعامل معهنّ كالإماء كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

---

(١) مقدار عدتهن حيضة واحدة أو وضع حملهن إذا كن حبالى.

ولكن هذا الاستثناء استثناء منقطع يعني أن هذه النساء المحصنات اللاتي وقعن أسيرات في أيدي المسلمين لا يعتبرن محصنات لأن علاقتهنّ بأزواجهنّ قد انقطعت بمجرّد وقوعهنّ أسيرات، تماماً كما تنقطع علاقة النساء غير المسلمات بأزواجهن باعتناقهنّ الإسلام في صورة استمرار الزوج السابق على كفره، فيكنّ في مصاف النساء المجرّدات من الأزواج (أي غير المحصنات).

ومن هنا يتّضح أنّ الإسلام لا يسمح مطلقاً بأن يتزوج المسلمون بالنساء المحصنات حتى الكتابيات وغيرهنّ من أهل الديانات الأُخرى، ولهذا قرّر لهنّ العدّة، ومنع من الزواج بهنّ في تلك الفترة.

وفلسفة هذا الحكم تتمثل في أن هذا النوع من النساء إمّا يجب أن تعاد إلى دار الكفر، أو يبقين هكذا بدون زوج بين المسلمين، أو تقطع علاقتهنّ بالزوج السابق، ويتزوجن من جديد بزوج آخر، وحيث إنّ الصورة الأُولى تخالف الأُسس التربوية الإسلامية، كما أن الصورة الثانية عملية ظالمة، ولهذا لا تبقى إلاّ صورة واحدة وهي الصورة الثالثة.

ويظهر من بعض الروايات التي ينتهي إسنادها إلى أبي سعيد الخدري أنّ الآية نزلت في سبايا غزوة أوطاس[1] وأنّ النّبي ﷺ سمح للمسلمين بأن يتزوجوا بهنّ بعد التأكد من كونهنّ غير حبالى أو يعاملن كما تعامل الأمة، وهو يؤيّد الصورة الثالثة التي أشرنا إليها في ما سبق.

ثمّ إنّ الله سبحانه أكّد هذه الأحكام الواردة في شأن المحارم من النساء ومن شابههنّ حيث قال: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وعلى هذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبداً.

ثمّ إنّه يشير سبحانه إلى حلّية الزواج بغير هذه الطوائف من المذكورات في هذه الآية والآيات السابقة إذ يقول: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ أي إنّه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شريطة أن يتمّ ذلك وفق القوانين الإسلامية وأن يرافق مبادىء العفّه والطهر ويبتعد عن جادة الفجور والفسق.

وعلى هذا يكون معنى ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ في الآية والذي هو إشارة إلى حال الرجال هو «عفيفين»، وعبارة ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ تأكيد لهذا الوصف، لأنّ السفاح (الذي هو وزن

---

(١) «أوطاس» منطقة وقعت فيها إحدى المعارك الإسلامية وهو واد في ديار بني هوازن.

كتاب) يعني الزنا وأصله من السفح وهو صب الماء أو الأعمال العابثة والأفعال الطائشة وبما إنّ القرآن يستخدم - في مثل هذه الموارد - الكنايات يكون المراد من السفاح الزنا واللقاء الجنسي غير المشروع.

وجملة ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ إشارة إلى أنّ العلاقة الزوجية إمّا يجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق ومهر، أو من خلال تملك أمة لقاء دفع قيمتها(١).

كما أنّ عبارة ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ في الآية الحاضرة لعلها إشارة إلى حقيقة أنّ الهدف من الزواج يجب أن لا يكون فقط إطفاء الشهوة، وتلبية الرغبة الجنسية، بل الزواج قضية حيوية هامّة تهدف لغاية جد سامية يجب أن تكون الغريزة الجنسية في خدمتها أيضاً، ألا وهو بقاء النوع البشري، وحفظه من التلوث والانحراف.

الزّواج المؤقت في الإسلام

يقول سبحانه: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾ أي إنّه يجب عليكم دفع أجور النساء اللاتي تستمتعون بهنّ، وهذا القسم من الآية إشارة إلى مسألة الزواج المؤقت أو ما يسمّى بالمتعة، ويستفاد منها أنّ أصل تشريع الزواج المؤقت كان قطعياً ومسلّماً به عند المسلمين قبل نزول هذه الآية، ولهذا يوصى المسلمون في هذه الآية بدفع أجورهنّ.

وحيث إنّ البحث في هذه المسألة من الأبحاث التّفسيرية والفقهية والاجتماعية المهمّة جداً يجب دراستها من عدّة جهات هي:

١ - القرائن الموجودة في هذه الآية التي تؤكّد دلالتها على الزواج المؤقت.

٢ - إنّ الزواج المؤقت كان في عصر رسول الله ﷺ ولم ينسخ.

٣ - الحاجة بل والضرورة الاجتماعية إلى هذا النوع من الزواج.

٤ - الإجابة على بعض الإشكالات.

وأمّا بالنسبة إلى النقطة الأُولى فلابدّ من الالتفات إلى أُمور:

أوّلاً: إنّ كلمة المتعة التي اشتق منها لفظة «استمتعتم» تعني الزواج المؤقت، وبعبارة أُخرى المتعة حقيقة شرعية في هذا النوع من الزواج، ويدل على ذلك أنّ هذه الكلمة

(١) لقد بحثنا بالتفصيل عن برنامج الإسلام حول تحرير العبيد وما هناك من تخطيط دقيق في النظام الإسلامي في هذا المجال عند تفسير الآيات المناسبة في سورة «محمّد» ﷺ.

استعملت في هذا المعنى نفسه في روايات النّبي الأكرم ﷺ وكلمات الصحابة مراراً وتكراراً(١).

ثانياً: إنّ هذه اللفظة إذا لم تكن بالمعنى المذكور يجب أن تفسّر حتماً بمعناها اللّغوي وهو «الانتفاع» فيكون معنى هذا المقطع من الآية هكذا: «إذا انتفعتم بالنساء الدائمات فادفعوا إليهنّ أجورهنّ» في حين أنّنا نعلم أن دفع الصداق والمهر غير مقيد ولا مشروط بالانتفاع بالزوجات الدائمات بل يجب دفع تمام المهر - بناء على ما هو المشهور(٢) بين الفقهاء - أو نصفه على الأقل إلى المرأة بمجرّد العقد للزواج الدائم عليها.

ثالثاً: إنّ كبار «الصحابة» و«التابعين»(٣) مثل ابن عباس العالم (المفسّر الإسلامي الكبير) وأُبي بن كعب، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعمران بن الحصين، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة والسدي، وجماعة كبيرة من مفسّري أهل السّنة، وجميع مفسّري أهل البيت، فهموا من الآية الحاضرة حكم الزواج المؤقت إلى درجة أنّ الفخر الرازي - رغم ما عهد عنه من التشكيك الكثير في القضايا المرتبطة بالشيعة وعقائدهم قال بعد بحث مفصل: والذي يجب أن يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول إنّها منسوخة وعلى هذا التقدير فلو كانت هذه الآية دالة على أنّها مشروعة لم يكن ذلك قادحاً في غرضنا، وهذا هو الجواب أيضاً عن تمسكهم بقراءة أُبي وابن عباس فإنّ تلك القراءة بتقدير ثبوتها لا تدل إلاّ على أنّ المتعة كانت مشروعة، ونحن لا ننازع فيه، إنّما الذي نقوله إن النسخ طرأ عليه(٤).

رابعاً: اتفق أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهم أعلم الناس بأسرار الوحي، على تفسير الآية المذكورة بهذا المعنى (أي بالزواج المؤقت) وقد وردت في هذا الصعيد روايات كثيرة منها.

ما عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «المتعة نزل بها القرآن وجرت بها السنّة من رسول الله»(٥).

---

(١) راجع كتاب كنز العرفان وتفسير مجمع البيان وتفسير نور الثقلين والبرهان، والغدير، ج ٦.

(٢) المشهور أو الأشهر وجوب تمام المهر بمجرّد عقد الزواج الدائم وإن كان الطلاق قبل الدخول يوجب إعادة نصفه إلى الزوج.

(٣) التابعون هم الذين جاؤوا بعد الصحابة ولم يدركوا عهد النّبي ﷺ.

(٤) التّفسير الكبير، ج ١٠، ص ٥٣.

(٥) نور الثقلين، ج ١، ص ٤٦٧، وتفسير البرهان، ج ١، ص ٣٦٠؛ واصول الكافي، ج ٥، ص ٤٤٩.

ثمّ إن هناك مطلباً آخر لابدّ أن نذكّر به هنا، وهو أن الذين ادّعوا نسخ هذا الحكم (أي انتساخه) قد واجهوا مشكلات عديدة، منها أنّه صرّح في روايات عديدة في مصادر أهل السنة بأنّ هذا الحكم لم ينسخ في عهد رسول الله ﷺ أبداً، بل نهي عنه في عهد عمر، وعلى هذا يجب على مدعي النسخ أن يجيبوا على هذه الروايات البالغة - عدداً - عشرين رواية، جمعها العلاّمة الأميني رحمه الله مفصلة في الجزء السادس من «الغدير» وها نحن نشير إلى نموذجين منها:

١ - روي في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه كان يقول: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيّام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى ثمّ نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث[(١)].

٢ - وفي حديث آخر في كتاب «الموطأ» لمالك و«السنن الكبرى» للبيهقي روي عن عروة بن الزبير أنّ خولة بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إنّ ربيعة ابن أميّة استمتع بامرأة مولدة فحملت منه فخرج عمر رضي الله عنه يجرّ رداءه فزعاً فقال: هذه المتعة لو كنت تقدمت فيه لرجمته، (أي أمنع منها من الآن)[(٢)].

وفي كتاب «بداية المجتهد» تأليف ابن رشد الأندلسي نقرأ أيضاً أنّ جابر بن عبد الله الأنصاري كان يقول: تمتعنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ونصفاً من خلافة عمر ثمّ نهى عنها عمر الناس[(٣)].

والمشكلة الأُخرى هي أنّ الروايات التي تتحدث عن نسخ حكم المتعة في عهد رسول الله مضطربة ومتناقضة جدّاً، فبعضها يقول نسخ في خيبر وبعضها يقول: نسخ يوم فتح مكّة، وبعض يقول: في معركة تبوك وآخر يقول: يوم أوطاس وما شابه ذلك، ومن هنا يتبيّن أنّ هذه الأحاديث المشيرة إلى النسخ موضوعة برمّتها لما فيها من التناقض البيّن والتضارب الواضح.

من كل ما قلناه اتّضح أنّ ما كتبه صاحب تفسير المنار حيث قال: «وقد كنّا قلنا في (محاورات المصلح والمقلد) التي نشرت في المجلدين الثالث والرابع من المنار إنّ عمر نهى عن المتعة اجتهاداً منه وافقه عليه الصحابة ثمّ تبيّن لنا أنّ ذلك خطأ فنستغفر الله منه»[(٤)]، هو حديث العصبية لأنّ هناك في مقابل الرّوايات المتضاربة المتناقضة التي

---

(١) الغدير، ج ٦، ص ٢٠٥ و٢٠٦.

(٢) الغدير، ج١، ص٢١٠؛ وكنز العمال، ج ١٦، ص ٥٢٠.

(٣) بداية المجتهد ج ٢، ص ٤٧، كتاب النكاح.

(٤) تفسير المنار، ج ٥، ص ١٦.

تتحدث عن انتساخ حكم المتعة في عهد رسول الله ﷺ روايات تصرّح باستمرار المسلمين على ممارسة هذا الأمر (أي المتعة) إلى عهد عمر، وعلى هذا ليس المقام مقام الاعتذار ولا الاستغفار، فالشواهد التي ذكرناها سابقاً تشهد بأنّ كلامه الأوّل مقترن بالحقيقة وليس كلامه الثّاني كذلك.

ولا يخفى أنّه لا عمر ولا أي شخصية أُخرى حتى أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهم خلفاء النّبي ﷺ بقادرين على نسخ أحكام ثبتت في عهد رسول الله ﷺ بل لا معنى للنسخ - أساساً - بعد وفاة النّبي ﷺ وانسداد باب الوحي وانقطاعه، وحملهم كلام عمر على الاجتهاد مثير للعجب، لأنّه من «الاجتهاد» في مقابل «النص».

وأعجب من ذلك أنّ جماعة من فقهاء السنّة اعتبروا الآيات المرتبطة بأحكام الزواج مثل الآية ٦ من سورة المؤمنين ناسخة لآية المتعة، وكأنّهم تصوّروا أن زواج المتعة ليس زواجاً أصلاً، في حين أنّه أحد أقسام الزواج.

الزّواج المؤقت ضرورة اجتماعية

هناك قانون عام وهو أنّ الغريزة البشرية الطبيعية إذا لم تلبّ بصورة صحيحة سلك الإنسان لإشباعها وتلبيتها طريقاً منحرفاً، لأنّ من الحقائق المسلمة غير القابلة للإنكار أن الغرائز الطبيعية لا يمكن أن يقضى عليها بالمرّة وحتى إننا إذا استطعنا أن نقضي عليها - افتراضاً - لم يكن هذا العمل عملاً صحيحاً، لأنّه حرب على قانون من قوانين الخلقة.

وعلى هذا فإنّ الطريق الصحيح هو أن نشبع هذه الحاجة، ونلبّي هذه الغريزة بطريقة معقولة، وأن نستفيد منها في سبيل البناء.

على أنّنا لا يمكننا أن ننكر أنّ الغريزة الجنسية هي إحدى أقوى الغرائز الإنسانية إلى درجة أن بعض المحللين النفسانيين اعتبرها الغريزة الإنسانية الأصيلة التي إليها ترجع بقية الغرائز الأُخرى.

فإذا كان الأمر كذلك يُثار سؤال في المقام وهو أنّه قد يكون هناك من لا يمكنه - وفي كثير من الظروف والأحوال - أن يتزوج بالزواج الدائم في سنّ خاص، أو يكون هناك من المتزوجين من سافر في رحلة طويلة ومهمّة بعيدة عن الأهل فيواجه مشكلة الحاجة الجنسية الشديدة التي تتطلب منه التلبية والإرضاء. خاصّة وأنّ هذه المسألة - في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه الزواج صعباً - بسبب طول مدّة الدراسة وبعد زمن

التخرج وبعض المسائل الاجتماعية المعقدة التي قلّما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا في سنّ مبكرة، أي في السن التي تعتبر فترة الفوران الجنسي لدى كل شاب - قد اتّخذت صفة أكثر عنفاً وضراوة، ترى ما الذي يجب عمله في هذه الحالة؟

هل يجب حثّ الناس على أن يقمعوا هذه الغريزة (كما يفعل الرهبان والراهبات)؟

أو أنّه يجب أن يفسح لهم المجال لأن يتحرروا جنسياً فيفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا، فتتكرر الصورة المقرفة؟

أو أن نسلك طريقاً ثالثة تخلو من مشاكل الزواج الدائم، كما وتخلو عن مفاسد التحرر الجنسي أيضاً؟

وخلاصة القول إنّ الزواج الدائم لم يكن لا في السابق ولا في الحاضر بقادر على أن يلبّي كل الاحتياجات الجنسية، ولا أن يحقق رغبات جميع الفئات والطبقات في الناس، فنحن لذلك أمام خيارين لاثالث لهما وهما: إمّا أن نسمح بالفحشاء والبغاء ونعترف به (كما هو الحال في المجتمعات المادية اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصورة قانونية) أو أن نعالج المسألة عن طريق الزواج المؤقت (المتعة) فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكرة البغاء، وفكرة المتعة، على هذا السؤال الملح؟

إنّ أُطروحة الزواج المؤقت (المتعة) ليست مقيدة بشرائط النكاح الدائم لكي يقال بأنّها لا تنسجم ولا تتلاءم مع عدم القدرة المالية، أو لا تتلاءم مع ظروف الدراسة، كما لا تنطوي على اضرار الفحشاء والبغاء ومفاسده وويلاته.

مآخذ على الزواج المؤقت

نعم هناك مآخذ على الزواج المؤقت لابدّ أن نذكرها هنا، ونجيب عليها باختصار:

١ - ربّما يقال: ما الفرق بين «الزواج المؤقت» و«الزنا»، أليس كلاهما بيع للجسد لقاء دفع مبلغ معين، وفي الحقيقة ليس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء والزنا، نعم غاية الفرق بين الأمرين هو إجراء ما يسمّى بالصيغة، وهي ليست سوى عبارة بسيطة.

والجواب هو: إنّ الذين يرددون هذا الكلام كأنّهم لم يطّلعوا أصلاً على مفهوم الزواج المؤقت وحقيقته، لأنّ الزواج المؤقت ليس عبارة عن مجرّد كلمتين تقال وينتهي كل شيء، بل ثمّة مقررات نظير ما في الزواج الدائم، يعني أنّ المرأة المتمتع بها تكون

- طوال المدّة المضروبة في الزواج المؤقت - خاصّة بالرجل المتمتع، ثمّ عندما تنتهي المدّة المذكورة يجب على المرأة أن تعتدّ، يعني أن تمتنع من الزواج مطلقاً برجل آخر لمدّة خمسة وأربعين يوماً على الأقل، حتى يتبيّن هل أنّها حملت من الرجل الأوّل أو لا، على أنّها يجب أن تعتد حتى إذا توسّلت بوسائل لمنع الحمل أيضاً وإذا حملت من ذلك الرجل وأتت بوليد وجب أن يتكفله ذلك الرجل كما يتكفل أمر ولده من الزواج الدائم ويجري عليه من الأحكام كل ما يجري على الولد الناشىء من الزواج الدائم، في حين أنّ الزنا والبغاء لا ينطوي على أي شيء من هذه الشروط والحدود، فهل يمكن أن نقيس هذا الزواج بالبغاء؟

نعم إنّ بين الزواج المؤقت والزواج الدائم بعض الفروق من حيث التوارث بين الزوجتين[1] والنفقة وبعض الأحكام، ولكن هذه الفروق لا تسبب في أن يجعل «الزواج المؤقت» في رديف البغاء، خلاصة القول: إنّ المتعة نوع من الزواج بمقررات الزواج والنكاح.

٢ - إنّ «الزواج المؤقت» يتيح لبعض الأشخاص من طلاب الهوى أن يسيء استعمال هذا القانون، وأن يرتكبوا كل فاحشة تحت هذا الستار لدرجة أن ذوي الشخصيات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج، بل وتأنف منه كما أن ذوات الشخصية من النساء يأبين ذلك أيضاً.

والجواب هو: وأي قانون في عالمنا الراهن لم يُسأ استعماله؟ وهل يجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضيه الفطرة البشرية وتمليه الحاجة الاجتماعية الملحّة بحجّة أنّ هناك من يسيء استعماله، أم أن علينا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحيح؟

لو أنّ البعض استغل موسم الحج لبيع المخدرات على الحجيج - افتراضاً - فهل يجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن، أم نمنع من اشتراك الناس في هذا المؤتمر الإسلامي العظيم؟

وهكذا الأمر في هذا المقام، وإذا لاحظنا بعض الناس من ذوي الشخصيات يكره الأخذ بهذا القانون الإسلامي (أي الزواج المؤقت) لم يكشف ذلك عن عيب في القانون، بل يكشف عن عيب في العاملين به، أو بتعبير أصح: يكشف عن عيب في الذين يسيئون استخدام القانون.

---

(١) طبعاً ليس هناك أي فرق بين أولاد الزواج المؤقت وأبناء الزواج الدائم من هذه النواحي.

فلو أنّ الزواج المؤقت اتّخذ في المجتمع المعاصر صورته الصحيحة، وقامت الحكومة الإسلامية بتطبيقه على النحو الصحيح، وضمن ضوابطه ومقرراته الخاصّة به، أمكن المنع من سوء استخدام المستغلين لهذا القانون، كما لم يعد ذوو الشخصيات يكرهون هذا القانون ويرفضونه عند وجود ضرورة اجتماعية أيضاً.

٣ - يقولون: إنّ «الزواج المؤقت» يتسبب في أن ينشأ في المجتمع أطفال بلا أُسر، تماماً كما يحصل من البغاء من الأولاد غير الشرعيين.

والجواب هو: إنّ الإجابة على هذه المؤاخذة تتّضح تماماً ممّا قلناه، لأنّ الأولاد غير الشرعيين غير مرتبطين بآبائهم ولا أُمهاتهم من الناحية القانونية، في حين أنّ الأولاد الناتجين من الزواج المؤقت لا يختلفون في أي شيء عن الأولاد الناشئين من الزواج الدائم حتى في الميراث وسائر الحقوق الاجتماعية، وهذا الاعتراض نشأ من عدم الانتباه إلى هذه الحقيقة الساطعة في صعيد الزواج المؤقت.

«راسل» والزواج المؤقت

في خاتمة هذا البحث من المفيد الإشارة إلى موضوع هام ذكره في هذا المجال العالم الإنجليزي المعروف «برتراند راسل» في كتابه: «الزواج والأخلاق» تحت عنوان «زواج اختياري».

لقد كتب راسل بعد أن ذكر اقتراحاً لأحد قضاة محاكم الشباب يدعى «بن بي ليندسي» في مجال «الزواج الودّي أو الزواج الاختياري» قائلاً: وفق هذا الاقتراح يجب أن يكون الشباب قادرين على أن يدخلوا في نوع جديد من الزواج يختلف عن الزواج المتعارف (الدائم) من ثلاث نواح:

أوّلاً: أن لا يقصد الطرفان الحصول على أبناء، ولهذا يجب أن يتعرفوا على أفضل السبل لمنع الحمل.

وثانياً: أن يتمّ الافتراق بين الطرفين بأبسط الطرق وأسهلها.

وثالثاً: أن لا تستحق المرأة أي نفقة من الرجل بعد وقوع الافتراق والطلاق بينهما.

ثمّ إنّ راسل بعد أن يذكر خلاصة ما اقترحه «الیندسي» يقول: وإنّي لأتصور أنّ مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور كبير من الشباب وخاصّة الطلبة الجامعيين على الزواج المؤقت ولدخلوا في حياة مشتركة مؤقتة، حياة تتمتع بالحرية، وخالصة من

كثير من التبعات والعواقب السيئة للعلاقات الجنسية الطائشة، الراهنة»[١].

إنّ هذا الطرح - كما تلاحظ أيّها القارىء الكريم - حول الزواج المؤقت يشابه إلى حدّ كبير قانون الزواج المؤقت الإسلامي، غاية ما هنالك أنّ الشروط التي قرّرها الإسلام في صعيد «الزواج المؤقت» أوضح وأكمل من نواحٍ كثيرة اعتبرت في ذلك الطرح (الذي اقترحه ليندسي)، هذا مضافاً إلى أنّ المنع من تكون الولد في الزواج المؤقت الإسلامي غير موجود وأنّ الانفصال سهل، كما أنّه لا تجب النفقة في هذا الزواج على الرجل.

ثمّ إنّ الله سبحانه قال - بعد ذكر وجوب دفع المهر -: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ وهو بذلك يشير إلى أنّه لا مانع من التغيير في مقدار الصداق إذا تراضى طرفا العقد، وعلى هذا الأساس يكون الصداق نوعاً من الدين الذي يخضع للتغيير من زيادة أو نقصان إذا تراضيا. (ولا فرق في هذا الأمر بين العقد المؤقت والعقد الدائم وإن كانت الآية الحاضرة - كما شرحنا ذلك سلفاً - تدور حول الزواج المؤقت).

ثمّ إنّ هناك احتمالاً آخر في تفسير الآية أيضاً وهو أنّه لا مانع من أن يقدم الطرفان - بعد انعقاد الزواج المؤقت على تمديد مدّة هذا الزواج وكذا التغيير في مقدار المهر برضا الطرفين، وهذا يعني أنّ مدّة الزواج المؤقت قابلة للتمديد حتى عند إشرافها على الانتهاء (أي قبيل انتهائها) بأن يتفق الزوجان أن يضيفا على المدّة المتفق عليها في مطلع هذا الزواج، مدّة أُخرى معينة لقاء إضافة مقدار معين من المال إلى الصداق المتفق عليه أوّلاً (وقد أُشير في روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا التّفسير أيضاً).

ثمّ إنّه سبحانه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يريد بذلك أنّ الأحكام المذكورة في هذه الآية تتضمّن خير البشرية وصلاحها وسعادتها لأنّ الله عليم بمصالحهم، حكيم في ما يقرره لهم من القوانين.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ

(١) من كتاب (زناشوئى وأخلاق)، ص ١٨٩ - ١٩٠.

بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

التّزوج بالإماء

تعقيباً على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبيّن شروط التزويج بالإماء، فتقول أولاً: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا(١) أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ أي من لم يجد قدرة مالية على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على مهرهنّ ونفقتهنّ، فإنّ له أن يتزوج ممّا ملكت أيمانكم من الإماء، فإنّ مهورهنّ أقل، ومؤنتهنّ أخفّ عادةً.

على أنّ المراد من الأمة هنا هي أمة الغير، إذ لا يجوز لصاحب الأمة أن يتزوج بأمته ويتعامل معها كما يتعامل مع زوجته بشروط مذكورة في الكتب الفقهية.

كما أنّ التعبير بـ«المؤمنات» في الآية يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمة» التي يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، وعلى هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثمّ إنّ الملفت للنظر في المقام هو أنّ القرآن عبر عن الإماء بالفتيات جمع فتاة، وهو مشعر عادة بالاحترام الخاص الذي يولى للنساء، وهي تستخدم غالباً في الشّابات من الإناث.

ثمّ إنّ الله سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ ويريد بذلك أنّكم لستم مكلّفين - في تشخيص إيمان الإماء - إلاّ بالظاهر، وأمّا الباطن فالله هو الذي يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، والمطلع على الضمائر.

وحيث إنّ البعض كان يكره التزوج بالإماء ويستنكف من نكاحهنّ قال تعالى:

(١) «الطول» على وزن «نوع» مأخوذ من الطول (على وزن النور) بمعنى القدرة والإمكانية المالية وما شابه ذلك.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي إنّكم جميعاً من أب واحد، وأُمّ واحدة، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتي لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم، واللائي يشبهن غيرهنّ من ناحية القيمة المعنوية، فقيمتهنّ تدور مدار التقوى والإيمان لا غير.

وخلاصة القول إنّ الإماء من جنسكم، وكلّكم كأعضاء جسم واحد.

نعم لابدّ أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهنّ وإلاّ كان باطلاً، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ والتعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشارة إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنهنّ متاع أو بضاعة، بل يجب أن يكون التعامل معهنّ على أنهنّ من أعضاء العائلة، فلابدّ أن يكون تعاملاً إنسانياً كاملاً.

ثمّ إنّه سبحانه قال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ومن هذه الجملة يستفاد أنّ الصّداق الذي يعطى لهنّ يجب أن يكون متناسباً مع شأنهن ومكانتهن، وأن يعطى المهر لهنّ، يعني أن الأمة تكون هي المالكة للصداق، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أنّ في الآية حذفاً، أي إنّ الأصل هو (وآتوا مالكهنّ أجورهنّ)(١) غير أنّ التّفسير لا يوافق ظاهر الآية، وإن كانت تؤيده بعض الروايات والأخبار.

هذا ويستفاد أيضاً من ظاهر الآية أنّه يمكن للعبيد والإماء أن يملكوا ما يحصلون عليه بالطرق المشروعة.

كما يستفاد من التعبير بـ «المعروف» أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء في تعيين مقدار المهر، بل هو حقهنّ الطبيعي الحقيقي الذي يجب أن يعطى إليهنّ بالقدر المتعارف.

ثمّ إنّ الله سبحانه ذكر شرطاً آخر من شروط هذا الزواج، وهو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللائي لم يرتكبن البغاء إذ قال: (محصنات) سواءً بصورة علنية ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ أو بصورة خفية ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾(٢) أي أصدقاء وأخلاء في السرّ.

ويمكن أن يرد هنا سؤال وهو أنّ النهي عن الزنا بلفظة (غير مسافحات) تكفي وتغني عن النهي عن اتّخاذ الأخدان، فلماذا الوصف الثاني أيضاً؟

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) الأخدان جمع «خدن» وهي بمعنى الرفيق والخل في الأصل، ولكنّها تستعمل عادة في الأشخاص الذين يقيمون علاقات جنسية غير مشروعة مع الجنس الآخر، ولابدّ أن نعرف أنّ القرآن أطلق لفظة الخدن على المرأة كما أطلقها على الرجل.

ويجاب على هذا: بأنّ البعض - في عهد الجاهلية - كان يرى أنّ المذموم فقط هو الزنا العلني والسفاح الظاهر، وأمّا اتّخاذ الأخلاء والرفاق أو الرفيقات في السرّ فلا بأس به، وبهذا يتّضح سبب ذكر القرآن وتصريحه بكلا النوعين.

ثمّ إن الله سبحانه قال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وتتضمن الآية بحثاً حول عقوبة الإماء إذا خرجن عن جادة العفة والطهر، وذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء، وبعض الأحكام حول حقوقهنّ.

والحكم المذكور في هذا المجال هو أنّ الإماء إذا زنين فجزاؤهنّ نصف جزاء الحرائر إذا زنين، أي خمسون جلدة.

ثمّ إنّ هاهنا نقطة جديرة بالانتباه هي أنّ القرآن الكريم يقول في هذا المقام (إذا أُحصنّ) فيكون معناه أنّ الجزاء المذكور إنّما يترتب على زنا الأمة إذا أُحصنت، فماذا يعني ذلك؟

لقد احتمل المفسّرون هنا احتمالات عديدة، فبعضهم ذهب إلى أنّ المراد هو الأمة ذات بعل (وذلك حسب الاصطلاح الفقهي المعروف والآية السابقة).

وذهب آخرون إلى أنّ المراد هو الأمة المسلمة، بيد أن تكرار لفظة المحصنة مرّتين في الآية يقضي بأن يكون المعنى واحداً في المقامين، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن جزاء النساء المحصنات هو الرجم لا الجلد، فيتّضح أنّ التّفسير الأوّل وهو تفسير المحصنة بالأَمة ذات بعل غير مقبول، كما أنّ التّفسير الثّاني وهو كون المراد من المحصنة هو المسلمة ليس له ما يدل عليه.

فالحقّ هو أنّ مجيء لفظة (المحصنات) في القرآن الكريم بمعنى المرأة العفيفة الطاهرة - على الأغلب - يجعل من القريب إلى النظر أن تكون لفظة المحصنة هنا في الآية الحاضرة مشيرة إلى هذا المعنى نفسه، فيكون المراد أنّ الإماء اللاتي كن يرتكبن الفاحشة بضغط وإجبار من أوليائهنّ لا يجري عليهنّ الحكم المذكور (أي الجلد)، أمّا الإماء اللاّتي لم يتعرضن للضغط والإجبار، ويمكنهنّ أن يعشن عفيفات نقيات، فإنّهنّ إذا أتين بالفاحشة عوقبن كما تعاقب الحرائر وإن كانت عقوبة هذا النوع من الإماء على النصف من حدّ الحرائر في الزنا.

ثمّ قال سبحانه معقباً على الحكم السابق: (ذلك لمن خشي العنت منكم) و«العنت» (على وزن سند) يقال في الأصل للعظم المجبور - بعد الكسر - إذا أصابه ألم وكسر آخر فهضّه قد أعنته، لأنّ هذا النوع من الكسر مؤلم جدّاً، ولهذا يستعمل في المشاكل الباهظة والأعمال المؤلمة.

ويقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة أنّ الزواج بالإماء إنّما يجوز لمن يعاني من ضغط شديد بسبب شدّة غلبة الغريزة الجنسية عليه ولم يكن قادراً على التزوج بالحرائر من النساء، وعلى هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة.

ويمكن أن تكون فلسفة هذا الحكم في أنّ الإماء خاصّة في تلك العهود لم يحظين بتربية جيدة، ولهذا كنّ يعانين من نواقص خلقية ونفسية وعاطفية، ومن الطبيعي أن يتّخذ الأطفال المتولدون من هذا الزواج صفة الأُمهات ويكتسبوا خصوصياتهنّ الخلقية، ولهذا السبب طرح الإسلام طريقة دقيقة لتحرير العبيد تدريجاً حتى لا يبتلوا بهذا المصير السيىء، وفي نفس الوقت فسح للأرقاء أنفسهم أن يتزوجوا فيما بينهم.

نعم، هذا الموضوع لا يتنافى مع وضع بعض الإماء اللائي حظين بوضع استثنائي وخاص من الناحية الخلقية والتربوية، فالحكم المذكور أعلاه يرتبط بأغلبية الإماء، وكون بعض أُمهات الأئمّة، من أهل البيت النبوي عليهم السلام من الإماء هو من هذه الجهة، ولكن لابدّ من الانتباه إلى أنّ ما قيل في مجال الإماء من «المنع في غير الضرورة» هو الزواج بهنّ، لا نكاحهنّ بسبب الملك، فإنّه لا مانع منه حتى في غير الضرورة.

ثمّ عقب سبحانه على ذلك بقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي إن صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم وما لم تقعوا في الزنا خير لكم ومن مصلحتكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر الله لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

هذه القيود لماذا؟

بعد أن بيّن الله سبحانه في الآيات السابقة ما هناك من شروط وقيود وأحكام مختلفة في مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال في ذهن البعض وهو: ما المقصود من كلّ هذه القيود ولماذا الحدود القانونية؟ ألم يكن من الأفضل أن تترك للأفراد الحرية الكاملة في هذه المسائل، ليتاح لهم أن يستفيدوا من هذا الأمر وليتعرفوا في هذا المجال كما يفعل عبدة الدنيا حيث يتوسلون بكل وسيلة في طريق اللّذة؟

إنّ الآيات الحاضرة هي في الحقيقة إجابة على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي إنّ الله يبيّن لكم الحقائق بواسطة هذه القوانين ويهديكم إلى ما فيه مصالحكم، مع العلم بأنّ هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافاً إلى أنّ الله تعالى يريد أن يغفر لكم ويعيد عليكم نعمه التي قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جادة الحقّ، وكل هذا إنّما يكون إذا عُدتم عن طريق الانحراف الذي سلكتموه في عهد الجاهلية وقبل الإسلام.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم بأسرار الأحكام، ويشرعها لكم عن حكمة.

ثمّ إن الله سبحانه أكّد ما مرّ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي إنّ الله يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التي قطعت ومنعت عنكم بسبب ذنوبكم، وارتكابكم للشّهوات، ولكن الذين يريدون الانسياق وراء الشّهوات والغارقين في الآثام والذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعادة، إنّهم يريدون أن تسايروهم في اتّباع الشّهوات وأن تنغمسوا في الآثام انغماساً كاملاً، فهل ترون - والحال هذه - أنّ هذه القيود والحدود الكفيلة بضمان سعادتكم وخيركم ومصلحتكم أفضل لكم، أو الحرية المنفلتة المقرونة بالانحطاط الخلقي، والفساد والسقوط؟

إنّ هذه الآيات في الحقيقة تجيب على تساؤل أُولئك الأفراد الذين يعيشون في عصرنا الحاضر أيضاً والذين يعترضون على القيود والحدود المفروضة في مجال القضايا الجنسية، وتقول لهم: إنّ الحريات المطلقة المنفلتة ليست أكثر من سراب، وهي لا

تنتج سوى الانحراف الكبير عن طريق السعادة والتكامل الإنساني، وكما توجب التورط في المتاهات والمجاهل، وتستلزم العواقب الشريرة التي يتجسد بعضها في ما نراه بأُم أعيننا من تبعثر العوائل، ووقوع أنواع الجرائم الجنسية البشعة، وظهور الأمراض التناسلية والآلام الروحية والنفسية المقيتة، ونشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساة الجناة.

ثمّ إنّه سبحانه يقول بعد كل هذا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وهذه الآية إشارة إلى أنّ النقطة التالية، وهي أنّ الحكم السابق في مجال حرية التزوج بالإماء بشروط معينة ما هو - في الحقيقة - إلاّ تخفيف وتوسعة، ذلك لأنّ الإنسان خلق ضعيفاً، فلابدّ وهو يواجه طوفان الغرائز المتنوعة الجامحة التي تحاصره وتهجم عليه من كل صوب وحدب أن تطرح عليه طرق ووسائل مشروعة لإرضاء غرائزه، ليتمكن من حفظ نفسه من الانحراف والسقوط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الاقتصاد

الآية الأُولى من هاتين الآيتين تشكل - في الحقيقة - القاعدة الأساسية للقوانين الإسلامية في مجال المسائل المتعلقة «بالمعاملات والمبادلات المالية» ولهذا يستدلّ بها فقهاء الإسلام في جميع أبواب المعاملات والمبادلات المالية.

إنّ هذه الآية تخاطب المؤمنين بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهذا يعني أنّ أي تصرف في أموال الغير بدون حق أو بدون أي مبرر منطقي ومعقول، ممنوع ومحرم من وجهة نظر الإسلام، فقد أدرج الإسلام كل هذه الأمور تحت عنوان «الباطل» الذي له مفهوم واسع وكبير.

والباطل كما نعلم يقابل «الحقّ» وهو شامل لكل ما ليس بحقّ وكلّ ما لا هدف له ولا أساس.

وفي آيات أُخرى من القرآن الكريم أكّد سبحانه هذا المعنى بعبارات شبيهة بالعبارة المذكورة في الآية الحاضرة، فعندما يشنّع على اليهود ويذكر أعمالهم القبيحة يقول: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾(١) ويقول في الآية (١٨٨) من سورة البقرة: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ كمقدمة للنهي عن جرّ الناس إلى المحاكم وأكل أموالهم بحجج واهية غير منطقية.

وعلى هذا الأساس يندرج تحت هذا العنوان الكلي كل لون من ألوان العدوان، والغش، وجميع المعاملات الرّبوية، والمعاملات المجهولة الخصوصيات تماماً، وتعاطي البضائع التي لا فائدة فيها بحكم العقلاء، والتجارة بأدوات اللهو والفساد والمعصية وما شاكل ذلك.

وتفسير بعض الروايات كلمة «الباطل» بالقمار(٢) والرّبا(٣) وما شابه ذلك إنّما هو في الحقيقة من باب ذكر المصاديق الواضحة لهذا المفهوم، وليس من باب الحصر والقصر.

ولعلّنا لا نحتاج إلى التذكير بأنّ التعبير بـ«الأكل» كناية عن كل تصرف، سواء تمّ بصورة الأكل المتعارف أو اللبس، أو السكنى أو غير ذلك، تعبير رائج في اللغة العربية وغير العربية، غير غريب على الاستعمال.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول معقباً على العبارات السابقة: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ﴾.

وهذه العبارة استثناء من القانون الكلي، وهو بحسب الاصطلاح «استثناء منقطع»(٤) وهو يعني أنّ ما جاء في هذه العبارة لم يكن مشمولاً بالحكم السابق من الأساس، بل قد ذكر تأكيداً وتذكيراً، فهو في حدّ ذاته قانون كلي، وضابطة عامّة برأسها، لأنّه يقول:

(١) سورة النساء، الآية: ١٦١.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ١٦٦، ١٦٧.
(٣) تفسير علي بن ابراهيم القمي، ج ١، ص ١٣٦.
(٤) الاستثناء المنقطع يأتي - غالباً - لتأكيد عمومية الحكم العام، وهو أمر صادق في المقام، هذا مضافاً إلى أنّه يكشف عن هذه الحقيقة، وهي أن تحريم التصرفات الباطلة لا يقفل عليكم أبواب الرزق والحياة، بل في إمكانكم أن تحققوا أهدافكم عن طريق التجارة المشروعة والكسب المباح شرعاً.

إلاّ أن يكون التصرف في أموال الآخرين بسبب التجارة الحاصلة في ما بينكم، والتي تكون عن رضا الطرفين.

فبناء على هذا تكون جميع أنواع المعاملات المالية والتبادل التجاري الرائج بين الناس - في ما إذا تمّ برضا الطرفين وكان له وجه معقول - أمراً جائزاً من وجهة نظر الإسلام (إلاّ الموارد التي ورد فيها نهي صريح لمصالح خاصّة).

ثمّ إنّه تعالى ينهى في ذيل هذه الآية عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ وظاهر هذه الجملة بقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ النهي عن الانتحار، يعني أنّ الله الرحيم كما لا يرضى بأن تقتلوا أحداً، كذلك لا يسمح لكم ولا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم، وقد فسّرت الآية الحاضرة في روايات أهل البيت عليهم السلام بالانتحار أيضاً[١].

وهنا يطرح سؤال وهو: أي ارتباط بين مسألة قتل الإنسان لنفسه، و«التصرف الباطل في أموال الناس»؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضح تماماً، وفي الحقيقة يشير القرآن بذكر هذين الحكمين بصورة متتالية إلى نكتة اجتماعية مهمّة، وهي أنّ العلاقات الاقتصادية في المجتمع إذا لم تكن قائمة على أساس صحيح، ولم يتقدم الاقتصاد الاجتماعي في الطريق السليم، ووقع الظلم والتصرف العدواني في أموال الغير أُصيب المجتمع بنوع من الانتحار، وآل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردي مضافاً إلى الانتحار الجماعي الذي هو من آثار الانتحار الفردي ضمناً.

إنّ الحوادث والثورات التي تقع في المجتمعات العالمية المعاصرة خير شاهد وأفضل دليل على هذه الحقيقة، وحيث إنّ الله لطيف بعباده رحيم بخلقه فقد أنذرهم وحذرهم من مغبّة الأمر، وحثّهم على تجنب المبادلات الاقتصادية المالية غير الصحيحة، وحذّرهم من أن الاقتصاد المريض يؤدّي بالمجتمع إلى السقوط والانهيار، والفناء والاندحار.

كما حذّر قائلاً: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ[٢] نَارًاۚ﴾ أي إنّ من

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ذيل الآية، وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٧٢.

(٢) «الصليّ» يعني في الأصل الاقتراب إلى النار، ويطلق على التدفؤ والاحتراق والاكتواء بالنار أيضاً، وقد استعملت في الآية الحاضرة بمعنى الاحتراق بالنار.

يعصي هذه الأحكام ويتجاهل هذا التحذير، ويأكل أموال الآخرين بالباطل ودون استحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصبه العذاب الاليم في الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهي، وهذا أمر هيّن على الله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

التّفسير

المعاصي الكبيرة والصّغيرة

هذه الآية تقول بصراحة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

ومن هذا التعبير يستفاد أنّ المعاصي والذنوب على قسمين:

القسم الأوّل: هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

والقسم الثّاني وهو ما يسمّيه القرآن الكريم بالسّيئة.

وقد عبّر في الآية (٣٢) من سورة النجم «باللمم»[١] بدلاً عن السيئة، وفي الآية (٤٩) من سورة الكهف لفظة «الصّغيرة» في مقابل الكبيرة عندما يقول: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

ومن التعابير المذكورة يثبت - بوضوح - أنّ الذنوب والمعاصي على صنفين محددين، يعبّر عنهما تارةً بالكبيرة والصغيرة، وتارةً أُخرى بالكبيرة والسيئة، وثالثة بالكبيرة و«اللمم».

والآن يجب أن نعرف ما هو الملاك والضابطة في تحديد الصّغيرة والكبيرة.

يذهب البعض إلى أنّ هذين الوصفين من الأُمور النسبية، تكون كل معصية بالنسبة إلى ما هو أكبر منها صغيرة، وبالنسبة إلى ما هو أصغر منها كبيرة[٢].

ولكن من الواضح أنّ هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية الحاضرة، لأنّ الآية

---

(١) «اللمم» (على وزن القسم) تعني الأعمال الصغيرة غير الهامة.

(٢) وقد نسب العلاّمة الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان هذا الإعتقاد إلى علماء الشيعة، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فلكثير من علماء الشيعة رأي آخر سنأتي على ذكره بالتفصيل.

الحاضرة تقسم الذنوب إلى صنفين مستقلين، وتعتبرهما نوعين متقابلين، وتعتبر الاجتناب عن صنف موجباً للعفو والتكفير عن الصنف الآخر.

ولكننا إذا راجعنا المعنى اللغوي للكبيرة وجدنا أنّ الكبيرة هي كل معصية بالغة الأهميّة من وجهة نظر الإسلام، ويمكن أن تكون علامة تلك الأهميّة أنّ القرآن لم يكتف بالنهي عنها فقط، بل أردف ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس والزنا وأكل الربا وأمثال ذلك، ولهذا جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام: «الكبائر التي أوجب الله عزّ وجلّ عليها النار»، وقد روي مضمون هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام، والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام [1].

وعلى هذا الأساس تسهل معرفة المعاصي الكبيرة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الضابطة المذكورة، وما قد ذكر في بعض الروايات من أنّ عدد الكبائر سبع وفي بعضها عشرون وفي بعضها سبعون لا ينافي ما ذكرناه قبل قليل، إذ إنّ بعض هذه الروايات يشير - في الحقيقة - إلى المعاصي الكبيرة من الدرجة الأُولى، وبعضها الآخر يشير إلى المعاصي الكبيرة من الدرجة الثّانية، وبعضها الثالث يشير إلى جميع الذّنوب الكبيرة.

إشكال:

يمكن أن يقال إنّ هذه الآية تشجع الناس على ارتكاب المعاصي والذنوب الصغيرة إذاً، كأنّها تقول: لا بأس بارتكاب المعاصي الصغيرة شريطة ترك الكبائر من الذنوب.

الجواب:

إنّ الجواب على هذا الإشكال يتّضح من التعبير المذكور في الآية الحاضرة، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني أنّ اجتناب عن الذنوب الكبار، خصوصاً مع توفر أرضية ارتكابها، يوجد حالة من التقوى الروحية لدى الإنسان يمكنها أن تطهره من آثار الذنوب والمعاصي الصغيرة.

وفي الحقيقة أنّ الآية الحاضرة تشبه الآية (١١٤) من سورة هود التي تقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فهي إشارة إلى أحد الآثار الواقعية للأعمال الصالحة وهو يشبه ما إذا قلنا: إذا اجتنب الإنسان المواد السّامة الخطيرة وتوفرت له صحة جيدة ومناعة قوية أمكنه أن يتخلص من الآثار السيئة لبعض الأطعمة غير المناسبة، لسلامة مزاجه، وبسبب مناعته الجسمية.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٧٣؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٦.

وبتعبير آخر إنّ التكفير عن الذنوب الصغيرة وغفرانها يعدّ نوعاً من «الأجر المعنوي» لتاركي المعاصي والذنوب الكبيرة، ولهذا - في الحقيقة - أثر تشجيعي قوي على ترك الكبائر، محفّز على اجتنابها.

متى تنقلب الصّغيرة إلى كبيرة؟

إلاّ أنّ هاهنا نقطة مهمّة لابدّ من الالتفات إليها، وهي أنّ المعاصي الصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور وطغيان، لأنّ الصغائر - كما يستفاد من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة - تتبدل إلى الكبيرة في عدّة موارد هي:

١ - إذا «تكررت الصغيرة»، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «لا صغيرة مع الإصرار».

٢ - إذا استصغر صاحب المعصية معصيته واستحقرها، فقد جاء في نهج البلاغة: «أشدّ الذّنوب ما استهان به صاحبه».

٣ - إذا ارتكبها مرتكبها عن عناد واستكبار وطغيان وتمرد على أوامر الله تعالى، وهذا هو ما يستفاد من آيات قرآنية متنوعة إجمالاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[1].

٤ - إن صدرت المعصية ممن لهم مكانة اجتماعية خاصّة بين الناس وممن لا تحسب معصيتهم كمعصية الآخرين، فقد جاء في القرآن الكريم حول نساء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في سورة الأحزاب الآيـة (٣٠): ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وقد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً»[2].

٥ - أن يفرح مرتكب المعصية بما اقترفه من المعصية، ويفتخر بذلك كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من أذنب ذنباً وهو ضاحك دخل النّار وهو باك»[3].

٦ - أن يعتبر تأخير العذاب العاجل عنه على المعصية دليلاً على رضاه تعالى، ويرى العبد نفسه محصناً من العقوبة آمناً من العذاب، أو يرى لنفسه مكانة عند الله لا يعاقبه الله على معصية لأجلها، كما جاء في سورة المجادلة الآية (٨) حاكياً على لسان بعض

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ - ٣٩.
(٢) المحجة البيضاء، ج ٧، ص ٦١.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٠٤ ، ٣٣٨.

العصاة المغرورين الذين يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، ثمّ يرد عليهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

سبب النّزول

قال المفسّر الشّهير الطّبرسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مجمع البيان»: قيل إنّ أُم سلمة (وهي من أزواج النّبي ﷺ) قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنّما لنا نصف الميراث؟ فليتنا رجال ونغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال، فنزلت الآية تجيب على جميع هذه التساؤلات(١).

ونقرأ في تفسير المنار: إنّ جماعة من الرجال المسلمين قالوا: نرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضّلنا عليهنّ في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت جماعة من النساء المسلمات: إنا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فنزلت الآية(٢).

وقد ذكر سبب النّزول هذا بعينه في تفسير «في ظلال القرآن» وتفسير «روح المعاني» مع فارق بسيط.

التّفسير

لقد أوجب التفاوت في سهم الرجال والنساء من الإرث - كما قرأت في سبب النزول - تساؤلاً لدى البعض، ويبدو أنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذا التفاوت إنّما هو لأجل أنّ النفقة بكاملها على الرجل، وليس على النساء شيء من نفقات العائلة، بل نفقة المرأة

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ والتفسير الكبير، ج ١٠، ص ٦٤.
(٢) المصدر السابق.

هي الأُخرى مفروضة على الرجل، ولهذا يكون ما تصيبه المرأة ضعف ما يصيبه الرجل من الثروة، ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، لأنّ لكل نوع من أنواع هذا التفضيل والتفاوت أسرار خفيّة عنكم غير ظاهرة لكم، سواء كان التفاوت من جهة الخلقة والجنسية وبقية الصفات الجسمية والروحية التي تشكل أساس النظام الاجتماعي فيكم، أو من الناحية الحقوقية بسبب اختلاف الموقع والمكانة كالتفاوت في سهم الإرث، إنّ جميع أنواع هذا التفاوت قائم على أساس العدل والقانون الإلهي الحكيم، ولو كانت مصلحتكم في غير ذلك لسنّه وبيّنه لكم.

وعلى هذا فإن تمنّي تغيير هذا الوضع نوع من المخالفة للمشيئة الرّبانية التي هي عين الحق والعدالة.

على أنّه يجب أن لا نتصور خطأً أنّ الآية الحاضرة تشير إلى التفاوت المصطنع الذي برز نتيجة الاستعمار والاستغلال الطبقي، بل تشير إلى الفروق الطبيعية الواقعية، لأنّ الفروق المصطنعة لا هي من المشيئة الإلهية في شيء، ولا أن تمني تغييرها مرفوض وغير صحيح، بل هي فروق ظالمة وغير منطقية يجب السعي في رفعها وإزالتها وتفنيدها، فللمثال: لا يمكن للنساء أن يتمنين أن يكُنّ رجالاً، كما لا يمكن للرجال أن يتمنوا أن يكونوا نساء، لأنّ وجود هذين الجنسين أمر ضروري للنظام الاجتماعي الإنساني، ولكن هذا التفاوت الجنسي يجب أن لا يتّخذ ذريعة لأن يسحق أحد الجنسين حقوق الجنس الآخر، ومن هنا فإنّ الذين اتّخذوا هذة الآية ذريعة لإثبات التمييز الاجتماعي الظالم أو تصوروها حجّة على هذا التميز قد أخطاوا خطأً كبيراً.

ولذا عقّب الله سبحانه على الجملة السابقة فوراً بقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي لكلّ من الرجال والنساء نصيب من سعيه وجهده ومكانته سواء كانت مكانة طبيعية (كالتفاوت والفرق بين جنسي الرجل والمرأة) أو غير طبيعية ناشئة عن التفاوت بسبب الجهود الاختيارية.

إنّ الجدير بالإلتفات هنا هو أنّ لكلمة «الاكتساب» التي هي بمعنى التحصيل مفهوماً واسعاً يشمل الجهود الاختيارية، كما يشمل ما يحصل عليه الإنسان بواسطة بنيانه الطبيعي.

ثمّ يقول: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أي بدل أن تتمنوا هذا التفضيل والتفاوت اطلبوا

من فضل الله واسألوا من لطفه وكرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعة وتوفيقاته ومثوباته الطيبة، لتكونوا - بنتيجة ذلك - سعداء رجالاً ونساء، ومن أي عنصر كنتم، وعلى كل حال اطلبوا واسألوا ما فيه خيركم وسعادتكم واقعاً، ولا تتمنّوا ما هو خيال أو ما تتخيلونه (ولعلّ التعبير بلفظة «من فضله» إشارة إلى المعنى الأخير).

على أنّه من الواضح جدّاً أنّ طلب الفضل والعناية الرّبانية ليس بمعنى أن لا يسعى الإنسان في الأخذ بأسباب كلّ شيء وعوامله، بل لابدّ من البحث عن فضل الله ورحمته من خلال الأسباب التي قرّرها وأرساها في الكون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع وما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، ولهذا لا وجود للظلم والحيف ولا لأي شيء من التفاوت الظالم والتمييز غير العادل في أفعاله، كما أنّه تعالى خبير بما في بواطن الناس من الأسرار والخفايا والنوايا ويعلم من الذي يتمنّى الأماني الخاطئة في قلبه، ومن يتمنّى الأماني الإيجابية الصحيحة البنّاءة.

التفاوت الطبيعي بين النّاس لماذا؟

إنّ ثمّة كثيرين يطرحون على أنفسهم السّؤال التالي: لماذا خلق البعض بمواهب وقابليات أكثر، وآخرون بمواهب وقابليات أقل، والبعض متحلّين بالجمال، وآخرون خلواً منه، أو بجمال قليل، والبعض بامتيازات جسمية عالية وقوّة متفوقة، وآخرون عاديين، هل يتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهي؟؟.

في الإجابة على هذه التساؤلات لابدّ من الالتفات إلى النقاط التالية:

١ - إنّ بعض الفروق الجسمية والروحية بين الناس ناشئة عن الاختلافات الطبقية والمظالم الاجتماعية، أو التفريط الفردي الذي لا علاقة له بنظام الخلق وجهاز الإيجاد أبداً، فمثلا كثير من أبناء الأغنياء أقوى من أبناء الفقراء وأكثر جمالاً وتقدماً من ناحية المواهب والقابليات بسبب أن الفريق الأوّل (أولاد الأغنياء) يحظى بإمكانيات أكبر من حيث الغذاء والجوانب الصحية، في حين يعاني الفريق الثاني من حرمان ونقصان من هذه الجهة. أو أنّ هناك من يخسر الكثير من طاقاته الجسمية والروحية بسبب التواني، والبطالة، والتفريط والتقصير.

إنّنا يجب أن نعتبر هذه الفروق وهذا التفاوت تفاوتاً مصطنعاً ومزيفاً، وغير مبرر، ويتحقق القضاء عليها من خلال القضاء على النظام الطبقي، وتعميم العدالة الاجتماعية

في الحياة البشرية، والقرآن الكريم والإسلام لا يقرّ أي شيء من هذه الفروق، وأيّ لون من ألوان هذا التفاوت والتميز أبداً.

٢ - إنّ القسم الآخر من الفروق وألوان التفاوت أمر طبيعي، وشيء لازم من لوازم الجبلّة البشرية، بل وضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، يعني أنّ مجتمعاً من المجتمعات حتى إذا كان يحظى بالعدالة الاجتماعية الكاملة لا يمكن أن يكون جميع أفراده متساوين وعلى نمط واحد وصورة واحدة مثل منتجات معمل، بل لابدّ أن يكون هناك بعض التفاوت، ولكن يجب أن نعلم أنّ المواهب الإلهية والقابليات الجسمية والروحية قد قسمت - في الأغلب - تقسيماً يصيب فيه كل واحد قسطاً من تلك المواهب والقابليات، لا أن يحظى بعض بجميع المواهب، ويحرم آخرون من أي شيء منها، بمعنى أنّه قل أن يوجد هناك من تجتمع فيه كل المواهب جملة واحدة، بل هناك من يحظى بالمقدرة البدنية الكافية، وآخر يحظى بموهبة رياضية جيدة، ومن يحظى بذوق شعري رفيع، وآخر يحظى برغبة كبيرة في التجارة، ومن يتمتع بذكاء وافر في مجال الزراعة، وآخر بمواهب وقابليات خاصّة أُخرى.

المهم أن يكتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلك المواهب والقابليات، وأن يقوموا بتربيتها وتنميتها في بيئة سليمة، حتى يتمكّن كل إنسان من إظهار ما ينطوي عليه من نقطة ضعف ويستفيد منها.

٣ - يجب أن نذكّر القارىء أيضاً بأنّ المجتمع مثل الجسد الإنساني بحاجة إلى الأنسجة والعضلات والخلايا المختلفة، يعني كما أنّ البدن لو تألف جميعه من خلايا دقيقة ورقيقة مثل خلايا العين والمخ لم يدم طويلاً، ولو تألف جميعه من خلايا غليظة وخشنة لا تعرف انعطافاً مثل خلايا العظام، فقدت القدرة الكافية على القيام بوظائفها، بل لابدّ أن تكون الخلايا المكونة للجسم متنوعة، ليصلح بعضها للقيام بوظيفة التفكير، وبعضها للمشاهدة والنظر، وآخر على الاستماع ورابع على التحدّث، هكذا لابدّ لوجود «المجتمع الكامل» من وجود عناصر ذات مواهب وقابليات وأذواق، وتراكيب مختلفة متنوعة، بدنية وفكرية، لكن لا يعني هذا أن يعاني بعض أعضاء الجسد الاجتماعي من حرمان، أو تستصغر خدماته أو يستحقر دوره، تماماً كما تستفيد كل خلايا البدن الواحد رغم ما بينها من تفاوت وفروق من الغذاء والهواء وغيرها من الحاجات بالمقدار اللازم لكل واحد.

وبعبارة أُخرى: إنّ الفروق وأشكال التفاوت في البنية الروحية والجسمية في

الجوانب الطبيعة (التي لا هي ظالمة ولا هي مفروضة) إنّما هي في الحقيقة مقتضى «الحكمة الرّبانية»، والعدل لا يمكنه بحال أن ينفصل عن الحكمة.

فعلى سبيل المثال إذا كانت خلايا الجسم البشري مخلوقة في شكل واحد كان ذلك بعيداً عن الحكمة كما أنّه خال عن العدل الذي يعني وضع كل شيء في محله وموضعه المناسب، وكذلك إذا تشابه الناس في يوم من الأيّام في التفكير أو تشابهوا في القابلية والموهبة لتهافت بنيان المجتمع برمّته في ذلك اليوم.

إذن فما ورد في هذه الآية في مجال التفضيل والتفاوت في جبلّة الرجل والمرأة وخلقتهما إنّما هو في الواقع إشارة إلى هذا الموضوع، لأنّه من البديهي إذا كان البشر جميعاً رجالاً، أو كانوا جميعاً نساء لانقرض النوع البشري عاجلاً، هذا مضافاً إلى انتفاء قسم من ملاذّ البشر المشروعة.

فإذا اعترض جماعة قائلين لماذا خلق البشر صنفين رجالاً ونساء؟ وزعموا بأنّ هذا الأمر لا يتلاءم مع العدالة الإلهيّة، لم يكن هذا الاعتراض منطقياً، لأنّهم لم يلتفتوا إلى حكمة هذا التفاوت، ولم يتدبّروا فيها.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

التّفسير

يعود القرآن مرّة أُخرى إلى مسألة الإرث إذ يقول: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ[1] مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي لكل رجل أو امرأة جعلنا ورثة يرثون ممّا ترك الوالدان والأقربون الذي يجب أن يقسّم بينهم طبق برنامج خاص.

إنّ هذه العبارة هي - في الحقيقة - خلاصة أحكام الإرث التي مرّ ذكرها في الآيات السابقة في مجال الأقرباء، وهي مقدمة لحكم سيأتي بيانه في ما بعد.

(١) «الموالي» جمع مولى، وهي في الأصل من مادة الولاية بمعنى الإتصال والإرتباط، وتطلق على جميع الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بنوع من الإرتباط، غاية ما هناك أنّها تكون في بعض الموارد بمعنى إرتباط الولي مع أتباعه، وأمّا في الآية الحاضرة فتكون بمعنى الورثة.

ثمّ إنّ الله تعالى يضيف قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقداً نصيبهم من الإرث.

والتعبير عن الميثاق بعقد اليمين (وهو العقد باليد اليمنى) لأجل أنّ الإنسان غالباً ما يستفيد من يده اليمنى للقيام بأعماله، كما أنّ الميثاق يشبه نوعاً من العقد (في مقابل الحل).

والآن لننظر من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لابدّ أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟

يحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد هو الزوج والزوجة لأنّهما عقدا في ما بينهما رابطة الزوجية.

ولكن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنّ التعبير عن الزواج بعقد اليمين ونظيره في القرآن الكريم قليل جداً، هذا مضافاً إلى أنّه يعد تكراراً للمواضيع السابقة.

إنّ ما هو أقرب إلى مفهوم الآية هو عقد «ضمان الجريرة» الذي كان رائجاً قبل الإسلام، وقد عدّله الإسلام بعد أن أقرّه لما فيه من ناحية إيجابية وهو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن يتعاونا فيما بينهما بشكل أخوي أي أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، وإذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقي» ولقد أقرّ الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوي الودّي، ولكنّه أكّد على أنّ التوارث بسبب هذا الميثاق إنّما يمكن إذا لم يكن هناك ورثة من طبقات الأقرباء، يعني إذا لم يبق أحد من الأقرباء ورث ضامن الجريرة الذي وقع بينه وبين الآخر مثل هذا العقد (لمعرفة التفاصيل أكثر راجع بحث الإرث في الكتب الفقهية)[1].

ثمّ ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي إذا قصّرتم في إعطاء نصيب الورثة ولم تعطوهم حقوقهم كاملة، علم الله بذلك ولم يخفَ عليه ما فعلتم، لأنّه على كل شيء شهيد وبكل شيء عليم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ

(١) صورة عقد ضمان الجريرة هكذا «عاقدتك على أن تنصرني وأنصرك وتعقل عني وأعقل عنك وترثني وأرثك» فيقول الآخر: «قبلت».

وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

التّفسير

القوامة في النّظام العائلي

قال الله تعالى في مطلع هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ولابدّ لتوضيح هذه العبارة من الالتفات إلى أنّ العائلة وحدة اجتماعية صغيرة، وهي كالاجتماع الكبير لابدّ لها من قائد وقائم بأمورها، لأن القيادة والقوامة الجماعية التي يشترك فيها الرجل والمرأة معاً، لا معنى لها ولا مفهوم، فلابدّ أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، ويكون «رئيساً» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذي يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرّح - هنا - بأنّ مقام القوامة والقيادة للعائلة لابدّ أن يعطى للرجل (ويجب أن لا يساء فهم هذا الكلام، فليس المقصود من هذا التعبير هو الاستبداد والإجحاف والعدوان، بل المقصود هو أن تكون القيادة واحدة ومنظمة تتحمل مسؤولياتها مع أخذ مبدأ الشورى والتشاور بنظر الاعتبار).

إنّ هذه المسألة تبدو واضحة في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى، وهي أنّ أيّة هيئة حتى المؤلفة من شخصين مكلفة بالقيام بأمر لابدّ أن يتولى أحدهما زعامة تلك الهيئة فيكون رئيسها، بينما يقوم الآخر بمساعدته فيكون بمثابة (المعاون أو العضو)، وإلاّ سادت الفوضى أعمال تلك الهيئة واختلت نشاطاتها وأخفقت في تحقيق أهدافها المنشودة، وهكذا الحال بالنسبة إلى العائلة، فلابدّ من إسناد إدارة العائلة إلى الرجل.

وإنّما تعطى هذه المكانة للرجل لكونه يتمتع بخصوصيات معينة مثل القدرة على ترجيح جانب العقل على جانب العاطفة والمشاعر، (على العكس من المرأة التي تتمتع بطاقة فياضة وطاغية من الأحاسيس والعواطف) ومثل امتلاك بنية داخلية وقوّة بدنية أكبر ليستطيع بالأُولى أن يفكر ويخطط جيداً، ويستطيع بالثانية أن يدافع عن العائلة ويذبّ عنها.

هذا مضافاً إلى أنّه يستحق - لقاء ما يتحمله من الإنفاق على الأولاد والزوجة، ولقاء

ما تعهده من القيام بكل التكاليف اللازمة من مهر ونفقة وإدارة مادية لائقة للعائلة - أن تناط به وظيفة القوامة والرئاسة في النظام العائلي.

نعم، يمكن أن يكون هناك بعض النسوة ممن يتفوّقن على أزواجهنّ في بعض الجهات، إلاّ أنّ القوانين - كما أسلفنا مراراً - تسن بملاحظة النوع ومراعاة الأغلبية لا بملاحظة الأفراد، فرداً فرداً، ولا شك أنّ الحالة الغالبة في الرجال أنّهم يتفوقون على النساء في القابلية على القيام بهذه المهمّة، وإن كانت النسوة يمكنهنّ أن يتعهدن القيام بوظائف أُخرى لا يشك في أهميتها.

إنّ جملة ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إشارة أيضاً إلى هذه الحقيقة، لأنّ القسم الأوّل من هذه الفقرة يقول: إنّ هذه القوامة إنّما هي لأجل التفاوت الذي أوجده الله بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشري، بينما يقول في القسم الثاني منها: وأيضاً لأجل أنّ الرجال كلّفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات والأولاد في مجال الإنفاق والبذل.

ولكن غير خفي أنّ إناطة مثل هذه الوظيفة والمكانة بالرجل لا تدل على أفضلية شخصية الرّجل من الناحية البشرية، ولا يبرر تميزه في العالم الآخر (أي يوم القيامة) لأنّ التميز والأفضيلة في عالم الآخرة يدور مدار التقوى فقط، كما أنّ شخصية المعاونة الإنسانية قد تترجح في بعض الجهات المختلفة على شخصية الرئيس، ولكن الرئيس يتفوق على معاونه في الإدارة التي أُوكلت إليه، فيكون أليق من المعاون في هذا المجال.

ثمّ إنّه سبحانه يضيف قائلاً: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾، وهذا يعني أنّ النساء بالنسبة إلى الوظائف الموكلة إليهنّ في مجال العائلة على صنفين:

الطّائفة الأُولى: وهنّ «الصالحات» أي غير المنحرفات «القانتات» أي الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتي يحفظن حقوق الأزواج وشؤونهم لا في حضورهم فحسب، بل يحفظنهم في غيبتهم، يعني أنهنّ لا يرتكبن أية خيانة سواء في مجال المال، أو في المجال الجنسي، أو في مجال حفظ مكانة الزوج وشأنه الاجتماعي، وأسرار العائلة في غيبته، ويقمن بمسؤولياتهنّ تجاه الحقوق التي فرضها الله عليهنّ والتي عبّر عنها في الآية بقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ خير قيام.

ومن الطبيعي أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هؤلاء النسوة، وحفظ حقوقهنّ، وعدم إضاعتها.

النّساء المقصّرات النّاشزات

الطّائفة الثّانية: النسوة اللاتي يتخلفن عن القيام بوظائفهنّ وواجباتهنّ، وتبدو عليهنّ علائم النشوز واماراته فإنّ على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لابدّ من القيام بها مرحلة فمرحلة، وعلى كل حال يجب أن يراعوا جانب العدل ولا يخرجوا عن حدوده وإطاره، وهذه الوظائف هي بالترتيب:

١ - الموعظة

إنّ المرحلة الأُولى التي على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتي تبدو عليهنّ علائم التمرد والنشوز والعداوة، تتمثل في وعظهن كما قال سبحانه في الآية الحاضرة: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾[1]. وعلى هذا فإنّ النساء اللاتي يتجاوزن حدود النظام العائلي وحرمته لابدّ قبل أي شيء أن يذكَّرن - من خلال الوعظ والإرشاد - بمسؤولياتهنّ وواجباتهنّ ونتائج العصيان والنشوز.

٢ - الهجر في المضاجع

وتأتي هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ ولم تنجع النصيحة ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾، وبهذا الموقف والهجر وعدم المبالاة بالزوجة أظهروا عدم الرضا عن الزوجة، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر في أنفسهنّ.

٣ - الضرب

وأمّا إذا تجاوزن في عصيانهنّ، والتمرد على واجباتهنّ ومسؤولياتهنّ الحدّ، ومضين في طريق العناد واللجاج دون أن يرتدعن بالأساليب السابقة، فلا النصيحة تفيد، ولا العظة تنفع، ولا الهجر ينجح، ولم يبق من سبيل إلاّ استخدام العنف، فحينئذ يأتي دور الضرب (فاضربوهنّ) لدفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ الزوجية لانحصار الوسيلة في هذه الحالة في استخدام شيء من العنف، ولهذا سمح الإسلام في مثل هذه الصورة بالضغط عليهنّ ودفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ من خلال العقوبة الجسديّة.

إشكال:

يمكن أن يعترض معترض في هذا المقام قائلاً: كيف سمح الإسلام للرجال بأن يتوسلوا بأسلوب العقوبة الجسديّة المتمثل بالضرب؟

---

(١) «النشوز» من نشز (على وزن نذر) يعني الأرض المرتفعة، ويكنى به هنا عن الطغيان والترفع.

الجواب:

إنّ الجواب على هذا الاعتراض يبدو غير صعب بملاحظة معنى الآية والروايات الواردة لبيان مفادها وما جاء في توضيحها في الكتب الفقهية، وأيضاً بملاحظة ما يعطيه علماء النفس اليوم من توضيحات علمية في هذا المجال، ونلخص بعض هذه الأمور في نقاط:

أوّلاً: إنّ الآية تسمح بممارسة العقوبة الجسديّة في حق من لا يحترم وظائفه وواجباته، الذي لا تنفع معه أية وسيلة أُخرى، ومن حسن الصدف أنّ هذا الأسلوب ليس بأمر جديد خاص بالإسلام في حياة البشر، فجميع القوانين العالمية تتوسل بالأساليب العنيفة في حق من لا تنجح معه الوسائل والطرق السلمية لدفعه إلى تحمل مسؤولياته والقيام بواجباته، فإنّ هذه القوانين ربّما لا تقتصر على وسيلة الضرب، بل تتجاوز ذلك - في بعض الموارد الخاصّة - إلى ممارسة عقوبات أشد تبلغ حدّ الإعدام والقتل.

ثانياً: إنّ العقوبة الجسديّة المسموح بها هنا يجب أن تكون خفيفة، وأن يكون الضرب ضرباً غير مبرح، أي لا يبلغ الكسر والجرح، بل ولا الضرب البالغ حد السواد كما هو مقرر في الكتب الفقهية.

ثالثاً: إنّ علماء التحليل النفسي - اليوم - يرون أن بعض النساء يعانين من حالة نفسية هي «المازوخية» التي تقتضي أن ترتاح المرأة لضربها وأنّ هذه الحالة قد تشتد في المرأة إلى درجة تحس باللّذة والسكون والرضا إذا ضربت ضرباً طفيفاً.

وعلى هذا يمكن أن تكون هذه الوسيلة ناظرة إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدي الخفيف بمثابة علاج نفسي لهم.

ومن المسلم به أنّ أحد هذه الأساليب لو أثر في المرأة الناشزة ودفعها إلى الطاعة، وعادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية واستقامت في سلوكها لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، ويعمد إلى إيذائها، ومضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب ولهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

ولو قيل: إن مثل هذا الطغيان والعصيان والتمرد على الواجبات الزوجية والعائلية قد يقع من قبل الرجال أيضاً، فهل تشمل هذه المراحل الرجال أيضاً؟ أي أيمكن ممارسة هذه الأمور ضد الرجل كذلك، أم لا؟

نقول في الإجابة على ذلك: نعم إنّ الرجال العصاة يعاقبون حتى بالعقوبة الجسدية

أيضاً - كما تعاقب النساء العاصيات الناشزات - غاية ما هنالك أنّ هذه العقوبات حيث لا تتيسر للنساء، فإنّ الحاكم الشرعي مكلف بأن يذكّر الرجال المتخلفين بواجباتهم ووظائفهم بالطرق المختلفة وحتى بالتعزير (الذي هو نوع من العقوبة الجسدية).

وقصّة الرجل الذي أجحف في حق زوجته ورفض الخضوع للحق، فعمد الإمام علي عليه السلام إلى تهديده بالسيف وحمله على الخضوع، معروفة[1].

ثمّ إنّ الله سبحانه ذكّر الرجال مرّة أُخرى في ختام الآية بأن لا يسيئوا استخدام مكانتهم كقيمين على العائلة فيجحفوا في حق أزواجهم، وأن يفكروا في قدرة الله التي هي فوق كل قدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

محكمة الصّلح العائلية

في هذه الآية إشارة إلى مسألة ظهور الخلاف والنزاع بين الزوجين، فهي تقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ليتفاوضا ويقربا من أوجه النظر لدى الزوجين، ثمّ يقول تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ أي ينبغي أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين في التفاوض بنيّة صالحة ورغبة صادقة في الإصلاح، فإنّهما إن كانا كذلك أعانهما الله ووفق بين الزوجين بسببهما.

ومن أجل تحذير (الحكمين) وحثّهما على استخدام حسن النّية، يقول سبحانه في ختام هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

إنّ محكمة الصلح العائلية التي أشارت إليها الآية الحاضرة، هي إحدى مبتكرات الإسلام العظيمة، فإنّ هذه المحكمة تمتاز بميزات تفتقر إليها المحاكم الأُخرى، من جملتها:

١ - إن البيئة العائلية بيئة عاطفية، ولذلك فإن المقياس الذي يجب أن يتّبع في هذه

(١) بحار الانوار، ج ٤١، ص ٥٧.

البيئة، يختلف عن المقاييس المتبعة في البيئات الأُخرى، يعني كما أنّه لا يمكن العمل في «المحاكم الجنائية» بمقياس المحبّة والعاطفة، فإنّه لا يمكن - في البيئة العائلية - العمل بمقياس القوانين الجافة والضوابط الصارمة الخالية عن روح العاطفة، فهنا يجب حل الخلافات العائلية بالطرق العاطفية قدر الإمكان، ولهذا يأمر القرآن الكريم أن يكون الحكمان في هذه المحكمة ممن تربطهم بالزوجين رابطة النسب والقرابة ليمكنهما تحريك المشاعر والعواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين، ومن الطبيعي أن تكون هذه الميزة هي ميزة هذا النوع من المحاكم خاصّة دون بقية المحاكم الأُخرى.

٢ - إنّ المدعي والمدعى عليه في المحاكم العادية القضائية مضطرين - تحت طائلة الدفاع عن النفس - أن يكشفا عن كل ما لديهما من الأسرار، ومن المسلم به أنّ الزوجين لو كشفا عن الأسرار الزوجية أمام الأجانب والغرباء لجرح كل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحيث لو اضطر الزوجان أن يعودا - بحكم المحكمة - إلى البيت لما عادا إلى ما كانا عليه من الصفاء والمحبة السالفة، بل لبقيا يعيشان بقية حياتهما كشخصين غريبين مجبرين على القيام بوظائف معينة، ولقد دلّت التجربة وأثبتت أنّ الزوجين اللذين يضطران إلى التحاكم إلى مثل هذه المحاكم لحل ما بينهما من الخلاف لم يعودا ذينك الزوجين السابقين.

بينما لا تطرح أمثال هذه الأُمور في محاكم الصلح العائلية للاستحياء من الحضور، أو إذا اتفق أن طرحت هذه الأُمور فإنّها تطرح في جو عائلي، وأمام الأقرباء فإنّها لن تنطوي على ذلك الأثر السيّىء الذي أشرنا إليه.

٣ - إنّ الحكمين في المحاكم العادية المتعارفة لا يشعران عادة بالمسؤولية الكاملة في قضايا الخلاف والمنازعات، ولا تهمهما كيفية انتهاء القضية المرفوعة إلى المحكمة، هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق، أو ينفصلان مع طلاق؟

في حين أنّ الأمر في محكمة الصلح العائلية على العكس من ذلك تماماً، فإن الحكمين في هذه المحكمة حيث يرتبطان بالزوجين برابطة القرابة، فإنّ لافتراق الزوجين أو صلحهما أثراً كبيراً في حياة الحكمين من الناحية العاطفية، ومن ناحية المسؤوليات الناشئة عن ذلك، ولهذا فإنّهما يسعيان - جهد إمكانهما - أن يتحقق الصلح والسلام والوفاق والوئام بين الزوجين اللذين يمثلانهما، وأن يعيدا المياه إلى مجاريها كما يقول المثل.

٤ - مضافاً إلى كلّ ذلك فإنّ مثل هذه المحكمة لا تعاني من أية مشكلات، ولا تحتاج إلى أية ميزانيات باهظة، ولا تعاني من تلك الخسارة والإنفاق الذي تعاني منه المحاكم العادية، فهي تستطيع أن تقوم بأهدافها وتحقق أغراضها من دون أية كلفة وفي أقل مدّة من الزمن.

ولا يخفى أنّه يجب أن يتم اختيار الحكمين من بين الأشخاص المحنّكين المطّلعين المعروفين في عائلتي الزوجين بالفهم وحسن التدبير.

مع هذه المميزات التي عددناها يتبيّن أنّ هذه المحكمة تحظى بفرصة الإصلاح بين الزوجين.

إنّ مسألة الحكمين وما يشترط فيهما من الشروط، ومدى صلاحيتهما وما يحكمان به في مجال الزوجين، قد ذكر في الكتب الفقهية بالتفصيل، منها أن يكون الحكمان بالغين عاقلين عادلين بصيرين بعملهما.

وأمّا مدى نفوذ حكمهما في حق الزوجين، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى نفوذ كل ما يصدرانه من حكم في هذا المجال، وظاهر التعبير به «حكم» في الآية الحاضرة يفيد هذا المعنى أيضاً، لأنّ مفهوم الحكمية والقضاء هو نفوذ الحكم مهما كان، ولكن أكثر الفقهاء يرون نفوذ ما يراه الحكمان في مورد التوفيق بين الزوجين ورفع الاختلاف والنزاع بينهما، بل يرون نفوذ ما يشترطه الحكمان على الزوجين، وأمّا حكمهما في مجال الطلاق والافتراق بين الزوجين فغير نافذ لوحده، وذيل الآية الذي يشير إلى مسألة الإصلاح أكثر ملاءمة مع هذا الرأي، وللتوسع في هذا المجال يجب مراجعة الكتب الفقهية.

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

الآية الحاضرة تبيّن سلسلة من الحقوق الإسلامية بما فيها الحقوق الإلهية، وحقوق العباد، وآداب العشرة مع الناس، ويستفاد منها عشرة تعاليم:

١ - واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً

إنّ الآية تدعو الناس قبل أي شيء إلى عبادة الله والخضوع له وحده، وترك الشرك والوثنية التي هي أساس كل البرامج والمناهج الإسلامية.

إنّ الدّعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده تطهر الروح، وتخلص النّية، وتقوي الإرادة، وتشدد من عزيمة الإنسان على الإتيان بأي برنامج مفيد.

وحيث إنّ الآية الحاضرة تبيّن سلسلة من الحقوق الإسلامية لذلك فقد أشارت إلى حقّ الله على الناس قبل أي شيء وقبل أي حقّ وقالت: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾.

٢ - وبالوالدين إحساناً

ثمّ إنّها تشير إلى حقّ الوالدين وتوصي بالإحسان إليهما ولا شك أنّ حقّ الوالدين من القضايا التي يهتمّ بها القرآن الكريم كثيراً، وقلّما حظي موضوع بمثل هذا الاهتمام والعناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين بعد الدعوة إلى التوحيد في العبادة في أربعة مواضع في القرآن الكريم[1] ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

من هذه التعابير المتكررة يستفاد أنّ ثمّة ارتباطاً بين هاتين المسألتين، والقضية في الحقيقة كالتالي: حيث إنّ أكبر نعمة هي نعمة الوجود والحياة وهي مأخوذة من جانب الله سبحانه في الدرجة الأُولى، فيما ترتبط بالوالدين في الدرجة الثانية، لأنّ الولد جزء من وجود الوالدين، لذلك كان ترك حقوق الوالدين وتجاهلها، في مصافّ الشرك بالله سبحانه.

هذا ولنا أبحاث مفصلة حول حقوق الوالدين في ذيل الآيات المناسبة في سورة الإسراء ولقمان بإذن الله تعالى.

٣ - وبذي القُربى

ثمّ إنّها توصي بالإحسان إلى كلّ الأقرباء، وهذا الموضوع من المسائل التي يهتم بها القرآن الكريم اهتماماً بالغاً تارة تحت عنوان: «صلة الرحم» وأُخرى بعنوان «الإحسان إلى القُربى» وقد أراد الإسلام بهذا - في الحقيقة - أن يقوي من أواصر العلاقة الواسعة

---

(١) البقرة، ٨٣؛ الأنعام، ١٥١؛ الإسراء، ٢٣؛ مضافاً إلى الآية الحاضرة.

بين جميع أفراد البشر مضافاً إلى إيجاد أواصر وعلاقات أقوى وأمتن منها في الوحدات الاجتماعية التي هي أكثر انسجاماً مثل «العشيرة» و«العائلة» ليستطيعوا التعاون في ما بينهم عند ظهور المشاكل والحوادث، والتعاون على الدفاع عن حقوقهم.

٤ - واليتامى

ثمّ أشارت إلى حقوق «اليتامى» وأوصت المؤمنين ببرهم والإحسان إليهم، لأنّه يوجد في كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفة، لا يهدد تناسيهم وإهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعي بصورة عامّة، لأنّ الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولاية أو حماية ولم ينالوا حاجتهم من المحبّة واللطف يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين، بل أشخاص خطرين جُناة.

وعلى هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحساناً إلى الفرد وإلى المجتمع معاً.

٥ - والمساكين

ثمّ يذكّر سبحانه - في هذه الآية - بحقوق الفقراء والمساكين، لأنّه قد يوجد حتى في المجتمع السليم الذي يسوده العدل من يعاني من نواقص وعاهات تعوقه عن الحركة والنشاط والفعالية، ولا شك أنّ تناسي هؤلاء أمر يخالف كل الأُسس والقيم الإنسانية، فلابدّ من تقديم العون إليهم، ومعالجة حرمانهم.

وأمّا إذا كان الفقر والحرمان الذي يعاني منه الأفراد الأصحاء ناشئين عن الانحراف عن مبادىء وأُسس العدالة الاجتماعية فإنّه لابدّ من مكافحتهما أيضاً.

٦ - والجار ذي القربى

ثمّ يوصي بالجيران من ذوي القربى، وهناك احتمالات متعددة حول المراد من «الجار ذي القربى» أبداها المفسرون، فبعضهم قال: معناه الجار القريب في النسب، غير أنّ هذا التّفسير يبدو بعيداً بملاحظة العبارات السابقة التي أشارت إلى حقوق الأقرباء في هذه الآية، فلابدّ أن يكون المراد هو القرب المكاني لا القرب النسبي، لأنّ الجيران الأقربين مكاناً يستحقون احتراماً وحقوقاً أكثر من غيرهم، أو أن يكون المراد الجيران الأقربين إلى الإنسان من الناحية الدينية والاعتقادية.

٧ - والجار الجنب

ثمّ إنّها توصي بالجيران البعيدين، والمراد - كما أسلفنا - هو البعد المكاني، لأنّ

كل أربعين داراً من بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله تعتبر من الجيران، كما تصرح بعض الروايات[١]، وهذا يستوعب في المدن الصغيرة كل المدينة تقريباً (لأنّنا لو فرضنا دار كل شخص مركز دائرة يقع في امتداد شعاعها من كل صوب أربعون بيتاً لاتّضحت من خلال محاسبة بسيطة مساحة هذه الدائرة التي يكون مجموع البيوت الواقعة فيها ما يقرب من خمسة آلاف بيت، ومن المعروف أنّ المدن الصغيرة قلّما تتشكل من أكثر من هذا العدد من المنازل والبيوت.

والجدير بالتأمل أنّ القرآن يصرّح في هذه الآية - مضافاً إلى ذكر الجيران القريبين- بحقّ الجيران البعيدين، لأنّ لفظة الجار لها في العادة مفهوم محدود وضيق وتشمل الجيران القريبين فقط، ولهذا لم يكن بدّاً في نظر الإسلام أن يذكّر بالجيران البعيدين أيضاً.

كما يمكن أن يكون المراد من الجيران البعيدين الجيران غير المسلمين، لأنّ حقّ الجوار غير منحصر في نظر الإسلام بالجيران المسلمين، فهو يعمّ المسلمين وغير المسلمين (اللّهم إلاّ الذين يحاربون المسلمين ويعادونهم).

إنّ لحقّ الجوار في الإسلام أهميّة بالغة إلى درجة أنّنا نقرأ في وصايا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المعروفة: «ما زال (رسول الله) يوصي بهم حتى ظننا أنّه سيورثهم»[٢] (وقد ورد هذا الحديث في مصادر أهل السنة أيضاً فقد روي في تفسير المنار وتفسير القرطبي من البخاري مثل هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً)[٣].

وروي في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال ذات يوم: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، فقيل: يا رسول الله ومن؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[٤].

كما نقرأ في حديث آخر أيضاً أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[٥].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٠؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٩.
(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.
(٣) تفسير الكامل لابن اثير، ج ٢، ص ٢٦٠.
(٤) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٥٤؛ ذيل الآية مورد البحث.
(٥) تفسير المنار، ج ٥، ص ٩٢، طبعة بيروت.

وروي عن الإمام الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال: «حسن الجوار يعمر الدّيار ويزيد في الأعمار»(١).

في عالمنا المادي حيث لا يعرف الجار عن جاره شيئاً، بل وربّما لا يتعرف على اسم صاحبه بعد عشرين سنة من الجيرة والجوار يتألّق هذا التعليم الإسلامي في حق الجار بشكل خاص، فإنّ الإسلام يقيم للعلاقات العاطفية والتعاون الإنساني وزناً خاصّاً، ويوليها اهتماماً كبيراً، في حين تؤول هذه العلاقات والعواطف في الحياة الصناعية المادية إلى الزوال يوماً بعد يوم، وتعطي مكانها إلى القسوة والجفاء والخشونة.

٨ - والصّاحب بالجنب

ثمّ أوصت بالرّفيق والصّاحب، غير أنّه لابدّ من الانتباه إلى أنّ لـ «الصاحب بالجنب» معنى أوسع من الرفيق والصديق المتعارف، وفي الحقيقة تشمل كل من رافق أو صاحب الإنسان مرافقة ما سواء كان صديقاً دائمياً أو صديقاً مؤقتاً (كالذي يرافق الإنسان في السفر بعض الوقت) وتفسير لفظة «الصاحب بالجنب» في بعض الروايات بالرفيق مثل «رفيقك في السفر»(٢) أو الذي يقصد الإنسان رجاء نفعه مثل: (المنقطع إليك يرجو نفعك»(٣) ليس المراد هو اختصاص هذا العنوان بهم، بل هو نوع من التوسعة في مفهوم هذه اللفظة بحيث تشمل هذه الموارد أيضاً، وبهذا الطريق تكون هذه الآية أمراً كلياً وجامعاً بحسن معاشرة كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقاً واقعياً، أو زميلاً، أو رفيق سفر، أو مراجعاً، أو تلميذاً، أو مشاوراً، أو خادماً.

وقد فسرت لفظة الصاحب بالجنب في بعض الروايات بالزّوجة، وقد روى صاحب تفسير المنار، وتفسير روح المعاني والقرطبي في ذيل هذه الآية هذا المعنى عن علي عليه السلام، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضاً.

٩ - وابن السبيل

وأمّا الصنف الآخر الذي أوصت بهم الآية هنا فهم الذين تحدث لهم حاجة في السفر

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢٠. تفسير الصافي، ج ١ ص ٤٤٩.

(٢) بحار الانوار، ج ٤، ص ٩؛ تفسير العياشي، ج١، ص ٢٤١.

(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

وبلاد الغربة، فابن السبيل هو الذي ينقطع في السفر وإن كان يمكن أن يكون متمكّناً ذا مال في بلده، والتعبير عن هذا الشخص بابن السبيل (أي ابن الطريق) إنّما هو لأجل أنّنا لا نعرفهم أصلاً حتى ننسبهم إلى عائلة أو قبيلة أو شخص، بل لابدّ أن نحميهم بمجرّد أنّهم مسافرون انقطعوا في السفر، وبرزت لديهم حاجة إلى المساعدة والعون.

١٠ - وما ملكت أيمانكم

وفي نهاية المطاف توصي هذه الآية بالإحسان إلى العبيد والأرقاء، وبهذا تكون الآية - في الحقيقة - قد بدأت بحق الله، وختمت بحقوق العبيد، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

على أنّ هذه الآية ليست هي الآية الوحيدة التي توصي بالعبيد، بل لقد بحثت هذه المسألة في آيات مختلفة أُخرى أيضاً.

هذا مضافاً إلى أنّ الإسلام قد نظم برنامجاً دقيقاً لتحرير العبيد تدريجاً، والذي يؤول في النتيجة إلى تحريرهم المطلق، وسوف نتحدّث عن هذه المسألة في ذيل الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّه سبحانه يقول في ختام هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ وهو بذلك يحذر كل من يتمرّد ويعصي أوامر الله، ويتقاعس عن القيام بحقوق أقربائه ووالديه واليتامى والمساكين وابن السبيل والأصدقاء والأصحاب بدافع التكبر، بأنّه سيكون معرضاً لسخط الله، وسيحرم من عنايته سبحانه، ولا ريب أنّ من حرم من اللطف الإلهي والعناية الرّبانية حرم من كل خير وسعادة.

وتؤيد هذا المعنى روايات وأخبار قد رويت في ذيل هذه الآية منها ما عن أصحاب النّبي ﷺ حيث قال: كنت عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ فذكر الكبر فعظمه، فبكى ذلك الصحابي فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ فقال: يا رسول الله إنّي لأُحب الجمال حتى إنّه ليعجبني أن يحسن شراك نعلي قال: «فأنت من أهل الجنّة، إنّه ليس بالكبر أن تحسن راحلتك ورحلك، ولكن الكبر من سفه الحقّ وغمص الناس»[1].

والخلاصة أنّ ما يستفاد من العبارة الاخيرة هو أنّ مصدر الشرك وهضم حقوق

---

(١) غمص الناس: احتقرهم واستصغرهم ولم يرهم شيئاً. انظر لسان العرب (غمص).

الآخرين الأنانية والتكبر غالباً، ولا يستطيع أداء تلك الحقوق، وخاصّة حقوق الأيتام والمساكين والأرقاء إلاّ من تحلّى بروح التواضع ونكران الذات[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

الإنفاق رياء والإنفاق قربة

الآية الأُولى من هذه الآيات الثلاث - هي في الحقيقة - تعقيب على الآيات السابقة وإشارة إلى المتكبرين إذ تقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ هذا مضافاً إلى أنّهم يسعون دائماً أن يخفوا عن الآخرين ما تفضل الله عليهم به من الخير كيلا يتوقع المجتمع منهم شيئاً ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾.

ثمّ يقول عن نهاية هذا الفريق من الناس وعاقبة أمرهم: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ ولعل السرّ في استخدام هذا التعبير في حق هذه الطائفة هو أنّ «البخل» ينبع في الغالب من الكفر، لأنّ البخلاء لا يمتلكون الإيمان الكامل بالمواهب الربانية المطلقة والوعود الإلهيّة العظيمة للمحسنين. إنّهم يتصورون أنّ مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم يجرّ إليهم التعاسة والشقاء.

وأمّا الحديث عن الخزي في عذاب هؤلاء، فلأن الجزاء المناسب للتكبر والاستكبار هو العذاب المهين.

---

(١) «مختال» من مادة «خيال» حيث يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيلات عظيماً وكبيراً، وسمي الخيل خيلاً لأن مشيته تشبه مشية المتكبر، «فخور» من مادة «فخر» والفرق بينها وبين الأُولى أنّ المختال إشارة إلى تخيلات الكبر في مجالها الذهني والأُخرى يراد بها الأعمال الصادرة عن كبر في المجال الخارجي.

ثمّ إنّه لا بدّ من الالتفات إلى أنّ البخل لا يختص بالأُمور المالية، بل يشمل كل نوع من أنواع الموهبة الإلهيّة، فثمّة كثيرون لا يعانون من صفة البخل الذميمة في المجال المالي، ولكنّهم يبخلون عن بذل العلم أو الجاه أو الأُمور الأُخرى من هذا القبيل.

ثمّ إن الله سبحانه يذكر صفة أُخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إنّهم ينفقون أموالهم لا في سبيل الله وكسب رضاه، بل مراءاة الناس لكسب السمعة وجلب الشهرة والجاه، وبالتالي ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمة الناس وكسب رضا الله سبحانه، ولهذا فإنّهم لا يتقيدون في من ينفقون عليه بملاك الاستحقاق، بل يفكرون دائماً في أنه كيف يمكنهم أن يستفيدوا من إنفاقاتهم ويحققوا ما يطمحون إليه من أغراض شخصية، وأهداف خاصّة، كتقوية نفوذهم وتكريس موقعهم في المجتمع مثلاً، لأنّهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولهذا السبب يفتقر إنفاقهم إلى الدافع المعنوي الذي ينبغي توفره في الإنفاق، بل دافعهم هو الوصول إلى الشّهرة والشّخصية الكاذبة المزيفة من هذا السبيل، وهذا هو أيضاً من آثار التكبر ونتائج الأنانية.

إنّ هؤلاء اختاروا الشّيطان رفيقاً وقريناً لهم: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ إنّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشّيطان، لأنّ منطقهم هو منطق الشيطان، وسلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنّه هو الذي يقول لهم: إنّ الإنفاق بإخلاص يوجب الفقر ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾(١) ولهذا فإمّا أن يبخلوا ويمتنعوا عن الإنفاق والبذل (كما أُشير إلى هذا في الآية السابقة) أو أنّهم ينفقون إذا ضمن هذا الإنفاق مصالحهم الشخصية وعاد عليهم بفوائد شخصية (كما أُشير إلى ذلك في الآية الحاضرة).

من هذه الآية يستفاد مدى ما للقرين السيىء من الأثر في مصير الإنسان، ذلك الأثر الذي ربّما يبلغ في آخر المطاف حدّ السقوط الكامل.

كما يستفاد أنّ علاقة «المتكبرين» بـ«الشيطان والأعمال الشيطانية» علاقة مستمرة ودائمة لا مؤقتة ولا مرحلية، ذلك لأنّهم اختاروا الشيطان قريناً ورفيقاً لأنفسهم.

وهنا يقول سبحانه وكأنّه يتأسف على أحوال هذه الطائفة من الناس ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أيّ شيء عليهم لو تركوا هذا السلوك وعادوا إلى جادة الصواب وأنفقوا ممّا رزقهم الله من الخير والنعمة في سبيل الله،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

بإخلاص لا رياء، وكسبوا بذلك رضا الله، وتعرضوا للطفه وعنايته، وأحرزوا سعادة الدنيا والآخرة؟

فلماذا لا يفكر هؤلاء ولا يعيدون النظر في سلوكهم؟ ولماذا ترى يتركون طريق الله الأنفع والأفضل ويختارون طريقاً أُخرى لا تنتج سوى الشقاء، ولا تنتهي بهم إلاّ إلى الضرر والخسران؟

وعلى كل حال فإنّ الله يعلم بأعمالهم ونواياهم ويجزيهم بما عملوا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

والجدير بالانتباه أنّ الإنفاق في الآية السابقة التي كان الحديث فيها حول الإنفاق مراءاة نُسب إلى الأموال ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وفي هذه الآية نسب إلى ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا التفاوت والاختلاف في التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى ثلاث نقاط:

أوّلاً: إنّه في الإنفاق رياء لا تلحظ حلّية المال وحرمته، في حين تلحظ في الإنفاق لله حلّية المال وأن يكون مصداق ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

ثانياً: إنّه في الإنفاق رياء حيث إنّهم يحسبون أنّ المال الذي ينفقونه خاص بهم، لذلك فهم لا يمتنعون عن الكبر والمنّ، في حين أنّ المنفقين لله حيث يعتقدون بأنّ الله هو الذي رزقهم ما يملكون من المال، وأنّه لا مجال للمنّ إذا هم أنفقوا شيئاً من ذلك، ولذلك يمتنعون من الكبر والمنّ.

ثالثاً: إنّ الإنفاق رياء ينحصر غالباً في المال، لأنّ أمثال هؤلاء محرومون من أي رأسمال معنوي لينفقوا منه، ولكن الإنفاق لوجه الله تتسع دائرته فتشمل كل المواهب الإلهيّة من المال، والعلم والجاه، والمكانة الاجتماعية وما شابه ذلك من الأُمور المادية والمعنوية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

ما هي «الذّرة»؟

«الذّرة» في الأصل هي النملة الصغيرة التي لا تُرى، وقال البعض: هي من أجزاء

الهباء والغبار في الكوّة الذي يظهر عند دخول شعاع الشمس خلالها، وقيل أيضاً إنّه الغبار الدقيق المتطاير من يدي الإنسان إذا جعلهما على التراب وما شابهه ثمّ نفخهما.

ولكنّها أُطلقت تدريجاً على كل شيء صغير جدّاً، وتطلق الآن ويراد منها ما يتكون من الإلكترون والبروتون أيضاً، لأنّها إذا كانت تطلق سابقاً على أجزاء الغبار، فلأن تلك الأجزاء كانت أصغر أجزاء الجسم، ولكن حيث ثبت اليوم أنّ أصغر أجزاء «الجسم المركب» هو «المولوكول» أو الجزيئة، وأصغر أجزاء «الجسم البسيط» هو «الذّرات»، اختيرت لفظة «الذّرة» في الاصطلاح العلمي على تلك الجزيئات التي لا ترى بالعين المجرّدة، بل لا يمكن أن ترى حتى بأقوى الميكروسكوبات الإلكترونية، وإنّما يحسّ بوجودها من خلال القوانين والمعادلات العلمية والتصوير بآلات مزودة بأدقّ الأجهزة وأقواها، وبما أنّ «مثقال» يعني الثقل، فإنّ التعبير بمثقال ذرة يعني جسماً في غاية الدقة والصغر.

إنّ الآية الحاضرة تقول: إنّ الله لا يظلم قط زنة ذرة، بل يضاعف الحسنة إذا قام بها أحد، ويعطي من لدنه على ذلك أجراً عظيماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

إنّ هذة الآية - في الحقيقة - تقول للكافرين الذين يبخلون والذين مرّ الحديث عن أحوالهم في الآيات السابقة: إنّ العقوبات التي تصيبكم ما هي في الحقيقة إلاّ جزاء ما قمتم به من الأعمال، وإنّه لا يصيبكم أي ظلم من جانب الله، بل لو أنّكم تركتم الكفر والبخل وسلكتم طريق الله لنلتم المثوبات العظيمة المضاعفة.

ثمّ إنّه لابدّ من الانتباه إلى أن لفظة «ضعف» و«المضاعف» تعني في اللغة العربية ما يعادل الشيء أو يربو عليه مرّات عديدة، وعلى هذا الأساس لاتنافي هذه الآية الآيات الأُخرى التي تقول: إن أجر الإنفاق قد يصل إلى عشرة أضعاف، وقد يصل إلى سبعمائة ضعف....

وعلى أي حال فإنّها تحكي عن لطف الله بالنسبة إلى عباده، حيث لا يعاقبهم على سيئاتهم وذنوبهم بأكثر ممّا عملوا، بينما يضاعف الأجر أضعافاً كثيرة إذا أتوا بحسنة واحدة.

يبقى أن نعرف لماذا لا يظلم الله سبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأن الظلم عادة - إمّا ناشيء عن الجهل، وإمّا ناشيء عن الحاجة، وإمّا ناشيء عن نقص نفسي.

ومن كان عالماً بكل شيء، وكان غنيّاً عن كل شيء، ولم يكن يعاني من أي نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساساً، لا أنّه تعالى لا يقدر على الظلم، ولا أن الظلم غير متصوّر في حقّه (كما تذهب إليه طائفة من الأشاعرة)، بل مع قدرته تعالى على الظلم - لا يظلم أبداً لحكمته وعلمه، فهو يضع كل شيء في عالم الوجود موضعه، ويعامل كل أحد حسب عمله، وطبقاً لسلوكه وسيرته.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

شهود يوم القيامة

تعقيباً على الآيات السابقة التي كانت تدور حول العقوبات والمثوبات المعدّة للعصاة والمطيعين، جاءت هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود في يوم القيامة فتقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ وهكذا يكون نبي كل أُمّة شهيداً عليها، مضافاً إلى شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه، وشهادة الأرض التي عليها عاش، وشهادة ملائكة الله على أعماله وتصرفاته، ويكون نبيّ الإسلام ﷺ وهو آخر أنبياء الله ورسله وأعظمهم، شاهداً على أُمّته أيضاً، فكيف يستطيع العصاة مع هؤلاء الشهود إنكار حقيقة من الحقائق، وتخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

ثمّ إنّ نظير هذا المضمون قد جاء أيضاً في عدّة آيات قرآنية أُخرى، منها الآية (١٤٣) من سورة البقرة، والآية (٨٩) من سورة النحل، والآية (٧٨) من سورة الحج.

والآن يطرح هذا السؤال، وهو: كيف تتمّ شهادة الأنبياء على أعمال أُممهم، وكيف تكون؟

إذا كانت كلمة «هؤلاء» إشارة إلى المسلمين كما جاء في تفسير مجمع البيان، فإنّ الجواب على هذا السؤال يكون واضحاً، لأنّ كل نبيّ ما دام موجوداً بين ظهراني أُمّته فهو شاهد على أعمالهم، وبعده يكون أوصياؤه وخلفاؤه المعصومون هم الشهداء على

أعمال تلك الأُمّة، ولهذا جاء في حق المسيح عليه السلام أنه يقول في يوم القيامة في جواب سؤال الله سبحانه إيّاه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

ولكن بعض المفسرين احتمل أن تكون لفظة «هؤلاء» إشارة إلى شهود الأُمم السابقة، يعني أنّنا نجعلك أيّها النّبي شهيداً على شهداء الأُمم من الأنبياء، وقد أُشير في بعض الروايات إلى هذا التّفسير(٢) وعلى هذا يكون معنى الآية هكذا: إنّ كل نبيّ شاهد على أعمال أُمّته جميعها في حياته وبعد مماته عن طريق المشاهدة الباطنية والروحانية، وهكذا الحال بالنسبة إلى رسول الإسلام، فإنّ روحه الطاهرة ناظرة - عن هذا الطريق أيضاً - إلى أعمال أُمّته وجميع الأُمم السابقة، وبهذا الطريق يمكنه أن يشهد على أفعالهم وأعمالهم، بل وحتى الصلحاء من الأُمّة والأبرار الأتقياء منها يمكنهم الاطلاع والحصول على مثل هذه المعرفة، فيكون المفهوم من كل ذلك وجود روح النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من بدء الخلق، لأنّ معنى الشّهود هو العلم المقترن بالحضور، ولكن هذا التّفسير لا ينسجم مع ما نقل عن السيد المسيح، لأنّ الآية المذكورة تقول: إنّ المسيح لم يكن شاهداً على أُمّته جمعاء، بل كان شاهداً عليها ما دام في الحياة (فتأمل).

أمّا إذا أخذنا الشهادة بمعنى الشهادة العملية، يعني أن تكون أعمال «فرد نموذجي» مقياساً ومعياراً لأعمال الآخرين كان التّفسير حينئذ خالياً عن أي إشكال، لأنّ كل نبيّ بما له من صفات متميزة وخصال ممتازة يعدّ خير معيار لأُمّته، إذ يمكن معرفة الصالحين والطالحين بمشابهتهم أو عدم مشابهتهم له، وحيث إنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم الأنبياء والرسل الإلهيين كانت صفاته وأعماله معياراً لشخصية كل الأنبياء والرسل.

نعم لا يبقى هنا إلاّ سؤال واحد هو: هل جاءت الشهادة بهذا المعنى، أم لا؟ بيد أنّه مع الانتباه إلى أنّ أعمال الرجال النموذجيين وتصرفاتهم وأفكارهم تشهد عملياً على أنّه من الممكن أن يرقى إنسان ما إلى هذه الدرجة، ويطوي هذه المقامات والمراحل المعنوية لم يبد مثل هذا المعنى بعيداً في النظر.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرّسول وعصوه، أي عندما يرون بأُمّ أعينهم تلك

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين، ج ١، ص٤٨١ و٤٨٢؛ وتفسير البرهان، ج ٢، ص٧٩، ذيل الآية مورد البحث.

المحكمة الإلهيّة العادلة، ويواجهون الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، فإنّهم يندمون ندماً بالغاً لدرجة أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا تراباً أو سوّوا بالأرض كما يقول القرآن الكريم في الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

وقد ورد مثل هذا التعبير في آخر سورة النبأ إذ يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾.

ولكن لفظة (لو تسوّى) تشير إلى مطلب آخر أيضاً، وهو أنّ الكفار مضافاً إلى أنّهم يتمنون أن يصيروا تراباً، يحبّون أن تضيع معالم قبورهم في الأرض أيضاً وتسوى بالأرض حتى يُنسوا بالمرّة، ولا يبقى لهم ذكر ولا خبر ولا أثر.

إنّهم في هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة ولا أن يكتموا شيئاً: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ لأنّه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

نعم، لا ينافي هذا الكلام ما جاء في الآيات الأُخر التي تقول: هناك من الكفار من يكتم الحقائق يوم القيامة أيضاً ويكذبون(١) لأنّ كذبهم وكتمانهم واقع قبل إقامة الشهود وقيام الشهادة، وأمّا بعد ذلك فلا مجال لأي كتمان، ولا سبيل إلى أي إنكار، بل لابدّ من الاعتراف بجميع الحقائق.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه أنّه قال عن يوم القيامة: «ختم على الأفواه فلا تكلم وتكلمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثاً»(٢).

هذا ويحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أنّهم يتمنون لو أنّهم لم يكتموا في الدنيا أية حقيقة، خصوصاً في ما يتعلق برسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى هذا تكون هذه العبارة عطفاً على جملة ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

ولكن هذا التّفسير لا ينسجم مع ظاهر «لا يكتمون» الذي هو فعل مضارع، ولو كان المراد ما ذكره هذا الفريق من المفسرين لوجب أن يقول: «لم يكتموا».

---

(١) مثل الآية (٢٢) و(٢٣) من سورة الأنعام، والآية (١٨) من سورة المجادلة.

(٢) تفسير نور الثّقلين، ج١، ص٤٨٢ - ٤٨٣، وتفسير العياشي، ج ١، ص ٢٤٢، ح ١٣٣.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾

التّفسير

بعض الأحكام الفقهية

تستفاد من الآية الحاضرة عدّة أحكام إسلامية هي:

١ - حرمة الصّلاة في حال السكر، أي لا يجوز للسكارى أن يقربوا الصّلاة لبطلان صلاتهم في حالة السكر، وفلسفة ذلك واضحة، فإنّ الصلاة حديث العبد إلى ربّه ومناجاته ودعاؤه، ولابدّ أن يتمّ كل هذا في حالة الوعي الكامل، والسكارى أبعد ما يكونون عن هذه الحالة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

وهنا يمكن أن يطرح أحد سؤالاً هو: أليس مفهوم الآية هو المنع من شرب المسكرات إذا بقي أثرها وسكرها إلى وقت الصلاة، وهو ينطوي على دليل جوازه في سائر الحالات؟

والإجابة على هذا السؤال تأتي - بإذن الله - مفصّلة عند تفسير الآية (٩٠) من سورة المائدة، إلاّ أنّ الجواب الإجمالي هو: إنّ الإسلام استخدم لتطبيق الكثير من أحكامه أسلوب «التغيير التدريجي» فمثلاً مسألة تحريم تعاطي الخمور هذه طبقها الإسلام في مراحل، فهو أوّلاً أعطاه صفة المشروب غير المحبّذ في قبال «الرزق الحسن» (كما في الآية (٦٧) من سورة النحل: ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ ثمّ منع من الاقتراب إلى الصلاة إذا كان السكر الناشىء منها لا يزال باقياً (كما في الآية الحاضرة) ثمّ قارن بين منافعه ومضاره ورجحان مضاره ومساوئه، كما في سورة البقرة الآية (٢١٩)، وفي المرحلة الأخيرة نهى عن الخمر بصورة قاطعة وصريحة، كما في سورة المائدة الآية (٩٠).

وأساساً ليس هناك من سبيل لتطهير المجتمع من مفسدة اجتماعية أو خلقية متجذرة

في أعماق المجتمع واقتلاعها من الجذور أفضل من هذا الأُسلوب، وأجدى من هذا الطريق، وهو أن يهيأ الأفراد تدريجاً، ثمّ يتمّ الإعلان عن الحكم النهائي.

كما أنّه لابدّ من الالتفات إلى نقطة مهمّة، هي أنّ الآية الحاضرة لا تجيز بأي وجه من الوجوه شرب الخمر، بل هي تتحدث فقط عن مسألة الاقتراب إلى الصلاة في حال السكر، بينما التزمت الصمت بالنسبة إلى حكم شرب الخمر في غير هذا المورد حتى يحين موعد المرحلة النهائية للحكم.

هذا مع الالتفات إلى أنّ أوقات الصلوات الخمس خاصّة في ذلك الزمان الذي كانت العادة فيه إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، بحكم أنّها كانت متقاربة كان الإتيان بالصلاة في حال الوعي يقتضي أن ينصرف الأشخاص عن تناول المسكرات في الفترات الواقعة بين أوقات الفرائض انصرافاً كلياً، لأنّ السكر كان يستمر غالباً إلى حين حلول وقت الفريضة وعلى هذا كان الحكم المذكور في الآية الحاضرة أشبه بالحكم النهائي والتحريم الأبدي المطلق.

كما أنّ هناك موضوعاً لابدّ من التذكير به، وهو أنّ الآية الحاضرة فسّرت في روايات عديدة في كتب الشيعة والسنة بسكر النوم، يعني لا تقربوا الصلاة ما لم تطردوا النوم عن عيونكم كاملة لتعلموا ما تقولون.

ولكن يبدو للنظر أن هذا التّفسير مستفاد من مفهوم: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ وإن لم يدخل في مصداق «السكارى»(١).

وبعبارة أُخرى، يستفاد من جملة: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ المنع عن الصلاة في كل حالة لا يتمتع فيها الإنسان بالوعي الكامل، سواء كان بسبب حالة السكر، أو بسبب ما تبقى من النوم.

كما أنّه يستفاد من هذه الجملة أيضاً أنّ الأفضل عدم إقامة الصلاة عند الكسل أو قلّة التوجه، لأنّ الحالة السابقة توجد في هذه الصورة بشكل ضعيف، ولعلّه لهذا السبب جاء في ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً، ولا متناعساً ولا متثاقلاً وقد نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى...»(٢).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٣، وتفسير القرطبي، ج ٣، ص ١١٧١.

(٢) تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ٤٨٣، وقد جاء نظير هذا المضمون في صحيح البخاري أيضاً.

٢ - بطلان الصلاة في حال الجنابة الذي أشير إليه بعبارة: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ ثمّ استثنى سبحانه من هذا الحكم بقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي إذا فقدتم الماء في السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجيء في ذيل الآية).

غير أن هناك تفسيراً آخر جاء لهذه الآية في الروايات والأخبار(١)، هو أنّ المقصود من الصلاة في الآية هو محل الصلاة - أي المسجد - أي لا تدخلوا المساجد وأنتم على جنابة، ثمّ استثنى العبور في المسجد بقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ يعني يجوز لكم العبور في المسجد وأنتم على جنابة وإن لم يجز لكم المكث واللبث فيه.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ جماعة من المسلمين، وصحابة النّبي كانوا قد بنوا بيوتهم حول المسجد النّبوي بحيث تفتح أبوابها في المسجد، فسمح لهم بأن يعبروا من المسجد وهم على جنابة دون أن يتوقفوا فيه.

ولكن لابدّ أن ننتبه إلى أنّ هذا التّفسير يستلزم أن تكون لفظة الصلاة في الآية الحاضرة قد أتت بمعنيين: أحدهما الصلاة نفسها، والآخر محل الصلاة، لوجود بيان حكمين مختلفين في الآية: أحدهما المنع والنهي عن الاقتراب إلى الصلاة في حالة السكر، والآخر الاجتناب عن دخول المساجد في حالة الجنابة (طبعاً لا مانع ولا ضير في استعمال لفظة واحدة في معنيين أو أكثر كما قلنا في علم الأصول، ولكنّه خلاف الظاهر، وهو لا يجوز بدون قرينة، نعم يمكن أن تكون الروايات المذكورة قرينة على ذلك).

٣ - جواز الصلاة، أو عبور المسجد بعد الإغتسال، وهو المبين بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾.

٤ - التيمم لذوي الأعذار، ثمّ تشير الآية إلى حكم التيمم لذوي الأعذار فتقول: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وفي هذه العبارة من الآية قد اجتمعت - في الحقيقة - كل موارد التيمم، فالمورد الأوّل هو ما إذا كان في استعمال الماء ضرر على البدن، والمورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أو لم يمكن استعماله) وبقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إشارة إلى علل الاحتياج إلى التيمم وأسبابه، ومعناه إذا أحدثتم حدثاً أو جامعتم النساء ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أي لم تقدروا على تحصيل الماء أو استعماله ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٨٦.

ثمّ إنّه سبحانه يبيّن طريقة التيمم بقوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

وفي ختام الآية يشير إلى حقيقة أنّ الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأنّ الله كثير الصفح كثير الستر لذنوب عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

بحوث حول الآية

هنا لابدّ من التنبيه إلى نقاط عديدة:

١ - إنّ عبارة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ المبدوءة بفاء التفريع ترتبط بعبارة ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يعني أنّكم إذا كنتم في سفر ولم تجدوا ماء للوضوء أو الغسل، فتحتاجون إلى التيمم، لأنّ الإنسان قلّما تتفق له هذه الحالة وهو في البلد، ومن هنا يتبيّن بطلان ما قاله بعض المفسّرين - مثل صاحب المنار - من أن مجرّد السفر وحده كافٍ للتكليف بالتيمم بدل الوضوء حتى لو كان الشخص المسافر واجداً للماء، فإنَّ فاء التفريع في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ يبطل هذا الكلام، لأنّ المفهوم منه أنّ السفر قد يوجب أحياناً عدم التمكن من الماء، وهنا لا مناص من التيمم، لا أنّ السفر لوحده يسوّغ التيمم، والعجب أنّ الكاتب المذكور تحامل على فقهاء الإسلام في هذا المجال من دون مبرر لهذا التحامل.

٢ - إنّ كلمة (أو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ هي بمعنى (الواو) لأنّ مجرّد المرض أو السفر لا يوجب التيمم، بل يجب التيمم إذا تحققت موجبات التيمم أو الغسل في هذا الحال.

٣ - إنّ «العفة في البيان» المعهودة من القرآن دفعت بالقرآن في هذه الآية - كما في الآيات الكثيرة الأُخرى - إلى أن يعبّر عن قضاء الحاجة بعبارة تفهم المراد من جانب، ولا تكون غريبة وغير مناسبة من جانب آخر إذ يقول: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

وتوضيح ذلك أنّ «الغائط» - على خلاف ما يفهم منه هذا اليوم - يعني في أصل اللغة: المنخفض من الأرض الذي كان يقصده الإنسان وسكان الصحاري والمسافرون في تلك العهود لقضاء الحاجة فيه ليسترهم عن أعين الناظرين، وعلى هذا يكون معنى هذه الجملة هو: إذا عاد أحدكم من المكان المنخفض من الأرض، الذي هو في جملته كناية عن قضاء الحاجة.

والملفت للنظر أن القرآن استعمل لفظة ﴿أَحَدٌ مِنْكُمْ﴾ بدل ضمير الجمع المخاطب المصدر بالفعل أي «جئتم» ليحافظ على خصيصة «عفّة البيان» التي تجلّى بها القرآن الكريم أكثر فأكثر.

وهكذا الحال عندما يتحدّث عن الجماع فإنّ القرآن يشير إلى هذا الموضوع بعبارة ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ولفظة اللمس كناية جميلة عن المقاربة الجنسية.

٤ - سنتحدث بتفصيل حول بقية خصوصيات التيمم عند تفسير قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ في ذيل الآية (٦) من سورة المائدة إن شاء الله.

فلسفة التيمم

يتساءل كثيرون: ما الفائدة من ضرب اليدين بالتراب ومسح الجبين وظهر اليدين بهما خاصّة أنّنا نعلم أن كثيراً من الأتربة ملوثة، وناقلة للميكروبات والجراثيم؟

في الجواب على هذا السؤال نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: الفائدة الخلقية، فإن التيمم أحد العبادات، وتتجلى فيه روح العبادة بكل معنى الكلمة، لأنّ الإنسان يمسّ جبهته التي هي أشرف الأعضاء في بدنه بيديه المتربتين ليظهر بذلك خاضعة لله وتواضعه في حضرته ولسان حاله يقول: يا ربّي إنّ جبهتي وكذا يداي خاضِعات أمامك إلى أبعد حدود الخضوع والتواضع، ثمّ يتوجه عقيب هذا العمل إلى القيام بالصلاة وسائر العبادات المشروطة بالغُسل والوضوء، وبهذا الطريق يزرع التيمم في نفس الإنسان روح الخضوع لله، وينمي فيه صفة التواضع في حضرة ذي الجلال، ويدرّبه على العبودية له سبحانه، والشكر لأنعمه تعالى.

الثّانية: الفائدة الصحية، فقد ثبت اليوم أنّ التراب بحكم احتوائه على كميات كبيرة من البكتريا تزيل التلوثات، إنّ البكتريات الموجودة في التراب والتي تعمل على تحليل المواد العضوية وإبادة كل أنواع العفونة، توجد - في الأغلب - بوفرة في سطح الأرض، والأعماق القريبة التي يمكن لها الانتفاع بنور الشمس والهواء بصورة أكثر، ولهذا عندما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحيوان في الأرض، وكذا ما يشابهها من المواد العضوية، نجدها تتحلل في مدّة قصيرة تقريباً وتتلاشى بؤر التعفن على أثر هجوم البكتريات عليها، ومن المسلّم به أنّ هذه الخاصّية لو لم تكن في التربة لتحولت الكرة الأرضية في مدّة قصيرة إلى بؤرة عفونة قاتلة.

إنّ للتربة خاصّية تشبه مواد «الأنتوبيوتيك» التي لها أثر فعال جدّاً في قتل وإبادة الميكروبات.

وعلى هذا لا يكون التراب عارياً عن التلوّث فقط، بل هو مطهّر فعّال للتلوثات، ويمكنه - من هذه الجهة - أن يحل محل الماء بفارق واحد، وهو أنّ الماء يحلل

الميكروبات، ويذهب بها معه، في حين أن مفعول التراب يقتصر على قتل الميكروبات فقط.

ولكن يجب الانتباه إلى أنّ التراب الذي يستعمل في التيمم يجب أن يكون طاهراً نظيفاً، كما أشار اليه القرآن الكريم في تعبيره الجميل إذ يقول: (طيباً).

والجدير بالانتباه أنّ التعبير بـ«الصعيد» المشتق من «الصعود» يشير إلى أنّ أفضل أنواع التربة الذي ينبغي أن تختاره للتيمم هو التربة الموجودة في سطح الأرض، يعني تلك التربة التي هي عرضة لأشعة الشمس والمليئة بالهواء والبكتريا المبيدة للميكروبات، فإذا كانت تلك التربة المستعملة في التيمم طيبة وطاهرة أيضاً كان التيمم بها ينطوي على الآثار المذكورة من دون أن يكون فيه أي ضرر أو أية مضاعفات. (وسنتحدث في هذا المجال أيضاً عند تفسير المقطع الأخير من الآية (٦) في سورة المائدة).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

في هذه الآيات يخاطب الله سبحانه نبيّه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب والاستغراب قائلاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي عجيب أمر هؤلاء الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب السماوي، ولكنهم بدل أن يقوموا بهداية الآخرين وإرشادهم في ضوء ما أُوتوا من الهدى، فإنّهم يشترون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلّوا أنتم أيضاً.

وبهذا الطريق فإنّ ما نزل لهدايتهم وهداية الآخرين تحوّل إلى وسيلة لضلالهم وإضلال الآخرين بسوء نيّتهم، لأنّهم لم يكونوا أبداً بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شيء بمنظار النفاق والحسد والمادية السوداء.

ثمّ يقول سبحانه: إنّ هؤلاء وإن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلاّ أنّهم أعداؤكم الحقيقيون ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.

وأية عداوة أشدُّ وأكثر من أن يكرهوا هدايتكم ويخالفوا سعادتكم، تارة باللسان وتارة عن طريق إظهار النصح، وثالثة عن طريق الذم، ويجتهدون في تحقيق أهدافهم المشؤومة في كل ظرف وزمان بنحو خاص، وشكل معين.

ولكن لا تخافوا عداوتهم أبداً ولا تستوحشوا لمواقفهم المعادية فلستم وحدكم في الميدان، فكفاكم أنّ الله قائدكم ووليّكم وناصركم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

لأنّه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً، فإذا تجاهلتم أحاديثهم ووساوسهم لم يبق أي مجال للخوف والقلق.

ثمّ إنّه يستفاد من عبارة: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنّ ما كان عندهم من الكتاب لم يكن كل ما في الكتاب السماوي «التوراة»، بل كان بعضه وقسماً منه، وهذا يتفق مع حقائق التاريخ المعروفة أيضاً، تلك الحقائق التي تؤكد ضياع أو تحريف أقسام من التوراة الحقيقية مع مضي الزمن.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾

التّفسير

جانب آخر من أعمال اليهود

تعقيباً على الآيات السابقة تشرح هذه الآية صفات جماعة من أعداء الإسلام، وتشير إلى جانب من أعمالهم ومواقفهم.

فتقول أوّلاً: إنّ أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، وتغيير حقيقة الأوامر الإلهية: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي أنّ جماعة من اليهود يحرّفون الكلمات عن مواضعها.

وهذا التحريف قد يكون له جانب لفظي، وقد يكون له جانب معنوي وعملي.

أمّا العبارات اللاحقة فتفيد أنّ المراد من التحريف في المقام هو التحريف اللفظي وتغيير العبارة، لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجملة: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يعني بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» يقولون «سمعنا وعصينا» وهذا يشبه تماماً كلام من يقول مستهزئاً: «منك الأمر ومنّا عدم السماع»، هذا والعبارات الأُخرى في هذه الآية خير شاهد على هذا القول.

ثمّ يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية الممزوجة بروح التحدي والصلافة حيث يقول إنّهم يقولون: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وبهذا الطريق يحافظ هذا الفريق على جماعة من المغفلين، - متوسلاً بالإضافة إلى سلاح تحريف الحقائق والخيانة في إبلاغ الكتب السماوية التي كانت تشكل الوسيلة الحقيقية لنجاة ذلك الفريق وشعبهم من مخالب الطغاة الظلمة مثل فرعون - بسلاح الاستهزاء والسخرية الذي هو سلاح الأنانيين والمغرورين ووسيلة العتاة والمعاندين، وربّما استخدموا مضافاً إلى كل ذلك عبارات كان المسلمون المخلصون يرددونها أمام رسول الله ﷺ مع تغييرات في معانيها تكميلاً لاستهزائهم وسخريتهم، مثل جملة «راعنا» التي معناها «تفقدنا وأمهلنا» وكان المسلمون الصادقون في صدر الإسلام ومطلع الدّعوة المحمّدية يرددونها أمام النّبي ﷺ ليتمكنوا من سماع صوت النّبي وكلامه بنحو أفضل، ولكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النّبي ويسيئون استخدامها ويكررونها أمام النّبي ﷺ وهم يقصدون منها معناها العبري الذي هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربي الآخر، وهو ما يرجع إلى الرعونة[1] الذي يعني الحمق، قصداً منهم إلى أنّ عمل النّبي ﷺ كان - والعياذ بالله - خداع الناس واستغلال سذاجتهم.

وقد كان هذا كله بهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلي بألسنتهم والطعن في الدين الحق، والشريعة الحقة: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾.

واللّيّ على وزن الحي بمعنى الفتل، مثل فتل الحبل وما شابهه، ويأتي أيضاً بمعنى التغيير والتحريف.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي إنّهم إن سلكوا الطريق المستقيم وتركوا كل ذلك اللجاج والعناد، ومعاداة الحق، وسوء الأدب، والجرأة والوقاحة وقالوا: سمعنا كلام الله وأطعنا، فاستمع إلى كلامنا وأمهلنا لكي ندرك الحقائق إدراكاً كاملاً، لكان ذلك من مصلحتهم، وكان في ذلك منفعتهم، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع العدل والمنطق والأدب.

---

(١) راعنا إذا أُخذت مشتقة من مادة الرعي تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة والمراقبة، وبمعنى أمهلنا، وإذا أُخذت مشتقة من الرعونة تكون بمعنى «اخدعنا واجعلنا حمقى عندك»، يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والسب، ولابدّ من الالتفات إلى أنّ راعنا على الوجه الأوّل تكون بدون تشديد النون، وعلى الوجه الثاني بتشديد النون، ويستفاد من جملة من الروايات أنّ اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون في راعنا ومد آخرها.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي إنّهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ وقد ابتعدوا عن رحمة الله بسبب ما هم عليه من كفر وتمرد وطغيان، وماتت أفئدتهم وتحجّرت بحيث صار من المتعذّر أن تخضع للحق، وأن تحيا من رقدتها بهذه السرعة، اللّهم إلاّ بعضهم ممن يمتلك فؤاداً طاهراً وعقلاً يقظاً، فهؤلاء هم المستعدّون لقبول الحقائق، والاستماع إلى نداء الحق والإيمان به.

وقد اعتبر جماعة هذه الجملة من مغيَّبات القرآن وإخباراته الغيبيّة، لأنّه - كما يخبر القرآن الكريم في هذه الآية - لم يؤمن من اليهود طوال التاريخ الإسلامي ولم يذعن للحق إلاّ جماعة قليلة، وأمّا غيرهم - وهم الأكثرية الساحقة - فقد بقوا - وإلى الآن - على عدائهم الشديد، وخصومتهم للإسلام، ولم يزالوا يكيدون له المكائد، ويحيكون ضده المؤامرات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

التّفسير

مصير المعاندين

تعقيباً على البحث السابق في الآية المتقدمة حول أهل الكتاب، وجه الخطاب في هذه لآية إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي آمنوا بالقرآن الكريم الذي تجدونه موافقاً لما جاء في كتبكم من العلامات والبشائر، ولا شك أنّكم أولى من غيركم - ولديكم مثل هذه الأدلة والعلائم - بالإيمان بهذا الدين الطاهر.

ثمّ إن الله سبحانه يهددهم بأنّ عليهم أن يخضعوا للحقّ ويذعنوا له قبل أن يُصابوا بإحدى عقوبتين.

الأُولى: أن تنمحي صورهم كاملة، وأن تذهب عنهم جوارحهم وأعضاؤهم التي

يرون ويسمعون ويدركون بها الحق، كلّها ثمّ تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ(١) وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾.

ولعلّنا لسنا بحاجة إلى أن نذكّر بأنّ المراد من هذه العبارة هو تعطّل عقولهم وحواسّهم من حيث عدم رؤية حقائق الحياة وإدراكها، والانحراف عن الصراط المستقيم كما جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام من أنّ المراد: «نطمسها عن الهدى فنردّها على أدبارها في ضلالتها ذمّاً لها بأنّها لا تفلح أبداً»(٢).

توضيح ذلك أنّ أهل الكتاب، وبخاصّة اليهود منهم، عندما أعرضوا عن الإذعان للحق رغم كل تلك العلائم والبراهين، وعاندوا تعنتاً واستكباراً وأظهروا مواقفهم المعاندة في أكثر من ساحة، صار العناد والزور طبيعتهم الثانية شيئاً فشيئاً، وكأن أفكارهم قد مسخت وكأن عيونهم قد عميت وآذانهم قد صمّت، ومثل هؤلاء من الطبيعي أن يتقهقروا في طريق الحياة بدل أن يتقدموا، وأن يرتدّوا على الأدبار بدل أن يتحركوا إلى الأمام، وهذا هو جزاء كل من ينكر الحق عناداً وعتواً، وهذا في الحقيقة يشبه ما أشرنا اليه في مطلع سورة البقرة الآية (٦).

وعلى هذا، فإن المراد من «الطمس وإعفاء الأثر والرّد على العقب» في الآية الحاضرة هو المحو الفكري والروحي، والتأخر المعنوي.

وأمّا العقوبة الثانية التي هددهم الله بها فهي اللعن والطرد من رحمته تعالى إذ قال: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾(٣).

وهنا يطرح سؤال وهو: ما الفرق بين هذين التهديدين، حتى يفصل بينهما بـ«أو»؟

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ التهديد الأوّل ينطوي على جانب معنوي، والتهديد الثّاني ينطوي على جانب ظاهري ومسخ جسمي، وذلك بقرينة أن الله قال في هذه الآية: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ ونحن نعلم أن أصحاب السبت - كما يتّضح من مراجعة الأعراف - قد مسخوا مسخاً ظاهرياً وجسدياً.

---

(١) الطمس هو إزالة الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بيتاً ثمّ نزيل أثره بالمرة - ولكنه يطلق كناية عمّا فقد أثره وخاصيّته.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) أصحاب السبت هم الذين ستأتي قصّتهم في سورة الأعراف عند تفسير الآيات (١٦٣ - ١٦٦) وهم جماعة من اليهود كانوا قد كلفوا بتعطيل العمل والكسب في يوم السبت، ولكنّهم اشتغلوا بالصيد في ذلك اليوم بالرغم من نهي نبيّهم، فتجاوزوا في الطغيان الحدّ، فابتلاهم الله بأشد العقوبات.

وذهب آخرون إلى أن هذا اللعن والطرد من رحمة الله ينطوي أيضاً على جانب معنوي بفارق واحد، هو أنّ التهديد الأوّل إشارة إلى الانحراف والضلال والتقهقر الذي أصابهم، والتهديد الثّاني إشارة إلى معنى الهلاك والفناء (الذي هو أحد معاني اللعن).

خلاصة القول: إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفة الحق يسقطون ويتقهقرون أو يهلكون.

ثمّ إنّ هنا سؤالاً آخر هو: هل تحقّق التهديد في شأن هؤلاء، أم لا؟

لا شك أنّ التهديد الأوّل قد تحقق في شأن كثير منهم، وأمّا التهديد الثّاني فقد تحقق في بعضهم، ولقد هلك كثير منهم في الحروب الإسلامية، وذهبت شوكتهم وقدرتهم. وإنّ تأريخ العالم ليشهد كيف تعرضوا بعد ذلك لكثير من الضغوطات في البلاد المختلفة، وفقدوا الكثير من أفرادهم وعناصرهم، وخسروا الكثير من طاقاتهم، ولا يزالون إلى الآن يعيشون في ظروف صعبة وأحوال قاسية.

ثمّ إنّ الله يختم هذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ليؤكّد هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوّة في الأرض تستطيع أن تقف في وجه إرادة الله ومشيئته.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

التّفسير

أرجى آيات القرآن

الآية الحاضرة تعلن بصراحة أنّ جميع الذنوب والمعاصي قابلة للمغفرة والعفو، إلا «الشرك» فإنّه لا يغفر أبداً، إلاّ أن يكفّ المشرك عن شركه ويتوب ويصير موحّداً، وبعبارة أُخرى: ليس هناك أي ذنب قادر لوحده على إزالة الإيمان، كما ليس هناك أي عمل صالح قادر على خلاص الإنسان إذا كان مقروناً بالشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

إنّ ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة إنّما هو من جهة أنّ اليهود والنصارى كانوا بشكل من الأشكال مشركين، كل طائفة بشكل معين، والقرآن ينذرهم - بهذه الآية - بأن يتركوا هذه العقيدة الفاسدة التي لا يشملها العفو والغفران، ثمّ يبيّن في خاتمة الآية

دليل هذا الأمر إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(١).

وهذه الآية من الآيات التي تطمئن الموحدين إلى رحمة الله ولطفه، لأنّ في هذه الآية قد بيّن سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصي والذنوب غير الشرك، فهي كما جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية».

وهذه الآية - كما قال ابن عباس «ثماني آيات نزلت في سورة النساء، خير لهذه الأُمّة ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، وعدّ منها هذه الآية»(٢).

لأنّ هناك كثيرين يرتكبون المعاصي العظيمة ثمّ يقنطون من رحمة الله وغفرانه إلى الأبد، فيتسبب قنوطهم في أن يسيروا بقية عمرهم في طريق المعصية والخطأ بنفس القوّة والإصرار، ولكن الأمل في عفو الله وغفرانه خير وسيلة رادعة بالنسبة إلى هؤلاء، وخير مانع من تماديهم في المعصية والطغيان، وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية تهدف - في الحقيقة - إلى مسألة تربوية.

فإذا رأينا عصاة مجرمين (كما يقول بعض المفسّرين، ويعلم ذلك من الروايات المذكورة في ذيل هذه الآية) أمثال «وحشي» غلام هند وقاتل بطل الإسلام حمزة بن عبد المطلب عم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤمن مع نزول هذه الآية، وينتهي عن جرائمه وشقاوته، فمن الطبيعي أن يوجد ذلك مثل هذا الأمل لدى العصاة الآخرين، فلا ييأسوا من رحمة الله وغفرانه، ولا يتورطوا في المزيد من الذنوب والمعاصي.

ويمكن أن يقال: إنّ هذه الآية من شأنها أن تشجع الناس في الوقت ذاته على الذنب وتغريهم بالمعصية، لما فيها من الوعد بالعفو عن «جميع الذنوب ما عدا الشرك».

ولكن لا شك أنّ المراد من الوعد بالعفو والمغفرة ليس هو الوعد المطلق من كل قيد وشرط، بل يشمل الأشخاص الذين يظهرون من أنفسهم نوعاً من اللياقة والصلاح لمثل هذا العفو والغفران، وكما أشرنا إلى ذلك في ما سبق، فإن مشيئة الله - في هذه الآية والآيات المشابهة لها - بمعنى الحكمة الإلهيّة، لأن مشيئته تعالى لا تنفصل عن حكمته

(١) الإفتراء، مشتقة من مادة فرى على وزن (فرد) بمعنى القطع، وحيث إنّ قطع بعض أجزاء الشيء السالم يفسد ذلك الشيء ويخربه إستعمل في كل مخالفة، ومن جملة ذلك الشرك والكذب والتهمة.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٥٧؛ ذيل الآية مورد البحث.

أبداً، ومن البديهي والمسلَّم به أن حكمته لا تقتضي أن ينال أحد العفو الإلهي من دون قابلية وصلاح لذلك.

وعلى هذا الأساس فإن الجوانب والأبعاد التربوية البناءة في هذه الآية تفوق - بمراتب كثيرة - إمكان سوء استخدام الوعد الموجود فيها.

أسباب مغفرة الذنوب

ثمّ إنّ النقطة الجديرة بالانتباه أنّ هذه الآية لا ترتبط بمسألة التوبة، لأنّ التوبة والعودة عن الذنب تغسل جميع الذنوب والمعاصي حتى الشرك، بل المراد إمكان شمول العفو الإلهي لمن لم يوفق للتوبة، يعني الذين يموتون قبل الندم على ذنوبهم، وبعد الندم وقبل جبران ما بدر منهم من الأعمال الطالحة بالأعمال الصالحة.

وتوضيح ذلك أنّه يستفاد من آيات عديدة في القرآن الكريم أن وسائل التوصل إلى العفو والمغفرة الإلهية متعددة، ويمكن تلخيصها في خمسة أُمور:

١ - التوبة والعودة إلى الله تعالى، المقرونة بالندم على الذنوب السابقة، والعزم على اجتناب الذنب والمعصية في المستقبل، وجبران وتلافي الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة (والآيات الدّالة على هذا المعنى كثيرة) ومن جملتها قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].

٢ - الأعمال الصّالحة المهمّة جدّاً والتي تسبب العفو عن الأعمال القبيحة كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2].

٣ - الشّفاعة التي مرّ شرحها في المجلد الأول عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

٤ - اجتناب المعاصي الكبيرة الذي يوجب العفو عن المعاصي الصغيرة كما مرّ شرحه عند تفسير الآيتين (٣١ و٣٢) من هذه السورة.

٥ - العفو الإلهي الذي يشمل الأشخاص اللائقين به، كما مرّ بحثه في تفسير هذه الآية.

هذا ونكرر تذكيرنا بأن العفو الإلهي مشروط ومقيد بالمشيئة الإلهيّة، ولا يكون قضية

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

مطلقة دون أي قيد أو شرط، بل تشمل هذه المشيئة والإرادة خصوص الأشخاص الذين يثبتون بصورة عملية لياقتهم وصلاحيتهم لهذه الهبة الإلهيّة بنحو من الأنحاء.

ومن هنا يتّضح لماذا لا يكون الشرك ممّا يشمله العفو والغفران الإلهي، فالسبب في ذلك هو أنّ المشرك قد قطع صلته بالله بصورة كاملة، وارتكب ما يخالف كل الشرائع والأديان والقوانين الطبيعية والنّواميس الكونية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

سبب النّزول

روي في كثير من التفاسير في ذيل هذه الآية أنّ اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم أُموراً وامتيازات، فهم - كما نرى ذلك في آيات القرآن الكريم عند الحكاية عنهم - كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ وربّما قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ (الآية (١٨) من سورة المائدة، والآية (١١١) من سورة البقرة) فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات والمزاعم(١).

التّفسير

تزكية النفس(٢)

قال تعالى في الآية الأُولى من الآيتين الحاضرتين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ وفي هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التي قد يبتلى بها كثير من الأفراد والشعوب، إنّها صفة مدح الذات وتزكية النفس، وادعاء الفضيلة لها.

ثمّ يقول سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ فهو وحده الذي يمدح الأشخاص ويزكيهم

---

(١) بحار الانوار، ج ٩، ص ٧٤.

(٢) يزكّون من مادة «تزكية» بمعنى تطهير، وتأتي أحياناً بمعنى التربية والتنمية، ففي الحقيقة إذا كانت التزكية مقترنة بالعمل فإنّها تعتبر امراً محموداً، وإلاّ لو كانت مجرّد ادّعاء وكلام فارغ فهي مذمومة.

طبقاً لما يتوفر عندهم من مؤهلات وخصال حسنة دون زيادة أو نقصان، وعلى أساس من الحكمة والمشئية البالغة، وليس اعتباطاً أو عبثاً. ولذلك فهو لا يظلم أحداً مقدار فتيل: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[١] وفي الحقيقة أنّ الفضيلة هي ما يعتبره الله سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الأشخاص لأنفسهم انطلاقاً من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم.

إنّ هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى اليهود والنصارى الذين يدعون لأنفسهم بعض الفضائل دونما دليل، ويعتبرون أنفسهم شعوباً مختارة فيقولون أحياناً: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾[٢] ويقولون تارة أُخرى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[٣] إلا أنّ مفهومه لا يختص بقوم دون قوم، وبجماعة دون جماعة، بل يشمل كل الأشخاص أو الأُمم المصابة بمثل هذا المرض، وهذه الصفة الذميمة.

إنّ القرآن يخاطب جميع المسلمين في (سورة النجم - الآية ٣٢) فيقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾.

إنّ مصدر هذا العمل هو الإعجاب بالنفس والغرور، والعُجب الذي يتجلى شيئاً فشيئاً في صورة امتداح الذات وتزكية النفس، بينما ينتهي في نهاية المطاف إلى التكبر والاستعلاء على الآخرين.

إنّ هذه العادة الفاسدة - مع الأسف - من العادات الشائعة بين كثير من الشعوب والفئات والأشخاص، وهي مصدر الكثير من المآسي الاجتماعية والحروب وحالات الإستعلاء والاستعمار.

إنّ التاريخ يرينا كيف أن بعض الأمم في العالم كانت تزعم تفوقها على الشعوب والأُمم الأُخرى تحت وطأة هذا الشعور والإحساس الكاذب، ولهذا كانت تمنح لنفسها الحق في أن تستعبد الآخرين، وتتخذهم لأنفسها خولاً وعبيداً.

لقد كان العرب الجاهليون مع كل التخلف والانحطاط والفقر الشامل الذي كانوا يعانون منه، يرون أنفسهم «العنصر الأعلى» بل وكانت هذه الحالة سائدة حتى بين قبائلهم حيث كان بعض القبائل يرى نفسه الأفضل والأعلى.

---

(١) الفتيل في اللغة بمعنى الخيط الدقيق الموجود بين شقي نواة التمر، ويأتي كناية عن الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً، وأصله من مادة «فتل» بمعنى البرم.

(٢) سورة البقره، الآية: ٨٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٨.

ولقد تسبّب الإحساس بالتفوق لدى العنصر الألماني والإسرائيلي في وقوع الحروب العالمية أو الحروب المحلية.

ولقد كان اليهود والنصارى في صدر الإسلام يعانون - أيضاً - من هذا الإحساس والشعور الخاطىء وهذا الوهم، ولهذا كانوا يستثقلون الخضوع أمام حقائق الإسلام، ولهذا السبب شدد القرآن الكريم النكير - في الآية اللاحقة - على هذا التصور وشجب هذا الوهم، وهم التفوق العنصري، واعتبره نوعاً من الكذب على الله والافتراء عليه سبحانه، ومعصية كبرى وذنباً بيّناً إذ يقول سبحانه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي انظر كيف أن هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل وادّعائها لنفسها من ناحية، ونسبتها إلى الله من ناحية أُخرى، تكذب على الله، ولو لم يكن لهذه الجماعة أي ذنب إلاّ هذا لكفى في عقوبتهم.

يقول الإمام علي عليه السلام في حديثه المعروف لـ «همام» الذي يذكر فيه صفات المتقين: «لايرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون إذا زكّي أحد منهم خاف ممّا يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم بي منّي بنفسي، اللّهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون»[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

سبب النّزول

قال كثير من المفسّرين في شأن نزول الآيتين الحاضرتين: إنّه بعد معركة «أُحد» توجه أحد أقطاب اليهود وهو كعب بن الأشرف مع سبعين شخصاً من اليهود إلى مكّة للتحالف مع مشركي مكّة ضد رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ونقض ما كان بينهم وبين رسول الله من الحلف.

فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

مكّة: إنّكم أهل كتاب ومحمّد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين (وأشار إليهما) وآمن بهما، ففعل.

ثمّ اقترح كعب بن الأشرف على أهل مكّة قائلاً: يا أهل مكّة ليجيء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ هذا البيت لنجهدنّ على قتال محمّد، ففعلوا ذلك.

فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أُميون لا نعلم، فأيّنا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحقّ، نحن أم محمّد؟

قال كعب: اعرضوا عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء (وهي الناقة العظيمة السنام) ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفكّ العاني[1]، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمّد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمّد الحديث.

فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً ممّا عليه محمّد[2].

فأنزل الله تعالى الآيات الحاضرة إجابة لهم ورداً عليهم.

التّفسير

المداهنون

إن الآية الأُولى من الآيتين الحاضرتين تعكس - بملاحظة ما ذكر في سبب النزول قريباً - صفة أُخرى من صفات اليهود الذميمة، وهي أنّهم لأجل الوصول إلى أهدافهم كانوا يداهنون كل جماعة من الجماعات، حتى إنّهم لكي يستقطبوا المشركين سجدوا لأصنامهم، وتجاهلوا كل ما قرأوه في كتبهم، أو عملوا به حول صفات رسول الله ﷺ وعظمة الإسلام، بل وذهبوا - بغية إرضاء المشركين - إلى ترجيح عقيدة الوثنيين بما فيها من خرافات وتفاهات وفضائح على الإسلام الحنيف، مع أنّ اليهود كانوا من أهل الكتاب، وكانت المشتركات بينهم وبين الإسلام تفوق بدرجات كبيرة ما يجمعهم مع الوثنيين، ولهذا يقول سبحانه في هذه الآية مستغرباً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وهي الأصنام؟

---

(١) أي الأسير، ونفكّه أي نفتديه بالمال.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، ؛ تفسير الدر المنثور، ج ٢، ص ١٧١.

ولكنّهم لا يقتنعون بهذا، ولا يقفون عند هذا الحدّ، بل: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾.

الجبت والطّاغوت

استعملت لفظة «الجبت» في هذه الآية من القرآن الكريم خاصّة، وهو اسم جامد لا تعريف له في اللغة العربية، ويقال إنّه يعني «السّحر» أو «السّاحر» أو «الشّيطان» بلغة أهل الحبشة، ثمّ دخل في اللغة العربية واستعمل بهذا المعنى، أو بمعنى الصنم أو أي معبود غير الله في هذه اللغة، ويقال: إنّه في الأصل «جبس» ثمّ أُبدل «س» إلى «ت».

وأمّا لفظة «الطّاغوت» فقد استعملت في ثمانية موارد من القرآن الكريم، وهي - كما قلنا في المجلد الأوّل من هذا التّفسير لدى الحديث عن الآية (٢٥٦) من سورة البقرة - صيغة مبالغة[١] من مادة الطغيان، بمعنى التعدّي وتجاوز الحدّ، ويطلق على كل شيء موجب لتجاوز الحدّ (ومنها الأصنام) ولهذا يسمى الشيطان، والصنم والحاكم الجبار المتكبر، وكل معبود سوى الله، وكل طريق تنتهي إلى غير الحق، طاغوتاً.

هذا هو المعنى الكلي لهاتين اللفظتين.

أمّا المراد منهما في الآية المبحوثة الآن، فذهب المفسرون فيه مذاهب شتى.

فقال البعض بأنّهما اسمان لصنمين سجد لهما اليهود في القصّة السابقة.

وقال آخرون: الجبت هنا هو الصنم، والطّاغوت هم عبدة الأصنام، أو حماتها الذين كانوا يمثلون تراجمة الأصنام الذين كانوا يتكلمون بالتكذيب عنها ليخدعوا الناس[٢]، وهذا المعنى أوفق لما جاء في سبب النزول وتفسير الآية، لأنّ اليهود سجدوا للأصنام كما خضعوا أمام عبدتها الوثنيين أيضاً.

ثمّ إنّه سبحانه بيّن - في الآية الثانية - مصير أمثال هؤلاء المداهنين قائلاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

إنّ اليهود - كما تقول هذه الآية - لم يحصلوا من مداهنتهم الفاضحة على نتيجة، بل انهزموا في النهاية، وتحققت نبوءة القرآن الكريم في شأنهم.

إنّ الآيات الحاضرة وإن كانت قد نزلت في شأن جماعة خاصّة، ولكنها لا تختص بهم حتماً، بل تشمل كل الأشخاص المداهنين المصلحيين (الانتهازيين) الذين يضحّون

---

(١) تفسير المنار، ج ٣، ص ٣٥، وذهب البعض إلى أنّه مصدر استعمل بالمعنى الوصفي وصيغة المبالغة.

(٢) تفسير التبيان، وتفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.

بشخصيتهم ومكانتهم، بل وبإيمانهم ومعتقداتهم في سبيل الوصول إلى مآربهم السافلة وأغراضهم الدنيئة.

فإنّ هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمة الله في الدنيا والآخرة، وغالباً ما يؤول أمرهم إلى الهزيمة والفشل.

إنّ الجدير بالانتباه هو أنّ هذه الحالة أو الصفة الذميمة المذكورة لا تزال باقية على قوّتها عند هؤلاء القوم، فإنّا نجد كيف أنّهم لا يمتنعون عن أي مداهنة مهما كانت الظروف للوصول إلى أهدافهم، ولهذا ظلوا يعانون من هزائمهم المنكرة طول تاريخهم الماضي والحاضر.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾

التّفسير

في تفسير الآيتين السابقتين قلنا إنّ اليهود عمدوا - لإرضاء الوثنيين في مكّة واستقطابهم - إلى الشهادة بأنّ وثنية قريش أفضل من توحيد المسلمين، بل وعمدوا عملياً إلى السجود أمام الأصنام، وفي هذه الآيات يبيّن سبحانه أنّ حكمهم هذا لا قيمة له لوجهين:

١ - إنّ اليهود ليس لهم - من جهة المكانة الاجتماعية - تلك القيمة التي تؤهلهم للقضاء بين الناس والحكم في أُمورهم، ولم يفوّض الناس إليهم حق الحكم والقضاء بينهم أبداً ليكون لهم مثل هذا العمل: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾؟

هذا مضافاً إلى أنّهم لا يمتلكون أية قابلية وأهلية للحكومة المادية والمعنوية على الناس، لأنّ روح الاستئثار قد استحكم في كيانهم بقوّة إلى درجة أنّهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانة لم يعطوا لأحد حقّه، بل خصّوا كل شيء بأنفسهم دون غيرهم ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾(١).

(١) «النقير» مشتقة من مادة النقر (وزن فقر) الدق في شيء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتق منه المنقار، وقال بعض: النقير وقبّة صغيرة جدّاً في ظهر النّواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف.

فبالنظر إلى أنّ هذه الأحكام التي يطلقها اليهود صادرة عن مثل هذه النفسية المريضة التي تسعى دائماً إلى الاستئثار بكل شيء لأنفسهم أو لغيرهم ممن يعملون لصالحهم، على المسلمين أن لا يتأثروا بأمثال هذه الأحاديث والأحكام وأن لا يقلقوا لها.

٢ - إنّ هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنّبي ﷺ وأهل بيته المكرمين، ولهذا تفقد أية قيمة، إنّهم إذ خسروا مقام النبوة والحكومة بظلمهم وكفرهم، لذلك لا يحبّون أن يوكل هذا المقام الإلهي إلى أي أحد من الناس، ولذا يحسدون النّبي ﷺ وأهل بيته الذين شملتهم هذه الموهبة الإلهيّة وأُعطوا ذلك المقام الكريم وذلك المنصب الجليل، ولأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة وتلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد في كيانهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول معقباً على هذا: ولماذا تتعجّبون من إعطائنا النّبي ﷺ وبني هاشم ذلك المنصب الجليل وذلك المقام الرفيع، وقد أعطاكم الله سبحانه وأعطى آل إبراهيم الكتاب السماوي والعلم والحكمة والملك العريض (مثل ملك موسى وسليمان وداود) ولكنّكم - مع الأسف - أسأتم خلافتهم ففقدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب قسوتكم وشروركم: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

والمراد من الناس في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ - كما أسلفنا - هم رسول الله وأهل بيته عليهم السلام، لإطلاق لفظة الناس على جماعة من الناس، وأمّا إطلاقها على شخص واحد (هو النّبي خاصّة) فلا يصح ما لم تكن هناك قرينة على إرادة الواحد فقط[1].

هذا مضافاً إلى أنّ كلمة آل إبراهيم قرينة أُخرى على أنّ المراد من «الناس» هو النّبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، لأنّه يستفاد - من قرينة المقابلة - أنّنا إذا أعطينا لبني هاشم مثل هذا المقام ومثل هذه المكانة - فلا داعي للعجب - فقد أعطينا لآل إبراهيم أيضاً تلك المقامات المعنوية والمادية بسبب أهليتهم وقابليتهم.

وقد جاء التصريح في روايات متعددة وردت في مصادر الشيعة والسنّة بأنّ المراد من «الناس» هم أهل بيت النّبي ﷺ.

---

(١) الناس اسم جمع ويؤيد ذلك ضمير الجمع الراجع إليه في الآية.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام في ذيل هذه الآية أنّه قال في تفسير الآية: «جعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمّة فكيف يقرّون به في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمّد»[١]؟

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصّادق عليه السلام يجيب الإمام من يسأل عن المحسودين في هذه الآية قائلاً: «نحن المحسودون»[٢].

وروى في الدّر المنثور عن ابن منذر والطبراني عن ابن عباس أنّه قال في هذه الآية: «نحن الناس دون الناس».

ثمّ قال القرآن الكريم في الآية اللاحقة: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي إنّ من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذي نزل على آل إبراهيم، ومنهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان به وحال دون انتشاره، أُولئك كفاهم نار جهنم المشتعلة عذاباً وعقوبة.

وسينتهي إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

دور الحسد في الجرائم

«الحسد» يعني تمني زوال النعمة عن الآخرين سواء وصلت تلك النعمة إلى الحسود، أم لم تصل إليه، وعلى هذا الأساس تنصبّ جهود الحسود على إفناء ما لدى الآخرين وإزالته عنهم أو تمنّي ذلك، لا أن تنتقل تلك النعمة إليه.

إنّ الحسد منشأ للكثير من المآسي والمتاعب الاجتماعية، من ذلك:

١ - إنّ الحاسد يصرف كل - أو جلّ - طاقاته البدنية والفكرية - التي يجب أن تصرف في ترشيد الأهداف الاجتماعية - في طريق الهدم والتحطيم لما هو قائم، ولهذا فهو يبدد طاقاته الشخصية والطاقات الاجتماعية معاً.

٢ - إنّ الحسد هو الدافع لكثير من الجرائم في هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلية وراء جرائم القتل والسرقة والعدوان وما شابه ذلك لرأينا - بوضوح - أنّ أكثر

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٧٦، وقد جاء في تفسير روح المعاني حديث مشابه لهذا الحديث في المضمون (روح المعاني، ج ٥، ص ٥٢).

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٧٦، وقد جاء في تفسير روح المعاني حديث مشابه لهذا الحديث في المضمون (روح المعاني، ج ٥، ص ٥٢).

هذه العلل تنشأ من الحسد، ولعلّه لهذا السبب شُبّه الحسد بشرارة من النار يمكنها أن تهدد كيان الحاسد أو المجتمع الذي يعيش في وسطه بالخطر، وتعرضه للضرر.

يقول أحد العلماء: إنّ الحسد من أخطر الصفات، ويجب أن يعتبر من أعدى أعداء السعادة، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه والتخلص منه.

إنّ المجتمعات التي تتألف من الحاسدين الضيقي النظرة مجتمعات متأخرة متخلفة، والحسّاد - في الأغلب - عناصر قلقة وأفراد مرضى يعانون من متاعب وآلام جسدية وعصبية، قد أصبح من المسلّم به اليوم أنّ أكثر الأمراض والآلام الجسدية تنشأ من علل نفسية، فإننا نلاحظ الآن بحوثاً مفصلة في الطب حول الأمراض التي تختص بمثل هذه.

هذا والجدير بالذكر ورود التأكيد على هذه المسألة في أحاديث أئمّة الدين وقادة الإسلام، ففي رواية عن الإمام علي عليه السلام نقرأ قوله: «صحة الجسد من قلّة الحسد» و«العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد».

بل وردت روايات تصرّح بأنّ الحسد يضرّ بالحاسد قبل أن يضرّ بالمحسود، بل ويؤدّي إلى القتل والموت تدريجاً.

٤ - إنّ الحسد يعدّ - من الناحية المعنوية - من علائم ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، ومن دلائل الجهل وقصر النظر وقلّة الإيمان، لأنّ الحاسد - في الحقيقة - يرى نفسه أعجز وأقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود من المكانة أو أعلى من ذلك، ولهذا يسعى الحاسد إلى أن يرجع المحسود إلى الوراء، هذا مضافاً إلى أنّه بعمله يعترض على حكمة الله سبحانه واهب جميع النعم وجميع المواهب، وعلى إعطائه سبحانه النعم إلى من تفضل بها عليه من الناس، ولهذا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام «الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً»[1].

فهذا هو القرآن الكريم يصرّح بأنّ أوّل جريمة قتل ارتكبت في الأرض كان منشؤها الحسد[2].

وجاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧. (٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

تأكل النار الحطب»[١] وذلك لأنّ الحاسد يزداد سوء ظنه بالله وبحكمته وعدالته شيئاً فشيئاً، وهذا الأمر يؤدّي به إلى الخروج عن جادة الإيمان.

إنّ آثار الحسد وأضراره المادية والمعنوية وتبعاته الفردية والاجتماعية كثيرة جدّاً، وما ذكرناه إنّما هو في الحقيقة مختصر سريع عن بعض هذه الآثار والمضار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

التّفسير

تعقيباً على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين والكافرين.

فالآية الأولى تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ[٢] نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

وعلّة تبديل الجلود - على الظاهر - هي أنّه عندما تنضج الجلود يخف الإحساس بالألم لدى الإنسان، ولكي لا تخفّ عقوبتها وعذابها وليحس الإنسان بالألم إحساساً كاملاً، تبدل الجلود، وتأتي مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، وما هذا إلاّ نتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهيّة، ومخالفة الحق والعدل، والإعراض عن طاعة الله.

ثمّ يقول سبحانه في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي إنّه قادر بعزّته أن يوقع هذه العقوبات بالعصاة، وإنّه لا يفعل ذلك اعتباطاً، بل عن حكمة وعلى أساس الجزاء على المعصية.

ثمّ يقول سبحانه في الآية الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

(٢) «نصليهم» من مادة «الصلي» بمعنى الإلقاء في النار، والإشتواء بالنّار، أو التدفؤ بالنار، و«نضجت» من مادة «نضج» بمعنى أدركت شيًّها، وصارت مشوية.

(٣) «الظليل» من مادة «الظل» بمعنى الفيء، واستعمل هنا للتأكيد، لأنّ معناه الظل المظلل أو الظل الظليل وهو كناية عن غاية الراحة والدعة والرفاه.

أي إنّنا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن ندخلهم جنّات تجري من تحت أشجارها الأنهار والسواقي يعيشون فيها حياة خالدة، هذا مضافاً إلى ما يعطون من أزواج مطهّرات يستريحون إليهن، ويجدون في كنفهنّ لذة الروح والجسد، وينعمون تحت ظلال خالدة بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبداً.

بحث حول الآية

من الأُمور الجديرة بالاهتمام والمستفادة من المقايسة بين هاتين الآيتين هو عموم الرحمة الإلهيّة وسبق رحمته على غضبه، لأنّ في الآية الأُولى ذكرت عقوبة الكفار مبدوءة بكلمة «سوف» في حين بدأ الوعد الإلهي للمؤمنين بـ «السين» «سندخلهم»، ومن المعلوم استعمال سوف في اللغة العربية في المستقبل البعيد، واستعمال السين في المستقبل القريب، مع أننا نرى أنّ كلتا الآيتين ترتبطان بالعالم الآخر، وجزاء المؤمنين وعقوبة الكافرين في ذلك العالم - من ناحية الفاصلة الزمانية - بالنسبة إلينا سواء.

فيكون الاختلاف والتفاوت بين التعبيرين للإشارة إلى سرعة وسعة الرحمة الإلهيّة، ومحدودية الغضب الإلهي، وهو يشابه نفس العبارة التي نرددها في الأدعية وهي: «يا من سبقت رحمته غضبه»(١).

سؤال:

من الممكن أن يعترض معترض هنا قائلاً بأنّ الآية الحاضرة تقول: إنّنا كلّما نضجت جلود العصاة الكفرة بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العقوبة الإلهيّة، في حين أنّ الجلود العاصية هي الجلود الأصلية، فيكون تعذيب الجلود الجديدة مخالفاً للعدل الإلهي، فكيف ذلك؟

جواب:

لقد طرح هذا السؤال بعينه من قبل ابن أبي العوجاء الرجل المادي المعروف على الإمام الصّادق عليه السلام حيث قال بعد تلاوة هذه الآية: «وما ذنب الغير»؟ يعني ما ذنب الجلود الجديدة؟ فردّ الإمام على هذا السؤال بجواب مختصر في غاية العمق حيث قال: «هي هي وهي غيرها» يعني أنّ الجلود الجديدة هي نفس الجلود السابقة في حين أنّها غيرها.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ١٥٨.

فقال ابن أبي العوجاء الذي كان يعلم أنّ في هذة العبارة القصيرة سرّاً: مثّل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا.

فقال الإمام عليه السلام: «أرأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثمّ ردها في ملبنها، فهي هي، وهي غيرها»(١).

ويستفاد من هذه الرّواية أنّ الجلود الجديدة تتألف من نفس عناصر الجلود القديمة، أي أنّ العناصر هي ذات العناصر وإن اختلف التركيب.

ثمّ إنّه لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الثواب والعقاب يرتبطان - في الحقيقة - بروح الإنسان وقوّة إدراكه، والجسم - دائماً - وسيلة لانتقال الثواب والعذاب إلى روح الإنسان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾

سبب النّزول

وروي في تفسير مجمع البيان وتفاسير إسلامية أُخرى أنّ هذه الآية نزلت عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة المكرمة منتصراً فاتحاً، فاستحضر عثمان بن طلحة وكان سادن الكعبة فطلب منه مفتاح الكعبة المعظمة، ليطهّرها من الأصنام والأوثان الموضوعة فيها، فلمّا فرغ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين منصب السقاية ومنصب السدانة الذي له في العرب شأن وشأو مجيد (والظاهر أنّ العباس أراد أن يستفيد من نفوذ ومكانة ابن أخيه الاجتماعية والسياسية لمصلحته الشخصية)، ولكن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل خلاف ذلك، فإنّه بعدما طهّر الكعبة من الأصنام والأوثان، أمر علياً عليه السلام أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ففعل ذلك وهو يتلو الآية الحاضرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا...﴾(٢).

---

(١) المجالس، للشّيخ الطّوسي رحمه الله، والإحتجاج، للطّبرسي رحمه الله، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية الحاضرة قبل فتح مكّة، وأنّ ما ذكر في سبب النزول ليس بصحيح، إلّا أنّ هذا لا يؤثر في القانون المهم المستفاد من الآية.

التّفسير

قانونان إسلاميان مهمّان

الآية الحاضرة وإن نزلت - كالكثير من الآيات - في مورد خاص، إلاّ أنّها تتضمّن حكماً عامّاً وشاملاً للجميع، فهي تقول بصراحة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

ومن الواضح أنّ للأمانة معنىً وسيعاً يشمل كلّ شيء مادي ومعنوي، ويجب على كل مسلم - بصريح هذه الآية - أن لا يخون أحداً في أية أمانة دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، وهذا في الواقع أحد المواد في «الميثاق الاسلامي لحقوق الإنسان» التي يتساوى أمامها كل أفراد البشر.

والجدير بالذكر أنّ الأمانة المذكورة في سبب النزول لم تكن مجرّد أمانة مادية، ومن جانب آخر كان صاحبها المؤدى إليه تلك الأمانة مشركاً.

ثمّ إنّه سبحانه يشير - في القسم الثّاني من الآية - إلى قانون مهم آخر، وهو مسألة «العدالة في الحكومة» فيقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي إنّ الله يوصيكم أيضاً أن تلتزموا جانب العدالة في القضاء والحكم بين الناس، فتحكموا بعدل.

ثمّ قال سبحانه تأكيداً لهذين التعليمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾.

ثمّ يقول مؤكّداً ذلك أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فهو يراقب أعمالكم وهو يسمع أحاديثكم ويرى أفعالكم.

إنّ هذا القانون هو الآخر قانون كلّي وعام، ويشمل كل نوع من القضاء والحكومة، سواء في الأُمور الكبيرة والأُمور الصغيرة، إلى درجة أنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أنّ صبيّين ترافعا إلى الإمام الحسن بن علي عليه السلام في خط كتباه وحكّماه في ذلك ليحكم أيّ الخطين أجود، فبصر به عليّ عليه السلام فقال: «يا بنيّ أُنظر كيف تحكم فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة»(١).

إنّ هذين القانونين المهمّين (حفظ الأمانة، والعدالة في الحكم والحكومة) يمثلان قاعدة المجتمع الإنساني السليم، ولا يستقيم أمر مجتمع، سواءً كان مادياً أو إلهياً من دون تنفيذ وإجراء هذين الأصلين.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٤؛ وتفسير روح الجنان، ج ٥، ص ٦٣.

فالأصل الأوّل يقول: إنّ الأموال والثروات والمناصب والمسؤوليات والمهام والرساميل الإنسانية والثقافات والتراث والمخلفات التاريخية، كلها أمانات إلهيّة سلمت بأيدي أشخاص مختلفين في المُجتمع، والجميع مكلّفون أن يحفظوا هذه الأمانات، ويجتهدوا في تسليمها إلى أصحابها الأصليين، ولا يخونوا فيها أبداً.

ومن جهة أُخرى حيث إنّ الاجتماعات تلازم التصادمات والاحتكاكات في المصالح والمنافع، ولهذا يتطلب الحل والفصل على أساس من الحكومة العادلة والقضاء العادل حتى تزول وتنمحي كل أنواع التمييز الظالم من الحياة الاجتماعية.

وكما أسلفنا فإنّ الأمانة لا تنحصر في الأموال التي يودعها الناس - بعضهم عند بعض - بل العلماء في المجتمع هم أيضاً مستأمنون يجب عليهم أن لا يكتموا الحقائق، بل حتى الأبناء أمانات إلهيّة لدى الآباء والأُمهات فلا يفرطوا في تربيتهم، ولا يقصروا في تأديبهم وتعليمهم، وإلاّ كان ذلك خيانة في الأمانة الإلهيّة التي أمر الله بأدائها، بل وفوق ذلك كلّه الوجود الإنساني، فهو وجميع الطاقات المودوعة فيه «أمانات الله» التي يجب على الإنسان أن يجتهد في المحافظة عليها، كما عليه أن يحافظ على صحّة جسمه وسلامة روحه، ويحافظ على طاقة الشباب الفياضة، وفكره، ولا يفرط فيها، ولهذا لا يجوز له أن ينتحر أو يلحق الضرر بنفسه، حتى إنّه يستفاد من بعض الأحايث والنصوص الإسلامية أنّ علوم الإمامة وأسرارها وودائعها التي يسلمها كل إمام إلى الإمام الذي بعده داخلة في هذه الآية أيضاً(١).

والجدير بالذكر أنّ مسألة «أداء الأمانة» قدّمت في هذه الآية على مسألة «العدالة» ولعلّ ذلك لأجل أنّ مسألة العدل في القضاء والحكم مترتبة دائماً على حدوث خيانة، لأنّ الأصل هو أنّ الناس أُمناء بالأصالة، فإذا انحرف شخص أو أشخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلى العدالة لتوقفهم على مسؤولياتهم وتعرّفهم بوظائفهم.

أهميّة الأمانة والعدل في الإسلام

لقد ورد تأكيد كبير على هذه المسألة في المصادر الإسلامية إلى درجة أنّنا قلّما نجد مثله في مورد غيره من الأحكام والمسائل، والأحاديث القصيرة التالية توضح هذه الحقيقة:

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٥ و ٤٩٦.

١ - عن الإمام الصّادق عليه السلام أنه قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإن ذلك شيء اعتاده فلو تركه استوحش، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»(١).

٢ - جاء في حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «إن عليّاً إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدق الحديث وأداء الأمانة»(٢).

٣ - روي في حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام أيضاً قال لأحد أصحابه: «اعلم أن ضارب علي بالسيف وقاتله لو ائتمنني واستنصحني واستشارني ثمّ قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانة»(٣).

٤ - وفي روايات مروية في مصادر الشيعة والسنة عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم نلاحظ هذا الحديث السّاطع: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(٤).

٥ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «سوِّ بين الخصمين في لحظك ولفظك»(٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾

التّفسير

هذه الآية وبعض الآيات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسلامية، ألا وهي مسألة القيادة، وتعيين القادة والمراجع الحقيقيين للمسلمين في مختلف المسائل الدينية والاجتماعية.

فهي تأمر المؤمنين - أوّلاً - بأن يطيعوا الله، ومن البديهي أنّه يجب أن تنتهي جميع

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٥ و ٤٩٦.
(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر السابق.
(٤) صحيح الترمذي، ج ٤، ص ١٣٠؛ وسنن النسائي، ج ٦، ص ٣٢٩؛ بناء على نقل المنار وقد ورد نفس هذا المضمون في سفينة البحار أيضاً.
(٥) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٤.

الطاعات - عند الفرد المؤمن - إلى طاعة الله سبحانه، وكل قيادة وولاية يجب أن تنبع من ولاية الله سبحانه وذاته المقدّسة تعالى وتكون حسب أمره ومشيئته، لأنّه الحاكم والمالك التكويني لهذا العالم، وكلّ حاكمية ومالكية يجب أن تكون بإذنه وبأمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾.

وفي المرحلة الثّانية تأمر باتّباع النّبي ﷺ وإطاعته، وهو النّبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ولا ينطلق من الأنا، والنّبي الذي هو خليفة الله بين الناس، وكلامه كلام الله، وقد أُعطي هذا المقام من جانب الله سبحانه، ولهذا تكون إطاعة الله ممّا تقتضيه خالقيته وحاكمية ذاته المقدّسة، ولكن إطاعة النّبي واتّباع أمره ناشىء من أمر الله. وبعبارة أُخرى فإنّ الله واجب الإطاعة بالذات والنّبي ﷺ واجب الإطاعة بالعرَض، ولعل تكرار «أطيعوا» في هذه الآية للإشارة إلى مثل هذا الفرق بين الطاعتين ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

وفي المرحلة الثانية يأمر سبحانه بإطاعة أولي الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامي، والذين يحفظون للناس أمر دينهم ودنياهم.

من هم أُولو الأمر؟

ثمّة كلام كثير بين المفسّرين في المقصود من أُولي الأمر في هذه الآية، ويمكن تلخيص أوجه النظر في هذا المجال في ما يلي:

١ - ذهب جماعة من مفسّري أهل السنّة إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأمراء والحكام في كل زمان ومكان، ولم يستثنِ من هؤلاء أحداً[(١)]، فتكون نتيجة هذا الرأي إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومة وسلطة مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومة المغول، ودولتهم الجائرة.

٢ - ذهب بعض المفسّرين - مثل صاحب تفسير المنار وصاحب تفسير في ظلال القرآن وآخرون - إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» ممثلو كافة طبقات الأُمة، من الحكام والقادة والعلماء وأصحاب المناصب في شتى مجالات حياة الناس، ولكن لا تجب طاعة هؤلاء بشكل مطلق وبدون قيد أو شرط، بل هي مشروطة بأن لا تكون على خلاف الأحكام والمقررات الإسلامية.

---

(١) تفسير درّ المنثور، ج ٢، ص ٥٧٢، ذيل الآية مورد البحث.

٣ - ذهبت جماعة أُخرى إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم القادة المعنويون والفكريون، أي العلماء والمفكرون[١] العدول العارفون بمحتويات الكتاب والسنة معرفة كاملة.

٤ - وذهب بعض مفسّري أهل السنة إلى أنّ المراد من هذه الكلمة هم «الخلفاء الأربعة»[٢] الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول الله خاصّة ولا تشمل غيرهم، وعلى هذا لا يكون لأُولي الأمر أيّ وجود خارجي في العصور الأُخرى.

٥ - يفسر بعض المفسّرين «أُولي الأمر» بصحابة الرّسول الأكرم ﷺ[٣].

٦ - هناك احتمال آخر يقول - في تفسير أُولي الأمر - إنّ المراد منه هم القادة العسكريون المسلمون، وأمراء الجيش والسرايا[٤].

٧ - وذهب جميع مفسّري الشيعة بالاتفاق إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام[٥] الذين أُنيطت بهم قيادة الأُمة الإسلامية المادية والمعنوية في جميع حقول الحياة من جانب الله سبحانه والنّبي الأكرم ﷺ، ولا تشمل غيرهم، اللّهم إلاّ الذي يتقلد منصباً من قبلهم، ويتولى أمراً في إدارة المجتمع الإسلامي من جانبهم - فإنّه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معيّنة، ولا تجب طاعته لكونه من أُولي الأمر، بل لكونه نائباً لأُولي الأمر ووكيلاً من قبلهم.

والآن لنستعرض التفاسير المذكورة أعلاه باختصار:

لا شك أنّ التّفسير الأوّل لا يناسب مفهوم الآية وروح التعاليم الإسلامية بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعة كل حكومة - مهما كانت طبيعتها - ومن دون قيد أو شرط بإطاعة الله والنّبي، ولهذا تصدى كبار علماء السنّة لنفي هذا الرأي والتّفسير مضافاً إلى علماء الشيعة.

وكذا التّفسير الثّاني: فإنّه لا يناسب إطلاق الآية الشريفة، لأنّ الآية توجب إطاعة أُولي الأمر من دون قيد أو شرط.

وهكذا التّفسير الثّالث، يعني تفسير «أُولي الأمر» بالعلماء والعدول والعارفين بالكتاب والسنّة، فهو لا يناسب إطلاق الآية، لأنّ لإطاعة العلماء واتباعهم شروطاً من

(١-٤) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٥٧٢، ذيل الآية مورد البحث.
(٥) أصول الكافي، ج ١، ص ١٨٧ ، ١٨٩.

جملتها أن لا يكون كلامهم على خلاف الكتاب والسنّة، وعلى هذا لو ارتكبوا خطأ (لكونهم عرضة للخطأ وغير معصومين) أو انحرفوا عن جادة الحقّ لأي سبب آخر لم تجب طاعتهم، في حين توجب الآية الحاضرة إطاعة أُولي الأمر بنحو مطلق كإطاعة النّبي ﷺ، هذا مضافاً إلى أنّ إطاعة العلماء إنّما هي في الأحكام التي يستفيدونها من الكتاب والسنّة، وعلى هذا لا تكون إطاعتهم شيئاً غير إطاعة الله وإطاعة النّبي ﷺ، فلا حاجة إلى ذكرها بصورة مستقلة.

وأمّا التّفسير الرّابع (وهو حصر عنوان أُولي الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأُولي الأمر بين المسلمين في هذا الزمان هذا مضافاً إلى عدم وجود دليل على مثل هذا التخصيص.

والتّفسير الخامس والسّادس: يعنيان تخصيص هذا العنوان بالصحابة أو القادة العسكريين المسلمين، ويرد عليهما نفس الإشكال الوارد على التّفسير الرّابع، يعني أنّه لا يوجد أي دليل على مثل هذا التخصيص أيضاً.

وقد أراد جماعة من مفسّري السنّة مثل «محمّد عبده» العالم المصري المعروف - تبعاً لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازي - أن يقبل بالاحتمال الثّاني (القاضي بأنّ أُولي الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامي من العلماء والحكام وغير هؤلاء من طبقات وفئات المجتمع الإسلامي) مشروطاً ببعض الشروط ومقيداً ببعض القيود، مثل أن يكونوا مسلمين (كما يستفاد من كلمة «منكم» في الآية) وأن لا يكون حكمهم على خلاف الكتاب والسنة، وأن يحكموا عن اختيار لا جبر ولا قهر، وأن يحكموا وفق مصالح المسلمين، وأن يتحدثوا في مسائل يحقّ لهم التدخل فيها (لا مثل العبادات التي لها قوانين وأحكام ثابتة في الإسلام) وأن لا يكون قد ورد في الحكم الذي أصدروه نص خاص من الشرع، وأن يكونوا - فوق كل هذا - متفقين في الرأي والحكم.

وحيث إنّ هؤلاء يعتقدون أن مجموع الأُمّة أو مجموع ممثليها لا تخطىء ولا تجتمع على خطأ، وبعبارة أُخرى، أنّ مجموع الأُمّة معصومة (أو أنّ الأُمّة بوصفها معصومة) تكون نتيجة هذه الشروط وجوب إطاعة مثل هذا الحكم بشكل مطلق ومن دون قيد أو شرط تماماً مثل إطاعة النّبي ﷺ (ومؤدى هذا الكلام هو حجّية الإجماع)، ولكن ترد على هذا التّفسير أيضاً إشكالات واعتراضات عديدة وهي:

أوّلاً: إنّ الاتفاق في الرأي في المسائل الاجتماعية قلّما يتفق وقلّما يتحقق، وعلى هذا فإن هذا الرأي يستلزم وجود حالة من التوافق في أغلب شؤون المسلمين وبصورة دائمة.

وأمّا إذا أراد هؤلاء قبول رأي الأكثرية فيرد عليه أنّ الأكثرية لا تكون معصومة أبداً، ولهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانياً: لقد ثبت في علم الأُصول، أنّه ليس هناك أي دليل على عصمة مجموع الأُمّة من دون وجود الإمام المعصوم بينهم.

ثالثاً: إنّ أحد الشرائط التي يذكرها أنصار هذا التّفسير هو أن لا يكون حكم هؤلاء «أي أُولي الأمر» على خلاف الكتاب والسنة، فيجب حينئذ أن نرى من الذي يشخّص أنّ هذا الحكم مخالف للكتاب والسنّة أو لا؟ لا شك أنّ ذلك من مسؤولية المجتهدين والفقهاء العارفين بالكتاب والسنّة، ويعني هذا أنّ إطاعة أُولي الأمر لا تجوز بدون إجازة المجتهدين والعلماء، بل تلزم أن تكون إطاعة العلماء أعلى من إطاعة أولي الأمر، وهذا لا يناسب ولا يوافق ظاهر الآية الشريفة.

صحيح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزءاً من أُولي الأمر، ولكن الحقيقة أنّ العلماء والمجتهدين - وفق هذا التّفسير - اعترف بهم على أنّهم المراقبون والمراجع العليا من بقية ممثلي مختلف فئات الأُمّة، لا أنّهم في مستوى بقية الممثلين المذكورين، لأنّ على العلماء والفقهاء أن يشرفوا على أعمال الآخرين ويشخّصوا موافقتها للكتاب والسنّة، وبهذا يكون العلماء مراجع عُليا لهم، وهذا لا يناسب التّفسير المذكور ولا يوافقه.

وعلى هذا الأساس يواجه التّفسير الحاضر (أي الثّاني) إشكالات ومآخذ من وجهات عديدة.

فيبقى تفسير واحد سليماً من جميع الاعتراضات السابقة وهو التّفسير السّابع: (وهو تفسير أُولي الأمر بالأئمّة المعصومين عليهم السلام لموافقة هذا التّفسير لإطلاق وجوب الإطاعة المستفاد من الآية المبحوثة هنا، لأن مقام «العصمة» يحفظ الإمام من كلّ معصية ويصونه عن كل خطأ، وبهذا الطريق يكون أمره - مثل أمر الرّسول - واجب الإطاعة من دون قيد أو شرط، وينبغي أن يوضع في مستوى إطاعته صلى الله عليه وآله وسلم، بل وإلى درجة أنها تعطف على إطاعة الرّسول من دون تكرار «أطيعوا».

والجدير بالانتباه أنّ بعض العلماء المعروفين من أهل السنة، ومنهم المفسر

المعروف الفخر الرازي اعترف بهذه الحقيقة في مطلع حديثه عند تفسير هذه الآية حيث قال: «إنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بإطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ أن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ».

وأضاف قائلاً: «ذلك المعصوم إمّا مجموع الأُمّة أو بعض الأمّة، ولا يجوز أن يكون بعض الأُمّة لأن إيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم، ونحن عاجزون عن الوصول إليهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأُمّة، ولمّا بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ هم أهل الحل والعقد من الأُمّة (أي الأُمّة كلها وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمّة حجّة)[1].

وهكذا نرى أنّ الفخر الرازي مع ما نعهد منه من كثرة الإشكال في مختلف المسائل العلمية، قد قبل دلالة هذه الآية على أنّ أُولي الأمر يجب أن يكونوا معصومين، غاية ما في الأمر حيث إنّه لم يكن عارفاً بمذهب أهل البيت النبوي عليهم السلام وأئمّة هذا المذهب تجاهل احتمال أن يكون «أُولي الأمر» أشخاصاً معيَّنين من الأمة، فاضطر إلى تفسير «أُولي الأمر» بمجموع الأُمّة (أو ممثلي عموم فئات الأُمّة)، في حين أن هذا الاحتمال لا يمكن القبول به، لأنّ أُولي الأمر - كما قلنا في ما سبق - يجب أن يكونوا قادة المجتمع الإسلامي، وتتمّ الحكومة الإسلامية والحكم بين المسلمين بهم، ونعلم أنّه لا يمكن لا في الحكومة الجماعية (المتألفة من مجموع الأُمّة) بل ولا من ممثلي فئاتها أن يتحقق اجتماع واتفاق في الرأي مطلقاً، لأنّ الحصول على إجماع من جانب الأُمّة جميعاً أو من جانب ممثليها في مختلف المسائل الاجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية والاقتصادية، لا يتيسر ولا يتحقق في الأغلب، كما أنّ اتّباع الأكثرية - كذلك - لا يعد اتّباعاً لأُولي الأمر، ولهذا يلزم من كلام الرازي ومن تبعه من العلماء

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٠، ص ١٤٤، طبعة مصر، عام ١٣٥٧.

المعاصرين أن تتعطل مسألة إطاعة «أُولي الأمر»، أو تصير مسألة نادرة واستثنائية جداً. . .

ومن كل ما قلناه نستنتج أنّ الآية الشريفة تثبت قيادة وولاية الأئمّة المعصومين الذين يشكلون نخبة الأُمّة الإسلامية (تأمل).

أجوبة على أسئلة:

ثمّ إنّ هناك اعتراضات ومآخذ على هذا التّفسير (السّابع) يجدر طرحها هنا بتجرّد وموضوعية:

١ - إذا كان المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فإنّ ذلك لا يناسب كلمة «أُولي» التي هي بصيغة الجمع، لأنّ الإمام المعصوم في كل عصر، شخص واحد لا أكثر.

والجواب على هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم وإن كان في كل عصر شخصاً واحداً لا أكثر، إلاّ أنّ الأئمة المتعددين في الأعصر المختلفة يشكّلون جماعة، ونحن نعلم أنّ الآية لا تحدد وظيفة الناس في عصر واحد.

٢ - إنّ أُولي الأمر - بهذا المعنى - لم يكونوا في عصر النّبي ﷺ فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضاً من الكلام السابق، لأنّ الآية لا تنحصر (أو لا تعني) زماناً خاصاً، بل توضح وتبيّن وظيفة المسلمين وواجبهم في جميع العصور والقرون.

وبعبارة أُخرى، يمكن أن نقول إنّ أُولي الأمر في زمان النّبي ﷺ كان شخص النّبي بالذات، لأن النّبي ﷺ كان له منصبان منصب «الرسالة» الذي أشير إليه في الآية المذكورة تحت عنوان (أطيعوا الرّسول) والآخر منصب «قيادة الأُمّة الإسلامية» الذي ذكره القرآن الكريم تحت عنوان (أُولي الأمر).

وعلى هذا يكون القائد ووليّ الأمر المعصوم في عهد النّبي هو النّبي ﷺ، فهو مضافاً إلى ما له من منصب الرسالة وإبلاغ الأحكام الإسلامية، له منصب قيادة الأُمّة وولاية أمرها، ولعل عدم تكرار جملة (وأطيعوا) بين (الرّسول) و(أُولي الأمر) لا يخلو من الإشارة إلى هذه النقطة.

وبعبارة أُخرى إن منصب «الرسالة» ومنصب «أُولي الأمر» منصبان مختلفان اجتمعا

في شخص رسول الله ﷺ، ولكن المنصب الثّاني فقط يتوفر في كل إمام على حدة، فللإمام منصب أُولي الأمر فقط.

٣ - إذا كان المقصود من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فلماذا أشار سبحانه في ذيل الآية إلى مسألة التنازع والاختلاف بين المسلمين إذ قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ فإنّنا لا نشاهد هنا أي حديث عن «أُولي الأمر» بل أشير إلى الله تعالى (كتاب الله - القرآن) والنّبي (السنّة) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف والتنازع.

في الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أوّلاً: إنّ هذا الإشكال لا يختص بالتّفسير الشّيعي لهذه الآية، بل يرد على بقية التفاسير أيضاً، إذا أمعنّا النظر قليلاً.

وثانياً: لا شك أنّ المراد من الاختلاف والتنازع في العبارة الحاضرة هو الاختلاف والتنازع في الأحكام، لا في المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنّه في هذه المسائل يجب إطاعة أُولي الأمر (كما صرّح بذلك في الجملة الأُولى من الآية المبحوثة هنا).

وعلى هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف في الأحكام والقوانين الكلية الإسلامية التي يعود أمر تشريعها إلى الله سبحانه ونبيّه ﷺ، لأنّنا نعلم أنّ الإمام مجرّد منفّذ للأحكام الإلهيّة وليس مشرّعاً، ولا ناسخاً لشيء من تلك الأحكام، وإنّما عليه فقط أن يطبّق الأحكام والأوامر الإلهيّة والسنّة النّبوية في حياة الأُمة، ولهذا جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنّهم قالوا: «إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب الله وسنة نبيّه فاضربوه عرض الحائط ولا تقبلوه» أي يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ.

وعلى هذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسلمون لحلّ خلافاتهم في الأحكام الإسلامية هو الله سبحانه والنّبي الأكرم ﷺ الذي يوحى إليه، وإذا ما بيّن الأئمّة المعصومون أحكاماً، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب الله، أو هي من العلوم التي وصلت إليهم من النّبي الأكرم ﷺ، وبهذا تتّضح علّة عدم ذكر أُولي الأمر إلى جانب المرجع في حلّ الاختلاف في الأحكام المذكورة في هذا الجزء من الآية[1].

---

(١) وإذا رأيناه سبحانه يرجع الأُمّة في حلّ بعض اختلافاتها إلى أُولي الأمر في الآية (٨٣) من هذه =

شهادة الأحاديث

هذا وقد وردت في المصادر الإسلامية أيضاً أحاديث تؤيد تفسير «أُولي الأمر» بأئمّة أهل البيت عليهم السلام منها:

١ - ما كتبه المفسّر الإسلامي المعروف أبو حيان الأندلسي المغربي (المتوفى عام ٧٥٦) في تفسيره البحر المحيط من أنّ هذه الآية نزلت في حقّ علي عليه السلام وأهل بيته[١].

٢ - روى العالم السنّي أبو بكر بن مؤمن الشيرازي في رسالة الاعتقاد (حسب نقل الكاشي في المناقب) عن ابن عباس أنّ الآية الحاضرة نزلت في علي عليه السلام عندما خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة (في غزوة تبوك) فقال علي عليه السلام: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال اخلفني في قومي وأصلح فقال عزّ وجلّ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢].

٣ - وروى الشيخ سليمان الحنفي القندوزي وهو من أعلام أهل السنّة المشهورين في كتابه «ينابيع المودة» من كتاب «المناقب» عن «سليم بن قيس الهلالي» قال سمعت علياً صلوات الله عليه يقول: وأتاه رجل فقال أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً فقال: قد سألت فافهم الجواب. . . وأمّا أدنى ما يكون العبد به ضالاً أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عزّ وجلّ عباده بطاعته وفرض ولايته. قلت: يا أمير المؤمنين. صفهم لي. قال: الذين قرنهم الله تعالى بنفسه وبنبيّه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

فقلت له: جعلني الله فداك أوضح لي؟ فقال: الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عزّ وجلّ إليه: «إنّي تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي إن تمسكتم بهما: كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي»[٣].

= السورة فالمراد منه ليس هو الاختلاف في الأحكام والقوانين الإسلامية الكلية، بل هو - كما سيأتي في تفسير هذه الآية - الإختلاف في المسائل المتعلقة بطريقة تطبيق الأحكام الإسلامية، وسيأتي شرح مفصل في هذا المجال عند تفسير الآية بإذن الله.

(١) البحر المحيط، ج ٣، طبعة مصر، ص ٤٢٥.

(٢) إحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٣) ينابيع المودة طبعة النجف الأشرف (الطبعة السابعة ص ١٣٦ - ١٣٧)، وبحار الأنوار، ٦١، ص ١٧.

٤ - وكذلك كتب نفس العالم في كتاب «ينابيع المودة»: وفي المناقب في تفسير مجاهد أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام [١].

٥ - رويت أحاديث كثيرة في مصادر الشيعة مثل كتاب الكافي وتفسير العياشي وكتب الصدوق ومصنفاته وغيرها تشهد جميعها بأنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، حتى إن بعضها ذكر أسماء الأئمّة عليهم السلام واحداً واحداً[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

سبب النّزول

كان بين رجل من اليهود ورجل من المسلمين المنافقين خصومة واختلاف، فعزما على أن يحتكما إلى شخص، وحيث كان اليهودي يعرف عدل النّبي وحياده ولأنّه علم أنّه لا يأخذ الرّشوة ولا يجور في الحكم قال: أُحاكم إلى محمّد، ولكن المنافق قال: لا، بل بيني وبينك كعب بن الأشرف، (لأنّه يأخذ الرّشوة وهو من أقطاب اليهود)، وبذلك رفض التحاكم إلى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله، فنزلت الآية توبّخ أمثال هذا الشخص، وتشجب بشدّة موقفهم المشين هذا[٣].

وقد ذكر بعض المفسرين أسباباً أُخرى لنزول هذه الآية تشهد بأنّ بعض المسلمين الحديثي العهد بالإسلام كانوا - على عادتهم في الجاهلية - يحتكمون - في مطلع الإسلام - إلى علماء اليهود أو الكهنة، فنزلت الآية الحاضرة تنهى عن هذه العادة المقيتة بشدّة[٤].

---

(١) ينابيع المودة، النجف، ص ١١٤.
(٢) راجع تفسير البرهان، ج ١، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث نقل هذا السبب عن أكثر المفسرين.
(٤) تفسير المنار، ج ٥، ص ٢٢٢.

التّفسير

حكومة الطّاغوت

الآية الحاضرة - هي في الواقع - مكملة للآية السابقة، لأنّ الآية السابقة كانت تدعو المؤمنين إلى طاعة الله والرّسول وأُولي الأمر، والتحاكم إلى الكتاب والسنّة، وهذه الآية تنهى عن التحاكم إلى الطاغوت واتّباع أمره وحكمه.

والطّاغوت - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - مشتقّة من الطغيان، وهذه الكلمة مع جميع مشتقاتها تعني التجاوز والتعدّي وكسر الحدود وتجاهل القيود، أو كل شيء يكون وسيلة للطغيان أو التمرّد.

وعلى هذا الأساس يكون كل من يحكم بالباطل طاغوتاً، لأنّه تجاوز حدود الله وتعدّى على قوانين الحقّ والعدل، ففي الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام أنّه قال: «الطّاغوت كلّ من يتحاكم إليه ممن يحكم بغير الحقّ».

والآية الحاضرة تنهى المسلمين عن أن يترافعوا في الحكم والقضاء إلى مثل هؤلاء الحكام وتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي إنّ التحاكم إلى الطاغوت فخّ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

وغير خفيّ أنّ الآية الحاضرة - شأنها شأن سائر الآيات القرآنية الأُخرى - تتضمّن حكماً عاماً، وتبيّن قانوناً خالداً لجميع المسلمين في جميع العصور والدهور. وتحذرهم من مراجعة الطواغيت، وطلب الحكم منهم، وأنّ ذلك لا يناسب الإيمان بالله والكتب السماوية، هذا مضافاً إلى كونه يضل الإنسان عن طريق الحقّ، ويلقيه في مجاهيل الباطل بعيداً عن الحق.

إنّ مفاسد وتبعات مثل هذه الأقضية والأحكام، وأثرها في تحطيم كيان المجتمع البشري وتخريب علاقاته وروابطه وأُسسه ممّا لا يخفى على أحد، فهي أحد العوامل المؤثرة في انحطاط المجتمعات وتأخرها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾

التّفسير

نتائج حكم الطّاغوت

في أعقاب النهي الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت وحكام الجور الذي مرّ في الآية السابقة جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام والأقضية، وما يتمسك به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطّواغيت وحكام الجور والباطل.

ففي الآية الأُولى يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

وفي الحقيقة يقول القرآن في هذه الآية: إنّ التحاكم إلى الطاغوت ليس خطأً عابراً يمكن أن يعالج ببعض التذكير، بل إنّ الإصرار على هذا العمل يكشف عن ضعف إيمانهم وروح النفاق فيهم، وإلاّ لوجب أن ينتبهوا ويثوبوا إلى رشدهم عند دعوتهم إلى رسول الإسلام ﷺ ويعترفوا بخطئهم: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرّسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً».

ثمّ في الآية الثّانية يبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ هؤلاء المنافقين عندما يتورطون في مصيبة كنتيجة لمواقفهم وأعمالهم، ويواجهون طريقاً مسدودة يعودون إليك عن اضطرار ويأس:

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ...﴾.

ويحلفون في هذه الحالة أنّ هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلاّ الإحسان والتوصل إلى الوفاق بين طرفي الدّعوى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى نقطتين:

الأُولى: أن نرى ما هو المقصود من المصيبة التي تصيبهم؟

لا يبعد أن تكون المصيبة هي ما ينشأ من مضاعفات ومآسٍ وويلات من حكم الطواغيت، لأنّه لا شك في أن الحكم الصادر عن الأشخاص غير الصالحين والظالمين

وإن كان ينطوي على منفعة آنية لأحد جانبي الدعوى، ولكن لا يمضي زمان إلاّ ويوجب هذا الحكم ظهور الفساد وانتشار الظلم والجور، وسيادة الهرج والمرج وتبعثر الكيان الاجتماعي، ولهذا فإنّه سرعان ما تواجه هؤلاء المتحاكمين إلى الطواغيت تبعات ومفاسد عملهم هذا، وسرعان ما يندمون على فعلهم هذا.

هذا ويحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من «المصيبة» هو الفضيحة التي تلحق بالمنافقين، أو المصائب التي تصيبهم بأمر الله سبحانه (كالمآسي والمحن غير المتوقعة).

النّقطة الثّانية: إنّ مقصود المنافقين من «الإحسان» هل هو الإحسان إلى طرفي الدعوى، أو إلى النّبي ﷺ؟ يمكن أن يكون مرادهم كلا الأمرين، فهم تذرعوا بحجج مضحكة لتحاكمهم إلى الطاغوت والرجوع إلى الأجانب، من جملتها أنّهم كانوا يقولون: إنّ التحاكم إلى الرّسول ﷺ لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه، لأنّ الغالب أن يحصل شجار وصياح في محضر القضاة ومن جانب المتداعيين، وذلك أمر لا يناسب شأن النّبي ولا يليق بمكانته ومحضره.

هذا مضافاً إلى أنّ القضاء ينتهي دائماً إلى الإضرار بأحد الطرفين، ولذلك فهو يثير حفيظته وعداوته ضد القاضي والحاكم، وكأنّهم بأمثال هذه الحجج الواهية والأعذار الموهونة، كانوا يحاولون تبرئة أنفسهم وتبرير مواقفهم الباطلة، وادعاء أنّ تحاكمهم إلى غير النّبي كان بهدف التخفيف عن النّبي.

وربّما اعتذروا لذلك قائلين: إنّ هدفنا لم يكن مادياً في الأساس، بل كان التوصل إلى وفاق بين المتداعيين.

ولكن كشف سبحانه في الآية الثّالثة النقاب عن وجههم، وأبطل هذه التبريرات الكاذبة وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾.

ولكنّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم وعقوبتهم فيقول: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾.

ولقد كان رسول الله يداري المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأموراً بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم، فلم يكن يجازيهم إلاّ في بعض الموارد الاستثنائية، لأنّهم كانوا بين صفوف المسلمين - في الظاهر - فكانت مجازاتهم يمكن أن تحمل على أنّها نشأت من أغراض شخصية.

ثمّ إنّه سبحانه يأمر النّبي ﷺ أن يعظهم، وأن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، والعظة المؤثرة، ويذكّرهم بنتائج أعمالهم: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

في الآيات السابقة شجب القرآن الكريم التحاكم إلى حكّام الجور، وفي هذه الآية يقول سبحانه مؤكداً:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي أنّنا بعثنا الأنبياء ليطاعوا بإذن الله وأمره ولا يخالفهم أحد، لأنّهم كانوا رسل الله وسفراءه كما كانوا رؤساء الحكومة الإلهيّة أيضاً، وعلى هذا يجب على الناس أن يطيعوهم من جهة بيان أحكام الله ومن جهة طريقة تطبيقها، ولا يكتفوا بمجرّد ادعاء الإيمان.

ومن هذه العبارة يستفاد أنّ الهدف من إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو إطاعة جميع الناس لهم، فإذا أساء بعض الناس استخدام حريتهم ولم يطيعوا الأنبياء كان اللوم متوجهاً إلى أنفسهم لا إلى أحد. وبهذا تنفي الآية الحاضرة عقيدة الجبريين الذين يقولون: الناس صنفان: صنف كلّف بالطاعة من البدء، وصنف كلّف بالمعصية من البدء.

كما أنّه يستفاد من عبارة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أن كل ما عند الأنبياء من الله، أو بعبارة أُخرى: إن وجوب طاعتهم ليس بالذات، بل هو - أيضاً - بأمر الله ومن ناحيته.

ثمّ إنّه سبحانه يترك باب التوبة والإنابة - عقيب تلك الآية - مفتوحاً على العصاة والمذنبين، وعلى الذين يراجعون الطواغيت ويتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

والجدير بالتأمل والانتباه أنّ القرآن يقول بدل: عصوا أمر الله وتحاكموا إلى الطاغوت: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو إشارة إلى أنّ فائدة الطاعة لأمر الله وأمر الرّسول

تعود إليكم أنفسكم، وأن مخالفة ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنّها تحطّم حياتكم المادية، وتوجب تخلفكم وانحطاطكم من الناحية المعنوية.

إنّ هذه الآية تجيب ضمناً على كل الذين يعتبرون التوسّل برسول الله أو بالإمام نوعاً من الشرك، لأنّ الآية تصرح بأن التوسل بالنّبي والاستشفاع به إلى الله، وطلب الاستغفار منه لمغفرة المعاصي، مؤثر وموجب لقبول التوبة وشمول الرحمة الإلهيّة.

فلو كانت وساطة النّبي ﷺ ودعاؤه للعصاة المتوسلين به، والاستشفاع به وطلب الاستغفار من الله بوساطته شركاً، فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاة والمذنبين بمثل هذا الأمر؟

نعم، غاية ما في الباب أنّ على العصاة والمذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم ويرجعوا عن طريق الخطأ، ثمّ يستفيدوا - لقبول توبتهم - من استغفار النّبي ﷺ لهم.

ومن البديهي أنّ النّبي ﷺ ليس من شأنه أن يغفر الذنوب، بل شأنه في المقام أن يطلب من الله المغفرة خاصّة، وهذه الآية إجابة مفحمة للذين ينكرون مشروعية أو فائدة هذه الوساطات.

هذا والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يقل: استغفر لهم يا رسول الله، بل قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وهذا التعبير - لعلّه - إشارة إلى أن يستفيد النّبي من مقامه ومكانته ويستغفر للعصاة التائبين.

إنّ هذا الموضوع (أي تأثير استغفار النّبي ﷺ للمؤمنين) ورد في آيات أُخرى من القرآن الكريم أيضاً مثل الآية (١٩) من سورة محمّد والآية (٥) من سورة (المنافقون) والآية (١١٤) من سورة التوبة التي تشير إلى استغفار إبراهيم لأبيه (عمّه)، والآيات الأُخرى التي تنهى عن الاستغفار للمشركين، ومفهومها جواز الاستغفار للمؤمنين، كما يستفاد من بعض الروايات أن الملائكة تستغفر لجماعة من المؤمنين المذنبين عند الله (سورة غافر الآية ٧٧، وسورة الشورى الآية ٥).

وخلاصة القول، إنّ هناك آيات كثيرة تكشف عن هذه الحقيقة وهي أنّ الأنبياء، أو الملائكة، أو المؤمنين الصادقين الطيبين بإمكانهم أن يستغفروا لبعض العصاة، وأن استغفارهم مؤثر عند الله، وهذا هو أحد معاني شفاعة النّبي أو الملائكة أو المؤمنين الطيبين للعصاة والخاطئين، ولكن الشّفاعة كما قلنا تحتاج إلى أرضية وصلاحية وأهلية في العصاة أنفسهم.

والعجيب أنّه يستفاد من بعض ما قاله جماعة من المفسّرين أنّهم أرادوا اعتبار

استغفار النّبي ﷺ - في الآية الحاضرة - مرتبطاً بالتجاوزات الواقعة في شؤون النّبي خاصّة لا مطلق المعاصي والذنوب، وكأنّهم أرادوا أن يقولوا: لو أنّ أحداً ظلم النّبي أو أساء إليه وجب استحلاله واسترضاؤه ليغفر الله تلك الإساءة ويتوب على ذلك التجاوز.

ولكن من الواضح البيّن أن إرجاع التحاكم إلى غير النّبي ليس ظلماً شخصياً يقصد به شخص النّبي، بل هي مخالفة لمنصبه الإلهي الخاص (أو بعبارة أُخرى) إنّها مخالفة للأمر الإلهي، وحتى إذا كان ذلك ظلماً شخصياً موجهاً إلى شخص النّبي - افتراضاً - فإن القرآن لم يقصده ولم يركز عليه، بل ركز القرآن على هذا الموضوع وهو أن ذلك التحاكم مخالفة لأمر الله وتجاهل لإرادته.

هذا مضافاً إلى أنّنا لو ظلمنا أحداً كفانا رضاه، فما الحاجة إلى طلب استغفاره، ودعائه للمسيء؟ بل وفوق ذلك كلّه، لو أننا فسّرنا الآية بمثل هذا التّفسير - فرضاً - فما الذي نقوله في تلك المجموعة الكبيرة من الآيات التي تشير إلى استغفار الأنبياء، والملائكة والمؤمنين للعصاة والخاطئين؟ فهل المقام فيها مقام الحقوق الشخصية أيضاً؟

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

سبب النّزول

وقع خصام بين الزّبير بن العوام - وهو من المهاجرين - وبين رجل من الأنصار على سقي نخيلهما التي كانت متقاربة في المكان، فترافعا إلى النّبي ﷺ - وحيث إن نخيل الزبير كانت أعلى مكاناً من نخيل الأنصاري، قال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق ثمّ أرسل إلى جارك» (وقد كانت هذه هي العادة في البساتين المتجاورة آنذاك) فغضب الأنصاري من حكم النّبي العادل هذا، وقال: يا رسول الله لئن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ انزعاجاً من موقف الأنصاري وكلامه، فنزلت الآية الحاضرة تحذّر المسلمين من مثل هذه المواقف.

وقد ذكرت في بعض التفاسير أسباب أُخرى لنزول الآية تشابه - إلى درجة كبيرة - ما ذكر في سبب النزول المتقدم[1] (راجع تفسير التّبيان والطّبرسي، والمنار).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٩.

التّفسير

التّسليم أمام الحق

الآية، وإن ذكر لها سبب للنزول خاص - ولكننا أسلفنا غير مرّة أن أسباب النزول الخاصّة لا تنافي عمومية مفهوم الآيات، ولهذا يمكن اعتبار هذه الآية تكميلاً لما جاء من البحث في الآيات السابقة.

ولقد أقسم الله - في هذه الآية - بأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيماناً واقعياً إلاّ إذا تحاكموا إلى النّبي وقضائه، ولم يتحاكموا إلى غيره ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

ثمّ يقول سبحانه: يجب عليهم، أن يتحاكموا إليك فقط، ومضافاً إلى ذلك ليرضوا بما تحكمه، سواءً كان في صالحهم أو في ضررهم ولا يشعروا بأي حرج في نفوسهم فضلاً عن أن لا يعترضوا، وبالتالي ليسلّموا تسليماً.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

والانزعاج النفسي الباطني من الأحكام التي ربّما تكون في ضرر الإنسان، وإن كان في الأغلب أمراً غير اختياري، إلاّ أنّه على أثر التربية الخلقية المستمرة يمكن أن تحصل لدى الإنسان روح التسليم للحق، والخضوع للعدالة، خاصّة بملاحظة المكانة لواقعية النّبي ﷺ، فلا ينزعج من أحكام النّبي ﷺ، بل ولا من أحكام العلماء الذين يخلفونه، وعلى كل فإن المسلمين الواقعيين مكلفون دائماً بتنمية روح الخضوع للحق، والتسليم للعدل في نفوسهم.

إن الآية الحاضرة تبيّن علائم الإيمان الواقعي الراسخ في ثلاث مراحل:

١ - أن يتحاكموا إلى النّبي ﷺ - وحكمه النابع من الحكم الإلهي - في ما اختلفوا فيه، كبيراً كان أو صغيراً، لا إلى الطواغيت وحكام الجور والباطل.

٢ - أن لا يشعروا بأي انزعاج أو حرج في نفوسهم تجاه أحكام الرّسول ﷺ وأقضيته العادلة التي هي - في الحقيقة - نفس الأوامر الإلهية، ولا يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

٣ - أن يطبقوا تلك الأحكام - في مرحلة تنفيذها - تطبيقاً كاملاً ويسلّموا للحق تسليماً مطلقاً.

ومن الواضح أنّ القبول بأي دين وأحكامه في ما إذا كانت في مصلحة الإنسان وكانت مناسبة لمنافعه وتطلعاته، لا يمكن أن يكون دليلاً على إيمانه بذلك الدين، بل يثبت ذلك إذا كانت تلك الأحكام في الاتجاه المتعاكس لمنافعه وتطلعاته ظاهراً، وإن كانت مطابقة للحق والعدل في الواقع، فإذا قبل بمثل هذه الأحكام وسلم لها تسليماً كاملاً كان ذلك دليلاً على إيمانه ورسوخ اعتقاده.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثمّ قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم صنع هكذا وكذا، ولو صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثمّ تلا هذه الآية (الحاضرة) ثمّ قال عليه السلام: عليكم بالتسليم»[1].

ثمّ إنّه يستفاد من الآية الحاضرة مطلبان مهمّان - ضمناً:

١ - إنّ الآية إحدى الأدلة على عصمة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه وأوامره قولاً وعملاً، بل والتسليم القلبي والخضوع الباطني له أيضاً دليل واضح على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطىء في أحكامه وأقضيته وتعليماته، ولا يتعمّد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضاً.

٢ - إنّ الآية الحاضرة تبطل كلّ اجتهاد في مقابل النص الوارد عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتنفي شرعية كل رأي شخصي في الموارد التي وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب الله تعالى ونبيّه صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى هذا الإساس فإنّ ما نراه في التاريخ الإسلامي من اجتهاد بعض الأشخاص في مقابل الأحكام الإلهيّة والنصوص النبوية، وقولهم: قال النّبي كذا ونقول كذا، فليس أمامنا حياله إلاّ أن نذعن بأنّهم عملوا على خلاف صريح هذه الآية، وخالفوا نصها.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٨٩. اصول الكافي، ج ١، ص ٣٩٠؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٥٥ و٢٥٦.

التّفسير

تكميلاً للبحث السابق حول أُولئك الذين يشعرون بضيق وحرج تجاه أحكام النّبي ﷺ وأقضيته العادلة بعض الأحيان - يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف والفرائض الثقيلة في الأُمم السالفة فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

أي إنّنا لم نكلّفهم بأية فريضة شاقة لا تحتمل، ولو أنّنا كنّا نكلّفهم بمثل ما كلّفنا به الأُمم السابقة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفارة لما ارتكبوه من عبادة العجل، أُو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟ إنّهم لم يتحملوا حكماً بسيطاً أصدره النّبي في أمر سقي نخلات، ولم يسلّموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة والمسؤوليات الجسيمة ويمرّوا بالاختبارات الصعبة بنجاح، فلو أنّنا أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أي يقتل بعضهم بعضاً) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلاّ قليل منهم.

إنّ مسألة «الاستعداد للقتل» تشبه - حسب قول بعض المفسّرين - مسألة «الخروج عن الوطن» من جهات عديدة، لأنّ البدن وطن الروح الإنسانية تماماً كما أنّ الوطن مثل الجسم الإنساني، فكما أنّ ترك وطن الجسم أمر صعب، فكذلك ترك الوطن الذي هو مسقط رأس الإنسان ومحل ولادته ونشأته.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي لو أنّهم قبلوا نصائح النّبي ومواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، ولكان سبباً لتقوية أُسس الإيمان عندهم.

والملفت للنظر أنّ القرآن يعبّر - في هذه الآية - عن الأحكام والأوامر الإلهيّة بالموعظة، وهو إشارة إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست أُموراً تصب في مصلحة المشرّع (أي الله) أو تجر له نفعاً، بل هي - في الحقيقة - نصائح ومواعظ نافعة لكم، ولهذا يقول ودون تأخير: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي تقوية لإيمانهم وترسيخاً لجذورها في نفوسهم.

ولا بدّ أيضاً أن ننتبه إلى هذه النقطة، وهي أنّ الله سبحانه يقول في ختام هذه الآية ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي كلّما اجتهد الإنسان في السير في سبيل طاعة الله وتنفيذ أوامره ازدادت

استقامته وازدياد ثباته، وهذا يعني أن إطاعة الأوامر الإلهيّة نوع من الرياضة الروحية التي تحصل للإنسان من تكرارها قوة وثبات أكبر واستحكام أكثر، على غرار ما يحصل للجسم نتيجة تكرار الرياضات الجسمية والتمارين الرياضية البدنية، فيصل الإنسان - نتيجة ذلك - إلى مرحلة لا يمكن لأية قدرة أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعزعه.

ثمّ إنّه سبحانه يبيّن - في الآية الثّانية - الفائدة الثّالثة من فوائد التسليم لأوامر الله وطاعته إذ يقول: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إذاً لأعطيناهم - مضافاً إلى ما ذكرناه - أجراً من عندنا عظيماً، لا يعرف منتهاه ولا يدرك مداه.

ثمّ في آخر آية من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

ومن الواضح البيّن أنّ المراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد ألطاف جديدة يمنّ بها الله سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب والهداية الثانوية، فهو يشبه ما أُشير إليه في الآية (١٧) من سورة محمّد ﷺ إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.

وقد روي أنّه عندما نزل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال رجل من المسلمين: والله لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذي عافانا.

فلما بلغ هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ قال:

«إنّ من أُمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»(١).

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

سبب النّزول

كان أحد الصّحابة يدعى ثوبان شديد الحبّ لرسول الله قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه فقال له النّبي ﷺ: يا ثوبان ما غيّر لونك؟ فقال: يا

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٤٢٨؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص ٢٠ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

رسول الله ما من مرض ولا وجع غير أنّي إذا لم أرك اشتقت إليك حتى ألقاك، ثمّ ذكرت الآخرة فأخاف أنّي لا أراك [هناك لأني عرفت أنك ترفع مع النبيّين]، وإنّي إن أُدخلت الجنّة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنّة فذاك حتى لا أراك أبداً.

فنزلت الآيتان الحاضرتان تبشّران أمثال هذا بأنّ المطيعين سيكونون مع النّبيين ومن اختارهم الله وأنعم عليهم في الجنّة.

ثمّ إنّ النّبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين»[1] أي يكون مسلِّماً لتعاليمي وأوامري، تسليماً كاملاً.

التّفسير

رفقاء الجنّة

في هذه الآية يبيّن القرآن ميزة أُخرى من ميزات من يطيع أوامر الله تعالى والنّبي ﷺ، وفي الحقيقة مكملة للميزات التي جاء ذكرها في الآيات السابقة، وهي صحبة الذين أتمّ الله نعمه عليهم ومرافقتهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾.

وكما أسلفنا في سورة الحمد فإنّ الذين أنعم الله عليهم هم الذين ساروا في الطريق المستقيم ولم يرتكبوا أي خطأ، ولم يكن فيهم أي انحراف.

ثمّ يشير - لدى توضيح هذه الجملة، وتحديد من أنعم الله عليهم - إلى أربع طوائف يشكلون في الحقيقة الأركان الأربعة لهذا الموضوع وهم:

١ - الأنبياء: أي رسل الله تعالى الذين كانوا طليعة السائرين في سبيل هداية الناس ودعوتهم إلى الصراط المستقيم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٢ - الصّادقون: وهم الذين يصدقون في القول ويصدقون إيمانهم بالعمل الصالح، ويثبتون أنّهم ليسوا مجرّد أدعياء الإيمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر الله وتعاليمه ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾.

ومن هذا التعبير يتّضح أنّه ليس بعد مقام النبوة أعلى من مقام الصدق، والصدق هذا

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٨٧ و ٨٨؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، وما بين قوسين زيادة منه.

لا ينحصر في الصدق في القول فقط، بل هو الصدق في الفعل والعمل . . . الصدق في الممارسات والمواقف، وهو لذلك يشمل الأمانة والإخلاص أيضاً، لأن الأمانة هي الصدق في العمل كما أنّ الصدق أمانة في القول، وفي المقام ليس هناك صفة بعد الكفر أقبح من الكذب والنفاق والخيانة في القول والعمل (ويجب الانتباه - هنا - إلى أن الصدّيق صيغة مبالغة وهي بمعنى الصادق كله، ظاهراً وباطناً).

وقد فسّر «الصدّيق» في بعض الروايات والأخبار بعلي عليه السلام والأئمّة من أهل البيت النّبوي عليهم السلام [(١)]، وهذا التّفسير كما قلنا في ما سبق من باب بيان المصداق الأكمل والأوضح لهذه الآيات، فلا تفيد الحصر والقصر.

٣ - الشّهداء: الذين قتلوا في سبيل الله وفي سبيل العقيدة الإلهيّة الطاهرة، أو الذين يشهدون على الناس وأعمالهم في الآخرة ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[(٢)].

٤ - الصّالحون: وهم الذين بلغوا بأعمالهم الصالحة والمفيدة وباتّباع الأنبياء وأوامرهم إلى مراتب عالية ومقامات رفيعة ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

ولهذا فسّر «الصّالحون» في رواياتنا وأحاديثنا، بالصفوة المختارة من أصحاب الأئمّة عليهم السلام وهذا أيضاً من باب بيان أظهر المصاديق وأوضحها كما أسلفنا في تفسير الصديقين.

والنقطة الجديرة بالتذكير هنا هي أن ذكر هذه المراحل الأربع يمكن أن يكون إشارة إلى أنّه لابدّ لبناء المجتمع الإنساني الصالح والسليم من أن يبدأ الأنبياء - وهم القادة والهداة بحق الهداية، ثمّ يتبعهم المبلغون الصادقون بالقول والعمل، وهم الصادقون الذين يصدِّق عملهم قولهم وفعلهم دعواهم فينشرون الحقائق في كل مكان، ثمّ بعد مرحلة البناء الفكري والاعتقادي هذه، يقوم جماعة في وجه العناصر الفاسدة ومن يريدون الوقوف في طريق الحقّ، فيضحون بأنفسهم ويقدمون أجسادهم وحياتهم قرابين للحقّ والعدل، فيكون حاصل هذه الجهود والمساعي ظهور الصّالحين واستقرار المجتمع الطاهر السليم.

ومن الواضح البيّن أنّ على الصالحين أيضاً أن يقوموا بهذه الواجبات الثلاث أي

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٧٨؛ وبحار الأنوار، ج ١٦، ص ٣٥٤ و ٣٥٥.

(٢) الشهيد في أصل اللغة هو من يشهد، غاية ما هناك أنّ الإنسان قد يشهد على حق بكلامه، وقد يشهد بعمله وقتله في سبيل أهدافه الطاهرة.

عليهم أن يقودوا، ويبلغوا، ويضحوا لكي يبقوا على جذوة الحق متقدة، وعلى مشعل العدل مضيئاً للأجيال اللاحقة.

كما أنّه يستفاد من الآيات الحاضرة ضمناً هذه الحقيقة، وهي أنّ مسألة مرافقة الصالحين وصحبة الرفقاء الطيبين لها من الأهمّية بحيث تعتبر في الآخرة الجزء المكمل للنعم الإلهيّة الكبرى التي يمنّ الله بها على المطيعين في الجنّة، فهم علاوة على كل ما يحصلون عليه من نعم وميزات سيحظون بمرافقة رفقاء كالأنبياء والصّديقين والشّهداء والصّالحين.

ولعلنا في غنى عن التذكير بأنّ معاشرة المطيعين لهذه الطوائف الأربع ليس معناه أنّهم في منزلتهم ورتبتهم، وأنّهم في درجتهم من جميع الجهات، بل يعني أنّ لكل واحد منهم - مع معاشرة بعضهم لبعض - سهماً خاصاً (يتناسب ومقامه) من المواهب والألطاف الإلهيّة، فهم كأشجار بستان واحد ووروده وأعشابه، فهي مع كونها مجتمعة متجاورة ومع أنّها تستفيد برمّتها من ضوء الشمس والمطر، ولكنها ليست متساوية في حجم الاستفادة من تلك العناصر، كما أنّها ليست متساوية في القيمة.

ثمّ يبيّن سبحانه في الآية اللاحقة أهمّية هذا الامتياز الكبير (أي مرافقة تلك الصفوة المختارة) فإنّ هذه الهبة من جانب الله، وهو عليم بأحوال عباده ونواياهم ومؤهلاتهم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾، فلا يخطىء في الإثابة والجزاء حيث إنّ «ذلك» إشارة إلى البعيد، لهذا يوحي في هذه الموارد إلى أهمّية المقام وعلوّه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾

التّفسير

الحذر الدّائم

«الحذر» يعني اليقظة والتأهب والترقب لخطر محتمل، كما يعني أحياناً الوسيلة التي يستعان بها لدفع الخطر.

أمّا كلمة «ثُبات» فتفيد معنى المجموعات المتفرقة، ومفردها «ثبة» من مادة «ثبي» أي جمع.

والقرآن يخاطب عامّة المسلمين في الآية المذكورة أعلاه، ويقدم لهم اثنين من

التعاليم اللازمة لصيانة وجود المسلمين والمجتمع الإسلامي تجاه كل خطر يهدد هذا الوجود.

ففي البداية تأمر الآية المؤمنين بالتمسك باليقظة والبقاء في حالة التأهب من أجل مواجهة العدو، وتحذرهم من الغفلة عن هذا الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ...﴾.

ثمّ تأمر الآية بالاستفادة من الأساليب والتكتيكات المختلفة في مواجهة العدو، من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحّد مترابط إن استدعت المواجهة هجوماً شاملاً منسجماً، وفي كلتا الحالتين لابدّ من المواجهة الجماعية ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾.

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ معنى «الحذر» في الآية هو «السلاح» لا غير، بينما للحذر معنى واسع لا يقتصر على السلاح، ثمّ إنّ الآية (١٠٢) من هذه السورة تدل بوضوح على أنّ الحذر غير السلاح حيث يقول تعالى: ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ وجواز وضع السلاح (في الصلاة) مع أخذ الحذر يدل على أنّ الحذر لا يعني السلاح بالذات.

الآية الكريمة هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين في كلّ العصور والأزمنة، ويدعو هذا الأمر المسلمين إلى الالتزام باليقظة والاستعداد الدائم لمواجهة أي طارىء من جانب الأعداء ولحماية أمن الأُمّة، وذلك عن طريق التحلّي بالاستعداد المادي والمعنوي الدائمين.

وكلمة «الحذر» أيضاً تستوعب بمعانيها الواسعة - كل أنواع الوسائل المادية والمعنوية الدفاعية التي يتحتم على المسلمين اتباعها، من ذلك التعرف على قدرة العدو من حيث العدّة والعدد، وأساليبه الحربية، والاستراتيجية، ومدى فاعلية أسلحته، وكيفية مواجهتها والاحتماء من خطرها وخطر العدوّ نفسه، وبذلك يكون المسلمون قد أوفوا من حيث العمل بما يتطلبه منهم أمر «الحذر» من الاستعداد والتأهب واليقظة لمواجهة أي خطر طارىء.

ويشتمل أمر «الحذر» أيضاً على الاستعداد النفسي والثقافي والاقتصادي، لتعبئة كافة الإمكانيات البشرية، والاستفادة من أقوى أنواع الأسلحة وأكثرها تطوراً في الوقت المطلوب، وكذلك الإلمام بصور استخدام هذا السلاح وأساليبه، فلو كان المسلمون

يلتزمون بهذا الأمر ويطبقونه على حياتهم لاستطاعوا أن يجنّبوا أنفسهم وأُمّتهم الفشل والتقهقر والهزيمة على مدى تاريخهم المليء بالأحداث.

والشيء الآخر الذي يفهم من هذه الآية الكريمة، هو اختلاف أساليب مواجهة العدو بحسب ما تقتضيه الضرورة، ويعيّنه الظرف، ويحدّده موقع العدو - فلو كان هذا الموقع يتطلب مقابلة العدو بجماعات منفصلة، لوجب استخدام هذا الأسلوب مع كل ما يحتاج إليه من عدد وعدّة وغير ذلك، وقد يكون موقع العدو بصورة تقتضي مواجهة العدو في هجوم عام ضمن مجموعة واحدة متماسكة، وعند هذا يجب أن يعدّ المسلمون العدّة اللازمة والعدد الكافي لمثل هذا الهجوم الشامل.

ومن هنا يتّضح أنّ إصرار البعض على أن يكون للمسلمين أُسلوب كفاحي واحد دون اختلاف في التكتيك لا يقوم على منطق ولا تدعمه التجارب، إضافة إلى أنّه يتنافى مع روح التعاليم الإسلامية.

لعل الآية - أعلاه - تشير أيضاً إلى أنّ المسألة الهامّة هي تحقيق الأهداف الواقعية سواء تطلب الأمر أن يسلك الجميع أُسلوباً واحداً، أو أن ينهجوا أساليب متنوعة.

ويفهم من كلمة «جميعاً» أنّها تعني أنّ المسلمين كافّة مكلّفون بالمشاركة في أمر مواجهة العدو، ولا يختص هذا الحكم بطائفة معينة.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

التّفسير

بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد والاستعداد لمقابلة العدوّ في الآية السابقة تبيّن هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، وتفضح تذبذبهم، فهم يصرّون على الامتناع عن المشاركة في صفوف المجاهدين في سبيل الله... ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾(١) لَمَن

(١) ينبغي الإلتفات إلى أنّ الآية أعلاه تخاطب المؤمنين، لكنّها تتطرق إلى المنافقين أيضاً، كما أنّ عبارة «منكم» جعلت المنافقين جزءاً من المؤمنين، وما ذلك إلاّ لأنّ المنافقين كانوا دائماً متغلغلين بين المؤمنين، ومن هنا فهم يحسبون على الظاهر جزءاً منهم.

لَيُبَطِّئَنَّ(١) . . . ﴾.

وحين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن كان قد أصابهم مكروه في قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأنّ الله قد أنعم عليهم نعمة كبيرة إذ لم يشاركوا المجاهدين في ذلك القتال، ويفرحون لعدم حضورهم في مشاهد الحرب الرهيبة ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

وحين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين ونيلهم المغانم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم ويظهر الندم على وجوههم، ويشرعون - وكأنّهم غرباء لا تربطهم بالمسلمين أية رابطة - بترديد عبارات التأسف: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

في الآية إشارة إلى المفهوم المادي للنصر في نظر المنافقين، فالذي يرى الشهادة والقتل في سبيل الله مصيبةً وبلاءً، ويخال النجاة من القتل أو الشهادة في هذه السبيل نعمة إلهية، لا ينظر إلى النصر والفوز إلاّ من خلال منظار كسب الغنائم والمتاع المادي لا غير.

هؤلاء المتلونون الموجودون - مع الأسف - في كل المجتمعات، سرعان ما يغيّرون أقنعتهم تجاه ما يواجهه المؤمنون من نصر أو هزيمة، هؤلاء لا يشاركون المؤمنين في معاناتهم ولا يساعدونهم في الملمات، لكنّهم يتوقعون أن يكون لهم في الإنتصارات السّهم الأوفى، وأن يحصلوا على ما يحصل عليه المجاهدون المؤمنون من امتيازات.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

التّفسير

إعداد المؤمنين للجهاد

بعد أن أوضحت الآية السابقة إحجام المنافقين عن مشاركة المجاهدين في القتال

(١) «ليبطئن» من «البطء» في الحركة، وهو فعل لازم ومتعد كما ذكر علماء اللغة، أي أنّهم يبطئون في حركتهم ويدعون الآخرين إلى البطء، ولعل استعمال الفعل في باب التفعيل هنا يعني أنّه متعد فقط، أي إنّهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تارةً، ويدفعون الآخرين إلى ذلك تارةً أخرى.

تتوجه الآية (٧٤) والتي تليها - بلغة مشجعة مشوقة - إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، ونزول هذه الآيات حين كان الإسلام مهدداً من قِبَلِ مختلف الأعداء - سواء من الداخل أو الخارج - يدل على أهميّتها في تربية الروح الجهادية لدى المسلمين.

وتوضح الآية في بدايتها أنّ أعباء الجهاد يجب أن تكون على عاتق أُولئك النفر الذين باعوا حياتهم الدنيوية المادية الزائلة، مقابل فوزهم بالحياة الأُخروية الخالدة: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي أنّ المجاهدين الحقيقيّين هم وحدهم المستعدون للدخول في هذه الصفقة، بعد أن انكشفت لهم دناءة الحياة المادية (وهو ما يفهم من لفظ الدنيا)، فهؤلاء أدركوا أنّ هذه الحياة لا قيمة لها تجاه الحياة الأبدية الخالدة، أمّا الذين يرون الأصالة في الحياة المادية الدنيئة، ويعتبرونها أرفع وأكبر من الأهداف الإلهيّة المقدسة والأهداف الإنسانية السامية، فلا يمكن أن يكونوا أبداً مجاهدين صالحين.

وتستمر الآية مبيّنة أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة واضح لا يخرج عن حالتين: إمّا النصر على الاعداء، أو الشهادة في سبيل الله، وهم في كلتا الحالتين ينالون الأجر والثواب العظيم من الله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبديهي أن جنوداً كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمة، فهم يرون النصر إلى جانبهم في الحالتين: سواء تغلّبوا على العدو، أو نالوا الشهادة في سبيل الله، ومثل هذه المعنويات كفيلة بأن تمهّد الطريق للانتصار على العدو، ويعتبر التاريخ خير شاهد على أنّ هذه المعنويات هي العامل في انتصار المسلمين على أعداء فاقوهم عدداً وعُدّة.

ويؤكّد هذا الأمر حتى المفكرون من غير المسلمين ممن كتبوا عن انتصارات المسلمين السريعة التي حققوها في عصر الرّسول ﷺ وفي العصور التالية، فهؤلاء المفكرون يرون أن منطق الفوز بإحدى الحسنيين أحد العوامل الحاسمة في تقدم المسلمين.

يقول مؤرخ غربي مشهور في كتاب له في هذا المجال: إنّ المسلمين لم يكونوا ليخافوا الموت في سبيل دينهم الجديد، لما وعدوا به من هبات إلهيّة في الآخرة، وإنّهم

لم يعتقدوا بأصالة خلود هذه الحياة الدنيا، ولذلك فهم قد تنازلوا عن هذه الحياة في سبيل العقيدة والهدف(١).

والجدير ذكره هنا هو أنّ هذه الآية - وآيات أُخرى من القرآن الكريم - اعتبرت الجهاد أمراً مقدساً إذا كان في سبيل الله، ومن أجل إنقاذ البشر، وإحياء مبادىء الحق والعدالة والطهارة والتقوى، على عكس الحروب التي تشن بهدف التوسع وبدافع من التعصب والتوحش والاستعمار والاستغلال.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

التّفسير

الاستعانة بالعواطف والمشاعر الإنسانية

كانت الآية السابقة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمدة على إيمانهم بالله واليوم الآخر، وقد اعتمدت أيضاً قضية الربح والخسارة في سياق دعوتها إلى الجهاد، أمّا هذه الآية فتستند في دعوتها الجهادية إلى العواطف والمشاعر الإنسانية وتستثيرها في هذا الاتجاه - فهي تخاطب مشاعر المؤمنين وعواطفهم بعرض ما يتحمله الرجال والنساء والأطفال المضطهدون من عذاب وظلم بين مخالب الطغاة الجبارين، وتطالب المؤمنين - مستثيرة عواطفهم في هذا الاتجاه - عن طريق عرض المشاهد المأساوية التي يعاني منها المستضعفون وتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ(٢) مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ...﴾.

ولأجل إثارة المشاعر أكثر، تنبّه الآية المؤمنين بأنّ المستضعفين المذكورين لكثرة

---

(١) راجع غوستاف لوبون، تاريخ الحضارة الإسلامية والعربية.

(٢) إنّ الفرق بين المستضعف والضعيف واضح وجلي، فالضعيف هو من كان معدوم القدرة والقوّة، والمستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم وجور الآخرين، سواء كان الاستضعاف فكرياً أو ثقافياً أو كان أخلاقياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو اجتماعياً، فالعبارة هنا جامعة شاملة تستوعب جميع أنواع الاستضعاف.

معاناتهم من البطش والارهاب والاضطهاد قد انقطع أملهم في النجاة ويئسوا من كل عون خارجي، فأخذوا يدعون الله لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش والرعب والظلم الفاحش: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ويطلب المستضعفون من الله - أيضاً - أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم وينجيهم من الظالمين بقولهم: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

الآية - في الواقع - تشير إلى أنّ الله قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أُوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون، فقد أصبحتم أنتم «الوليّ» المرتقب وأنتم «النصير» من قبل الله تعالى لإنقاذ المستضعفين، من هنا عليكم أن تنهضوا بهذه المسؤولية وتستثمروا هذه المكانة الكبرى المناطة بكم ولا تضيّعوها.

والآية هذه يستفاد منها أيضاً عدّة أُمور، هي:

١ - إنّ الجهاد في سبيل الله وكما أُشير إليه من قبل - ليس من أجل انتزاع الأموال والسلطة والثروات من أيدي الآخرين، كما أنّه لا يستهدف إيجاد أسواق لاستهلاك البضائع أو لفرض عقائد خاصّة بالقوّة، بل إنه يستهدف نشر الفضيلة والإيمان والدفاع عن المظلومين والمضطهدين من النساء والرجال والولدان، ومن هذا المنطلق يتّضح أنّ للجهاد هدفين شاملين جامعين أشارت الآية إليهما، أحدهما «ربّاني»، وآخر «إنساني» يكمل أحدهما الآخر، ولا ينفصلان، بل كلاهما يعود إلى حقيقة واحدة.

٢ - إنّ الإسلام يرى أن المحيط السالم الذي يمكن للإنسان أن يعيش فيه، هو ذلك المحيط الذي يوفّر الحرية للإنسان، ويضمن له العمل بما يعتقد دون مانع أو أذى، ويرى الإسلام - أيضاً - أنّ المحيط الذي يسوده الكبت والإرهاب والقمع، ولا يستطيع المسلم فيه إظهار عقيدته أو إعلان إسلامه، فهو محيط لا يجدر بالإنسان المسلم أن يبقى فيه، لذلك فإنّ الآية تنقل عن المؤمنين دعاءهم إلى الله لكي يخلصهم من مثل هذا الجو المليء بالقمع والإرهاب.

وعلى الرغم من أن مكّة كانت ملجأً وملاذاً للمهاجرين، فإنّ تفشي الظلم فيها جعل المؤمنين يدعون الله لإنقاذهم من ظلم أهل هذه المدينة، وييسر لهم سبيلاً إلى الخروج منها.

٣ - وفي نهاية الآية نرى أنّ المؤمنين الذين يعانون من محيطهم الظالم، يسألون الله أن يبعث لهم من يتولى شؤونهم، وأن يمدّهم - أيضاً - بمن ينصرهم على الظالمين

ويخلصهم من مخالبهم، ويفهم من هذه الآية أهميّة القيادة الصالحة، وأهمّية قدرة هذه القيادة في إنقاذ المظلومين وضرورة امتلاكها من العدد والعدّة ما يمكّنها من القيام بمسؤوليتها الخطيرة هذه.

بذلك نستنتج من الآية العناصر التي يجب أن تتوفر في كل قيادة إسلامية، وهي كما يلي:

أ - أن تكون القيادة صالحة (بما في كلمة الصلاح من شمولية).

ب - أن تكون قوية مقتدرة (أي تملك العدد والعدّة الكافيين، بالإضافة إلى الخطط العسكرية التي تضمن نجاح استخدام القوّة الموجودة).

٤ - تبيّن الآية أنّ المؤمنين يطلبون حاجاتهم من الله العلي القدير وحده، ولا يلجأون إلى غيره في حوائجهم، حتى إنّهم يسألون الله أن يمدهم بمن يتولى الدفاع عنهم وينصرهم على الظالمين.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾

التّفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، وأبرزت عناصره والمخاطبين به ودوافعه، وفي هذه الآية نلاحظ أنّها تحث المجاهدين على القتال، وتبيّن أهدافهم، مؤكّدة أنّهم يقاتلون في سبيل الله ولمصلحة عباد الله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت المتجبر: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي إنّ الحياة في كل الأحوال لا تخلو من الكفاح والصراع، غير أن جمعاً يقاتلون في طريق الحق، وجمعاً يقاتلون في طريق الشيطان والباطل.

لذلك تطلب الآية من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة وخوف: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

كما توضح هذه الآية حقيقة مهمّة، هي أنّ الطاغوت والقوى المتجبرة - مهما امتلكت من قوة ظاهرية - ضعيفة في نفسها وجبانة في باطنها، وبهذا تطمئن الآية المؤمنين كي لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت مهما أُوتوا من عدّة أو عدد، لأنّهم خالون

من الهدف فارغون من الإيمان، ولذلك كانت خططهم كلها ضعيفة خاوية كقدرتهم ولأنّهم لا يعتمدون على منشأ القدرة الأزلية الأبدية الذي هو الله العزيز القدير، بل يعتمدون على قدرة الشيطان الضعيفة الجوفاء: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

أما سبب قوة المؤمنين من أنصار الحق فيعود إلى أنّهم يسيرون في طريق أهداف وحقائق تنسجم مع قانون الخليقة والوجود، وتتمتع بالصفة الأزلية الأبدية، فهم يجاهدون في سبيل تحرير الإنسان ومحو آثار الظلم والعدوان بينما الطاغوت وأنصاره يقاتلون من أجل منافعهم الشخصية أو يعملون في خدمة الطواغيت والمستكبرين من أجل استغلال البشر إرضاءً لشهواتهم الفانية الزائلة، الأمر الذي يدفع في النهاية بالمجتمع إلى الانحطاط والزّوال، لأنّ عمل الطواغيت يتناقض وسرّ الوجود ويتعارض مع قوانين الفطرة والطبيعة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن المؤمنين باعتمادهم على القوى الروحية يتمتعون بثقة عالية بالنفس وبهدوء باطني يمهّد لهم سبيل النصر والفوز على العدو، بل ويهبهم القوّة والقدرة على الاندفاع لمواجهة الأعداء، بينما العدو والكافر لا يعتمد على أساس قوي أبداً.

وتجدر الملاحظة هنا أنّ الآية قرنت الطاغوت بالشيطان، وهذا يدل على أنّ القوى الطاغوتية المتجبرة إنّما تستمد القوة والعون من منبع ضعيف يتمثل في القوى الشيطانية الجوفاء.

هذا المضمون تذكره - أيضاً - الآية (٢٧) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

سبب النّزول

روى جمع من المفسّرين كالشّيخ الطوسي في التبيان، والقرطبي وصاحب المنار عن ابن عباس أنّ نفراً من المسلمين كانوا أثناء وجودهم في مكّة قبل الهجرة يعانون من

ضغط المشركين وأذاهم، فجاءوا إلى النّبي ﷺ وطلبوا منه أن يسمح لهم بقتال الأعداء فأجابهم النّبي في حينه أنّه لم يؤمر بالجهاد.

ومضت أيّام على طلب هؤلاء، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة وتهيأت هناك ظروف وشروط الجهاد المسلح، وأمر الله المسلمين بالجهاد، فأخذ بعض من أُولئك النفر الذين كانوا يصرّون على النّبي للسماح لهم بالجهاد وقتال الأعداء في مكّة يظهرون الكسل والتهاون في تنفيذ الأمر الإلهي، ولم يبدوا أي حماس أو رغبة في الجهاد، كما كانوا يظهرون ذلك في مكّة، فنزلت هذه الآية وهي تحثّ المسلمين على الجهاد وتؤنب المتهاونين والمتقاعسين عن هذا الواجب الحسّاس.

وقد تطرقت الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق في هذا الصدد(١).

التّفسير

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل

تتحدث الآية بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شديدة في الجهاد خلال ظرف غير مناسب، وأصرّوا على السماح لهم بذلك، وقد صدرت الأوامر لهم - حينئذ - بالصبر والاحتمال، ودُعوا إلى إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وبعد أن سنحت الفرصة وآتت الظروف للجهاد بصورة كاملة وأُمروا به، استولى على هؤلاء النفر الخوف والرعب، وانبروا يعترضون على الأمر الإلهي ويتهاونون في أدائه.

تقول الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ فكان هؤلاء في اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحة: لماذا أسرع الله في إنزال أمر الجهاد؟ ويتمنون لو أخر الله هذا الأمر ولو قليلاً! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد بالأجيال القادمة(٢) ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

والقرآن الكريم يردّ على هؤلاء أوّلاً من خلال عبارة: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٣٤؛ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تدل بعض الأحاديث على أنّ هؤلاء النفر من المسلمين كانوا قد سمعوا بحديث نهضة المهدي المنتظر، فكان البعض منهم يترقب أن يؤخر الجهاد إلى زمن المهدي عليه السلام، تفسير نور الثقلين، الجزء الأوّل، ص٥١٨.

خَشْيَةً﴾ أي أن هؤلاء بدل أن يخافوا الله القادر القهار، أخذتهم الرّجفة واستولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا الإنسان أكبر من خشيتهم لله العليّ القدير.

ثمّ يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقة: لو أنّهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفّروا لأنفسهم - فرضاً - حياة قصيرة رغيدة هانئة، فإنّهم سيخسرون هذه الحياة لأنّها زائلة لا محالة، بينما الحياة الأبدية التي وعد الله بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه ولا يخشون سواه، خير من تلك الحياة الزائلة، وإن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملاً غير منقوص دون أن يصيبهم أيّ ظلم، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(١).

من الضروري الالتفات إلى عدة نقاط في تفسير هذه الآية، وهي:

١ - لماذا أُمر أولئك النفر بإقامة الصلاة وأداء الزكاة دون غيرهما من الفرائض الكثيرة الأُخرى؟

والجواب على هذا السؤال يتلخص في أنّ الصلاة هي سر الاتصال بالله سبحانه عزّوجلّ، والزكاة تعتبر مفتاحاً لباب الاتصال بعباد الله، وعلى هذا الأساس فقد صدرت الأوامر للمسلمين بأن يعدّوا أنفسهم وأرواحهم ومجتمعهم للجهاد في سبيل الله، عن طريق إقامة الصلة الوثيقة بينهم وبين الله وعباده، وبعبارة أُخرى أن يسعوا إلى بناء أنفسهم وإعدادها، وبديهي أنّ أي جهاد يحتاج بالضرورة إلى إعداد النفس والروح، وإلى توثيق عُرى التلاحم الاجتماعي، وبدون ذلك لا يمكن إحراز أي انتصار.

والإنسان يقوي صلته بالله من خلال الصلاة ويربّي بها روحه ومعنوياته، فيكون بذلك مستعداً لتقديم أغلى التضحيات بما في ذلك التضحية بالنفس، كما أنّ الزكاة هي الوسيلة الوحيدة لرأب كل صدع اجتماعي، بالإضافة إلى كونها دعماً اقتصادياً في سبيل إعداد ذوي الخبرة والتجربة والعُدة الحربية، وما يحتاجه المسلمون في قتال الأعداء ليكونوا على استعداد لمواجهة العدو إذا صدر الأمر إليهم بذلك.

٢ - المعروف أنّ حكم الزكاة ورد في آيات نزلت في المدينة (أي أنّها آيات مدنية) ولم يكلف المسلمون بأداء الزكاة في مكّة - فكيف إذن يمكن القول إنّ هذه الآية تتحدث عن وضع المسلمين في مكّة؟

---

(١) الفتيل يعني الشعيرة الرقيقة جدّاً الموجودة بين فلقتي نواة التّمر، وقد تطرقنا إلى شرح ذلك في الآية (٤٩) من سورة النساء وفي هذا الجزء من تفسيرنا هذا.

يجيب على هذا السؤال الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسير «التّبيان»[1] فيقول: إنّ المقصود بالزكاة الواردة في هذه الآية هو الزكاة المستحبة التي كانت معروفة في مكّة، أي أنّ القرآن المجيد كان يحثّ المسلمين حتى في مكّة على تقديم المساعدات المالية إلى مستحقيها ولدعم اقتصاد المجتمع الإسلامي الجديد في مكّة.

٣ - وتشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة، هي أنّ المسلمين في مكّة كان لهم منهج، ثمّ أصبح لهم في المدينة منهج آخر، ففي مكّة انشغل المسلمون ببناء شخصيتهم الإسلامية بعد أن تحرروا من أدران الجاهلية، فكان سعي النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة منصباً على تربية هؤلاء الذين نبذوا عبادة الأصنام ليجعل منهم أناساً يسترخصون النفس والنفيس في مواجهة ما يعترض سبيل المسلمين من تحديات، فما أحرزه المسلمون من انتصارات باهرة في المدينة المنورة، كان حصيلة عملية بناء الشخصية الإسلامية، هذه العملية التي تعهدت بها رسالة الإسلام في مكّة.

لقد تعلم المسلمون الكثير في مكّة ومارسوا تجارب جمّة واكتسبوا استعداداً روحياً ومعنوياً عظيماً خلال العهد المكي، ودليل هذا الأمر هو نزول قرابة التسعين سورة - من مجموع سور القرآن الكريم البالغة مائة وأربع عشرة سورة - في مكّة، وقد تناولت هذه السور في الغالب الجوانب العقائدية التربوية الخاصّة بإعداد الشخصية الإسلامية - أمّا في المدينة فقد انصرف المسلمون إلى تشكيل الحكومة الإسلامية وإقامة أُسس المجتمع الإسلامي السليم.

ويدل هذا - أيضاً - على عدم نزول حكم الجهاد والزكاة الواجبين في العصر المكي لأنّ الجهاد من واجبات الحكومة الإسلامية مثل تشكيل بيت المال فإنّه من شؤون الحكومة الإسلامية أيضاً.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾

---

(١) تفسير التبيان، ج ٣، ص ٢٦١.

التّفسير

نستنتج من الآيات السابقة واللاحقة أنّ هاتين الآيتين تقصدان مجموعة من المنافقين تسللوا إلى صفوف المسلمين، وقد قرأنا في الآيات السابقة أنّ هؤلاء قد أبدوا الخوف والقلق من المشاركة في مسؤولية الجهاد، وقد ظهر عليهم الضجر والاستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم وأنّبهم لموقفهم هذا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(١) موضحاً أنّ الحياة بكل زخارفها سرعان ما تزول، وأنّ ما يناله المؤمنون الذين يخشون الله ولا يعصونه من الخير والثواب خير من كل ما في هذه الدنيا من خيرات.

وفي هذا المقطع القرآني ردّ آخر على أُولئك المنافقين، حيث بيّن أنّ الموت آتيهم يوماً لا محالة، حتى ولو تحصنوا في قلاع عالية ومنيعة بحسب ظنّهم، وما دام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر وصحيح كالجهاد؟!

وممّا يلفت الانتباه أنّ القرآن الكريم يطلق في مواقع متعددة اسم «اليقين» على الموت، كما في الآية (٩٩) من سورة الحجر، والآية (٤٨) من سورة المدثر - ومعنى هذه العبارة القرآنية هو أن الإنسان مهما كانت عقيدته - يؤمن بوجود الموت إيماناً لا يخامره فيه شك مطلقاً، ومهما أنكر المرء من حقائق لا يستطيع إنكار الموت الذي يشهده بأُم عينه أو يسمع عنه كل يوم، والإنسان الذي يحب الحياة ويخال أنّ الموت هو الفناء الذي لا حياة بعده أبداً يخاف من ذكر الموت ويفر من مظاهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكدان حقيقة عدم جدوى الفرار من الموت، فهو يدرك الإنسان يوماً ما لا محالة، وهو حقيقة قطعيّة يقينية في عالم الوجود.

وعبارة (يدرككم) الواردة في الآية الأُولى تعني الملاحقة، واللاحق هو الموت الذي يدرك الإنسان، وتوحي بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير الحتمي.

وتؤكد الحقيقة المذكورة الآية الثّامنة من سورة الجمعة إذ تقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

(١) الآية ٧٧ من نفس السورة.

إذن ليس من العقل والمنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة ويفر بعد ذلك من ميدان الجهاد، ويحرم نفسه أشرف ميتة وهي الشهادة في سبيل الله، فيموت على فراشه فلو عاش الإنسان بعد فراره من الجهاد أيّاماً أو شهوراً أو سنوات لتكرر ما فعل ولتكررت أمامه المشاهد الماضية، فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه لأجل هذه المتكررات من الثواب الأبدي الذي يناله المجاهد في سبيل الله؟!

وهنا أمر ثانٍ يجب الانتباه له في الآية الأُولى من هاتين الآيتين، وهو عبارة ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1] التي تؤكّد أنّ الموت لا تحول دونه القلاع والحصون المنيعة العالية، والسرّ في هذا الأمر أنّ الموت الطبيعي لا يداهم الإنسان من خارج وجوده - خلافاً لما يتصورون - ولا يحتاج إلى اجتياز القلاع والحصون، بل يأتي من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزة الإنسان عن العمل بعد نفاد قدرتها المحدودة على البقاء.

نعم، الموت غير الطبيعي يأتي الإنسان طبعاً من خارج وجوده، وبذلك قد تنفع القلاع والحصون في تأخير هذا النوع من الموت عنه.

ولكن ماذا ستكون النهاية والنتيجة؟ هل بمقدور القلاع والحصون أن تحول دون وصول الموت الطبيعي الذي سيدرك الإنسان - دون شك - في يوم من الأيّام؟!

من أين تأتي الانتصارات والهزائم؟

يشير القرآن في هاتين الآيتين إلى وهم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصراً أو غنموا خيراً قالوا: إنّ الله هو الذي أنعم عليهم بذلك، وزعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

أمّا إذا مني هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى في ميدان القتال، ألقوا اللوم على النّبي ﷺ وافتروا عليه بقولهم إنّ ما نالهم من سوء هو من عنده، متّهمين خططه العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث في غزوة أُحد، تقول الآية: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾.

ويحتمل بعض المفسّرين أن تكون هذه الآية قد نزلت في شأن اليهود، ويرون أنّ

---

(١) «مشيدة» في الاصل من مادة «شيد» على وزن فيل، بمعنى الجص والمواد الأُخرى التي تستخدم لتقوية البنيان، وبما أنّ أكثر المواد استعمالاً في البناء في تلك الأزمنة هو الجص فإنّ هذه الكلمة تطلق عليه عادة، فيكون معنى «بروج مشيدة» هو القلاع الحصينة والمتينة، وقد تستعمل ويراد بها المرتفعة والعالية، وذلك أيضاً لنفس السبب لانّه من دون استخدام الجص لم يكن بالإمكان بناء تلك الأبنية المرتفعة.

المقصود بالحسنة والسيئة - هنا - هو ما كان يحدث من وقائع سارة وضارة، حيث كان اليهود حين بعثة النّبي ﷺ ينسبون كلّ حدث سار ونافع إلى الله، ويعزون حدوث الوقائع الضّارة إلى وجود النّبي ﷺ بين ظهرانيهم[١]، بينما اتصال الآية بالآيات السابقة والتالية - التي يدور الحديث فيها عن المنافقين - يدل على أنّ المقصود في هذه الآية الأخيرة هم المنافقون[٢].

ومهما يكن من أمر، فإنّ القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكّداً أنّ الإنسان المسلم الموحد الذي يؤمن صادقاً بالله ويعبده ولا يعبد سواه، إنّما يعتقد بأنّ كل الوقائع والأحداث والانتصارات والهزائم هي بيد الله العليم الحكيم، فالله هو الذي يهب الإنسان ما يستحقه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية، وفي هذا المجال تقول الآية: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

والآية - هذه - تحمل في آخرها تقريعاً وتأنيباً للمنافقين الذين لا يتفكرون ولا يمعنون في حقائق الحياة المختلفة، حيث تقول: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

وبعد هذا - في الآية التالية - يصرّح القرآن بأنّ كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد وكل ما يواجهه الكائن البشري من سرور وانتصار هو من عند الله، وأنّ ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...﴾ وتردّ الآية في آخرها على أُولئك الذين كانوا يرون وجود النّبي ﷺ سبباً لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

جواب على سؤال مهم:

السّؤال المهم الذي يتبادر إلى الذهن حين قراءة هاتين الآيتين الأخيرتين هو: لماذا نسب الخير والشر في الآية الأُولى كلّه إلى الله؟ ولماذا حصرت الآية التالية الخير - وحده - في الله، ونسبت الشرّ إلى الإنسان؟

حين نمعن النظر في الآيتين تواجهنا عدّة أُمور، يمكن لكل منها أن يكون الجواب على هذا السؤال:

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٣٦ و ١٣٧، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) المصدر السابق.

١ - لو أجرينا تحليلاً على عناصر تكوين الشر لرأينا أنّ لها اتجاهين: أحدهما إيجابي والآخر سلبي، والاتجاه الأخير هو الذي يجسد شكل الشر أو السيئة ويبرزه على صورة «خسارة نسبية» فالإنسان الذي يقدم على قتل نظيره بسلاح ناري أو سلاح بارد يكون قد ارتكب بالطبع عملاً شريراً وسيئاً، فما هي إذن عوامل حدوث هذا العمل الشرير؟

إنّها تتكون من: قدرة الإنسان وعقله، وقدرة السلاح، والقدرة على الرمي وإصابة الهدف، واختيار المكان والزمان المناسبين، وهذه تشكل عناصر الاتجاه الإيجابي للقضية، لأنّ كل عنصر منها يستطيع في حدّ ذاته أن يستخدم كعامل لفعل حسن إذا استغل الاستغلال الحكيم، أمّا الاتجاه السلبي فهو في استغلال كل من هذه العناصر في غير محله، فبدلاً من أن يستخدم السلاح لدرء خطر حيوان مفترس أو للتصدي لقاتل ومجرم خطير، يُستخدم في قتل إنسان بريء، فيجسد بذلك فعل الشر، وإلاّ فإنّ قدرة الإنسان وعقله وقدرته على الرمي والتهديف، وأيضاً السلاح وكل هذه العناصر، يمكن أن يستفاد منها في مجال الخير.

وحين تنسب الآية الأُولى الخير والشرّ كلّه إلى الله، فإن ذلك معناه أنّ مصادر القوّة جميعها بيد الله العليم القدير حتى تلك القوّة التي يساء استخدامها، ومن هذا المنطلق تنسب الخير والشرّ إلى الله، لأنّه هو واهب القوى.

والآية الثّانية تنسب «السيئات» إلى الناس انطلاقاً من مفهوم «الجوانب السلبية» للقضية ومن الإساءة في استخدام المواهب الإلهية.

تماماً مثل والد وهب ابنه مالاً ليبني به داراً جديدة، لكن هذا الولد بدلاً من أن يستخدم هذا المال في بناء البيت المطلوب، اشترى مخدرات ضارة أو صرفه في مجالات الفساد والفحشاء، لا شك أنّ الوالد هو مصدر هذا المال، لكن أحداً لا ينسب تصرف الابن إلى والده، لأنه أعطاه للولد لغرض خيري حسن، لكن الولد أساء استغلال المال، فهو فاعل الشرّ، وليس لوالده دخل في فعلته هذه.

٢ - ويمكن القول - أيضاً - بأنّ الآية الكريمة إنّما تشير إلى موضوع «الأمر بين الأمرين».

وهذه قضية بحثت في مسألة الجبر والتفويض، وخلاصة القول فيها أنّ جميع وقائع العالم خيراً كانت أو شرّاً - هي من جانب واحد تتصل بالله سبحانه القدير لأنّه هو الذي

وهب الإنسان القدرة والقوّة وحرية الانتخاب والاختيار، وعلى هذا الأساس فإنّ كل ما يختاره الإنسان ويفعله بإرادته وحريته لا يخرج عن إرادة الله، لكن هذا الفعل ينسب إلى الإنسان لأنّه صادر عن وجوده، وإرادته التي تحدد اتجاه الفعل.

ومن هنا فإنّنا مسؤولون عن أعمالنا، واستناد أعمالنا إلى الله - بالشكل الذي أوضحناه - لا يسلب عنّا المسؤولية ولا يؤدّي إلى الاعتقاد بالجبر.

وعلى هذا الأساس حين تنسب «الحسنات» و«السيئات» إلى الله سبحانه وتعالى، فلفاعلية الله في كل شيء، وحين تنسب السيئة إلى الإنسان فلإرادته وحريته في الاختيار.

وحصيلة هذا البحث أنّ الآيتين معاً تثبتان قضية «الأمر بين الأمرين» (تأمل بدقّة)!

٣ - هناك تفسير ثالث للآيتين ورد فيما أُثر عن أهل البيت عليهم السلام، وهو أنّ المقصود من عبارة السّيئات جزاء الأعمال السيئة وعقوبة المعاصي التي ينزلها الله بالعاصين، ولما كانت العقوبة نتيجة لأفعال العاصين من العباد(١)، لذلك تنسب أحياناً إلى العباد أنفسهم وأحياناً أُخرى إلى الله، وكلتا النسبتين صحيحة، إذ يمكن القول في قضية قطع يد السارق إنّ القاضي هو الذي قطع يد السارق، كما يجوز أن يقال إنّ السارق هو السبب في قطع يده لارتكابه السرقة.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

التّفسير

سنّة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة الوحي

توضح الآية الأُولى موضع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من الناس وحسناتهم وسيئاتهم وتؤكّد أوّلاً أن إطاعة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هي في الحقيقة طاعة لله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ أي لا انفصال بين طاعة الله وطاعة الرّسول، وذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطو أية خطوة خلافاً

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥١٩؛ وبحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٠٢.

لإرادة الله . . . كل ما يصدر عنه من فعل وقول وتقرير إنّما يطابق إرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته.

ثمّ تبيّن أنّ النّبي ﷺ ليس مسؤولاً عن الذين يتجاهلون ويخالفون أوامره، كما أنّه ليس مكلّفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إنّ مسؤولية النّبي ﷺ هي الدعوة إلى الرسالة الإلهيّة التي بعث بها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الضالين والغافلين تقول الآية: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلمة «حفيظ» صفة مشبهة باسم الفاعل، وتدلّ على ثبات واستمرار الصفة في الموصوف، بخلاف اسم الفاعل «حافظ»، فعبارة «حفيظ» تعني الذي يراقب ويحافظ بصورة دائمة مستمرة، ويستدل من الآية على أنّ واجب النّبي ﷺ هو قيادة الناس وهدايتهم وإرشادهم، ودعوتهم إلى اتّباع الحقّ واجتناب الباطل، ومكافحة الفساد، وحين يصر البعض على اتّباع طريق الباطل والانحراف عن جادة الحقّ، فلا النّبي ﷺ مسؤول عن هذه الانحرافات، ولا المطلوب منه أن يراقب هؤلاء المنحرفين في كل صغيرة وكبيرة، كما ليس المطلوب منه ﷺ أن يستخدم القوة لإرغام المنحرفين على العدول عن انحرافهم، ولايمكنه بالوسائل العادية القيام بمثل هذه الأعمال.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الآية قد تكون - أيضاً - إشارة إلى غزوات كغزوة أُحد حيث كان النّبي ﷺ مكلّفاً - فقط - بتجنيد الإمكانيات المتوفرة من الناحية العسكرية في إعداد خطة للدفاع عن المسلمين حيال هجمات الأعداء، وبديهي أن تكون إطاعة الرّسول ﷺ في هذا الأمر إطاعة لله، ولو افترضنا أنّ أفراداً عصوا الرّسول في هذا المجال وأدّى عصيانهم إلى تراجع المسلمين، فالعاصون - وحدهم - هم المسؤولون عن ذلك، وليس الرّسول ﷺ.

والأمر المهم الآخر في هذه الآية هو أنّها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجّية السنّة النّبوية الشّريفة، فهي حكم بوجوب الإذعان للأحاديث الصحيحة المروية عنه ﷺ، واستناداً إلى هذه الآية لا يجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده وعدم قبول أحاديث وسنّة النّبي ﷺ، لأنّ الآية صريحة في أنّ إطاعة أقوال النّبي ﷺ وأحاديثه المروية عنه بطرق صحيحة، هي بمثابة إطاعة الله.

ومن المنطلق نفسه تثبت حقيقة أُخرى، هي ضرورة إطاعة أئمة أهل بيت النّبي ﷺ،

وهي ما أكد عليه حديث «الثقلين» الوارد في المصادر الإسلامية السنية والشيعية، وفيه بيّن النّبي ﷺ - صراحة - حجية أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنه نستنتج أنّ إطاعة أوامرهم هي إطاعة للرسول وبالنتيجة إطاعة لله تعالى، ولما كانت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام بمثابة أحاديث النّبي ﷺ، فلا يستطيع أحد أن يقول: إنّي أقبل القرآن وأرفض أحاديث أهل البيت عليهم السلام، فذلك نقض للآية المذكورة أعلاه وللآيات المشابهة.

ولذلك نقرأ في الأحاديث التي أوردها صاحب تفسير البرهان في تفسير هذه الآية ما يؤكّد هذه الحقيقة:

إنّ الله وهب نبيّه حقّ الأمر والنهي في الآية المذكورة، والنّبي ﷺ بدوره وهب هذا الحق لعلي بن أبي طالب عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام من بعده، والناس ملزمون بإطاعة أوامر هذه النخبة الطاهرة عليهم السلام، لأنّ أوامر ونواهي النّبي ﷺ والأئمّة من أهل بيته الكرام هي أوامر ونواهي الله، وطاعتهم طاعة لله، وهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم وكل ما جاءوا به للمسلمين هو من عند الله[1].

أمّا الآية الثّانية ففيها إشارة إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النّبي ﷺ والمسلمين بأنّهم مع الجماعة، ويظهرون الطاعة للرسول ﷺ ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم وليحموا مصالحهم الخاصّة، بدعوى الإخلاص والطاعة للنّبي ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾.

وبعد أن ينصرف الناس من عند النّبي ﷺ ويختلي هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم في إطاعة النّبي ويتآمرون في ندواتهم الخاصّة - السرّية الليلية - على أقوال النّبي: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ . . .﴾.

نعرف من هذه الآية أنّ المنافقين في زمن الرّسول ﷺ كانوا لا يألون جهداً في التآمر على النّبي ﷺ، وكانوا يخططون في اجتماعاتهم السرّية للوقوف في وجه الدعوة.

ولكن الله يأمر نبيّه بأن لا يلتفت إلى مكائد هؤلاء، وأن لا يخافهم ولا يخشى خططهم وأن يتجنب الاعتماد عليهم في مشاريعه، بل يتوكل على الله الذي هو خير ناصر ومعين: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٩٦.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

خلوّ القرآن من الاختلاف دليل حيّ على إعجازه

هذه الآية تخاطب المنافقين وسائر الذين يرتابون من حقيقة القرآن المجيد، وتطلب منهم - بصيغة السؤال - أن يحققوا في خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحي منزل، ولو لم يكن كذلك لكثر فيه التناقض والاختلاف، وإذا تحقق لديهم عدم وجود الاختلاف، فعليهم أن يذعنوا أنّه وحي من الله تعالى.

والتّدبر من مادة «دبر» وهو مؤخر الشيء وعاقبته «والتدبر» المطلوب في هذه الآية هو البحث عن نتائج آثار الشيء، والفرق بين التدبر والتفكر هو أنّ الأخير يعني التحقيق في علل وخصائص الموجود، أمّا التدبر فهو التحقيق في نتائجه وآثاره.

ونستدل من هذه الآية على عدّة أُمور:

١ - إنّ الناس مكلّفون بالبحث والتحقيق في أُصول الدين والمسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوى النّبي ﷺ، وحقّانية القرآن، وأن يتجنّبوا التقليد والمحاكاة في مثل هذه الحالات.

٢ - إنّ القرآن - خلافاً لما يظن البعض - قابل للفهم والإدراك للجميع، ولو كان على غير هذه الصورة لما أمر الله بالتدبر فيه.

٣ - أحد الأدلة التي تثبت أنّ القرآن حقّ، وأنّه منزل من الله الحكيم العليم خلوّه المطلق من كل تناقض أو اختلاف.

ولتوضيح هذه الحقيقة نقول:

إنّ الجوانب الروحية للإنسان تتغير باستمرار، «قانون التكامل» - في الظروف العادية الخالية من الأوضاع الاستثنائية - يستوعب الإنسان وجوانبه الروحية وأفكاره، وبمرور الأيّام يتغير بموجب هذا القانون كلام الإنسان وفكره وأحاديثه.

لو أمعنا النظر فيما يكتبه الكتّاب، لما وجدنا مؤلفات الكاتب الواحد على نمط واحد، بل إنّ بداية كل كتاب تختلف أيضاً عن نهايته.

هذا التغيير يزداد سرعة حين يعيش الإنسان في خضم أحداث كبرى كالتي تصاحب إرساء قواعد ثورة فكرية واجتماعية وعقائدية شاملة، الشخص الذي يعيش مثل هذه التحولات الاجتماعية الكبرى لا يستطيع أن يسيطر على وحدة كلامه، ولا يمكنه أن يوجد انسجاماً كاملاً في أقواله، خاصّة إذا كان هذا الشخص غير متعلم، وكان ناشئاً في بيئة اجتماعية متخلفة.

والقرآن كتاب نزل خلال مدّة (٢٣) عاماً بحسب ما يحتاجه الناس من تربية وتوجيه في الظروف المختلفة، وموضوعات القرآن متنوعة، فهو لا يشبه كتاباً عادياً متخصصاً في بحث اجتماعي أو سياسي أو فلسفي أو حقوقي أو تاريخي، بل هو يتحدث تارة عن التوحيد وأسرار الخليقة، وتارةً يطرح القوانين والأحكام والآداب والسنن، وتارةً يقص علينا أخبار الأُمم السابقة، وتارة يتناول المواعظ والنصائح والعبادات وارتباط العبد بخالقه.

وكما يقول (غوستاف لوبون): القرآن - كتاب المسلمين السماوي - لا يقتصر على التعاليم الدينية، بل يتناول - أيضاً - الأحكام السياسية والاجتماعية للمسلمين.

مثل هذا الكتاب - بهذه الخصائص - لا يمكن أن يكون - عادة - خالياً من التناقض والتضاد والاختلاف والتأرجح، أمّا حين نرى هذا الكتاب - مع كل ذلك - متناسقاً متوازناً في آياته خالياً من كل تضاد واختلاف نستطيع أن نفهم - بوضوح - أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر بشري، بل هو من قبل الله تعالى، كما تذكر الآية الكريمة أعلاه.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

التّفسير

نشر الإشاعات

تشير هذه الآية إلى حركة منحرفة أُخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان، تتمثل في سعيهم إلى تلقف أي نبأ عن انتصار المسلمين أو هزيمتهم، وبثّه بين الناس في

كل مكان، دون التحقيق والتدقيق في أصل هذا النبأ أو التأكد من مصدره، وكان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعةً عمد أعداء المسلمين إلى بثّها لتحقيق أهدافهم الدنيئة وليسيئوا إلى معنويات المسلمين ويضروا بهم، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾.

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كي يستفيدوا من معلومات هؤلاء القادة وفكرهم ولكي يتجنبوا دفع المسلمين إلى حالة من الغرور حيال انتصارات خيالية وهمية، أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعة أنباء عن هزيمة لا حقيقة لها، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

«يستنبطونه» من مادة «نبط» التي تعني أوّل ما يستخرج من ماء البئر أو الينبوع، والاستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة والشواهد والوثائق، سواء كانت العملية في الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.

﴿أُوْلِى ٱلْأَمْرِ﴾ في الآية هم المحيطون بالأُمور القادرون على أن يوضحوا للناس ما كان حقيقياً منها وما كان إشاعة فارغة. وهم النّبي ﷺ وخلفاؤه من أئمّة أهل البيت عليهم السلام بالدّرجة الأُولى.

ويأتي من بعدهم العلماء المتخصصون في هذه المسائل.

روي عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير ﴿أُوْلِى ٱلْأَمْرِ﴾ في هذه الآية قال: «هم الأئمّة» كما في تفسير نور الثقلين، وهناك روايات أُخرى أيضاً في هذا المجال بنفس المضمون.

ولعل هناك من يعترض على هذه الرّوايات قائلاً: إنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا موجودين في زمن نزول هذه الآية، ولم يتعين أحد منهم في ذلك الوقت بمنصب الإمامة أو الولاية، فكيف يمكن القول بأنّهم هم المعنيون بهذه الآية؟

والجواب على هذا الإعتراض: هو أنّ هذه الآية مثل سائر الآيات القرآنية الأُخرى لا تقتصر على زمن الرّسول ﷺ فقط، بل تحمل حكماً عاماً يشمل كل الأزمنة والقرون التالية لمواجهة الإشاعات التي يبثّها الأعداء أو البُسطاء من المسلمين بين الأُمّة.

أضرار اختلاق الإشاعة ونشرها

لقد ابتليت المجتمعات البشرية وعانت الكثير من المصائب والنكبات الرهيبة، بسبب بروز ظاهرة اختلاق الإشاعة ونشرها بين الأفراد حيث كانت تؤثر تأثيراً سلبياً كبيراً على

معنويات أفراد المجتمع، وتضعف فيهم الروح الاجتماعية وروح التفاهم والتعاون بين أبناء المجتمع الواحد.

وتبدأ الإشاعة بأن يختلق منافق كذبة، ثمّ ينشرها بين أفراد مغرضين أو بسطاء، ليقوموا بدورهم بالترويج لها بين أبناء المجتمع دون التحقيق فيها، بل يهوّلونها ويضخّمونها ممّا يؤدّي إلى استنزاف مقدار كبير من طاقات الناس وأفكارهم وأوقاتهم، وإلى إثارة القلق والاضطراب بينهم، وكثيراً ما تؤدّي الإشاعة إلى زعزعة الثقة بين أفراد المجتمع، وتؤدّي إلى خلق حالة من اللامبالاة والتردد في أداء المسؤوليات.

ومع أنّ بعض المجتمعات التي تعاني من الكبت والإرهاب تعمد إلى الإشاعة كأُسلوب من الكفاح السلبي، انتقاماً من الحكومات الطاغية الجائرة، فالإشاعة بحدّ ذاتها تعتبر خطراً كبيراً على المجتمعات السليمة، فإذا اتجهت الإشاعة إلى الأفراد الكفوئين من المفكرين والخبراء والعاملين في المرافق الهامّة للمجتمع، فإنّها ستؤدّي إلى حالة من البرود في نشاطات هؤلاء، وقد تصادر مكانتهم الاجتماعية، وتحرم المجتمع من خدماتهم.

من هنا كافح الإسلام بشدة «اختلاق الإشاعات» والافتراء والكذب والتهمة، مثلما حارب نشر الإشاعات كما في هذه الآية.

وتؤكد الآية في ختامها على أنّ الله قد صان المسلمين بفضله ولطفه وكرمه من آثار إشاعات المنافقين والمغرضين وضعاف الإيمان، وأنقذهم من نتائجها وعواقبها الوخيمة، ولولا الإنقاذ الإلهي ما نجا من الانزلاق في خط الشيطان إلاّ القليل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إنّ النّبي وأصحاب الرأي والعلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات ومشيعيها، أمّا أكثرية المجتمع فلابدّ لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات ونشرها[1].

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

(١) يتبيّن ممّا قلناه أن عبارة «إلاّ قليلاً» هي استثناء من ضمير «اتبعتم» ولا يوجد في الآية تقديم أو تأخير (تأمل بدقّة).

سبب النّزول

ورد في بعض التفاسير مثل «مجمع البيان» و«القرطبي» و«روح المعاني» في سبب نزول هذه الآية أنّه حين عاد أبو سفيان ومعه جيش قريش منتصرين في واقعة أُحد توعدوا المسلمين بالمواجهة مرّة أُخرى في موسم «بدر الصغرى» أي وقت إقامة السوق التّجارية في شهر ذي القعدة الحرام في منطقة بدر، وحين حان موعد المواجهة دعا النّبي ﷺ المسلمين للاستعداد والتوجه إلى المنطقة المذكورة، إلاّ أنّ نفراً من المسلمين - الذين كانوا إلى ذلك الحين ما زالوا يعانون من مرارة الهزيمة في واقعة أُحد - رفضوا التحرك مع النّبي، فنزلت هذه الآية، فجدد النّبي ﷺ الدّعوة إلى المسلمين بالتحرك، فما تبعه غير سبعين رجلاً منهم الذين حضروا موقع المواجهة، ولكن أبا سفيان الذي كان قد تملكه الرعب من مواجهة المسلمين جبن ولم يحضر إلى المكان الموعود وعاد الرّسول ﷺ مع أصحابه سالماً إلى المدينة[1].

التّفسير

كل إنسان مسؤول عمّا كلّف به

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتي هذه الآية لتعطي أمراً جديداً وخطيراً إلى الرّسول الأكرم ﷺ بأنّه مكلّف بمواجهة الأعداء وجهادهم حتى لو بقي وحيداً ولم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنّه ﷺ مسؤول عن أداء واجبه هو، وليس عليه مسؤولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق والتحريض والدعوة إلى الجهاد: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾.

الآية تشتمل على حكم اجتماعي مهم يخصّ القادة، ويدعوهم إلى التزام الرأي الحازم والعمل الجاد في طريقهم ومسيرتهم نحو الهدف المقدس الذي يعملون ويدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأنّ استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، وأي قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصّة القادة

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٤٥، ذيل الآية مورد البحث.

الإلهيّون الذين يعتمدون على الله . . . مصدر كل قدرة وقوّة في عالم الوجود، وهو سبحانه أقوى من كل ما يدبّره الأعداء من دسائس ومكائد بوجه الدّعوة، لذلك تقول الآية: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا(١) وَأَشَدُّ تَنكِيلًا(٢)﴾.

معنى كلمتي «عسى» و«لعل» في كلام الله

في كلمة «عسى» طمع وترجٍّ، وفي كلمة «لعل» طمع وإشفاق، هنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لو كان التمني والترجي جائزين بالنسبة للإنسان لعدم علمه بالغيب ولمحدودية قدرته وعجزه عن فعل وإنجاز كل ما يريد، فكيف يجوز استخدامهما من قبل الله العالم بالغيب والشهادة والقادر على كل شيء؟! والطمع والترجي يكونان في جاهل عاجز والله منزّه عن ذلك؟

ذهب كثير من العلماء إلى تأويل معنى كلمتي «عسى» و«لعل» الواردتين في كلام الله فقالوا بأنّهما إذا وردتا في كلامه سبحانه عَزَّوَجَلَّ فإنّهما تفقدان معانيهما الحقيقية الأصلية وتكتسبان معاني جديدة، وقالوا: إنّ كلمة «عسى» إذا أتت في كلام الله جاءت بمعنى «الوعد» وإنّ كلمة «لعل» تأتي في كلامه - عزّ من قائل - بمعنى «الطلب».

والحق أنّ هاتين الكلمتين لا يتغير معناهما إذا وردتا في كلام الله، ولا يستلزمان الجهل أو العجز، لكن استخدامهما يأتي في مواضع يكون الوصول فيها إلى الهدف بحاجة إلى مقدمات عديدة، فإن لم تتوفر إحدى هذه المقدمات أو بعضها لم يمكن القطع بتحقق ذلك الهدف، بل تأتي مسألة تحقق الهدف على شكل احتمال، ويكون الحكم في هذا المجال احتمالياً.

على سبيل المثال يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣) ولا يعني هنا أنّ رحمة الله تشمل كل من يستمع أو ينصت إلى القرآن أثناء قراءته، بل إنّ الاستماع والإنصات يكونان مقدمة من مقدمات نيل رحمة الله، وهناك مقدمات أُخرى مثل فهم القرآن وتدبر آياته والعمل بأحكامه.

---

(١) البأس والبأساء بمعنى الشدّة والقهر والغلبة.

(٢) التنكيل من نكل في الشيء، أي ضعف وعجز، والنكل: قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين، والتنكيل: أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب وهو العقاب الذي ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتعظ بمصيرهم.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

ويتّضح من هذا أنّ تحقيق مقدمة واحدة لا يكفي لحصول النتيجة المطلوبة ولا يمكن الجزم أو القطع بحتمية تحقق النتيجة، بل كل ما يمكن الحكم به هو احتمال حدوثها، والحقيقة أنّ مثل هذه الكلمات حين تأتي في كلام الله، يكون الهدف منها تنبيه السامع إلى وجود مقدمات وشروط أُخرى يجب تحقيقها للوصول إلى الهدف بالإضافة إلى الشرط أو المقدمة المذكورة المصرح بها في الكلام.

وقد تبيّن لنا أنّ نيل رحمة الله لا يتحقق فقط بالاستماع والإنصات إلى القرآن فقط، بل يجب لنيل هذه الرحمة توفر المقدمات الأُخرى لذلك.

من هنا فإنّ هذه الآية التي نبحث فيها تقول إنّ قدرة الكفّار وقوّتهم لا تزول ولا تضمحل بمجرّد دعوة المؤمنين إلى الجهاد وترغيبهم فيه، بل يجب هنا - أيضاً - أن يسعى المؤمنون لتوفير المقدمات الأُخرى للقضاء على قدرة الكفّار، منها إعداد وسائل القتال والالتزام بالخطة التي يضعها النّبي ﷺ والسير عليها من أجل الوصول إلى الهدف النهائي.

وهكذا يتبيّن لنا أن لا ضرورة لصرف كلمتي «عسى» و«لعل» وأشباههما عن معانيها الحقيقية متى ما وردت في كلام الله تعالى[1].

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

التّفسير

عواقب التّحريض على الخير أو الشرّ

لقد أشير في الآية السابقة إلى أنّ كل إنسان مسؤول عن عمله وعمّا هو مكلّف بأدائه، ولا يُسأل أي إنسان عن أفعال الآخرين.

أمّا هذه الآية فقد جاءت لكي تسدّ الطريق أمام كل فهم خاطىء للآية السابقة، فبيّنت

(١) يذكر الراغب في «المفردات» احتمالاً آخر في تفسير «عسى» و«لعل» هو أنّ الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً، لا لأن يكون الله هو الذي يرجو. أي أنّه يقول للإنسان كن أنت راجياً لا أنا الذي أرجو.

أنّ الإنسان إذا حرّض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال نصيباً من ذلك الخير أو الشر:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾.

وهذا بحدّ ذاته - حثّ على دعوة الآخرين إلى فعل الخير والتزام جانب الحق، ونهي الغير عن فعل الشر، كما تبيّن هذه الآية اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعية لدى المسلمين، ودعوتهم إلى نبذ الأنانية أو الانطوائية، وإلى عدم تجاهل الآخرين، وذلك من خلال التواصي بالخير والحق والتحذير من الشرّ والباطل.

وكلمة «الشّفاعة» الواردة في الآية من «الشّفع» وهو ضم الشيء إلى مثله، وقد يكون هذا الضم أحياناً في عمل الإرشاد والهداية، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكون الشفاعة السيئة أمراً بالمنكر ونهياً عن المعروف.

وإذا حصلت الشفاعة للعاصين لإنقاذهم من نتائج أعمالهم السيئة، فهي بمعنى الإغاثة للعاصين اللائقين للشفاعة، بعبارة أُخرى قد تحصل الشفاعة قبل القيام بممارسة الذنب، فتعني الإرشاد والنصح، كما تحصل بعد ارتكاب الذنب أو الخطأ، وتعني - هنا - إنقاذ المذنب أو الخاطىء من عواقب ونتائج جريرته، وكلتا الحالتين يصدق عليهما معنى ضم شيء إلى آخر.

ومع أنّ مفهوم الآية عام شامل لكل دعوة إلى الخير أو الشر، ولكن ورود الآية ضمن آيات الدعوة إلى الجهاد يجعل معنى الشفاعة الحسنة دعوة النّبي ﷺ المسلمين إلى الجهاد، وحثّهم عليه، ويجعل معنى الشفاعة السيئة دعوة المنافقين المسلمين إلى ترك الجهاد وعدم المشاركة فيه، والآية تؤكّد بأنّ كلا الشفيعين ينال نصيباً من شفاعته.

ثمّ إنّ ورود كلمة الشفاعة هنا ضمن الحديث عن القيادة (القيادة إلى الحسنات أو إلى السيئات) قد يكون إشارة إلى أن حديث القائد (قائد خير كان أو قائد شرّ) لا يدخل قلوب الآخرين إلاّ إذا ألغوا كل امتياز يفرقهم عن هؤلاء الآخرين، فلابدّ لهم أن يكونوا قرناء للناس ومنضمّين إليهم كي تكون لهم الكلمة النافذة، وهذه مسألة هامة في تحقيق الأهداف الاجتماعية.

وما وردت عبارة «أخوهم» أو «أخاهم» في الحديث عن الأنبياء والرسل، ضمن آيات سور الشعراء والأعراف وهود والنمل والعنكبوت، إلاّ للإشارة إلى هذه المسألة.

والشيء الآخر الذي تجدر الإشارة إليه هنا، هو أنّ القرآن أتى بعبارة «نصيب» لدى

الحديث عن الشفاعة الحسنة، بينما استخدم عبارة «كفل» حين تحدث عن الشفاعة السيئة، والفرق بين التعبيرين هو أنّ الأُولى تستخدم حين يكون الحديث عن حصّة من الربح والفائدة والخير، أمّا الثّانية فتستخدم إذا كان الكلام عن الخسارة والضرر والشرّ، فالنصيب تعبير عن نصيب الخير، والكفل تعبير عن حصّة الشرّ[١].

وهذه الآية، تبيّن نظرة إسلامية أصيلة إلى المسائل الاجتماعية، وتصرّح أنّ الناس شركاء في مصائر ما يقوم به قسم منهم من أعمال عن طريق الشفاعة والتشجيع والتوجيه، من هنا فكل كلام أو عمل - بل كل سكوت - يؤدّي إلى تشجيع الآخرين على الخير، فإنّ المشجع يناله سهم من نتائج ذلك العمل دون أن ينقص شيء من سهم الفاعل الأصلي.

في حديث عن الرّسول ﷺ قال: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دل على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به، فهو شريك»[٢].

ويبيّن هذا الحديث الشريف ثلاث مراحل لدعوة الأشخاص إلى الخير أو إلى الشر.

المرحلة الأُولى: الأمر، وهي الأقوى.

والثّانية: الدلالة وهي الوسطى.

والثّالثة: الإشارة وهي المرحلة الضّعيفة.

وعلى هذا الأساس فإنّ حثّ الآخرين أو تحريضهم على ممارسة فعل معين، سيجعل للمحرض نصيباً من نتيجة هذا الفعل يتناسب ومدى قوّة التحريض وفق المراحل الثلاث المذكورة.

وبناء على هذه النظرة الإسلامية، فإنّ مرتكبي الذنب ليسوا هم وحدهم مذنبين، بل يشترك في الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتى عن طريق إطلاق كلمة صغيرة مشجعة، وهكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخير ينالون سهمهم من نتائجها.

ويستشف من الأحاديث المروية في تفسير هذه الآية أنّ الشفاعة بكلا جانبيها تطلق -

---

(١) الكفل هو عجز الحيوان ومؤخرته التي يصعب ركوبها ويشق، من هنا فكل ذنب وحصة رديئة كفل، والكفالة كل عمل ينطوي على تعب وعناء.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٢٤؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٢٤.

أيضاً - على الدعاء بالخير أو بالشر للآخرين، وإنّ الدعاء للآخرين أو عليهم يعتبر نوعاً من الشفاعة لدى الله تعالى.

نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك: فلك مثلاه، فذلك النصيب»(١).

ولا ينافي هذا التّفسير ما تطرقنا إليه سابقاً، بل يعتبر توسعاً في معاني الشفاعة، فكل إنسان يقدم مساعدة لنظيره الإنسان، سواء كانت عن طريق الدعوة إلى فعل الخير أو الدعاء له أو عن أي طريق آخر، فسينال نصيباً من ثمار هذه المساعدة.

وبهذا الأسلوب من المشاطرة الفعلية الخيرة يخلق الإسلام لدى الإنسان روحاً اجتماعية تخرجه من أنانيته وانطوائيته وتجعله يعتقد أن لن يصيبه ضرر إذا سعى في حاجة أخيه الإنسان أو ساعد على تحقيق مصالح غيره، بل سيناله الخير، وسيكون شريكاً لأخيه في ما سعى إلى تحقيقه له من مصالح ومنافع.

والآية - هذه - تؤكّد أيضاً حقيقة ثابتة أُخرى، وهي أنّ الله قادر على مراقبة الإنسان وتدوين ما يقوم به من أعمال، ثمّ محاسبته عليها، وإثابته على خيرها، ومعاقبته على شرها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾.

وعبارة «مقيت» مشتقة من «القوت» وهو الغذاء الذي يساعد جسم الإنسان على البقاء وعلى هذا يكون «مقيت» اسم فاعل من باب إفعال، وتعني هنا الشخص الذي يعطي الآخرين قوتهم وغذاءهم، وهو بهذه الوسيلة يكون حافظاً لحياتهم ولهذا تأتي كلمة «مقيت» بمعنى «حافظ» والحافظ يمتلك القدرة على الحفظ، ومن هنا تكون كلمة «مقيت» بمعنى «المقتدر» أيضاً، كما أنّ المقتدر يمتلك حساب من يعملون ضمن قدرته فتكون عندئذ كلمة «المقيت» بمعنى «الحسيب» أيضاً، وقد يكون معنى الكلمة في الآية شاملاً لكل هذه المعاني.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

(١) تفسير الصافي، ج١، ص ٤٧٦، ذيل الآية مورد البحث.

التّفسير

دعوة إلى مقابلة الودّ بالودّ

رغم أنّ بعض المفسّرين يرون أنّ العلاقة بين هذه الآية والآيات السابقة ناشئة عن كون الآيات تلك تناولت موضوع الجهاد والحرب، والآية الأخيرة تدعو المسلمين إلى أن يواجهوا كل بادرة سليمة من قبل العدو بموقف يناسبها، ولكن هذه الصلة لا تمنع أن تكون الآية الأخيرة حكماً عاماً يشمل كل أقسام تبادل المشاعر الخيرة النّبيلة بين مختلف الأطراف والأفراد، وهذه الآية تأمر المسلمين بمقابلة مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

و«التّحية» مشتقة من «الحياة» وتعني الدعاء لدوام حياة الآخرين، سواء كانت التحية بصيغة «السّلام عليكم» أو «حياك الله» أو ما شاكلهما من صيغ التحية والسلام، ومهما تنوعت صيغ التحية بين مختلف الأقوام تكون صيغة «السلام» المصداق الأوضح من كل تلك الأنواع، ولكن بعض الروايات والتفاسير تفيد أنّ مفهوم التحية يشمل - أيضاً - التعامل الودي العملي بين الناس.

في تفسير علي بن إبراهيم عن الباقر والصّادق عليهما السلام أنّ: «المراد بالتّحية في الآية السلام وغيره من البر»[(١)].

وفي «المناقب» أنّ جارية أهدت إلى الإمام الحسن عليه السلام باقة من الورد فأعتقها، وحين سئل عن ذلك استشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾[(٢)].

وهكذا يتّضح لنا أنّ الآية هي حكم عام يشمل الردّ على كل أنواع مشاعر الودّ والمحبّة سواء كانت بالقول أو بالعمل - وتبيّن الآية في آخرها أنّ الله يعلم كل شيء، حتى أنواع التحية والسلام والردّ المناسب لها، وأنّه لا يخفى عليه شيء أبداً، حيث تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

السّلام، تحية الإسلام الكبرى

لا يخفى أنّ لكل جماعة إنسانية تقاليد خاصّة في التحية لدى التلاقي فيما بينهم، بها

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ١٤٥؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٤٨.
(٢) مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٨٣.

يتبادلون مشاعر الحبّ والصفاء، والمودة، والتحية كما هي صيغة لفظية يمكن أن تكون - أيضاً - حركة عملية يستدل منها على مشاعر الحبّ والودّ المتبادلة.

وقد جاء الإسلام بكلمة «السّلام» مصطلحاً للتحية بين المسلمين، والآية موضوع البحث مع كونها عامة شاملة لأنواع التحية، لكن المصداق الأوضح والأظهر لها يتجسد في كلمة «السّلام».

وبناء على ذلك فإنّ المسلمين مكلّفون بردّ السّلام بأحسن منه، أو على الأقل بما يماثله.

وفي آية أُخرى إشارة واضحة إلى أنّ السّلام هو التحية حيث تقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾[1] ويمكن الاستدلال من هذه الآية على أنّ عبارة (السلام عليكم) هي في الأصل «سلام الله عليكم» أي ليهبك الله السلامة والأمن، وهكذا يتّضح لنا أنّ السلام يعتبر دلالة على الحبّ والود المتبادل، كما هو دلالة على نبذ الحرب والنزاع والخصام.

وقد دلت آيات قرآنية أُخرى على أنّ السّلام هو تحيّة أهل الجنّة، حيث يقول سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[3].

كما أنّ آيات قرآنية أُخرى دلت على أنّ السلام أو أي صيغة أُخرى تعادله، كان سائداً بين الأقوام التي سبقت الإسلام، وهذا ما تشير إليه الآية (٢٥) من سورة الذاريات في قصة إبراهيم مع الملائكة حيث تقول: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

والشعر الجاهلي فيه دلائل تثبت أنّ السلام كان - أيضاً - تحية أهل الجاهلية[4].

إنّ تحيّة الإسلام تبرز أهميتها وقيمتها العظيمة، لدى مقارنتها بما لها من نظائر لدى الأُمم والأقوام الأُخرى.

النصوص الإسلامية تؤكّد كثيراً على السّلام والتّحية، حيث يروى عن النّبي ﷺ قال: «من بدأ بالكلام قبل السّلام فلا تجيبوه»[5].

---

(١) سورة النّور، الآية: ٦١. (٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٣.

(٤) روي أنّ «رؤبة» وهو من شعراء الجاهلية قال:

ولو أنّ ليلى الأخيلية سلمت ... عليّ ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح

(٥) أصول الكافي، الجزء الثاني ص ٦٤٤، باب التسليم.

كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله يقول: «البخيل من يبخل بالسّلام»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله يحبّ إفشاء السلام»[٢].

وقد ورد في الروايات والأحاديث آداب كثيرة للتحيّة والسلام، منها أنّ السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع وأن لا ينحصر في إطار الأصدقاء والأقارب، فقد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سئل: أيّ العمل خير؟ فأجاب صلى الله عليه وآله وسلم: «تطعم الطّعام وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٣].

كما ورد في الأحاديث أنّ من آداب التحية أن يسلّم الراكب على الراجل، والراكب على دابة غالية الثمن يسلم على من يركب دابة أقل ثمناً[٤]، وقد يكون الأمر حثّاً على التزام التواضع، ونهياً عن التكبر أو محاربة له، فالتكبر غالباً ما يستولي على أهل المال والجاه وهذا عكس ما نشاهده في عصرنا حيث يتحتم على الطبقات الدانية من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسّلام، وبذلك يضفون على هذا الأمر طابعاً استعبادياً وثنياً، بينما كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أوّل من يبادر الآخرين بالسلام، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يبتدىء بالسلام حتى على الصبية الصغار[٥]، وبديهي أنّ هذا الأمر لا ينافي ما ورد في الروايات من حثّ صغار السن على مبادرة كبارهم بالسلام والتحيّة والاحترام، لأنّ هذا السلوك يعتبر نوعاً من الآداب الإنسانية الحميدة، ولا ارتباط له بالتمييز الطبقي.

ومن جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السّلام على المرابين والفاسقين وأمثالهم، ويعتبر هذا الأمر سلاحاً لمحاربة الفساد والربا، أمّا إذا كان السلام يؤدّي إلى التأثير على المفسد والمنحرف، ويجعله يرتد عن غيه ويترك الفساد والانحراف، فلا مانع منه ولا بأس به.

ولا يفوتنا هنا أن نوضح أنّ المراد من رد التحية بالأحسن هو أن نعقب السلام بعبارات مثل «ورحمة الله» أو «ورحمة الله وبركاته».

ورد في تفسير «الدّر المنثور» أنّ شخصاً أتى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: السّلام عليكم، فأجابه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: وعليك السّلام ورحمة الله، ثمّ جاءه آخر وقال: السّلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) أصول الكافي، الجزء الثاني ص ٦٤٥، باب التسليم.

(٢) المصدر السّابق. (٣) تفسير في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٤٧٢.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٦ و ٦٤٧ وفيه: الراكب يبدأ الماشي (بالسّلام) وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال.

(٥) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٦٢ باب استحباب التسليم على الصبيان.

فأجابه النّبي ﷺ: وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته، فجاءه ثالث وقال: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال النّبي ﷺ: «وعليك» - وعندما سئل عن علّة هذا الجواب القصير، قال: إنّ القرآن يقول: إذا حيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها، ولكنك لم تبق شيئاً»[1].

وفي الحقيقة أنّ الرّسول ﷺ قد ردّ التحيّة بأحسن منها في الموردين السابقين، أمّا في المورد الثّالث فقد ردّها بالمساوي فكلمة «وعليك» تعني أنّ كل ما قلته لي مردود عليك.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾

التّفسير

جاءت هذه الآية مكملة لما سبقها ومقدمة لما يليها من آيات، فالآية السابقة بعد أن أمرّت بردّ التحيّة قالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾.

والآية موضوع البحث تشير إلى قضية غيبيّة مهمّة هي قضية يوم البعث والحساب، حيث محكمة العدل الإلهيّة العامّة للبشر أجمعين، وتقرنها بمسألة التوحيد الذي هو ركن آخر من أركان الإيمان ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾.

وعبارة (ليجمعنّكم) تدلّ على الشمولية لكل البشر من أوّلهم حتى آخرهم، حيث سيجمعون «كلّهم» في يوم واحد هو يوم الحشر والقيامة.

وفي موضع آخر من القرآن (الآيتان ٩٣ و٩٤ من سورة مريم) أشير أيضاً إلى هذه الحقيقة... حقيقة بعث جميع عباد الله - من سكن منهم على هذه الكرة الأرضية أو على كرات أُخرى - في يوم واحد.

وعبارة ﴿لَا رَيۡبَ﴾ الواردة في الآية وفي آيات أُخرى، إنّما هي إشارة إلى الأدلة القطعية البديهية على وقوع يوم القيامة، مثل دليل «قانون التكامل» و«حكمة الخلق» و«قانون العدل الإلهي»، المذكورة بالتفصيل في مبحث المعاد.

وتؤكد الآية في نهايتها على حقيقة أنّ الله هو أصدق الصادقين: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

(١) تفسير الدر للمنثور، ج ٢، ص ٨.

حَدِيثًا﴾ من هنا لا يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به الله من بعث ونشور وغيره من الوعود، فالكذب لا يصدر إلاّ عن جهل أو ضعف وحاجة، والله أعلم العالمين، وإليه سبحانه يحتاج العباد دون أن يحتاج هو إلى أحد مطلقاً، فهو منزّه عن صفات الجهل والضعف والعجز، ولذلك فهو أصدق الصادقين، بل إنّ الكذب بالنسبة إلى الله تعالى لا مفهوم له إطلاقاً.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)﴾

سبب النّزول

نقل جمع من المفسّرين عن ابن عباس أنّ نفراً من أهل مكّة من الذين كانوا قد أظهروا الإسلام امتنعوا عن ترك مجاورة ومداهنة المنافقين، وأحجموا لذلك عن الهجرة إلى المدينة، وكان هؤلاء في الحقيقة يساندون ويدعمون عبدة الأوثان المشركين، إلاّ أنّهم اضطروا في النهاية إلى الخروج من مكّة (وساروا مع المسلمين حتى وصلوا إلى مشارف المدينة، ولعلّهم فعلوا ذلك لدرء الفضيحة عن أنفسهم أو بهدف التجسس على المسلمين المهاجرين) وكانوا يظهرون الفرح لانطواء حيلتهم على المسلمين، كما حسبوا أن دخولهم إلى المدينة سوف لا تعترضه أي مشاكل من قبل الآخرين - لكن المسلمين انتبهوا إلى حقيقة هؤلاء، غير أنّهم انقسموا إلى فئتين، فئة منهم رأت ضرورة طرد أُولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في الحقيقة يدافعون عن المشركين أعداء الإسلام، والفئة الثانية من المسلمين الذين كانوا لسذاجتهم يرون ظاهر الأُمور دون باطنها، خالفوا طرد المنافقين واعترضوا بزعمهم أنّه لا يمكن محاربة أو طرد من يشهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالنّبوة، وقالوا: إنّه لا يمكن استباحة دماء هؤلاء لمجرّد عدم هجرتهم مع المسلمين. فنزلت هذه الآية الكريمة وهي تلوم الفئة الأخيرة على خطئها، وترشدها إلى طريق الحقّ والصواب[1].

(١) ذكرت أسباب أُخرى لنزول هذه الآية والآيات التي تليها، وقيل إنّها نزلت في واقعة أُحد بينما الآيات التالية تتحدث عن الهجرة ولا تنسجم مع هذا القول، بل تنسجم مع سبب النزول الذي ذكرناه أعلاه.

التّفسير

استناداً إلى سبب النزول الذي ذكرناه، تتّضح لنا الصّلة الوثيقة بين هذه الآية والآيات التي تليها، وكذلك الآيات السابقة التي تناولت مواضيع وقضايا عن المنافقين.

فهذه الآية تخاطب في البداية المسلمين وتلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئة تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾(١) وتنهى المسلمين عن الاختلاف في أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، وتعاونوا مع المشركين، وأحجموا عن مشاركة المجاهدين، فظهر بذلك نفاقهم، ودلت على ذلك أعمالهم، فلا يجوز للمسلمين أن ينخدعوا بتظاهر هؤلاء بالتوحيد والإيمان، كما لا يجوز لهم أن يشفعوا في هؤلاء، وقد أكّدت الآية السابقة أن: (من يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها).

وتبيّن الآية بعد ذلك أنّ الله قد سلب من هؤلاء المنافقين كل فرصة للنجاح، وحرمهم من لطفه وعنايته بسبب ما اقترفوه وأنّ الله قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامّة فأصبحوا كمن يقف على رأسه بدل رجليه: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾(٢).

وتدل عبارة «بما كسبوا» على أنّ كل ارتداد أو خروج عن جادة الحقّ وطريق الهداية والسعادة والنجاة، إنّما يتمّ بعمل الإنسان وفعله، وحين ينسب الإضلال إلى الله سبحانه عزّ وجلّ، فذلك معناه أنّ الله القدير الحكيم يجازي كل إنسان بما كسبت يداه ويثيبه بقدر ما يستحق من ثواب.

وفي الختام تخاطب الآية أُولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم وأصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين، فتؤكد لهم أنّ هداية من حرمه الله من لطفه ورحمته بسبب أفعاله الخبيثة الشنيعة أمر لا يمكن تحقيقه، لأنّ الله قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب وضلال وحرمان من الهداية والنجاة ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

إذ إنّ عمل كل شخص لا ينفصل عنه... وهذه سنّة إلهية... فكيف يؤمل في هداية

(١) في هذه الجملة، جملة أُخرى محذوفة تتضح لدى الإمعان في الأجزاء الأُخرى من الآية والتقدير: «فما لكم تفرقتم في المنافقين فئتين...».

(٢) «أركسهم»: من ركس وهو قلب الشيء على رأسه، وتأتي أيضاً بمعنى ردّ أوّل الشيء إلى آخره.

أفراد امتلأت أفكارهم وقلوبهم بالنفاق، واتجهت أعمالهم إلى حماية أعداء الله؟! إنّه أمل لا يقوم على دليل[١].

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

التّفسير

لقد تحدثت الآية السابقة عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحماية نفر من المسلمين البسطاء وشفاعتهم، وأوضحت أنّ هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، وهذه الآية تبيّن أنّ المنافقين لفرط انحرافهم وضلالتهم يعجبهم أن يجرّوا المسلمين إلى الكفر كي لا يظلّوا وحدهم كافرين: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

ولهذا السبب فإنّ المنافقين أسوأ من الكفار، لأنّ الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، والمنافقون يفعلون هذا الشيء ويسعون دائماً لإفساد المعتقدات، وهم بطبعهم هذا لا يليقون بصحبة المسلمين أبداً، تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ إلاّ إذا غيروا ما في أنفسهم من شرّ، وتخلوا عن كفرهم ونفاقهم وأعمالهم التخريبية.

ولكي يثبتوا حصول هذا التغيير، ويثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجرة من مركز الكفر والنفاق إلى دار الإسلام (أي يهاجروا من مكّة إلى المدينة) فتقول الآية: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمّا إذا رفضوا الهجرة فليعلم المسلمون بأنّ هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حالة الكفر والنفاق، وأن تظاهرهم بالإسلام ليس إلاّ من أجل تمرير مصالحهم وأهدافهم الدنيئة ومن أجل أن يسهل عليهم التآمر والتجسس على المسلمين.

وفي هذه الحالة يستطيع المسلمون أن يأسروهم حيثما وجدوهم، وأن يقتلوهم إذا استلزم الأمر، تقول الآية الكريمة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وتكرر هذه الآية التأكيد على المسلمين أن يتجنّبوا مصاحبة هؤلاء المنافقين وأمثالهم فتقول: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

---

(١) في ج ١، من هذا التّفسير بحث عن الهداية والضلالة، فراجعه.

والقرآن في هذا الحكم يؤكّد حقيقة مصيرية للمجتمع، هي أنّ حياة أي مجتمع تمرّ بمرحلة إصلاحية لا يمكن أن تستمر بصورة سليمة ما لم يتخلص من جراثيم الفساد المتمثلة بهؤلاء المنافقين أو الأعداء الذين يتظاهرون بالإخلاص، وهم في الحقيقة عناصر مخربة هدامة تعمل في التآمر والتجسس على المجتمع ومصالحه العامّة.

والطريف هنا أنّ الإسلام - مع اهتمامه برعاية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم ومنعه الظلم والعدوان عنهم - نراه يشدد كثيراً في التحذير من خطر المنافقين، ويرى ضرورة التعامل معهم بعنف وقسوة، ورغم تظاهرهم بالإسلام يأمر القرآن بأسرهم، بل حتى بقتلهم إن استلزم الأمر.

وما هذا التشديد إلاّ لأنّ هؤلاء يستطيعون ضرب الإسلام تحت ستار الإسلام، وهذا ما يعجز عن أدائه أي عدو آخر.

سؤال:

قد يرى البعض أنّ النّبي ﷺ كان يتحاشى قتل المنافقين كي لا يتهمه الأعداء بأنّه يقتل أصحابه، أو أنّه لم يقتلهم حتى لا يستغل الآخرون هذا الأمر فيقتلون كل من يعادونه بدعوى أنّه منافق، فكيف يتلاءم هذا الموقف مع الآية الشريفة.

الجواب:

الحقيقة أنّ النّبي ﷺ اتّبع هذا الأُسلوب مع منافقي المدينة الذين لم يظهروا العداء الصريح له أو للإسلام، بينما اتّبع مع منافقي مكّة الذين جهروا بعدائهم للمسلمين وساعدوا الكفّار عليهم أُسلوباً غير هذا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠﴾

سبب النّزول

وردت روايات عديدة تفيد أنّ اثنتين من القبائل العربية في زمن النّبي ﷺ وهما قبيلتا «بني ضمرة» و«أشجع» كانت إحداهما وهي قبيلة بني ضمرة قد عقدت مع النّبي اتفاقاً بترك النزاع، وكانت القبيلة الثانية حليفة للقبيلة الأُولى دون أن تعقد مثل هذا

الاتفاق مع النبي ﷺ، وتقول الروايات إنّ بعض المسلمين أخذوا يشككون في وفاء «بني ضمرة» للمسلمين، واقترحوا على النّبي أن يهاجم هذه القبيلة قبل أن تبادر هي بالهجوم على المسلمين، فرد النّبي ﷺ قائلاً:

«كلاّ، فإنّهم أبرّ العرب بالوالدين، وأوصلهم للرّحم، وأوفاهم بالعهد».

وبعد فترة علم المسلمون أنّ قبيلة «أشجع» وعلى رأسها «مسعود بن رجيلة» قد وصلت حتى مشارف المدينة، وهي في سبعمائة رجل، فبعث النّبي ﷺ وفداً للتعرف على سبب مجيئهم إلى ذلك المكان، فأجابت هذه القبيلة بأنّها جاءت لكي تعقد اتفاقاً مع المسلمين مماثلاً لاتفاق «بني ضمرة» معهم، وما أن علم النّبي ﷺ بهذا الأمر حتى أمر أصحابه بأن يأخذوا مقداراً من التمر هدية لهذه القبيلة، ثمّ التقى بهم النّبي ﷺ فأخبروه بأنّهم لعجزهم عن موازرة المسلمين في قتال الأعداء، ولعدم رغبتهم في المشاركة في قتال ضد المسلمين، لما تربطهم بهم من صلة الجوار، لذلك يرومون عقد اتفاق أو ميثاق مع المسلمين بتحريم العدوان بينهما، فنزلت الآية المذكورة بهذا الشأن وهي تبيّن للمسلمين ما يجب عليهم أن يفعلوه في مثل هذه الحالة(١).

ويقول مفسرون آخرون إنّ قسماً من هذه الآية قد نزل في شأن قبيلة «بني مدلج» التي جاءت إلى النّبي ﷺ وأخبرته أنّها تريد الاتفاق معه على عدم اللجوء إلى العدوان فيما بينهما، وذلك لرغبتها في البقاء على الحياد تجاه المسلمين ودعوتهم(٢).

التّفسير

التّرحيب باقتراح السّلم

بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين في الآيات السابقة باستخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثني هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

١ - من كانت لهم عهود ومواثيق مع حلفائكم ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾.

٢ - من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمين، كما أنّ قدرتهم ليست على

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٣، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٣، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص ٢٦٢.

مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربة قبيلتهم ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾.

ومن الواضح أنّ أفراد الطائفة الأُولى يجب أن يكونوا مستثنين من هذا القانون احتراماً للعقود والعهود، وأمّا المجموعة الثانية - وإن لم تكن معذورة، بل عليها أن تستجيب للحق بعد معرفته - فقد أعلنت حيادها، ولذلك فمجابهتها تتعارض مع مبادىء العدالة والمروءة.

ولكي لا يستولي الغرور على المسلمين إزاء كل هذه الانتصارات الباهرة، وكي لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكرية وابتكارهم، ولا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدة تقول الآية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾.

وهذا تذكير للمسلمين بعدم نسيان الله في كل انتصار، وأن يتجنّبوا الغرور والعجب حيال ما لديهم من قوّة، وأن لا يعتبروا العفو عن الضعفاء خسارة أو ضرراً لأنفسهم.

وتكرر الآية في ختامها التأكيد على أنّ الله لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح وتجنبوا قتالهم، وأنّ المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوة الصلح هذه، ويصافحوا اليد التي امتدت إليهم وهي تريد الصلح والسلام ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

يلفت النظر أنّ القرآن في هذا الموضع ومواضع أُخرى يذكر مقترح السلام بعبارة «إلقاء السلام» وقد يكون ذلك إشارة إلى التباعد بين الجانبين المتنازعين قبل الصلح، حتى إنّ أحد الجانبين يطرح اقتراحه باحتياط وعن بعد ليلقيه على الجانب الآخر.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

سبب النّزول

لقد ذكروا أسباباً مختلفة لنزول هذه الآية، وأشهرها أنّ نفراً من أهل مكّة كانوا حين يحضرون عند النّبي ﷺ يتظاهرون بالإسلام كذباً وخداعاً، وما أن يرجعوا إلى قريش حتى يعودوا لعبادة الأصنام، وقد انتخب هؤلاء هذا النوع من السلوك درءاً لخطر

المسلمين وخطر قريش عن أنفسهم، بالإضافة إلى سعيهم لإمرار مصالحهم لدى الطرفين، فنزلت هذه الآية وأمرت المسلمين بالتعامل مع هؤلاء بعنف وشدّة(١).

التّفسير

عقاب ذي الوجهين

إنّ هذه الآية تصور لنا طائفة من الناس نقيض تلك الطائفة التي تحدثت عنها الآية السابقة وأمرت بقبول الصلح منها، والطائفة تتشكل من أفراد نفعيين انتهازيين، همّهم الوحيد تحقيق مصالحهم والتحرك بحرية تامّة لدى المسلمين وقريش عن طريق الرياء والخيانة والخداع، والتظاهر بتأييد واتباع الجانبين والتعاون معهما، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾.

وهؤلاء حين تسنح لهم الفرصة ينقلبون على أعقابهم وينغمسون في الفتنة والشرك نكساً على رؤوسهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾.

وعمل هؤلاء وسلوكهم على عكس سلوك الطائفة السابقة التي أرادت أن تبقى على الحياد فقد تجنبت الفئة السابقة إيذاء المسلمين، أمّا هذه الأخيرة فقد انطوت سريرتها على إيذاء المسلمين والوقوف ضدّهم.

وقد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقى في مأمن من انتقام المسلمين، وهذه الشروط هي: اعتزال المسلمين، أو مصالحتهم، أو الكف عن إيذائهم حيث تقول الآية الكريمة: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

وإذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذكورة وأصرت على العصيان والتمرد، فالمسلمون مكلّفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها وقتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآية: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ﴾.

ولما كانت الحجّة قد تمّت على هؤلاء، تقول الآية في الخاتمة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

وقد يكون هذا التسلط في مجال الكلام والمنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين والكافرين، وقد يكون سلطاناً مادياً ظاهرياً عليهم لأنّ الآية نزلت في وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كافٍ من القوّة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٤، ذيل الآية مورد البحث.

وتشير عبارة «ثقفتموهم» الواردة في الآية إلى احتياج المسلمين إلى الدقّة والمهارة في التعرف على هذه الفئة المنافقة الخطيرة، لما لها من قابلية عجيبة على التلون والخداع والانفلات من العقاب، فعبارة «ثقفتموهم» مشتقة من المصدر «ثقافة» الذي يعني الحصول على شيء باستخدام الدقّة والمهارة، بينما الفعل «وجد» يعني الحصول على الشيء بصورة مطلقة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

سبب النّزول

ذكروا أنّ مشركاً من أهل مكّة وهو «الحارث بن زيد» كان يعذب أحد المسلمين - ولفترة طويلة - بالتعاون مع أبي جهل، وكان اسم هذا المسلم «عياش بن أبي ربيعة» ولم يكن تعذيبه بسبب جرم اقترفه، بل كان يعذب لمجرّد أنّه آمن بالإسلام، وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة هاجر «عياش» إليها، فصادف يوماً «الحارث بن زيد» في إحدى طرقات المدينة فقتله ظنّاً منه أنّه ما زال عدواً للمسلمين، ولم يكن على علم بأنّ الحارث كان قد تاب وأسلم، فعلم النّبي ﷺ بهذا الحادث، فنزلت الآية الشّريفة وهي تبيّن حكم مثل هذا القتل الناتج عن الخطأ[1].

التّفسير

أحكام القتل النّاتج عن الخطأ

لقد أطلقت الآية السابقة أيدي المسلمين في المنافقين الذين كانوا يشكّلون خطراً

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٦، ذيل الآية مورد البحث.

كبيراً على الإسلام، وسمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين، ولكن تفادياً لاستغلال هذا الحكم استغلالاً سيئاً، ولسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التي قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمة أنّه منافق، وأمام أي تساهل في سفك دماء الأبرياء، بيّنت هذه الآية والتي تليها أحكام قتل الخطأ وقتل العمد، لكي يكون المسلمون على غاية الدقّة والحذر في مسألة الدّماء التي تحظى باهتمام بالغ في الإسلام، تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

هذه الآية تقرر في الواقع حقيقة من الحقائق، فالمؤمن لا يسمح لنفسه إطلاقاً أن يسفك دماً بريئاً، لأنّ المشاعر الإيمانية تجعل من الجماعة المؤمنة أعضاء جسد واحد، وهل يقدم عضو في جسد على قطع عضو آخر إلاّ خطأ! من هذه الحقيقة يتّضح أنّ مرتكب جريمة القتل متهم أوّلاً في إيمانه.

وعبارة «إلاّ خطأ» لا تعني السماح بارتكاب قتل الخطأ! لأنّ مثل هذا القتل لا يكون عن قرار مسبق، ولا يكون مرتكبه حين الارتكاب على علم بخطئه، إنّها - إذن - تقرير لحقيقة عدم ارتكاب المؤمن مثل هذه الجريمة إلاّ عن خطأ.

ثمّ تبيّن الآية الكريمة غرامة قتل الخطأ، وتقسمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنّوع الأوّل: هو أن يحرر القاتل عبداً مسلماً، ويدفع الدية عن دم القتيل إلى أهله إذا كان القتيل ينتمي إلى عائلة مسلمة ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ فإذا وهب أهل القتيل الدية وتصدقوا بها له فليس على القاتل أن يدفع شيئاً: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾.

والنّوع الثّاني: من غرامة قتل الخطأ يكون في حالة ما إذا كان القتيل مسلماً، ولكن من عائلة معادية للإسلام ويجب في هذه الحالة عتق عبد مسلم ولا تدفع الدية إلى أهل القتيل، لأنّ الإسلام يرفض تعزيز الحالة المالية لأعدائه، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الإسلام قد قطع الصلة بين هذا الفرد وعائلته المعادية للإسلام، فلا معنى إذن لجبران الخسارة.

أما النّوع الثّالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ، فيكون في حالة كون القتيل من عائلة غير مسلمة لكنّ بينها وبين المسلمين عهداً وميثاقاً، في مثل هذه الحالة أمر بدفع دية القتيل إلى أهله، كما أمر - أيضاً - بتحرير عبد من العبيد المسلمين احتراماً للعهود والمواثيق تقول الآية: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

واختلف المفسّرون في قتيل الحالة الثالثة، هل يجب أن يكون من المسلمين، أم أن الحكم يشمل غيرهم من الكفّار الذميين؟(١)

وظاهر الآية والروايات التي وردت في تفسيرها تدل على أنّ المقصود فيها هو القتيل «المسلم».

كما اختلف المفسّرون في جواز دفع الدية إلى أهل القتيل غير المسلمين، حيث إنّ الدية تعتبر جزءاً من الإرث، والكافر لا يرث المسلم، ولكن ظاهر الآية يدل على وجوب دفع الدية إلى أهل مثل هذا القتيل، وذلك تأكيداً من الإسلام على احترامه للعهود والمواثيق.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الدية تدفع في هذه الحالة إلى المسلمين من ورثة القتيل دون الكافرين منهم معتمدين على أنّ الكافر لا يرث المسلم وأنّ الدية جزء من الإرث، وقد وردت إشارات إلى هذا المعنى في بعض الروايات أيضاً.

بينما ظاهر الآية يدل على أن الورثة ليسوا من المسلمين، وذلك حين تقول: ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ لأن العهود والمواثيق كانت في ذلك الزمان بين المسلمين وبين غيرهم، ولم تكن بين المسلمين أنفسهم - حينذاك - عهود أو مواثيق، (وهنا يجب الإمعان والتدقيق كثيراً في الأمر).

وتستطرد الآية في بيان الحكم فتتطرق إلى أُولئك النفر من المسلمين الذين يرتكبون القتل عن خطأ، ولا يسعهم - لفقرهم - دفع المال دية عن القتيل، كما لا يسعهم شراء عبد لتحرير رقبته غرامة عن ارتكابهم للقتل الخطأ، وتبيّن حكم هؤلاء، وتعلن أنّهم يجب أن يصوموا شهرين متتابعين غرامة عن القتل الخطأ الذي ارتكبوه، بدلاً من الدية وتحرير الرقبة، وقد اعتبرت ذلك نوعاً من تخفيف الجزاء على الذين لا يطيقون الغرامة المالية وتوبة منهم إلى الله، علماً أنّ جميع أنواع الغرامات التي ذكرت في الآية عن القتل الخطأ، إنّما هي توبة وكفارة للذنب المرتكب في هذا المجال، والله يعلم بخفايا الأُمور وقد أحاط علمه بكل شيء حيث تقول الآية: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

لقد وردت في الآية - موضوع البحث - أُمور عديدة يجدر الانتباه إليها وهي:

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٧، ذيل الآية مورد البحث.

١ - ذكرت الآية ثلاثة أنواع من التعويض عند حصول قتل عن خطأ، وكل نوع في حدّ ذاته تعويض عن الخسارة الناجمة عن هذا القتل.

فتحرير رقبة عبد مسلم يعتبر تعويضاً عن خسارة اجتماعية ناتجة عن القتل الواقع على إنسان مسلم، إذ بعد أن خسر المجتمع فرداً نافعاً من أفراده بسبب وقوع القتل عليه، حصل على تعويض مماثل وذلك بدخول إنسان نافع آخر بين أفراده عن طريق التحرير.

وأمّا التعويض المادي «الدية» فهو مقابل الخسارة المادية التي لحقت بأهل القتيل نتيجة فقدهم إياه، والحقيقة أنّ الدية ليست ثمناً لدم القتيل المسلم البريء، لأنّ دمه لا تعادله قيمة، بل هي - وكما أسلفنا - نوع من التعويض عن خسارة مادية لاحقة بذوي القتيل بسبب فقدانه.

وأمّا الخيار الثّالث الوارد في حالة تعذر تقديم التعويض المادي، فيتمثل في صيام شهرين متتابعين يقوم به القاتل، فهو تعويض أخلاقي ومعنوي لخسارة معنوية لحقت بالقاتل نفسه بسبب ارتكابه لحادث قتل، فالكفّارة تتحقق في الدرجة الأُولى في تحرير رقبة مؤمنة، فإن عجز القاتل فصيام شهرين متتابعين - ويجب الانتباه هنا إلى أن تحرير العبيد يعتبر بحدّ ذاته عبادة، لما له من أثر معنوي على العبد الذي يتحرر من قيود الرق.

٢ - ورود عبارة ﴿أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ بالنسبة إلى أهل القتيل الذين هم من المسلمين، أي أن يتنازلوا عن «دية» قتيلهم، حيث لم ترد هذه العبارة بالنسبة لغير المسلمين - وسبب ذلك واضح، وهو لأنّ الأرضية للصفح والعفو متوفرة لدى المسلمين حيال أمثالهم، بينما لا تتوفر مثل هذه الأرضية لدى غير المسلمين تجاه المسلمين، كما أنّ المسلم يجب أن لا يقبل معروفاً أو منّة من غير المسلم في هذه الحالات.

٣ - وممّا يجلب الانتباه أنّ الحالة الثالثة الواردة في الآية موضوع البحث، قد قدمت كفارة الدية على كفارة التحرير، وهذه الحالة تتناول مسألة القتل الخطأ الواقع على شخص لا ينتمي أهله إلى الإسلام، بينما الحالة الأُولى - التي كان القتيل فيها من عائلة إسلامية - تقدمت فيها كفارة التحرير على كفارة الدية.

ويمكن الاستنتاج من هذا التقديم والتأخير أن مسألة دفع الدية في موعد متأخر بالنسبة للمسلمين فيما بينهم، لا تترك أثراً سلبياً عليهم - في الغالب - بينما لو كان أهل القتيل من غير المسلمين لوجب التعجيل في دفع الدية أوّلاً اتقاءً للفتنة، ولكي لا يفسّر أهل القتيل وقومه مسألة القتل الحاصلة بأنّها نقض للعهد من جانب المسلمين.

٤ - لم تحدد الآية الكريمة مقدار الدية أو مبلغها في أي من الحالات الثلاث المذكورة، ويستنتج من هذا أنّ مسألة التحديد هذه إنّما أُوكلت إلى السنة التي عينت بالفعل مقدارها الكامل بألف مثقال من الذهب، أو بمائة بعير، أو مائتين من البقر، ويمكن أن يكون ثمن هذه الأنواع مالاً إذا حصل اتفاق بين طرفي القضية، (وبديهي أن تخصيص الذهب أو نوع من أنواع الماشية دية عن القتل، إنّما هو سنّة إسلامية تستند مبرراتها على الأُمور الطبيعية لا الوضعية المتغيرة بتغير الزمان).

٥ - قد يرد هذا الوهم لدى البعض بأنّ القتل الواقع خطأ، يجب أن لا يكون بإزائه غرامة أو عقوبة، لأن القاتل لم يرتكب جريمة عن عمد أو سبق إصرار وأن الخطأ لا عقوبة أو غرامة مالية عليه.

وجواب هذا - أو توضيحه - أن القتل، دون سواه من الجرائم، تدخل فيه قضية بالغة الأهميّة وهي قضية الدم المراق فيها والحياة الإنسانية التي تُسلب عضواً من أعضاء المجتمع... ولكي يبيّن الإسلام اهتمامه الكبير بحياة الأفراد، ويدفع معتنقيه إلى التزام الحيطة والحذر الدقيقين لعدم التورط في ارتكاب مثل هذه الأخطاء، شدد في مسألة الغرامة والعقوبة حرصاً منه على حياة أفراد المجتمع، ولكي لا يصبح الخطأ عذراً يتوسل به من شاء في إهدار دماء الأبرياء من الناس.

والعبارة الأخيرة من الآية الكريمة التي هي ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ قد تكون إشارة إلى أنّ وقوع الخطأ يكون غالباً بسبب التهاون وقلّة الحذر، وأنّ الخطأ إذا كان كبيراً كالقتل - يجب التعويض عنه أوّلاً وإرضاء أهل القتيل لكي تشمل القاتل أو الخاطىء بعد ذلك التوبة الإلهيّة.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

سبب النزّول

ذكروا أنّ المقيس بن صبابة الكناني كان قد وجد قاتل أخيه هشام في محلة بني النجار، وأخبر النبي ﷺ بهذا الأمر، فبعثه النّبي ﷺ مع قيس بن هلال المهري إلى زعماء بني النجار يأمرهم أن يسلموا قاتل «هشام» إلى أخيه المقيس وإن لم يكن لهم علم

به أو بمكانه فليدفعوا إلى المقيس دية أخيه القتيل، فدفع بنو النجار الدية لعدم علمهم بمكان القاتل، فأخذ المقيس الدية وتوجه إلى المدينة مع قيس بن هلال المهري إلاّ أنّه في الطريق راودته نعرة من نعرات الجاهلية، فظن أنّه قد جلب على نفسه العار بقبوله المال بدل دم أخيه، فعمد إلى قتل رفيق سفره، أي قيس بن هلال الذي كان من قبيلة بني النجار، انتقاماً لدم أخيه على حسب ظنّه، ثمّ هرب المقيس إلى مكّة وارتد عن إسلامه، فاستباح النّبي ﷺ دم هذا القاتل، أي المقيس لخيانته، وقد نزلت هذه الآية في هذه المناسبة وهي تبيّن عقوبة مرتكب القتل العمد(١).

التّفسير

عقوبة القتل العمد

لقد بيّنت الآية السابقة عقوبة - أو غرامة - القتل الناتج عن الخطأ، وجاءت الآية الأخيرة تبيّن عقوبة القتل عن عمد وسبق إصرار، في حالة إذا كان القتيل من المؤمنين، وبما أنّ جريمة قتل الإنسان من أعظم وأكبر الجرائم وأخطر الذنوب، وأنّ التهاون في مكافحة مثل هذه الجريمة يهدد أمن المجتمع وسلامة أفراده، الأمن الذي يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم، لذلك فإنّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضية في آيات مختلفة بأهمّية بالغة، حتى إنّه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلاً للناس جميعاً، إلاّ أن يكون القتل عقاباً لقتل مثله أو عقاباً لجريمة الإفساد في الأرض حيث يقول القرآن في هذا المجال: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(٢).

وقد قررت الآية - موضوع البحث - أربع عقوبات أُخروية لمرتكب القتل العمد، وعقوبة أُخرى دنيوية هي القصاص، والعقوبات الأُخروية هي:

١ - الخلود والبقاء الأبدي في نار جهنم، حيث تقول الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾.

٢ - احاطة غضب الله وسخطه بالقاتل: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٩، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

٣ - الحرمان من رحمة الله: ﴿وَلَعَنَهُ﴾.

٤ - العذاب العظيم الذي ينتظره يوم القيامة: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ والملاحظ هنا أنّ العقاب الأخروي الذي خصصه الله للقاتل في حالة العمد، هو أشدّ أنواع العذاب والعقاب بحيث لم يذكر القرآن عقاباً أشدّ منه في مجال آخر أو لذنب آخر.

أمّا العقاب الدنيوي الذي وردت تفاصيله في الآية (١٧٩) من سورة البقرة، فهو القصاص، وقد تطرقنا إليه لدى تفسير هذه الآية في الجزء الأوّل من كتابنا هذا.

جريمة القتل العمد والعقاب الأبدي

يرد سؤال في هذا المجال، وهو أنّ الخلود في العذاب قد ورد بالنسبة إلى من يموت كافراً، بينما قد يكون مرتكب جريمة القتل العمد مؤمناً، كما يحتمل أن يندم على ما إرتكبه من إثم ويتوب عن ذلك في الدنيا، ويسعى إلى تعويض وتلافي ما حصل بسبب جريمته، فكيف إذن يستحق مثل هذا الإنسان عذاباً أبدياً وعقاباً يخلد فيه؟

إنّ جواب هذا السؤال يشتمل على ثلاث حالات هي:

١ - قد يكون المراد بقتل المؤمن - الوارد في الآية موضوع البحث - هو القتل بسبب إيمان الشخص، أي استباحة دم المؤمن، وواضح من هذا أنّ الذي يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل كهذه إنّما هو كافر عديم الإيمان، وإلا كيف يمكن لمؤمن أن يستبيح دم أخيه المؤمن، وبناء على هذا يستحق القاتل الخلود في النار ويستحق العذاب والعقاب المؤبد، وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام حديث بهذا الفحوى[1].

٢ - كما يحتمل أن يموت مرتكب جريمة القتل العمد مسلوب الإيمان بسبب تعمده قتل إنسان مؤمن بريء، فلا يحظى بفرصة للتوبة عن جريمته، فينال في الآخرة العذاب العظيم المؤبد.

٣ - ويمكن أيضاً - أن يكون المراد بعبارة (الخلود) الواردة في الآية هو العذاب الذي يستمر لآماد طويلة وليس العذاب المؤبد.

ويمكن أن يطرح سؤال آخر - في هذا المجال - وهو هل أنّ جريمة القتل العمد قابلة للتوبة؟!

(١) فقد ورد في كتاب الكافي وتفسير العياشي في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن من قتل مؤمناً على دينه فذلك المتعمد الذي قال الله تعالى في كتابه عنه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

لقد ردّ جمع من المفسّرين بالنفي صريحاً على هذا السؤال، وقالوا: إنّ هذه الجريمة التي ورد ذكرها في الآية موضوع البحث غير قابلة للتوبة مطلقاً، حيث أشارت الروايات الواردة في هذا الأمر إلى ذلك، فقد صرحت الروايات بأن لا توبة لقاتل المؤمن عمداً.

ولكن الذي نستنتجه من روح التعاليم الإسلامية، وروايات الأئمّة عليهم السلام، وغيرهم من علماء الدين الكبار، وكذلك من فلسفة التوبة القائمة على أساس التربية والوقاية من الوقوع في الذنوب والخطايا في مستقبل الفرد المسلم... أنّه لا يوجد ذنب غير قابل للتوبة، لكن التوبة من بعض الذنوب تكون مقيدة بشروط قاسية جدّاً يصعب بل يستحيل أحياناً على الفرد تحقيقها.

والدليل على هذا الأمر قول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(١).

وقد قلنا في تفسير هذه الآية: إنّها وردت في شأن العفو عن الذنوب بواسطة الشفاعة وما شاكل ذلك، ولكن المعروف أنّه حتى الشرك - ذاته - يعتبر من الجرائم والذنوب القابلة للتوبة، إذا تخلى الإنسان عنه وعاد فآمن بالله الواحد الأحد وأسلم وجهه لله، كما حصل للجاهليين الذين تخلوا عن شركهم وقبلوا الإسلام وتابوا إلى الله فعفا عنهم وغفرلهم ذنوبهم السابقة.

ويتبيّن من هذا العرض الموجز أنّ كل الذنوب - حتى الشرك - قابلة للتوبة، وتؤكّد على ذلك الآيتان (٥٣ و٥٤) من سورة الزمر حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الآيات التي تتحدث عن غفران جميع الذنوب هي آيات عامّة قابلة للتخصيص - ولكن لا يمكن الحكم بصحة هذا القول، لأنّه يتناقض ومنطق هذه الآية التي اعتبرت التوبة نعمة ومنّة من الله على المذنبين، وأكدت ذلك بالقرائن، لذلك لا يمكن تخصيص هذه الآيات، فهي - كما في الاصطلاح - تأبى التخصيص.

إضافة إلى ذلك كلّه فقد يحتمل أن يلجأ مرتكب القتل العمد إلى التوبة، ويخلص الطاعة لله في بقية عمره، ويتجنب ارتكاب الذنوب ولا يعصي الله بعد ذلك، ولا يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل مشابهة، فهل يصح أن ييأس التائب - في مثل هذه الحالة - من رحمة الله وعفوه ومغفرته؟ وهل يجوز القول بأن هذا الشخص مع توبته وندمه سيبقى

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

مشمولاً بعذاب الله المؤبد؟ إنّ القول برفض توبة إنسان كهذا يكون مخالفاً لروح التعاليم الدينية السامية التي جاء بها الأنبياء لتربية البشر وهدايتهم في جميع مراحل التاريخ.

والذي نلاحظه في تاريخنا الإسلامي، أنّ النّبي ﷺ قد عفا عن أخطر المجرمين من أمثال وحشي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب عم النّبي ﷺ وقبل النّبي توبته، وكذلك لا يمكن القول بأن ارتكاب جريمة القتل في حال الشرك يختلف عنه في حال الإيمان، بحيث يقال باحتمال التغاضي والعفو عن الجريمة في الحالة الأُولى، وعدم احتماله في حالة الإيمان، وقد سبق أن علمنا أن ليس هناك ذنب أعظم من الشرك بالله، وعرفنا أنّ هذا الذنب - أيضاً - قابل للتوبة وأن الله يعفو عن المشرك إذا تاب عن شركه واعتنق الإسلام . . . فكيف - والحالة هذه - يمكن القول بأنّ جريمة القتل العمد - التي لم يذكر القرآن أنّها أعظم الجرائم ليست قابلة للتوبة أو العفو؟

إنّ قولنا بأنّ جريمة قتل العمد قابلة للتوبة والعفو لا يقلل من عظم خطورة هذه الجريمة، وقبول التوبة في هذا المجال لا يعني أنّ التوبة متيسرة بسيطة في مثل هذه الحالة، بل إنّها من أصعب الأمور، وهي إن أُريد تحقيقها - تحتاج إلى بذل تضحيات كبيرة للتعويض عما خلفته الجريمة من آثار خطيرة وسيئة على المجتمع، والتعويض في هذا المجال ليس بالأمر اليسير(١) ولكننا أردنا من ذلك أن نبيّن أن باب التوبة ليس مغلقاً على من تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى، حتى لو كان قد ارتكب في وقت من الأوقات جريمة كالقتل المتعمد.

ما هي أنواع القتل؟

لقد قسم الفقهاء القتل إلى ثلاثة أنواع، كما ورد في كتب القصاص والديات، وقد استندوا في هذا التقسيم على ما استلهموه من الآيات القرآنية والروايات والأحاديث الواردة في هذا المجال . . . وهذه الأنواع هي:

١ - القتل العمد.

٢ - القتل شبه العمد.

٣ - القتل الخطأ.

(١) إنّ الآيات التي وردت في بيان خطورة قتل الأبرياء لها أثر يهز الإنسان من الأعماق، وفي حديث عن الرّسول ﷺ أنه قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم» وقال ﷺ أيضاً: «لو أنّ رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأُشرك في دمه» من تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ٣٦١.

والقتل العمد هو الذي يحصل باستخدام وسائل القتل مع وجود سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، مثل أن يعمد إنسان إلى قتل إنسان آخر مستخدماً في ذلك وسائل كالسكين أو العصا أو الحجارة أو غير ذلك من الوسائل القاتلة.

أمّا القتل شبه العمد فهو الذي يكون مسبوقاً بإصرار القاتل على إيذاء القتيل دون استهداف قتله، فيؤدّي الإيذاء إلى القتل، كأن يضرب شخص شخصاً آخر، دون أن يقصد قتله، فيؤدّي الضرب إلى قتل المضروب.

والقتل الخطأ هو القتل الذي يحصل دون أن يكون لدى القاتل سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، ولم يكن يهدف إلى إيذاء القتيل، ويحدث هذا - مثلاً - لدى محاولة إنسان اصطياد بعض الحيوانات بنوع من أنواع السلاح، فبدل أن يقع السلاح في الحيوان يقع سهواً على إنسان آخر فيقتله.

وقد وردت الأحكام المختلفة لهذه الأنواع الثلاثة من القتل في الكتب الفقهية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾

سبب النّزول

لقد ذكرت الرّوايات والتفاسير الإسلامية أسباب عدة لنزول هذه الآية، وكلها تتشابه مع بعضها الآخر، ومن ذلك أنّ الرّسول ﷺ حين عاد من واقعة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون في قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام أو الإذعان لشروط الذمّة، [وكان رجل من اليهود يقال له] مرداس اليهودي، وهو أحد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسلام وكان قد أخذ أمواله وأولاده ولجأ بهم إلى أحد الجبال، هبّ لاستقبال المسلمين وهو يشهد بوحدانية الله ورسالة النّبي ﷺ، وقد ظن أسامة بن زيد أن هذا اليهودي يتظاهر بالإسلام خوفاً على نفسه وحفظاً لماله وأنّه لا يبطن الإسلام في الحقيقة فعمد أُسامة إلى قتل هذا اليهودي واستولى على أغنامه، وما أن وصل نبأ هذه الواقعة إلى النّبي ﷺ حتى تأثر تأثراً شديداً منها وقال ﷺ ما معناه

أنّ أُسامة لم يكن ليعرف ما في نفس هذا الإنسان فلعله كان قد أسلم حقيقة[١].

عند ذلك نزلت الآية المذكورة فحذرت المسلمين من أن تكون الغنائم الحربية أو أمثالها سبباً في رفض إسلام من يظهر الإسلام، مؤكدة ضرورة قبول إسلام مثل هذا الإنسان.

التّفسير

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة - في الآيات السابقة - فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد في هذه الآية أمر احترازي يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يتعرّضون للاتهام من قِبل الآخرين، إذ تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

تأمر هذه الآية المسلمين أن يستقبلوا - بكل رحابة صدر - أُولئك الذين يظهرون الإسلام وأن يتجنبوا إساءة الظن بإيمان أو إسلام هؤلاء، وتؤكّد الآية بعد ذلك محذرة وناهية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سبباً في اتهام أفراد أظهروا الإسلام، أو قتلهم على أنّهم من الأعداء والاستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]. وتؤكّد على أنّ النعم الخالدة القيمة هي عند الله بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

وتشير الآية أيضاً إلى حروب الجاهلية التي كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب والنهب فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾[٣] وتضيف - مخاطبة المسلمين - أنّهم في ظل الإسلام ولطف الله وكرمه وفضله قد نجوا من ذلك الوضع السيىء مؤكّدة أنّ شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق والتثبّت من الأُمور، إذ تقول الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

---

(١) عن عليّ بن إبراهيم: فقال رسول الله ﷺ: فلا كشفت الغطاء عن قلبه، ولا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في نفسه علمت! راجع تفسير البرهان ج ٢ ص ٣٠٦ وما بين قوسين زيادة منه.

(٢) العرض كلمة على وزن (مرض) وتعني كل شيء زائل لا دوام له، وعلى هذا الأساس فإنّ «عرض الحياة الدنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التي يكون مصير جميعها إلى الزوال والفناء لا محالة.

(٣) وقد ورد في تفسير هذه الآية احتمال آخر، هو أنّها تخاطب المسلمين بأنّهم كان لهم نفس الحالة عند إسلامهم، أي إنّهم أقروا بالإسلام بألسنتهم وقبل منهم إسلامهم، في حين لم يكن أحد غير الله يعلم بما يخفونه في سرائرهم.

الجهاد الإسلامي نفيٌ من البعد المادي

توضح الآية السالفة هذه الحقيقة بصورة جلية، وهي أنّ أي مسلم يجب أن لا يتقدم إلى ساحة الجهاد بأهداف مادية، ولذلك عليه أن يقبل - منذ الوهلة الأُولى - من العدو إظهاره للإيمان ويلبي نداءه للصلح والسلام، حتى لو حرم المسلم بقبوله إيمان العدو الكثير من الغنائم المادية، والسبب في ذلك أن هدف الجهاد في الإسلام ليس التوسع ولا الاستيلاء على الغنائم المادية، بل الهدف من الجهاد الإسلامي هو تحرير البشر من قيود العبودية لغير الله، سواء كان هذا الغير هم الطغاة الجبابرة، أو كانت العبودية للمال وللثروة والجاه، ويجب على كل مسلم أن يسعى إلى هذه الحقيقة كلما برقت له بارقة أمل صوبها.

وتذكّر الآية الكريمة المسلمين بعهدهم في الجاهلية، حيث كانوا يحملون الأفكار المادية الدنيئة قبل إسلامهم، فكانوا يتسببون في إراقة سيول من الدماء لأسباب مادية محضة، وقد نجوا اليوم بفضل إسلامهم وإيمانهم من تلك الحروب وتغير أُسلوب حياتهم.

كما تشير الآية إلى حقيقة أُخرى، وهي أنّ المسلمين ساعة إظهارهم الإسلام لم يكن أحد ليعرف حقيقة هذا الإظهار أو حقيقة ما ينويه المظهر للإسلام، وتؤكد لهم ضرورة أن يطبقوا ما كانوا هم عليه عند إسلامهم على من يظهر الإسلام أمامهم من الأعداء.

سؤال:

قد يطرأ على الذهن سؤال، وهو لو أنّ الإسلام قبل دعوى كل من يتظاهر بالإسلام منذ الوهلة الأُولى دون التحقق من حقيقة هذه الدعوى، لأصبح ذلك سبباً في إيجاد أرضية النفاق وظهور المنافقين في المحيط الإسلامي، وبهذا الأُسلوب يمكن للكثير من الأعداء إساءة استغلال هذه الظاهرة والتستر في ظل الإسلام، ومن خلال ذلك القيام بأعمال عدائية ضد الإسلام؟

الجواب:

من الممكن القول أن ليس هناك قانون في العالم لا يمكن إساءة استغلاله أبداً، بل المهم في القانون هو أن يحوي في أغلب جوانبه النفع للعموم، لو رفضنا - منذ الوهلة الأُولى - إسلام من يظهر الإسلام من الأعداء وغيرهم لمجرّد عدم معرفتنا بسريرة هذا

الذي يظهر الإسلام، لأدى رفضنا في كثير من الحالات إلى مفاسد لا تحمد عقباها، بل ستكون أكثر ضرراً على الإسلام، إذ إنّها تعني سحق المبادىء والعواطف الإنسانية، ويكون - هذا الرفض - عند ذلك وسيلة بيد كل من يضمر العداء لصاحبه ليتهمه بأنّ إظهاره للإسلام لم يكن إظهاراً حقيقياً مخلصاً أو مطابقاً لما في سريرته، وبهذه الصورة من الممكن أن تراق دماء كثيرة لأناس أبرياء.

وفوق كل ذلك فإنّ الكثيرين لدى بدء كل دعوة تكون توجهاتهم لهذه الدّعوة بسيطة وشكلية وظاهرية، ولكنهم بمرور الزمان واتصالهم الدائم بتلك الدّعوة - تتجذّر في نفوسهم مبادىء الدعوة وتتأصل وتتعزّز، لذلك لا يمكن رفض مثل هؤلاء الضعيفي الصلة بالدّعوة.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

التّفسير

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، والآيتان الأخيرتان تبيّنان التمايز بين المجاهدين وغيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوي بين من يبذل المال والنفس رخيصين في سبيل الهدف الإلهي السامي، وبين من يقعده عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذي يحول دونه ودون المشاركة في الجهاد، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾.

وواضح من هذه الآية أنّ المقصود بالقاعدين فيها هم أُولئك المؤمنون بالإسلام الذين لم يشاركوا في الجهاد في سبيله بسبب افتقارهم إلى العزم الكافي لذلك، وتبيّن هنا - أيضاً - أنّ الجهاد المقصود لم يكن واجباً عينياً، فلو كان واجباً عينياً لما تحدث القرآن عن هؤلاء التاركين للجهاد بمثل هذه اللهجة المرنة ولم يكن ليعدهم بالثواب.

وعلى هذا الأساس فإنّ فضل المجاهدين على القاعدين لا يمكن إنكاره حتى لو لم يكن الجهاد واجباً عينياً، ولا تشمل الآية بأي حال من الأحوال أُولئك الذين أحجموا عن

المشاركة في الجهاد نفاقاً، وعدواناً ويجب الانتباه - أيضاً - إلى أنّ عبارة ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ لها مفهوم واسع يشمل كل أُولئك الذين يعانون من نقص العضو أو المرض أو الضعف الشديد، ممّا يحرمهم من المشاركة في الجهاد، فهؤلاء مستثنون من ذلك.

وتكرر الآية من جديد مسألة التفاضل بشكل أوضح وأكثر صراحة، وتؤكّد في نهاية المقارنة، أنّ الله وهب المجاهدين أجراً عظيماً، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾(١).

ولكن - كما أسلفنا - لما كان في الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف أُولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبة لهم واجباً عينياً أو لم يشاركوا في الجهاد بسبب مرض أو عجز أو علة أُخرى أعجزتهم عن هذه المشاركة، فذلك ولأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نيّة صالحة وإيمان وأعمال صالحة أُخرى فقد وعدوا خيراً حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ إلاّ أنه من البديهي أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين الخير الذي وعد به المجاهدون، وبين ذلك الذي يصيب القاعدين من العاجزين عن المشاركة في الجهاد.

وتبيّن الآية القرآنية في هذا المجال أنّ لكل عمل صالح نصيب محفوظ من الثواب لا يغفل ولا ينسى، خاصّة وهي تتحدث عن قاعدين أحبّوا المشاركة في الجهاد وكانوا يرونه سامياً مقدساً، وبما أن عدم كون هذا الجهاد واجباً عينياً قد حال دون تحقق هذا الهدف السامي المقدس فإن أُولئك الذين قعدوا عن المشاركة فيه سينالون من الثواب على قدر رغبتهم في المشاركة، أمّا أُولئك الذين عجزوا عن المشاركة بسبب عاهة أو مرض إلاّ أنّهم كانوا يرغبون في الاشتراك في الجهاد برغبة جامحة، بل كانوا يعشقون الجهاد، لذلك فإنّ لهم - أيضاً - سهم ونصيب لا ينكر من ثواب المجاهدين، كما جاء في حديث مروي عن الرّسول ﷺ يخاطب فيه جند الإسلام فيقول: «لقد خلفتم في المدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاّ كانوا معكم، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وهوت أفئدتهم إلى الجهاد وقد منعهم من المسير ضرر أو غيره»(٢).

وبما أنّ أهمّية الجهاد في الإسلام بالغة جداً، لذلك تتطرق الآية مرّة أُخرى

---

(١) لقد وردت عبارة «درجة» في الآية على صيغة النكرة، وتؤكّد كتب الأدب بأنّ النكرة في مثل هذه الحالات تأتي لبيان العظمة والأهميّة - أي أنّ درجة المجاهدين من السمو والرفعة بحيث لا يمكن للبشر معرفتها بصورة كاملة - وهذا شبيه بالعبارة التي تطلق لبيان القيمة العظيمة لشيء يجهل قيمته البشر.

(٢) تفسير الصافي، ج ١، ص ٤٨٧.

للمجاهدين وتؤكّد أن لهم أجراً عظيماً يفوق كثيراً أجر القاعدين عن الجهاد عن عجز، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وتشرح الآية التالية - وهي الآية (٩٦) من سورة النساء - نوع هذا الأجر العظيم فتقول إنّه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ فلو أنّ أفراداً من بين المجاهدين تورطوا في زلة أثناء أدائهم لواجبهم فندموا على تلك الزّلة، فقد وعدهم الله بالمغفرة والعفو، حيث يقول في نهاية الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

نكات مهمة حول المجاهدين

١ - لقد كررت الآية (٩٥) عبارة المجاهدين ثلاث مرات:

في المرّة الأُولى ذكر المجاهدون مع الهدف والوسيلة الخاصّة بالجهاد: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

وفي الثّانية: ذكر اسم المجاهدين مقروناً بوسيلة الجهاد، ولم يذكر شيء عن الهدف: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾.

وأمّا في المرحلة الأخيرة فقد جاءت الآية باسم المجاهدين فقط، حيث يدل ذلك بوضوح على الأسلوب البلاغي الرفيع في الكلام القرآني، حيث يتعرف السامع شيئاً فشيئاً بواسطته على الموضوع وتخف قيوده وصفاته لديه، وتصل درجة التعرف إلى مرحلة يفهم السامع بها كل شيء من خلال إشارة واحدة.

٢ - لقد ذكرت الآية في البداية تفوق المجاهدين على القاعدين بعبارة مفردة وهي «درجة» بينما في الآية التالية جاءت هذه العبارة بصيغة الجمع «درجات» وجليّ أن لا تناقض بين هاتين العبارتين، لأن القصد من العبارة الأُولى تبيان تفوق المجاهدين على غيرهم، ولكن العبارة الثانية تشرح هذا التفوق حين تقترن بذكر عبارات «المغفرة» و«الرحمة»، وبعبارة أُخرى فإن الفرق بين هاتين العبارتين «درجة» و«درجات» هو الفرق بين المجمل والمفصل.

كما يمكن الاستفادة من عبارة «درجات» على أنها تعني أن المجاهدين ليسوا كلّهم في درجة أو مستوى واحد، بل تختلف درجاتهم باختلاف درجة إخلاصهم وتفانيهم وتحمّلهم للمشاقّ، وتختلف بذلك منزلتهم المعنوية، لأنّه من البديهي أن الذين يجاهدون الأعداء في صف واحد ليسوا جميعاً بمستوى جهادي واحد، وتختلف درجات الإخلاص لدى كل واحد منهم بالقياس إلى أمثالهم، ولذلك فإنّ لكل واحد منهم ثواباً خاصاً به يتناسب مع عمله الجهادي ونيّته في هذا العمل.

الأهميّة البالغة للجهاد

إنّ الجهاد قانون عام في عالم الخليقة، فإنّ كل مخلوق سواء كان من النباتات أو الحيوانات يسعى لإزالة ما يعترض طريقه من موانع بواسطة الجهاد، لكي يستطيع كل واحد منهم بلوغ الكمال المطلوب في التكوين.

وعلى سبيل المثال فجذر النبات الذي ينشط للحصول على الغذاء والطاقة بصورة دائمة، لو ترك نشاطه هذا، وكفّ عن السعي لاستحال عليه إدامة حياته، ولذلك فإن هذا الجذر حين يعترض طريقه مانع في عمق الأرض يحاول تخطيه بثقبه، والعجيب هنا أنّ الجذور الرقيقة تعمل في مثل هذه الحالة كالمسمار الفولاذي في ثقب الموانع التي تعترضها، فلو عجزت في هذا المجال لحرفت طريقها واجتازت المانع عن طريق الالتفاف حوله.

وفي داخل وجود الإنسان أيضاً وحتى في ساعات النوم هناك صراع غريب ومستمر ما دام الإنسان حياً، وهو الصراع بين كريات الدم البيضاء والأجسام المعادية المهاجمة، فلو أن هذا الصراع توقف لساعة واحدة وتخلّت الكريات البيض عن الدفاع، لتسلطت الجراثيم والمكروبات المتنوعة على كافة أجهزة جسم الإنسان ولعرضت حياته للخطر.

إنّ ما هو موجود في أوساط المجتمعات والقوميّات والشعوب في العالم من كفاح من أجل البقاء، هو عين ذلك الكفاح والجهاد الذي لمسناه في النبات وفي جسم الإنسان.

وعلى هذا الأساس فإن كل من يواصل «الجهاد» و«المراقبة» تكون الحياة من نصيبه وهو منتصر دائماً - أما الذين تلهيهم عن الجهاد الأهواء والملذّات والشهوات والأنانية وحبّ الذات فلن ينالهم غير الفناء والدمار عاجلا أو آجلا، وسيحل محلّهم أناس يمتازون بالحيوية والنشاط والكفاح الدؤوب.

وهذا هو الشيء الذي يؤكّد عليه رسول الله محمد ﷺ إذ يقول: «فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً وفقراً في معيشته، ومحقاً في دينه، إنّ الله أعزّ أمّتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها»[1].

---

(١) الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١، ص ٢ و١٦. اصول الكافي، ج ٥، ص ٢؛ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص١٠.

ويقول النّبي ﷺ في مناسبة أُخرى: «اغزوا تورثوا أبناءكم مجداً»(١).

أمّا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فهو يقول في مستهل خطبته عن الجهاد: «. . . فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذّل وشمله البلاء، وديِّث بالصغار والقماءة. . .»(٢).

ويجب الالتفات إلى أنّ الجهاد لا يقتصر معناه على الحرب أو القتال المسلح، بل هو أيضاً كل سعي حثيث وجهد جهيد يبذل من أجل التقدم نحو تحقيق الأهداف المقدسة - الإلهيّة - ومن هذا المنطلق فإنّه بالإضافة إلى الحروب الدفاعية أو الهجومية - أحياناً - فإنّ الكفاح العلمي والمنطقي والاقتصادي والثقافي والسياسي يعتبر نوعاً من أنواع الجهاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

سبب النّزول

لقد أنذر رؤساء قريش قبل بدء غزوة بدر جميع الأفراد من أهالي مكّة الذين يستطيعون حمل السلاح، أنّ عليهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين، محذّرين بأنّ من يخالف هذا الأمر ستهدم داره وتصادر أمواله، وقد أدى هذا التهديد بنفر من الذين كانوا قد أسلموا في الظاهر، ولكنّهم كانوا قد رفضوا الهجرة لشدة حبّهم لموطنهم ولأموالهم. . . إلى أن يرغموا على مشاركة الوثنيين في التحرك إلى ساحة الحرب،

---

(١) الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١، ص ٢ و١٦. اصول الكافي، ج ٥، ص ٢؛ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص١٠.

(٢) نهج البلاغه، الخطبة ٢٧.

وراودهم الشك في انتصار المسلمين لقلّة عددهم، فكان أن قتلوا وهم إلى جانب المشركين.

فنزلت الآيات المذكورة وحدثت عن المصير الأسود الذي لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم على البقاء في موطن الشرك(١).

التّفسير

تعقيباً للبحوث الخاصّة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيرة إلى المصير الأسود الذي كان من نصيب أُولئك الذين ادعوا الإسلام ولكنهم رفضوا أن يطبقوا خطة الإسلام في الهجرة، فانحرفوا إلى مزالق رهيبة، فكانت نتيجة انحرافهم أن أصابهم القتل وهم في صفوف المشركين.

فالقرآن الكريم يذكر كيف أنّ الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم في الدنيا وأنّهم لو كانوا حقاً من المسلمين، فلماذا اشتركوا في صفوف المشركين لقتال المسلمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ...﴾ فيجيب هؤلاء بأنّهم تعرضوا في مواطنهم للضغط وأنّ ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهي ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يردّ الملائكة عليهم قائلين: لماذا لم تتركوا موطن الشرك وتنجوا بأنفسكم من الظلم والكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض الله الواسعة، ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾.

وفي النهاية تشير الآية إلى مصير هؤلاء، فتقول بأنّ الذين امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهية أو لمصالحهم الشخصية، وقرروا البقاء في محيط ملوث وفضلوا الكبت والقمع على الهجرة فإن مكان هؤلاء سيكون في جهنم، وإنّ نهايتهم وعاقبتهم هناك ستكون سيئة لا محالة: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

أمّا الآية الأُخرى من الآيات الثلاث المذكورة، فهي تستثني المستضعفين والعاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إنّ أُولئك الرجال والنساء والأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجاً للهجرة، ولم يتمكنوا من إيجاد وسيلة للنجاة من محيطهم الملوث، فهم

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٦٩، ذيل الآية مورد البحث.

مستثنون من حكم العذاب، لأنّ هؤلاء معذورون في الحقيقة، وإنّ الله لا يكلف نفساً ما لا تطيق، ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

والآية الأخيرة من الآيات الثلاث المذكورة تبيّن احتمال أن يشمل الله بعفوه هؤلاء، إذ تقول: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

وقد يرد هنا سؤال وهو: لو أن هؤلاء الأشخاص كانوا في الحقيقة معذورين، فلماذا لا تعدهم الآية بعفو إلهي حتمي، بل تبيّن احتمال أن يشملهم هذا العفو إذ تأتي الآية بعبارة «عسى» لتأكيد احتمالية الأمر؟

وجواب هذا السؤال هو نفس الجواب الذي ذكرناه في ذيل الآية (٨٤) من سورة النساء والذي بيّنا من خلاله أن القصد من استخدام مثل هذه العبارات هو أنّ الحكم الوارد في الآية مقيد بشروط خاصّة يجب الإلتفات إليها، وهنا يكون الشرط أن يتبادر هؤلاء المستضعفون حقيقة إلى الهجرة - دون تردد - متى ما سنحت لهم فرصة ذلك دون أن يقصروا في هذا الأمر فعند ذلك يشملهم العفو الإلهي.

نقاط يجب الالتفات إليها

١ - تجرّد الرّوح

إنّ الإتيان بكلمة (توفى) في الآية الشريفة المارة الذكر بدلاً من ذكر كلمة «الموت» إنّما هو في الحقيقة إشارة إلى أنّ الموت ليس هو الفناء التام، بل هو حالة تتلقى فيها الملائكة روح الإنسان، أي أنّ الملائكة يقبضون من الإنسان روحه التي هي جوهر وجوده، فتؤخذ هذه الروح إلى العالم الآخر، وإنّ الإتيان بمثل هذه العبارة بصورة متكررة في القرآن الكريم، يعتبر من أوضح الأدلة القرآنية على قضية وجود الروح وبقائها بعد الموت، حيث سنتطرق إلى ذلك لدى تفسير الآية الخاصّة بالروح.

وإن هذا هو جواب أولئك الذين يزعمون أنّ القرآن لم يشر مطلقاً إلى قضية الروح[1].

٢ - ملك الموت أو ملائكة الموت؟

لدى البحث في موارد متعددة من القرآن الكريم (أي حوالى ١٢ مورداً) والتي وردت فيها عبارة «توفى» وهي تتحدث عن الموت، نستنتج أن قبض الأرواح يقوم به ملائكة

(١) لمعرفة معنى «توفى» من الناحية اللغوية يرجى مراجعة الجزء الثاني من تفسيرنا هذا.

متعددون وليس ملكاً واحداً، وهؤلاء الملائكة هم المكلّفون بنقل أرواح بني آدم من هذه الدنيا إلى العالم الآخر، ففي الآية المارة الذكر ورد اسم الملائكة بصيغة الجمع، وهذا أحد الأدلة على أن قبض الأرواح يقوم به ملائكة متعددون. فنحن نقرأ في الآية (٦١) من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

وهناك من الآيات ما ينسب قبض الروح إلى ملك الموت[(١)]، وهذا الملك هو كبير ملائكة قبض الروح الذي ذكر في الأحاديث باسم «عزرائيل».

ويتّضح لنا ممّا سبق جواب من يسأل عن كيفية قيام ملك واحد بقبض أرواح أناس عديدين في آن واحد وفي مناطق مختلفة.

ومع ذلك فإننا لو افترضنا أنّ هناك ملكاً واحداً فقط لقبض الأرواح لا العديد من الملائكة، فعند هذا الفرض لا يرد أيضاً أي معضل، والسبب هو أنّ التجرّد الوجودي لهذا الملك يقتضي أن تكون دائرة عمله ونفوذه وسيعة مترامية الأطراف بشكل خارق للعادة، لأنّ أي وجود مجرّد عن المادة يمكن أن تكون إحاطته واسعة بما يخص عالم المادة - وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حين سأل ملك الموت عن كيفية إحاطته بما في العالم، أجابه هذا الملك: «ما الدنيا كلها عندي فيما سخرها الله لي ومكنني منه إلاّ كالدرهم في كف الرجل يقلبه كيف يشاء»[(٢)].

ولكننا نرى في بعض الآيات أنّ قبض الروح ينسب إلى الله عزّوجلّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[(٣)]، وهذا لا يتناقض مع الآيات السابقة، لأنّ في كثير من الحالات حين يتمّ عمل بوسيلة معينة، ينسب فعل هذا العمل تارة للوسيلة ذاتها، وأُخرى للذي أوجد وصنع هذه الوسيلة، وكلتا النسبتين صحيحة.

والطريف أنّ القرآن قد نسب فعل الكثير من أحداث العالم إلى الملائكة الذين هم مكلفون من قبل الله سبحانه وتعالى، ونحن نعلم أنّ لعبارة «ملائكة» أو «ملك» معاني واسعة تدور بين معنى «الموجودات المجرّدة العاقلة» إلى معنى «الطاقات والقوى الطبيعية».

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٢) تفسير البرهان، الجزء الرابع، ص ٤٩٩، تفسير الآية الأُولى من سورة الإسراء. بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٤١؛ تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٠٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

٣ - من هو المستضعف؟

لدى البحث في الآيات القرآنية والأحاديث والروايات يستنتج أنّ المستضعف هو ذلك الشخص الذي يعاني من ضعف فكري أو بدني أو اقتصادي يمنعه من التعرف على الحق والباطل، أو أنّه ذلك الذي يستطيع التعرف على العقيدة الصادقة الحقة، إلاّ أنّه ولمعاناته من عجز جسماني أو مالي أو قيود يفرضها عليه المحيط الذي يعيش فيه، يعجز عن أداء واجباته التي كلّف بها بصورة كاملة، كما يعجز عن القيام بالهجرة.

وعن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه»(١).

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه حين سئل: أي قوم يقال لهم المستضعفون؟ فأجاب عليه السلام كتابة: «الضعيف من لم ترفع له حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف»(٢).

وواضح من الروايات المذكورة أنّ المستضعف هو ذلك الذي يعاني من ضعف فكري عقائدي، إلاّ أنّ الآية موضوع البحث والآية (٧٥) من نفس هذه السورة التي سبق وأن تحدثنا فيها تدلان على أنّ المستضعف هو ذلك الذي استضعف عملياً، فهو يعرف الحق ويميزه، ولكن الكبت الذي يعاني منه في المحيط الذي يعيش فيه لا يسمح له بالعمل بالحق الذي عرفه.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

الهجرة حكم إسلامي بنّاء

بعد أن تناولت الآيات السابقة الأفراد الذين يقعون فريسة الذّل والمسكنة بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآية الأخيرة بشكل صريح وحاسم أهمّية الهجرة في قسمين:

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٣٦. (٢) المصدر نفسه.

في القسم الأوّل: تشير هذه الآية إلى نعم وبركات الهجرة في الحياة الدنيا، فتقول إن الذي يهاجر في سبيل الله إلى أي نقطة من نقاط هذه الأرض الواسعة، سيجد الكثير من النقاط الآمنة الواسعة ليستقر فيها، ويعمل هناك بالحقّ ويرغم أنف المعارضين ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

ويجب الالتفات إلى أنّ عبارة «مراغم» مشتقة من المصدر «رغام» على وزن «كلام» والذي يعني التراب، والإرغام معناه التمريغ في التراب والإذلال و«مراغم» صيغة لاسم المفعول واسم مكان أيضاً.

وقد وردت في الآية هذه بمعنى اسم مكان كذلك، أي إنّها المكان الذي يمكن فيه تحقيق الحق وتطبيقه والعمل به، كما يمكن فيه إدانة المعارضين للحق وتمريغ أنفهم بالتراب.

بعد ذلك تشير الآية في القسم الثاني منها إلى الجانب المعنوي الأُخروي للهجرة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، وعلى هذا الأساس فإنّ المهاجرين في كل الأحوال سينالهم نصر كبير، سواء وصلوا إلى المكان الذي يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحرية العمل بواجباتهم، أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم في هذا الطريق، وفي هذا المجال وعلى الرغم من بداهة حقيقة تلقي الصالحين أجرهم من الله سبحانه وتعالى، إلاّ أنّ الآية - موضوع البحث - قد صرحت بهذا الأمر بقولها: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ...﴾ وهذا يوضح مدى عظمة وأهميّة الثواب والأجر الذي يناله المهاجرون.

الإسلام والهجرة

إنّ الإسلام - استناداً إلى هذه الآية وآيات كثيرة أُخرى - يأمر المسلمين بكل صراحة بالهجرة من المحيط الذي يعانون فيه - لأسباب خاصّة - من عدم التمكن من أداء واجباتهم إلى محيط ومنطقة آمنة، وسبب هذا الأمر واضح، لأنّ الإسلام لا يُحدّ بمكان ولا يقيد بمحيط معين خاص، ولهذا فإنّ التمسك المفرط بالمحيط ومحل التولد والعلاقات المختلفة الأُخرى لا تقف في نظر الإسلام حائلاً دون هجرة المسلمين.

ولذلك نرى انفصام كل هذه العلاقات في الصدر الأوّل للإسلام ومن أجل حماية الإسلام وتقدمه، وفي هذا المجال يقول أحد المؤرخين الغربيين: إنّ القبيلة والعائلة هما الشجرة الوحيدة التي تنبت في الصحراء، ولن يستطيع أحد الحياة دون اللجوء

إليها، إلاّ أنّ محمّداً ﷺ قد قلع هذه الشجرة التي نمت بلحم ودم عائلته، وفعل ذلك من أجل ربّه وخالقه (فقد فصم النّبي ﷺ علاقته بقريش في سبيل الإسلام)[١].

علاوة على ما ذكر فإن جميع الموجودات الحيّة، حين تتعرض حياة أي واحد أو مجموعة منها للخطر، نراها تضطر إلى ترك مكان تواجدها والهجرة منه إلى مأوى وملجأ آمن آخر، والكثير من أبناء البشر الأقدمين عمدوا إلى الهجرة من مكان ولادتهم - بسبب تغير الظروف الجغرافية فيه - إلى نقاط أُخرى من العالم من أجل مواصلة الحياة، وليس البشر وحدهم الذين مارسوا الهجرة، بل هناك من بين الحيوانات أنواع كثيرة عرفت بالحيوانات المهاجرة، مثل الطيور التي تضطر أحياناً إلى الدوران حول الأرض تقريباً من أجل إيجاد مأوى تواصل فيه حياتها، وبعض هذه الطيور يهاجر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، وأحياناً تقطع مسافة حوالى (١٨) ألف كيلومتر للوصول إلى المكان الذي تريد العيش فيه.

وهذه الشواهد خير دليل على أنّ الهجرة هي أحد القوانين الخالدة للحياة، فهل يصح أن يكون الإنسان أقل حظاً من الحيوان في هذا المجال؟

وحين تتعرض، حياته المعنوية، وكيانه وأهدافه المقدسة التي هي أثمن وأغلى من حياته المادية للخطر، فهل يستطيع هذا الإنسان البقاء في مكان الخطر متشبثاً بالأرض والمولد وغير ذلك متحملاً ألوان الذل والإهانة والحرمان وسلب الحريات، والأهم من ذلك كلّه زوال أهدافه التي يعيش من أجلها...

أو أنّ عليه أن يختار قانون الطبيعة في الهجرة، ويترك ذلك المكان، ويختار مكاناً آخر يتيسر فيه المجال لنموه المادي والمعنوي؟

الطريف في هذا الأمر أنّ الهجرة - أي تلك الهجرة التي كانت لأجل حفظ النفس وحماية الشريعة الإسلامية - تعتبر مبدأ - أو بداية - التاريخ الإسلامي، وهي بذلك تعد البنية الأساسية لكل الأحداث السياسية والإعلامية والاجتماعية للمسلمين.

فلننظر لماذا انتخبت هجرة الرّسول ﷺ مبدأ - أو بداية - للتاريخ الإسلامي؟

إنّ هذا الموضوع جدير بالملاحظة، لأنّنا نعلم أنّ أي مجموعة بشرية - صغرت أو كبرت - تتخذ لنفسها مبدأ أو بداية تاريخية تحسب منه تاريخها، فالمسيحيون مثلاً

---

(١) محمّد خاتم الأنبياء، الجزء الأول.

اتّخذوا بداية تاريخهم السنة التي ولد فيها عيسى عليه السلام، أمّا المسلمون فمع وجود أحداث مهمّة كثيرة وقعت لهم قبل الهجرة، مثل يوم ولادة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويوم البعثة المحمّدية الشريفة، وفتح مكّة، ووفاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، لكنهم لم يتخذوا أي واحد من الأحداث مبدأ أو بداية لتاريخهم، بل اعتبروا حادثة الهجرة وحدها بداية للتاريخ الإسلامي.

إنّ التاريخ يقول إنّ المسلمين بدأوا يفكرون بتعيين بداية تاريخهم الذي له أهميّة عامّة وشاملة في زمن الخليفة الثاني الذي توسعت في عهده رقعة البلاد الإسلامية - وإنّ المسلمين بعد البحث الكثير في هذا الأمر، اختاروا رأي علي بن أبي طالب عليه السلام باتّخاذ حادثة الهجرة النبوية الشريفة مبدأ وبداية للتاريخ الإسلامي(١).

والحقيقة أنّ هذا الاختيار كان هو المتعيّن، لأنّ الهجرة كانت أهم وألمع حدث أو برنامج حصل للإسلام، وكانت الهجرة مبدأ فصل جديد مهم في التاريخ الإسلامي، فالمسلمون حين وجودهم في مكّة كانوا يمارسون تعلم شؤونهم الحياتية وفق دينهم الجديد (الإسلام) ولم تكن لديهم في هذه الحالة - على ما يبدو - أي قدرة سياسية واجتماعية، ولكنهم بعد الهجرة شكلوا مباشرة الدولة الإسلامية التي تقدمت بسرعة فائقة - في كل المجالات - ولو أنّ المسلمين لم يذعنوا لأمر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في اختيار الهجرة وفضّلوا البقاء في مكّة، لما تيسر عند ذلك للإسلام أن يمتد خارج حدود مكّة، بل حتى كان من الممكن أن يقبر الإسلام في مكّة ويمحى أثره.

ويتّضح لنا أنّ الهجرة لم تكن حكماً خاصاً بزمن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل إنّها تجب على المسلمين متى ما تعرضوا لظروف مشابهة لتلك الظروف التي اضطرت النّبي وأصحابه صلى الله عليه وآله وسلم إلى ترك مكّة والهجرة إلى المدينة.

والقرآن يعتبر الهجرة في الأساس جوهراً لوجود الحرية والرفاه، وقد أشارت الآية - موضوع البحث - إلى هذا الأمر، كما أنّ الآية (٤١) من سورة النحل تشير من جانب آخر إلى هذه الحقيقة، إذ تقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

وتجدر الإشارة - أيضاً - إلى هذه النقطة، وهي أنّ الهجرة في نظر الإسلام لا تقتصر

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١١٢، ويجب التنبيه إلى وجود رسائل من أيّام الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، مذيلة بالتاريخ الهجري. راجع كتاب (مكاتيب الرّسول) للأحمدي.

على الهجرة المكانية والخارجية، بل يلزم قبل ذلك أن تتحقق لدى الفرد المسلم هجرة باطنية في نفسه، يترك بها كل ما ينافي الأصالة والكرامة الإنسانية، لكي تتيسر له بهذا السبيل الهجرة المكانية - إذن فالهجرة الباطنية ضرورية قبل أن يبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجية - وإذا لم يكن هذا الإنسان بحاجة إلى الهجرة الخارجية، يكون قد نال درجة المهاجرين بهجرته الباطنية.

والأساس في الهجرة هو الفرار من «الظلمات» إلى «النور» ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الخطأ والعصيان إلى إطاعة حكم الله، لذلك نجد في الحديث ما يدل على أنّ المهاجرين الذين هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق الهجرة في بواطنهم وأرواحهم، ليسوا في درجة المهاجرين، وعلى عكس هؤلاء فإنّ من تتحقق لديه الهجرة الباطنية الروحية ولم يتمكن أو لم يحتج إلى الهجرة الخارجية فهو في عداد المهاجرين حقاً.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «ويقول الرجل هاجرت، ولم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيئات ولم يأتوا بها»(١).

وعن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنّة وكان رفيق محمّد وإبراهيم عليه السلام»(٢). لأنّ هذين النّبيين هما قائداً وإماماً مهاجري العالم.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

التّفسير

صلاة المسافر

بعد الآيات التي تحدثت سابقاً عن الجهاد والهجرة، تتطرق الآية (١٠١) من سورة النساء - التي هي موضوع بحثنا الآن - إلى صلاة المسافر، فتبيّن أن لا مانع للمسلم من أن يقصر صلاته لدى السّفر إذا خاف من خطر الكافرين الذين هم الأعداء البارزون للمسلمين، وقد عبّرت هذه الآية عن السّفر بالضرب في الأرض، لأنّ المسافر يضرب

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٩٧ مادة (هجر). (٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٤١.

الأرض برجليه لدى السّفر(١).

ويرد هنا سؤال: وهو أنّ الآية هذه قد جعلت الخوف من العدو شرطاً لقصر الصّلاة، بينما نقرأ في البحوث الفقهية أنّ حكم صلاة القصر يعتبر حكماً عاماً يشمل جميع أنواع السّفر، سواء كان فيه الخوف من الأعداء أو كان سفراً آمناً لا خوف فيه، وقد وردت روايات عديدة عن طرق الشيعة والسنّة في مجال صلاة القصر تؤيد كلّها شمولية حكم صلاة القصر لكل أنواع السّفر المباح(٢).

وفي جواب هذا السؤال يجب القول بأنّ تقييد حكم القصر في الصلاة بالخوف قد يكون سببه واحداً من الموارد التالية:

أ - إنّ القيد جاء بسبب وضع المسلمين في بداية العصر الإسلامي، ويصطلح على هذا القيد بـ «القيد الغالب» أي إنّ أغلب أسفار المسلمين في ذلك الزمن كانت مشوبة بالخوف، وجاء في علم الأُصول أنّ القيود الغالبة لا مفهوم لها مستدلاً بآية ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾(٣) أي بنات نسائكم اللواتي تربونهنّ وهنّ من أزواج سابقين وهنّ حرام عليكم.

ونواجه في هذه الآية نفس مسألة «القيد الغالب» لأنّ بنات الزوجة يعتبرن محارم للزوج - سواء تربين في حجره أم لم يتربين لديه - ولكن بما أنّ أغلب النساء المطلقات اللواتي يتزوجن مرّة أُخرى هنّ نساء شابات لديهنّ أطفال صغار تتمّ تربيتهم في حجر الزوج الجديد، لذلك جاءت الآية بقيد «حجوركم».

ب - ويعتقد بعض المفسّرين أنّ صلاة القصر شرعت في البداية لزمن الخوف - كما جاء في الآية موضوع البحث - وأنّ هذا الحكم قد توسع فيما بعد فشمل جميع الحالات.

ج - ويحتمل أيضاً أن يكون في هذا القيد جانب توكيدي، أي أنّ صلاة القصر لازمة للمسافر أينما كان، ولكن في حالة الخوف من العدو تكون هذه الصّلاة مؤكدة أكثر.

وعلى أي حال، فليس هناك من شك أنّ صلاة القصر للمسافر - مع الأخذ بنظر

---

(١) مفردات الراغب، مادة «ضرب».

(٢) للإطلاع أكثر راجع الجزء الخامس من كتاب وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٣٣ و ٥١٧؛ وكتاب سنن البيهقي، الجزء الثّالث، ص ١٣٤ وغيرهما من الكتب.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

الاعتبار الرّوايات المفسّرة لهذه الآية - لا تقتصر على حالة الخوف، ولهذا السبب فإنّ النّبي ﷺ كان في أسفاره حتى في موسم الحج (في أرض منى) يقصر صلاته.

سؤال:

وهنا يرد سؤال آخر، وهو أنّ الآية قد أتت بعبارة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وليس في هذه العبارة دلالة الحتمية في الحكم، أي لا تحتم على المسافر أن يقصر صلاته، فكيف يمكن القول إنّ صلاة القصر واجب عيني للمسافر وليست واجباً تخييرياً؟

الجواب:

لقد وجّه هذان السؤالان إلى أئمّة الإسلام، فأشاروا لدى الإجابة عنهما إلى نقطتين مهمتين:

النّقطة الأُولى: هي أنّ عبارة ﴿لَا جُنَاحَ﴾، أي لا ذنب عليكم، قد استخدمت في بعض الموارد في القرآن الكريم للدلالة على الوجوب، فمثلا في آية: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(١) في حين أنّ جميع المسلمين يعرفون أنّ السعي بين الصفا والمروة واجب سواء في الحج أو العمرة.

وكان النّبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام والمسلمون يؤدّون السعي بعنوان الواجب... وقد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام حديث بهذا المضمون(٢).

وبعبارة أُخرى فإنّ عبارة ﴿لَا جُنَاحَ﴾ - في الآية موضوع البحث وكذلك في آية الحج - جاءت لنفي التحريم، والسبب هو أنّ بعض المسلمين في بدء الإسلام، ولوجود أصنام على جبلي الصفا والمروة، كانوا يظنون أنّ السعي بينهما من عادات وتقاليد الوثنيين، في حين أنّه لم يكن كذلك، فجاءت عبارة - ﴿لَا جُنَاحَ﴾ في الآية المذكورة لرفع الوهم الحاصل.

وكذلك في حالة المسافر، من الممكن أن يتوهّم البعض أنّ قصر الصّلاة في السّفر قد يعتبر نوعاً من المعصية، فجاء القرآن الكريم في الآية بعبارة ﴿لَا جُنَاحَ﴾ لرفع هذا الوهم أيضاً.

والنّقطة الثّانية: هي أنّ بعض الرّوايات قد أشار إلى أنّ قصر الصّلاة في السّفر نوع من التسهيل الإلهي، ويقتضي الأدب أن لا يرد هذا التسهيل ولا يتجاهل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٤٢.

وفي روايات أهل السنّة نقل عن النّبي ﷺ أنّه قال في موضوع قصر الصّلاة: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[١].

كما ورد مثل هذا الحديث في مصادر الشّيعة حيث ينقل الإمام الصّادق عليه السلام عن النّبي ﷺ قوله بأن: الإفطار في السّفر وقصر الصّلاة فيه هديتان إلّهيّتان فمن انصرف عنهما أصبح رادّاً لهدية الله[٢].

أمّا النّقطة الثّالثة: التي يجب الانتباه لها فهي أنّ بعض المسلمين قد تصوروا أنّ الآية (١٠١) من سورة النساء تبيّن حكم صلاة الخائف (أثناء الحروب وأمثال ذلك) ويستدلون لذلك بعبارة ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ الواردة في الآية، ولكن جملة ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيها مفهوم عام يشمل كل أنواع السّفر سواء كان من الأسفار الاعتيادية أو كان سفراً من أجل الجهاد، والذي تناولته الآية التالية بصورة مستقلة.

إذن فعبارة (إن خفتم) - وكما أسلفنا - تعتبر نوعاً من القيود أو الشروط الغالبة، حيث إنّ أغلب أسفار المسلمين في ذلك الزمان كانت مشوبة بالخوف والخطر - لذلك فلا دلالة على اقتصار الآية على الصّلاة في حالة الخوف، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الخوف من هجوم العدو موجود أثناء الحروب وليس في محلّه أن يقال لمن في ساحة الحرب (إن خفتم) من هجوم العدو، وهذا دليل آخر على أنّ الآية تشير إلى جميع أنواع السّفر التي يحتمل أن يوجد فيها بعض الأخطار على المسافر.

كما يجب التنبيه إلى أنّ شروط صلاة المسافر لم ترد في القرآن، كما لم ترد شروط وأوصاف بقية الأحكام الإسلامية فيه أيضاً، بل أشارت إلى ذلك السنّة الشريفة.

ومن هذه الشروط أنّ صلاة القصر لا تجب في الأسفار التي لا تبلغ المسافة فيها ثمانية فراسخ، لأنّ المسافر في تلك الأيّام كان يقطع في اليوم الواحد مسافة الثمانية فراسخ بصورة اعتيادية.

والشرط الآخر هو أنّ المسافر الذي يتّخذ من السّفر حرفة لنفسه أو جزءاً من برنامج حياته اليومية مستثنى من القصر في الصّلاة، لأنّ السّفر بالنسبة إلى أمثال هؤلاء أمر اعتيادي، وليس أمراً استثنائياً.

---

(١) جاء هذا الحديث في سنن البيهقي، ج ٣، ص ١٣٤ نقلاً عن صحيح مسلم، كما ورد في كتب التفاسير والفقه أيضاً.

(٢) وسائل الشيعة ج ٨، ص ٥٢٠.

كما أنّ من يسافر من أجل ارتكاب معصية، لا يكون مشمولاً بحكم صلاة المسافر، أي لا يجوز له القصر في الصّلاة، والسبب هو أن حكم القصر يعتبر نوعاً من التسهيل الإلهي، ولا يمكن أن يشمل هذا التسهيل من يسير في طريق معصية الله.

كما أنّ أي مسافر لم يصل إلى حدّ الترخيص (أي إلى النقطة التي لا يمكن سماع صوت أذان المدينة فيها، أو لا يمكن مشاهدة أسوار المدينة عندها) لا يمكنه أن يقصر صلاته، لأنّه في هذه الحالة لا يعد خارجاً عن حدود المدينة ولا يعتبر في عداد المسافرين.

وبالإضافة إلى ما ذكر هناك أحكام أُخرى ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل، وقد ذكرت الأحاديث التي وردت في هذا الأمر كتب الحديث.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

سبب النّزول

نزل النّبي ﷺ مع عدد من المسلمين أرض الحديبية - وهم في طريقهم إلى مكّة - فسمعت قريش بذلك فبعثت بخالد بن الوليد على رأس زمرة من مئتي شخص لاعتراض طريق النّبي ﷺ والمسلمين الذين معه ومنعهم من الوصول إلى مكّة، فاستقرّ خالد والذين رافقوه في الجبال القريبة من مكّة.

ولما كان موعد صلاة الظهر، أذّن بلال، فصلّى النّبي ﷺ بالمسلمين جماعة، فشاهد خالد بن الوليد صلاة المسلمين ففكر في خطّة للهجوم على المسلمين، وأخبر جماعته أن يغتنموا فرصة أداء المسلمين لصلاة العصر التي يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم، فيباغتونهم بهجوم خاطف وهم في الصّلاة ويقضون عليهم.

وفي هذه الأثناء نزلت الآية بحكم صلاة الخوف التي تصون المسلمين من كل هجوم خاطف.

وهذه الآية إحدى معاجز القرآن الكريم حيث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه وبذلك أفشلت خطة العدو، ويقال بأنّ خالداً أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه(١).

التّفسير

بعد آيات الجهاد السابقة تبيّن هذه الآية للمسلمين طريقة صلاة الخوف التي تؤدّى في ساحة الحرب، فتخاطب الآية النّبي ﷺ قائلة: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ...﴾ فإذا سجدت جماعة وانقضت الركعة الأُولى من الصّلاة، على النّبي أن يقف في مكانه فتؤدّي الجماعة - سريعاً - الركعة الثّانية وتعود إلى ساحة القتال لمواجهة العدو.

وتأتي بعد ذلك الجماعة الثّانية التي لم تصلّ بعد، وتأخذ مكان الجماعة الأُولى فتصلّي مع النّبي: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ...﴾ وعلى الجماعة الثّانية أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

وتشير الآية إلى أنّ أداء الصّلاة بهذا الأُسلوب من أجل أن يبقى المسلمون في مأمن من أي هجوم مباغت قد يقوم به العدو عليهم، لأنّه يتحين الفرص دائماً لتنفيذ هذا الهجوم، ويتمنى لو تخلى المسلمون وغفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم ليشنّ عليهم حملته الغادرة: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً...﴾.

ولما كان حمل السلاح والوسائل الدفاعية الأُخرى صعباً أثناء أداء الصّلاة في بعض الأحيان مثل أن يكون بعض المسلمين يعانون من ضعف بدني أو مرضي أو جراحات تحملوها من ساحة القتال، فيشق عليهم بذلك حمل السلاح أو وسائل الدفاع الأخرى، لذلك تأمر الآية في الختام قائلة: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

(١) تفسير التبيان، ج ٣، ص ٣١١.

وهذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيهم من وسائل الدفاع كالدروع، وأمثالها حتى في حالة وجود العذر كالضعف أو المرض، وذلك لحماية أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآية: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

ملاحظات جديرة بالإنتباه

١ - واضح أنّ الهدف من وجود النّبي ﷺ بين المسلمين في حال إقامة صلاة الخوف، لا يعني أنّ هذه الصّلاة لا تقام إلاّ بوجود النّبي ﷺ، بل القصد والهدف هنا في الآية هو أن يكون للمقاتلين والمجاهدين إمام أو قائد يتقدمهم ويؤمهم في صلاة الجماعة أثناء الحرب، ومن هذا المنطلق نرى الإمام علياً والإمام الحسين عليهما السلام قد أقاما صلاة الخوف، كما أنّ العديد من قادة الجيوش الإسلامية كحذيفة قد قاموا بهذه العبادة الإسلامية في ساعات الضرورة(١).

٢ - والآية تأمر المجموعة الأُولى بأن تحتفظ بسلاحها أثناء أداء صلاة الخوف، لكنها تقول للمجموعة الثّانية أن لا تلقي أرضاً بوسائلها الدفاعية كالدروع والأسلحة الأُخرى.

ومن المحتمل أن يكون الفرق بين هاتين المجموعتين أنّ العدو قد لا يكون على علم بعد بخطة المسلمين أثناء أداء المجموعة الأُولى لصلاتها، وفي هذه الحالة يكون احتمال هجوم العدو على المسلمين ضعيفاً، أمّا بالنسبة للمجموعة الثانية - حين ينتبه العدو لمراسم الصّلاة - فيكون هجومه على المسلمين أكثر احتمالاً.

٣ - إنّ القصد من الاحتفاظ بالمتاع المطلوب من المسلمين في الآية - موضوع البحث - هو أن يراقب المسلمون وسائلهم الأُخرى الحربية والشخصية والغذائية والحيوانات التي جلبوها لتكون غذاء لهم، بالإضافة إلى الدفاع عن أنفسهم.

٤ - من الواضح أنّ أداء الصّلاة جماعة ليست واجبة في الإسلام، لكنّها من المستحبات المؤكدة كثيراً، وهذه الآية تعتبر أحد الأدلة الحية على التأكيد بالنسبة لأهميّة مراسيم صلاة الجماعة في الإسلام، بحيث إنّ هذه الصّلاة - صلاة الجماعة - تقام حتى في ساحة الحرب بالاستفادة من أسلوب وطريقة صلاة الخوف، ويستدل من هذا الموضوع على أهميّة الصّلاة نفسها بالإضافة إلى أهميّة إقامتها جماعة.

---

(١) تفسير كنز العرفان، ج ١، ص ١٩١.

ومن الطبيعي أن يكون لصلاة الجماعة تأثير نفسي ومعنوي على المقاتلين من زاوية التنسيق في الهدف، كما أنّ لها تأثيراً على العدو - أيضاً - حين يرى أنّ المسلمين حتى وهم في ساحة القتال يهتمون بواجباتهم الدينية.

كيفية صلاة الخوف

لا يبدو في الآية - موضوع البحث - التوضيح اللازم لكيفية أداء صلاة الخوف. وهذا هو أُسلوب القرآن إذ يبيّن كليات الحكم، ويترك شرح الأحكام للسنّة الشريفة.

وطريقة أداء صلاة الخوف - كما توضحها السنّة - هي أن تتحول الصّلاة الرباعية إلى صلاة ثنائية، أي تحويل صلاة الظهر أو العصر مثلاً التي هي أربع ركعات في كل منهما إلى صلاة بركعتين، فتصلي المجموعة الأُولى ركعة واحدة مع الإمام، ثمّ يتوقف الإمام بعد أداء الركعة الأُولى فتؤدّي المجموعة الأُولى الركعة الثانية فرادى، ثمّ تعود إلى جبهة القتال، فتأتي المجموعة الثانية لتأخذ مكان المجموعة الأُولى خلف الإمام، فتؤدّي الركعة الأُولى جماعة مع الإمام وتؤدّي الركعة الثّانية فرادى (وقد وردت طرق أُخرى لأداء صلاة الخوف، ولكن أشهرها الطريقة التي تحدثنا عنها هنا).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا[1] وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

التّفسير

أهميّة فريضة الصّلاة

بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، وأكدت ضرورة إقامتها حتى في جبهات الحرب، تحث الآية (١٠٣) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر الله بعد أداء الصّلاة، وليذكروا الله حين قيامهم وقعودهم وأثناء نومهم على جنوبهم وليسألوه العون والنصر، والقصد من ذكر الله في حالة القيام والقعود والنوم على الجنبين، يحتمل أن يكون في

(١) «قيام» تارةً يأتي بمعناه المصدري، (ويعنى به حالة القيام) وتارةً يأتي للجمع أي «قائمين» - و«قعود» كذلك أيضاً، فيأتي بمعنى حالة القعود والجلوس، ويأتي بمعنى «قاعدين» للجمع. وفي الآية اعلاه يحتمل كلا الأمرين.

فترات الاستراحة التي تسنح للمسلمين وهم في ساحة الحرب، كما يحتمل أن تكون في الحالات المختلفة للقتال، أي أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه وهو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة الحربية كالقوس والسهم مثلاً.

إنّ هذه الآية تشير في الحقيقة إلى أمر إسلامي مهم، يدل على أنّ أداء الصّلاة في أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر الله في الحالات الأُخرى، فالصّلاة أمر انضباطي يحيي ويجدد روح التوجه إلى الله لدى الفرد، فيستطيع في أوقات أُخرى غير وقت الصّلاة أن يحتفظ بذكر الله في ذهنه، سواء كان في ساحة القتال أو في مكان آخر.

وقد فسّرت هذه الآية في روايات عديدة على أنها تبيّن كيفية أداء الصّلاة بالنسبة للمرضى، أي إنّهم إذا استطاعوا فليؤدوا الصّلاة قياماً، وإن لم يقدروا على ذلك فقعوداً، وإذا عجزوا عن القعود فعلى أحد جنبيهم.

وهذا التّفسير في الحقيقة نوع من التعميم والتوسع في معنى الآية، ولو أنّها لا تخص هذا المجال[1].

وتؤكد هذه الآية أنّ حكم صلاة الخوف هو حكم استثنائي طارىء، وعلى المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدّوا صلاتهم بالطريقة المعتادة ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وتوضح الآية في النهاية سر التأكيد على الصّلاة بقولها إن الصّلاة فريضة ثابتة للمؤمنين وإنّها غير قابلة للتغيير: ﴿. . . إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

إنّ عبارة «موقوت» من المصدر «وقت»، وعلى هذا الأساس فإن الآية تبيّن أنّه حتى في ساحة الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأنّ للصّلاة أوقاتاً محددة لا يمكن تخطّيها[2].

ولكن الروايات العديدة التي وردت في شرح هذه الآية تبيّن أنّ عبارة «موقوتاً» تعني «ثابتاً»[3] و«واجباً»[4] ممّا لا ينافي مفهوم الآية أيضاً، والنتيجة هي أنّهما قريبين من المعنى الأوّل.

---

(١) للإطلاع أكثر على الأحاديث التي وردت في هذا المجال راجع كتاب نور الثقلين ج ١، ص ٥٤٥.

(٢-٣) ويؤيد كتاب كنز العرفان، في ج ١، ص ٥٩، هذا المعنى، كما جاء في تفسير التبيان وفي مجمع البيان أيضاً ذكر هذا الأمر. اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٧٠؛ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٨ و ٢٩.

(٤) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٤٧؛ وتفسير الدر المنثور، ج ٢، ص ٢١٥.

سؤال:

يقول البعض: إنّهم لا ينكرون فلسفة وأهمّية الصّلاة وآثارها التربوية، ولكنهم يسألون عن ضرورة إقامتها في أوقات محددة، ويرون أنّ الأحسن أن يترك الناس أحراراً لكي يؤدّي كل منهم الصّلاة متى ما سنحت له الفرصة أو متى ما وجد استعداداً روحياً لأداء هذه الفريضة؟

الجواب:

إنّ التّجربة قد أثبتت أنّ القضايا التربوية لو لم تخضع لشروط وقيود معينة، فإنّ العديد من الناس سيتجاهلون ويتركون هذه القضايا، وسيؤدّي هذا التجاهل إلى أن تتزلزل أركانها، لذلك فإن القضايا التربوية يجب أن تخضع لقيود خاصّة ويخصص لأدائها أوقات محددة، وأن لا يسمح لأحد بتخطي هذه القيود أو تجاهل تلك الأوقات، خاصّة وأنّ أداء فريضة كالصّلاة وفي وقت معين وبصورة جماعية، يظهر عظمتها وهيبتها وتأثيرها القوي الذي لا يمكن لأحد نكرانه، والصّلاة في الحقيقة من أهم العوامل في تربية الإنسان وتكوين شخصيته الإنسانية.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

سبب النّزول

قرع السّلاح بسلاح يشابهه

روي عن ابن عباس ومفسّرين آخرين أنّ النّبي ﷺ - بعد الأحداث الأليمة لواقعة أُحد - صعد إلى جبل أُحد وكان على الجبل أبوسفيان، فخاطب النّبي بلهجة الفاتح بقوله: «يا محمّد يوم بيوم بدر!» وعنى أبو سفيان بذلك أنّ انتصارهم في أُحد كان مقابل هزيمتهم في واقعة بدر.

فطلب النّبي ﷺ من المسلمين أن يردوا عليه فوراً، ولعل النّبي أراد أن يثبت لأبي سفيان أنّ من تربّوا في ظل الرسالة الإسلامية يتمتعون بكامل الوعي، فرد المسلمون على أبي سفيان: هيهات أن يستوي الوضع بين المؤمنين والمشركين، فشهداء المؤمنين في الجنّة وقتلى المشركين في النّار.

فأجاب أبو سفيان - صارخاً ومفتخراً - بالعبارة التالية:

«لنا العزّى ولا عزّى لكم» فردّ عليه المسلمون:

«الله مولانا ولا مولى لكم» ولما عجز أبوسفيان عن الردّ على هذا الجواب والشعار الإسلامي الحي تخلى عن صنمه «العزى» وعرج على صنم آخر هو «هبل» متوسلاً إليه بقوله: «أُعل هبل، أُعل هبل» فردّ عليه المسلمون بجواب قوي علّمهم إياه نبي الإسلام ﷺ وهو: «الله أعلى وأجلّ».

فلما أعيت أبا سفيان الحيلة ولم تجدِه شعاراته الوثنية نفعاً قال صارخاً: «موعدنا في أرض بدر الصغرى».

عاد المسلمون من ساحة القتال مثخنين بالجراح، وحين كان يعتصرهم الألم من أحداث أُحد، نزلت الآية المذكورة أعلاه محذرة المسلمين من الغفلة عن المشركين مطالبة إياهم بملاحقة قوى الشرك دون كلل أو ملل، وأن لا يتأثروا بحوادث مؤلمة كحادثة أُحد، فهبّ المسلمون وهم في تلك الحالة لملاحقة العدو، فما أن سمع المشركون بعزم المسلمين حتى أسرعوا الخطى مبتعدين عن المدينة وعادوا إلى مكّة[1].

إنّ سبب النّزول هذا يعلّمنا أنّ المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذي يستخدمه العدو، وأن يواجهوا كل أسلوب حربي يتبعه العدو، سواء الأسلوب القتالي أو النفسي بأسلوب إسلامي أقوى وأعنف من أسلوب العدو، وأن يواجهوا منطق الأعداء بمنطق أقوى وأشد، ويقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، وحتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، وبغير ذلك فإنّ الرياح ستجري بما يشتهيه الأعداء.

ومن هذا المنطلق، فإنّنا نحن المسلمين - بدلاً من أن نجلس ونذرف الدموع على ما مر ويمرّ علينا من أحداث مؤلمة مريرة، وما تشهده مجتمعاتنا من مفاسد رهيبة تحيط بها من كل جانب، علينا أن نبادر بصورة فعالة إلى العمل، فنواجه العدوان المكتوب بكتابات تدحضه وتقمعه، ونواجه الإعلام الضال المسموم المضلل بأسلوب إعلامي يحبطه ويقضي على أمره، ونقابل مراكز اللهو الخليع ببناء مراكز للهو البريء السليم لشبابنا وأبنائنا، ونقرع الأفكار والأطروحات والمذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالفكر الإسلامي الجامع بأُسلوب عصري يفهمه الجميع.

---

(١) تفسير التبيان، ج ٣، ص ٣١٤، تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٨٠.

وإذا استطعنا أن نواجه أعداءنا بهذه الصورة فقد أفلحنا في الحفاظ على كياننا الإسلامي، وفي أن نبرز للعالم بشكل مجتمع تقدمي أصيل.

التّفسير

أعقبت الآية - موضوع البحث هذه - الآيات السابقة التي تحدثت عن الجهاد والهجرة واستهدفت إحياء روح التضحية والفداء لدى المسلمين بقولها: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ وهذا تأكيد على ضرورة أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود باسلوب دفاعي، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائماً، لأنّ هذا الأسلوب الأخير له أثر قامع للعدو ومؤكد على معنوياته.

وقد جرّب المسلمون هذا الأمر في مواجهتهم للعدو بعد واقعة أُحد التي هزموا فيها، فأرغموا العدو على الفرار مع أنّه كان لم يزل يتلذذ بطعم الانتصار الذي أحرزه في أُحد. إذ لما علم المشركون بقدوم المسلمين خافوا من العودة إلى ساحة القتال، وأسرعوا مبتعدين عن المدينة.

بعد ذلك تأتي الآية باستدلال حي وواضح للحكم الذي جاءت به، فتسأل المسلمين لماذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر في ساحة الجهاد فإنّ عدوكم سيصيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق، وهو أنّ المسلمين يأملون أن يعينهم الله ويشملهم برحمته الواسعة، بينما الكافرون لا يرجون ولا يتوقعون ذلك، حيث تقول الآية: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

وفي الختام - ومن أجل إعادة التأكيد - تطلب الآية من المسلمين أن لا ينسوا علم الله بجميع الأُمور، فهو يعلم معاناة المسلمين ومشاكلهم وآلامهم ومساعيهم وجهودهم، ويعلم أنّهم أحياناً يصابون بالتهاون والفتور، فتقول الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وسيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

سبب النّزول

لقد نقلوا واقعة مفصلة عن سبب نزول الآيتين المذكورتين، خلاصتها أنّ في قبيلة بني

الأبيرق المعروفة نسبياً كان ثلاثة أشقاء هم بشر وبشير ومبشر سطا أحدهم وهو بشير على دار أحد المسلمين ويدعى «رفاعة» فسرق سيفه ودرعه وكمية من الغذاء، وكان ابن أخيه ويدعى «قتادة» من مجاهدي بدر فأخبر النّبي ﷺ بالواقعة.

ولكن الأشقاء الثّلاثة اتهموا شخصاً من المسلمين اسمه لبيد الذي كان يسكن في دار واحد معهم، فتألم لبيد ألماً شديداً من هذه التهمة الباطلة واستل سيفه وتوجه إلى الأشقاء الثلاثة صارخاً في وجوههم قائلاً: «أتتهمونني أنا بالسّرقة وأنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أُولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النّبي وتنسبون أبيات الهجو إلى قريش، فإمّا أن تثبتوا ما تنسبونه لي من تهمة، أو أهوي بسيفي على رؤوسكم».

فلمّا رأى إخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء لبيد ولكنّهم لمّا علموا أنّ القضية قد وصلت إلى أسماع النّبي بواسطة قتادة لجأوا إلى أحد متكلمي قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النّبي ويتظاهر بأنّ الحق إلى جانبهم ليبرىء السارق ويتهم قتادة بتلفيق التهمة على شقيقهم، وقد قبل النّبي ﷺ - استناداً إلى واجب العمل بظاهر الأُمور - شهادة تلك المجموعة وأنّب قتادة على عمله.

وقد تألم «قتادة» الذي كان يعرف نفسه بريئاً... من هذه الواقعة وعاد إلى عمّه وأخبره بالحادث مظهراً أسفه الكبير لما حصل، فخفف عليه عمّه وقال: «لا تحزن يا قتادة إنّ الله في عوننا» فنزلت الآيتان المذكورتان لتعلنا براءة الرجل، وتؤنّبا مرتكبي الخيانة الحقيقيين(١).

ونقلوا - أيضاً - واقعة أُخرى في سبب نزول الآيتين، وهي أنّ درعاً لأحد الأنصار كانت قد سرقت في إحدى الحروب، وكان الشك يدور على شخص من قبيلة الأبيرق في سرقة ذلك الدرع، ولما علم السارق بأنّ الشكوك بدأت تدور حوله رمى بالدرع في دار أحد اليهود، وطلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته أمام النّبي ﷺ ويستدلوا بذلك على وجود الدرع في دار اليهودي، ولمّا رأى النّبي ﷺ الأمر بتلك الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التي جاءت لصالحه وأُدين الرجل اليهودي بسرقة الدرع، فنزلت الآيتان المذكورتان لتوضحا الحقيقة(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٨١ و ١٨٢، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) المصدر السابق.

التفسير

منع الدّفاع عن الخائنين:

يعرف الله سبحانه وتعالى - في بداية الآية (١٠٥) من سورة النساء - نبيّه محمّداً ﷺ بأنّ الهدف من إنزال الكتاب السماوي هو تحقيق مبادىء الحق والعدالة بين الناس، إذ تقول الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

ثمّ يحذّر النّبي ﷺ من حماية الخائنين بقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

ومع أنّ الآية خطاب للنّبي ﷺ، ولكن ممّا لا شك فيه أنّ هذا الحكم حكم عام لجميع القضاة والمحكمين، وبهذا الدليل فإنّ مثل هذا الخطاب ليس المفهوم منه أنّ النّبي ﷺ تبدر منه مثل هذه الأعمال، لأنّ الحكم المذكور يشمل جميع الأفراد.

أمّا الآية الأُخرى فهي تأمر النّبي ﷺ بطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، إذ تقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وحول سبب الاستغفار المطلوب في هذه الآية توجد احتمالات عديدة، هي:

الأوّل: إنّ الاستغفار هو لترك الأولى الذي حصل بسبب الاستعجال في الحكم في القضية التي نزلت بسببها الآيتان، أي مع أنّ ذلك القدر من الاعتراف، وشهادة الطرفين كان كافياً لإصدار الحكم من قبل النّبي ﷺ، إلاّ أنّه كان من الأحرى أن يجري تحقيقاً أكثر في ذلك المجال.

والثّاني: هو أنّ النّبي ﷺ قد حكم في تلك القضية وفقاً لقوانين القضاء الإسلامي، وبما أنّ الأدلة التي جاء بها الخائنون كانت بحسب الظاهر أقوى، لذلك أعطى الحق لهم، وبعد انكشاف الحقيقة ووصول الحق إلى صاحبه يأتي الأمر بطلب المغفرة من الله، ليس لذنب مرتكب، بل لتعرض حق فرد مسلم لخطر الزوال بسبب خيانة البعض من الأشخاص (أي أن الاستغفار بحسب الاصطلاح - لأجل الحكم الحقيقي لا الحكم الظاهري).

وقد احتمل البعض أن يكون الاستغفار مطلوباً من طرفي الدعوى اللذين ظهر منهما الخلاف في عرض ومتابعة دعواهما.

وفي حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إليّ ولعل

بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من نار»[1].

يتبيّن لنا من هذا الحديث أنّ النبي ﷺ مكلّف بالحكم وفقاً لظاهر القضية واستناداً إلى أدلة طرفي الدعوى، وبديهي أنّ الحق في مثل هذه الحالة يصل إلى صاحبه، ويحتمل أحياناً أن لا ينطبق ظاهر الدليل وشهادة الشهود مع الحقيقة، فيجب الانتباه هنا إلى أنّ حكم الحاكم لا يغير من الحقيقة شيئاً فلا يصبح الحق باطلاً ولا الباطل حقاً.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾

التّفسير

بعد الآيات التي جاءت بتحريم الدّفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيرة في التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين، بالأخص أُولئك الذين يخونون أنفسهم.

ويجب الانتباه هنا إلى أن الآية (١٠٧) تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذي عرفنا من سبب نزول الآيات السابقة، هو أنّها نزلت في شأن الذين يخونون الغير، وفي هذا إشارة إلى ذلك المعنى الدقيق الذي ينبه إليه القرآن في العديد من الآيات، وهو أن أي عمل يصدر عن الإنسان يتأثر بنتيجته - سواء كانت حسنة أو سيئة - الإنسان ذاته قبل غيره، كما جاء في الآية (٧) من سورة الإسراء، إذ تقول: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾.

أو أنّ الآية المذكورة تشير إلى موضوع آخر أكّد عليه القرآن أيضاً، وهو أنّ جميع أفراد البشر هم جميعاً كأعضاء جسد واحد، فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضرّ بنفسه، أي يكون بالضبط كالذي يصنع نفسه بنفسه.

---

(١) تفسير المنار، ج ٥، ص ٣٩٤، نقلاً عن صحيحي مسلم والبخاري، ج ٨، ص ١١٢.

والأمر الآخر في الآية أنّها لا تخص الذين يرتكبون الخيانة لمرّة واحدة ثمّ يندمون على ما فعلوا، حيث لا ضرورة لاستعمال العنف والشدة مع هؤلاء، بل هم بحاجة إلى الرأفة أكثر، والشدّة يجب أن تطبق على أُولئك الذين يحترفون الخيانة وتكون جزءاً من حياتهم.

ويدل على هذه القرينة الواردة في الآية من خلال عبارة (يختانون) التي هي فعل مضارع يدل على الاستمرارية، بالإضافة إلى القرينة الأُخرى التي تفهم من عبارتي (خوّان) أي كثير الخيانة و(أثيم) أي كثير الذّنب، والكلمة الأخيرة جاءت لتأكيد عبارة «خوان» في الآية، كما أنّ الآية السابقة جاءت بكلمة «خائن» التي هي اسم فاعل والتي لها معنى وصفي يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون في الآية الأُخرى إلى التوبيخ، حيث قالت إن هؤلاء يخجلون أن تظهر بواطن أعمالهم وسرائرهم وتنكشف إلى الناس، لكنهم لا يخجلون لذلك من الله سبحانه وتعالى، إذ تقول الآية: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخطط الخيانية في ظلام الليل، والتحدث بما لا يرضي الله الذي يراهم ويراقب أعمالهم، أينما كانوا: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

بعد ذلك تتوجه الآية (١٠٩) من سورة النساء بالحديث عن شخص السارق الذي تمّ الدفاع عنه، وتقول بأنّه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء في الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامة، أي من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلاً ليرتب أعمالهم ويحل مشاكلهم؟! حيث تقول الآية: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾. ولذلك فإنّ الدفاع عن هؤلاء الخونة في الدنيا ليس له إلاّ الأثر القليل، لأنّهم سوف لا يجدون أبداً من يدافع عنهم أمام الله في الحياة الآخرة الخالدة.

والحقيقة أنّ الآيات الثلاث الأخيرة تحمل في البداية إرشادات إلى النّبي ﷺ وإلى كل قاض يريد أن يحكم بالحق، بأن ينتبهوا حتى يفوّتوا الفرصة على أُولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين، عبر وسائل مصطنعة وشهود مزورين.

بعد ذلك تحذر الآية الخائنين ومن يدافع عنهم، بأن ينتظروا عواقب سيئة لأعمالهم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضاً.

وفي تلك الآيات سر من أسرار البلاغة القرآنية، حيث إنّها أحاطت بجميع جوانب

القضية وأعطت الإرشادات والتحذيرات اللازمة في كل مورد، مع أنّ موضوع القضية يبدو موضوعاً صغيراً بحسب الظاهر، إذ يدور حول درع مسروقة أو مواد غذائية أو يهودي من أعداء الإسلام.

وقد تناولت الآية - أيضاً - الإشارة إلى النّبي ﷺ الذي يعتبر إنساناً معصوماً عن الخطأ، كما أشارت إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانة، أو الذين يدافعون عن الخائنين اندفاعاً وراء عصبيات قبلية، إشارات تتناسب ومنزلة الأشخاص المشار إليهم في الآيات المذكورة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

التّفسير

لقد بيّنت هذه الآيات الثلاث، ثلاثة أحكام كلية بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى مسائل خاصّة بالخيانة والتهمة.

١ - لقد وردت في الآية (١١٠) من الآيات الثلاث أعلاه الإشارة أوّلاً إلى هذه الحقيقة وهي أن باب التوبة مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلماً بحقّ نفسه أو غيره، وندم حقيقة على فعلته، أو استغفر الله لذنبه، وكفّر عن خطيئته فسيجد الله غفوراً رحيماً، حيث تقول الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢ - يجب الانتباه إلى أنّ الآية الأُولى تشير إلى نوعين من الذنوب، حيث جاءت فيها كلمة «سوء» وكلمة «الظلم» للنفس، ولدى النظر إلى قرينة المقابلة، وكذلك الأصل اللغوي لعبارة «سوء» التي تعني هنا الإضرار بالغير، يفهم من الآية أنّ أي نوع من الذنوب - سواء كانت من نوع الإضرار بالغير، أو الإضرار بالنفس قابلة للغفران إذا تاب فاعلها توبة حقيقية وسعى إلى التكفير عنها.

ويفهم - أيضاً - من العبارة القرآنية: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أنّ التوبة الحقيقية لها

من الأثر بحيث يجد الإنسان التائب نتيجتها في باطن نفسه، فمن ناحية، إنّ تأنيب الضمير الذي يخلقه ارتكاب الذّنب يزول عن المذنب التائب نظراً للغفران الذي يناله من الله الغفور، ومن ناحية أُخرى يحسّ الإنسان التائب بالقرب إلى الله بسبب رحمته سبحانه وتعالى بعد أن كان يحس بالبعد عنه بسبب الذنب الذي ارتكبه.

٣ - إنّ الآية الثانية من الآيات الثلاث الأخيرة، تحكي نفس الحقيقة التي وردت بصورة إجمالية في الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ أي ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته في النهاية على المذنب نفسه، ويكون قد أضرّ ذنبه بنفسه، إذ تقول الآية: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

وفي آخر الآية تأكيد على أنّ الله عالم بأعمال العباد، وهو حكيم يجازي كل إنسان بما يستحقه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وبالصورة المارة الذكر فإنّ الذنوب مهما اختلفت في الظاهر، فإنّ اضرارها ستلحق أحياناً بالغير وتلحق أحياناً أُخرى بمرتكبها، ولكن بالتحليل النهائي، فإنّ الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه، وإنّ الآثار السيئة للذنب تظهر قبل كل شيء في روح ونفس الشخص المذنب.

٤ - أمّا الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة، فهي تشير إلى خطورة خطيئة اتهام الناس الأبرياء، إذ تقول: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وقد قسمت هذه الآية الذنب الذي يرتكبه شخص وينسبه زوراً إلى غيره، إلى قسمين: سمت الأوّل بالخطيئة، والثّاني بالإثم.

وقد قال المفسّرون الكثير في شأن الفرق بين هذين النوعين من الذنب، وأقرب الأقوال إلى الذهن هو أنّ الخطيئة مشتقة من الخطأ، والذي يعني في الأصل: الزلل أو الذنب الذي يصدر دون قصد من صاحبه، ويكون أحياناً مشمولاً بالكفارة والغرامة لكن معنى الخطيئة قد توسع تدريجياً، وأخذ يشمل كل ذنب سواء المتعمد أو غير المقصود، حيث إنّ روح الإنسان لا تحتمل الذنب - أكان عمداً أو عن غير عمد - وحين يصدر الذنب من الإنسان إنّما هو في الحقيقة نوع من الزلل والخطأ الذي لا يناسب مقامه كإنسان.

والنتيجة من هذا القول أنّ الخطيئة لها معنى واسع يشمل الذنب المتعمد والذنب

الصادر عن غير عمد، أمّا كلمة «إثم» فتطلق عادة على الذنوب الصادرة عن عمد، وتعني - في الأصل - ذلك الشيء الذي يمنع الإنسان من عمل معين، ولما كانت الذنوب تحول دون وصول الخيرات إلى الإنسان فقد سمّيت «إثماً».

وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية استخدمت كناية جميلة بالنسبة للتهمة، وهي أنّها جعلت الذنب في هذا المجال كالسهم، وجعلت نسبته إلى الغير زوراً بمثابة رمي السهم صوب الهدف، وهذه إشارة إلى أنّه في حين أن تصويب السهم نحو إنسان آخر قد يؤدّي إلى القضاء عليه، فإنّ رمي الإنسان البريء بذنب لم يقترفه يكون بمثابة رميه بسهم يقضي على سمعته التي هي بمنزلة دمه.

وبديهي أنّ وزر وعاقبة هذا العمل تكونان في النهاية - وإلى الأبد - على عاتق الشخص الذي ينسب التهمة زوراً إلى غيره، وأن عبارة «احتمل» الواردة في الآية، وتعني أخذ على عاتقه، إنّما جاءت للدلالة على ثقل وبقاء هذه المسؤولية!

جريمة البهتان

إنّ اتهام إنسان بريء يعتبر من أقبح الأعمال التي أدانها الإسلام بعنف، وإنّ الآية المذكورة أخيراً التي وردت بهذا الشأن - بالإضافة إلى الروايات الإسلامية العديدة التي إلى جانبها - توضح رأي الإسلام الصريح عن هذا العمل.

ينقل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام أن أحد الحكماء قال: «إن البهتان على البريء أثقل من جبال راسيات»(١) ونقل عنه عليه السلام قوله: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء» أي إنّ الإيمان يذوب ويزول من قلب المؤمن بسبب اتهامه لأخيه المؤمن، كما يذوب الملح في الماء ويزول عن النظر(٢).

فالتهمة والبهتان - في الحقيقة - هما أقبح أنواع الكذب، لأنّهما بالإضافة إلى احتوائهما لمفاسد الكذب، فإنّهما أيضاً يحملان أضرار الغيبة، وهما كذلك من أسوأ أنواع الظلم والجور ولهذا السبب يقول صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الخصوص: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيهما ما ليس فيهما أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج ممّا قاله»(٣).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٩٤؛ وسفينة البحار، الجزء الأوّل ص ١١١، في مادة بهت.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦١؛ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٠٢ باب التهمة وسوء الظن.
(٣) سفينة البحار، ج ١، ص ١١١؛ تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢٩.

وحقيقة الأمر أنّ إشاعة مثل هذا العمل الجبان - في أي محيط إنساني كان - يؤدّي في النهاية إلى انهيار نظام العدالة الاجتماعية، واختلاط الحق بالباطل، وتورط البريء وتبرئة المذنب، وزوال الثقة من بين الناس.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

التّفسير

في هذه الآية الكريمة إشارة أُخرى إلى حادثة بني الأبيرق التي تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النّزول في آيات سابقة، وهذه تؤكّد أنّ الله قد صان النّبي ﷺ بفضله ورحمته - سبحانه وتعالى - من كيد بعض المنافقين الذين كانوا يأتمرون به ﷺ ليحرفوه عن طريق الحق والعدل، فكانت رحمة الله أقرب إلى نبيّه فصانته من كيد المنافقين، حيث تقول الآية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

لقد سعى أُولئك المنافقون - من خلال اتهامهم لشخص بريء وجرّ النّبي وتوريطه في هذه الحادثة - إلى إلحاق ضربة بشخصية النّبي ﷺ الاجتماعية والمعنوية أوّلاً، وتحقيق مآربهم الدنيئة في حق إنسان مسلم بريء ثانياً، ولكنّ الله العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيّه ﷺ من تلك المؤامرة وأحبط عمل المنافقين.

ويذكر بعض المفسّرين سبباً آخر لنزول هذه الآية وهو أنّ جماعة من قبيلة بني ثقيف وردوا على النّبي ﷺ فذكروا له أنّهم مستعدون لمبايعته بشرطين: الأوّل هو أن يرغم أفراد هذه القبيلة على كسر أصنامهم بأيديهم، والثّاني أن يسمح النّبي لهم بأن يواصلوا عبادة صنمهم العزى لسنة واحدة أُخرى! فنزل أمر الله على النّبي ﷺ أن لا يبدي أية مرونة أمام هؤلاء، حيث نزلت الآية المذكورة وأعلنت بأن فضل الله ورحمته قد شملت النّبي ﷺ وصانته من تلك الوساوس(١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٨٨، ذيل الآية مورد البحث.

بعد ذلك تذكر الآية أنّ هؤلاء القوم إنّما يرمون بأنفسهم في الضلالة ولا يضرّون بعملهم النّبي ﷺ شيئاً، إذ تقول... ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

وأخيراً توضح الآية سبب عصمة النّبي ﷺ عن الخطأ والزلل والذنب، فتذكر أنّ الله أنزل على نبيّه الكتاب والحكمة وعلّمه ما لم يكن يعلم من قبل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ ثمّ تردف الآية ذلك بجملة: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

مصدر عصمة الأنبياء

إنّ هذه الآية الأخيرة من الآيات التي تشير إلى عصمة النّبي ﷺ عن ارتكاب الخطأ والسهو والذنب، فتقول بأنّ العون الإلهي الذي شمل النّبي ﷺ هو الذي صانه من الخطأ والضلالة اللتين أراد المنافقون أن يوقعوه فيهما، ولكنّهم وبفضل هذه المعونة الإلهية عجزوا عن تحقيق مآربهم، ولم يلحق النّبي ﷺ أي ضرر نتيجة كيد المنافقين.

وهكذا فقد عصم الله نبيّه وصانه من كل خطأ أو سهو أو ذنب، كي يستطيع النّبي ﷺ أن يصبح قدوة وأسوة للأُمّة الإسلامية ونبراساً لها في فعل الخيرات والحسنات، وقد صانه الله العزيز القدير من عواقب كل خطأ يحتمل أن يقع فيه أي زعيم، لكي يبعد الأُمّة الإسلامية عن الحيرة في قضية إطاعة الرّسول ﷺ، وليجنبها التناقض بين فعلي الطاعة وعدمها، نعم لقد عصم الله نبيّه محمّداً ﷺ من كل خطأ، لكي يضمن له ثقة المسلمين الكاملة به، حيث تعتبر هذه الثقة من أولويات شروط الزعامة الإلهية.

وقد ورد في آخر الآية دليل من الأدلة الأساسية لقضية العصمة بشكل مجمل، وهذا الدليل هو قوله تعالى إنّه علّم نبيّه ﷺ من العلوم والمعارف التي يكون النّبي في ظلها مصوناً من الوقوع في أي خطأ أو زلل، ولأنّ العلم والمعرفة تكون نتيجتهما في المرحلة النهائية حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

فالطبيب - مثلاً - لا يقدم أبداً على شرب ماء ملوث بأنواع الجراثيم الفتاكة، بعد أن أجرى عليه الفحوصات المخبرية واكتشف تلوثه بتلك الجراثيم الخطيرة.

نستنتج من هذا المثل أنّ علم الطب الذي تعلمه هذا الطبيب، هو السبب في حفظه ومنعه من شرب الماء الملوث بالجراثيم القاتلة، فقد وفّر هذا العلم العصمة والصيانة

للطبيب حيال ارتكاب مثل هذا الخطأ، لكن الإنسان الذي يجهل خطورة ذلك الماء يحتمل كثيراً أن يقدم على شربه.

وهكذا يتبيّن أنّ مصدر الكثير من الأخطاء هو الجهل بمقدمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه، لذلك فإنّ من يحاط عن طريق الوحي الإلهي إحاطة كاملة بالقضايا المختلفة ومقدماتها ومستلزماتها وعواقبها لن يقع في خطأ، ولن يرتكب أي زلل أبداً، ولن يضل الطريق، ولن يمارس ذنباً مطلقاً.

ويجب أن لا نقع في الوهم هنا، فإنّ هذا العلم الذي بحوزة النّبي ﷺ من جانب الله سبحانه وتعالى ليس عملاً مفروضاً ولا يحمل طابع القسر والإجبار، أي إنّ النّبي ﷺ ليس مجبوراً أبداً على أن يعمل بعلمه، بل إنّه يمارس عمله بكامل اختياره، كما أنّ الطبيب الذي ذكرناه في مثلنا السابق مع علمه بحالة الماء الملوث فإنّه ليس مرغماً على عدم شرب هذا الماء، بل هو بإرادته المطلقة يمتنع عن شربه.

وإذا تساءل أحد: لماذا شمل الله نبيّه وحده بهذا الفضل الإلهي، ولم يشمل الآخرين؟

كان **الجواب**: إنّ ذلك قد حدث للمسؤولية العظيمة والخطيرة التي تتضمنها القيادة التي أُنيطت بالنّبي ﷺ وحمل أعباءها الثقيلة على عاتقه، ولأنّ الآخرين لا يحملون مثل هذه الأعباء الثقيلة، لذلك فإنّ الله اللّطيف الخبير يهب لعبده من القدرة والطاقة بمقدار ما يضع على عاتق هذا العبد من مسؤوليات، ولن يكلف الله نفساً إلاّ وسعها فيجب التعمق في هذا الأمر.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

التّفسير

النجوى أو الهمس

لقد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سرية شيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشباههم، وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى هذا الأمر بشيء من التفصيل، وكلمة

«النجوى» لا تعني الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سري أيضاً، لأنّها مشتقة من المادة «نجوه» على وزن «دفعة» أي بمعنى الأرض المرتفعة، وبما أنّ الأرض المرتفعة تكون شبه معزولة عن الأراضي التي حولها، وأنّ الجلسات السرية والهمس يتمّان بمعزل عن الأفراد الذين يكونون في الأراضي المحيطة بها سمّيت هذه الأخيرة بالنجوى.

ويرى بعضهم أنّ كلمة «النجوى» مشتقة من مادة «النجاة» أي التحرر، وبمعنى أنّ البقعة المرتفعة تكون بمنأى ومنجى عن خطر السيل، وأنّ الاجتماع السري أو الهمس يكونان بمنجى من معرفة الآخرين.

والآية هنا تذكر أنّ أغلب الاجتماعات السرّية التي يعقدها أُولئك تهدف إلى غايات شيطانية شريرة لا خير فيها ولا فائدة، إذ تقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

ولكي لا يحصل وهم من أنّ كل نجوى أو همس أو اجتماع سري يعتبر عملاً مذموماً أو حراماً جاءت الآية بأمثال كمقدمة لبيان قانون كلي، وأوضحت الموارد التي تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصي الإنسان بصدقة أو بمعونة للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فإذا كان هذا النوع من النجوى أو الهمس أو الاجتماعات السرّية لا يشوبه الرياء والتظاهر، بل كان مخصصاً لنيل مرضاة الله، فإنّ الله سيخصص لمثل هذه الأعمال ثواباً وأجراً عظيماً، حيث تقول الآية: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد عرَّف القرآن النجوى والهمس والاجتماعات السرّية - من حيث المبدأ - بأنّها من الأعمال الشّيطانية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾(١) والسبب أنّ هذه الأعمال غالباً ما تحدث لأغراض سيئة، وحيث إنّ عمل الخير والشيء النافع والإيجابي لا يحتاج في العادة إلى أن يكون - أو يبقى - سرّياً أو مكتوماً عن الناس، لذلك فلا حاجة للتحدث عن مثل هذه الأعمال بالهمس والنجوى، أو في اجتماعات سرّية.

ولمّا كان من المحتمل أن تطرأ ظروف استثنائية تجبر الإنسان على الاستفادة من أسلوب النجوى في أعمال الخير، لذلك ورد الاستثناء بصورة مكررة في القرآن، كما

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[١].

والنجوى إذا حصلت ابتداءً في جمع من الناس، أثارت لديهم سوء الظّن حيالها، حتى إنّ سوء الظن قد يبدر من الأصدقاء حيال النجوى التي تحصل بينهم، وعلى هذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلاّ إذا اقتضت الضرورة ذلك، وهذه فلسفة هذا الحكم الوارد في القرآن.

وبديهي أنّ سمعة الإنسان تستلزم - أحياناً - اتباع أُسلوب النجوى، ومن جملة هذه الموارد تأتي مسألة الصدقات أو المعونات المالية، التي أجاز القرآن استخدام النجوى بشأنها لحفظ ماء الوجه وسمعة الأشخاص الذين يتلقون هذه المعونات.

والمجال الآخر للنجوى هو عند الأمر بالمعروف، حيث إنّ هذا الأمر لو تمّ أحياناً بصورة علنية لأصبح سبباً في فضيحة أو خجل الشخص المخاطب بالمعروف بين الناس الحاضرين، وقد يصبح سبباً في أن يمتنع عن قبول ذلك ويقاوم هذا الأمر الذي عبّرت عنه الآية بالمعروف.

والحالة الأُخرى التي يجوز فيها النجوى هي في مجال الإصلاح بين الناس، الذي يقتضي أن يكون سرياً أحياناً لضمان تحقيقه، إذ من الممكن لو أنّ الأمر تمّ بصورة علنية لحال دون حدوث الإصلاح، لذلك يجب أن يتمّ الإصلاح بالتحدث إلى كل طرف من أطراف النزاع بصورة خفية، أي بطريق النجوى.

إذن فالنجوى جائزة وقد تكون ضرورية في الحالات الثلاث التي مر الحديث عنها، وكذلك في حالات مشابهة.

والملفت للنظر في الحالات الثلاث المذكورة أعلاه أنّها تأتي كلها ضمن معنى «الصدقة» وذلك لأنّ من يأمر بالمعروف إنّما يدفع زكاة علمه، ومن يسعى في إصلاح ذات البين يدفع بذلك زكاة قدرته ومنزلته المؤثرة في الناس.

وقد نقل عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إنّ الله فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم»[٢].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٩.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥٠، وفي كتب أُخرى للتفسير.

ونقل عن النّبي ﷺ قوله لأبي أيوب: «ألا أدلك على صدقة يحبّها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا»(١).

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

سبب النّزول

لقد قلنا في سبب نزول الآية السابقة: إنّ بشير بن الأبيرق كان قد سرق من أحد المسلمين، واتهم إنساناً بريئاً بهذه السرقة، واستطاع بالأجواء المزيفة التي اختلقها أمام النّبي ﷺ أن يبرىء نفسه، ولكن حين نزلت تلك الآيات افتضح أمره، فبدلاً من أن يختار طريق التوبة بعد فضيحته، سار في طريق الكفر وارتد عن الإسلام بصورة علنية.

فنزلت الآية الأخيرة متضمنة إشارة إلى هذا الموضوع، بالإضافة إلى بيانها لحكم إسلامي عام وكلي(٢).

التّفسير

حين يرتكب الإنسان خطأ ويدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقين:

أحدهما: طريق العودة والتوبة التي أشارت الآيات السابقة إلى أثرها في غسل الذنوب عن الإنسان.

والطّريق الثّاني: أن يسلك الإنسان سبيل العناد، وقد أشارت الآية الأخيرة إلى الآثار والعواقب السيئة لهذا الطريق، حيث أعلنت أنّ من يواجه النّبي ﷺ بالعناد والمخالفة بعد وضوح الحق له، ويسير في طريق غير طريق المؤمنين فإنّ الله سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق، وسيرسله الله في يوم القيامة إلى جهنم، وما أسوأ هذا المكان الذي ينتظره! فتقول الآية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٣٨٥ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٨٩، ذيل الآية مورد البحث.

ويجب الانتباه إلى أنّ عبارة (يشاقق) مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنى المخالفة الصريحة المقرونة بالحقد والضغينة وتؤكّد جملة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ هذا المعنى أيضاً، وفي الحقيقة فإنّ من يكون هذا شأنه فلن يلقى مصيراً خيراً ممّا ذكرته الآية له، مصير ينطوي على نهاية مشؤومة له في هذه الدنيا وعاقبة سيئة أليمة في الدار الآخرة، فهو في الدنيا - كما تقول الآية - يستمر منجرفاً في الطريق الأعوج الذي اختاره، فتتوسع بذلك زاوية انحرافه عن جادة الحق والصواب، وهذا الطريق هو الذي اختاره لنفسه والبناء الذي وضع أساسه بيده، ولهذا لم يكن قد وقع عليه أيّ ظلم من الخارج.

وأمّا بالنسبة لقول الآية: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ فهو إشارة إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوي لتمييز الحقّ، وإلى مواصلتهم السير في طريق الضلالة(١).

وحين تقول الآية: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ فهي تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة.

وهناك تفسير آخر حول جملة ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ وهو أنّ هؤلاء وأمثالهم، يوكل أمرهم إلى الآلهة المصطنعة التي انتخبوها لأنفسهم.

حجية الإجماع

يعتبر الإجماع أحد الأدلة الفقهية الأربعة، وهو بمعنى اتفاق علماء ومفكري الإسلام حول مسألة فقهية، وذكروا في علم أصول الفقه أدلة مختلفة لإثبات حجية الإجماع، ومن ضمنها الآية الأخيرة التي مرّ البحث في تفسيرها، إذ يعتبرها البعض دليلاً على حجية الإجماع لأنّها تقول أنّ من يختار طريقاً غير طريق المؤمنين سيكون له مصير مشؤوم أسود في الدنيا والآخرة.

وبناء على هذه الآية، فإنّ أيّ طريق يختاره المؤمنون - في أي مسألة كانت - يجب على الجميع السير فيه.

والحقيقة أنّ هذه الآية لا صلة لها بمسألة حجية الإجماع، لا من قريب ولا من بعيد (وطبيعي أنّنا نقبل حجّية الإجماع الذي يكشف لنا عن قول المعصوم، ولكننا نعتبر حجية السنّة وقول المعصوم دليلاً لحجية هذا الإجماع، وليس الآية المذكورة).

---

(١) وقد بيّنا تفاصيل هذا الموضوع لدى الحديث عن تفسير الهداية والضلالة ذيل الآية ٢٦ من سورة البقرة من تفسيرنا هذا.

والسبب في عدم قبولنا دلالة هذه الآية على حجية الإجماع، هو أنّها تعين أوّلاً: عقوبات للأشخاص الذين يخالفون النّبي صراحة وعن علم وإدراك، ويختارون طريقاً غير طريق المؤمنين، فهذان العنصران يشكّلان باتحادهما العلّة لذلك المصير المشؤوم، مع التأكيد بأن هذا المصير إنّما يتحقق لدى اختيار الشخص للعنصرين المذكورين عن علم ودراية. وليس لهذا الموضوع أية صلة بمسألة حجية الإجماع، ولا يدل بوحده على هذه الحجية.

والأمر الثّاني: هو أنّ المقصود بعبارة ﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواردة في الآية، هو طريق التوحيد والخضوع لله وحده، وهو مبدأ الإسلام، وليس معناه الفتاوى الفقهية أو الأحكام الفرعية، وهذه الحقيقة يثبتها ظاهر الآية بالإضافة إلى ما قيل في سبب نزولها.

والحقيقة أنّ السير في طريق غير طريق المؤمنين لا يتجاوز عن كونه مخالفة للنّبي، وكلا العنصرين يعودان إلى موضوع واحد.

وينقل أنّه حين كان أميرالمؤمنين علي عليه السلام في الكوفة، جاءه جمع من الناس وطلبوا منه أن يعين لهم إماماً لصلاة الجماعة (لكي يصلوا خلفه صلاة التراويح جماعة، حيث كان عمر بن الخطاب في زمانه قد أمر بأن تصلّى هذه الصّلاة جماعة) فما كان من الإمام إلاّ أن امتنع عن الاستجابة لهم، ونهى عن إقامة جماعة كتلك (لأن الجماعة لم تشرع في النوافل) لكن هذه الجماعة التي سمعت الحكم الصريح الحازم من الإمام علي عليه السلام أصرّت على عنادها، وأخذت بالصراخ والعويل، داعية الناس إلى الاحتجاج على حكم الإمام.

فجاءت جماعة أُخرى إلى الإمام علي عليه السلام وأخبرته بما أخذ يفعله أُولئك القوم وبعصيانهم لأمره، فطلب أن يتركوا وشأنهم ليختاروا من شاءوا ليصلّي بهم تلك الجماعة غير الشرعية[1] ثمّ تلا الإمام هذه الآية الأخيرة، وفي هذا الخبر دليل آخر على التّفسير الذي تحدثنا عنه بالنسبة لهذه الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥١؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٧.

التّفسير

الشّرك ذنب لا يغتفر

تشير هذه الآية مرة أُخرى إلى خطورة جريمة الشرك الذي يعتبر ذنباً لا يغتفر ولا يتصور وجود ذنب أعظم منه، ويأتي هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين والمرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر.

ولقد مرّ ما يشابه مضمون هذه الآية، في نفس سورة النساء في الآية (٤٨) وما إعادة تكرار مثل هذه المسائل التربوية إلا دليل على بلاغة القرآن، لأنّ المسائل الأساسية تستلزم التكرار في فواصل مختلفة بغية ترسيخها في الأذهان والنفوس.

والحقيقة أنّ الذنوب تشبه سائر الأمراض، فما دام المرض لم يهاجم موقعاً مهماً في جسم الإنسان ولم يشل أحد هذه المواقع، كانت القدرة الدفاعية للجسم تحمل معها الشفاء والتحسن، ولكن لو هاجم المرض مركزاً حساساً في جسم الإنسان - مثل الدماغ - وأوجد نتيجة لذلك شللاً في الجسم، فإنّ أبواب الأمل بالشفاء والتحسن قد تغلق في مثل هذه الحالة التي تنذر بقدوم الموت المحتم.

والشرك كهذا المرض الأخير يشل مركزاً حساساً في روح الإنسان، وينشر الظلمة في نفسه، وإذا استمر الشرك فلا أمل يرتجى في نجاة الإنسان، بينما لو بقيت حقيقة التوحيد وعبادة الواحد الأحد - التي هي ينبوع كل فضيلة وحركة - حية، فلا يعدم الإنسان الأمل في غفران ذنوبه الأُخرى، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وقد قلنا بأنّ هذه الآية قد تكررت مرّتين في هذه السورة، وما ذلك إلاّ لتزيل آثار الشرك والوثنية - وإلى الأبد - من نفوس أُولئك الناس الذين ظل الشرك يعشعش في أعماق نفوسهم لآماد طويلة، ولتظهر آثار التوحيد المعنوية والمادية على وجوه هؤلاء.

ولكن تتمة الآيتين تختلف في إحداهما عن الأُخرى اختلافاً طفيفاً، حيث تقول الآية الأخيرة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ بينما الآية السابقة تقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

وفي الحقيقة فإنّ الآية السابقة تشير إلى الفساد العظيم الذي ينطوي عليه الشرك فيما يخص الجانب الإلهي، ومعرفة الله، أمّا الآية الأخيرة فقد بيّنت الأضرار التي يلحقها

الشرك بنفس الإنسان والتي لا يمكن تلافيها، فهناك تبحث الآية في الجانب العلمي من القضية، وهنا تتناول الآية الجانب العملي منها ونتائجها الخارجية.

ويتّضح من هذا أنّ الآيتين تعتبر إحداهما بالنسبة للأُخرى بمثابة اللازم والملزوم بحسب الاصطلاح (وقد اشتمل المجلد الثّالث من نفس هذا التّفسير على توضيحات أكثر حول هذه الآية).

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا
(١١٧) لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ
وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ
ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا
مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُو۟لَٰٓئِكَ
مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾

التّفسير

مكائد الشّيطان

إنّ الآية الأُولى - من مجموع الآيات الخمس الأخيرة - تشرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآية السابقة لهذه الأخيرة، وهذه الآية إنّما تبيّن سبب ضلال المشركين، فتذكر أنّهم يعانون من ضيق شديد في أفق تفكيرهم، إذ يتركون عبادة الله خالق ومنشىء عالم الوجود الوسيع، ويخضعون أمام المخلوقات التي لا تملك أقل أثر إيجابي في الوجود، بل هي أحياناً مضللة كالشّيطان: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

وممّا يلفت النظر أنّ هذه الآية تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و«شيطان مريد».

وكلمة «إناث» مشتقة من المصدر «أنث» على وزن «أدب» وتعني المخلوق الرقيق اللّطيف والمرن، ولهذا السبب فإنّ العرب تقول: «أنث الحديد» إذا لان في النار، وقد سمي جنس المرأة بـ«الإناث» لأنّها أكثر رقّة ولطفاً وليناً من الرجل.

لكن بعض المفسّرين يرى هنا أنّ القرآن يشير في هذه الآية إلى أصنام كانت معروفة لدى قبائل العرب حيث انتخبت كل قبيلة صنماً من هذه الأصنام ووضعت له اسماً مؤنثاً. فالصنم «اللاّت» سمّي هكذا ليكون مؤنثاً لكلمة لفظ الجلالة «الله»، أمّا الصنم «عزى» فهو مؤنث كلمة «أعز» وكذلك أصنام أُخرى مثل «مناة» و«نائلة».

بينما يرى البعض الآخر من كبار المفسّرين أنّ القصد من كلمة «إناث» الواردة في الآية ليس المعنى المعروف بالمؤنث، بل إنّ القصد منها هو الجذر اللغوي الذي اشتقت منه هذه اللّفظة، أي أنّ المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفة ومطاوعة بين يدي الإنسان، وأنّ وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر والانحناء أمام الأحداث، وبعبارة أوضح: إنّها موجودات لا تملك الإرادة والاختيار ولا تنفع ولا تضرّ شيئاً أبداً.

أمّا كلمة «مريد» وهي من حيث الجذر اللغوي مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى سقوط أوراق وأغصان الشجر، ولهذا سمّي الشاب اليافع الذي لم ينبت الشعر في وجهه بالأمرد، وعلى هذا فإنّ الشيطان المريد يعني ذلك الشيطان الذي سقطت منه جميع صفات الفضيلة، ولم يبق في وجوده شيء من مصادر القوّة.

أو قد تكون هذه الكلمة مأخوذة من الأصل «مرود» بمعنى الطغيان والجبروت، أي إنّ معبود هؤلاء الوثنيين هو شيطان متكبر متجبر.

والحقيقة أنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف الإرادة مطلقاً، والبعض الآخر طاغ متكبر متجبر، لكي يبيّن أنّ الذي يسلم قياده ويخضع لمثل هذه الأصنام إنّما يعيش في ضلال واضح مبين.

بعد ذلك كله تشير الآية إلى صفات الشيطان وأهدافه وعدائه الخاص لأبناء آدم وتتناول بالشرح بعضاً من خططه الدنيئة، وقبل كل شيء تؤكّد أنّ الله قد أبعد الشيطان عن رحمته (لعنه الله).

وفي الحقيقة فإنّ أساس شقاء وتعاسة الشيطان هو البعد عن رحمة الله، التي أصابته بسبب غروره وتكبره المفرطين، وبديهي أنّ من يكون بعيداً عن رحمة الله كالشيطان، يكون خاوياً من كل خير أو حسن، ولا يمكنه أن يترك خيراً أو حسناً في حياة غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه، فهو لن يكون عديم النفع فحسب، بل سيكون ضاراً أيضاً.

ثمّ تذكر الآية التالية أنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خططه:

أوّلها: أن يأخذ من عباد الله نصيباً معيناً، حيث تقول الآية حاكية قول الشيطان:

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فالشيطان يعلم بعجزه عن إغواء جميع عباد الله، لأنّ من يستسلم لإرادة الشيطان ويخضع له هم فقط أُولئك المنجرفون وراء الأهواء والنزوات، والذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

والثّانية: خطط الشيطان تلخصها الآية بعبارة: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ .

والثّالثة: شغلهم بالأُمنيات العريضة وطول الأمل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾(١) .

أمّا الخطّة الرّابعة: ففيها يدعو الشيطان أتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق آذان الحيوانات كما جاء في الآية: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وهذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التي كان يرتكبها الجاهليون المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون آذان بعض المواشي، وكانوا يحرّمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أي نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحيوانات.

وخامس: الخطط التي أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، ما ورد على لسانه في الآية إذ تقول: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذه الجملة تشير إلى أنّ الله قد أوجد في فطرة الإنسان - منذ خلقه إياه - النزعة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات والخصال الحميدة الأُخرى، ولكن وساوس الشيطان والانجراف وراء الأهواء والنزوات تبعد الإنسان عن الطريق المستقيم الصحيح، وتحرفه إلى الطرق المعوجة الشاذة.

والشاهد على هذا القول أيضاً الآية (٣٠) من سورة الرّوم، إذ تقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ .

ونقل عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه فسّره بأنّ القصد من التغيير المذكور في هذه الآية من سورة النساء هو تغيير فطرة الإنسان وحرفها عن التوحيد وعن أمر الله(٢) .

وهذا الضرر الذي لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنّه يعكس له الحقائق والوقائع ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والخرافات والوساوس التي تؤدّي إلى تغيير السعادة بالشقاء للناس، وقد أكّدت الآية في آخرها مبدأً كلياً، وهو

---

(١) إنّ عبارة «ولأُمنّينهم» تعود إلى المصدر «منى» على وزن «منع» وتعني قياس الشيء أو تقييمه، ولكنّها ترد في أغلب الأحيان لتعني القياس والتقييم والآمال الوهمية والخيالية أمّا النطفة التي تسمّى بـ«منيّ» فمعناها أن قياس تركيب أولى الموجودات الحسية قد تمّ فيها.

(٢) تفسير التبيان، ج ٣، ص ٣٣٤.

أنّ أي إنسان يعبد الشيطان ويجعله لنفسه ولياً من دون الله، فقد ارتكب إثماً وذنباً واضحاً إذ تقول الآية: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

والآية التي تلت هذه الآية جاءت ببعض النقاط بمثابة الدليل على ما جاءت به الآية السابقة حيث ذكرت أنّ الشيطان يستمر في إعطائه الوعود الكاذبة لأولئك ويمنّيهم الأُمنيات الطوال العراض، ولكنه لا يفعل شيئاً بالنسبة لهؤلاء غير الإغواء والخداع: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١).

وبيّنت آخر آية من الآيات الخمس الأخيرة مصير أتباع الشيطان، بأنّهم ستكون نتيجتهم السكنى في جهنم التي لا يجدون منها مفراً أبداً، فتقول الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

التّفسير

لقد بيّنت الآيات السابقة أنّ الذين يتخذون الشيطان ولياً لهم، إنّما ينالهم ضرر واضح ومبين، وأنّ الشيطان يعدهم زيفاً وخداعاً ويلهيهم بالأُمنيات الواهية الخيالية الطويلة العريضة، وأن وعد الشيطان مكر وخداع لا غير.

أمّا في هذه الآية الأخيرة - التي هي موضوع بحثنا الآن - فقد بيّنت مقابل أُولئك في النهاية أعمال المؤمنين والثواب الذي سينالونه يوم القيامة، من جنّات وبساتين وأنهار تجري فيها، حيث تقول الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

---

(١) الغرور يعني في الأصل الأثر الواضح للشيء، ولكنه يطلق في الغالب على الآثار التي لها ظاهر خادع وباطن كريه، ويطلق على كل شيء يخدع الإنسان مثل المال والجاه والسلطان التي تبعد الإنسان عن الحق وعن جادة الصواب على أنّه مادة للغرور.

(٢) المحيص مشتق من المصدر «حيص» ويعني العدول والانصراف عن الشيء، وعلى هذا الأساس فإنّ المحيص هو وسيلة الانصراف والفرار.

وإنّ هذه النعمة العظيمة دائمة أبداً، وليست زائلة كنعم الدنيا، فالمؤمنون في الجنّة يتمتعون بما أُوتوه من خير دائماً أبداً، يؤكّد هذا بعبارة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

وإنّ هذا الوعد وعد صادق وليس كوعود الشيطان الزّائفة، حيث تقول الآية: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

وبديهي أنّ أي فرد لا يستطيع - أبداً - أن يكون أصدق قولاً من الله العزيز القدير في وعوده وفي كلامه، كما تقول الآية: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ وطبيعي أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن العجز وإمّا عن الجهل والحاجة، والله سبحانه وتعالى منزّه عن هذه الصفات.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير مجمع البيان - وتفاسير أُخرى - أنّ المسلمين وأهل الكتاب كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض، فكان أهل الكتاب يتباهون بكون نبيّهم قد بعث قبل نبيّ الإسلام وأنّ كتابهم أسبق من كتاب المسلمين، بينما كان المسلمون يفتخرون على أهل الكتاب بأنّ نبيّهم هو خاتم الأنبياء وأنّ كتابه هو آخر الكتب السماوية وأكملها(١).

وفي رواية أُخرى، نقل أنّ اليهود كانوا يدّعون أنّهم هم الشعب المختار، وأنّ نار جهنم لا تمسّهم إلاّ لأيّام معدودات، كما ورد في سورة البقرة الآية (٨٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وأنّ المسلمين كانوا يقولون، ردّاً على كلام اليهود هذا - بأنّهم خير الأمم لأنّ الله قال في شأنهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢) ولذلك نزلت الآية الأخيرة هذه ودحضت كل تلك الدعاوى وحددت قيمة كل شخص بما يقوم به من أعمال(٣).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٩٧، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٧٦.

التّفسير

امتيازات حقيقية وأخرى زائفة

لقد بيّنت هذه الآية واحداً من أهم أعمدة أو أركان الإسلام، وهو أنّ القيمة الوجودية لأي إنسان وما يناله من ثواب أو عقاب، لا تمتّ بصلة إلى دعاوى وأُمنيات هذا الإنسان مطلقاً، بل إنّ تلك القيمة ترتبط بشكل وثيق بعمل الإنسان وإيمانه وأنّ هذا مبدأ ثابت، وسنّة غير قابلة للتغيير، وقانون تتساوى الأُمم جميعها أمامه، ولذلك تقول الآية في بدايتها: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وتستطرد فتقول: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

وكذلك الذين يعملون الخير، ويتمتعون بالإيمان، سواء أكانوا من الرجال أو النساء - فإنّهم يدخلون الجنّة ولا يصيبهم أقل ظلم أبداً، حيث تقول الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(١).

وبهذه الصورة يعمد القرآن إلى نبذ كل العصبيات بكل بساطة، معتبراً الاعتبارات والارتباطات المصطنعة الخيالية والاجتماعية والعرقية وأمثالها خاوية من كل قيمة إذا قيست برسالة دينية، ويعتبر الإيمان بمبادىء الرسالة والعمل بأحكامها هو الأساس.

وفي تفسير الآية الأُولى من الآيتين الأخيرتين حديث نقلته مصادر الشيعة والسنّة، مفاده أنّ المسلمين حين نزلت هذه الآية استولى عليهم الرعب وأخذوا يبكون خوفاً، لمعرفتهم بأنّ الإنسان معرض للخطأ ويحتمل كثيراً صدور ذنوب منه، فلو فرض عدم وجود عفو أو غفران وأن يؤاخذ كل إنسان بجريرته، فإنّ الأمر سيكون في غاية الصعوبة، لذلك لجأوا إلى النبي ﷺ فذكروا له أنّ هذه الآية قد أفقدتهم كل أمل، فأقسم النّبي لهم بالله إنّه ما جاءت به الآية هو الصحيح، ولكنه بشّرهم بأنّها ستكون خير محفز لهم للتقرب إلى الله والقيام بالأعمال الصالحة، وأنّ ما سيصيبهم من محن ومصائب وآلام - حتى لو كانت من وخز شوكة - سيكون كفارة لذنوبهم(٢).

---

(١) لقد أوضحنا المراد من عبارة «نقير» في تفسير الآية ٥٣ من نفس هذه السورة.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥٣.

سؤال:

من الممكن أن يستدل البعض من الجملة القرآنية التالية: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ على أن قضية الشفاعة ونظائرها قد أُلغيت بهذه الآية بصورة تامّة، فيعتبرونها دليلاً لإلغاء الشفاعة بصورة مطلقة.

الجواب:

لقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الشفاعة لا تعني أنّ الشفعاء من أمثال الأنبياء والأئمة والصالحين لهم جهاز أو تنظيم مستقل يقابل قدرة الله، بل الصحيح أنّ الشفعاء لا يشفعون لأحد إلاّ بإذن الله، وعلى هذا الأساس فإنّ مثل هذه الشفاعة ستعود في النهاية إلى الله وتعتبر فرعاً من ولاية ونصرة وعون الله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

التّفسير

لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان والعمل، كما بيّنت أن اتّباع أي مذهب أو شريعة غير شرع الله لا يغني الإنسان شيئاً، والآية الحاضرة تداركت كل وهم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقة، فأوضحت أفضلية شريعة الإسلام وتفوقها على سائر الشرائع الموجودة، حيث قالت: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

ومع أنّ هذه الآية قد جاءت بصيغة الاستفهام، إلاّ أنّها تهدف إلى كسب الاعتراف من السامع بالحقيقة التي أوضحتها.

لقد بيّنت الآية - موضوع البحث - أُموراً ثلاثة تكون مقياساً للتفاضل بين الشرائع وبياناً لخيرها:

١ - الاستسلام والخضوع المطلق لله العزيز القدير، حيث تقول الآية: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾[1].

(١) الوجه في اللغة هو مقدمة الرأس، أو ذلك الجزء من البدن الذي يشمل الجبهة والعينين والأنف والفم=

٢ - فعل الخير، كما تقول الآية: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ والمقصود بفعل الخير - هنا - كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله، وفي حديث عن النّبي ﷺ ذكره صاحب تفسير الثقلين في تفسيره للآية - هذه - وهو جواب لمن سأل النّبي ﷺ تحديد معنى الإحسان، فقال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»(١).

فالإحسان في هذه الآية هو كل عمل ينجزه الإنسان ويقصد به التعبد لله والتقرب إليه، وأن يكون الإنسان لدى إنجازه لهذا العمل قد جعل الله نصب عينيه، وكأنّه يراه، فإن كان هو يعجز عن رؤية الله فإن الله يراه ويشهد على أعماله.

٣ - اتّباع شريعة إبراهيم النقية الخالصة، كما في الآية: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(٢).

ودليل الاعتماد على شريعة إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها في آخرها إذ تقول: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

ما معنى الخليل؟

إنّ كلمة «خليل» قد تكون مشتقة من المصدر «خِلّة» على وزن «حجّة» الذي يعني الصداقة، وقد يكون اشتقاقها من المصدر «خَلة» على وزن «ضربة» بمعنى الحاجة.

وقد اختلف المفسّرون في أنّ أي المعنيين أقرب إلى مفهوم الآية موضوع البحث.

فرأى البعض منهم أنّ المعنى الثّاني أقرب لحقيقة هذه الآية، لأنّ إبراهيم عليه السلام كان يؤمن بأنّه محتاج إلى الله في كل شؤونه بدون استثناء، ولكن مفسّرين آخرين يرون أنّه ما دامت الآية تتحدث عن منزلة وهبها الله لنبيه إبراهيم فالمقصود بكلمة «الخليل» الواردة هو «الصديق» لأننا لو قلنا إنّ الله قد انتخب إبراهيم صديقاً له، يكون أقرب كثيراً إلى

= والجبين، ولما كان الوجه بمثابة مرآة لروح الإنسان وقلبه، وفيه الحواس التي تربط باطن الإنسان بالعالم الخارجي، لذلك جاء في الآية التعبير به عن ذات الإنسان ونفسه.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥٣؛ وبحار الأنوار، ج ٦٢، ص ١١٦.

(٢) إنّ عبارة «ملّة» الواردة في الآية أعلاه تعني «الشريعة أو الدين» والفرق بين الملّة والدين أن الأُولى لا تنسب إلى الله، أي لا يقال «ملّة الله» ويمكن أن تضاف إلى النّبي بينما كلمة الدين أو الشريعة يمكن أن يضافا إلى لفظ الجلالة فيقال: «دين الله» أو «شريعة الله» كما يمكن إضافتهما إلى النّبي أيضاً، وعبارة «حنيف» تعني الشخص الذي يترك الأديان الباطلة ويتبع دين الحق.

الذهن من قولنا إنّ الله انتخب إبراهيم ليكون محتاجاً إليه، لأنّ الحاجة إلى الله لا تقتصر على إبراهيم وحده، بل يشاركه ويساويه فيها جميع المخلوقات، فالكل محتاجون إلى الله دون استثناء، كما تقول الآية (١٥) من سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا على عكس الصداقة والخلّة مع الله التي لا تتساوى فيها كل المخلوقات.

وفي رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «إنّه (الله) إنّما اتّخذ إبراهيم خليلاً لطاعته ومسارعته إلى رضاه لا لحاجة منه سبحانه إلى خلته» وتدل هذه الرواية[1] أيضاً على أنّ عبارة «خليل» الواردة في الآية المذكورة إنّما تعني الصديق ولا تعني غيره.

وعلى هذا الأساس لنرَ ما الذي امتاز به إبراهيم عليه السلام لينال هذه المنزلة العظيمة من الله. لقد ذكرت الروايات الواردة في هذا المجال عللاً مختلفة تكون بمجملها دليلاً لهذا الانتخاب، ومن هذه الروايات قول الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً لأنّه لم يرد أحداً ولم يسأل أحداً غير الله»[2].

وتفيد روايات أُخرى أن إبراهيم قد حاز هذه الدرجة لكثرة سجوده لله، وإطعامه للجياع وإقامة صلاة اللّيل، أو لسعيه في طريق مرضاة الله وطاعته.

بعد ذلك تتحدث الآية التالية بملكية الله المطلقة وإحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ وهذه إشارة إلى أنّ الله حين انتخب إبراهيم عليه السلام خليلاً له، ليس من أجل الحاجة إلى إبراهيم فالله منزّه عن الاحتياج لأحد، بل إن هذا الاختيار قد تمّ لما لإبراهيم من صفات وخصال وسجايا طيبة بارزة لم توجد في غيره.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا (١٢٧)﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٠١، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٧٦؛ وتفسير الصافي ج ١، ص ٥٠٥؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤١٧.

التّفسير

عود على حقوق المرأة

تجيب الآية الأخيرة هذه على أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمين (وبالأخص حول اليتامى منهنّ) فتخاطب النّبي ﷺ وتبيّن له أنّ الله هو الذي يفتي في الأسئلة التي وجهت إليك يا محمّد حول الأحكام الخاصّة بحقوق النساء، فتقول: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.

وتضيف الآية أنّ ما ورد في القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتي كنتم تتصرفون في أموالهنّ، ولم تكونوا لتتزوجوا بهنّ، ولم تدفعوا أموالهنّ إليهنّ لكي يتزوجن من آخرين، فإنّه يجيب على قسم آخر من أسئلتكم ويبيّن لكم قبح ما كنتم تعملون من ظلم بحق هؤلاء النسوة، ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَآءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾(١).

ثمّ توصي الآية الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهلية، فتؤكد ضرورة رعاية حقوقهم، حيث تقول: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾.

كما تعود الآية فتكرر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكر أنّ الله يوصيكم في أن تراعوا العدالة في تعاملكم مع اليتامى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾.

وفي الختام تنبّه الآية إلى أن أي عمل خير يصدر منكم وبالأخص إذا كان في حق اليتامى والمستضعفين - فإنّه لا يخفى على الله - وأنّكم ستنالون أجر ذلك في النهاية، حيث تقول الآية: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

هذا ويجب الالتفات إلى أنّ عبارة (يستفتونك) مشتقة من المصدر «فتوى» أو «فتيا» ومعناها الإجابة على كل سؤال معضل، ولما كانت هذه الكلمة تعود في الأصل إلى كلمة «فتى» أي الشاب اليافع، فمن الممكن أنّ الفتوى كانت تستخدم للتعبير عن الإجابة

---

(١) بناء على التّفسير الذي أوردناه بشأن الآية أعلاه يتبيّن لنا أنّ عبارة «ما يتلى» مبتدأ وخبرها جملة «يفتيكم فيهنّ» التي حذفت للقرينة الموجودة في القسم السابق من الآية. كما أنّ عبارة «ترغبون» هنا تعني عدم الميل والرغبة، حيث تشير القرائن إلى تقدير «عن» بعد عبارة «ترغبون» في هذه الآية والفرق بين «رغب عنه» و«رغب فيه» واضح.

على الأسئلة المستحدثة، وبعد ذلك أصبحت تطلق بصورة شاملة على كل أنواع الأجوبة الخاصّة بالمسائل المنتخبة.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾

سبب النّزول

لقد ورد في الكثير من كتب التّفسير والحديث، في سبب نزول هذه الآية، أنّه كان في زمن النّبي ﷺ شخص يدعى رافع بن خديج وكانت له زوجتان، إحداهما كبيرة السن عجوز، والأُخرى شابة، فطلق رافع زوجته العجوز (إثر خلافات بينهما) لكنه - قبل أن تنتهي عدّتها - عرض عليها الصلح مشترطاً عليها أن لا تضجر إذا قدّم عليها زوجته الشابة، أو أن تصبر حتى تنتهي عدتها فيتم الفصل والفراق بينهما، فقبلت زوجته العجوز الشرط أو الاقتراح الأوّل، فاصطلحا، فنزلت هذه الآية الكريمة مبيّنة حكم هذا العمل[1].

التّفسير

الصّلح خير

لقد قلنا سابقاً - في هامش الآيتين (٣٤ و٣٥) من نفس سورة النساء - إنّ كلمة «نشوز» مشتقة من المصدر «نشز» بمعنى «الأرض المرتفعة» وحين تستخدم هذه العبارة في شأن الرجل والمرأة تعني ذلك «التكبر» و«الطغيان».

وقد بيّنت الآيات السابقة حكم نشوز المرأة، وفي هذه الآية إشارة إلى نشوز الرجل فالآية تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر والإعراض عنها، وتبيّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، وتتصالح مع زوجها، من أجل حماية العلاقة الزوجية من التصدع، فتقول: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٠٥، ذيل الآية مورد البحث.

ولمّا كانت المرأة تتنازل عن بعض حقوقها طوعاً وعن طيب خاطر ومن غير إكراه فلا ذنب في هذا العمل، حيث عبّرت الآية عن ذلك بعبارة ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا ذنب، للدلالة على الحقيقة المذكورة.

وعند النظر إلى سبب نزول الآية، نستخلص منها مسألتين فقهيتين:

الأُولى: إنّ حكماً مثل تقسيم أيّام الأُسبوع بين الزوجات، له طابع الحق أكثر من طابع الحكم، ولذلك فبإمكان المرأة التخلي عن هذا الحق بشكل تام إذا شاءت أو بصورة جزئية.

والمسألة الثّانية: إنّ التراضي والتصالح لا يشترط أن يكون بالمال، بل يصح أن يكون بالتنازل عن حق من الحقوق.

بعد ذلك تؤكد الآية على أنّ الصلح خير وأحسن، حيث تقول: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وهذه الجملة الصغيرة مع أنّها جاءت في مجال الخلافات العائلية، لكنها تبيّن قانوناً كلياً عاماً شاملاً، وتؤكد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل في كل المجالات، وأنّ الخلاف والنزاع والصراع والفراق ليس له وجود في الطبع والفطرة الإنسانية السليمة، ولذلك فلا تسوّغ هذه الفطرة التوسل بالنزاع وما يجري مجراه إلاّ في الحالات الاستثنائية الطارئة.

وهذا الأمر على عكس ما يصوّره الماديون من أنّ الصراع من أجل البقاء هو الأصل في حياة الموجودات الحيّة، ويزعمون أنّ التكامل يحصل من خلال هذا الصراع.

وقد كان هذا النوع من التفكير سبباً في بروز الكثير من النزاعات الدّموية والحروب في القرون الأخيرة، لكن الإنسان لا يقاس بالحيوانات الأُخرى المفترسة بسبب ما يملكه من عقل وإحساس، وإنّ تكامله يتمّ في ظل التعاون وليس في ظل النزاع، ومن حيث المبدأ فإنّ الصراع من أجل البقاء حتى في الحيوانات لا يعتبر مبدأً مقبولاً للتكامل(١).

وتشير الآية بعد ذلك مباشرة إلى أنّ الإنسان بسبب غريزة حبّ الذات التي يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث إنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شيء منها، وهذا هو سبب ومنبع النزاع والصراع، تقول الآية: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

---

(١) من أجل معرفة تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع راجع الجزء الثّاني من هذا التّفسير في فصل «الصراع من أجل البقاء».

ولذلك فلو أحسّ كلّ من الزوجين بأنّ البخل هو منبع الكثير من الخلاف وأدرك حقيقة البخل وأنّه من الصفات القبيحة، وسعى لإصلاح ذات البين وأبدى العفو والصفح، فسوف لا يؤدّي هذا إلى زوال الخلاف والنزاع العائلي فحسب، بل سيؤدي أيضاً إلى إنهاء الكثير من الصراعات الاجتماعية.

ولكي لا يسيء الرجال استغلال هذا الحكم الوارد في الآية، وجّه الخطاب إليهم في نهايتها ودعوا إلى فعل الخير والتزام التقوى، ونبهوا إلى أنّ الله يراقب أعمالهم دائماً فليحذروا الانحراف عن جادة الحق والصواب، تقول الآية في هذا المجال: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾

التّفسير

العدالة شرط في تعدد الزّوجات

نستنتج من الجملة التي وردت في نهاية الآية السابقة - التي تمّ البحث عنها والتي دعت الرجال إلى فعل الخير والتزام التقوى - أنّها تعتبر نوعاً من التهديد للأزواج من الرجال، بأن يراقبوا حالهم ولا ينحرفوا قيد شعرة عن جادة الحق والعدالة لدى التعامل مع زوجاتهم.

وقد يرد اعتراض وهو: إنّ تحقيق العدالة في مجال الحبّ والعلاقات القلبية أمر بعيد المنال، فكيف يمكن إذن والحالة هذه اتباع العدل مع الزوجات؟

ورداً على الاعتراض المذكور توضح الآية (١٢٩) من سورة النساء، بأنّ تحقيق العدالة في مجال الحبّ بين الزوجات أمر غير ممكن، مهما بذل الإنسان من سعي في هذا المجال فتقول الآية: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ويتبيّن من عبارة ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ هذه وجود أشخاص بين المسلمين كانوا يسعون كثيراً لتحقيق تلك

العدالة المطلوبة، ولعل سعيهم ذلك كان من أجل الحكم المطلق الذي طالب المسلمين باتّباع العدل مع زوجاتهم والذي ورد في الآية الثّالثة من سورة النساء، التي تقول: ﴿. . . فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

بديهي أنّ أي حكم سماوي لا يمكن أن ينزل على خلاف فطرة البشر، كما لا يمكن أن يكون تكليفاً بما لا يطاق، ولمّا كانت العلاقات القلبية تنتج عن عوامل يكون بعضها خارجاً عن إرادة الإنسان، لم يحكم الله بتحقيق العدالة في مجال الحبّ القلبي بين الزوجات، أمّا فيما يخص الأعمال وأسلوب التعامل ورعاية الحقوق بين الأزواج ممّا يمكن للإنسان تحقيقه، فقد تمّ التأكيد على تحقيق العدالة فيه.

ولكي لا يسيء الرجال استغلال هذا الحكم، طالبت الآية الرجال بأن لا يظهروا الميل الكامل لإحدى الزوجات إذا تعسر عليهم تحقيق المساواة في حبّهم لهنّ جميعاً، كي لا يضيع حق الأُخريات ولا يحرن في أمرهنّ ماذا يفعلن! حيث تقول الآية: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

وتحذر الآية في آخرها أُولئك الذين يجحفون في حقّ زوجاتهم، وتطالبهم بأن يتبعوا طريق الإصلاح والتقوى، ويعرضوا عمّا فات في الماضي، كي يشملهم الله برحمته وعفوه، فتقول الآية: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

لقد وردت روايات اشتملت على مواضيع تخص مسألة تحقيق العدالة بين الزّوجات، وتبيّن عظمة هذا الحكم والقانون الإسلامي.

من هذه الروايات ما روي عن علي بن أبي طالب أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه كان له امرأتان، فكان إذا كان يوم واحدة لا يتوضأ في بيت الأُخرى[١].

وروي عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام: «أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف به بينهن»[٢].

وكان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتا في الطاعون أقرع بينهما أيّهما تدفن قبل الأُخرى؟[٣] أي أيّهما يقدم أوّلاً في الدفن لكي يتجنب ما من شأنه أن يخدش العدل المفروض اتباعه بين الزوجات.

---

(١) تفسير التبيان، ج ٣، ص ٣٥٠؛ وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر السابق.

جواب عن سؤال ضروري

كنّا قد نوّهنا - في البحث الأول للآية (٣) من نفس هذه السورة - بأنّ بعضاً ممن ليس لهم علم استنتجوا - من ضم تلك الآية إلى هذه الآية - أنّ تعدد الزوجات مشروط بتحقيق العدالة بينهنّ، وأنّه لمّا كان تحقيق العدالة أمراً غير ممكن، فلذلك قالوا بأنّ الإسلام قد منع تعدد الزوجات.

ويفهم من الروايات الإسلامية أنّ أوّل من طرح هذا الرأي هو «ابن أبي العوجاء» وكان من أصحاب المذهب المادي، ومن المعاصرين للإمام الصّادق عليه السلام، وجاء طرحه لرأيه هذا في نقاش له مع المفكر الإسلامي المجاهد هشام بن الحكم فلما أعيى هشاماً الجواب توجه من بلدته الكوفة إلى المدينة المنورة لمعرفة الجواب فقدم على الإمام الصّادق عليه السلام فتعجب الإمام من مقدمه قبل حلول موسم الحج أو العمرة، ولكن هشاماً أخبر الإمام بسؤال ابن أبي العوجاء، فكان جواب الإمام الصّادق عليه السلام عن السؤال هو أنّ المقصود بالعدالة الواردة في الآية الثّالثة من سورة النساء، هي العدالة في النفقة (وضرورة رعاية الحقوق الزوجية وأُسلوب التعامل مع الزوجة) أمّا العدالة الواردة في الآية (١٢٩) من نفس السورة (والتي اعتبر تحقيقها أمراً مستحيلاً) فالمقصود بها العدالة في الميول القلبية، (وعلى هذا الأساس فإن تعدد الزوجات ليس ممنوعاً ولا مستحيلاً إذا روعيت فيه الشروط الإسلامية)، فلما رجع هشام بالجواب إلى ابن أبي العوجاء حلف هذا الأخير أنّ هذا الجواب ليس من عندك(١).

ومعلوم أنّ تفسيرنا لكلمتي العدالة - الواردتين في الآية الثّالثة والآية (١٢٩) من سورة النساء - بمعنيين يختلف أحدهما عن الآخر، إنّما هو للقرينة الواضحة الواردة مع كل من الآيتين المذكورتين، لأنّ الآية الأخيرة تأمر الإنسان أن لا يميل ميلاً شديداً لإحدى زوجاته ويترك الأُخريات في حيرة من أمرهنّ، ولهذا فهي تدل على جواز تعدد الزوجات مع اشتراط أن لا يحصل إجحاف بحق إحداهنّ لحساب الأُخرى، مع الإذعان باستحالة تحقق المساواة في الحب القلبي لكلتا الزوجتين، أمّا في الآية الثّالثة من سورة النساء فقد ورد التصريح في أوّلها بجواز تعدد الزوجات.

---

(١) والجدير بالذكر أنّ هشاماً يتحرك من محل سكناه إلى المدينة المنورة لأجل الحصول على جواب مسألة كي يوصله الى السائل، وهذا درس عظيم لجميع المسلمين وبالأخص للمبلغين الإسلاميين.

أمّا الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهي تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّه لو استحال مواصلة الحياة الزوجية للطرفين - الزوج والزوجة - واستحال الإصلاح بينهما، فإنّهما - والحالة هذه - غير مرغمين على الاستمرار في مثل هذه الحياة المُرّة الكريهة، بل يستطيعان أن ينفصلا عن بعضهما وعليهما اتخاذ موقف شجاع وحاسم في هذا المجال دون خوف أو رهبة من المستقبل، لأنّهما لو انفصلا في مثل تلك الحالة فإنّ الله العليم الحكيم سيغنيهما من فضله ورحمته، فلا يعدمان الأمل في حياة مستقبلية أفضل، فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)﴾

التّفسير

لقد أوضحت الآية السابقة أن الزوجين إذا اقتضت الضرورة أن ينفصلا عن بعضهما دون أن يجدا حلاً بديلاً عن الانفصال فلا مانع من ذلك، وليس عليهما أن يخافا من حياة المستقبل، لأنّ الله سيشملهما بكرمه وفضله، ويزيل احتياجهما برحمته وبركته.

أمّا في الآية - موضوع البحث - فإنّ الله يؤكّد قدرته على إزالة ورفع تلك الاحتياجات، لأنّه مالك ما في السموات وما في الأرض ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإنّ من يملك ملكاً لا نهاية له كهذا الملك، ويملك قدرة لا نفاد لها أبداً، لن يكون عاجزاً - مطلقاً - عن رفع احتياجات خلقه وعباده.

ولكي تؤكّد الآية ضرورة التقوى في هذا المجال وفي أي مجال آخر، تشير الآية إلى أنّ اليهود والنصارى وكل من كان له كتاب سماوي قبل المسلمين قد طلب منهم جميعاً

كما طلب منكم مراعاة التقوى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

بعد ذلك تتوجه الآية إلى مخاطبة المسلمين، فتؤكّد لهم أنّ الالتزام بحكم التقوى سيجلب النفع لهم، وأن ليس لله بتقواهم حاجة، كما تؤكّد أنّهم إذا عصوا وبغوا، فإنّ ذلك لا يضرّ الله أبداً، لأنّ الله هو مالك ما في السّموات وما في الارض، فهو غير محتاج إلى أحد أبداً، ومن حقّه أن يشكره عباده دائماً وأبداً، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

الغنى وعدم الحاجة هما من صفات الله سبحانه وتعالى - حقيقة - لأنّه عزّ وجلّ غني بالذات، وارتفاع حاجات غيره وزوالها إنّما يتمّ بعونه ومدده، وكل المخلوقات محتاجة إليه احتياجاً ذاتياً، لذلك فهو يستحق - لذاته - أن يشكره عباده ومخلوقاته، كما أنّ كمالاته التي تجعله أهلاً للشكر ليست خارجة عن ذاته، بل هي كلّها في ذاته، وهو ليس كالمخلوقات التي تمتلك صفاتٍ كمالية عرضية خارجية مكتسبة من الغير.

وفي الآية التالية جرى التأكيد - وللمرة الثّالثة - على أنّ كل ما في السموات وما في الأرض هو ملك لله، وأنّ الله هو الحافظ والمدبر والمدير لكل الموجودات ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وقد يرد سؤال - هنا - عن سبب تكرار موضوع واحد لثلاث مرات وفي فواصل متقاربة جدّاً، وهل أنّ هذا التكرار من أجل التأكيد على الأمر الوارد في هذا الموضوع، أم هناك سرّ آخر؟

وبالإمعان في مضمون الآيات يظهر لنا أنّ الموضوع المتكرر ينطوي في كل مرّة على أمر خاص:

ففي المرّة الأُولى حيث تحمل الآية وعداً للزوجين بأنّهما إذا انفصلا فإن الله سيغنيهما ولأجل إثبات قدرة الله على ذلك، يذكر الله ملكيته لما في السموات وما في الأرض.

أمّا في المرّة الثّانية فإنّ الآية توصي بالتقوى، ولكي لا يحصل وهم بأنّ إطاعة هذا الأمر ينطوي على نفع أو فائدة لله، أو أن مخالفته تنطوي على الضرر له، فقد تكررت الجملة للتأكيد على عدم حاجة الله لشيء، وهو مالك ما في السموات وما في الأرض.

وهذا الكلام يشبه في الحقيقة ما قاله أميرالمؤمنين علي عليه السلام في مستهل كلامه لهمّام

الوارد في كتاب نهج البلاغة حيث قال عليه السلام: «بأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيّاً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم لأنه لا تضرّه معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه»(١).

ويذكر الله ملكيته لما في السموات وما في الأرض للمرّة الثّالثة كمقدمة للموضوع الذي يأتي في الآية (١٣٣)، ثمّ يبيّن - عز من قائل - أنّه لا يأبه أن يزيل قوماً عن الوجود، ليأتي مكانهم بقوم آخرين أكثر استعداداً وعزماً وأكثر دأباً في طاعة الله وعبادته، والله قادر على هذا الأمر ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

وفي تفسير «التبيان» وتفسير «مجمع البيان» نقلاً عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه حين نزلت هذه الآية ربت على كتف سلمان الفارسي وقال بأنّ المعنيّ بالآخرين في الآية هم قوم من العجم من بلاد فارس(٢).

وهذا الكلام - في الحقيقة - تنبؤ بالخدمات الكبيرة التي قدمها المسلمون الإيرانيون إلى الإسلام.

والآية الأخيرة من الآيات الأربع الماضية، ورد الحديث فيها عن أُناس يزعمون أنّهم مسلمون، ويشاركون في ميادين الجهاد، ويطبقون أحكام الإسلام، دون أن يكون لهم هدف إلّهي، بل يهدفون لنيل مكاسب مادية مثل غنائم الحرب فتنبه الآية إلى أنّ الذين يطلبون الأجر الدنيوي يتوهمون في طلبهم هذا، لأنّ الله عنده ثواب الدنيا والآخرة معاً ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾.

فلماذا لا يطلب ولا يرجو - هؤلاء، الثوابين معاً؟! والله يعلم بنوايا الجميع، ويسمع كل صوت، ويرى كل مشهد، ويعرف أعمال المنافقين وأشباههم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وتكرر هذه الآية الأخيرة حقيقة أنّ الإسلام لا ينظر فقط إلى الجوانب المعنوية والأُخروية، بل ينشد لأتباعه السعادتين المادية والمعنوية معاً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢١٠، ذيل الآية مورد البحث.

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ
أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

التّفسير

العدالة الاجتماعية

على غرار الأحكام التي وردت في الآيات السابقة حول تطبيق العدالة مع الأيتام والزوجات تذكر الآية الأخيرة - موضوع البحث - مبدأً أساسياً وقانوناً كلياً في مجال تطبيق العدالة في جميع الشؤون والموارد بدون استثناء، وتأمر جميع المؤمنين بإقامة العدالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

ويجب الانتباه إلى أنّ كلمة «قوامين» هي جمع لكلمة «قوّام» وهي صيغة مبالغة من «قائم» وتعني «كثير القيام» أي إنّ على المؤمنين أن يقوموا بالعدل في كل الأحوال والأعمال وفي كل العصور والدهور، لكي يصبح العدل جزءاً من طبعهم وأخلاقهم، ويصبح الانحراف عن العدل مخالفاً ومناقضاً لطبعهم وروحهم.

والإتيان بكلمة «القيام» في هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أنّ الإنسان حين يريد القيام بأي عمل، يجب عليه أن يقوم على رجليه بصورة عامّة ويتابع ذلك العمل، وعلى هذا الأساس فإنّ التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم والإرادة الرّاسخة والسعي لإنجاز العمل، حتى لو كان هذا العمل من باب حكم القاضي الذي لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسة عمله.

ويمكن أن يكون التعبير بالقيام جاء لسبب آخر، وهو أنّ كلمة «القائم» تطلق عادة على شيء يقف بصورة عمودية على الأرض دون أن يكون فيه انحراف إلى اليمين أو الشمال، وعلى هذا فإنّ المعنى المراد منه في الآية يكون تأكيداً لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أي جهة كانت.

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» فشددت على ضرورة التخلي عن كل الملاحظات والمجاملات أثناء أداء الشهادة، وأن يكون هدف الشهادة بالحق هو كسب مرضاة الله فقط، حتى لو أصبحت النتيجة ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾.

وقد شاع هذا الأمر في كل المجتمعات، وبالأخص المجتمعات الجاهلية، حيث

كانت الشهادة تقاس بمقدار الحبّ والكراهية ونوع القرابة بين الأشخاص والشاهد، دون أن يكون للحق والعدل أثر فيما يفعلون.

وقد نقل عن ابن عباس حديث يفيد أنّ المسلمين الجدد كانوا بعد وصولهم إلى المدينة يتجنبون الإدلاء بالشهادة لاعتبارات القرابة والنسب، إذا كانت الشهادة تؤدّي إلى الإضرار بمصالح أقربائهم، فنزلت الآية المذكورة محذرة لمثل هؤلاء(١).

ولكن - وكما تشير الآية الكريمة - فإنّ هذا العمل لا يتناسب وروح الإيمان، لأنّ المؤمن الحقيقي هو ذلك الشخص الذي لا يعير اهتماماً لهذه الاعتبارات في مجال الحق والعدل، ويتغاضى عن مصلحته ومصلحة أقاربه من أجل إحقاقهما.

وتفيد هذه الآية أنّ للأقارب الحق في الإدلاء بالشهادة لصالح - أو ضد - بعضهم البعض، شرط الحفاظ على مبدأ العدالة (إلاّ إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب في الموضوع).

وتشير الآية بعد ذلك إلى عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيّن أنّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهادة العادلة، كما أنّ العواطف والمشاعر التي تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سبباً في الامتناع عن الإدلاء بالشهادة العادلة حتى ولو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ الله أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجة الشهادة العادلة ضدهم، فلا يستطيع صاحب الجاه والسلطان أن يضرّ بشاهد عادل يتمتع بحماية الله، ولا الفقير سيبيت جوعاناً بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية في هذا المجال: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

وللتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنّب اتّباع الهوى، لكي لا يبقى مانع أمام سير العدالة وتحقيقها إذ تقول الآية: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾(٢).

ويتّضح من هذه الجملة - بجلاء - أنّ مصدر الظلم والجور كلّه، هو اتّباع الهوى، فالمجتمع الذي لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم والجور.

---

(١) تفسير المنار، ج ٥، ص ٤٥٥.

(٢) يمكن أن تكون عبارة «تعدلوا» اشتقاقاً إمّا من مادة «العدالة» أو من مادة «العدول» فإن كانت من مادة «العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أي لكي تستطيعوا تحقيق العدل، وأما إذا كانت من مادة «العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتبعوا الهوى في أن تعدلوا أي لا تتبعوا الهوى في سبيل الانحراف عن الحق.

ولأهميّة موضوع تحقيق العدالة، يؤكّد القرآن هذا الحكم مرّة أُخرى، فيبيّن أنّ الله ناظر وعالم بأعمال العباد - فهو يشهد ويرى كل من يحاول منع صاحب الحق عن حقّه، أو تحريف الحق، أو الإعراض عن الحق بعد وضوحه، فتقول الآية: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟(١) أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وجملة ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ تشير - في الواقع - إلى تحريف الحق وتغييره، بينما تشير جملة «تعرضوا» إلى الامتناع عن الحكم بالحق، وهذا هو ذات الخبر المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام (٢).

والطريف أن الآية اختتمت بكلمة «خبيراً» ولم تختتم بكلمة «عليماً» لأنّ كلمة «خبير» تطلق بحسب العادة على من يكون مطلعاً على جزئيات ودقائق موضوع معين، وفي هذا دلالة على أنّ الله يعلم حتى أدنى انحراف يقوم به الإنسان عن مسير الحق والعدل بأي عذر أو وسيلة كان، وهو يعلم كل موطن يتعمد فيه إظهار الباطل حقاً، ويجازي على هذا العمل.

وتثبت الآية اهتمام الإسلام المفرط بقضية العدالة الاجتماعية، وإنّ مواطن التأكيد المتكررة في هذه الآية تبيّن مدى هذا الاهتمام الذي يوليه الإسلام لمثل هذه القضية الانسانية الاجتماعية الحساسة، وممّا يُؤسف له كثيراً أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين وهذا الحكم الإسلامي السامي، وإن هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ هذه الآية نزلت في شأن جمع من كبار شخصيات أهل الكتاب - مثل عبد الله بن سلام وأسد بن كعب وأخيه أسيد بن كعب ونفر آخر من هؤلاء -

---

(١) إن عبارة «تلووا» مشتقة من المصدر «ليّ» على وزن «طيّ» وتعني المنع والإعاقة وقد وردت في الأصل بمعنى اللّي والبرم.

(٢) تفسير التبيان، ج ٥، ص ٣٥٦.

والسبب أنّهم قدموا منذ البداية على الرّسول ﷺ وقالوا له: إنّهم قد آمنوا به وبكتابه السماوي وبموسى والتوراة والعزير، ولم يؤمنوا ببقية الأنبياء، فنزلت هذه الآية وأعلمتهم ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء والكتب السماوية(١).

التّفسير

يتبيّن من سبب النّزول أنّ الكلام في الآية موجه إلى جمع من مؤمني أهل الكتاب الذين قبلوا الإسلام، ولكنهم لعصبيات خاصّة أبوا أن يؤمنوا بما جاء قبل الإسلام من أنبياء وكتب سماوية غير الدين الذي كانوا عليه، فجاءت الآية توصيهم بضرورة الإيمان والإقرار والاعتراف بجميع الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، لأنّ هؤلاء جميعاً يسيرون نحو هدف واحد، وهم مبعوثون من مبدأ واحد (علماً بأنّ لكل واحد منهم مرتبة خاصّة به، فكل واحد منهم جاء ليكمل ما أتى به النّبي أو الرّسول الذي سبقه من شريعة ودين).

ولذلك فلا معنى لقبول البعض وإنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء والرسل، فالحقيقة الواحدة لا يمكن التفريق بين أجزائها، وإنّ العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾.

وبغضّ النظر عن سبب النّزول المذكور، فإنّنا لدى تفسيرنا لهذه الآية نحتمل أن يكون الخطاب موجهاً فيها لعامّة المؤمنين، أُولئك الذين اعتنقوا الإسلام إلاّ أنّه لم يتغلغل بعد في أعماق قلوبهم، ولهذا السبب يطلب منهم أن يكونوا مؤمنين من أعماقهم.

كما يوجد احتمال آخر، وهو أنّ الكلام في هذه الآية موجه لجميع المؤمنين الذين آمنوا بصورة إجمالية بالله والأنبياء، إلاّ أنّهم لم يتعرفوا بعد على جزئيات وتفاصيل العقائد الإسلامية.

ومن هذا المنطلق يبيّن القرآن أنّ المؤمنين الحقيقيين يجب أن يعتقدوا بجميع الأنبياء والكتب السماوية السابقة وملائكة الله، لأنّ عدم الإيمان بالمذكورين يعطي مفهوم إنكار

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢١٤، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٣٤.

حكمة الله، فهل يمكن أن يترك الله الحكيم الملل السابقة بدون قائد أو زعيم يرشدهم في حياتهم؟!

وهل أنّ الملائكة المعنيين بالآية هم ملائكة الوحي - فقط - الذين يعدّ الإيمان بهم جزءاً لا يتجزأ من الإيمان الضروري بالأنبياء والكتب السماوية، أو أنّهم جميع الملائكة؟ فكما أنّ بعض الملائكة مكلّفون بأمر الوحي والتشريع، يلتزم جمع آخر منهم بتدبير وإدارة عالم الكون والخليقة؛ وإنّ الإيمان بهم في الحقيقة جزء من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وقد بيّنت الآية - في آخرها - مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

وفي هذه الآية اعتبر الإيمان واجباً وضرورياً بخمسة مبادىء، فبالإضافة إلى ضرورة الإيمان بالمبدأ والمعاد، فإنّ الإيمان لازم وضروري بالنسبة إلى الكتب السماوية والأنبياء والملائكة.

إنّ عبارة ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عبارة دقيقة، وتعني أنّ الذين لا يؤمنون بالمبادىء الخمسة المارة الذكر، قد انجرفوا خارج الصراط أو الطريق المبدئي، وأنّ عودتهم إلى هذا الطريق لا تتحقق بسهولة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

التّفسير

مصير المنافقين المعاندين

تماشياً مع البحث الذي ورد في الآية السابقة والذي تناول وضع الكفار وضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيرة إلى وضع مجموعة من الكفار الذين يتلوّنون في كل يوم تلون الحرباء، فهم في يوم إلى جانب المؤمنين، وفي يوم آخر إلى جانب الكفّار، ثمّ إلى جانب المؤمنين، وفي النهاية إلى جانب الكفّار المعاندين، حتى يموتوا على هذه الحالة!

فالآية الأُولى من الآيات الثلاث الأخيرة تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء، فتؤكّد أنّ الله لن يغفر لهم أبداً، ولن يرشدهم إلى طريق الصواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

إنّ هذا السلوك الحربائي في التلون المتوالي، إمّا أن يكون نابعاً من الجهل وعدم إدراك الأسس الإسلامية، وإمّا أن يكون خطّة نفّذها المنافقون والكفار المتطرفون من أهل الكتاب لزعزعة إيمان المسلمين الحقيقيين، وقد سبق شرح هذا الموضوع في الآية (٧٢) من سورة آل عمران.

ولا تدل الآية - موضوع البحث - على عدم قبول توبة أمثال هؤلاء، ولكنها تتناول أفراداً يموتون وهم في كفر شديد، فإنّ هؤلاء - نتيجة لأعمالهم - لا يستحقون العفو والهداية إلاّ إذا غيروا أُسلوبهم ذلك.

ثمّ تؤكّد الآية التالية نوع العذاب الذي يستحقه هؤلاء فتقول: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

واستخدام عبارة (بشّر) في الآية إنّما جاء من باب التهكّم والإستهزاء بالأفكار الخاوية الواهية التي يحملها هؤلاء المنافقون، أو أنّ العبارة مشتقة من المصدر «بشر» بمعنى الوجه، وفي هذه الحالة تحتمل معانٍ واسعة فتشمل كل خبر يؤثّر في سحنة الإنسان، سواء كان الخبر مفرحاً أو محزناً.

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنّهم يتخذون الكفّار أصدقاءً وأحباء لهم بدلاً من المؤمنين، بقولها: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ يأتي التساؤل في الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، وهل أنّهم يريدون حقّاً أن يكتسبوا الشرف والفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ بينما العزة والشرف كلهما لله ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لأنّها تنبع من العلم والقدرة، وأن الكفّار لا يمتلكون من القوّة والعلم شيئاً، ولذلك فإنّ علمهم لا شيء أيضاً، ولا يستطيعون إنجاز شيء لكي يصبحوا مصدراً للعزّة والشرف.

إنّ هذه الآية - في الحقيقة - تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر والعزّة في شؤونهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية عن طريق إنشاء علاقات الود والصداقة مع أعداء الإسلام، بل إنّ عليهم أن يعتمدوا في ذلك على الذات الإلهيّة الطاهرة التي هي مصدر للعزة والشرف كله، وأعداء الإسلام لا عزّة لديهم لكي يهبوها

لأحد، وحتى لو امتلكوها لما أمكن الركون إليهم والاعتماد عليهم، لأنّهم متى ما اقتضت مصالحهم الشخصية تخلّوا عن أقرب حلفائهم وركضوا وراء مصالحهم، وكأنّهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقاً، والتاريخ المعاصر خير دليل على هذا السلوك النفعي الانتهازي.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ نفراً من المنافقين كانوا يحضرون اجتماعات لعلماء اليهود، حيث كانوا يستهزئون بآيات القرآن في تلك الاجتماعات، فنزلت هذه الآية وأوضحت النهاية المشؤومة لهذه اللقاءات[١].

التّفسير

النّهي عن المشاركة في مجالس يعصى الله فيها

لقد ورد في الآية (٦٨) من سورة الانعام أمر صريح إلى النّبي ﷺ في أن يعرض عن أُناس يستهزئون بآيات القرآن ويتكلمون بما لا يليق، وطبيعي أنّ هذا الحكم لا ينحصر بالنّبي ﷺ وحده، بل يعتبر حكماً وأمراً عاماً يجب على جميع المسلمين اتّباعه، وقد جاء هذا الحكم على شكل خطاب موجه إلى النّبي ﷺ، وفلسفته جلية واضحة، لأنّه يكون بمثابة كفاح سلبي ضد مثل تلك الأعمال.

والآية هذه تكرر الحكم المذكور مرّة أُخرى، وتحذّر المسلمين مذكرة إياهم بحكم سابق في القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة في مجالس يستهزأ فيها ويكفر بالقرآن الكريم، حتى يكفّ أهل هذه المجالس عن الاستهزاء ويدخلوا في حديث آخر، تقول

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢١٧، ذيل الآية مورد البحث.

الآيـــة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

بعد ذلك تبيّن الآية لنا نتيجة هذا العمل، وتؤكد أن من يشارك في مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين وسيكون مصيره نفس مصير أُولئك المستهزئين، تقول الآية: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾.

ثمّ تكرر الآية التأكيد على أنّ المشاركة في المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التي يحملها المشاركون، وأنّ الله يجمع المنافقين والكافرين في جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

إنّ الآية تخبرنا عن عدة أمور:

١ - إنّ المشاركة في مجالس المعصية تكون بمثابة المشاركة في ارتكاب المعصية، حتى لو بقي المشارك ساكتاً أو ساكناً ولم يشارك في الاستهزاء بنفسه، لأنّ السكوت في مثل هذه الأحوال دليل على رضا صاحبه بالذنب المرتكَب.

٢ - لو تعذر النهي عن المنكر بالشكل الإيجابي له، فلابدّ أن يتحقق النهي ولو بالصورة السلبية، مثل أن يبتعد الإنسان عن مجالس المعصية ويتجنّب الحضور فيها.

٣ - إنّ الذين يشجعون أهل المعاصي بسكوتهم وحضورهم في مجالس المعصية، إنّما يجازون ويعاقبون بمثل عقاب العاصين أنفسهم.

٤ - لا ضير من مجالسة الكفار إن لم يدخلوا في حديث فيه استهزاء وكفر بالآيات الإلهيّة ولم تكن هذه المجالسة تحمل حظراً آخر، ويدل على إباحة المشاركة في مجالس الكفّار التي لا يعصون فيها الله قوله تعالى في الآية: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

٥ - إنّ المجاملة والمداهنة مع العاصين المذنبين، إنّما تدل على وجود روح النفاق لدى الشخص المجامل، وذلك لأنّ المسلم الحقيقي الواقعي لا يمكنه أن يشارك في مجلس يعصى فيه الله ويستهزأ بآياته الكريمة وأحكامه السامية، دون أن يبدي اعتراضاً على هذه المعاصي، أو - على الأقل - يعلن عدم رضاه عنها بترك هذا المجلس.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾

التفسير

صفات المنافقين

تبيّن هذه الآية - وآيات أُخرى تالية - قسماً آخر من صفات المنافقين وأفكارهم المضطربة، فتؤكّد أنّ المنافقين يسعون دائماً لاستغلال أي حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين أنّهم شاركوا المؤمنين في تحقيق النصر وادعوا أنّهم قدّموا دعماً مؤثراً للمؤمنين في هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين في الثمار المعنوية والمادية للنصر حيث تقول الآية في حقهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

وهؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهري من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، ويعلنون لهم الرضى والموافقة بقولهم إنّهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين وعدم الاستسلام لهم، ويدّعون بأنّهم شركاء في النصر الذي حققه أعداء الإسلام تقول الآية: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وعلى هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقة أن تستغل الفرصة لدى انتصار المسلمين ليكون لهم نصيب من هذا النصر وسهم من الغنائم، ولإظهار المنّة على المسلمين، وفي حالة انكسار المسلمين تظهر هذه الفئة الرضى والفرح لدى الكفار، وتدفعهم إلى الإصرار على كفرهم وتتجسس لصالحهم، وتهيىء لهم أسباب الفوز المادي، فهم تارة رفاق الطريق مع الكفّار، وتارة شركاؤهم في الجريمة، وهكذا يمضون حياتهم بالتلون والنفاق واللعب على الحبال المختلفة.

ولكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء ونهايتهم السوداء، ويبيّن أنّهم - لا محالة - سيلاقون ذلك اليوم الذي تكشف فيه الحجب عن جرائمهم ويرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، وعند ذلك - أي في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة - سيحكم الله

---

(١) إن عبارة «استحوذ» مشتقة من «حوذ» وهي تعني أن يتبع السائق حاذيي البعير أي أدبار فخذيه فيعنف في سوقه، يقال حاذ الإبل أي ساقها سوقاً عنيفاً، وكلمة «استحواذ» تعني السوق والتحريك مع تسلّط واستيلاء، وقد جاءت بهذا المعنى في الآية الشريفة.

بينهم وهو أحكم الحاكمين، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾.

ولكي يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكّد هذه الآية - في آخرها - أنّ الله لن يجعل للكافرين مجالاً للانتصار أو التسلط على المسلمين، وذلك حيث تقول الآية: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

وهنا يرد هذا السؤال، وهو: هل أنّ العبارة الأخيرة تفيد عدم انتصار الكفّار على المؤمنين من حيث المنطق، أو أنّها تشمل عدم انتصار الكفّار من الناحية العسكرية أيضاً؟

ولما كانت كلمة «سبيل» نكرة جاءت في سياق النفي وتؤدّي معنى عاماً، لذلك يفهم من الآية أنّ الكافرين بالإضافة إلى عدم انتصارهم من حيث المنطق على المؤمنين، فهم لن ينتصروا ولن يتسلطوا على المؤمنين في أي من النواحي العسكرية والسياسية والثقافية والاقتصادية، بل ولا في أي مجال آخر.

وما نشاهده من انتصار للكافرين على المسلمين في الميادين المختلفة، إنّما هو بسبب أنّ المسلمين المغلوبين لم يكونوا ليمثلوا - في الحقيقة - المسلمين المؤمنين الحقيقيين، بل هم مسلمون نسوا آدابهم وتقاليدهم الإيمانية، وتخلوا عن مسؤولياتهم وتكاليفهم وواجباتهم الدينية بصورة تامّة، فلا كلام عن الاتحاد والتضامن والأُخوة الإسلامية بينهم، ولا هم يقومون بواجب الجهاد بمعناه الحقيقي، كما لم يبادروا إلى اكتساب العلم الذي أوجبه الإسلام وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ودعا إلى تحصيله وطلبه من يوم الولادة حتى ساعة الوفاة، حيث قال النّبي ﷺ: «اطلب العلم من المهد إلى اللّحد».

ولما أصبحوا هكذا فقد استحقوا أن يكونوا مغلوبين للكفّار.

وقد استدل جمع من الفقهاء بهذه الآية على أنّ الكفّار لا يمكن أن يتسلطوا على المسلمين المؤمنين من الناحية الحقوقية والحكمية، ونظراً للعمومية الملحوظة في الآية، لا يستبعد أن تشمل الآية هذا الأمر أيضاً.

وممّا يلفت النظر في هذه الآية التعبير عن انتصار المؤمنين بكلمة «الفتح» بينما عبّرت الآية عن انتصار الكفّار بكلمة «النصيب» وهو إشارة إلى أنّ انتصار الكفّار إنّما هو نصيب محدود وزائل، وأنّ الفتح والنصر النهائي هما للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

التّفسير

لقد وردت في هذه الآية خمس صفات للمنافقين، في عبارة قصيرة، وهي:

١ - إنّ هؤلاء - لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة - يتوسلون بالخدعة والحيلة، حتى إنّهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا الله تعالى أيضاً، ولكنهم يقعون في نفس الوقت ومن حيث لا يشعرون في حبال خدعتهم ومكرهم، إذ هم - لأجل اكتساب ثروات مادية تافهة - يخسرون الثروات الكبيرة الكامنة في وجودهم، تقول الآية في هذا المجال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

ويستفاد التّفسير المذكور أعلاه من الواو الحالية الواردة في عبارة: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

هناك قصّة مشهورة مفادها أنّ أحد الأكابر كان ينصح أهل الحرف من مواطنيه، أن ينتبهوا لكي لا يخدعهم المسافرون الغرباء، فقال أحدهم: كيف يمكن للغرباء البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن وضع المدينة وأهلها، أن يخدعوا أهل الحرف فيها؟ بل نحن بمقدورنا خداع أُولئك الغرباء! فأجابهم بأن قصده من الانخداع بالغرباء هو هذا المعنى، أي أن تنالوا من هؤلاء ثروة تافهة بالخداع، وتفقدوا بذلك ثروة الإيمان العظيمة!

٢ - إنّ المنافقين بعيدون عن رحمة الله، ولذلك فهم لا يتلذذون بعبادة الله والتقرب إليه، ويدل على ذلك أنّهم حين يريدون أداء الصّلاة يقومون إليها وهم كسالى خائرو القوى، تقول الآية في هذا الأمر: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

٣ - ولما كان المنافقون لا يؤمنون بالله وبوعوده، فهم حين يقومون بأداء عبادة معينة، إنّما يفعلون ذلك رياءً ونفاقاً وليس من أجل مرضاة الله، تقول الآية: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

٤ - ولو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشيء من ذكر الله، فإنّ هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنّه ليس من قلوبهم، ولا هو نابع من وعيهم ويقظتهم، وحتى لو حصل هذا الأمر فهو نادرٌ وقليل، تقول الآية: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٥ - إنّ المنافقين يعيشون في حيرة دائمة ودون أي هدف أو خطّة لطريقة الحياة معينة، ولهذا فهم يعيشون حالة من التردد والتذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقّاً ولا هم يقفون إلى جانب الكفّار ظاهراً، وفي هذا تقول الآية الكريمة: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

ويحسن هنا الالتفات إلى أنّ كلمة «مذبذب» اسم مفعول من الأصل «ذبذب» وهي تعني في الأصل صوتاً خاصاً يسمع لدى تحريك شيء معلق إثر تصادمه بأمواج الهواء، وقد أُطلقت كلمة «مذبذب» على الإنسان الحائر الذي يفتقر إلى الهدف أو إلى أي خطّة وطريقة للحياة.

هذا واحد من أدق التعابير التي أطلقها القرآن الكريم على المنافقين، كما هي إشارة إلى إمكانية معرفة المنافقين عن طريق هذا التذبذب الظاهر في حركتهم ونطقهم، كما يمكن أن يفهم من هذا التعبير أنّ المنافقين هم كشيء معلق يتحرك بدون أي هدف وليس لحركته أي اتجاه معين، بل يحركه الهواء من أي صوب كان اتجاهه ويأخذه معه إلى الجهة التي يتحرك فيها.

وتبيّن الآية في الختام مصير هؤلاء المنافقين، وتوضح أنّهم أُناس قد سلب الله عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم وتركهم يتيهون في الطريق المنحرف الذي سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبداً إلى طريق النجاة، لأنّ الله كتب عليهم التيه والضلالة عقاباً لهم على أعمالهم.

تقول الآية الكريمة في ذلك: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، (وقد شرحنا معنى الإضلال، وبيّنا كيف أنّه لا يتنافى مع حرية الإرادة والانتخاب، وذلك في المجلد الأوّل من هذا الكتاب في تفسير الآية (٢٦) من سورة البقرة).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

التفسير

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، والآيات التالية - هذه - تحذر المؤمنين وتأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين والكفار بدل الاعتماد على المؤمنين، وأن لا يطلبوا النصرة منهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وتبيّن أنّ الاعتماد على الكفّار يعتبر جريمة وخرقاً صارخاً للقانون الإلهي وشركاً بالله، ونظراً لقانون العدل الإلهي فإنّ هذه الجريمة تستحق عقاباً شديداً، حيث تؤكّد الآية: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾[1].

وفي الآية الثانية من الآيات الأخيرة بيان لأحوال المنافقين، الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين اصدقاء لأنفسهم، حيث توضح الآية أنّ المنافقين يستقرون في القيامة في أحط وأسفل دركة من دركات جهنم، ولن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقذهم من هذا المصير أبداً، تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[2].

ويتبيّن من هذه الآية أنّ النفاق في نظر الإسلام أشد أنواع الكفر، وأنّ المنافقين أبعد الخلق من الله، ولهذا السبب فإنّ مستقرهم ومكانهم النهائي في أحط نقطة من نقاط جهنم، وهم يستحقون هذا العقاب، لأنّ ما يلحق البشرية من ويلات من جانب هؤلاء أشد خطراً من كل الأخطار، فإنّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصورة غادرة وبمطلق الحرية على المؤمنين العزّل ويطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومة، وبديهي أن يكون حال أعداء - كهؤلاء - يظهرون بلباس الأصدقاء، أشدّ خطراً من

(١) إنّ كلمة «سلطان» مشتقة من مادة أو مصدر «سلاطة» على وزن «مقالة» وهي تعني القوة والقدرة على التغلب على الآخرين، وفي كلمة «سلطان» معنى لاسم المصدر حيث تطلق على كل أنواع التسلط، ولهذا السبب تطلق كلمة «سلطان» أيضاً على «السبب» الذي يسلط الإنسان على الآخرين من أمثاله، كما تطلق على أصحاب القدرة والنفوذ، ولكنها في الآية المذكورة أعلاه إنما تعني الحجة والدليل.

(٢) إنّ كلمة «درك» تعني أحط نقطة في أعماق البحر، ويسمى آخر حبل متصل بالحبال التي توصل الإنسان إلى قعر البحر، بـ «الدرك» أيضاً، ويظهر أنّ هذه المعاني مأخوذة من معنى «درك الشيء» أي الوصول إليه - كما تسمّى السلالم التي توصل الإنسان إلى مواضع سفلى كالسرداب والبئر بـ «الدرك» وهذه العبارة تقابل السلالم التي يتسلق بها الإنسان إلى أعلى حيث تسمّى بالدرجات.

الأعداء المعروفين الذين يعلنون عداوتهم صراحة، وفي الواقع إنّ النّفاق أُسلوب وسلوك كل فرد أبتر ومنحط ومشبوه وجبان وملوث بكل الخبائث ومن لا شخصية له.

وقد أوضحت الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة، أنّ المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوثاً للتوبة من أعمالهم وإصلاح شأنهم، والسعي للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين، والعودة إلى رحمة الله والتمسك بحبله والإخلاص لله بالإيمان به تقول الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلاً للنجاة في النهاية ويستحقون صحبة المؤمنين، تقول الآية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وإنّ الله سيهب ثواباً وأجراً عظيماً لكل المؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وممّا يلفت النظر أنّ الآية تبيّن أن هؤلاء التائبين مع المؤمنين، وذلك للتدليل على أنّ منزلة المؤمنين الثابتين أكبر وأعظم من منزلة هؤلاء، فالمؤمنون الراسخون في إيمانهم هم الأصل، وهؤلاء هم الفروع، وما يظهر عليهم من نور وصفاء إنّما هو بسبب وجودهم في ظل المؤمنين الراسخين.

وهناك أمر ثان يجب الانتباه إليه في هذه الآية، وهو أنّها بيّنت مسير المنافقين بصورة واضحة وصريحة، إذ عيّنت لهم أحط نقطة من الجحيم مكاناً ومستقراً، بينما شخصت للمؤمنين الأجر والثواب العظيم الذي لا حدّ له ولا حصر، بل هو منوط بعظمة الله ولطفه جلّت عظمته.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

التّفسير

العقاب الإلهي ليس دافعه الانتقام

لقد أظهرت وبيّنت الآيات السابقة صوراً من عقاب الكافرين والمنافقين، والآية الأخيرة - التي هي موضوع بحثنا الآن - تشير إلى حقيقة ثابتة هي أنّ العقاب الإلهي

الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الانتقام ولا هو بدافع التظاهر بالقوّة، كما أنّه ليس تعويضاً عن الخسائر الناجمة عن تلك المعاصي، فهذه الأُمور إنّما تحصل ممن في طبيعته النقص والحاجة، والله سبحانه وتعالى منزّه عن كل نقص ولا يحتاج أبداً إلى شيء.

إذن فالعقاب الذي يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاصٍ، إنّما هو انعكاس للنتائج السيئة التي ترتبت على تلك المعاصي - سواء كانت فعلية أو فكرية - ولذلك يقول الله تعالى عزّ من قائل في هذه الآية: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

وبالنظر إلى أنّ حقيقة الشكر هي أن يستغل الإنسان النعم التي وهبها الله له في الجهات المخصصة لها في الطبيعة والخلق، يتّضح لنا أنّ القصد من الآية هو أنّ من يؤمن ويعمل الخير ويستغل الهبات الإلهيّة في المجالات التي خصصت لها من حيث الخلق استغلالاً سليماً فلا شك أنّ هذا الإنسان المؤمن لا يصيبه أي عقاب من الله، ولتأكيد هذا الأمر تضيف الآية مبيّنة أنّ الله عالم بأعمال ونوايا عباده، وهو يشكر ويثيب كل من يفعل الخير من العباد لوجه الله. فتقول الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

وقد قدمت هذه الآية مسألة الشكر على الإيمان لأجل بيان هذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان ما لم يدرك نعم الله وهباته العظيمة ويشكره على هذه النعم فلن يستطيع التوصل إلى معرفة الله والإيمان به، لأنّ أنعمه سبحانه وتعالى إنّما هي وسائل لمعرفته.

وقد ورد في كتب العقيدة الإسلامية في بحث «وجوب معرفة الله» عن جمع من الباحثين أنّهم استدلوا على معرفة الله بوجوب شكر النعم وجعلوا من الوجوب الفطري لشكر المنعم دليلاً على لزوم معرفته (فدقق).

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾
إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

التّفسير

في هذه الآية إشارتان إلى التكاليف الأخلاقية الإسلامية:

الأولى: تبيّن أنّ الله لا يحبّ التجاهر بالكلام البذيء، ولا يرضى بما يصدر من

كلام عن عيوب الناس وفضائح أعمالهم، فتقول الآية: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

إنّ عدم الرضى عن نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أنّ الله ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة إلى سمعتهم، وممّا لا يخفى على أحد أنّ لكل إنسان نقاط ضعف خفية، ولو انكشفت هذه العيوب لساد المجتمع جو من سوء الظن بين أفراده، فيصعب عندئذ قيام التعاون بين هؤلاء الأفراد، لذلك منع الإسلام وحرّم التحدث عن نقائص أو فضائح أعمال الآخرين دون وجود هدف سليم، لتبقى الأواصر الاجتماعية قوية مستحكمة، ورعايةً للجوانب الإنسانية الأُخرى في هذا المجال.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة «سوء» تشمل كل أنواع القبح والفضيحة، والمقصود من عبارة «الجهر. . . من القول» هو كل حالة من الكشف والفضح اللفظي، سواء كان بصورة شكوى، أو على شكل حكاية أو لعن أو ذم أو غيبة.

وقد أستدل بهذه الآية - أيضاً على تحريم الغيبة، إلاّ أنّ مفهومها لا ينحصر في هذه الصفة الأخيرة، بل يشمل كل أنواع الكلام البذيء والمذموم.

إلاّ أنّ الآية الكريمة لم تحرّم (القول بالسوء) تحريماً مطلقاً، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار إلى الكشف والفضح، وهذه الحالة هي إذا وقع الإنسان مظلوماً حين قالت الآية:

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وبهذا الدليل يستطيع المظلوم - في مقام الدفاع عن نفسه - أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوىء الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، ولا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

وحقيقة هذا الاستثناء أنّ الله أراد به أن يسلب الظالمين فرصة إساءة استغلال حكم المنع والتحريم، ولكي لا يكون هذا الحكم سبباً في سكوت المظلوم عن المطالبة بحقه من الظالم.

واضح من الآية أنّ عملية الكشف والفضح يجب أن تنحصر في إطار بيان مساوىء الظالم لدى الدفاع عن المظلومين أو لدى دفاع المظلوم عن نفسه.

ولكي تسد الآية الطريق على كل انتهازي كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم

بدعوى وقوع الظلم عليه أكدت على أنّ الله يراقب أعمال البشر ويسمع ويعلم بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

وفي الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوىء التي يجب أن تكتم إلاّ في حالة استثنائية) كما تبيح - أو بالأحرى تحثّ - الفرد على إصدار العفو عمّن ارتكب السوء في حقّه، لأنّ العفو عند المقدرة من صفات الله العزيز القدير الذي يعفو عن عباده مع امتلاكه القدرة على الانتقام بأي صورة شاء، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

العفو عن المعتدي وأثره على نزعة العدوان

سؤال يطرأ هنا على الذهن وهو: ألا يعتبر العفو عن الظالم المعتدي تأييداً لظلمه وتشجيعاً لنزعة العدوان لديه؟ ألا يؤدّي العفو إلى ظهور حالة سلبية من اللامبالاة لدى المظلومين.

والجواب هو: إنّ العفو لا صلة له بمسألة تحقيق العدل ومكافحة الظالم، والدليل على ذلك ما نقرأه في الأحكام الإسلامية من نهي عن ارتكاب الظلم وأمر بعدم الخضوع له، كما في الآية ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾(١) وقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»(٢) وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٣).

كما نقرأ من جانب آخر الأمر بالعفو والصفح كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٤) وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٥).

من الممكن أن يتبادر إلى ذهن بعض البسطاء أنّ هناك تناقضاً بين هذين الحكمين، ولدى الإمعان فيما ورد في المصادر الإسلامية في هذا المجال، يتّضح أنّ العفو والصفح يجب أن يكونا في موضع بحيث لا يساء استغلالهما، وأنّ الدعوة إلى مكافحة الظلم وقمع الظالم لها مجال آخر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.
(٢) نهج البلاغة، الوصية رقم ٤٨.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٥) سورة النور، الآية: ٢٢.

ويجدر توضيح أنّ العفو والصفح يكونان لدى تملك القدرة وعند الانتصار على العدو وهزيمته النهائية، أي في حال لا يحتمل فيها حصول أي خطر جديد من جانب العدو، ويكون العفو والصفح عنه سبباً لإصلاحه واستقامته ودفعه إلى إعادة النظر في سلوكه، والتاريخ الإسلامي فيه أمثلة كثيرة في هذا المجال، والحديث المشهور القائل «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»(١) خير دليل على هذا القول.

أمّا في حالة وجود خطر من جانب العدو، واحتمال أن يؤدّي العفو عنه إلى تجرُّئه وتماديه أكثر في عدوانه، أو إذا اعتبر العفو استسلاماً للظلم وخضوعاً أمامه ورضىً به، فإنّ الإسلام لا يجيز مطلقاً مثل هذا العفو، كما أنّ أئمّة الإسلام لم ينتخبوا طريق العفو في مثل هذه المجالات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٥٢﴾

التّفسير

لا تمييز بين الأنبياء

تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، ومواقف أُخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، وهي بهذا تأتي مكملة للآيات السابقة التي تحدثت بشأن المنافقين.

وتشير الآية الأُولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء ،فاعتبروا بعضهم على حق والبعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

والواقع أنّ هذه الآية توضح موقف اليهود والنصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١١.

بالنّبي عيسى نبي النصارى، واليهود والنصارى معاً كانوا يرفضون الإذعان لنبوة نبي الإسلام ﷺ في حين أنّ كتابيهم السماويين قد أثبتا نبوة هذين النبيّين.

وهذا التمييز بين الحقائق الثابتة وقبول بعضها ورفض البعض الآخر، سببه أنّ هؤلاء كانوا يتبعون أهواءهم ونزواتهم ويسيرون وراء عصبياتهم الجاهلية، وينبع أحياناً من حسد هؤلاء ونظرتهم الضيقة.

وهذا دليل عدم إيمان هؤلاء بالأنبياء وبالله، لأنّ الإيمان ليس قبول ما طابق هوى النفس ورفض ما يخالف الأهواء والميول، فهذه الحالة ما هي إلاّ نوع من عبادة الهوى ولا صلة لها بالإيمان، فالإيمان الحقيقي هو ذلك الذي يدفع الإنسان إلى قبول الحقيقة - سواء طابقت هواه وميوله أو خالفتهما - ولذلك فإنّ القرآن الكريم اعتبر الذين يزعمون أنّهم يؤمنون بالله وببعض الأنبياء كفاراً حقيقيين، وعلى هذا الأساس فإن ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة ولا قيمة له مطلقاً، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة.

والقرآن الكريم يهدد هؤلاء - وأمثالهم - بأنّهم يلقون الذل والهوان، حيث تقول الآية: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وقد يكون وصف العذاب في هذه الآية بـ«المهين» سببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء ورفضهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجّهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذاباً مهيناً يتناسب وإهانتهم تلك.

التّناسب بين الذّنب والعقاب

ويجدر هنا توضيح أنّ العذاب قد يكون أليماً أحياناً، مثل: الجلد والتعذيب الجسدي، وقد يكون مهيناً كقذف الشخص بالقاذورات، أو يكون العذاب عظيماً كأن يكون العقاب أمام أعين الناس، وقد يكون أثره عميقاً في نفس الإنسان يستمر معه لمدّة طويلة ويسمى هذا بالعذاب الشديد، وما إلى ذلك من أنواع العذاب.

وواضح أنّ وصف العذاب بواحد من الصفات يتناسب مع نوع الذنب، ولذلك فقد ورد في كثير من الآيات القرآنية أنّ عقاب الظالمين هو العذاب الأليم، لأنّه يتناسب وألم الظلم الذي يمارسه الظالم على المظلوم، وهكذا بالنسبة للأنواع الأُخرى من العذاب، وقد قصدنا بهذا الشرح تقريب مسألة العذاب إلى الأذهان، علماً بأنّ العذاب الأُخروي شيء لا يمكن مقارنته بما هو موجود من عذاب في حياتنا الدنيوية هذه.

وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى موقف المؤمنين الذين آمنوا بالله وبجميع أنبيائه ورسله

ولم يفرقوا بين أي من الأنبياء والرسل وأخلصوا للحق، وكافحوا كل أنواع العصبيات الباطلة، وبيّنت أنّ الله سيوفّي هؤلاء المؤمنين أجرهم وثوابهم في القريب العاجل، فتقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

وبديهي أنّ الإيمان بجميع الأنبياء والرسل لا يتنافى ومسألة تفضيل بعضهم على البعض الآخر، لأنّ مسألة التفاضل هذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأهمّية وعظم المسؤولية التي تحمّلها كل منهم، وطبيعي أنّ المسؤوليات المناطة بالأنبياء عليهم السلام تتفاوت من حيث الأهمّية والخطورة بالنسبة لكل منهم، وقد ثبت هذا الأمر بالدليل القطعي والمهم هنا أن لا يحصل تمايز أو تفريق في الإيمان بالأنبياء والإقرار بنبوّتهم.

وقد أكّدت الآية في الختام أنّ الله سيغفر للمؤمنين الذين ارتكبوا أخطاء بالانجرار وراء العصبيات وممارسة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون في إيمانهم وعادوا إلى الله، أي تابوا إليه من أخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ويجب الانتباه هنا إلى أنّ الآيات الأخيرة ذكرت الذين يعمدون إلى التفرقة بين الأنبياء بأنّهم كفار حقيقيون، بينما لم تذكر الذين يؤمنون بجميع الأنبياء بأنّهم مؤمنون حقاً وحقيقة، بل وصفتهم بالمؤمنين فقط، وقد يكون هذا التفاوت في الوصف لبيان أنّ المؤمنين حقّاً هم أُولئك الذين استقرّ الإيمان في قلوبهم وظهرت آثاره على أعمالهم، وكما يقول الخبر المأثور إنّ «الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل».

ويدلّ على هذا الأمر آيات وردت في بداية سورة الأنفال ذكرت المؤمنين بأوصاف عديدة: أوّلها الإيمان بالله، ويلي ذلك إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة والتوكل على الله والاعتماد عليه، ثمّ يأتي التأكيد بعد سرد هذه الصفات في قول الله تعالى في الآية المذكورة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفاسير «التبيان» و«مجمع البيان» و«روح المعاني» حول سبب نزول هاتين الآيتين، أنّ عدداً من اليهود جاءوا إلى النّبي محمّد ﷺ وقالوا له: لو كنت حقّاً نبيّاً مرسلاً من قبل الله فأرنا كتابك السماوي كلّه دفعة واحدة، كما جاء موسى بالتوراة كلّها دفعة واحدة، فنزلت الآيتان جواباً لهؤلاء اليهود(١).

التّفسير

هدف اليهود من اختلاق الأعذار

تشير الآية الأُولى إلى طلب أهل الكتاب «اليهود» من النّبي محمّد ﷺ بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء كاملاً وفي دفعة واحدة، فتقول: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ﴾.

ولا شك أنّ هؤلاء لم يكونوا صادقين في نواياهم مع النّبي ﷺ، لأنّ الهدف من نزول الكتاب السماوي هو الإرشاد والهداية والتربية، وقد يتحقق هذا الهدف أحياناً عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعة واحدة، وأحياناً أُخرى يتحقق الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوي على دفعات وبصورة تدريجية.

وبناء على هذا فقد كان الأجدر باليهود أن يطالبوا النّبي ﷺ بالدليل ويسألوه عن تعاليم سامية قيمة، لا أن يحددوا له طريقة لنزول الكتب السماوية ويطالبوه أن ينزل عليهم كتاباً بالطريقة التي عينوها.

ولهذا السبب فضح الله نواياهم السيئة بعد طلبهم هذا، وأوضح للنّبي ﷺ أنّ هذا العمل ديدن اليهود، وأنّهم معروفون بصلفهم وعنادهم واختلاقهم الأعذار مع نبيّهم الكبير موسى بن عمران عليه السلام، فقد طلب هؤلاء من نبيّهم ما هو أكبر وأعجب إذ سألوه أن يريهم الله جهاراً وعلناً! تقول الآية: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف والعناد، فهم بطلبهم هذا قد تبنّوا عقيدة المشركين الوثنيين في تجسيد الله وتحديده، وقد أدّى عنادهم

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٢٨؛ بحار الأنوار، ج ٩، ص ٧٧.

هذا إلى نزول عذاب الله عليهم، صاعقة من السماء أحاطت بهم لما ارتكبوه من ظلم كبير، تقول الآية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

ثمّ تشير الآية إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، وذلك حين لجأوا إلى عبادة العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة والدلائل الواضحة، فتقول: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

ومع كل هذا الصلف والعناد والشرك، يريهم الله لطفه ورحمته ويغفر لهم لعلهم يرتدعون عن غيّهم، ويهب لنبيّهم موسى عليه السلام ملكاً بارزاً وسلطاناً مبيناً، ويفضح السامري صاحب العجل ويخمد فتنته وفي هذا تقول الآية: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شرّ - لم يستيقظوا من غفلتهم، ولم يخرجوا من ضلالتهم، ولم يتخلوا عن صلفهم وغرورهم، فرفع الله جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد والميثاق وأمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين - من باب بيت المقدس - دليلاً على توبتهم وندمهم، وأكّد عليهم أن يكفوا عن أي عمل في أيّام السبت، وأن لا يسلكوا سبيل العدوان، وأن لا يأكلوا السمك الذي حرم صيده عليهم في ذلك اليوم، وفوق كل ذلك أخذ الله منهم ميثاقاً غليظاً مؤكّداً، ولكنّهم لم يثبتوا - مطلقاً - وفاءهم لأي من هذه المواثيق والعهود[1] يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

فهل يصح أن تكون هذه المجموعة مع ما تمتلكه من سوابق سيئة وتاريخ أسود صادقة مع النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فيما طلبته منه؟ وإن كان هؤلاء صادقين، لماذا إذن لم يلتزموا بما نزل عليهم صريحاً في كتابهم السماوي وحول العلامات الخاصّة بخاتم النّبيين؟ ولماذا أصروا على تجاهل كل ما أتى به النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من براهين وأدلة واضحة بيّنة؟

وهنا تجدر الإشارة إلى أمرين، هما:

---

(١) للإطلاع أكثر على قضية جبل الطّور، وهل أنّ رفعه فوق رؤوس اليهود كان نتيجة زلزلة، أم هناك عامل آخر وكذلك فيما يتعلق بعجل السامري، ومساوىء اليهود، راجع الجزء الأوّل من هذا التّفسير في البحث الخاص بهذه المواضيع.

أوّلاً: لو اعترض معترض فقال: إن تلك الأعمال كانت خاصّة باليهود السابقين، فما صلتها باليهود في زمن النّبي محمّد ﷺ؟

فنقول: إنّ اليهود في زمن النّبي محمّد ﷺ لم يبدوا اعتراضاً واستنكاراً - أبداً - لأعمال أسلافهم السابقين، بل كانوا يظهرون الرضى عن تلك الأعمال.

أمّا الأمر الثّاني: فيخصّ مسألة نزول التوراة دفعة واحدة، حيث قلنا في سبب نزول الآيتين الأخيرتين: «إنّ اليهود كانوا يزعمون نزول هذا الكتاب السماوي دفعة واحدة، في حين أنّ هذا الأمر لا يعتبر من الأُمور المؤكّدة، ولعل الشيء الذي أدى إلى حصول هذا الوهم هو الوصايا العشر» التي نزلت في الألواح دفعة واحدة على النّبي موسى عليه السلام، بينما لا يوجد لدينا دليل على نزول بقية أحكام التوراة دفعة واحدة.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

التّفسير

نماذج أُخرى من ممارسات اليهود العدوانية

تشير هذه الآيات إلى نماذج أُخرى من انتهاكات بني إسرائيل وممارساتهم العدوانية التي واجهوا بها أنبياء الله.

فالآية الأُولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، وإلى ارتداد بعضهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب الله والحرمان من رحمته وحرمانهم من قسم من نعم الله الظاهرة.

فقد أنكر هؤلاء آيات الله وكفروا بها بعد نقضهم للعهد واتّبعوا بذلك سبيل الضلال ولم يكتفوا بهذا الحدّ، بل تمادوا في غيّهم، فارتكبت أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ

عمدوا إلى قتل الهداة والقادة إلى طريق الحق من أنبياء الله، إيغالاً منهم في اتّباع طريق الباطل والابتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجة من العناد والصلف والوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية والاستهزاء، ووصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة إنّ قلوبهم تغطيها حجب عن سماع وقبول قول الأنبياء! تقول الآية الأُولى من الآيات الأربع الأخيرة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم[1] مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾.

وهنا يؤكّد القرآن الكريم أنّ قلوب هؤلاء مختومة حقاً، بحيث لا ينفذ إليها أي حقّ، وسبب ذلك هو كفرهم وانعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم وصلفهم إلاّ القليل منهم.

وقد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ، فألصقوا بمريم العذراء الطاهرة تهمة شنيعة وبهتاناً عظيماً، هي أُمّ لأحد أنبياء الله الكبار، وذلك لأنّها حملت به بإذن الله دون أن يمسّها رجل، تقول الآية في هذا المجال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾.

وقد تباهى هؤلاء الجناة وافتخروا بقتلهم الأنبياء، وزعموا أنّهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، تقول الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ولعل هؤلاء كانوا يأتون بعبارة «رسول الله» استهزاءً ونكاية، وقد كذبوا في دعواهم هذه قتل المسيح، فهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل صلبوا شخصاً شبيهاً بعيسى المسيح عليه السلام، وإلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

وأكّدت الآية أنّ الذين اختلفوا في أمر المسيح عليه السلام كانوا - هم أنفسهم - في شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن ويعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام والظن، تقول الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾.

وقد بحث المفسّرون حول موضوع الخلاف الوارد في هذه الآية، فاحتمل بعضهم أن يكون الخلاف حول منزلة ومقام المسيح عليه السلام حيث اعتبره جمع من المسيحيين ابناً لله، ورفض البعض الآخر - كاليهود - كونه نبيّاً، وإن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

---

(١) إنّ عبارة ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ من ناحية الإعراب جار ومجرور، ويجب أن يكون لها عامل محذوف قد يكون تقديره «لعناهم» أو جملة «حرّمنا عليهم» الواردة في الآية (١٦٠) التالية، وعلى هذا الأساس فإن ما ورد في هذا الإطار يكون بمثابة جملة معترضة، تضفي في مثل هذه الحالة جمالاً أكثر على الكلام القرآني البليغ.

وقد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفية قتل المسيح عليه السلام حيث قال البعض بأنّه قتل، وقال آخرون بأنّه لم يقتل، ولم يكن أي من هاتين الطائفتين ليثق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا في شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح عليه السلام، فاختلفوا في الذي قتلوه هل كان هو المسيح، أو هو شخص غيره...؟!

ويأتي القرآن ليؤكّد هنا أنّ هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبداً، بل رفعه الله إليه، والله هو القادر على كل شيء، وهو الحكيم لدى فعل أي شيء، تقول الآية: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

أسطورة الصّليب؟

يؤكّد القرآن الكريم في الآية المارة الذكر على أنّ المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، بل اشتبه الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه، وهم لم يقتلوه أبداً!

أمّا الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم في متناول أيدينا فهي كلها تقول بأنّ المسيح عليه السلام قد صلب وقتل على هذه الصورة، وقد جاء هذا القول في الفصول الأخيرة من هذه الأناجيل الأربعة «متى - لوقا - مرقس - يوحنا» وبصورة تفصيلية.

والمسيحيون اليوم يعتقدون هذا الأمر بصورة عامّة، ومسألة الصلب أو قتل المسيح عليه السلام تعتبر اليوم أحد أهم المسائل الأساسية للديانة المسيحية، ونحن نعلم أنّ المسيحيين اليوم لا يعتبرون المسيح عليه السلام مجرّد نبي أُرسل لهداية وإرشاد البشرية، بل يعتقدون أنّه «ابن الله» من أركان الثالوث المقدس لديهم، ويزعمون أنّ هدف مجيء المسيح إلى هذا العالم ليكون قرباناً يفتدي بنفسه الخطايا والآثام التي يرتكبها البشر.

فيقولون: إنّه جاء ليضحي بنفسه من أجل ذنوبهم وخطاياهم، وقد صلب وقتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، ولينقذ البشرية من العقاب، ولذلك فهم يعتقدون أنّ طريق الخلاص والنجاة من العذاب والعقاب هو الإيمان بهذا الموضوع.

ومن هذا المنطلق فهم - أحياناً - يدعون المسيحية بدين «الإنقاذ» أو دين «الفداء» ويسمّون المسيح عليه السلام بـ«المنقذ» أو «المخلص» أو «الفادي».

واعتمادهم المفرط على الصليب واتخاذه شعاراً لأنفسهم إنّما يرتكز على قضية القتل والصلب هذه.

كانت تلك نبذة عن عقيدة المسيحيين حول مصير المسيح عليه السلام.

أمّا المسلمون فلا يشك أحدهم ببطلان وزيف هذه العقيدة، والسبب أنّ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، كان نبيّاً كسائر أنبياء الله، ولم يكن هو الله ولا ابن الله، لأنّ الله واحد أحد فرد صمد لا شبيه ولا مثيل ولا زوج له ولا ولد، هذا أولاً . . .

وثانياً: إنّ مسألة الفداء والتضحية من أجل خطايا الآخرين، تعتبر مسألة بعيدة عن المنطق كل البعد، فكل إنسان يؤاخذ بجريرته وعمله، وإنّ طريق النجاة والخلاص يكون في الإيمان والعمل الصالح فقط.

وثالثاً: إنّ عقيدة الفداء من أجل الخطايا تعتبر خير مشجع على الفساد وممارسة الذنوب، وتؤدّي بالبشرية إلى التلوث والهلاك.

في حين تلاحظ أن القرآن يؤكّد على قضية عدم صلب المسيح عليه السلام مع أنّ هذه القضية تظهر للعيان وكأنّها مسألة اعتيادية بسيطة، من أجل دحض عقيدة الفداء الخرافية بشدّة، لمنع المسيحيين من الإيغال في هذا الاعتقاد الفاسد، ولكي يؤمنوا بأنّ طريق الخلاص والنجاة إنّما هو في أعمالهم هم أنفسهم وليس في ظل الصليب.

رابعاً: هناك قرائن موجودة تثبت وهن وضعف قضية الاعتقاد بصلب المسيح عليه السلام هي:

١ - المعروف أنّ الأناجيل الأربعة المتداولة في الوقت الحاضر، والتي تشهد بصلب المسيح عليه السلام - كانت قد دوّنت بعده بسنين طويلة، وقد دوّنها حواريّوه أو التالون من أنصاره عليه السلام - وهذه حقيقة يعترف بها حتى المؤرخون المسيحيون.

كما نعرف أيضاً أنّ حواريّي المسيح عليه السلام قد هربوا حين هجم الأعداء عليه، والأناجيل نفسها تشهد بهذا الأمر(١) وعلى هذا الأساس فإنّ هؤلاء الحواريين قد تلقفوا مسألة صَلب عيسى المسيح عليه السلام من أفواه الناس الآخرين، ولم يكونوا حاضرين أثناء تنفيذ عملية الصلب، وقد أدّت التطورات التي حصلت آنذاك إلى تهيئة الأجواء المساعدة للاشتباه بشخص آخر وصلبه بدل المسيح عليه السلام، وسنوضح هذا الأمر فيما يلي من حديثنا.

---

(١) لقد ترك الحواريون المسيح عليه السلام في ذلك الوقت وهربوا كلهم . . . (من إنجيل متى، الإصحاح ٢٦ الجملة ٥٧).

٢ - إنّ العامل الآخر الذي يجعل من الاشتباه بشخص آخر بدل المسيح عليه السلام أمراً محتملا هو أنّ المجموعة التي كلّفت بالقبض على عيسى المسيح عليه السلام والتي ذهبت إلى بستان «جستيماني» كانت تتشكل من أفراد الجيش الرومي الذين كانوا منهمكين في أُمور عسكرية، فهم لم يكونوا يعرفون اليهود ولغتهم وتقاليدهم، كما لم يميزوا بين حواريّي المسيح عليه السلام وبين المسيح نفسه.

٣ - تذكر الأناجيل أن الهجوم على مقر عيسى المسيح عليه السلام قد تمّ ليلاً، وبديهي أنّ ظلام الليل يعتبر خير ستار للشخص المطلوب ليتخفى به ويهرب، وليقع شخص آخر في أيدي المهاجمين.

٤ - يستنتج من نصوص جميع الأناجيل أنّ المقبوض عليه قد اختار الصمت أمام بيلاطيس الحاكم الرومي لبيت المقدس - آنذاك - ولم يتفوه إلاّ بالقليل دفاعاً عن نفسه ويستبعد كثيراً أن يقع عيسى المسيح عليه السلام في خطر كهذا ولا يدافع عن نفسه بما يستحقه الدفاع عن النفس، وهو المعروف بالفصاحة والبلاغة والشجاعة والشهامة.

ألا يحتمل في هذا المجال أن يكون شخص آخر - كيهوذا الأسخريوطي الذي خان ووشى بعيسى المسيح عليه السلام وكان يشبهه كثيراً - قد وقع هو بدل المسيح في الأسر وأنّه لهول الموقف قد استولى عليه الخوف والرعب، فعجز عن الدفاع عن نفسه أو التحدث أمام الجلادين بشيء.

نقرأ في الأناجيل أنّ يهوذا الأسخريوطي لم يظهر بعد حادثة الصّلب أبداً، وأنّه - كما تقول هذه الأناجيل - قد قتل نفسه وانتحر[١].

٥ - لقد بيّنا أنّ حواريّي المسيح عليه السلام - وكما ذكرت الأناجيل - قد هربوا حين أحسوا بالخطر يحدق بهم، كما هرب واختفى الأنصار الآخرون، وأخذوا يراقبون الأوضاع عن بعد، بحيث أصبح الشخص المقبوض عليه وحيداً بين الجنود الرومان، ولم يكن أي من أصحابه قريباً منه، ولذلك لا يستبعد ولا يبدو غريباً أن يقع خطأ أو سهو في تشخيص هوية الشخص المقبوض عليه.

٦ - ونقرأ في الأناجيل - أيضاً - أنّ الشخص المصلوب قد اشتكى من ربه (وليس لربّه) لأنّه - بحسب قوله - قد جفاه وتركه بأيدي الأعداء ليقتلوه[٢]!

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح ٣٧، الجملة ٦.

(٢) إنجيل متى - الإصحاح ٢٧، الجملتان ٤٦ و٤٧.

فلو صدقنا مقولة أنّ المسيح جاء لهذه الدنيا ليصلب ولينقذ بصلبه البشرية من عواقب خطاياهم وآثامهم، فلا يليق لمن يحمل هدفاً سامياً كهذا الهدف أن يصدر منه هذا الكلام، وهذا دليل على أن الشخص المصلوب لم يكن المسيح نفسه، بل كان إنساناً ضعيفاً وجباناً، وعاجزاً، ومثل هذا الإنسان يمكن أن يصدر منه كلام كالذي سبق، لا يمكن أن يكون هذا الإنسان هو المسيح عليه السلام [١].

٧ - لقد نفت بعض الأناجيل الموجودة مثل إنجيل «برنابا» قضية صلب المسيح عليه السلام: «وهذا الإنجيل هو غير الأناجيل الأربعة التي يقبلها المسيحيون» كما أنّ بعضاً من الطوائف المسيحية أبدت شكوكها حول قضية الصلب[٢] وقد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا، فادعوا بأنّ التاريخ قد ذكر شخصين باسم «عيسى» أحدهما عيسى المصلوب والآخر هو عيسى غير المصلوب وبينهما فاصل زمني يقدر بخمسمائة عام[٣].

كانت تلك مجموعة من القرائن المؤيدة لقول القرآن الكريم في قضية الشبه الحاصل في قتل أو صلب المسيح عليه السلام.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

التّفسير

هنالك احتمالان في تفسير هذه الآية، وكل واحد منهما جدير بالملاحظة من جوانب متعددة:

١ - إنّ الآية تؤكّد أنّ أي إنسان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح عليه السلام حيث تقول: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ...﴾ وأن هذا الأمر يتمّ حين يشرف الإنسان على الموت وتضعف صلته بهذه الدنيا، وتقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، وترفع عن عينيه الحجب فيرى بعد ذلك الكثير من الحقائق ويدركها، وفي هذه اللحظة يرى المسيح بعين بصيرته ويؤمن به، فالذين أنكروا

(١) لقد اقتبسنا عدداً من القرائن المذكورة أعلاه من كتاب «بطل الصليب».
(٢) تفسير المنار، ج ٧، ص ٣٤. (٣) تفسير الميزان، ج ٣، ص ٣٤٥.

نبوته يؤمنون به، والذين وصفوه بالألوهية يدركون في تلك اللحظة خطأهم وانحرافهم.

وبديهي أنّ مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه، كما أنّ فرعون والأقوام الأخرى وأقوام استولى عليهم العذاب، فقالوا: آمنا فلم ينفعهم إيمانهم أبداً، فالأجدر بالإنسان أن يؤمن قبل أن تدركه لحظة العذاب عند الموت، حين لا ينفع الإيمان صاحبه.

وتجدر الإشارة - هنا - إلى أنّ الضمير في عبارة ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعود لأهل الكتاب بناء على التّفسير الذي ذكرناه.

٢ - قد يكون المقصود في الآية أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته والمسيحيون يتخلون عن الاعتقاد بربوبية المسيح عليه السلام، ويحدث هذا - طبقاً للروايات الإسلامية - حين ينزل المسيح عليه السلام من السماء لدى ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، وواضح أنّ عيسى المسيح سيعلن في مثل هذا اليوم انضواءه تحت راية الإسلام، لأنّ الشريعة السماوية التي جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام، ولذلك فهي منسوخة به[(١)].

وبناء على هذا التّفسير فإن الضمير في عبارة ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلى عيسى المسيح عليه السلام.

وقد نقل عن النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «كيف بكم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم»[(٢)] وطبيعي أنّ هذا التّفسير يشمل اليهود والمسيحيين الموجودين في زمن ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، ونزول عيسى المسيح عليه السلام من السماء.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم نقلاً عن شهر بن حوشب أنّ الحجاج ذكر يوماً أنّ هناك آية في القرآن قد أتعبته كثيراً وهو حائر في معناها، فسأله شهر عن الآية، فقال الحجاج: إنّها آية ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وذكر أنّه قتل يهوداً ومسيحيين ولم يشاهد فيهم أثراً لمثل هذا الإيمان.

فأجابه شهر بأنّ تفسيره للآية لم يكن تفسيراً صحيحاً، فاستغرب الحجاج وسأل عن التّفسير الصحيح لها، فأجاب شهر بأنّ تفسير الآية هو أنّ المسيح ينزل من السماء قبل

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٣٦؛ عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) مسند أحمد، ج ٢، ص ٣٣٦؛ وصحيح البخاري، ج ٤، ص ١٤٣؛ وصحيح مسلم، ج ١، ص ٩٤؛ وتفسير الميزان، ج ٥، ص ١٤٤.

نهاية العالم، فلا يبقى يهودي أو غير يهودي إلاّ ويؤمن بالمسيح قبل موته، وأنّ المسيح سيقيم الصّلاة خلف المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فلما سمع الحجاج هذا الكلام قال لشهر ويلك من أين جئت بهذا التّفسير؟ فأجابه شهر بأنّه قد سمعه من محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وعند ذلك قال الحجاج: «والله جئت بها من عين صافية»(١).

وتقول الآية في الختام: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي شهادة المسيح عليه السلام على قومه بأنّه قد بلّغهم رسالة الله ولم يدعهم لاتّخاذه إلهاً من دون الله، بل دعاهم إلى الإقرار بربوبية الله الواحد القهار.

سؤال:

وقد يعترض البعض بأنّ المسيح عليه السلام - كما جاء في الآية (١١٧) من سورة المائدة - إنّما يقصر شهادته على الزمن الذي كان هو موجوداً فيه بين قومه ويتنصل من الشهادة بالنسبة للأزمنة التي جاءت بعده، وذلك بدلالة الآية التي جاءت على لسانه وهي تقول:

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لكن الآية التي هي موضوع بحثنا الآن تدل على أنّ المسيح عليه السلام يشهد على الجميع يوم القيامة، سواء أُولئك الذين كانوا في عصره وزمانه أو الذين لم يكونوا في ذلك الزمان.

الجواب:

والجواب عن هذا الاعتراض أنّنا لو أمعنا النظر في مضمون الآيتين المذكورتين، لرأينا أنهما تدلان على أنّ الآية الأخيرة التي هي موضوع البحث - تتحدث عن الشهادة حول تبليغ الرسالة ونفي الألوهية عن المسيح عليه السلام بينما الآية (١١٧) من سورة المائدة تشهد على أعمال أُولئك القوم.

فالآية الأخيرة تذكر أنّ عيسى المسيح عليه السلام سيشهد على جميع الذين نسبوا له الأُلوهية، سواء من كانوا في زمانه أو من جاءوا بعد ذلك الزمان، وأن المسيح عليه السلام يؤكّد أنّه لم يدع هؤلاء القوم إلى مثل هذا الأمر أبداً، بينما الآية (١١٧) من سورة المائدة تذكر

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢٦.

على لسان المسيح عليه السلام أنّه علاوة على الدعوة لرسالته بالأُسلوب الصحيح، فهو قد حال طيلة فترة بقائه بين قومه - دون انحرافهم، إلاّ أنّهم انحرفوا بعده ونسبوا له الألوهية في زمن لم يكن هو موجوداً بينهم، ليشهد على أعمالهم وليحول دون انحرافهم.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

التّفسير

مصير الصالحين والطالحين من اليهود

لقد أشارت الآيات السابقة إلى نماذج من انتهاكات اليهود، أما الآيات الأخيرة فإنّما ذكرت نماذج أُخرى من تلك الانتهاكات، وبيّنت العقوبات التي استحقها اليهود بسبب تمردهم وعصيانهم، والعذاب الذي لاقوه وسيلاقونه نتيجة لذلك في الدنيا والآخرة.

فالآية الأُولى من الآيات الأخيرة تبيّن أنّ الله قد حرّم بعضاً من الأشياء الطاهرة على اليهود بسبب ممارستهم الظلم والجور، وتصديهم للسائرين في طريق الله، حيث تقول الآيـــة: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ كما عاقبهم الله بالحرمان من تلك الطيبات لتعاملهم بالربا على الرغم من منعهم من ممارسة المعاملات الربوية ولاستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعة، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾.

وتؤكّد الآية أنّ عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصر على العقاب الدنيوي، بل سيذيقهم الله - أيضاً - عقاب وعذاب الآخرة الأليم الذي يشمل الكافرين من اليهود، تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وتجدر الإشارة هنا إلى عدة أمور، وهي:

من سورة الأنعام، والتي شملت بعض الحيوانات وشحوم حيوانات أُخرى كالبقر والأغنام التي أحبّها اليهود، ولم يكن هذا التحريم تحريماً تكوينياً، بل كان تحريماً تشريعياً قانونياً، أي أن اليهود منعوا من استعمال هذه النعم مع أنّها كانت متيسرة في أيديهم.

وقد جاء ذكر بعض هذا التحريم في التوراة المتداولة بيد اليهود حالياً، في «سفر اللاويين» في الفصل الحادي عشر، ولكن لم تشر التوراة الحالية إلى الطابع العقابي لهذا التحريم(١).

٢ - أمّا هل أنّ هذا التحريم يتميز بطابع شمولي، أي هل يشمل غير الظالمين من اليهود، أم يخص الظالمين وحدهم؟ فإنّ ظاهر الآية المذكورة أعلاه والآية (١٤٦) من سورة الأنعام، يدلان على أنّ التحريم له طابع عام بدلالة عبارة «لهم» على عكس العقاب الأُخروي الذي تخصصه الآية ﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾، وعلى هذا الأساس فإن هذا التحريم له طابع عقابي بالنسبة للظالمين من اليهود، كما يحمل طابع الاختبار والامتحان بالنسبة لأخيارهم الذين يشكلون الأقلية فيهم.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذا التحريم يشمل الظالمين من اليهود فقط، كما تدل بعض الروايات على هذا الرأي - أيضاً - فقد جاء في تفسير البرهان في تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام، نقلاً عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ زعماء بني إسرائيل كانوا قد حرّموا على فقراء طائفتهم أكل لحوم الطيور وشحوم الحيوانات، ولهذا السبب حرم الله على هؤلاء الظالمين مثل هذه الطيبات عقاباً لهم على ظلمهم وجورهم»(٢).

٣ - وتدل هذه الآية - أيضاً - على أنّ قانون تحريم «الربا» لم يقتصر على الإسلام وحده، بل كان محرماً لدى الأقوام والديانات السابقة، والتوراة المتداولة حالياً والمحرفة إنّما تحرم على اليهود أخذ الربا من أبناء عقيدتهم فقط، ولا تعتبر أخذه من أبناء الديانات الأُخرى حراماً عليهم(٣).

وقد أشارت الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة إلى حقيقة مهمّة اعتمدها القرآن الكريم مراراً في آيات متعددة، وهي أنّ ذمّ اليهود وانتقادهم في القرآن لا يقومان على أساس عنصري أو طائفي على الإطلاق، لأنّ الإسلام لم يذم أبناء أي طائفة أو عنصر لانتمائهم

(١) راجع الجزء الثّاني من تفسيرنا هذا الآية ٩٣ من سورة آل عمران.
(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٥٩.
(٣) التوراة، سفر التثنية، الفصل ٢٣، الجملتان ١٩ و٢٠.

الطائفي أو العرقي، بل وجه الذم والانتقاد للمنحرفين والظالمين منهم فقط، لذلك استثنت هذه الآية المؤمنين الأتقياء من اليهود ومدحتهم وبشّرتهم بنيل أجر عظيم، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

وقد آمن جمع من كبار الطائفة اليهودية بالإسلام حين بعث النّبي محمّد ﷺ وحين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقّية الإسلام، ودافع هؤلاء بأرواحهم وأموالهم عن الإسلام، وكانوا موضع احترام وتقدير النّبي ﷺ وسائر المسلمين.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

التّفسير

لقد تناولت الآيات السابقة مسألة التمييز الذي مارسه اليهود بشأن الأنبياء، حيث كانوا يؤمنون ويصدقون ببعض أنبياء الله تعالى ويكفرون بالبعض الآخر منهم.

أمّا الآيات أعلاه فهي ترد على اليهود، وتؤكّد أنّ الله أوحى إلى نبيّه محمّد ﷺ كما أنزل الوحي على أنبيائه نوح والنّبيين الذين جاءوا من بعد نوح، وكما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وأنزل الوحي على الأنبياء من أبناء يعقوب، وعلى عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان عليهم السلام، وكما أنزل الله على داود عليه السلام كتاب

(١) لقد شرحنا بنوع من التفصيل، معنى عبارة ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك في الجزء الثّاني من تفسيرنا هذا.

الزّبور، حيث تقول الآية: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

وهذه الآية تردّ على اليهود مؤكّدة أنّ شرائع الأنبياء العظام مستقاة كلها من ينبوع الوحي الإلهي، وأنّهم جميعاً يسيرون في طريق واحد، ولذلك لا تجوز التفرقة بينهم.

وقد تكون هذه الآية خطاباً للمشركين والكفار من عرب الجاهلية، الذين كانوا يظهرون الدهشة والعجب من نزول الوحي على نبيّ الإسلام محمّد ﷺ، فهي تردّ على هؤلاء مؤكّدة أن لا عجب في نزول الوحي على محمّد ﷺ وقد نزل قبل ذلك على الأنبياء السابقين.

ثمّ تبيّن الآية أنّ الوحي لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء، بل نزل على أنبياء آخرين حكى الله قصصهم للنّبي محمّد ﷺ من قبل، وأنبياء لم يذكر الله قصصهم، وكل هؤلاء الأنبياء أرسلهم الله إلى خلقه، وأنزل عليهم الوحي من عنده، تقول الآية: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾.

وتبيّن هذه الآية في آخرها قضية مهمّة جدّاً، وهي أنّ الله قد كلّم موسى بدل أن ينزل عليه الوحي، فتقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

وعلى هذا الأساس فإنّ صلة الوحي ظلت باقية بين البشر، ولم يكن من عدل الله أن يترك البشر دون مرشد أو قائد، أو أن يتركهم دون أن يعيّن لهم واجباتهم وتكاليفهم، وهو الذي بعث الأنبياء والرسل للبشر مبشرين ومنذرين، لكي يبشروا الناس برحمته وثوابه، ويُنذروهم من عذابه وعقابه لكي تتمّ الحجة عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجّة، تقول الآية: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾.

فقد أحكم الله العزيز القدير خطّة إرسال الأنبياء ونفّذها بكل دقّة، وبهذا تؤكّد الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فحكمته توجب تحقيق هذا العمل، وقدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه، وعلى عكس ذلك فإن إهمال هذا الأمر المهم، إمّا أن يدل على الافتقار إلى الحكمة والمعرفة، أو أنه دلالة على العجز، والله منزّه عن كل هذه العيوب.

أمّا الآية الأُخرى فهي تطمئن النّبي ﷺ وتوضح له أنّ المهم هو أنّ الله قد شهد بما أنزل عليه من كتاب، وليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به، فتؤكّد الآية في هذا المجال: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ﴾.

ولم يكن اختيار الله لمحمّد ﷺ لمنصب النّبوة أمراً عبثاً - والعياذ بالله - بل كان هذا الاختيار نابعاً من علم الله بما كان يتمتع به النّبي من لياقة وكفاءة لهذا المنصب العظيم، ولنزول آيات الله عليه - حيث تقول الآية: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾.

ويمكن - أيضاً - أن تشمل هذه الآية معنى آخر، وهو أن ما نزل على النّبي ﷺ من آيات إنّما ينبع من بحر علم الله اللامتناهي، وأن محتوى هذه الآيات يعتبر دليلاً واضحاً على أنّها نابعة من علم الله. وعلى هذا الأساس فإن الشاهد على صدق ادعاء النّبي ﷺ هو الآيات القرآنية، ولا يحتاج إلى دليل آخر لإثبات دعوته، فلو لم يكن محمّد ﷺ يتلقى الوحي من قبل الله سبحانه وتعالى لما أمكنه أبداً - وهو المعروف بالأُمي - أن يأتي بكتاب كالقرآن يشتمل على أرفع وأسمى التعاليم والفلسفات والقوانين والمبادىء الأخلاقية والبرامج الاجتماعية.

والقرآن الكريم يؤكّد أن ليس الله وحده الذي يشهد بأنّ دعوة محمّد ﷺ هي الحق، بل يشهد معه ملائكته بأحقّية هذه الدعوة، مع أن شهادة الله كافية وحدها في هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ويجب - هنا - الانتباه إلى عدّة أُمور، وهي:

١ - إنّ بعض المفسّرين فهموا من عبارة ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ أنّها تهدف إلى بيان حقيقة عن النّبي ﷺ وهي أنّ جميع الخصائص التي وردت في الشرائع السماوية التي نزلت على الأنبياء قبله، جاءت مجتمعة في الشريعة التي أنزلها الله عليه، وأنّ كل خصلة اتصف بها عباد الله الصالحون موجودة فيه ﷺ.

وقد أشارت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى هذا الموضوع أيضاً فكان ما استلهمه المفسّرون من هذه الآية نابعاً أو مستنداً على تلك الروايات(١).

٢ - نقرأ في الآيات الأخيرة أنّ الزّبور من الكتب السماوية أنزله الله على داود. ولا يتنافى هذا مع ما ورد من أنّ الأنبياء أُولي العزم الذين نزلت عليهم كتب من الله هم خمسة أنبياء فقط، حيث إنّ الآيات القرآنية والروايات الإسلامية توضح أن الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء كانت على نوعين، هما:

النّوع الأوّل: الكتب التي اشتملت على الأحكام التشريعية، حيث إنّ كل كتاب من

(١) راجع تفسير الصافي، ج ١، ص ٥٢١، والبرهان ج ١، ص ٤٢٧، ونور الثقلين، ج ١، ص ٥٧٣.

هذه الكتب قد أعلن عن شريعة جديدة، وإنّ هذه الكتب السماوية هي خمسة فقط نزلت على خمسة أنبياء هم «أُولو العزم».

النّوع الثّاني: الكتب التي لم تحتوِ على أحكام جديدة، بل كان فيها الحكم والنصائح والإرشادات والوصايا وأنواع الدعاء، وكتاب الزّبور الذي نزل على داود عليه السلام من هذا النّوع الثّاني من الكتب السماوية. - ومزامير داود أو زبور داود الذي ورد اسمه في العهد القديم دليل على هذا الأمر الذي أثبتناه، مع العلم أنّ كتاب العهد القديم لم يسلم من التحريف، كما لم تسلم كتب العهد الجديد والقديم الأُخرى من التحريف أيضاً، إلاّ أنّ ما يمكن قوله هو أنّ هذه الكتب قد احتفظت نوعاً ما بشكلها القديم.

وكتاب مزامير داود يشتمل على مائة وخمسين فصلاً، يسمى كل فصل منه «مزمور» وهو من أوّله إلى آخره يشتمل على صنوف النصح والإرشاد والدعاء والمناجاة.

ونقل عن أبي ذر رضي الله عنه أنّه سأل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عدد الأنبياء فأجابه النّبي بأنّ عددهم يبلغ مائة وأربعاً وعشرين ألفاً، فسأل أبو ذر رضي الله عنه عن عدد الرسل من بين هؤلاء الأنبياء فأجابه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: بأنّ عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً والباقون كلهم أنبياء... فسأل أبو ذر مرة أُخرى عن عدد الكتب السماوية التي نزلت على أُولئك الأنبياء والرسل، فأجابه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّها مائة وأربعة كتب، نزل عشرة منها على آدم، ونزل خمسون منها على شيث، وثلاثون على إدريس، وعشرة كتب على إبراهيم، حيث يصبح مجموع هذه الكتب مائة كتاب، والأربعة الأُخرى هي التوراة، والإنجيل والزبور والقرآن(١).

٣ - إنّ عبارة «أسباط» صيغة للجمع ومفردها «سبط» ومعناها طوائف بني إسرائيل، ولكن المقصود منها في الآية هم الأنبياء الذين بعثوا من هذه الطوائف(٢).

٤ - لقد كان نزول الوحي على الأنبياء يتمّ بصور مختلفة، فمرّة ينزل بالوحي ملك من الملائكة المكلفين به وأحياناً يلقى الوحي على النّبي بواسطة الإلهام القلبي، وأُخرى ينزل بصورة صوت يسمعه النّبي، أي إنّ الله يخلق الأمواج الصوتية في الفضاء أو الأجسام فيسمعها أنبياؤه وبهذه الواسطة كان يتمّ التخاطب بينهم وبين الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٤٧٦.

(٢) لقد ورد ذكر الأسباط بالتفصيل في الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

ومن الذين حظوا بمزية التخاطب مع الله النّبي موسى بن عمران عليه السلام، فكان يسمع الصوت، أحياناً من شجرة في الوادي الأيمن، وأحياناً في جبل طور، ولذلك لقب هذا النّبي بلقب «كليم الله»، ولعل مجيء اسم النّبي موسى عليه السلام في الآيات الأخيرة بصورة منفصلة كان من أجل بيان هذه الخصيصة التي امتاز بها موسى عليه السلام على غيره من أنبياء الله عليهم السلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

التّفسير

جرى البحث في الآيات السابقة حول المؤمنين وغير المؤمنين، أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فهي تشير إلى مجموعة اختارت أقبح أنواع الكفر، فهؤلاء - بالإضافة إلى انحرافهم وضلالهم - سعوا إلى تحريف وإضلال الآخرين، وقد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا وظلموا الآخرين معهم لأنّهم لم يسيروا في طريق الحق ولم يسمحوا للآخرين - أيضاً - باتّباع هذا السبيل، والآية الكريمة تصف هؤلاء بأنّهم في ضلال بعيد وذلك بقولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

فلماذا - يا ترى - استحق هؤلاء الإبعاد عن طريق الحق؟ إنّهم استحقوا ذلك لدعوتهم الآخرين إلى طريق الضلال، حيث من المستبعد جدّاً أن يتخلوا عن طريق هم يدعون الآخرين لاتّباعه - فقد خلط هؤلاء كفرهم بالعناد، ووضعوا أقدامهم في طريق الضلال والانحراف، وابتعدوا بذلك كثيراً عن طريق الحق والصواب.

أمّا الآية الأُخرى فتشير إلى الذين كفروا وظلموا، إذ ظلموا الحق أوّلاً لعدم التزامهم بالصواب، كما ظلموا أنفسهم بذلك - أيضاً - إذ حرموها من السعادة وسقطوا في هوّة الضلالة، وظلموا الآخرين حين منعوهم من التوجه إلى طريق الحق والصواب، فهؤلاء لن يشملهم أبداً عفو الله، وإنّ الله لا يهديهم أبداً إلاّ إلى طريق جهنم، تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

فهؤلاء باقون وخالدون في جهنم دائماً وأبداً، كما تقول الآية: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾.

وعلى هؤلاء أن يعلموا أنّ وعد الله حق، وأن تهديده يتحقق لا محالة، فليس ذلك على الله بالأمر الصعب تقول الآية: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

ونشاهد في الآيتين المذكورتين تأكيداً من طراز خاص حول هذا النوع من الكفّار والعقوبات التي ينالونها - فمن جهة يوصف انحرافهم بالضلال البعيد، ومن جهة ثانية تؤكّد الآية باستخدام عبارة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ...﴾ أنّ العفو عن هؤلاء الكفّار لا يليق بمنزلة الله سبحانه وتعالى، ومن جانب آخر فقد جاء التأكيد على خلود هؤلاء في النار والتشديد على أنّه خلود أبدي، لأنّ هؤلاء وأمثالهم بالإضافة إلى خروجهم عن جادة الحق وانحرافهم، سعوا إلى إبعاد وحرف الآخرين عن هذا السبيل، وبذلك تحملوا مسؤولية وإثماً عظيماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

التّفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة نهاية وعاقبة الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أمّا الآية الأخيرة فهي تدعو إلى الإيمان وتبيّن نتيجة هذا الإيمان، وتستخدم في ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامي عبارات واصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبة والاندفاع نحو الإيمان.

وهذه الآية تشير في البداية إلى أنّ النّبي المرسل هو ذلك الذي كان ينتظر الناس ظهوره، والذي أشارت إليه الكتب السماوية السابقة، وهو يحمل إليهم شريعة الحق والعدالة فتقول الآية في هذا المجال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ(١) بِٱلْحَقِّ﴾(٢).

---

(١) يبدو من سياق الآية أنّ حرفي «ال» الداخلة على كلمة «رسول» هما «ال» العهدية، وفيها إشارة إلى النّبي الذي كانوا ينتظرون قدومه، ولم يقتصر هذا الإنتظار على اليهود والنصارى وحدهم، بل إنّ المشركين - أيضاً - كانوا يتوقعون - لما سمعوه من أهل الكتاب - ظهور النّبي صلى الله عليه وآله.

(٢) لقد فسّرت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام كلمة «الحق» الواردة في الآية إشارة إلى ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد بيّنا سابقاً أن مثل هذه التفاسير واضحة في بيان المصاديق، وهي لا تدل على الحصر. راجع اصول الكافي، ج ١، ص ٤٢٤؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٧٦.

ثمّ تردف الآية بأنّ هذا النّبي قد جاء إلى الناس من الله الذي تعهد تربية الخلق أجمعين، وذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة في هذه الآية، وهي عبارة: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

وبعد ذلك تؤكّد الآية - على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائدته ويعود نفعه عليهم أنفسهم، أي أنّ الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم غيره تقول الآية: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

كما تؤكّد الآية في النهاية على أن من يتخذ الكفر سبيلاً لنفسه فلن يضرّ الله بعمله هذا أبداً، لأن الله يملك كل ما في السماوات وما في الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أي شيء من الآخرين، تقول الآية في هذا الصدد: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وتبيّن الآية في النهاية أنّ أحكام الله وأوامره كلّها لمصلحة البشر، لأنّها نابعة من حكمة الله وعلمه وهي قائمة على أساس تحقيق مصالح الناس، ومنافعهم الخيّرة، فتقول الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ومن المنطلق نفسه فإنّ ما أرسله الله من شرائع لتنظيم الحياة الاجتماعية للبشر بواسطة الأنبياء عليهم السلام، لم يكن - مطلقاً - لحاجة الله إلى ذلك، بل إنّه نابع من علمه وحكمته، فهل يحق للبشر بعد هذا البيان أن يتركوا طريق الإيمان ويتبعوا سبيل الكفر؟

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

التّفسير

أُسطورة التثليث الوهمية

تتطرق هذه الآية والآية التي تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أي وجود آلهة ثلاثة ويأتي التطرق إلى

هذا البحث في سياق البحوث القرآنية التي وردت في الآيات السابقة عن أهل الكتاب والكفّار.

فهذه الآية تحذر في البداية أهل الكتاب من المغالاة والتطرف في دينهم، وتدعوهم إلى أن لا يقولوا على الله غير الحق، حيث تقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾.

لقد كانت قضية الغلوّ في حق القادة السابقين أحد أخطر منابع الانحراف في الأديان السماوية، فالإنسان بما أنّه يميل إلى ذاته يندفع بهذا الميل إلى إظهار زعمائه وقادته بصورة أكبر ممّا هم عليه، لكي يضفي على نفسه الأهميّة والعظمة من خلال هؤلاء القادة، وقد يدفع الإنسان التصور الواهي بأن الإيمان هو المبالغة والغلو في احترام وتعظيم القادة، إلى الوقوع في متاهات هذا النوع من الانحراف الرهيب.

والغلو في أصله ينطوي على عيب كبير يفسد العنصر الأساسي للدين - الذي هو عبادة الله وتوحيده - ولهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف وشدّة، إذ عرّفت كتب الفقه والعقائد هذه الفئة من الناس بأنّهم أشد كفراً من الآخرين.

بعد ذلك تشير الآية الكريمة إلى عدّة نقاط، يعتبر كل واحد منها في حدّ ذاته دليلاً على بطلان قضية التثليث، وعدم صحة أُلوهية المسيح عليه السلام، وهذه النقاط هي:

١ - لقد حصرت الآية بنوّة السيد المسيح عليه السلام بمريم عليها السلام ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وإشارة البنوة، هذه الواردة في ستة عشر(١) مكاناً من القرآن الكريم - إنّما تؤكّد أنّ المسيح عليه السلام هو إنسان كسائر الناس، خلق في بطن أُمّه، ومرّ بدور الجنين في ذلك الرحم، وفتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السلام كما يولد أفراد البشر من بطون أُمهاتهم ومرّ بفترة الرضاعة وتربى في حجر أُمّه، ممّا يثبت أنّه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن - وحالة المسيح عليه السلام هذه - أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً، وهو في وجوده محكوم بالظواهر والقوانين المادية الطبيعية ويتأثر بالتحولات الجارية في عالم الوجود؟!

وعبارة الحصر التي هي «إنّما» الواردة في الآية تحصر بنوة المسيح عليه السلام

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧ و ١٥٣؛ آل عمران: ٤٥؛ النساء: ١٥٧ و ١٧١؛ المائدة: ٤٦، ٧٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١١٦؛ مريم: ٣٤؛ الاحزاب: ٧؛الحديد: ٢٧؛ الصف: ٦ و ١٤.

بمريم عليها السلام وتؤكّد على أنه وإن لم يكن له والد، فليس معنى ذلك أنّ أباه هو الله، بل هو فقط ابن مريم عليها السلام.

٢ - تؤكّد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السلام هو رسول الله ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى، وإن هذه المنزلة - أي منزلة النّبوة - لا تتناسب ومقام الألوهية.

والجدير بالذكر أنّ معظم كلام المسيح عليه السلام الوارد قسم منه في الأناجيل المتداولة في الوقت الحاضر، إنّما يؤكّد نبوّته وبعثته لهداية الناس، وليس فيه دلالة على ادعائه الألوهية والربوبية.

٣ - تبيّن الآية أن عيسى المسيح عليه السلام هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم عليها السلام حيث تقول: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

وقد وردت عبارة: «كلمة» في وصف المسيح في عدد من الآيات القرآنية، وهذه إشارة إلى كون المسيح مخلوقاً بشرياً، إذ إن الكلمات مخلوقة من قبل الله، كما أنّ الموجودات في الكون من مخلوقاته عزّ وجلّ، فكما أنّ الكلمات تبيّن مكنونات أنفسنا - نحن البشر - وتدل على صفاتنا وأخلاقياتنا، فإنّ مخلوقات الكون تحكي صفات خالقها وجماله وتدل على جلاله وعظمته.

وعلى هذا الأساس فقد وردت عبارة «كلمة» في عدد من العبارات القرآنية، لتشمل جميع مخلوقات الله، كما في الآية (١٠٩) من سورة الكهف والآية (٢٩) من سورة لقمان، وبديهي أنّ الكلمات الإلهية يتفاوت بعضها مع البعض في المنزلة والأهمّية وعيسى عليه السلام يعتبر إحدى كلمات الله البارزة الأهميّة، لكونه ولد من غير أب، إضافة إلى كونه يتمتع بمقام الرسالة الإلهية.

٤ - تشير الآية إلى أنّ عيسى المسيح عليه السلام هو روح مخلوقة من قبل الله، حيث تقول ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وهذه العبارة التي وردت في شأن خلق آدم - أو بعبارة أُخرى خلق البشر أجمعين - في القرآن الكريم، إنّما تدل على عظمة تلك الروح التي خلقها الله تعالى وأودعها في أفراد البشر بصورة عامّة، وفي المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء بصورة خاصّة.

وعلى الرغم من أنّ البعض أساء الاستفادة من هذه العبارة وفسّرها بأنّ المسيح عليه السلام هو جزء من الله سبحانه وتعالى، مستنداً إلى عبارة «منه» ولكن الواضح في مثل هذه الحالات أنّ كلمة «من» ليست للتبعيض، بل تدل على مصدر ومنشأ وأصل وجود الشيء.

وهناك طرفة تاريخية تذكر أنّه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني، دخل يوماً في نقاش مع علي بن الحسين الواقدي وهو أحد المفكرين الإسلاميين في ذلك العصر، فقال له هذا الطبيب: توجد في كتابكم السماوي آية تبيّن أنّ المسيح عليه السلام هو جزء من الله . . . وتلا هذا النصراني الآية موضوع البحث، فرد عليه الواقدي مباشرة تالياً هذه الآية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1]، وأضاف مبيّناً أنّ كلمة «من» لو كانت تفيد التبعيض، لاقتضى ذلك أن تكون جميع موجودات السماء والأرض - بناء على هذه الآية - جزءاً من الله، فلما سمع الطبيب النصراني كلام الواقدي أسلم في الحال، وسرّ إسلامه هارون الرشيد فكافأ الواقدي بجائزة مناسبة[2].

إنّ ما يثير العجب - إضافة إلى ما ذكر - أنّ المسيحيين يرون ولادة المسيح من أُمّ دون أب دليلاً على أُلوهيته، وهم ينسون في هذا المجال أنّ آدم عليه السلام كان قد ولد من غير أب، ولا أُم، ولم ير أحد هذه الخصيصة الموجودة في آدم دليلاً على ربوبيته.

بعد ذلك تؤكّد الآية على ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنّهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيراً لهم حيث قالت الآية: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾.

وتعيد الآية التأكيد على وحدانية الله قائلة: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ وهي تخاطب المسيحيين لأنّهم حين يدّعون التثليث يقبلون - أيضاً - بوحدانية الله، فلو كان لله ولد لوجب أن يكون شبيهه، وهذه حالة تناقض أساس الوحدانية.

فكيف - إذن - يمكن أن يكون لله ولد، وهو منزّه عن نقص الحاجة إلى زوجة أو ولد، كما هو منزّه عن نقائص التجسيم وأعراضه؟ تقول الآية: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ﴾ والله هو مالك كل ما في السموات وما في الأرض والموجودات كلها مخلوقاته وهو خالقها جميعاً، والمسيح عليه السلام - أيضاً - واحد من خلق الله، فكيف يمكن الادعاء بهذا الاستثناء فيه؟ وهل يمكن للمملوك والمخلوق أن يكون ابناً للمالك والخالق؟! حيث تؤكد الآية: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ والله هو المدبر والحافظ والرازق والراعي لمخلوقاته، تقول الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.
(٢) تفسير المنار، ج ٦، ص ٨٤.

والحقيقة أنّ الله الأزلي الأبدي الذي يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا يحتاج مطلقاً إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكي يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت؟

عقيدة التثليث أكبر خرافة مسيحية

ليس في الانحرافات التي تورط فيها العالم المسيحي أكبر من انحراف عقيدة التثليث، لأنّ المسيحيين يعتقدون صراحة بالثالوث الإلهي، وهم في نفس الوقت يصرحون بأنّ الله واحد! أي إنّهم يرون الحقيقة في التثليث والتوحيد في آن واحد.

وقد خلقت هذه القضية - التي لها حدان متناقضان - مشكلة كبيرة للمفكرين والباحثين المسيحيين.

فلو كان المسيحيون مستعدين لقبول مسألة التوحيد بأنّها «مجازية» وقبول مسألة التثليث بأنّها مسألة حقيقية أو قبول العكس، لأمكن تبرير هذا الأمر، ولكنهم يرون الحقيقة في الجمع بين هذين المتناقضين، فيقولون إنّ الثلاثة واحد كما يقولون إنّ الواحد ثلاثة في نفس الوقت.

وما يلاحظ من ادّعاء في الكتابات التبشيرية الأخيرة للمسيحيين، والتي توزع للناس البسطاء، من أنّ التثليث شيء مجازي، إنّما هو كلام مشوب بالرياء ولا يتلاءم مطلقاً مع المصادر الأساسية للمسيحية، كما لا يتفق مع الآراء والمعتقدات الحقيقية للمفكرين المسيحيين.

ويواجه المسيحيون - هنا - قضية لا تتفق مع العقل فالمعادلة التي افترضوا فيها أنّ ١ = ٣ لا يقبلها حتى الأطفال الذين هم في مرحلة الدراسة الابتدائية. ولهذا السبب ادعوا أنّ هذه القضية لا تقاس بمقياس العقل، وطلبوا الإذعان بها عبر ما سمّوه بالرؤية التعبدية القلبية.

وكان هذا التناقض منشأً للتباعد الحاصل لديهم بين الدين والعقل، وسبباً لجر الدين إلى متاهات خطيرة، الأمر الذي اضطرهم إلى القول بأنّ الدين ليس له صلة بالعقل، أو ليس فيه الطابع العقلاني، وأنّه ذو طابع تعبدي محض.

وهذا هو أساس التناقض بين الدين والعلم في منطق المسيحية، فالعلم يحكم بأنّ الثلاثة لا تساوي الواحد، والمسيحية المعاصرة تصر على أنّهما متساويان!

ويجب الالتفات - هنا - إلى عدّة نقاط حول هذا الاعتقاد المسيحي:

١ - لم يشر أي من الأناجيل المتداولة في الوقت الحاضر إلى مسألة التثليث لذلك يعتقد الباحثون المسيحيون أنّ مصدر التثليث في الأناجيل خفيّ وغير بارز، وفي هذا المجال يقول الباحث الأمريكي المستر هاكس: «إنّ قضية التثليث تعتبر في العهدين القديم والجديد خفية وغير واضحة[١].

وذكر المؤرخون أنّ قضية التثليث قد برزت بعد القرن الثّالث الميلادي لدى المسيحيين وأن منشأ هذه البدعة كان الغلو من جانب، واختلاط المسيحيين بالأقوام الأُخرى من جانب آخر.

ويرى البعض احتمال أن يكون مصدر التثليث عند المسيحيين وارداً من عقيدة الثالوث الهندي، أي عبادة الهنود للآلهة الثلاثة[٢].

٢ - إنّ قضية التثليث القائلة بأنّ الثلاثة واحد تعتبر أمراً غير معقول أبداً، ويرفضها العقل بالبداهة، والشيء الذي نعرفه أنّ الدين لا يمكنه أن يكون منفصلاً عن العقل والعلم، فالعلم الحقيقي والدين الواقعي متفقان كلاهما ومتناسقان دائماً، ولا يمكن القول بأنّ الدين أمر تعبدي محض، لأننا لو أزحنا العقل جانباً عند قبول مبادىء الدين وأذعنّا للعبادة العمياء الصماء، فلا يبقى لدينا ما نميز به بين الأديان المختلفة.

وفي هذه الحالة، أيّ دليل يوجب على الإنسان أن يعبد الله ولا يعبد الأصنام؟ وأيّ دليل يدعو المسيحيين إلى التبشير لدينهم لا للأديان الأُخرى؟

ومن هذا المنطلق فإن الخصائص التي يراها المسيحيون لدينهم ويصرّون على دعوة الناس للقبول بها، هي بحدّ ذاتها دليل على أنّ الدين يجب أن يعرف بمنطق العقل، وهذا يناقض دعواهم حول قضية التثليث التي يرون فيها انفصال الدين عن العقل.

وليس هناك كلام يستطيع تحطيم الدين أشد وأقبح من أن يقال: إنّ الدين لا يمتلك طابعاً عقلانياً ومنطقياً، وإنّه ذو طابع تعبدي محض!

٣ - إنّ الأدلة العديدة التي يستشهد بها - في مجال إثبات التوحيد، ووحدانية الذات الإلهيّة - ترفض كل أنواع التثنية أو التثليث - فالله سبحانه وتعالى وجود مطلق لا يحد بالجهات، وهو أزلي أبدي لا حدود لعلمه ولقدرته ولقوّته.

وبديهي أنّه لا يمكن تصور التثنية في اللامتناهي، لأنّ فرض وجود لامتناهيين يجعل

---

(١) القاموس المقدس، ص ٣٤٥ طبعة بيروت.

(٢) انظر دائرة المعارف للقرن العشرين (لفريد وجدي) في مادة (ثالوث).

من هذين الاثنين متناهيين ومحدودين، لأن وجود الأوّل يفتقر إلى قدرة وقوة ووجود الثّاني كما أنّ وجود الثّاني يفتقر إلى وجود وخصائص الأوّل، وعلى هذا الأساس فإنّ كلا الوجودين محدود.

وبعبارة أُخرى: إنّنا لو افترضنا وجود لامتناهيين من جميع الجهات، فلا بدّ حين يصل اللامتناهي الأوّل إلى تخوم اللامتناهي الثّاني ينتهي إلى هذا الحد كما أنّ اللامتناهي الثّاني حين يصل إلى حد اللامتناهي الأوّل ينتهي هو أيضاً، وعلى هذا الأساس فإنّ كليهما يكونان محدودين ولا تنطبق صفة اللامتناهي على أي منهما، بل هما متناهيان محدودان، والنتيجة أنّ ذات الله - الذي هو وجود لامتناهٍ - لا يمكن أن تقبل التعدد أبداً.

وهكذا فإنّنا لو اعتقدنا بأنّ الذات الإلهيّة تتكون من الأقانيم الثلاثة، لا يستلزم أن يكون كل من هذه الأقانيم محدوداً، ولا تصح فيه صفة اللامحدود واللامتناهي، وكذلك فإنّ أيّ مركّب في تكوينه يكون محتاجاً إلى أجزائه التي تكوّنه، فوجود المركب يكون معلولا لوجود أجزائه.

وإذا افترضنا التركيب في ذات الله لزم أن تكون هذه الذات محتاجة أو معلولة لعلّة سابقة في حين أنّنا نعرف أنّ الله غير محتاج، وهو العلّة الأُولى لعالم الوجود، وعلّة العلل كلها منذ الأزل وإلى الأبد.

٤ - بالإضافة إلى كل ما ذكر، كيف يمكن للذات الإلهيّة أن تتجسد في هيكل إنساني لتصبح محتاجة إلى الجسم والمكان والغذاء واللباس وأمثالها؟

إنّ فرض الحدود لله الأزلي الأبدي، أو تجسيده في هيكل إنسان ووضعه جنيناً في رحم أُمّ، يعتبر من أقبح التهم التي تلصق بذات الله المقدّسة المنزهة عن كل النقائص، كما أنّ افتراض وجود الابن لله - وهو يستلزم عوارض التجسيم المختلفة - إنّما هو افتراض غير منطقي وبعيد عن العقل بعداً مطلقاً.

بدليل أنّ أي إنسان لم ينشأ في محيط مسيحي ولم يتربّ منذ طفولته على هذه التعليمات الوهمية الخاطئة عندما يسمع هذه التعابير المنافية للفطرة الإنسانية والمخالفة لما يحكم به العقل البشري، يشعر بالسخط والاشمئزاز، وإذا كان المسيحيون أنفسهم لا يرون بأساً في كلمات مثل «الله الأب» و«الله الابن» فما ذلك إلاّ لأنّهم جبلوا على هذه التعاليم الخاطئة منذ نعومة أظفارهم.

٥ - لوحظ في السنين الأخيرة أنّ جماعة من المبشرين المسيحيين يلجأون إلى أمثلة سفسطائية من أجل خداع الجهلاء من الناس في قبول قضية التثليث.

من هذه الأمثلة قولهم إنّ اجتماع التوحيد والتثليث معاً يمكن تشبيهه بقرص الشمس والنور والحرارة النابعتين من هذا القرص، حيث إنّها ثلاثة أشياء في شيء واحد.

أو تشبيههم ذلك بانعكاس صورة إنسان في ثلاث مرايا في آن واحد، فهذا الإنسان مع كونه واحداً إلاّ أنّه يظهر وكأنّه ثلاثة في المرايا الثلاث.

كما يشبهون التثليث بالمثلث الذي له ثلاث زوايا من الخارج، ويقولون بأنّ هذه الزوايا لو مدت من الداخل لوصلت كلها إلى نقطة واحدة؟!

لكننا بالتعمق قليلاً في هذه الأمثلة يتبيّن لنا أن لا صلة لها بموضوع بحثنا الحاضر، فقرص الشمس شيء ونورها شيء آخر والنور الذي يتكون من الأشعة فوق الحمراء يختلف عن الحرارة التي تتكون من الأشعة دون الحمراء، وهذه الأشياء الثلاثة تختلف الواحدة منها عن الأُخرى من حيث النظرة العلمية، وهي ليست بمجموعها شيئاً واحداً من خلال هذه النظرة.

وإذا صح القول بأنّ هذه الأشياء الثلاثة شيء واحد، إنّما يكون ذلك من باب التسامح أو التعبير المجازي ليس إلاّ.

والأوضح من ذلك مثال الجسم والمرايا الثلاث، فالصورة الموجودة في المرايا عن الجسم ليست إلاّ انعكاساً للنور، وبديهي أنّ انعكاس النّور عن جسم معين غير ذات الجسم، وعلى هذا الأساس فليس هناك أي اتحاد حقيقي أو ذاتي بين الجسم وصورته المنعكسة في المرآة، وهذه قضية يدركها حتى الدارس المبتدىء لعلم الفيزياء.

أمّا في مثال المثلث فالأمر واضح كما في المثالين السابقين، حيث إنّ زوايا المثلث المتعددة لا علاقة لها بالبداهة بالامتداد الداخلي الحاصل للزوايا، والذي يوصلها جميعاً إلى نقطة واحدة.

والذي يثير العجب - أكثر من ذلك - هو محاولة بعض المسيحيين المستشرقين مطابقة قضية «التوحيد في التثليث» مع نظرية «وحدة الوجود» التي يقول بها الصوفيون[1] والأمر الواضح من غير دليل - في هذا المجال - هو أنّنا لو قبلنا بالنظرية الخاطئة

---

(١) المراد بوحدة الوجود عند الصوفية، هي وحدة الموجود، ويستدلون بها على أنّ الوجود ليس أكثر من واحد يظهر في صور مختلفة، وأن هذا الواحد هو الله.

والمنحرفة القائلة بوحدة الوجود، لاقتضى ذلك منّا أن نذعن بأنّ كل موجودات العالم أو الكون جزء من ذات الله سبحانه وتعالى، بل الإذعان بأنّها عين ذاته.

عند ذلك لا يبقى معنى للتثليث، بل تصبح جميع الموجودات - صغيرها وكبيرها - جزءاً أو مظهراً لله سبحانه، وعلى هذا الأساس فلا يمكن أن تتطابق نظرية التثليث المسيحية بالنظرية الصوفية القائلة بوحدة الوجود بأي شكل من الأشكال، علماً بأن النظرية الصوفية هذه قد دحضت وبان بطلانها.

٦ - يقول بعض المسيحيين - أحياناً - إنهم حين يسمّون المسيح عليه السلام بـ «ابن الله» إنّما يفعلون ذلك كما يفعل المسلمون في تسمية سبط الرّسول صلى الله عليه وآله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام بـ «ثار الله وابن ثاره» أو كالتسمية التي وردت في بعض الروايات لعلي بن أبي طالب عليه السلام حيث سمي فيها بـ «يد الله»، وهؤلاء المسيحيون يفسرون كلمة «ثار» بأنّها تعني الدم، أي إنّ العبارة الواردة في الحسين الشهيد عليه السلام تعني «دم الله وابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عين الخطأ:

أوّلاً: لأنّ العرب لم تطلق كلمة الثأر أبداً لتعني بها الدم، بل اعتبرت الثأر دائماً ثمناً للدم، ولذلك فإنّ معنى العبارة أنّ الله هو الذي يأخذ ثمن دم الحسين الشهيد، وأن هذا الأمر منوط به سبحانه وتعالى، أي إنّ الحسين عليه السلام لم يكن ملكاً أو تابعاً لعشيرة أو قبيلة معينة لتطالب بدمه، بل هو يخص العالم والبشرية جمعاء ويكون تابعاً لعالم الوجود وذات الله المقدّسة، ولذلك فإنّ الله هو الذي يطالب ويأخذ ثمن دم هذا الشهيد - كما أنّ الحسين هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي استشهد في سبيل الله، والله هو الذي يطالب ويأخذ ثمن دمه أيضاً.

وثانياً: حين يعبّر في بعض الأحيان عن بعض أولياء الله بعبارة «يد الله» فإنّ هذا التعبير - حتماً - من باب التشبيه والكناية والمجاز ليس إلاّ.

فهل يجيز أي مسيحي لنفسه أن يقال في عبارة «ابن الله» الواردة عندهم في حق المسيح عليه السلام أنها ضرب من المجاز والكناية؟ بديهي أنّه لا يقبل ذلك، لأنّ المصادر المسيحية الأصلية اعتبرت صفة البنوة لله سبحانه منحصرة في المسيح عليه السلام وحده وليس في غيره، واعتبروا تلك الصفة حقيقية لا مجازية، وما بادر إليه بعض المسيحيين من الادعاء بأنّ هذه الصفة هي من باب الكناية أو المجاز، إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

ولإيضاح هذا الأمر نحيل القارىء إلى كتاب «القاموس المقدس» في مادة «الله» حيث يقول هذا الكتاب بأنّ عبارة «ابن الله» هي واحدة من ألقاب منجي ومخلص وفادي المسيحيين، وأنّ هذا اللقب لا يطلق على أي شخص آخر إلاّ إذا وجدت قرائن تبيّن بأنّ المقصود هو ليس الابن الحقيقي لله[1].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

سبب النّزول

روى جمع من المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت في شأن طائفة من مسيحيي نجران، حين زاروا النّبي محمّداً ﷺ واستفسروا منه عن سبب اعتراضه على نبيّهم المسيح ﵇، فسألهم النّبي ﵇ عن أي اعتراض هم يتحدثون؟ فقالوا للنّبي ﵇: «إنّك تقول بأنّ المسيح هو عبد الله ورسوله... فنزلت الآيتان جواباً على قولهم هذا[2].

التّفسير

المسيح هو عبد الله

على الرغم من أنّ هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما، إلاّ أنّهما جاءتا في سياق الآيات السابقة التي تحدثت عن نفي الأُلوهية عن المسيح ﵇ وعلاقتهما بالآيات السابقة في دحض قضية التثليث واضحة وجلية.

(١) القاموس المقدس، طبعة بيروت، ص ٣٤٥.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٥٠، ذيل الآية مورد البحث.

في البداية تشير الآية الأولى إلى دليل آخر لدحض دعوى ألوهية المسيح، فتقول مخاطبة المسيحيين: كيف تعتقدون بألوهية عيسى عليه السلام في حين أنّ المسيح لم يستنكف عن عبادة الله والخضوع بالعبودية له سبحانه، كما لم يستنكف الملائكة المقرّبون عن هذه العبادة؟

حيث قالت الآية: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

وبديهي أنّ من يكون عبداً لا يمكن أن يصبح معبوداً في آن واحد، فهل يمكن أن يعبد فرد نفسه؟ أو هل يكون العابد والمعبود والرّب فرداً واحداً؟

وفي هذا المجال ينقل بعض المفسّرين حادثة طريفة تحكي أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لكي يدين ويفند عقيدة التثليث المنحرفة قال لكبير المسيحيين في ذلك الحين - وكان يلقب بـ«الجاثليق» - بأنّ المسيح عليه السلام كان حسناً في كل شيء لولا وجود عيب واحد فيه، وهو قلة عبادته لله، فغضب الجاثليق وقال للإمام الرضا عليه السلام: ما أعظم هذا الخطأ الذي وقعت فيه، إنّ عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عبادة، فسأله الإمام عليه السلام على الفور: ومن كان يعبد المسيح؟! فها أنت قد أقررت بنفسك أنّ المسيح كان عبداً ومخلوقاً لله وأنّه كان يعبد الله ولم يكن معبوداً ولا ربّاً؟ فسكت الجاثليق ولم يحر جواباً(١).

بعد ذلك تشير الآية إلى أنّ الذين يمتنعون عن عبادة الله والخضوع له بالعبودية، يكون امتناعهم هذا ناشئاً عن التكبر والأنانية وأنّ الله سيحضر هؤلاء الناس في يوم القيامة ويجازي كل واحد منهم بالعقاب الذي يناسبه، فتقول الآية: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، وأنّ الله العزيز القدير سيكافىء في يوم القيامة أُولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقاموا بالأعمال الخيرة، ويعطيهم ثوابهم كاملاً غير منقوص ويجزل لهم الثواب والنعم، أمّا الذين تكبروا وامتنعوا عن عبادة الله، فإنهم سينالون منه عذاباً أليماً شديداً، ولن يجدوا في يوم القيامة لأنفسهم ولياً أو حامياً من دون الله، حيث تقول الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

في هذه الآية نقطتان يجب الانتباه إليهما، وهما:

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٣٥٢.

١ - إنّ كلمة «استنكاف» تأتي بمعنى الامتناع أو الاستياء الشديد من شيء، ولها معانٍ واسعة، وتحدد معناها - هنا - بما أتى بعدها من قرينة في عبارة (استكبروا) لأنّ الامتناع عن عبادة الله ورفض الخضوع له بالعبودية ناشيء عن الجهل أو الغفلة. وأحياناً أُخرى ينشأ هذا الامتناع عن التكبر والأنانية والغرور، ومع أن الامتناعين يعتبران ذنباً، إلاّ أنّ الامتناع الأخير يفوق الأوّل قبحاً بمراتب كبيرة.

٢ - إنّ الآية جاءت بعبارة توضح عدم استنكاف الملائكة المقرّبين عن عبادة الله، وذلك ردّاً على المسيحيين الذين يثلثون الآلهة (الأب والابن وروح القدس) ولتدحض عن هذا الطريق فرضية وجود المعبود الثّالث الذي ادّعاه المسيحيون ومثلوه في أحد الملائكة المسمى بـ«روح القدس» ولتثبت التوحيد ووحدانية ذات الله سبحانه وتعالى.

وقد تكون هذه الآية إشارة إلى الشرك الذي وقع فيه الوثنيون العرب، والشرك الذي تورط فيه المسيحيون حيث إنّ مشركي الجاهلية كانوا يعتبرون الملائكة أبناء الله سبحانه، أو يعدونهم جزءاً منه، فجاءت هذه الآية لترد عليهم وتدحض أقوالهم هذه.

وعند التعمق في هذين الأمرين يتبيّن لنا - بجلاء - أنّ الآية لم تأت لبيان التفاضل بين الملائكة والأنبياء، بل جاءت فقط لدحض عقيدة «الأقنوم الثّالث» أو دحض عقيدة المشركين العرب في الملائكة، وليس فيها أي دلالة على مسألة التفاضل بين المسيح عليه السلام وبين الملائكة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

التّفسير

النّور المبين

بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضاً من انحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد ومبادىء وتعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول في بيان سبيل النّجاة والخلاص من تلك الانحرافات.

لقد توجه الخطاب أوّلاً إلى عامّة الناس، مبيناً أنّ الله قد بعث من جانبه نبيّاً يحمل معه الدلائل والبراهين الواضحة، وبعث معه النور المبين المتجسد في القرآن الكريم الذي يهدي الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

ويعتقد بعض العلماء أنّ كلمة «برهان» المشتقة من المصدر «بره» على وزن «فرح» تعني الابيضاض - ولمّا كانت الأدلة الواضحة تجلي للسامع وجه الحق وتجعله واضحاً مشرقاً أبيض لذلك سميت بـ«البرهان».

والمقصود بالبرهان الوارد في الآية موضوع البحث - وكما يقول جمع من المفسّرين وتؤكّد ذلك القرائن - هو شخص نبيّ الإسلام ﷺ، وأنّ المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذي عبّرت عنه آيات أُخرى بالنور أيضاً.

وقد فسّرت الأحاديث المتعددة المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام - والتي أوردتها تفاسير «نور الثقلين» و«علي بن إبراهيم» و«مجمع البيان» - أنّ «البرهان» هو النّبي ﷺ و«النّور» هو علي بن أبي طالب عليه السلام [1].

ولا يتنافى هذا التّفسير مع ذلك الذي أوردناه قبله، حيث يمكن أن يقصد بعبارة «النور» معانٍ عديدة لتشمل «القرآن» و«أمير المؤمنين علي عليه السلام» الذي يعتبر حافظاً ومفسّراً للقرآن ومدافعاً عنه.

وتوضح الآية الثانية عاقبة اتّباع هذا البرهان وهذا النور، فتؤكّد على أنّ الذين آمنوا بالله وتمسكوا بهذا الكتاب السماوي، سيدخلهم الله عاجلاً في رحمته الواسعة، ويجزل لهم الثواب من فضله ورحمته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [2].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٥٢، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) راجع تفسير سورة الحمد في تفسيرنا هذا الجزء الأوّل للإطلاع على تفسير عبارة «الصراط المستقيم».

﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسرين عن جابر بن عبد الله الأنصاري قوله بأنّه كان يعاني من مرض شديد، فعاده النّبي ﷺ وتوضأ عنده ورشّ عليه من ماء وضوئه ﷺ، فذكر جابر - وهو يفكر في الموت - للنّبي ﷺ بأنّ ورثته هن اخواته فقط، واستفسر من النّبي ﷺ عن كيفية تقسيم الإرث بينهنّ، فنزلت هذه الآية والتي تسمّى - أيضاً - بـ«آية الفرائض» وبيّنت طريقة تقسيم الإرث بينهنّ (وقد وردت هذه الرّواية بفارق طفيف في تفاسير «مجمع البيان» و«التبيان» و«المنار» و«الدر المنثور» وغيرها من التفاسير...).

ويعتقد البعض أن هذه الآية هي آخر آية من آيات الأحكام نزولاً على النّبي ﷺ (١).

التّفسير

تبيّن الآية الواردة أعلاه كمية الإرث للأُخوة والأخوات، وقد بيّنا في أوائل سورة النساء - في تفسير الآية الثانية عشرة منها - أنّ القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للإخوة والأخوات وأن إحدى هاتين الآيتين هي الآية الثانية عشرة من سورة النساء، والثانية هي الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا وهي آخر آية من سورة النساء.

وعلى الرغم ممّا ورد من اختلاف في الآيتين فيما يخص مقدار الإرث، إلاّ أنّ كل آية من هاتين الآيتين تتناول نوعاً من الإخوة والأخوات كما أوضحنا في بداية السورة.

فالآية الأُولى تخصّ الإخوة والأخوات غير الأشقاء، أي الذين هم من أُمّ واحدة وآباء متعددين.

أمّا الآية الثانية أي الأخيرة، فهي تتناول الإرث بالنسبة للإخوة الأشقاء، أي الذين هم من أُمّ واحدة وأب واحد، أو من أُمهات متعددات وأب واحد.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٥٤؛ تفسير الميزان، ج ٥، ص ١٥٤ و ١٥٥؛ تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

والدليل على قولنا هذا، أن من ينتسب إلى شخص المتوفى بالواسطة يتعين إرثه بمقدار ما يرثه الواسطة من شخص المتوفى.

فالإخوة والأخوات غير الأشقاء - أي الذين هم من أُمّ واحدة وآباء متعددين - يرثون بمقدار حصّة أُمّهم من الإرث والتي هي الثلث.

أمّا الإخوة والأخوات الأشقاء - أي الذين هم من أُمّ واحدة وأب واحد، أو من أب واحد وأُمهات متعددات - فهم يرثون بمقدار حصّة والدهم من الإرث التي هي الثلثان.

ولمّا كانت الآية الثانية عشرة من سورة النساء تتحدث عن حصّة الثلث من الإرث للإخوة والأخوات، وتتناول الآية الأخيرة حصّة الثلثين، لذلك يتّضح أنّ الآية السابقة تخص الأخوة والأخوات غير الأشقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق أُمهم، وأنّ الآية الأخيرة تخصّ الإخوة والأخوات الأشقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق الأب أو عن طريق الأب والأُمّ معاً.

والروايات الواردة عن الأئمّة عليهم السلام في هذا المجال تؤكّد هذه الحقيقة أيضاً.

وعلى أي حال فإن كانت حصّة الأخ أو الأخت هي الثلث أو الثلثان، فإنّ الباقي من الإرث يوزع بناء على القانون الإسلامي بين الباقين من الورثة. وهكذا، وبعد أن توضح لنا عدم وجود أي تناقض بين الآيتين، نتطرق الآن إلى تفسير الأحكام الواردة في الآية الأخيرة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآية جاءت لتفصل إرث الكلالة أي إرث الإخوة والأخوات[1] فتقول الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ أي يسألونك فخبّرهم بأنّ الله هو الذي يعيّن حكم «الكلالة» (أي الإخوة والأخوات).

بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، وهي:

١ - إذا مات رجل ولم يكن له ولد وكانت له أخت واحدة، فإنّ هذه الأُخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

---

(١) لمعرفة معنى «الكلالة» وسبب إطلاقها على الإخوة والأخوات، راجع تفسير الآية الثانية عشرة من سورة النساء.

٢ - وإذا ماتت امرأة ولم يكن لها ولد، وكان لها أخ واحد - شقيق من أبيها وحده أو من أبيها وأُمها معاً - فإنّ أخاها الوحيد يرثها، تقول الآية: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ﴾.

٣ - وإذا مات شخص وكانت له أختان فقط، فإنّهما ترثان ثلثي ما تركه من الميراث، تقول الآية الكريمة: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾.

٤ - وإذا كان ورثة الشخص المتوفى عدداً من الإخوة والأخوات أكثر من اثنين، فإنّ ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّة الأخ من الميراث ضعف حصّة الأُخت الواحدة منه. تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ﴾.

وفي الختام تؤكد الآية أنّ الله يبيّن للناس هذه الحقائق لكي يصونهم من الانحراف والضلالة، ويدلهم على طريق الصواب والسعادة (وحقيق أن يكون الطريق الذي يرسمه الله للناس ويهديهم إليه هو الطريق الصحيح) والله هو العالم العارف بكل شيء، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[1].

والجدير بالذكر هنا أنّ الآية - موضوع البحث - إنّما تبيّن إرث الإخوة والأخوات في حالة عدم وجود ولد الشخص المتوفى، ولم تتطرق الآية إلى وجود الأب والأم للشخص المتوفى، ولكن بناء على الآيات الواردة في بداية سورة النساء - فإنّ الأب والأُمّ يأتون في مصاف الأبناء في الطبقة الأُولى من الوارثين، ولذلك يتوضح أن المقصود من الآية الأخيرة هي حالة عدم وجود أبناء وعدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

انتهى تفسير سورة النساء

(١) وجملة «أن تضلوا» بمعنى «أن لا تضلوا» حيث تكون كلمة «لا» مقدرة، والقرآن وكلام العرب الفصحاء مليئان بمثل هذه التعابير البليغة.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء السادس

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

سُورَةُ المَائِدَةِ

مدنيّة وعدد آياتـها مائة وعشرون

إنّ هذه السورة من السور المدنية، وتشتمل على مئة وعشرين آية، وقيل إنّها نزلت بعد سورة الفتح، وتدل روايات على أنّها نزلت كلّها في فترة حجّة الوداع بين مكّة والمدينة[(١)].

وتشتمل هذه السورة على مجموعة من المعارف والعقائد الإسلامية بالإضافة إلى سلسلة من الأحكام والواجبات الدينية. وقد وردت في القسم الأوّل منها الإشارة إلى قضية الخلاف بعد النّبي ﷺ وقضايا أُخرى مثل: عقيدة التثليث المسيحية، ومواضيع خاصّة بيوم القيامة والحشر واستجواب الأنبياء حول أُممهم.

أمّا القسم الثّاني فقد اشتمل على قضية الوفاء بالعهود والمواثيق، وقضايا العدالة الاجتماعية، والشهادة العادلة، وتحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضية ابني آدم، وقتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذية المحرمة والمحللة، وأقسام من أحكام الوضوء والتيمم.

أمّا وجه تسمية السورة بـ«سورة المائدة» فهو لورود قصّة نزول المائدة[(٢)] السماوية على حواريّي المسيح عليه السلام في الآية (١١٤) منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

التّفسير

الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق

تدل الروايات الإسلامية وأقوال المفسّرين على أنّ هذه السورة هي آخر سورة أو من

(١) تفسير المنار - ج ٦، ص ١١٦، ويجب الإنتباه إلى أنّ المقصود بالسورة المدنية، هو نزولها بعد هجرة النّبي ﷺ من مكّة إلى المدينة، حتى لو لم تكن السورة قد نزلت في المدينة نفسها.

(٢) «المائدة» بمعنى الخوان الذي يوضع عليه الطعام.

السور الأخيرة التي نزلت على النّبي ﷺ، وقد ورد في تفسير العياشي نقلاً عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «نزلت المائدة قبل أن يقبض النّبي عليه السلام بشهرين أو ثلاثة»[1].

وما ورد في شأن هذه السورة من أنّها من السور الناسخة وليست المنسوخة يعتبر إشارة إلى المعنى المذكور أعلاه.

ولا يتنافى هذا الكلام مع ذلك الذي ورد في الجزء الثّاني من تفسيرنا هذا - في هامش الآية (٢٨١) من سورة البقرة - حيث قلنا هناك بأنّ هذه الآية هي آخر آية نزلت على النّبي ﷺ لأنّ كلامنا الحالي هو عن آخر سورة نزلت على النّبي ﷺ وكلامنا السابق كان عن آية واحدة.

لقد تمّ التأكيد في هذه السورة - لما تمتاز به من موقع خاص - على مجموعة من المفاهيم الإسلامية، وعلى آخر البرامج والمشاريع الدينية، وقضية قيادة الأُمّة وخلافة النّبي ﷺ، وقد يكون هذا هو السبب في استهلال سورة المائدة بقضية الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق، حيث تقول الآية في أوّل جملة لها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ وذلك لكي تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التي عقدوها في الماضي مع الله أو تلك التي أشارت إليها هذه السورة.

ويأتي هذا التأكيد على غرار ما يفعله المسافر في اللحظات الأخيرة، من الوداع مع أهله وأقاربه وأنصاره حيث يؤكّد عليهم أن لا ينسوا وصاياه ونصائحه، وأن يوفوا بالعهود والمواثيق التي عقدوها معه.

ويجب الالتفات إلى أنّ كلمة «عقود» هي صيغة جمع من «عقد» التي تعني في الأصل شد أطراف شيء معين ببعضها شداً محكماً، ومن هنا يسمّى شد طرفي الحبل أو شد حبلين ببعضهما «عقداً».

بعد ذلك تنتقل الآية من هذا المعنى المحسوس إلى المفهوم المعنوي فتسمّي كلّ عهد أو ميثاق عقداً، لكن بعض المفسّرين، قالوا بأنّ كلمة «عقد» مفهوم أضيق من العهد، لأنّ كلمة العقد تطلق على العهود المحكمة إحكاماً كافياً، ولا تطلق على كل العهود،

---

(١) تفسير البرهان - ج ١، ص ٤٣٠، يجب الإنتباه إلى أنّ ورود أحكام الوضوء والتيمم وأمثالهما في هذه السورة، لا ينافي كونها آخر سورة من سور القرآن، لأنّ أغلب هذه الأحكام لها طابع تكراري، أي أنّها وردت بصورة مكررة للتأكيد عليها، لذلك نرى بعضاً من هذه الأحكام قد ورد في سورة النساء أيضاً.

وإذا وردت في بعض الروايات أو في عبارات المفسّرين كلمتا العقد والعهد للدلالة على معنى واحد فذلك لا ينافي ما قلناه، لأنّ المقصود في هذه الروايات أو العبارات هو التّفسير الإجمالي لهاتين الكلمتين لا بيان جزئياتهما.

ونظراً لأنّ كلمة العقود هي صيغة جمع دخلت عليها الألف واللام للدلالة على الاستغراق، والجملة التي وردت فيها هذه الكلمة جملة مطلقة أيضاً إطلاقاً تاماً، لذلك فإن الآية - موضوع البحث - تعتبر دليلاً على وجوب الوفاء بجميع العهود التي تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التي تعقد مع الله سبحانه وتعالى عقداً محكماً.

وبذلك تشمل هذه الآية جميع العهود والمواثيق الإلهيّة والإنسانية والاتفاقيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتجارية، وعقود الزواج، وأمثال ذلك، ولها مفهوم واسع يطوي بين جنبيه جميع جوانب حياة الإنسان العقائدية والعملية، ويشمل العهود الفطرية والتوحيدية وحتى العهود التي يعقدها الناس فيما بينهم على مختلف قضايا الحياة.

وجاء في تفسير «روح المعاني» عن «الراغب الإصفهاني» أنّ العقد - نظراً لطرفيه - ينقسم إلى ثلاثة أنواع، فأحياناً يكون عقداً بين العبد وربّه، وطوراً بين الفرد ونفسه، وحيناً بين الفرد ونظائره من سائر أفراد البشر(١).

وطبيعي أن لكل من هذه الأنواع الثلاثة من العقود طرفين، وغاية الأمر أنّ الإنسان حين يتعاقد مع نفسه يفترض هذه النفس بمثابة الشخص الثّاني، أو الطرف الآخر من العقد.

وعلى أي حال، فإنّ مفهوم هذه الآية - لسعته - يشمل حتى تلك العقود والعهود التي يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

وهناك عدّة أُمور في هذه الآية يجب الانتباه إليها وهي:

١ - تعتبر هذه الآية من الآيات التي تستدل بها جميع كتب الفقه، في البحوث الخاصّة بالحقوق الإسلامية وتستخلص منها قاعدة فقهية مهمّة هي «أصالة اللزوم في العقود» أي إنّ كل عقد أو عهد يقام بين اثنين حول أشياء أو أعمال يكون لازم التنفيذ.

---

(١) تفسير «روح المعاني» ذيل الآية مورد البحث.

ويعتقد جمع من الباحثين أنّ أنواع المعاملات والشركات والاتفاقيات الموجودة في عصرنا الحاضر، والتي لم يكن لها وجود في السابق، أو التي ستوجد بين العقلاء في المستقبل، والتي تقوم على أسس ومقاييس صحيحة - تدخل ضمن هذه القاعدة، حيث تؤكّد هذه الآية صحتها جميعاً (وطبيعي أن الضوابط الكلية التي أقرّها الإسلام للعقود والعهود يجب أن تراعى في هذا المجال).

والاستدلال بهذه الآية كقاعدة فقهية ليس معناه أنّها لا تشمل العهود الإلهيّة المعقودة بين البشر وبين الله تعالى، أو القضايا الخاصّة بالقيادة والزعامة الإسلامية التي أخذ النّبي ﷺ العهد والميثاق فيها من الأُمّة، بل إنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل جميع هذه الأُمور.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حقيقة العهد والميثاق ذات طرفين، ولزوم الوفاء بالعهد يبقى سارياً مادام لم يقم أحد من المتعاقدين بنقض العهد، ولو نقض أحد الطرفين العقد لم يكن الطرف الثّاني عند ذلك ملزماً بالوفاء بالعهد إذ يخرج العهد بهذا النقض من حقيقة العهد والميثاق.

٢ - إنّ قضية الوفاء بالعهد والميثاق التي تطرحها الآية - موضوع البحث - تعتبر واحداً من أهم مستلزمات الحياة الاجتماعية، إذ بدونها لا يتمّ أي نوع من التعاون والتكافل الاجتماعي، وإذا فقد نوع البشر هذه الخصلة فقدوا بذلك حياتهم الاجتماعية وآثارها أيضاً.

ولهذا تؤكد مصادر التشريع الإسلامي بشكل لا مثيل له - على قضية الوفاء بالعهود التي قد تكون من القضايا النوادر التي تمتاز بهذا النوع من السعة والشمولية، لأنّ الوفاء لو انعدم بين ابناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضى وعمّ الاضطراب فيه وزالت الثقة العامّة، وزوال الثقة يعتبر من أكبر وأخطر الكوارث.

وقد ورد في نهج البلاغة من قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه ما يلي: «فإنّه ليس من فرائض الله شيء للناس أشدّ عليه اجتماعاً - مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم - من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم - دون المسلمين - لما استوبلوا من عواقب الغدر»[1].

(١) نهج البلاغة، رسائل الإمام علي عليه السلام، الرسالة ٥٣.

وجملة «لما استوبلوا من عواقب الغدر» معناها: لما نالهم من وبال من عواقب الغدر.

وينقل عن الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إنّ الله لا يقبل إلاّ العمل الصالح، ولا يقبل الله إلاّ الوفاء بالشروط والعهود»(١).

ونقل عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لا دين لمن لا عهد له»(٢).

والتأكيدات الشديدة هذه كلها تدل على أنّ موضوع الوفاء بالعهد لا فرق في الالتزام به بين إنسان وإنسان آخر - سواء كان مسلماً أو غير مسلم - وهو - كما يصطلح عليه - يعتبر من حقوق الإنسان بصورة عامّة، وليس - فقط - من حقوق أنصار الدين الواحد.

وفي حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ثلاث لم يجعل الله عزّوجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين!»(٣).

نقل عن الإمام علي عليه السلام بأنّ العهد حتى لو كان بالإشارة يجب الوفاء به، وذلك في قوله: «إذا أومى أحد من المسلمين أو أشار إلى أحد من المشركين، فنزل على ذلك فهو في أمان»(٤).

وبعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالعهد والميثاق - سواء كان إلهياً أو إنسانياً محضاً - أردفت ببيان مجموعة أُخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأوّل منها حلّية لحوم بعض الحيوانات، فبيّنت أنّ المواشي وأجنّتها تحل لحومهما على المسلمين، حيث تقول الآية: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وكلمة «الأنعام» صيغة جمع من «نَعَم» وتعني الإبل والبقر والأغنام(٥).

أمّا كلمة «بهيمة» فهي مشتقة من المصدر «بهمة» على وزن «تهمة» وتعني في الأصل الحجر الصلب، ويقال لكل ما يعسر دركه «مبهماً» وجميع الحيوانات التي لا تمتلك القدرة على النطق تسمى «بهيمة» لأنّ أصواتها تكون مبهمة للبشر، وقد جرت العادة على إطلاق كلمة «بهيمة» على المواشي من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية والطيور.

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٩٤.
(٢) البحار، ج ٦٩، ص ١٩٨.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٢.
(٤) مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٤٥ و ٤٦.
(٥) إذا جاءت كلمة «نعم» مفردة فهي تعني الإبل، وإذا جاءت جمعاً فتعني الأنواع الثلاثة، مفردات الراغب مادة (نعم).

ومن جانب آخر فإن جنين المواشي يطلق عليه اسم «بهيمة» لأنّه يكون مبهماً نوعاً ما.

وعلى الأساس المذكور فإنّ حكم حلّية (بهيمة الأنعام) يشمل إمّا جميع المواشي ما عدا التي استثنتها الآية فيما بعد، أو تكون الجملة بمعنى أجنّة الحيوانات من ذوات اللحم الحلال (تلك الأجنّة التي اكتمل نموها وهي في بطن أُمّها، وكسي جلدها بالشعر أو الصوف)(١).

ولما كان حكم حلية حيوانات كالإبل والبقر والأغنام قد تبيّن للناس قبل هذه الآية، لذلك من المحتمل أن تكون الآية - موضوع البحث - إشارة إلى حلية أجنّة هذه الحيوانات.

والظاهر من الآية أنّها تشمل معنىً واسعاً، أي تبيّن حلية هذه الحيوانات بالإضافة إلى حلية لحوم أجنتها أيضاً، ومع أنّ هذا الحكم كان قد توضح في السابق إلاّ أنّه جاء مكرراً في هذه الآية كمقدمة للاستثناءات الواردة فيها.

ويتبيّن لنا ممّا تقدم أن علاقة الجملة الأخيرة وحكمها بالأصل الكلي - الذي هو لزوم الوفاء بالعهد - هي التأكيد على كون الأحكام الإلهيّة نوعاً من العهد بين الله وعباده - حيث تعتبر حلية لحوم بعض الحيوانات وحرمة لحوم البعض الآخر منها قسماً من تلك الأحكام.

وفي الختام تبيّن الآية موردين تستثنيهما من حكم حلية لحوم المواشي، وأحد هذين الموردين هو اللحوم التي سيتم بيان حرمتها فيما بعد، حيث تقول الآية: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمورد الثّاني هو أن يكون الإنسان في حالة إحرام للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد في هذه الحالة، فتقول الآية: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾(٢).

وفي آخر الآية يأتي التأكيد على أنّ الله إذا أراد شيئاً أو حكماً أنجزه أو أصدره، لأنّه عالم بكل شيء، وهو مالك الأشياء كلها، وإذا رأى أن صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده وتقتضي الحكمة صدوره، أصدر هذا الحكم وشرعه، حيث تقول الآية في هذا المجال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

---

(١) لو قلنا: إنّ كلمة «بهيمة» تعني الحيوانات وحدها دون الأجنّة، لكانت إضافة كلمة «بهيمة» إلى كلمة «أنعام» إضافة بيانية، أمّا إذا قلنا: إنّها تعني الأجنّة أيضاً، تكون هذه الإضافة «لامية».

(٢) طبيعي أن جملة ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هي جملة إستثنائية، وأن جملة ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ هي حال من ضمير «كم» وتكون نتيجة للإستثناء بحسب المعنى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

التّفسير

ثمانية أحكام في آية واحدة

لقد بيّنت هذه الآية عدداً من الأحكام الإلهيّة الإسلامية المهمّة، وهي من الأحكام الأواخر التي نزلت على النّبي ﷺ وكلها أو أغلبها تتعلق بحج بيت الله، وهي على الوجه التالي:

١ - الطلب من المؤمنين عدم انتهاك شعائر الله، ونهيهم عن المساس بحرمة هذه الشعائر المقدسة، كما تقول الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ واختلف المفسّرون حول المراد بكلمة «الشعائر» الواردة هنا، وبالنظر إلى الأجزاء الأُخرى من هذه الآية، وإلى السنة التي نزلت فيها وهي السنة العاشرة للهجرة التي أدّى فيها النّبي ﷺ آخر حجّة إلى مكّة المكرمة هي حجّة الوداع، يتّضح أنّ المراد بهذه الكلمة مناسك الحج التي كلّف المسلمون باحترامها كلّها، ويؤكّد هذا الرأي مجيء كلمة «الشّعائر» في القرآن الكريم مقترنة بالحديث عن مناسك الحج دائماً[1].

٢ - دعت الآية إلى احترام الأشهر الحرم وهي شهور من السنة القمرية، كما نهت عن الدخول في حرب في هذه الشهور، حيث قالت: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾.

٣ - حرمت الآية المساس بالقرابين المخصصة للذبح في شعائر الحج، سواء ما كان منها ذا علامة وهو المسمّى بـ «الهدي»[2] أو تلك الخالية من العلامات والتي تسمّى

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٨ وسورة الحج، الآيتان ٣٢ و٣٦.

(٢) الهدي جمع «هدية» وهو يعني هنا المواشي التي تهدى لتكون قرابين إلى بيت الله الحرام.

بـ «القلائد»(١) أي نهت عن ذبحها وأكل لحومها حتى تصل إلى محل القربان للحج وتذبح فيه، فقالت الآية: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

٤ - أوجبت الآية توفير الحرية التامّة لحجاج بيت الله الحرام أثناء موسم الحج، الذي تزول خلاله كل الفوارق القبلية والعرقية واللغوية والطبقية، ونهت عن مضايقة المتوجهين إلى زيارة بيت الله الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتى الذين توجهوا إلى هذه الزيارة وهم يحملون معهم أهدافاً أُخرى كالتجارة والكسب الحلال لا فرق فيهم بين صديق أو غريم، فما داموا كلهم مسلمين وقصدهم زيارة بيت الله، فهم يتمتعون بالحصانة كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

يعتقد بعض المفسّرين والفقهاء أنّ الجملة القرآنية المذكورة أعلاه ذات معنى عام وتشمل غير المسلمين، أي المشركين أيضاً إن هم جاءوا لزيارة بيت الله الحرام يجب أن لا يتعرضوا للمضايقة من قبل المسلمين.

ولكن نظراً لنزول آية تحريم دخول المشركين إلى المسجد الحرام في سورة التوبة التي نزلت في العام التاسع للهجرة، ونزول سورة المائدة في أواخر عمر النّبي الكريم ﷺ أي في العام العاشر للهجرة وهي سورة لم يطرأ النسخ على أيّ من الأحكام الواردة فيها - بحسب روايات الطائفتين الشيعة والسنّة - لذلك يستبعد أن يكون هذا التّفسير صحيحاً، والحق أنّ الحكم المذكور خاص بالمسلمين وحدهم.

٥ - لقد خصصت هذه الآية حكم حرمة الصيد بوقت الإحرام فقط، وأعلنت أنّ الخروج من حالة الإحرام إيذان بجواز الصيد للمسلمين - حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾.

٦ - منعت هذه الآية الكريمة المسلمين من مضايقة أُولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل في زيارة بيت الله الحرام ويمنعونهم من أداء مناسك الحج، وكان هذا في واقعة الحديبية، فمنع المسلمون من تجديد الأحقاد ومضايقة أُولئك النفر في زمن الحج بعد أن أسلموا وقبلوا الإسلام لهم ديناً، تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾(٢).

(١) القلائد جمع «قلادة» وهي الشيء الذي يوضع حول رقبة الإنسان أو الحيوان، وتعني هنا المواشي التي تعلم بالقلائد لذبحها في مراسم الحج.

(٢) تفيد أقوال أهل اللغة والتّفسير أنّ كلمة «جرم» تعني في الأصل قطع الثمار أو قطفها من الأغصان قبل=

ومع أنّ هذا الحكم قد نزل في مجال زيارة بيت الله الحرام، لكنه - في الحقيقة - يعد حكماً عاماً، وقانوناً كلياً يدعو المسلمين إلى نبذ «الحقد» وعدم إحياء الأحداث السابقة في أذهانهم بهدف الانتقام من مسببيها.

ولمّا كانت خصلة الحقد إحدى عناصر ظهور وبروز النفاق والفرقة لدى المجتمعات يتّضح لنا - من ذلك - جلياً أهميّة هذا الحكم الإسلامي في التصدي والوقوف في وجه استعار نار النفاق بين المسلمين وبالأخص في زمن كان نبي الإسلام ﷺ يوشك على وداع المسلمين والرحيل عنهم.

٧ - تؤكّد الآية - جرياً على سياق البحث الذي تناولته وبهدف إكماله - على أنّ المسلمين بدلاً من أن يتحدوا للانتقام من خصومهم السابقين الذين أسلموا - وأصبحوا بحكم إسلامهم أصدقاء - عليهم جميعاً أن يتحدوا في سبيل فعل الخيرات والتزام التقوى، وأن لا يتعاونوا في سبيل الشر والعدوان تقول الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾.

٨ - ولكي تعزز الآية الأحكام السابقة وتؤكّدها تدعو المسلمين في الختام إلى اتّباع التقوى وتجنّب معصية الله، محذرة من عذاب الله الشديد، فتقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

التعاون في أعمال الخير

إنّ الدعوة إلى التعاون التي تؤكّد عليها الآية الكريمة تعتبر مبدأ إسلامياً عاماً، تدخل في إطاره جميع المجالات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والحقوقية وغيرها، وقد أوجبت هذه الدعوة على المسلمين التعاون في أعمال الخير، كما منعتهم ونهتهم عن التعاون في أعمال الشرّ والإثم اللّذين يدخل في إطارهما الظلم والاستبداد والجور بكل أصنافها.

ويأتي هذا المبدأ الإسلامي تماماً على نقيض مبدأ ساد في العصر الجاهلي، وما زال يطبق حتى في عصرنا الحاضر، وهو المبدأ القائل: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1]،

= الأوان، وتطلق - أيضاً على كل عمل مكروه، كما تطلق على الآخرين بالقيام بعمل غير محبوب - وهنا فإنّ عبارة «لا يجرمنكم» تعني لا يحملنكم على القيام بعمل غير صائب.

(١) تفسير التبيان، ج ١، ص ٢١٦؛ وتفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢٠٠.

وكان في العصر الجاهلي إذا غزت جماعة من إحدى القبائل جماعة من قبيلة أُخرى، هبّ أفراد القبيلة الغازية لمؤازرة الغازين بغض النظر عمّا إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم، ونرى في وقتنا الحاضر - أيضاً - آثار هذا المبدأ الجاهلي في العلاقات الدولية، وبالذات لدى الدول المتحالفة حين تهب في الغالب لحماية بعضها البعض، والتضامن والتعاون معاً حيال القضايا الدولية دون رعاية لمبدأ العدالة ودون تمييز بين الظالم والمظلوم، لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ الجاهلي، ودعا المسلمين إلى التعاون في أعمال الخير والمشاريع النافعة والبناءة فقط، ونهى عن التعاون في الظلم والعدوان.

والطريف في هذا المجال مجيء كلمتي «البر» و«التقوى» معاً وعلى التوالي في الآية، حيث إنّ الكلمة الأُولى تحمل طابعاً إيجابياً وتشير الى الأعمال النافعة، والثانية لها طابع النهي والمنع وتشير إلى الامتناع عن الأعمال المنكرة - وعلى هذا الأساس - أيضاً - فإنّ التعاون والتآزر يجب أن يتمّ سواء في الدّعوة إلى عمل الخير، أو في مكافحة الأعمال المنكرة.

وقد استخدم الفقه الإسلامي هذا القانون في القضايا الحقوقية، حيث حرّم قسماً من المعاملات والعقود التجارية التي فيها طابع الإعانة على المعاصي أو المنكرات، كبيع الأعناب إلى مصانع الخمور أو بيع السلاح إلى أعداء الإسلام وأعداء الحق والعدالة، أو تأجير محل للاكتساب لتمارس فيه المعاملات غير الشرعية والأعمال المنكرة (وبديهي أن لهذه الأحكام شروطاً تناولتها كتب الفقه الإسلامي بالتوضيح).

إنّ إحياء هذا المبدأ لدى المجتمعات الإسلامية، وتعاون المسلمين في أعمال الخير والمشاريع النافعة البناءة دون الاهتمام بالعلاقات الشخصية والعرقية والنسبية، والامتناع عن تقديم أي نوع من التعاون إلى الأفراد الذين يمارسون الظلم والعدوان، بغض النظر عن تبعية أو انتمائية الفئة الظالمة، كل ذلك من شأنه أن يزيل الكثير من النواقص الاجتماعية.

أمّا في العلاقات الدولية، فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع كل دولة معتدية - أيّاً كانت - لقضي بذلك على جذور العدوان والاستعمار والاستغلال في العالم، ولكن حين ينقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدين والظالمين بحجّة أنّ مصالحهم الدولية تقتضي ذلك، فلا يمكن توقع الخير أبداً من وضع كالذي يسود العالم اليوم.

لقد تناولت الأحاديث والروايات الإسلامية هذه القضية بتأكيد كبير، ونورد - هنا - بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر.

١ - نقل عن النّبي محمّد ﷺ في هذا المجال قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشباه الظلمة حتى من برى لهم قلماً ولاق لهم دواة؟ قال: فيجتمعون في تابوت من حديد ثمّ يرمى بهم في جهنّم»[١].

٢ - نقل عن صفوان الجمال، وهو أحد أنصار الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، بأنّه تشرف بلقاء الإمام عليه السلام فقال له الكاظم عليه السلام: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.

قلت: جعلت فداك، أي شيء؟

قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون.

قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو ولكنّي أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكّة - ولا أتولاّه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

فقال لي: ياصفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم. جعلنا فداك.

فقال لي: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟

قلت: نعم.

قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار ... إلى آخر الحديث[٢].

وفي حديث عن النبي ﷺ خاطب به علياً عليه السلام قائلاً:

«يا علي كفر بالله العلي العظيم من هذه الأُمّة عشرة ... وبائع السلاح لأهل الحرب»[٣].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١-٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٣١.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

التفسير

لقد تمّت الإشارة في بداية السورة إلى الحلال من لحوم المواشي، وورد - أيضاً - أنّ هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشي، حيث ذكرتها الآية الأخيرة - موضوع البحث - في أحد عشر مورداً تكرر ذكر بعضها في آيات قرآنية أُخرى على سبيل التأكيد.

والمحرمات التي وردت في هذه الآية، بحسب الترتيب الذي جاءت عليه كما يلي:

أوّلاً: الميتة.

ثانياً: الدم.

ثالثاً: لحم الخنزير.

رابعاً: الحيوانات التي تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم الله، كما كان يفعل الجاهليّون، وقد تحدثنا عن هذه اللحوم الأربعة المحرمة في الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

خامساً: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذي تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، وكان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحياناً للانتفاع بلحومها وقد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «المنخنقة».

وورد في بعض الروايات أنّ المجوس كان من عادتهم أن يخنقوا الحيوانات التي يريدون أكلها، ولهذا يمكن أن تشملهم الآية أيضاً[1].

سادساً: الحيوانات التي تموت نتيجة تعرضها للضرب والتعذيب، أو التي تموت عن مرض وسمّيت في الآية بـ «الموقوذة»[2].

ونقل القرطبي في تفسيره أن عرب الجاهلية اعتادوا على ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراماً لأصنامهم وتقرباً لها[3].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٧٣.

(٢) الموقوذة من مادة «وقذ» يعني المضروبة بعنف حتى الموت.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٨.

سابعاً: الحيوان الذي يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، وقد سمي هذا النوع في الآية بـ «المتردية».

ثامناً: الحيوان الذي يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، وقد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات بـ «النطيحة».

تاسعاً: الحيوان الذي يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، وسمي هذا النوع في الآية بـ «ما أكل السبع».

وقد يكون جزءاً من فلسفة تحريم هذه الأنواع من الحيوانات، عدم نزفها المقدار الكافي من الدم لدى الموت أو القتل، لأنّه ما لم تقطع عروق رقابها لا تنزف الدم بمقدار كافٍ، ولما كان الدم محيطاً مناسباً جدّاً لنمو مختلف أنواع الجراثيم، وبما أنّه يتفسخ حين يموت الحيوان قبل الأجزاء الأُخرى من الجسد، لذلك يتسمم لحم الحيوان ولا يمكن أن يعدّ هذا اللحم من اللحوم السليمة، وغالباً ما يحصل هذا التسمم عندما يموت الحيوان على أثر مرض أو من جراء التعذيب أو نتيجة تعرضه لملاحقة حيوان متوحش آخر.

من جانب آخر فإنّ الشرط المعنوي للذبح لا يتحقق في أي نوع من تلك الحيوانات، أي شرط ذكر اسم الله وتوجيه الحيوان صوب القبلة لدى الذبح.

لقد ذكرت الآية شرطاً واحداً لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالاً، وهذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب والتقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافي فيحل بذلك لحمه، ولذلك جاءت عبارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ بعد موارد التحريم مباشرة.

ويرى بعض المفسّرين أنّ هذا الاستثناء يخص القسم الأخير فقط، أي ذلك الذي جاء تحت عنوان: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ لكن أغلب المفسّرين يرون أنّ الاستثناء يشمل جميع الأنواع المذكورة، والنظرية الأخيرة أقرب للحقيقة من غيرها.

وهنا قد يسأل البعض: لماذا لم تدخل جميع أنواع الحيوانات المحرمة في الآية في إطار «الميتة» التي ذكرت كأوّل نوع من المحرمات الأحد عشر في الآية، أليست الميتة في مفهومها تعني كل الأنواع المذكورة؟

والجواب هو: إنّ الميتة لها معانٍ واسعة من حيث المفهوم الفقهي الشرعي، فكل حيوان لم يذبح وفق الطريقة الشرعية يدخل في إطار مفهوم الميتة، أمّا المعنى اللغوي للميتة فيشمل - فقط - الحيوان الذي يموت بصورة طبيعية. ولهذا السبب فإن الأنواع

المذكورة في الآية - غير الميتة - لا تدخل من الناحية اللغوية ضمن مفهوم الميتة، وهي محتاجة إلى البيان والتوضيح.

عاشراً: كان الوثنيون في العصر الجاهلي ينصبون صخوراً حول الكعبة ليست على أشكال أو هيئات معينة، وكانوا يسمون هذه الصخور بـ «النصب» حيث كانوا يذبحون قرابينهم أمامها ويمسحون الصخور تلك بدم القربان.

والفرق بين النصب والأصنام هو أنّ النصب ليست لها أشكال وصور بخلاف الأصنام، وقد حرم الإسلام لحوم القرابين التي كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم في الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

وواضح أنّ تحريم هذا النوع من اللحوم إنّما يحمل طابعاً معنوياً وليس مادياً، وفي الحقيقة فإنّ هذا النوع يعتبر من تلك القرابين التي تدخل ضمن مدلول العبارة القرآنية: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وقد ذكر تشخيصاً في الآية بسبب رواجه لدى عرب الجاهلية.

أحد عشر: وهناك نوع آخر من اللحوم المحرمة، وهو اللحوم التي تذبح وتوزع بطريقة القمار، وتوضيح ذلك هو أنّ عشرة من الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترون حيواناً ويذبحونه، ثمّ يأتون بعشرة سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز»، وعلى الثلاثة الأُخرى كتبت عبارة «خاسر»، فتوضع في كيس وتسحب واحدة واحدة باسم كل من الأشخاص العشرة على طريقة الاقتراع، فالأشخاص الذين تخرج النبال السبعة الفائزة بأسمائهم يأخذون قسماً من اللحم دون أن يدفعوا ثمناً لما أخذوه من اللحم، أمّا الأشخاص الثلاثة الآخرون الذين تخرج النبال الخاسرة بأسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوي، فيدفع كلّ واحد منهم ثلث قيمة الحيوان دون أن يناله شيء من لحمه.

وقد سمى الجاهليون هذه النبال بـ «الأزلام» وهي صيغة جمع من «زلم» وقد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل الحرمة في اللحم، بل لأنّ الحيوان كان يذبح في عمل هو أشبه بالقمار، ويجب القول هنا إن تحريم القمار وأمثاله لا ينحصر في اللحوم فقط، بل إن القمار محرم في كل شيء وبأيّ صورة كان.

ولكي تؤكّد الآية موضوع التحريم وتشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول في ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾(١).

---

(١) بالرغم من أنّ «ذلكم»، إشارة لمفرد، إلاّ أنّه لمّا كان يحتوي على ضمير الجمع، وقد فرض المجموع بمثابة الشيء الواحد، فلا اشكال في هذا الاستعمال.

الاعتدال في تناول اللحوم

إنّ الذي نستنتجه من البحث المار الذكر ومن المصادر الإسلامية الأُخرى، هو أنّ الإسلام اتّبع في قضية تناول اللحوم أُسلوباً معتدلاً تمام الاعتدال جرياً على طريقته الخاصّة في أحكامه الأُخرى.

ويختلف أُسلوبه هذا اختلافاً كبيراً مع ما سار عليه الجاهليون في أكل لحم النصب والميتة والدم وأشباه ذلك، وما يسير عليه الكثير من الغربيين في الوقت الحاضر في أكل حتى الديدان والسلاحف والضفادع وغيرها.

ويختلف مع الطريقة التي سار عليها الهنود في تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التي تتغذى على الأشياء الطاهرة التي لا تعافها النفس البشرية، وألغى الأساليب التي فيها طابع الإفراط أو التفريط.

وقد عيّن الإسلام شروطاً أبان من خلالها أنواع اللحوم التي يحلّ للإنسان الاستفادة منها، وهي:

١ - لحوم الحيوانات التي تقتات على الأعشاب، أمّا الحيوانات التي تقتات على اللحوم فهي غالباً ما تأكل لحوم حيوانات ميتة أو موبوءة، وبذلك قد تكون سبباً في نقل أنواع الأمراض لدى تناول لحومها، بينما الحيوانات التي تأكل العشب يكون غذاؤها سليماً وخالياً من الأمراض.

وقد تقدم أيضاً في تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة بأنّ الحيوانات تورث صفاتها عن طريق لحومها أيضاً، فمن يأكل لحم حيوان متوحش يرث صفات الوحش كالقسوة والعنف، وبناء على هذا الدليل - أيضاً - حرمت لحوم الحيوانات الجلاّلة، وهي التي تأكل فضلات غيرها من الحيوانات.

٢ - أن لا تكون الحيوانات التي ينتفع من لحمها كريهة للنفس الإنسانية.

٣ - أن لا يترك لحم الحيوان أثراً سيئاً أو ضاراً على جسم أو نفس الإنسان.

٤ - لقد حرمت الحيوانات التي تذبح في طريق الشرك في سبيل الأصنام، وأمثال ذلك لما فيها من نجاسة معنوية.

٥ - لقد بيّن الإسلام أحكاماً خاصّة لطريقة ذبح الحيوانات لكل واحد منها - بدوره - الأثر الصحي والأخلاقي على الإنسان.

بعد أنّ بيّنت الآية الأحكام التي مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقاً:
الأولى منهما تقول: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.
والثانية هي: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾.

متى أكمل الله الدين للمسلمين؟

إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز في كنه وحقيقة كلمة «اليوم» الواردة فيهما.

فأيّ يوم يا ترى هو ذلك «اليوم» الذي اجتمعت فيه هذه الأحداث الأربعة المصيرية، وهي يأس الكفّار، وإكمال الدين، وإتمام النعمة، وقبول الله لدين الإسلام ديناً ختامياً لكل البشرية؟

لقد قال المفسّرون الكثير في هذا المجال، وممّا لا شك فيه ولا ريب أن يوماً عظيماً في تاريخ حياة النّبي ﷺ - كهذا اليوم - لا يمكن أن يكون يوماً عادياً كسائر الأيّام، ولو قلنا بأنّه يوم عادي لما بقي مبرر لإضفاء مثل هذه الأهمّية العظيمة عليه كما ورد في الآية.

وقيل إنّ بعضاً من اليهود والنصارى قالوا في شأن هذا اليوم بأنّه لو كان قد ورد في كتبهم مثله لاتّخذوه عيداً لأنفسهم ولاهتموا به اهتماماً عظيماً(١).

ولنبحث الآن في القرائن والدلائل وفي تاريخ نزول هذه الآية وتاريخ حياة النّبي ﷺ والروايات المختلفة المستفادة من مصادر إسلامية عديدة، لنرى أيّ يوم هو هذا اليوم العظيم؟

ترى هل هو اليوم الذي أنزل فيه الله الأحكام المذكورة في نفس الآية والخاصّة بالحلال والحرام من اللحوم؟

بديهي أنّه ليس ذلك لأنّ نزول هذه الأحكام لا يوجب إعطاء تلك الأهمّية العظيمة، ولا يمكن أن يكون سبباً لإكمال الدين، لأنّها لم تكن آخر الأحكام التي نزلت على النّبي ﷺ، والدليل على هذا القول ما نراه من أحكام تلت الأحكام السابقة في نزولها، كما لا يمكن القول بأن الأحكام المذكورة هي السبب في يأس الكفّار، بل إنّ ما يثير اليأس لدى الكفّار هو إيجاد دعامة راسخة قوية لمستقبل الإسلام، وبعبارة أُخرى

---

(١) تفسير المنار، ج ٦، ص ١٥٥.

فإنّ نزول أحكام الحلال والحرام من اللحوم لا يترك أثراً في نفوس الكفّار، فماذا يضيرهم لو كان بعض اللحوم حلالاً وبعضها الآخر حراماً؟!

فهل المراد من ذلك «اليوم» هو يوم عرفة من حجّة الوداع، آخر حجّة قام بها النّبي ﷺ (كما احتمله بعض المفسّرين)؟

وجواب هذا السؤال هو النفي أيضاً، لأنّ الدلائل المذكورة لا تتطابق مع هذا التّفسير، حيث لم تقع أيّ حادثة مهمّة في مثل ذلك اليوم لتكون سبباً ليأس الكفّار ولو كان المراد هو حشود المسلمين الذين شاركوا النّبي ﷺ في يوم عرفة، فقد كانت هذه الحشود تحيط بالنّبي ﷺ في مكّة قبل هذا اليوم أيضاً، ولو كان المقصود هو نزول الأحكام المذكورة في ذلك اليوم، فلم تكن الأحكام تلك شيئاً مهمّاً مخيفاً بالنسبة للكفّار.

ثمّ هل المقصود بذلك «اليوم» هو يوم فتح مكّة (كما احتمله البعض)؟ ومن المعلوم أنّ سورة المائدة نزلت بعد فترة طويلة من فتح مكّة!

أو أنّ المراد هو يوم نزول آيات سورة البراءة، ولكنها نزلت قبل فترة طويلة من سورة المائدة.

والأعجب من كل ما ذكر هو قول البعض بأن هذا اليوم هو يوم ظهور الإسلام وبعثة النّبي ﷺ مع أن هذين الحدثين لا علاقة زمنية بينهما وبين يوم نزول هذه الآية مطلقاً وبينهما فارق زمني بعيد جدّاً.

وهكذا يتّضح لنا أنّ أيّاً من الاحتمالات الستة المذكورة لا يتلاءم مع محتوى الآية موضوع البحث.

ويبقى لدينا احتمال أخير ذكره جميع مفسّري الشيعة في تفاسيرهم وأيدوه كما دعمته روايات كثيرة، وهذا الاحتمال يتناسب تماماً مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم غدير خم» أي اليوم الذي نصب النّبي ﷺ علياً أميرالمؤمنين عليه السلام بصورة رسمية وعلنية خليفة له، حيث غشي الكفار في هذا اليوم سيل من اليأس، وقد كانوا يتوهمون أنّ دين الإسلام سينتهي بوفاة النّبي ﷺ وأنّ الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنّهم حين شاهدوا أنّ النّبي أوصى بالخلافة بعده لرجل كان فريداً بين المسلمين في علمه وتقواه وقوته وعدالته، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، ورأوا النّبي وهو يأخذ البيعة لعلي عليه السلام أحاط بهم اليأس من كل جانب، وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام وأدركوا أن هذا الدين باق راسخ.

ففي يوم غدير خم أصبح الدين كاملاً، إذ لو لم يتمّ تعيين خليفة للنّبي ﷺ ولو لم يتمّ تعيين وضع مستقبل الأُمّة الإسلامية، لم تكن لتكتمل الشريعة بدون ذلك ولم يكن ليكتمل الدين.

نعم في يوم غدير خم أكمل الله وأتمّ نعمته بتعيين علي عليه السلام، هذه الشخصية اللائقة الكفء، قائداً وزعيماً للأُمة بعد النّبي ﷺ.

وفي هذا اليوم - أيضاً - رضي الله بالإسلام ديناً، بل خاتماً للأديان، بعد أن اكتملت مشاريع هذا الدين، واجتمعت فيه الجهات الأربع.

وفيما يلي قرائن أُخرى إضافة إلى ما ذكر في دعم وتأييد هذا التّفسير:

أ - لقد ذكرت تفاسير «الرازي» و«روح المعاني» و«المنار» في تفسير هذه الآية أنّ النّبي ﷺ لم يعش أكثر من واحد وثمانين يوماً بعد نزول هذه الآية[١]، وهذا أمر يثير الانتباه في حد ذاته، إذ حين نرى أنّ وفاة النّبي ﷺ كانت في اليوم الثّاني عشر من ربيع الأوّل[٢] (بحسب الروايات الواردة في مصادر جمهور السنّة، وحتى في بعض روايات الشيعة، كالتي ذكرها الكليني في كتابه المعروف بالكافي) نستنتج أن نزول الآية كان بالضبط في يوم الثامن عشر من ذي الحجّة الحرام، وهو يوم غدير خم[٣].

ب - ذكرت روايات كثيرة - نقلتها مصادر السنّة والشيعة - أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في يوم غدير خم، وبعد أن أبلغ النّبي ﷺ المسلمين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن هذه الروايات:

١ - ما نقله العالم السنّي المشهور ابن جرير الطبري في كتاب «الولاية» عن زيد بن أرقم الصحابي المعروف، أنّ هذه الآية نزلت في يوم غدير خم في شأن علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢ - ونقل الحافظ أبو نعيم الإصفهاني في كتاب ما نزل من القرآن في حق علي عليه السلام: عن أبي سعيد الخدري وهو صحابي معروف - أنّ النّبي ﷺ أعطى في «يوم غدير خم» علياً منصب الولاية . . . وأنّ الناس في ذلك اليوم لم يكادوا يتفرقون

---

(١) التفسير الكبير، ج ١١، ص ١٣٩. (٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٤٣٩.

(٣) إنّ هذا الحساب يكون صحيحاً إذا لم ندخل يوم وفاة النّبي ﷺ ويوم غدير خم في الحساب، وأن يكون في ثلاثة أشهر متتاليات مشهرات عدد أيّام كل منها (٢٩) يوماً، ونظراً لأنّ أي حدث تاريخي لم يحصل قبل وبعد يوم غديرخم، فمن المرجح أن يكون المراد باليوم المذكور في الآية هو يوم غدير خم.

حتى نزلت آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ فقال النّبي ﷺ وفي تلك اللحظة «الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي وبالولاية لعلي عليه السلام من بعدي» ثمّ قال ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله».

٣ - وروى الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنّ آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ نزلت عقيب حادثة غدير خم والعهد بالولاية لعلي عليه السلام وقول عمر بن الخطاب: «بخ بخ لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم»(١).

وجاء في كتاب «الغدير» إضافة إلى الروايات الثلاث المذكورة، ثلاث عشرة رواية أُخرى في هذا المجال.

وورد في كتاب «إحقاق الحق» نقلاً عن الجزء الثّاني من تفسير «ابن كثير» من الصفحة ١٤ وعن كتاب «مقتل الخوارزمي» في الصفحة ٤٧ عن النّبي ﷺ أنّ هذه الآية نزلت في واقعة غديرخم.

ونرى في تفسير «البرهان» وتفسير «نور الثقلين» عشر روايات من طرق مختلفة حول نزول الآية في حق علي عليه السلام أو في يوم غدير خم، ونقل كل هذه الروايات يحتاج إلى رسالة منفردة(٢).

وقد ذكر العلاّمة السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه «المراجعات» أنّ الروايات الصحيحة المنقولة عن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام تقول بنزول هذه الآية في «يوم غدير خم» وإنّ جمهور السنّة أيضاً قد نقلوا ستة أحاديث بأسانيد مختلفة عن النّبي ﷺ تصرح كلها بنزول الآية في واقعة غدير خم(٣).

يتّضح ممّا تقدم أنّ الروايات والأخبار التي أكّدت نزول الآية - موضوع البحث - في واقعة غدير خم ليست من نوع أخبار الآحاد لكي يمكن تجاهلها، عن طريق اعتبار

---

(١) لقد أورد العلاّمة الأميني رحمه الله هذه الروايات الثلاث بتفاصيلها في الجزء الأوّل من كتابه «الغدير» في الصفحات ٢٣٠ و٢٣١ و٢٣٢ كما ورد في كتاب «إحقاق الحق» في الجزء السادس وص ٣٥٣ أن نزول الآية كان في حادثة غدير خم نقلاً عن أبي هريرة من طريقين، كما نقلها عن أبي سعيد الخدري من عدة طرق.

(٢) راجع تفسير الآية في الجزء الأوّل من تفسير البرهان والجزء الأوّل من تفسير «نور الثقلين».

(٣) راجع كتاب «المراجعات» الطبعة الرابعة الرسالة ١٢، ص ٣٨.

الضعف في بعض أسانيدها، بل هي أخبار إن لم تكن في حكم المتواتر فهي على أقل تقدير من الأخبار المستفيضة التي تناقلتها المصادر الإسلامية المشهورة.

ومع ذلك فإنّنا نرى بعضاً من العلماء المتعصبين من أهل السنّة كالآلوسي في تفسير «روح المعاني» الذي تجاهل الأخبار الواردة في هذا المجال لمجرّد ضعف سند واحد منها، وقد وصم هؤلاء هذه الرواية بأنّها موضوعة أو غير صحيحة، لأنّها لم تكن لتلائم أذواقهم الشخصية، وقد مرّ بعضهم في تفسيره لهذه الآية مرور الكرام ولم يلمح إليها بشيء، كما في تفسير المنار، ولعل صاحب المنار وجد نفسه في مأزق حيال هذه الروايات فهو إن وصمها بالضعف خالف بذلك منطق العدل والإنصاف، وإن قبلها عمل شيئاً خلافاً لميله وذوقه.

وقد وردت في الآية (٥٥) من سورة النور نقطة مهمّة جديرة بالإنتباه، فالآية تقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ...﴾ والله سبحانه وتعالى يقطع في هذه الآية وعداً على نفسه بأن يرسخ دعائم الدين، الذي ارتضاه للمؤمنين في الأرض.

ولمّا كان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، ونظراً إلى جملة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ الواردة في الآية الأخيرة - موضوع البحث - والتي نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، لذلك كله نستنتج أنّ حكم الإسلام يتعزز ويترسخ في الأرض إذا اقترن بالولاية، لأنّ الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله ووعد بترسيخ دعائمه وتعزيزه، وبعبارة أوضح إنّ الإسلام إذا أُريد له أن يعم العالم كله يجب عدم فصله عن ولاية أهل البيت عليهم السلام.

أمّا الأمر الثّاني الذي نستنتجه من ضمن الآية الواردة في سورة النور إلى الآية التي هي موضوع بحثنا الآن، فهو أنّ الآية الأُولى قد أعطت للمؤمنين وعوداً ثلاثة:

أوّلها: الخلافة على الأرض.

والثّاني: تحقق الأمن والاستقرار لكي تكون العبادة لله وحده.

والثّالث: استقرار الدين الذي يرضاه الله في الأرض.

ولقد تحققت هذه الوعود الثلاثة في «يوم غدير خم» بنزول آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ...﴾ فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو علي عليه السلام الذي نصب وصيّاً

للنبي ﷺ، ودلّت عبارة ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ . . .﴾ على أنّ الأمن قد تحقق بصورة نسبية لدى المؤمنين، كما بيّنت عبارة: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ أنّ الله قد اختار الدين الذي يرتضيه، وأقرّه بين عباده المسلمين.

وهذا التّفسير لا ينافي الرواية التي تصرح بأنّ آية سورة النور قد نزلت في شأن المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف[1]، وذلك لأنّ عبارة ﴿ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ لها معنى واسع تحقق واحد من مصاديقه في «يوم غدير خم» وسيتحقق على مدى أوسع وأعم في زمن ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف (وعلى أساس هذا التّفسير فإنّ كلمة الأرض في الآية الأخيرة ليست بمعنى كل الكرة الأرضية، بل لها مفهوم واسع يمكن أن يشمل مساحة من الأرض أو الكرة الأرضية بكاملها).

ويدل على هذا الأمر المواضع التي وردت فيها كلمة «الأرض» في القرآن الكريم، حيث وردت أحياناً لتعني جزءاً من الأرض، وأُخرى لتعني الأرض كلها.

سؤال يفرض نفسه

وأخيراً بقي سؤال ملح وهو:

أوّلاً: إنّ الأدلة المذكورة في الآية - موضوع البحث - والأدلة التي ستأتي في تفسير الآية (٦٧) من سورة المائدة والتي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ لو كانت كلها تخص واقعة واحدة، فلماذا فصل القرآن بين هاتين الآيتين ولم تأتيا متعاقبتين في مكان واحد؟

وثانياً: لا يوجد ترابط موضوعي بين ذلك الجزء من الآية الذي يتحدث عن واقعة غدير خم وبين الجزء الآخر منها الذي يتحدث عن الحلال والحرام من اللحوم، فما سبب هذه المفارقة الظاهرة؟[2].

الجواب:

أوّلاً: نحن نعلم أنّ الآيات القرآنية - وكذلك سور القرآن الكريم - لم تجمع كلها مرتبة بحسب نزولها الزمني، بل نشاهد كثيراً من السور التي نزلت في المدينة فيها آيات مكية أي نزلت في مكّة، كما نلاحظ آيات مدنية بين السور المكية أيضاً.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٧.

(٢) لقد أورد هذا الاعتراض تلميحاً صاحب تفسير «المنار» لدى الحديث عن هذه الآية، ج ٦، ص ٢٦٦.

وبناءً على هذه الحقيقة، فلا عجب - إذن - من وجود هذا الفاصل في القرآن بين الآيتين المذكورتين (ويجب الاعتراف بأن ترتيب الآيات القرآنية بالصورة التي هي عليها الآن قد حصل بأمر من النّبي ﷺ نفسه) فلو كانت الآيات القرآنية مرتبة بحسب زمن نزولها لأصبح الاعتراض وارداً في هذا المجال.

ثانياً: هناك احتمال بأن يكون سبب حشر موضوع واقعة غدير خم في آية تشتمل على موضوع لا صلة لها به مطلقاً، مثل موضوع أحكام الحلال والحرام من اللحوم، إنما هو لصيانة الموضوع الأوّل من أن تصل إليه يد التحريف أو الحذف أو التغيير.

إنّ الأحداث التي وقعت في اللحظات الأخيرة من عمر النّبي ﷺ والاعتراض الصريح الذي واجهه طلب النّبي ﷺ لكتابة وصيته، إلى حدّ وصفوا النّبي ﷺ لدى طلبه هذا الأمر بأنّه يهجر (والعياذ بالله) وقد وردت تفاصيل هذه الوقائع في الكتب الإسلامية المعروفة، سواء عن طريق جمهور السنّة أو الشيعة، وهي تدل بوضوح على الحساسية المفرطة التي كانت لدى نفر من الناس تجاه قضية الخلافة بعد النّبي ﷺ حيث لم يتركوا وسيلة إلاّ استخدموها لإنكار هذا الأمر(١)..

فلا يستبعد - والحالة هذه - أن تتخذ إجراءات وقائية لحماية الأدلة والوثائق الخاصّة بالخلافة من أجل إيصالها إلى الأجيال المتعاقبة دون أن تمسّها يد التحريف أو الحذف، ومن هذه الإجراءات حشر موضوع الخلافة - المهم جدّاً - في القرآن بين آيات الأحكام الشرعية الفرعية لإبعاد عيون وأيدي المعارضين والعابثين عنها.

إضافة إلى ذلك - وكما أسلفنا في حديثنا - فإنّ الوثائق الخاصّة بنزول آية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ الواردة في واقعة غدير خم حول قضية الخلافة بعد النّبي ﷺ لم تقتصر كتب الشيعة وحدهم على ذكرها، بل تناقلها - أيضاً - الكثير من كتب السنّة من طرق متعددة عن ثلاثة من الصحابة المعروفين.

لقد أعادت الآية - في نهايتها - الكرّة في التحدث عن اللحوم المحرمة فبيّنت حكم

---

(١) نقل هذه الواقعة واحد من أشهر كتب السنّة وهو كتاب «صحيح البخاري» وفي عدّة أبواب منها باب «كتاب المرضى» في الجزء الرابع، وباب «كتاب العلم» في الجزء الأوّل، ص ٢٢ وفي باب «جوائز وفد» من كتاب الجهاد، ص ١١٨، ج ٢ كما وردت في كتاب «صحيح مسلم» في آخر الوصايا بالإضافة إلى كتب أُخرى ذكرها المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله في كتابه «المراجعات» تحت عنوان «رزيّة يوم الخميس».

الاضطرار في حالة المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا يكون هدف الشخص ارتكاب المعصية من تناول ذلك، مشيرة إلى غفران الله ورحمته في عدم إلجاء عباده عند الاضطرار إلى تحمل المعاناة والمشقة، وعدم معاقبتهم في مثل هذه الحالات. قالت الآية الكريمة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمراد بالمخمصة هنا الجوع الشديد الذي يؤدّي إلى انخماص البطن، سواء كان بسبب حالة المجاعة العامّة، أو كان ناتجاً عن الحرمان الخاص.

أمّا عبارة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ فمعناها غير مائل إلى ارتكاب الذنب، وقد يكون الإتيان بها تأكيداً لمفهوم الاضطرار، أو أنّ الهدف منها هو المنع من الإفراط في أكل اللحم الحرام أثناء الضرورة، توهماً من الشخص بأن ذلك حلال في مثل هذه الحالة، ومنعاً من أن يحاول الشخص بنفسه إعداد مقدمات الاضطرار أو أن يحصل الاضطرار أثناء قيام الشخص بسفر من أجل ارتكاب الحرام فيه.

هذه المعاني كلها يحتمل ورودها ضمن العبارة الأخيرة الماضية «ولأجل الاطلاع على توضيحات أكثر في هذا المجال، راجع الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المفسرون أسباباً عديدة لنزول هذه الآية، وأكثر هذه الأسباب ملاءمة مع فحوى الآية هو: أنّ زيد الخير وعدي بن حاتم اللذين كانا من الصحابة المقرّبين، قدما على النّبي ﷺ وأخبراه بأنّ قومهما يصيدون بواسطة كلاب وصقور الصيد، وأنّ هذه الكلاب تصيد لهم الحيوانات الوحشية من ذوات اللحم الحلال، وتأتي بالحيوان المصيد حياً في بعض الأحيان فيذبح، وأحياناً أُخرى تأتي به وقد قتلته قبل وصولها إلى أصحابها دون أن يتاح لهم ذبحه، وسألا النّبي ﷺ عن حكم الصيد والمقتول بواسطة

كلاب الصيد وهل يعتبر ميتة وحراماً أم لا؟... فنزلت الآية هذه وأجابت على سؤالهما [(١)].

التّفسير

الحلال من الصيد

أعقبت الآية الأخيرة آيتين سبق أن تناولتا أحكاماً عن الحلال والحرام من اللحوم، وقد بيّنت هذه الآية نوعاً آخر من اللحوم أو الحيوانات التي يحل للإنسان تناولها، وجاءت على صيغة جواب لسؤال ذكرته الآية نفسها بقولها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ...﴾.

فتأمر الآية النّبي ﷺ - أوّلاً - بأن يخبرهم أنّ كل ما كان طيباً وطاهراً فهو حلال لهم، حيث تقول: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ دالة على أنّ كل ما حرمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهرة، وإن القوانين الإلهيّة لا تحرم - مطلقاً - الموجودات الطاهرة التي خلقها الله لينتفع بها البشر، وأن الجهاز التشريعي يعمل دائماً بتنسيق تام مع الجهاز التكويني وفي كل مكان.

ثمّ تبيّن الآية أنواع الصيد الحلال، فتشير إلى الصيد الذي تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربة على الصيد، فتؤكد أنّه حلال، بقولها: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

وعبارة جوارح مشتقة من المصدر «جرح» الذي يعني أحياناً «الكسب» وتارة يعني «الجرح» الذي يصاب به البدن، ولذلك يطلق على الحيوانات المدرّبة على الصيد، سواء كانت من الطيور أو من غيرها، اسم «جارحة» وجمعها «جوارح» أي الحيوان الذي يجرح صيده، أو بالمعنى الآخر الحيوان الذي يكسب لصاحبه، وأمّا إطلاق لفظة «الجوارح» على أعضاء الجسم فلأن الإنسان يستطيع بواسطتها إنجاز الأعمال أو الاكتساب.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٧٧؛ تفسير القرطبي، ج ٣، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) هناك محذوف مقدر في بداية هذه الجملة القرآنية، حيث إنّ الأصل يفترض أن يكون «وصيد ما علمتم» وذلك استدلالاً بالقرينة الواردة في جملة ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ...﴾ (فليلاحظ ذلك).

وجملة ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ تشمل كل الحيوانات المدرّبة على الصيد، ولكن كلمة ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ التي تعني تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، والمشتقة من مادة «كَلَب» أي الكلب، تقيد هذه الجملة وتخصصها بكلاب الصيد، ولذلك فإنها لا تشمل الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب مثل الصقور المدرّبة على الصيد.

ولذلك ذهب فقهاء الشيعة إلى تخصيص الصيد الحلال بما يصاد من قبل كلاب الصيد، لكن جمعاً من علماء السنّة ومفسّريهم ذهبوا إلى جواز الكل وأعطوا تفسيراً واسعاً لعبارة ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ ولم يخصصوا ذلك بكلاب الصيد فقط.

إلاّ أنّنا نرى أنّ المصدر الأساس لهذه الكلمة المشتقة إنّما يدل على أنّها مخصصة بكلاب الصيد فقط، وبديهي أنّ الصيد الذي تجلبه حيوانات مدرّبة أُخرى، يعتبر حلالاً في حالة جلبه حيّاً وذبحه وفق الطريقة الشرعية.

أمّا عبارة ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فإنّها تشير إلى عدّة أُمور هي

١ - إنّ تدريب مثل هذه الحيوانات يجب أن يستمر، فلو نسيت ما تعلمته وقتلت حيواناً كما تفعله بعض الكلاب السائبة، فلا يعتبر عند ذلك ما قتلته صيداً، ولا يحل لحم هذا الحيوان المقتول في مثل هذه الحالة، والدليل على هذا القول هو كون فعل «تعلمونهن» فعلاً مضارعاً، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال.

٢ - يجب أن يتمّ تدريب هذه الكلاب وفق الأصول الصحيحة التي تتلاءم مع مفهوم العبارة القرآنية ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ﴾ .

إنّ العلوم كلها - سواء كانت بسيطة أو معقدة - مصدرها هو الله، وإنّ الإنسان لا يملك بنفسه شيئاً ما لم يعلّمه الله.

إضافة إلى ما ذكر فإنّ كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث تأتمر بأمر صاحبها، أي تتحرك بأمره وتعود إليه بأمره أيضاً.

وبديهي أنّ الحيوان الذي تصيده كلاب الصيد، يجب أن يذبح وفق الطريقة الشرعية إن جلب حيّاً، وإن مات الحيوان قبل دركه فلحمه حلال وإن لم يذبح.

وأخيراً أشارت الآية الكريمة إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد:

أوّلهما: أن لا يأكل كلب الصيد من صيده شيئاً، حيث قالت الآية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ...﴾ .

وعلى هذا الأساس فإنّ الكلاب لو أكلت من الصيد شيئاً قبل إيصاله إلى صاحبها، وتركت قسماً آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد ويدخل ضمن حكم ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ الذي ورد في الآية السابقة، ومثل هذا الكلب الذي يأكل الصيد لا يعتبر في الحقيقة كلباً مدرباً، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقاً لعبارة ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لأنّه في هذه الحالة يكون (أي الكلب) قد صاد لنفسه (لكن بعض الفقهاء لم يروا في هذا الموضوع شرطاً، مستندين إلى روايات وردت في مصادر الحديث وذكرتها كتب الفقه بالتفصيل).

ومجمل القول هو أن كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث لا تأكل من الصيد الذي تمسكه.

والأمر الثّاني: هو ضرورة ذكر اسم الله على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾.

ولكي تضمن الآية رعاية الأحكام الإلهية - هذه - كلها، أكّدت في الختام قائلة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ داعية إلى الخوف من الله العزيز القدير، ومن حسابه السريع[1].

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾

التّفسير

حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزّواج معهم

تناولت هذه الآية، التي جاءت مكملة للآيات السابقة، نوعاً آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أنّ كل غذاء طاهر حلال، وأن غذاء أهل الكتاب حلال للمسلمين، وغذاء

(١) لقد شرحنا معنى جملة «سريع الحساب» في الجزء الثّاني من تفسيرنا هذا ذيل الآية ٢٠٢ من سورة البقرة.

المسلمين حلال لأهل الكتاب، وحيث قالت الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

وتشتمل هذه الآية الكريمة على أُمور نجلب الالتفات إليها، وهي:

١ - إنّ المراد بكلمة «اليوم» الواردة في هذه الآية هو يوم «عرفة» بناء على ما اعتقده بعض المفسّرين، وقد ذهب مفسرون آخرون إلى أنّ المراد هو اليوم الذي تلا فتح خيبر ولا يبعد أن يكون هو نفس يوم غدير خم الذي تحقق فيه النصر الكامل للمسلمين على الكفار (وسنتناول هذا الموضوع بالشرح قريباً).

٢ - لقد تناولت هذه الآية قضية تحليل الطيبات مع أنّها كانت حلالاً قبل نزول الآية والهدف من ذلك أن تكون هذه القضية مقدمة لبيان حكم «طعام أهل الكتاب».

٣ - ما هو المقصود بـ «طعام أهل الكتاب» الذي اعتبرته الآية حلالاً على المسلمين؟

يعتقد أغلب مفسّري علماء السنة أن «طعام أهل الكتاب» يشمل كل أنواع الطعام، سواء كان من لحوم الحيوانات المذبوحة بأيدي أهل الكتاب أنفسهم أو غير ذلك من الطعام، بينما تعتقد الأغلبية الساحقة من مفسّري الشيعة وفقهائهم أنّ المقصود من «طعام أهل الكتاب» هو غير اللحوم المذبوحة بأيدي أهل الكتاب، إلاّ أنّ هناك القليل من علماء الشيعة - أيضاً - ممن يقولون بصحة النظرية الأُولى التي اتبعها أهل السنة.

وتؤكد رأي غالبية الشيعة - في هذا المجال - الروايات العديدة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال في هذه الآية: «عنى بطعامهم ها هنا الحبوب والفاكهة غير الذبائح التي يذبحونها، فإنهم لا يذكرون اسم الله عليها»(١).

ووردت روايات عديدة أُخرى في هذا المجال في الجزء السادس عشر من كتاب وسائل الشيعة في الباب ٥١ من أبواب الأطعمة والأشربة، في الصفحة ٣٧١.

وبالإمعان في الآيات السابقة يتبيّن أن التّفسير الثّاني الذي ذهبت إليه الأكثرية من مفسّري الشيعة وفقهائهم (تفسير الطعام بغير الذبيحة) أقرب إلى الحقيقة من التّفسير الأوّل.

---

(١) تفسير علي بن ابراهيم القمي، ج ١، ص ١٦٣؛ وبحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٢١.

وذلك - كما أوضح الإمام الصّادق عليه السلام في الرواية التي أوردناها أعلاه - لأنّ أهل الكتاب لا يراعون الشروط الإسلامية في ذبائحهم، فهم لا يذكرون اسم الله على الذبيحة، ولا يوجهونها صوب القبلة أثناء ذبحها، كما أنّهم لا يلتزمون برعاية الشروط الأُخرى - فهل يعقل أن تحرم الآية السابقة - وبصورة صريحة - لحم الحيوان المذبوح بهذه الطريقة، وتأتي آية أُخرى بضدها لتحلله؟!

وترد على الذهن في هذا المجال أسئلة نلخصها فيما يلي:

١ - لو كان المقصود بالطعام سائر الأغذية ما عدا لحوم ذبائح أهل الكتاب، فإنّ هذه الأغذية كانت حلالاً من قبل، ولا فرق بين وجودها في أيدي أهل الكتاب أو غيرهم، فهل كان شراء الحبوب والغلات من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآية شيئاً مخالفاً للشرع، في حين أنّ المسلمين كانوا دائماً يتعاطون مع أهل الكتاب شراء وبيع هذه الأشياء؟!

إذا توجهنا إلى نقطة أساسية في الآية الكريمة، يتوضح لنا بجلاء جواب هذا السؤال، فالآية الأخيرة - هذه - نزلت في زمن كان للإسلام فيه السلطة الكاملة على شبه الجزيرة العربية وقد أثبت الإسلام وجوده في كل الساحات والميادين على طول هذه الجزيرة وعرضها، بحيث إنّ أعداء الإسلام قد تملكهم اليأس التام لعجزهم عن دحر المسلمين، ولذلك اقتضت الضرورة - في مثل هذا الظرف المناسب للمسلمين - أن ترفع القيود والحدود التي كانت مفروضة قبل هذا في مجال مخالطة المسلمين لغيرهم، حيث كانت هذه القيود تحول دون تزاور المسلمين مع الغير.

لذلك نزلت هذه الآية الكريمة وأعلنت تخفيف قيود التعامل والمعاشرة مع أهل الكتاب، بعد أن ترسخت قواعد وأساس الحكومة الإسلامية، ولم يعد هناك ما يخشى منه من جانب غير المسلمين، فسمحت الآية بالتزاور بين المسلمين وغيرهم، وأحلت طعام بعضهم لبعض كما أحلت التزاوج في ما بينهم (ولكن على أساس الشروط التي سنبيّنها).

جدير بالقول أنّ الذين لا يرون طهارة أهل الكتاب يشترطون أن يكون طعامهم خالياً من الرطوبة أو البلل، وإذا كان الطعام رطباً يشترط أن لا تكون أيادي أهل الكتاب قد مسته لكي يستطيع المسلمون تناول هذا الطعام، كما يرى هؤلاء عدم جواز تناول طعام أهل الكتاب إن لم تتوفر الشروط المذكورة فيه.

إلاّ أنّ مجموعة أُخرى من العلماء الذين يرون طهارة أهل الكتاب، لا يجدون بأساً في تناول الطعام مع أهل الكتاب والحلول ضيفاً عليهم، شرط أن لا يكون طعامهم من لحوم ذبائحهم وأن يحصل اليقين من براءته من نجاسة عرضية (كأن يكون قد تنجس باختلاطه أو ملامسته للخمرة أو الجعة «ماء الشعير»).

وخلاصة القول: إنّ الآية - موضوع البحث - جاءت لترفع الحدود والقيود السابقة الخاصّة بمعاشرة أهل الكتاب، والدليل على ذلك هو إشارة الآية لإباحة طعام المسلمين لأهل الكتاب، أي السماح للمسلمين باستضافتهم، كما تتطرق الآية بعد ذلك مباشرة إلى حكم التزاوج بين المسلمين وأهل الكتاب (أي الزواج بنساء أهل الكتاب).

وبديهي أنّ النظام الذي يمتلك السيطرة الكاملة على أوضاع المجتمع، هو وحده القادر على إصدار مثل هذا الحكم لمصلحة أتباعه دون أن يساوره أي قلق بسبب الأعداء، وقد ظهرت هذه الحالة في الحقيقة في يوم غدير خم، أو في يوم عرفة في حجّة الوداع كما اعتقده البعض، أو بعد فتح خيبر، مع أن يوم غدير خم هو الأقرب إلى هذا الموضوع.

أورد صاحب تفسير المنار في كتابه اعتراضاً آخر في تفسير هذه الآية، حيث يقول بأنّ كلمة «طعام» وردت في كثير من آيات القرآن بمعنى كل أنواع الطعام، وهي تشمل اللحوم أيضاً، فكيف يمكن تقييد الآية بالحبوب والفواكه وأمثالها؟، ثمّ يقول بأنّه طرح هذا الاعتراض في مجلس كان يضم جمعاً من الشيعة فلم يجب أحد عليه.

وفي اعتقادنا نحن أنّ جواب اعتراض صاحب كتاب المنار واضح، فنحن لا ننكر أنّ لفظة «طعام» تحمل مفهوماً واسعاً، إلاّ أنّ ما ورد في الآيات السابقة، كبيان أنواع اللحوم المحرمة - وبالأخص لحوم الحيوانات التي لم يذكر اسم الله عليها لدى ذبحها - إنّما يخصص هذا المفهوم الواسع ويحدد كلمة «طعام» في الآية بغير اللحوم، ولا ينكر أحد أنّ كل عام أو مطلق قابل للتخصيص والتقييد، كما نعلم أنّ أهل الكتاب لا يلتزمون بذكر اسم الله على ذبائحهم، ناهيك عن أنّهم لا يراعون - أيضاً - الشروط الواردة في السنّة في مجال الذبح.

وجاء في كتاب كنز العرفان حول تفسير هذه الآية اعتراض آخر خلاصته أنّ كلمة «طيبات» لها مفهوم واسع، وهي «عامّة» بحسب الاصطلاح، بينما جملة ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ

أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خاصّة، وطبيعي أنّ ذكر الخاص بعد العام يجب أن يكون لسبب، ولكن السبب في هذا المجال غير واضح، ثمّ يرجو صاحب الكتاب من الله أن يحل له هذه المعضلة العلمية[١].

إنّ جواب هذا الاعتراض يتّضح أيضاً ممّا قلناه سابقاً بأنّ الآية إنّما جاءت بعبارة ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كمقدمة من أجل بيان رفع القيود في التقارب مع أهل الكتاب، فالحقيقة أنّ الآية تقول بأنّ كل شيء طيب هو حلال للمسلمين، وبناء على هذا فإن طعام أهل الكتاب (إذ كان طيباً وطاهراً) هو حلال أيضاً للمسلمين - وأن الحدود والقيود التي كانت تقف حائلا دون تقارب المسلمين مع أهل الكتاب قد رفعت أو خففت في هذا اليوم بعد الانتصارات التي أحرزها المسلمون فيه. (فتأمّل).

حكم الزّواج بغير المسلمات

بعد أنّ بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدّثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، فقالت بأنّ المسلمين يستطيعون الزّواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهنّ مهورهن، حيث تقول الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ...﴾ على أن يكون التواصل بوسيلة الزّواج المشروع وليس عن طريق الزنا الصريح، ولا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾[٢].

وهذا الجزء من الآية الكريمة يقلل في الحقيقة الحدود التي كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين وغيرهم، ويبيّن جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصّة.

وقد اختلف فقهاء المسلمين في أنّ جواز الزواج بالمرأة الكتابية هل ينحصر بالنوع المؤقت من الزّواج، أو يشمل النوعين: الدائم والمؤقت؟

لا يرى علماء السنّة فرقاً بين نوعي الزواج في هذا المجال، ويعتقدون أنّ الآية

(١) تفسير كنز العرفان، ج ٢، ص ٣١٢.

(٢) لقد أوضحنا في هذا الجزء من تفسيرنا هذا في تفسير الآية (٢٥) من سورة النساء، أنّ كلمة «أخدان» جمع «خدن» وهي تعني في الأصل الصديق، وعادة ما تطلق على الصداقة السرية غير الشرعية مع الجنس الآخر.

عامّة، بينما يعتقد جمع من علماء الشيعة أنّ الآية مقتصرة على الزواج المؤقت، وتؤيّد روايات وردت عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام هذا الرأي أيضاً.

والقرائن الموجودة في الآية يمكن أن تكون دليلاً على هذا القول.

وأوّل هذه القرائن قوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولو أنّ لفظة «الأجر» تطلق على المهر في نوعي الزواج الدائم والمؤقت، إلاّ أنّها غالباً ما ترد لبيان المهر في الزواج المؤقت، أي أنّها تناسب هذا الأخير أكثر.

أمّا القرينة الثّانية فهي قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ فهي تتلاءم أكثر مع الزواج المؤقت، لأنّ الزواج الدائم ليس فيه شبه الزنا أو الصداقة السرية لكي ينهى عنه، بينما يشتبه بعض السذج من الناس - أحياناً - في الزواج المؤقت فيخلطون بينه وبين الزنا والصداقة السرية غير المشروعة مع المرأة.

أضف إلى ذلك كلّه ورود هذه التعابير في الآية (٢٥) من سورة النساء، وكما نعلم فإنّ تلك الآية نزلت في شأن الزواج المؤقت.

مع ذلك كلّه فإنّ هناك العديد من الفقهاء ممن يجيزون الزواج بالكتابيات بصورة مطلقة، ولا يرون القرائن المذكورة كافية لتخصيص الآية، كما يستدلون في هذا المجال ببعض الروايات (للاطلاع على تفاصيل أكثر في المجال يجدر الرجوع إلى كتب الفقه).

ولا يخفى علينا ما شاع في عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، ومن ذلك انتخاب الرجل أو المرأة خليلاً من الجنس الآخر وبصورة علنية، وقد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلي في التحلل والخلاعة والمجون الجنسي، ففي حين كان الإنسان الجاهلي ينتخب الأخلاء سرّاً وفي الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأساً من إعلان هذا الأمر والتباهي به بكل صلف ووقاحة، ويعتبر هذا التقليد المشين نوعاً صريحاً ومفضوحاً من الفحشاء وهدية مشؤومة انتقلت من الغرب إلى الشرق وأصبحت مصدراً للكثير من النكبات والكوارث.

ولا يفوتنا أن نوضح هذه النقطة وهي أن الآية أجازت تناول طعام أهل الكتاب كما أجازت إطعامهم وفق الشروط التي ذكرت، بينما في قضية الزواج أجازت فقط الزواج بنساء أهل الكتاب، ولم تجز للنساء المسلمات الزواج بالرجال من أهل الكتاب.

وفلسفة هذا الأمر جلية واضحة لا تحتاج إلى الشرح والتفصيل، لأنّ النساء بما

يمتلكنه من عواطف ومشاعر رقيقة يكن أكثر عرضة لاكتساب أفكار أزواجهنّ، من الرجال.

ولكي تسد الآية طريق إساءة استغلال موضوع التقارب والمعاشرة مع أهل الكتاب والزواج من المرأة الكتابية على البعض من ضعاف النفوس، وتحول دون الانحراف إلى هذا الأمر بعلم أو بدون علم، حذّرت المسلمين في جزئها الأخير فقالت: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه إشارة إلى أنّ التسهيلات الواردة في الآية بالإضافة إلى كونها تؤدّي إلى السعة ورفع الحرج عن حياة المسلمين، يجب أن تكون - أيضاً - سبباً لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ وتأثير الغير فيتركوا دينهم، حيث سيؤدّي بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهي الصارم الشديد.

وهناك احتمال آخر في تفسير هذا الجزء من الآية نظراً لبعض الروايات الواردة وسبب النّزول المذكور، وهو أن نفراً من المسلمين أعلنوا - بعد نزول هذه الآية وحكم حلّية طعام أهل الكتاب والزواج بالكتابيات - استياءهم من تطبيق هذه الأحكام، فحذرتهم الآية من الاعتراض على حكم الله ومن الكفر بهذا الحكم، وأنذرتهم بأنّ أعمالهم ستذهب هباء وستكون عاقبتهم الخسران.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾

التّفسير

تطهير الجسم والرّوح

لقد تناولت الآيات السابقة بحوثاً متعددة عن الطيبات الجسمانية والنعم المادية، أمّا

الآية الأخيرة فهي تتحدث عن الطيبات الروحية وما يكون سبباً لطهارة الرّوح والنفس الإنسانية، فقد بيّنت هذه الآية أحكاماً مثل الوضوء والغسل والتيمم، التي تكون سبباً في صفاء وطهارة الروح الإنسانية - فخاطبت المؤمنين في البداية موضحة أحكام الوضوء بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ(١) إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾.

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾.

لم توضّح الآية مناطق الوجه التي يجب غسلها في الوضوء، لكن الروايات التي وردت عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام قد بيّنت بصورة مفصلة طريقة الوضوء التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعمل بها:

١ - إنّ حدود الوجه طولاً من منابت الشعر على الجبهة حتى منتهى الذقن، وعرضاً ما يقع من الوجه بين الأصبع الوسطى والإبهام - وهذا هو ما يسمّى ويفهم من الوجه عرفاً، لأنّ الوجه هو ذلك الجزء من الجسم الذي يواجه الإنسان لدى التلاقي مع نظيره.

٢ - لقد ذكرت الآية حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء، فأشارت إلى أنّ الغسل يكون حتى المرفقين - وقد جاء التصريح بالمرفقين في الآية لكي لا يتوهم بأنّ الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العادة في غسل الأيدي.

ويتبيّن من هذا التوضيح أنّ كلمة «إلى» الواردة في الآية هي لمجرّد بيان حد الغسل وليست لبيان أُسلوبه كما التبس على البعض، حيث ظنوا أنّ المقصود في الآية هو غسل اليدين ابتداء من أطراف الأصابع حتى المرفقين (وراج هذا الأُسلوب لدى جماعات من أهل السنة).

ولتوضيح هذا الأمر نقول: إنّه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفة من

---

(١) وردت روايات عديدة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تؤكّد أنّ المراد بجملة «قمتم» هو القيام من النوم، حيث لدى الإمعان في محتويات الآية يتأكد لنا هذا الأمر أيضاً، لأنّ الجمل التالية التي تبين فيها الآية حكم التيمم قد وردت فيها عبارة ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، فلو كانت الآية تبيّن في بدايتها حكم جميع من ليسوا على وضوء، فإن عطف الجملة الأخيرة - وبالأخص - بحرف «أو» لا يتلاءم وظاهر هذه الآية، لأنّ المقصود فيها يدخل ضمن عنوان من هو ليس على وضوء أيضاً. أمّا إذا كان الآية في بدايتها تتكلم بصورة خاصة عن الذين يقومون من النوم، أي إنّها تبيّن فقط ما اصطلح عليه بـ «حدث النوم» فإنّ الجملة المذكورة تصبح مفهومة بشكل تام.

حد ارضيتها لغاية متر واحد، فالمفهوم من ذلك أنّه لا يطلب أن يبدأ الصباغ عمله من تحت إلى فوق، بل إنّ ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحة المراد صبغها لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا الأساس فإنّ الآية أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذي يجب غسله منها لا أُسلوب وكيفية الغسل.

وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أُسلوب الغسل وفق سنّة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

ويجب الانتباه إلى أنّ المرفق - أيضاً - يجب غسله اثناء الوضوء، لأنّ الغاية في مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغيّى، أي إنّ الحدّ يدخل في حكم المحدود[(١)].

٣ - إنّ حرف (بـ) الوارد مع عبارة «برؤوسكم» في الآية يعني التبعيض، كما صرّحت به بعض الروايات وأيده البعض من علماء اللغة، والمراد بذلك بعض من الرأس، أي مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعة أنّ هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلاً باليد، بينما الرائج بين البعض من طوائف السنّة من مسح كل الرأس وحتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآية الكريمة.

٤ - إنّ اقتران عبارة «ارجلكم» بعبارة «رؤوسكم» دليل على أنّ الأرجل يجب أن تمسح هي - أيضاً - لا أن تغسل، وما فتح اللام في «أرجلكم» إلاّ لأنّها معطوفة محلاً على «رؤوسكم» وليست معطوفة على «وجوهكم»[(٢)].

٥ - تعني كلمة «كعب» في اللغة النتوء الظاهر خلف الرجل، كما تعني - أيضاً - المفصل الذي يربط مشط الرجل بالساق[(٣)].

---

(١) لقد ذكر «سيبويه» الذي هو من مشاهير علماء اللغة العربية أنّه متى ما كان الشيء الوارد بعد (إلى) والشيء الوارد قبلها من جنس واحد، ويدخل هذا (المابعد) في الحكم - أمّا لو كانا من جنسين مختلفين فيعتبر خارجاً عن الحكم - فلو قيل: أمسك إلى آخر ساعة من النهار، يكون المفهوم من هذه الجملة أن الإمساك يشمل الساعة الأخيرة أيضاً، بينما لو قيل: أمسك إلى أول الليل فإن أوّل الليل لا يدخل ضمن حكم الإمساك (المنار، ج ٦، ص ٢٢٣).

(٢) ليس هناك من شك في أنّ عبارة «وجوهكم» تفصلها مسافة كبيرة نسبياً عن عبارة «أرجلكم» لذلك يستبعد أن تكون الأخيرة معطوفة على «وجوهكم»، إضافة إلى ذلك فإنّ الكثير من القراء قد قرأوا عبارة «أرجلكم» بكسر اللام.

(٣) لقد ذكر القاموس ثلاثة معان للكعب وهي: النتوء الظاهر خلف الرجل، والمفصل، والنتوئين البارزين على جانبي الرجل - وقد بيّنت السنّة الشريفة أنّ المراد في الآية ليس النتوءات المذكورات ولكن =

بعد ذلك كله بيّنت الآية حكم الغسل عن جنابة حيث قالت: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ . . .﴾ والواضح أنّ المراد من جملة «فاطّهروا» هو غسل جميع الجسم، لأنّه لو كان المراد جزءاً خاصاً منه لاقتضى ذكر ذلك الجزء، وعلى هذا الأساس فإنّ العبارة المذكورة تعني جميع الجسم - وقد جاء حكم مشابه لهذا الحكم في الآية (٤٣) من سورة النساء حيث تقول: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾.

إنّ كلمة «جُنباً» - وكما أوضحنا سابقاً في هذا الجزء من تفسيرنا هذا، لدى تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء - مصدر، وقد وردت بمعنى اسم الفاعل، وتعني في الأصل «المتباعد» أو «البعيد» لأنّ الجذر الأصلي هو «جنابة» بمعنى «بُعد»، وسبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان الجنب لأن هذا الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن الصلاة والتوقف في المساجد وأمثالها.

وتطلق هذه الكلمة «جنب» على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، وإطلاق «جار الجنب» على البعيد هو لنفس المناسبة.

ويمكن أن يستدل من الآية التي تدعو الجنب إلى الاغتسال قبل الصّلاة على أن غسل الجنابة يجزىء، وينوب عن الوضوء أيضاً.

ومن ثمّ بادرت الآية إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

وهنا يجب الالتفات إلى أن جملتي ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ و﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هما - كما أشرنا سابقاً - معطوفتان على بداية الآية، أي على جملة: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فالآية أشارت في البداية حقيقة إلى قضية النوم، وتطرقت في آخرها إلى نوعين آخرين من موجبات الوضوء والغسل.

أمّا لو عطفنا الجملتين على جملة ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فسنواجه مشكلتين في هذه الآية وهما أوّلا: إنّ عودة الإنسان بعد التخلي لا يمكن أن تكون كحالة المرض أو السّفر فلا تناظر بين تلك وهاتين الحالتين، لذلك ترانا مضطرين إلى أن نأخذ حرف «أو» الوارد في الآية بمعنى الواو العاطفة (وأكّد هذا الأمر جمع من المفسّرين) وهذا خلاف لظاهر الآية.

= العلماء اختلفوا في هل أن المراد هو النتوء البارز خلف الرجل أو هو المفصل؟ - وعلى أي حال - فإنّ الإحتياط يوجب أن يكون المسح حتى المفصل.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ ذكر التغوط بصورة خاصّة من بين كل موجبات الوضوء سيبقى بدون مبرر، لكننا لو فسّرنا الآية بالصورة التي قلناها سابقاً فلا يبقى بعد ذلك مبرر لهذين الاعتراضين الأخيرين، (ومع أنّنا في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء، وجرياً على ما فعله الكثير من المفسّرين، اعتبرنا كلمة «أو» بمعنى الواو العاطفة، إلاّ أنّ الذي ذكرناه مؤخراً - هنا - يعتبر أقرب إلى القبول من ذلك).

أمّا الموضوع الآخر فهو تكرار موضوع الجنابة مرّتين في هذه الآية، ويحتمل أن يكون هدف هذا التكرار هو التأكيد على هذه القضية، أو قد تكون كلمة «جنباً» الواردة بمعنى الجنابة التي تحدث أثناء النوم أو بسبب الاحتلام، بينما المراد من جملة ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هو الجنابة الحاصلة نتيجة المقاربة الجنسية بين الرجل والمرأة، وإذا فسّرنا كلمة «قمتم» الواردة في الآية بالقيام من النوم (كما ورد في روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأيضاً اشتملت الآية على قرينة بهذا الخصوص) يكون تفسيرنا هذا تأييداً للمعنى الذي أوردناه بخصوص تكرار موضوع الجنابة.

لقد بيّنت الآية - بعد ذلك - أُسلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ والواضح هنا أنّ المراد ليس حمل شيء من التراب ومسح الوجه واليدين به، بل إنّ المقصود ضرب الكفين على تراب طاهر ثمّ مسح الوجه واليدين بهما، لكن بعض الفقهاء استدلوا بعبارة «منه» الموجودة في الآية وقالوا بضرورة أن يلاصق الكفّين شيء ولو قليل من التراب(١).

بقيت مسألة أخيرة في هذا المجال، وهي مسألة معنى كلمتي ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فقد ذهب الكثير من علماء اللغة إلى أنّ لكلمة «صعيد» معنيين هما التراب أوّلا، أو كل شيء يغطي سطح البسيطة أي الكرة الأرضية ثانياً، سواء كان تراباً أو صخراً أو حصى أو حجراً أو غير ذلك من الأشياء، وقد أدى هذا إلى حصول اختلاف في آراء الفقهاء حول الشيء الذي يجوز التيمم به، هل هو التراب وحده أو أنّ الحجر والرمل وأمثالهما - أيضاً - يجوز التيمم بهما؟

---

(١) لقد أوضحنا في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء، بصورة مفصلة، أحكام التيمم وفلسفتها الإسلامية وكيف أن التيمم لا يعتبر مغايراً للوقاية الصحيّة، بل فيه جانب وقائي صحي أيضاً، وكذلك حول معنى «غائط» وقضايا أُخرى فليراجع.

وحين نرجع إلى الأصل اللغوي لكلمة «صعيد» الذي يدل على «الصعود والارتفاع» فإن المعنى الثّاني لهذه الكلمة يبدو أقرب إلى الذهن.

وتطلق كلمة «طيب» على الأشياء التي تلائم الطبع والذوق الإنساني، وقد أطلق القرآن الكريم هذه الكلمة في موارد كثيرة مثل: «البلد الطيب» و«مساكن طيبة» و«ريح طيبة» و«حياة طيبة» وغيرها... وكذلك فإنّ كل شيء طاهر يعتبر طيباً، لأنّ طبع الإنسان ينفر من الأشياء النجسة المدنّسة، ومن هذا نستدل على أنّ تراب التيمم يجب أن يكون تراباً طاهراً أيضاً.

وقد أكّدت الروايات الواردة إلينا عن أئمّة الإسلام عليهم السلام على هذا الموضوع بصورة متكررة، ونقرأ واحدة من هذه الروايات وهي تقول: «نهى أمير المؤمنين أن يتيمم الرجل بتراب من أثر الطريق»(١).

والجدير بالنظر أنّ عبارة «التيمم» الواردة في القرآن والحديث بمعنى التكليف الشرعي الذي مضى الحديث عنه، جاءت في اللغة بمعنى «القصد» والقرآن الكريم يقرر أنّ الإنسان لدى قصد التيمم عليه أن يختار قطعة طاهرة من الأرض من بين القطعات المختلفة للتيمم منها، قطعة ينطبق عليها مفهوم «الصعيد» معرضة للأمطار والشمس والرياح، وبديهي أنّ مثل هذه القطعة من الأرض التي لم تتعرض لوطء الأقدام، تشتمل - قبل اتخاذها للتيمم - على الصفات التي تستوعبها كلمة «طيب» وعندئذ فإن هذه القطعة من الأرض - بالإضافة إلى كونها لا تضرّ بالصحّة - تكون أيضاً - وكما أسلفنا لدى تفسيرنا للآية (٤٣) من سورة النساء - ذات أثر أيضاً في قتل الجراثيم والميكروبات، كما يؤكّده العلماء من ذوي الاختصاص في هذا المجال.

فلسفة الوضوء والتيمم

لقد تناولنا فلسفة التيمم بالبحث بصورة وافية في الآية (٤٣) من سورة النساء، أمّا بالنسبة لفلسفة الوضوء فالشيء الذي لا يختلف عليه اثنان، هو أنّ للوضوء فائدتين واضحتين:

إحداهما صحية والأُخرى أخلاقية معنوية، فغسل الوجه واليدين في اليوم خمس مرّات أو على الأقل ثلاث مرات، لا يخفى أثره في نظافة الإنسان وصحته، أمّا الفائدة

(١) وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٩٦٩.

الأخلاقية المعنوية فهي في الأثر التربوي الذي يخلفه قصد التقرّب إلى الله في نفس الإنسان حين يعقد النيّة للوضوء بالأخصّ حين ندرك أنّ المفهوم النفسي للنيّة يعني أنّ حركة الإنسان أثناء الوضوء والتي تبدأ من الرأس وتنتهي بالقدمين، هي خطوات في طاعة الله.

ونقرأ في رواية عن الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام قوله: «إنّما أُمر بالوضوء وبدىء به لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إيّاه، مطيعاً له فيما أمره نقياً من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار»(١).

وتتوضح فلسفة الوضوء أكثر في الحديث عن فلسفة الغسل، والذي سنتناوله فيما يلي:

فلسفة الغسل

قد يسأل البعض لماذا أمر الإسلام بغسل كامل الجسم لدى حصول «الجنابة» في حين أن عضواً معيناً واحداً يتلوث أو يتسخ في هذه الحالة؟

فهل هناك فرق بين البول الخارج من ذلك العضو، وبين «المني» الخارج منه أثناء الجنابة بحيث يجزىء غسل العضو وحده في حالة التبول، بينما يجب غسل الجسم كله بعد خروج المني من العضو؟

لهذا السّؤال جوابان، مجمل ومفصل، وهما كما يلي: فالجواب المجمل يتلخص في أن خروج المني من الإنسان لا ينحصر أثره في العضو الذي يخرج منه، أي أنّه ليس كالبول والفضلات الأُخرى.

والدليل على هذا القول تأثر الجسم كله أثناء خروج المني من العضو بحيث تطرأ على أعضاء الجسم كلها حالة من الاسترخاء والخمول، وهذه الحالة هي الدليل على تأثير الجنابة على أجزاء الجسم كلها، وقد أظهرت بحوث العلماء المتخصصين في هذا المجال أن هناك سلسلتين عصبيتين نابتتين في جسم الإنسان، هما السلسلة السمبثاوية (الأعصاب المحركة) والسلسلة شبه السمبثاوية (الأعصاب الكابحة) تمتدان في كافة أجزاء الجسم وأجهزته الداخلية، وتتولى السلسلة السمبثاوية تحفيز أجهزة الجسم على

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٢٥٧؛ بحار الأنوار، ج ٦، ص ٦٤.

العمل وتسريع عملها، بينما السلسلة شبه السمبثاوية تعمل عكس الأُولى، فتحدّ عمل أجهزة الجسم وتبطئها فالأُولى تلعب دور جهاز دفع البنزين في السيارة من أجل تحريكها والأُخرى يكون دورها دور الكابح فيها لإيقافها عن الحركة، وبالتوازن الحاصل في عمل هاتين السلسلتين العصبيتين تعمل جميع أجهزة جسم الإنسان بصورة متوازنة أيضاً.

وقد تحدث في جسم الإنسان - أحياناً - فعاليات تعيق استمرار هذا التوازن فيطغى عمل إحدى السلسلتين العصبيتين على عمل الأُخرى، ومن هذه الفعاليات وصول الإنسان إلى الذروة في اللذة الجنسية، أي ما يسمى بحالة «الأُوركازم» التي تقترن بخروج المني من عضو الإنسان، وفي هذه الحالة يطغى عمل السلسلة العصبية شبه السمبثاوية الكابح على عمل السلسلة العصبية الأُخرى التي هي السمبثاوية الدافعة فيختل التوازن بصورة سلبية في جسم الإنسان، وقد ثبت بالتجربة أن الشيء الذي يمكنه إعادة التوازن بين عمل تلك السلسلتين العصبيتين، هو وصول الماء إلى جسم الإنسان. ولما كانت حالة «الأوركازم» التي يصل إليها الإنسان لدى «الجنابة» تؤثر بصورة محسوسة على أجهزة جسم الإنسان وتخل بتوازن السلسلتين العصبيتين المذكورتين، لذلك أمر الإسلام بأن يباشر الإنسان غسل كل جسمه بعد كل مقاربة جنسية، أو لدى خروج «المني» منه، حيث يعود بهذا الغسل التوازن بين عمل السلسلتين العصبيتين السمبثاوية وشبه السمبثاوية في كل أجزاء الجسم، فتعود لها حالتها الطبيعية في الحركة والحياة(١).

وبديهي أنّ فائدة الغسل لا تنحصر في الذي تحدثنا عنه قبل قليل، بل إنّ الغسل يعتبر أيضاً نوعاً من العبادة التي لها آثار أخلاقية لا تنكر، ولهذا السبب يبطل الغسل إن لم يكن مقترناً بنيّة الطاعة والتقرب إلى الله سبحانه، لأنّ الحقيقة أنّ الجسم والروح كليهما يتأثران أثناء خروج «المني» من الإنسان أو لدى حصول المقاربة الجنسية - فالروح تجري بذلك وراء الشهوات المادية ويدفع الجسم إلى حالة الخمول والركود.

وغسل الجنابة يعتبر غسلاً للجسم بما يمثّله من عملية إيصال الماء إلى جميع أجزائه،

---

(١) ونقرأ في رواية عن الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «إنّ الجنابة خارجة من كل جسده فلذلك وجب عليه تطهير جسده كله» وفي هذه الرواية إشارة إلى البحث الذي تناولناه أعلاه - من وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٦٦.

ويعتبر غسلاً للروح بما يحتويه من نية الطاعة والتقرب إلى الله، أي إنّ لهذا الغسل أثرين مادي وروحي، يدفع الأثر المادي منه الجسم إلى استعادة حالة النشاط والفعالية، ويدفع الأثر الروحي الإنسان للتوجه إلى الله وإلى المعنويات.

أضف إلى ذلك كلّه أنّ وجوب غسل الجنابة في الإسلام هو أيضاً من أجل إبقاء جسم الإنسان المسلم طاهراً، كما أنه رعاية للجانب الصحي في حياة الإنسان، فقد يوجد الكثير من الناس ممن لا يعتنون بنظافة أجسامهم لكن هذا الأمر والواجب الإسلامي يجبرهم على غسل أجسامهم بين فترة وأُخرى. ولا يقتصر التهاون في غسل الجسم على إنسان العهود القديمة، بل حتى في عصرنا الحاضر هناك الكثير ممن لا يعتنون بغسل أجسامهم، بل يتهاونون في هذا الأمر الحياتي المهم (وطبيعي أن حكم غسل الجنابة حكم عام، وقانون كلي يشمل حتى الشخص الذي غسل جسمه قبل حصول الجنابة بقليل).

إنّ الجوانب الثلاثة المذكورة فيما سبق، توضح بمجموعها سبب وجوب الغسل لدى خروج المني من الإنسان سواء كان في أثناء النوم أو اليقظة وكذلك بعد المقاربة الجنسية (حتى لو لم تؤد إلى خروج المني).

وقد أوضحت الآية - في آخرها - أنّ الأوامر الإلهية ليس فيها ما يحرج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنها أوامر شرعت لتحقق فوائد ومنافع معينة للناس، فقالت الآية: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وتؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أنّ جميع الأحكام والأوامر الشرعية الإلهيّة والضوابط الإسلامية هي في الحقيقة لمصلحة الناس ولحماية منافعهم، وليس فيها أي هدف آخر، وأنّ الله يريد بالأحكام الأخيرة الواردة في الآية - موضوع البحث - أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية والروحية معاً.

ويجب هنا الانتباه إلى أن جملة ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ مع أنّها وردت في أواخر الآيات التي اشتملت على أحكام الغسل والوضوء والتيمم، إلاّ أنّها تبيّن قانوناً عامّاً معناه أنّ أحكام الله ليست تكاليف شاقّة أبداً، ولو كان في أي حكم شرعي عسر وحرج لأي فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد في الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، ولهذا لو كان الصوم يشكل مشقة

وعناء على أي فرد بسبب مرض أو شيخوخة أو ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد وارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.

ولا يخفى - أيضاً - أنّ هناك من الأحكام الإلهيّة ما يظهر فيه الصعوبة والمشقة بذاته مثل حكم الجهاد، إلاّ أنه - ولدى مقارنة المصالح التي تتحقق بالجهاد مع الصعوبات والمشاق التي فيه - تترجح كفّة المصالح وأهميّتها فلا تكون المشاق أمامها شيئاً يذكر، وقد سمي القانون الذي أثبتته الجملة القرآنية الأخيرة بقانون «لا حرج» وهو مبدأ أساسي يستخدمه الفقهاء في أبواب مختلفة ويستنبطون منه أحكاماً كثيرة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

التّفسير

العهود الرّبانية

تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، وجاءت الآية الأخيرة لتكمل السياق الموضوعي لما سبق من آيات، فاستقطبت انتباه المسلمين إلى أهميّة وعظمة النعم الإلهية التي أعظمها وأهمّها نعمة الإيمان والهداية والإسلام، تقول الآية: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ومع أن كلمة «نعمة» جاءت بصيغة المفرد في هذه الآية، إلاّ أنّها وردت اسم جنس لتفيد العموم، حيث عنى بالنعمة جميع النعم، كما يحتمل أيضاً أن يكون المراد نعمة الإسلام بصورة خاصّة، والتي أشارت إليها الآية السابقة بصورة إجمالية حيث قالت: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ...﴾ فأي نعمة أعظم من أن ينال الإنسان - في ظل الإسلام - كل الهبات الإلهيّة والمفاخر والإمكانيات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون في الجاهلية من التشتت والجهل والضلال ويسود بينهم قانون الغاب، وكان الفساد والظلم يعم مجتمعهم آنذاك، وقد تحولوا بفضل الإسلام إلى مجتمع يسوده الاتحاد والتماسك والعلم، ويرفل بالنعم والإمكانيات المادية والمعنوية الزّاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذي بين البشر وبين الله، فتقول ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...﴾.

هناك احتمالان حول المعنى المراد بلفظة «العهد» الواردة في الآية وموضوعها.

الاحتمال الأوّل: أن يكون هو ذلك العهد الذي عقده المسلمون في بداية ظهور الإسلام في واقعة «الحديبية» أو واقعة «حجة الوداع» أو «العقبة» مع الله، أو بصورة عامّة هو العقد الذي عقده جميع المسلمين بصورة ضمنية مع الله بمجرّد قبولهم الإسلام.

والاحتمال الثّاني: هو أن يكون العهد المقصود في الآية الكريمة الأخيرة هو ذلك العهد المعقود بين كل فرد إنساني - بحكم فطرته وخلقه - وبين الله، والذي يقال عنه بأنّه تمّ في «عالم الذر»(١).

وبيان ذلك أنّ الله حين خلق الإنسان أودع فيه استعدادات ومواهب كثيرة، ومنها نعمة العلم التي بها يتتبع أسرار الخليقة، وتتحقق لديه معرفة الحق، وكذلك نِعم كالعقل والذكاء والإدراك ليعرف الإنسان بها أنبياء الله ويلتزم بأوامرهم، والله سبحانه حين أودع هذه النعم لدى الإنسان أخذ منه عهداً بأن يستغلها خير استغلال، وأن لا يهملها أو يسيء استعمالها، فردّ الإنسان بلسان الحال والاستعداد ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾.

ويعتبر هذا العهد أوسع وأحكم وأعم عهد أخذه الله من عباده البشر، وهذا هو العهد الذي يشير إليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته الأُولى الواردة في كتاب «نهج البلاغة» بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته» أي ليطلبوا منهم أداء الميثاق الفطري الذي أخذه منهم والوفاء به.

وبديهي أن يشمل هذا العهد الواسع جميع المسائل والأحكام الدينية.

ولا مانع مطلقاً من أن تكون في هذه الآية إشارة إلى جميع العهود والمواثيق التكوينية والتشريعية التي أخذها الله أو النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسلمين بمقتضى فطرتهم في مراحل مختلفة، وهنا يتوضح لنا الحديث القائل بأنّ المراد من الميثاق هو العهد الذي أخذه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسلمين في حجّة الوداع بخصوص ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام(٢) ويتفق هذا التّفسير مع ما ورد أعلاه.

وقد أكّدنا مراراً أنّ التفاسير التي ترد على الآيات القرآنية، ما هي إلاّ إشارة لواحد من المصاديق الجلية المعنية في كل آية، ولا تعني مطلقاً انحصار المعنى بالتّفسير الوارد.

---

(١) سيرد شرح مفصل عن «عالم الذر» وسبب تسميته بهذا الاسم في تفسير الآية (١٧٢) من سورة الأعراف، بإذن الله.

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٥٤.

وتجدر الإشارة - أيضاً - إلى أنّ كلمة «ميثاق» مشتقّة من المصدر «وثاقة» أو «وثوق» وتعني الشدّ المحكم بالحبل وأمثاله، كما يطلق على كل عمل يؤدّي إلى راحة البال واطمئنان الخاطر، حيث إنّ العهد يكون بمثابة عقدة تربط شخصين - أو جماعتين - أحدهما بالآخر، ولذلك سمّي «ميثاقاً».

وفي النهاية تؤكّد الآية على ضرورة التزام التقوى، محذّرة أنّ الله محيط بأسرار البشر، وعالم بما يختلج في صدورهم، بقولها: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وتدل عبارة (ذات الصدور) على أنّ الله عالم بأدقّ أسرار البشر المكنونة في أعماق نفوسهم والتي لا يمكن لأيّ مخلوق معرفتها غير صاحب السرّ وخالقه، أي الله العالم بذات الصدور.

وقد شرحنا في الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا سبب نسبة العواطف والمشاعر والنوايا والعزائم إلى القلب أو إلى مكنونات الصدور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾

التّفسير

دعوة مؤكّدة إلى العدالة

إنّ الآية الأُولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، وهي شبيهة بتلك الدعوة الواردة في الآية (١٣٥) من سورة النساء، التي مضى ذكرها مع اختلاف طفيف.

فتخاطب هذه الآية أوّلاً المؤمنين قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

ثمّ تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدالة، وتحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكّدة أنّ الأحقاد والعداوات القبلية والثارات الشخصية، يجب أن لا تحول دون

تحقيق العدل، ويجب أن لا تكون سبباً للاعتداء على حقوق الآخرين، لأنّ العدالة أرفع وأسمى من كل شيء، فتقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ وتكرر الآية التأكيد لبيان ما للعدل من أهمية قصوى فتقول ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وبما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى، تؤكّد الآية مرّة ثالثة قائلة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

والفرق بين فحوى هذه الآية والآية المشابهة لها الواردة في سورة النساء، يتحدد من عدّة جهات:

أوّلاً: إنّ الآية الواردة في سورة النساء دعت إلى إقامة العدل والشهادة لله، أمّا الآية الأخيرة فقد دعت إلى القيام لله والشهادة بالحق والعدل، ولعل وجود هذا الفارق لأنّ الآية الواردة في سورة النساء استهدفت بيان ضرورة أن تكون الشهادة لله، لا لأقارب وذوي الشاهد، بينما الآية الأخيرة ولكونها تتحدث عن الأعداء أوردت تعابير مثل الشهادة بالعدل والقسط أي تجنب الشهادة بالظلم والجور.

ثانياً: أشارت الآية الواردة في سورة النساء إلى واحد من عوامل الانحراف عن العدالة، بينما الآية الأخيرة أشارت إلى عامل آخر في نفس المجال، فهناك ذكرت الآية عامل الحبّ المفرط الذي لا يستند على تبرير أو دليل، بينما ذكرت الآية الأخيرة الحقد المفرط الذي لا مبرر له.

ولكن الآيتين كلتيهما تتلاقيان في عامل اتّباع الأهواء والنزوات التي تتحدث عنها الآية الأُولى في جملة: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟...﴾[1] لأنّ الهوى مصدر كلّ ظلم وجور ينشأ من الاندفاع الأعمى وراء الأهواء والمصالح الشخصية، لا من دافع الحب أو الكراهية، وعلى هذا الأساس فإنّ المصدر الحقيقي للانحراف عن العدل هو نفس اتّباع الهوى، وقد جاء في كلام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قولهما: «أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق»[2].

العدل ركن إسلامي مهم

قلما نجد قضية أعطى الإسلام لها أهمية قصوى كقضية العدل، فهي وقضية التوحيد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٢) ورد هذا الحديث نقلاً عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب سفينة البحار في مادة (هوى)، وورد في كتاب نهج البلاغة في الخطبة ٤٢ نقلاً عن علي بن أبي طالب عليه السلام. اصول الكافي، ج ١، ص ٤٤.

سيّان في تشعب جذورهما إلى جميع الأُصول والفروع الإسلامية، وبعبارة أُخرى: كما أنّ جميع القضايا العقائدية والعملية والاجتماعية والفردية والأخلاقية والقانونية لا تنفصل مطلقاً عن حقيقة التوحيد، فكذلك لا تنفصل كل هذه القضايا ولا تخلو أبداً من روح العدل.

وليس من العجيب والحالة هذه أن يكون العدل واحداً من أُصول العقيدة والدين، وأساساً من أُسس الفكر الإسلامي، وهو مع كونه صفة من صفات الله سبحانه ويدخل ضمن مبادىء المعرفة الإلهيّة، إلاّ أنّه يشتمل على معانٍ واسعة في خصائصه ومزاياه، ولذلك كان ما أولته البحوث الاجتماعية في الإسلام من الاهتمام بالعدل والاعتماد عليه يفوق ما حظيت به المبادىء الإسلامية الأُخرى من ذلك.

ويكفي إيراد عدد من الأحاديث والرّوايات نماذج لدرك أهميّة هذه الحقيقة:

١ - روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إيّاكم والظلم فإنّ الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة»(١).

وبديهي أن كل ما هو موجود من خير وبركة ونعم هو من النور وفي النور، وأنّ الظلام مصدر كل عدم وفاقة.

٢ - وقال النّبي ﷺ أيضاً: «بالعدل قامت السموات والأرض»(٢).

ويعتبر هذا القول من أوضح التعابير التي قيلت في شأن العدل، ومعناه أنّ حياة البشر المحدودة في الكرة الأرضية ليست وحدها التي يكون قوامها العدل، بل إنّ حياة ووجود الكون بأكمله، والسماوات والأرضين كلها قائمة بالعدل، وفي ظل حالة من توازن القوى الفاعلة فيها، ووجود واستقرار كل شيء في محله منها، بحيث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قيد أنملة لحكمت على نفسها بالفناء والزوال.

ويؤيد هذا القول حديث آخر هو: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم»(٣) لأنّ للظلم أثراً سريعاً في هذه الحياة الدنيوية ومن نتائجه الحروب والاضطرابات والقلاقل والفوضى السياسية والاجتماعية والأخلاقية والأزمات الاقتصادية التي تعمّ العالم اليوم، وهذا ما يثبت الحقيقة المذكورة بصورة جيدة.

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ١٠٥ مادة (ظلم).
(٢) تفسير الصافي، ج ٥، ص ١٠٧، في تفسير الآية ٧ من سورة الرحمن.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٣١.

ويجب الانتباه جيداً إلى أنّ اهتمام الإسلام لم ينصب في مجرّد العدالة، بل إنّه أولى أهميّة أكبر لتحقيق العدالة، وطبيعي أنّ محض تلاوة هذه الآيات في المجالس أو من على المنابر، وكتابتها في الكتب، لا يجدي نفعاً في استعادة العدالة المفقودة، وعلاج التميز الطبقي والعنصري، والفساد والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، بل إنّ عظمة هذه الآيات والأحكام تتجلّى في يوم تطبق فيه العدالة في صميم حياة المسلمين.

بعد التأكيد الشديد الذي حملته الآية الكريمة حول قضية العدالة وضرورة تطبيقها بادرت الآية التالية وتمشياً مع الأسلوب القرآني، فأعادت إلى الأذهان ما أعده الله للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه ونعمه العظيمة، حيث تقول الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

كما ذكرت الآية في المقابل جزاء الكفّار الذين يكذبون بآيات الله، فقالت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

وممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت المغفرة والأجر العظيم في إطار «وعد الله» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجة للكفر وللتكذيب بآيات الله، وما هذا إلاّ إشارة إلى فضل الله ورحمته لعباده فيما يخص نعم وهبات الآخرة التي لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت وعظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقاً، كما أنّها إشارة - أيضاً - إلى أنّ عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامي أبداً، بل هو نتيجة عادلة لما ارتكبه الإنسان من أعمال سيئة في حياته.

أمّا فيما يخص معنى عبارة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(١) فهي مع ما في كلمة «أصحاب» من معنى الملازمة، أي أن الكافرين والمكذبين بآيات الله يلازمون جهنم، لكن هذه الآية لوحدها لا يمكن أن تكون دليلاً على مسألة «الخلود» في نار جهنم، كما جاء توضيح ذلك في تفسيري «التبيان» و«مجمع البيان» وتفسير «الفخر الرّازي»، لأنّ الملازمة ربما تكون دائمة، وقد تستمر لفترة طويلة ثمّ تنقطع، بدلالة التعبير القرآني الوارد في شأن ركاب سفينة نوح النّبي عليه السلام حيث وردت فيهم عبارة «أصحاب السفينة» وهم لم يكونوا ملازمين لتلك السفينة ملازمة دائمة.

---

(١) إنّ كلمة جحيم تعني النار الشديدة الإلتهاب، وقد أُطلقت في القرآن على نار جهنم كما في هذه الآية، وعلى نار الدنيا كالنار التي سعروها لحرق النبي إبراهيم عليه السلام الآية (٩٧) من سورة الصافات.

ومع انتفاء الشك حول خلود الكفّار في نار جهنم، فالآية الكريمة - موضوع البحث - لم تتحدث بشيء عن هذا «الخلود» بل يستنتج هذا من آيات قرآنية أُخرى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

التفسير

لقد ذكرت الآيات السابقة بعضاً من النعم الإلهية، وجاءت الآية الأخيرة تخاطب المسلمين وتذكر لهم أنواعاً من النعم التي أنعم الله بها عليهم، لكي يؤدّوا شكرها عن طريق طاعة الله والسعي لتحقيق مبادىء العدالة، فتقول الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

وقد دأب القرآن الكريم في كثير من آياته على تذكير المسلمين بالنعم المختلفة التي أنعم الله بها عليهم، وذلك من أجل تعزيز دافع الإيمان لديهم، ولاستثارة وتحفيز دافع الشكر والصمود فيهم ليقفوا في وجه المشاكل، والآية الأخيرة من سنخ تلك الآيات.

واختلف المفسّرون حول الواقعة التي تشير إليها الآية موضوع البحث، فبعضهم قال بأنّها إشارة إلى إنقاذ المسلمين من قبيلة «بني النضير» اليهودية التي تواطأت على قتل النّبي ﷺ والمسلمين في المدينة.

وذهب البعض الآخر من المفسّرين إلى أنّها إشارة إلى واقعة «بطن النخل» التي حصلت في العام السادس من الهجرة النبوية في واقعة «الحديبية» حيث قرر المشركون هناك في ذلك الحين - بزعامة خالد بن الوليد - الهجوم على المسلمين أثناء أدائهم لصلاة العصر، فعلم النّبي ﷺ بهذه المؤامرة فصلّى صلاة الخوف القصيرة، ممّا أدّى إلى إحباط المؤامرة.

وقد ذكر مفسّرون آخرون وقائع أُخرى من حياة النّبي ﷺ والمسلمين المليئة بالحوادث، وقالوا بأنّ هذه الآية إشارة إلى تلك الوقائع.

ويرى مفسّرون آخرون أن هذه الآية إشارة إلى كل الوقائع والأحداث التي حصلت

طيلة التاريخ الإسلامي حتى ذلك الوقت[١].

ولو تغاضينا عن كلمة «قوم» الواردة في هذه الآية بصيغة النكرة التي تدل على وحدة المجموعة المعنية، فإنّ هذا التّفسير يمكن اعتباره من أحسن التفاسير في هذا المجال.

والآية على كل حال تلفت انتباه المسلمين إلى الأخطار التي تعرضوا لها، وكان يحتمل أن تدفع بالوجود الإسلامي إلى الفناء والزوال وإلى الأبد، ولكن فضل الله ونعمته شملتهم وأنقذت الإسلام والمسلمين من تلك الأخطار.

كما تحذر الآية المسلمين وتنبههم إلى ضرورة التزام التقوى والاعتماد على الله كدليل على شكر ذلك الفضل وتلك النعمة، وليعلموا بأنّهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم والسند والحماية من الله في حياتهم الدنيوية هذه، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وواضح أنّ التوكل على الله ليس معناه التخلي عن المسؤوليات أو الاستسلام لحوادث الزمان، بل يعني أنّ الإنسان حين يستخدم طاقاته والإمكانيات المتوفرة لديه، يجب عليه أن ينتبه في نفس الوقت إلى أنّ هذه الطاقات والإمكانيات ليست من عنده بل أنّ مصدرها ومنشأها هو الله تعالى، وإذا حصل هذا التوجه فإن من شأنه أن يقضي على دافع الغرور والأنانية عند الإنسان أوّلاً، ومن ثمّ لا يجعل لنفسه طريقاً للخوف والقلق واليأس حيال الأحداث والمشاكل مهما كبرت وعظمت، لأنّه يعلم بأنّ سنده وحاميه هو الله الذي فاقت قدرته كل القدرات.

إضافة إلى ما ذكر، فإنّ تقديم الأمر بالتقوى على قضية التوكل يستشف منه أنّ حماية الله ورعايته تشمل حال المتقين.

ويجب الانتباه إلى أنّ عبارة «التقوى» المشتقة من المصدر «وقاية» معناها حماية النفس وإبعادها عن عناصر السوء والفساد.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٩٣، ذيل الآية مورد البحث.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

التّفسير

لقد أشارت هذه الآية أوّلاً إلى قضية الوفاء بالعهد، وقد تكررت هذه الإشارة في مناسبات مختلفة في آيات قرآنية عديدة، وربّما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهميّة الوفاء بالعهد وذم نقضه، هي إعطاء أهميّة قصوى لقضية ميثاق الغدير الذي سيرد في الآية (٦٧) من هذه السورة.

والآية في بدايتها تشير إلى العهد الذي أخذه الله من بني إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه، وإرسالة إليهم بعد هذا العهد اثني عشر زعيماً وقائداً ليكون كل واحد منهم زعيماً لطائفة واحدة من طوائف بني إسرائيل الاثنتي عشرة حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

والأصل في كلمة «نقيب» أنّها تعني الثقب الكبير الواسع، وتطلق بالأخص على الطرق المحفورة تحت الأرض، وسبب استخدام كلمة نقيب للدلالة على الزعامة، لأنّ زعيم كل جماعة يكون عليماً بأسرار قومه، وكأنّه قد صنع ثقباً كبيراً يطلع من خلاله على أسرارهم، كما تطلق كلمة نقيب أحياناً على الشخص الذي يكون بمثابة المعرف للجماعة، وحين تطلق كلمة «مناقب» على الفضائل والمآثر، يكون ذلك لأنّ الفضائل لا تعرف إلاّ عن طريق البحث والتنقيب في آثار الشخص.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ كلمة «نقيب» الواردة في الآية موضوع البحث إنّما تعني - فقط - العارف بالأسرار، لكننا نستبعد هذا الأمر استناداً لما يدلنا عليه التاريخ والحديث وهو أن نقباء بني إسرائيل هم زعماء الطوائف الإسرائيلية، جاء في تفسير «روح المعاني» عن ابن عباس قوله:

«إنّهم كانوا وزراء ثمّ صاروا أنبياء بعد ذلك». أي إنّهم كانوا وزراء للنّبي موسى عليه السلام ثمّ نالوا منزلة النّبوة بعده[١].

ونقرأ في أحوال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه حين قدم أهل المدينة في ليلة العقبة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم إلى

(١) تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ٧٨.

منطقة العقبة، أمر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أهل المدينة لينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيباً على عدد نقباء بني إسرائيل، وبديهي أنّ مهمّة هؤلاء كانت زعامة قومهم وليس فقط إخبار النّبي بتقارير عن أوضاعهم[١].

لقد وردت روايات عديدة من طرق السنة، وهي تلفت الإنتباه، لما فيها من إشارة إلى خلفاء النّبي الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام وبيان أن عددهم يساوي عدد نقباء بني إسرائيل، ننقل هنا قسماً من هذه الروايات:

١ - ينقل أحمد بن حنبل - وهو أحد أئمّة السنّة الأربعة، عن مسروق أنّه سأل عبد الله بن مسعود: كم عدد الذين سيحكمون هذه الأُمّة؟ فرد ابن مسعود قائلاً: «لقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «اثنى عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل»[٢].

٢ - وجاء في تاريخ «ابن عساكر» نقلاً عن ابن مسعود، أنّهم سألوا النّبي عن عدد الخلفاء الذين سيحكمون هذه الأُمّة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ عدّة الخلفاء بعدي عدة نقباء موسى»[٣].

٣ - وورد في «منتخب كنز العمال» عن جابر بن سمرة قوله: «سيحكم هذه الأُمّة اثنا عشر خليفة بعدد نقباء بني إسرائيل»[٤].

وجاء مثل هذا الحديث أيضاً في كتاب (ينابيع المودة) في الصفحة ٤٤٥ وكذلك في كتاب (البداية والنهاية)، ج ٦ في الصفحة ٢٤٧ أيضاً.

وتشير الآية بعد ذلك إلى وعد الله لبني إسرائيل حيث تقول: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

وإنّ هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التالية:

١ - أن يلتزموا بإقامة الصّلاة كما تقول الآية: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢ - وأن يدفعوا زكاة أموالهم: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣ - أن يؤمنوا بالرسل الذين بعثهم الله ويحترموا وينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآية: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾[٥].

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٠٧، في مادة «نقب».
(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٩٨، طبعة مصر، سنة ١٣١٣.
(٣) كتاب فيض القدير في شرح الجامع الصغير، ج ٢، ص ٤٥٩.
(٤) منتخب كنز العمال في حاشية مسند أحمد، ج ٥، ص ٣١٢.
(٥) إنّ عبارة «عزرتموهم» مشتقة من مادة «تعزير» أي المنع أو العون، أمّا حين تسمى بعض العقوبات=

٤ - وبالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التي تعتبر نوعاً من معاملات القرض الحسن مع الله سبحانه وتعالى حيث تقول الآية: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ثمّ أردفت الآية الكريمة ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورة بقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

كما بيّنت الآية مصير الذين يكفرون ولا يلتزمون بما أمر الله حيث تقول: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

لقد أوضحنا في الجزء الثّاني من تفسيرنا هذا لماذا اصطلح القرآن المجيد على الإنفاق، أنّه قرض لله سبحانه؟

ويبقى في هذا المجال - أيضاً - سؤال أخير وهو لماذا تقدمت مسألتا الصّلاة والزكاة على الإيمان بموسى عليه السلام، في حين أنّ الإيمان يجب أن يسبق العمل؟

ويجيب بعض المفسّرين على هذا السؤال بقولهم: إن المراد بعبارة «الرّسل» الواردة في الآية هم الأنبياء الذين جاءوا بعد النّبي موسى عليه السلام وليس موسى نفسه، لذلك فإنّ الأمر الوارد هنا بخصوص الإيمان بالرسل يحمل على أنّه أمر لما يستقبل من الزمان، فلا يتعارض لذلك وروده بعد الأمر بالصّلاة والزكاة، كما يحتمل - أيضاً - أن يكون المراد بعبارة «الرسل» هم «نقباء» بني إسرائيل حيث أخذ الله الميثاق من بني إسرائيل بأن يكونوا أولياء معهم، (ونقرأ في تفسير «مجمع البيان» أنّ بعضاً من المفسّرين القدماء، احتملوا أن يكون نقباء بني إسرائيل رسلاً من قبل الله، ويؤيد هذا الاحتمال الرأي الأخير الذي ذهبنا إليه)[1].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

= الإسلامية بالتعزير فذلك لأنّ هذه العقوبات تكون في الحقيقة عوناً للمذنب لكي يرتدع عن مواصلة الذنب، وهذا دليل على أنّ العقوبات الإسلامية لا تتسم بطابع الإنتقام بل تحمل طابعاً تربوياً لذلك سمّيت بالتعزير.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٩٥، ذيل الآية مورد البحث.

التّفسير

إنّ هذه الآية الكريمة جاءت تشير إلى نقض بني إسرائيل للعهد الذي أخذه الله عليهم والذي ذكرته الآية السابقة.

كما ذكرت هذه الآية نتائج وعواقب هذا النقض حيث تقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾(١).

والحقيقة أن هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمة الله، وتحجرت أفكارهم وقلوبهم فلم تعد تبدي أي مرونة أمام الحقائق.

وتشرح الآية آثار هذا التحجّر فتقول: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾ ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ...﴾.

ولا يستبعد أن تكون علامات وآثار نبيّ الإسلام محمّد ﷺ والتي أُشير إليها في آيات قرآنية أُخرى، جزءاً من الأُمور التي نسيها بنو إسرائيل - كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنية إشارة إلى ما حرفه أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراة من جديد بعد أن فقدت التوراة الأصلية، وأنّ ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقي كان جزءاً من ذلك الكتاب وقد اختلط بالكثير من الخرافات، وقد نسي هؤلاء حتى هذا الجزء الباقي من كتاب موسى عليه السلام.

ثمّ تتطرق الآية إلى ظاهرة خبيثة طالما برزت لدى اليهود - بصورة عامّة - إلاّ ما ندر منهم، وهي الخيانة التي كانت تتكشف للمسلمين بين فترة وأُخرى، تقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ(٢) مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

وفي الختام تطلب الآية من النّبي ﷺ أن يعفو عن هؤلاء ويصفح عنهم، مؤكّدة أنّ الله يحب المحسنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) إنّ كلمة «لعن» تعني في اللغة «الطرد والإبعاد» وحين ينسب اللعن إلى الله فإنّه يعني الحرمان من رحمته، أمّا كلمة «قاسية» فهي في الأصل مشتقة من المصدر «قساوة» وتطلق على الأخص على الحجر الصلد، ولذلك أطلقت على الذين لا يبدون أي مرونة من جانبهم أمام الحقائق التي تتكشف لهم.

(٢) إنّ كلمة «خائنة» مع كونها اسماً للفاعل، فهي في هذه الآية تكون بمعنى المصدر وتطابق كلمة الخيانة... وقد جرت عادة العرب على استخدام مثل هذه الاستعمالات في أشعارهم حيث جاؤوا باسم الفاعل وعنوا به المصدر في كلمات مثل العافية والخاطية وقد احتملوا أيضاً أن تكون كلمة «خائنة» صفة للطائفة.

ولنرَ هل أنّ المراد في الآية أن يعفو النّبي ﷺ عن الأخطاء السابقة للأقلية الصالحة من اليهود، أم المراد هو العفو عن الأغلبية الطالحة منهم؟

إنّ ظاهر الآية يدعم ويؤيّد الاحتمال الثّاني، لأنّ الأقلية الصالحة لم ترتكب ذنباً أو خيانة لكي يطلب من النّبي ﷺ العفو عنهم. والظن الغالب أنّ العفو والصفح المطلوبان في الآية يشملان - فقط - تلك الحالات التي كان اليهود يوجهون فيها أذاهم وتحرشاتهم واستفزازاتهم إلى النّبي ﷺ، ولا يشملان أخطاء اليهود وجرائمهم في حق الأهداف والمبادىء الإسلامية، حيث لا معنى للعفو في هذا المجال.

الممارسات التّحريفية لليهود

إنّ ما يستشف من مجموع الآيات الواردة في القرآن الكريم بخصوص الممارسات التحريفية لليهود، هو أنّهم كانوا يمارسون أنواع التحريف في الكتب السماوية الخاصّة بهم. وكان تحريفهم يتخذ أحياناً طابعاً معنوياً، أي أنّهم كانوا يفسّرون العبارات الواردة في تلك الكتب بشكل يناقض المعنى الحقيقي لها، فهم كانوا يحفظون الألفاظ كما هي لكنهم كانوا يغيرون معانيها وهو (التحريف المعنوي)، وكانوا - أيضاً - يقومون بتحريف الألفاظ في بعض الأحيان، فهم بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» كانوا يقولون: «سمعنا وعصينا» كما كانوا أحياناً يخفون بعض الآيات الإلهيّة، فما كان يطابق أهواءهم أظهروه، وأخفوا الآيات التي لم تكن لتتلاءم مع ميولهم ورغباتهم وهو «التحريف اللفظي»، وقد وصلت بهم الوقاحة إلى حد أنّهم مع وجود الكتاب السماوي بين أيديهم كانوا يخادعون الناس بوضع أيديهم على الحقائق الواردة فيه، لكي لا يستطيع الناظر قراءتها.

وستأتي تفاصيل هذا الموضوع لدى تفسير الآية (٤١) من نفس هذه السورة في قصّة ابن صوريا.

هل يجعل الله قلب الإنسان قاسياً؟

نقرأ في الآية - موضوع البحث - أنّ الله ينسب لنفسه فعل جعل القسوة في قلوب مجموعة من اليهود! والذي نعرفه أنّ هذه القسوة ما هي إلاّ نتيجة لارتكاب الذنوب والانحرافات، فكيف إذن ينسب الله فعل جعل القسوة في قلوب أُولئك اليهود إلى نفسه؟ ولو كان هذا الفعل من الله، فكيف يكون أُولئك الأشخاص مسؤولين عن أعمالهم، ألا يعتبر هذا نوعاً من الجبر؟

ولدى الإمعان بدقّة في الآيات القرآنية المختلفة، ومنها الآية موضوع البحث، يتبيّن لنا أنّ الأشخاص إنّما يحرمون - بسبب أخطائهم وذنوبهم - من لطف الله ورحمته وهدايته، وأنّ أعمالهم هذه في الحقيقة مصدر لمجموعة من الانحرافات الفكرية والأخلاقية، بحيث يستحيل على الإنسان - أحياناً - أن يجنب نفسه عواقبها ونتائجها.

وبما أنّ العلل - أو الأسباب - تعطي آثارها بإذن الله، لذلك نسب مثل هذه الآثار في القرآن الكريم إلى الله، ففي الآية موضوع البحث نقرأ أنّ اليهود - نتيجة لنقضهم الميثاق - (جعل الله قلوبهم قاسية)، كما نقرأ في الآية (٢٧) من سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ وفي الآية (٧٧) من سورة التوبة نقرأ قوله سبحانه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وواضح أنّ هذه الآثار السيئة تنبع من عمل الإنسان نفسه، ولا تناقض في هذا الأمر حرية الإرادة والاختيار، لأنّ مقدمات تلك الآثار تكون من عمل الإنسان وتصدر عنه بعلمه واختياره، ولأنّ آثار عمله هي النتيجة الحتمية للعمل نفسه، وعلى سبيل المثال لو أنّ إنساناً تناول شيئاً من المشروبات الكحولية، وحصلت لديه حالة من السكر، فقام على أثر هذه الحالة بارتكاب جريمة معينة، فهو وإن كان لا يمتلك إرادته في حالة السكر، إلاّ أنّه قبل ذلك أقدم على شرب الخمرة مختاراً ومدركاً لما يفعل، وبذلك هيّأ بنفسه مقدمات العمل الجنائي، فهو يدرك احتمال صدور هذا العمل منه في حالة السكر، ولذلك فهو مسؤول عن هذا العمل، فلو قيل في مثل هذه الحالة: إنّ شخصاً قد شرب الخمرة فسلبنا منه عقله، فتورط نتيجة عمله في ارتكاب جريمة، فهل في هذا القول أي تناقض أو هل يستشف منه مفهوم الجبر؟

وخلاصة القول فإنّ كل أنواع الهداية والضلال وأمثالهما التي تنسب في القرآن الكريم إلى الله سبحانه، إنّما تحصل بشكل حتمي كنتيجة للمقدمات والأعمال التي تصدر من الإنسان نفسه، وعلى أثرها يستحق إمّا الهداية أو الضلال، وفي غير ذلك فإنّ العدل والحكمة الإلهيّين، لا يسمحان مطلقاً أن يساق إنسان إلى طريق الهداية دون أي مبرر، أو أن يساق آخر إلى طريق الضلال دون وجود سبب لذلك[1].

---

(١) لقد وردت تفاصيل أُخرى في هذا المجال - أيضاً - في الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا ذيل الآية ٢٦ من سورة البقرة.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾

التّفسير

العداء الأبدي

لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بني إسرائيل للعهد الذي أخذه الله منهم، أمّا الآية الأخيرة - هذه - فهي تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسماً من أوامر الله التي كلّفوا بها - فتقول الآية في هذا المجال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ فهذه الآية تدل بوضوح على أنّ النصارى - أيضاً - كانوا قد عقدوا مع الله عهداً على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيد، وأن لا ينسوا أوامر وأحكام الله، وأن لا يكتموا علائم خاتم النّبيين ﷺ، لكنّهم تورطوا في نفس ما تورط به اليهود مع فارق واحد، وهو أنّ القرآن الكريم يصرّح بالنسبة لليهود بأنّ القليل منهم كانوا من الصالحين، بينما يذكر القرآن بأنّ مجموعة من النصارى اختارت طريق الانحراف، حيث يفهم من هذا التعبير أنّ المنحرفين من اليهود كانوا أكثر من المنحرفين من النصارى.

إنّ تاريخ تدوين الأناجيل المتداولة يدل على أنّها كتبت بعد المسيح عليه السلام بسنين طويلة وبأيدي بعض المسيحيين، وهذا دليل وجود الكثير من التناقض الصريح فيها، ويدلنا هذا - أيضاً - على أنّ كتبة الأناجيل قد نسوا - بصورة تامّة - أجزاء غير قليلة من الإنجيل الأصلي، ووجود خرافات في الأناجيل المتداولة من قبيل قصة صنع المسيح عليه السلام للخمرة(١)، الأمر الذي يرفضه العقل ويتنافى حتى مع بعض آيات التوراة والإنجيل المتداولين، وكذلك قصّة مريم المجدلية(٢) وغيرها من القصص، كلها دليل على ذلك التناقض.

---

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح ٢، الآيات ٢ - ١٢.
(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح ٧، الآيات ٣٦ - ٤٧.

أمّا كلمة «نصارى» التي وردت في الآية فهي صيغة جمع نصراني، فقد وردت تفاسير مختلفة حولها، ومنها أن المسيح قد تربى في صباه ببلدة الناصرة، وقيل - أيضاً - إنّ هذه الكلمة هي نسبة إلى نصران، وهي قرية يوليها المسيحيون احتراماً خاصاً، ويحتمل - أيضاً - أن يكون وجه التسمية ناشئاً عن قول المسيح عليه السلام كما تحكيه الآية عنه إذ تقول: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾(١) فسمّي المسيحيون لذلك بالنصارى.

ولما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، ويزعمون أنّهم من أنصار المسيح عليه السلام يقول القرآن في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ وهم لم يكونوا صادقين في دعواهم هذه، لذلك تستطرد الآية الكريمة فتبيّن نتيجة هذا الادعاء الكاذب، وهو انتشار عداء أبدي فيما بينهم حتى يوم القيامة، كما تقول الآية: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

كما ذكرت الآية نوعاً آخر من الجزاء والعقاب لهذه الطائفة النصرانية، وهو أنّهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وسيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

وتجدر الإشارة هنا إلى عدّة أُمور، هي:

١ - إنّ عبارة «أغرينا» مشتقة من المصدر «إغراء» وتعني إلصاق شيء بشيء آخر، كما تعني الترغيب أو حمل الشخص على القيام بعمل معين، بحيث يدفع الشخص إلى الارتباط بأهداف معينة.

وعلى هذا الأساس يكون مفهوم الآية - موضوع البحث - هو أن نقض النصارى لعهدهم وارتكابهم المعاصي أديا إلى أن تنتشر العداوة فيما بينهم ويعمهم النفاق والخلاف، (والمعلوم أن آثار الأسباب التكوينية والطبيعية تنسب إلى الله) وما نراه اليوم من صراعات كثيرة بين الدول المسيحية، كانت في يوم ما سبباً لاندلاع الحربين العالميتين، وهي كذلك سبب للتكتلات المقترنة بالعداوة والبغضاء المستمرة فيما بينهم، أضف إلى ذلك الخلافات المذهبية الكثيرة التي تسود بين الطوائف المسيحية التي ما زالت سبباً لاستمرار الصراع والاقتتال فيما بينهم.

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد من استمرار العداوة، هو العداوة والبغضاء الموجودة بين اليهود والنصارى واستمرارها حتى فناء العالم، ولكن الملاحظ من ظاهر الآية هو استمرار العداوة بين المسيحيين أنفسهم(١).

وغني عن البيان أنّ مثل هذه العاقبة لا تقتصر على المسيحيين وحدهم، فلو أن المسلمين ساروا في نفس هذا الطريق فإنّ مصيرهم سيكون مشابهاً لمصير المسيحيين أيضاً.

٢ - إنّ كلمة «العداوة» مشتقة من المصدر «عدو» وهي بمعنى التجاوز والانتهاك، أمّا كلمة «البغضاء» المشتقة من المصدر «بغض» فهي تعني النفور والاستياء الشديد من شيء معين، ويحتمل أن يكون الفرق بين الكلمتين المذكورتين هو أنّ لكلمة «بغض» طابع وجداني أكثر ممّا هو عملي، كما في كلمة «العداوة» التي لها طابع عملي، وقد يكون لكلمة «بغض» أو «بغضاء» مفهوم أشمل يستوعب العملي منه والقلبي الوجداني.

٣ - يستدل من الآية هذه على أنّ النصارى كطائفة دينية (أو اليهود والنصارى معاً) سيكون لهم وجود في هذه الدنيا حتى يوم القيامة، وقد يقول معترض في هذا المجال: إنّ الأخبار الإسلامية تفيد بأن ديناً واحداً سيعمّ العالم كله بعد ظهور المهدي (عج) ولن تكون هناك أديان أُخرى غير هذا الدين الذي هو الإسلام الحنيف، فكيف إذن يمكن الجمع والتوفيق ورفع هذا التناقض الظاهر؟

والجواب هو أنّه يحتمل أن يبقى من المسيحية واليهودية حتى بعد ظهور المهدي (عج) شيء ضئيل على شكل أقلية ضعيفة جداً، لأن ما نعلمه هو بقاء حرّية الإرادة للبشر حتى في عصر المهدي (عج) وأنّ الدين الإسلامي في ذلك العصر لا يأخذ طابعاً إجبارياً، مع أنّ الأغلبية العظمى من البشر ستتبع طريق الحق وتميل إليه، والأهم من هذا كله فإنّ الحكم في الأرض سيكون للإسلام وحده.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

(١) وعلى هذا الأساس فإن الضمير في كلمة «بينهم» تعود إلى كلمة «النصارى» المذكورة في بداية الآية.

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾

التفسير

بعد أنّ تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود والنصارى لميثاقهم، جاءت الآية الأخيرة لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامّة وتدعوهم إلى الإسلام الذي طهّر الديانتين اليهودية والمسيحية من الخرافات التي لصقت بهما، والذي يهديهم إلى الصراط السّوي المستقيم، والذي ليس فيه أي انحراف أو اعوجاج.

وتبيّن الآية - في البداية - أنّ رسول الله ﷺ المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصّة بالكتب السماوية التي أخفوها هم (أهل الكتاب) وكتموها عن الناس، وأنّ هذا الرّسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التي انتفت الحاجة إليها وزال تأثيرها بزوال العصور التي نزلت لها، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

وتدّل هذه الجملة القرآنية على أنّ أهل الكتاب كانوا قد أخفوا وكتموا الكثير من الحقائق، لكن نبيّ الإسلام ﷺ قد أظهر من تلك الحقائق ما يفي منها بحاجة البشرية في عصر الإسلام، مثل بيان حقيقة التوحيد وطهارة الأنبياء وتنزههم عمّا نسب إليهم في التوراة والإنجيل المزورين، كما بيّن تحريم الربا والخمرة وأمثالهما، بينما بقيت حقائق تخص الأُمم السابقة والأزمنة الغابرة ممّا لا أثر لذكره في تربية الأجيال الإسلامية، فلم يتمّ التطرق إليها.

وتشير الآية الكريمة - أيضاً - إلى أهمّية وعظمة القرآن المجيد وآثاره العميقة في هداية وإرشاد وتربية البشرية، فتقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ النور الذي يهدي به الله كل من يبتغي كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآية الأُخرى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وينقذهم من أنواع الظلمات: (كظلمة الشرك وظلمة الجهل وظلمة التفرقة والنفاق وغيرها...) ويهديهم إلى نور التوحيد والعلم والاتحاد، حيث تقول الآية: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾.

وإضافة إلى ذلك كلّه يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج ولا انحراف في جانبيه العقائدي والعملي أبداً، كما تقول الآية: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

لقد اختلف المفسّرون في المعنى المراد من كلمة «النّور» الواردة في الآية، فذهب البعض منهم إلى أنّها تعني شخص النّبي محمّد ﷺ، وقال مفسّرون آخرون: إنّ المعني بالنور هو القرآن المجيد.

وحين نلاحظ آيات قرآنية عديدة تشبه القرآن بالنور، يتبيّن لنا أنّ كلمة «النور» الواردة في الآية - موضوع البحث - إنّما تعني القرآن، وعلى هذا الأساس فإنّ عطف عبارة ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ على كلمة (النور) يعتبر من قبيل عطف التوضيح، كما نقرأ في الآية (٥٧) من سورة الأعراف: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفي الآية ٨ من سورة التغابن نقرأ ما يلي: ﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالنُّورِ الَّذِىٓ أَنزَلْنَا . . .﴾ وآيات عديدة أُخرى تشير إلى نفس المعنى، بينما لا نجد في القرآن آية أُطلقت فيها كلمة النور على شخص النّبي ﷺ.

وإضافة إلى ما ذكر فإنّ الضمير المفرد الوارد في لفظة «به» الواردة في الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، يؤكّد هذا الموضوع أيضاً، وهو أنّ النور والكتاب المبين هما إشارتان لحقيقة واحدة.

ومع أنّنا نجد روايات عديدة تفسّر كلمة «النّور» بأنّها إشارة إلى الإمام علي بن أبي طالب أميرالمؤمنين عليه السلام أو الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام جميعهم، لكن الواضح هو أنّ هذا التّفسير يعتبر من باب بيان بواطن الآيات، لأنّنا كما نعلم أنّ للآيات القرآنية - بالإضافة إلى معانيها الظاهرية - معانٍ باطنية يعبّر عنها بـ «بواطن القرآن» أو «بطون القرآن»، ودليل قولنا هذا أنّ الأئمّة عليهم السلام لم يكن لهم وجود في زمن النّبي ﷺ لكي يدعو القرآن أهل الكتاب إلى الإيمان بهم.

أمّا الأمر الثّاني الوارد في الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهو أنّ القرآن يبشر أُولئك الذين يسعون لكسب مرضاة الله بأنّهم سيحظون في ظل القرآن بنعم عظيمة ثلاث هي:

أوّلاً: الهداية إلى سبل السلامة التي تشمل سلامة الفرد والمجتمع، والروح والجسد والعائلة، والسلامة الأخلاقية، وكل هذه الأُمور تدخل في الجانب العملي من العقيدة.

وثانياً: نعمة النجاة من ظلمات الكفر والإلحاد.

وثالثاً: الهداية إلى النور، وفي هذا دلالة على الطابع العقائدي، ويتمّ كل ذلك من خلال أقصر وأقرب الطرق وهو الذي أشارت إليه الآية بـ(الصراط المستقيم).

وبديهي أنّ هذه النعم لا يحظى بها إلاّ من أسلم وجهه لله، وخضع للحق بالعبودية والطاعة، وكان مصداقاً للعبارة القرآنية القائلة: ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾ بينما لا يحظى المنافقون والمعاندون وأعداء الحق بأيّ فائدة مطلقاً، كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية عديدة.

وبديهي - أيضاً - أنّ كل هذه النتائج والآثار، إنّما تحصل بمشيئة الله وإرادته وحده دون سواه، كما تشير عبارة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ الواردة في الآية الأخيرة.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله؟!

جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثاً تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت بعنف على دعوى ربوبية المسيح عليه السلام، وبيّنت أنّ هذه الدعوى ما هي إلاّ الكفر الصريح، حيث قالت: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾.

ولكي يتّضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّة دعاوى باطلة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى.

فهم أوّلاً: يعتقدون بالآلهة الثلاثة (أي الثالوث) وقد أشارت الآية (١٧١) من سورة النساء إلى هذا الأمر حيث قالت: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ . . .﴾[١].

---

(١) لقد مضى تفسير هذه الآية في بداية هذا الجزء من تفسيرنا.

وثانياً: إنّهم يقولون: إنّ خالق الكون والوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاثة ويسمونه بالإله الأب(١) والقرآن الكريم يبطل هذا الاعتقاد - أيضاً - في الآية (٧٣) من سورة المائدة حيث يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وسيأتي بإذن الله تفسير هذه الآية قريباً في نفس هذا الجزء.

وثالثاً: إنّ المسيحيين يقولون: إنّ الآلهة الثلاثة مع تعددهم الحقيقي هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحياناً بـ «الوحدة في التثليث»، وهذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وقالوا: إنّ المسيح ابن مريم هو الله! وإن هذين الاثنين يشكّلان مع روح القدس حقيقة واحدة في ثلاث متعددة!

وقد ورد كل جانب من جوانب عقيدة التثليث، الذي يعتبر من أكبر انحرافات المسيحيين في واحدة من الآيات القرآنية، ونفي نفياً شديداً (راجع تفسير الآية ١٧١ من سورة النساء من تفسيرنا هذا وفيه التوضيح اللازم في بيان بطلان عقيدة التثليث).

ويتبيّن - ممّا سلف - أنّ بعض المفسّرين مثل الفخر الرازي قد توهّموا في قولهم بعدم وجود أحد من النصارى ممن يصرح باعتقاده في اتحاد المسيح بالله، وذلك لعدم إلمام هؤلاء المفسّرين بالكتب المسيحيّة، مع أنّ المصادر المسيحيّة المتداولة تصرح بقضية «الوحدة في التثليث» ومن المحتمل أن مثل هذه الكتب لم تكن متداولة في زمن الرازي، أو أنّها لم تصل إليه وإلى أمثاله الذين شاركوه في هذا الرأي.

بعد ذلك ولكي تبطل الآية الكريمة عقيدة أُلوهية المسيح عليه السلام تقول: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذه إشارة إلى أنّ المسيح عليه السلام إنّما هو بشر كأمه وكسائر أفراد البشر، وعلى هذا الأساس فهو يعتبر - لكونه مخلوقاً - في مصاف المخلوقات الأُخرى يشاركها في الفناء والعدم، ومن حاله كهذا كيف يمكنه أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً؟!

وبتعبير آخر: لو كان المسيح عليه السلام إلهاً لاستحال على خالق الكون أن يهلكه،

---

(١) نقرأ في المصادر المسيحية أنّ «الإله الأب» هو خالق جميع الكائنات (قاموس الكتاب المقدس، الصفحة ٣٤٥) كما نقرأ أنّ الرّب هو الموجود بنفسه، وأنّ هذا هو اسم خالق جميع المخلوقات وحاكم كلّ الكائنات، وأنّه هو الروح اللامتناهية الأزليّة الأبدية . . . (قاموس الكتاب المقدس، ص ٣٤٤).

وتكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق، ومن كانت قدرته محدودة لا يمكن أن يكون إلهاً، لأنّ قدرة الله كذاته لا تحدّها حدود مطلقاً (تدبّر جيداً).

إنّ ذكر عبارة ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بصورة متكررة في الآية، قد يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي إعتراف المسيحيين ببنوّة المسيح عليه السلام لمريم، أي أنّه ولد من أُم وأنّه كان جنيناً في بطن أُمّه قبل أن يولد، وحين ولد طفلاً احتاج إلى النموّ ليصبح كبيراً، فهل يمكن أن يستقر الإله في محيط صغير كرحم الأمّ، ويتعرض لجميع تحولات الوجود والولادة ويحتاج إلى الأُمّ حين كان جنيناً وحين الرضاعة؟!

والجدير بالانتباه أنّ الآية الأخيرة تذكر بالإضافة إلى اسم المسيح عليه السلام اسم أُمّه وتذكرها بكلمة «أُمّه» وبهذه الصورة تميز الآية أُمّ المسيح عليه السلام عن سائر أفراد البشر، ويحتمل أن يكون هذا التعبير بسبب أنّ المسيحيين أثناء ممارستهم للعبادة، يعبدون أُمّ المسيح أيضاً، والكنائس الموجودة اليوم تشتمل على تماثيل لأُم المسيح، حيث يقف المسيحيون أمامها تعظيماً وتعبداً.

وإلى هذا الأمر تشير الآية (١١٦) من سورة المائدة فتقول: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا الخطاب حكاية عمّا يحصل من حوار في يوم القيامة.

وفي الختام ترد الآية الكريمة على أقوال أُولئك الذين اعتبروا ولادة المسيح من غير أب دليلاً على أُلوهيته فتقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالله قادر على أن يخلق إنساناً من غير أب ومن غير أُم كما خلق آدم عليه السلام، وهو قادر أيضاً على أن يخلق إنساناً من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السلام، وقدرة الله هذه كقدرته في خلق البشر من آبائهم وأمّهاتهم، وهذا التنوع في الخلق دليل على قدرته، وليس دليلاً على أي شيء آخر سوى هذه القدرة.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

التفسير

استكمالاً للبحوث السابقة التي تناولت بعض انحرافات اليهود والنصارى، تشير الآية الأخيرة إلى أحد الدعاوى الباطلة التي تمسك بها هؤلاء، فتقول: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

ولم يكن هذا الامتياز الوهمي الذي ادعاه اليهود والنصارى لأنفسهم هو الوحيد من نوعه، إذ إنّ القرآن الكريم قد أشار في آيات عديدة إلى أمثال هذا الادّعاء.

ففي الآية (١١١) من سورة البقرة، أشار القرآن إلى ادعائهم الذي زعموا فيه أن أحداً غيرهم لا يدخل الجنّة، وزعموا أن الجنّة حكر على اليهود والنصارى، وقد فنّد القرآن هذا الادّعاء.

كما جاء في الآية (٨٠) من سورة البقرة ادعاء آخر لليهود، وهو زعمهم أن نار جهنم لن تمسهم إلا في أيّام معدودة، وقد وبخهم القرآن على زعمهم هذا.

وفي الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى ادعائهم البنوة لله، وزعمهم أنّهم أحباء الله، ولا شك أن هؤلاء لم يعرّفوا أنفسهم كأبناء حقيقيين لله، بل إنّ المسيحيين وحدهم يدّعون أن المسيح هو الابن الحقيقي، وقد صرّحوا بهذا الأمر[1] وأنّهم حين اختاروا لأنفسهم صفة البنوة لله وادعوا بأنّهم أحبّاء الله إنما ليظهروا بأنّ لهم علاقة خاصّة بالله سبحانه، وكأنّهم أرادوا كل من ينتمي إليهم انتماءً قومياً أو عقائدياً يصبح من أبناء الله وأحبائه حتى لو لم يقم بأي عمل صالح[2].

وواضح لدينا أنّ القرآن الكريم حارب كل هذه الامتيازات والدعاوى الوهمية، فهو لا يرى للإنسان امتيازاً إلاّ بالإيمان والعمل الصالح والتقوى، ولذلك تقول الآية الأخيرة في تفنيد وإبطال الادعاء الأخير: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ فهؤلاء - بحسب اعترافهم أنفسهم - يشملهم العذاب الإلهي حيث قالوا بأنّ العذاب يمسّهم لأيّام معدودة، فكيف يتلاءم ذلك الادعاء وهذا الاعتراف؟ وكيف يمكن أن يشمل عذاب الله أبناءه وأحباءه؟!

---

(١) تقول المصادر المسيحية بأنّ عبارة «ابن الله» هي فقط من ألقاب منقذ المسيحيين وفاديهم، وإنّ هذا اللقب لا يطلق على أحد غيره إلاّ إذا دلت القرينة على أنّ المراد ليس البنوة الحقيقة لله (قاموس الكتاب المقدس، ص ٣٤٥).

(٢) ظهرت في الآونة الأخيرة لدينا مجموعة تبشر للمسيحية وتسمّي نفسها جماعة «ابن الله».

ومن هنا يثبت أن لا أساس ولا صحة لهذا الادعاء، وقد شهد تاريخ هؤلاء على أنّهم حتى في هذه الدنيا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهية، ويعتبر هذا دليلاً آخر على زيف وبطلان دعواهم تلك.

ولكي تؤكّد الآية الكريمة زيف وبطلان الدعوى المذكورة استطردت تقول: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ والقانون الإلهي عام، فإن الله ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ كل البشر هم من خلق الله، وهم عباده وأرقاؤه، وعلى هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن الله» على أي منهم، حيث تقول الآية: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

وفي النهاية تعود المخلوقات كلها إلى الله، حيث تؤكّد الآية هنا بقولها: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقد يسأل البعض: أين ومتى ادعى اليهود والنصارى أنّهم أبناء الله حتى لو كان معنى البنوة في هذه الآية مجازيّاً وغير حقيقي؟

الجواب هو أنّ الأناجيل المتداولة قد ذكرت هذه العبارة، ويلاحظ ذلك فيها بصورة متكررة، من ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح ٨ - الآية ٤١ وما بعدها، حيث نقرأ على لسان عيسى في خطابه لليهود قوله: «إنّكم تمارسون أعمال أبيكم، فقال له اليهود: نحن لم نولد من الزنا وإن أبانا واحد وهو الله! فقال لهم عيسى: لو كان أبوكم هو الله لكنتم أحببتموني...».

وقد ورد في الروايات الإسلامية - أيضاً - في حديث عن ابن عباس مضمونه أنّ النّبي ﷺ دعا جمعاً من اليهود إلى دين الإسلام وحذّرهم من عذاب الله، فقال له اليهود: كيف تخوفنا من عذاب الله ونحن أبناؤه وأحباؤه؟![١].

وورد في تفسير مجمع البيان، في تفسير الآية موضوع البحث، حديث على غرار الحديث المذكور أعلاه، مضمونه أنّ جمعاً من اليهود حين هددهم النّبي ﷺ بعذاب الله قالوا: لا تهددنا فنحن أبناء الله وأحباؤه، وهو إن غضب علينا يكون غضبة كغضب الإنسان على ولده، وهو غضب سريع الزوال[٢].

(١) التفسير الكبير للرازي، ج ١١، ص ١٩٢.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٠٤.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

التّفسير

تكرر هذه الآية الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتبيّن لهم أنّ النّبي المرسل إليهم مرسل من عند الله، أرسله في عصر ظلت البشرية قبله فترة دون أن يكون لها نبيّ، فبيّن لهم هذا النّبي الحقائق، لكي لا يقولوا بعد هذا إنّ الله لم يرسل إليهم من يهديهم إلى الصراط السوي ويبشرهم بلطف الله ورحمته ويحذّرهم من الانحراف والاعوجاج، وينذرهم بعذاب الله، حيث تقول الآية: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾.

نعم، فالبشير والنذير هو نبيّ الإسلام محمّد ﷺ الذي يبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات برحمة الله وثوابه، وينذر الذين كفروا والعاصين بعذاب الله وعقابه، وقد جاء ليبشر ولينذر أهل الكتاب والبشرية جمعاء، حيث تؤكّد الآية هذا بقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾.

أمّا كلمة «فترة» الواردة في الآية فهي تعني في الأصل الهدوء والسكينة كما تطلق على الفاصلة الزمنية بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين.

وقد شهدت الفاصلة الزمنية بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام عدداً من الأنبياء والرسل، بينما لم يكن الأمر كذلك في الفاصلة الزمنية بين عيسى عليه السلام والنّبي محمّد ﷺ، ولذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصلة الأخيرة اصطلاح (فترة من الرسل) والمعروف أن هذه الفترة دامت ستمائة عام تقريباً[(١)].

أمّا ما جاء في القرآن - في سورة يس الآية ١٤ - وما ذكره المفسّرون، فيدلان على

(١) ويرى البعض أنّ هذه الفترة تبلغ أكثر من ستمائة عام، وآخرون يرون أنّها أقل من هذه المدّة واستناداً على قول البعض فإنّ الفاصلة الزمنية بين ولادة المسيح عليه السلام وهجرة نبي الإسلام محمّد ﷺ ووفق التاريخ الميلادي تبلغ ٦٢١ عاماً و٩٥ يوماً (تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ٤، هامش الصفحة ١٥٤).

أنّ ثلاثة من الرسل - على الأقل - قد بعثوا في الفاصلة الزمنية بين النّبي عيسى عليه السلام ونبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذكر البعض أنّ أربعة من الرسل بعثوا في تلك المدّة، وعلى أي حال لابدّ أن تكون هناك فترة خلت من الرسل بين وفاة أُولئك الرسل والنّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك عبّر القرآن عن تلك الفترة الخالية من الرسل بقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

سؤال:

وقد يعترض البعض بأنّه كيف يمكن القول بوجود مثل تلك الفترة مع أنّ الاعتقاد السائد لدينا يقضي بأن المجتمع البشري لا يمكن أن يخلو ولو للحظة من رسول أو إمام معين من قبل الله سبحانه وتعالى؟

الجواب:

إنّ القرآن الكريم حين يقول: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ إنّما ينفي وجود الرسل في تلك المدّة، ولا يتنافى هذا الأمر مع القول بوجود أوصياء للرسل في ذلك الوقت.

وبعبارة أُخرى، فإنّ الرسل هم أشخاص كانوا يمارسون الدعوة على نطاق واسع، وكانوا يبشرون وينذرون الناس، ويثيرون الحركة والنشاط في المجتمعات، ويوقظونها من سباتها بهدف إيصال ندائهم إلى الجميع، بينما لم يكن جميع أوصياء الرسل ليحملوا مثل تلك المهمّة، بل يحتمل - أيضاً - أنّهم لظروف وعوامل اجتماعية خاصّة، كانوا يعيشون بين الناس أحياناً متخفّين متنكّرين.

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في إحدى خطبه الواردة في كتاب «نهج البلاغة» في هذا المجال ما يلي: «اللّهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته... يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»(١).

وواضح أن المجتمع البشري لو خلا من الرسل الثوريين والدعاة العالمين، لعمّت هذا المجتمع الخرافات والوساوس الشيطانية والانحرافات والجهل بالتعاليم الإلهية، وتكون مثل هذه الحالة خير حجة بأيدي أُولئك الذين يريدون الفرار والتخلي عن المسؤوليات، لذلك فإنّ الله يبطل هذه الحجة عن طريق الرجال الرساليين المرتبطين به والموجودين دائماً بين أبناء البشر.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

وفي الختام تؤكّد الآية على شمولية قدرة الله عزّ وجلّ فتقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا بيان بأنّ إرسال الأنبياء والرسل وتعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبة لقدرة الله العزيز المطلقة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ
أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ
ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا
خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ
يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ
الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا
لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا
قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي
الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾

التّفسير

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

جاءت هذه الآيات لتثير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق والسعي لمعرفته أوّلاً، وإيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء والآثام التي ارتكبوها ثانياً، ولكي تحفزهم إلى السعي لتلافي أخطائهم والتعويض عنها، يذكرهم القرآن في الآية الأُولى بما قاله النّبي موسى عليه السلام لأصحابه حيث تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾.

ولا يخفى أنّ عبارة (نعمة الله) تشمل جميع الأنعم الإلهيّة، لكن الآية استطردت فبيّنت ثلاثاً من أهم هذه النعم، أوّلها نعمة ظهور أنبياء وقادة كثيرين بين اليهود، والتي

تعتبر أكبر نعمة وهبها الله لهم، فتقول الآية: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ﴾ وقد نقل أنّ في زمن موسى بن عمران وحده كان يوجد بين اليهود سبعون نبيّاً، وأنّ السبعين رجلاً الذين ذهبوا مع موسى عليه السلام إلى جبل «الطور» كانوا كلهم بمنزلة الأنبياء.

وفي ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجا اليهود من هاوية الشرك والوثنية وعبادة العجل وتخلصوا من مختلف أنواع الخرافات والأوهام والقبائح والخبائث، لذلك أصبحت هذه النعمة أكبر النعم المعنوية التي أنعم الله بها على بني إسرائيل.

بعد هذا تشير الآية إلى أكبر نعمة مادية وهبها الله لليهود فتقول: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا. . .﴾ وتعتبر هذه النعمة - أيضاً - مقدمة للنعم المعنوية، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلة من ذل العبودية في ظل الحكم الفرعوني، فلم يكونوا ليمتلكوا في تلك الفترة أي نوع من حرية الإرادة، بل كانوا يعاملون معاملة البهائم المكبلة بالقيود، وقد أنقذهم الله من كل تلك القيود ببركة النّبي موسى بن عمران عليه السلام وملّكهم مصائرهم ومقدراتهم.

وقد ظن البعض أنّ المراد من كلمة «الملوك» الواردة في الآية هم الملوك والسلاطين الذين ظهروا من سلالة بني إسرائيل، في حين أنّ المعروف هو أنّ بني إسرائيل لم يحكموا إلاّ فترة قصيرة، فلم يحظ منهم إلاّ القليل بمنزلة الملوكية، بينما الآية - موضوع البحث - تقول: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ وهذه إشارة إلى تمتع جميع بني إسرائيل بهذه المنزلة، ويتبيّن من هذا أنّ المراد بكلمة «ملوك» الواردة في الآية أنّ بني إسرائيل قد تملّكوا مصائرهم ومقدّراتهم بعد أن كانوا مكبّلين بقيود العبودية في ظل الحكم الفرعوني.

إضافة إلى ذلك فإنّ كلمة «ملك» في اللغة لها معانٍ عديدة منها «السلطان» ومنها «المالك لزمام الأُمور» ومنها - أيضاً - المالك لرقبة شيء معين[(١)].

ونقل في تفسير «الدر المنثور» عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً جاء فيه: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً. . .»[(٢)].

---

(١) نقرأ في كتب أن الملك هو «من كان له المُلك، والمُلك هو ما يملكه الإنسان ويتصرف به - أو - العظمة والسلطة».

(٢) تفسير الميزان، ج ٥، ص ٢٩٥.

وتشير هذه الآية في آخرها إلى أنّ الله قد وهب بني إسرائيل في ذلك الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر في ذلك الحين فتقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وكانت هذه النعم الوافرة كثيرة الأنواع، فمنها نجاة بني إسرائيل من مخالب الفراعنة الطغاة، وانفلاق البحر لهم، ونزول غذاء خاص عليهم مثل المن والسلوى، وقد أوردنا تفاصيل ذلك في الجزء الأوّل من كتابنا هذا، لدى تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

والآية التالية تبيّن واقعة دخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدّسة نقلاً عن لسان نبيّهم موسى عليه السلام فتقول: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ﴾.

وقد اختلف المفسّرون حول المراد بعبارة ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ الواردة في الآية، وحول موقعها الجغرافي من العالم.

فيرى البعض أنّها أرض «بيت المقدس» حيث القدس الشريف، وآخرون يرون أنّها «أرض الشام» وفئة ثالثة ترى أنّها «الأردن وفلسطين» وجماعة أُخرى تقول إنّها أرض «الطور»[1].

ولكن لا يستبعد أن يكون المراد من العبارة المذكورة كل أرض الشام التي تشمل جميع الاحتمالات الواردة، لأنّ هذه الأرض - كما يشهد التاريخ - تعتبر مهداً للأنبياء، ومهبطاً للوحي، ومحلاً لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنّها كانت لفترات طوال من التاريخ مركزاً للتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، ونشر تعاليم الأنبياء... لهذه الأسباب كلها سمّيت بـ«الأرض المقدّسة» مع أنّ هذا الاسم يطلق على منطقة «بيت المقدس» بصورة خاصّة أحياناً (وقد بينا هذا الأمر في الجزء الأوّل من كتابنا هذا).

ويستدل من جملة ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أنّ الله قد قرر أن يعيش بنو إسرائيل في الأرض المقدّسة بالرغد والرخاء والرفاه شريطة أن يحموا هذه الأرض من دنس الشرك والوثنية وأن لا ينحرفوا عن تعاليم الأنبياء وإن لم يلتزموا بهذا الأمر سيحيط بهم من قبل الله عذاب أليم شديد.

وعلى هذا الأساس لا يوجد بين فشل جيل من بني إسرائيل الذين خوطبوا بهذه الآية

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٠٨.

في دخول الأرض المقدّسة، وابتلائهم بالتيه والضياع لمدّة أربعين عاماً في الصحارى والقفار، حتى نجح الجيل التالي من بعدهم في دخول تلك الأرض ولا يوجد أي تناقض بين ما ذكر وبين جملة ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ لأنّ هذا التقدير الإلهي والقرار الرباني إنّما قيد بشروط لم ينفذها ذلك الجيل الأوّل من بني إسرائيل، وتوضح هذا الأمر الآيات التالية.

وقد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى عليه السلام للدخول إلى الأرض المقدّسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات في ظل الصدف والمعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد في هذا المجال، وردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السلام بقولهم كما تنقله الآية: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ[1] وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

ويدل جواب بني إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذي خلّفه الحكم الفرعوني على نفوس هؤلاء فإنّ في كلمة «لن» التي تفيد التأبيد دلالة على الخوف والرعب العميقين اللذين استوليا على هذه الطائفة ممّا أرغمهم على الامتناع عن الدخول في أي صراع من أجل تحرير الأرض المقدّسة وتطهيرها.

وكان على بني إسرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم وتضحياتهم، أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدّسة أو أُبيدوا فيها بمعجزة على خلاف السنة الإلهيّة الطبيعية، فإن بني إسرائيل بدخولهم إليها - في مثل هذه الحالة دون أي عناء أو مشقة - كانوا سيواجهون العجز في إدارة تلك الأرض الواسعة الغنية، ولم يكونوا ليبدوا أيّ اهتمام بالحفاظ على شيء حصلوا عليه دون جهد أو معاناة، فلا يظهر لديهم والحالة هذه أي استعداد أو كفاءة لعمل ذلك.

أمّا المراد من عبارة ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة»[2]

---

(١) يجب الإنتباه إلى أنّ كلمة «جبار» مأخوذة أو مشتقة من الأصل (جبر) أي إصلاح الشيء بالقسر والإرغام، ولذلك سمّي إصلاح العظم المكسور (تجبيراً) فهذه الكلمة تطلق من جهة على كل نوع من التجبير والإصلاح، ومن جهة أُخرى تطلق على كل أنواع التسلط القسري، وحين تطلق كلمة (جبار) على الله سبحانه وتعالى فذلك إمّا لتسلطه على كل شيء، أو لأنّه هو المصلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

(٢) العمالقة قوم من العنصر السامي يعيشون في شمال شبه جزيرة العرب بالقرب من صحراء سيناء، وقد هاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة ودامت حكومتهم حوالي ٥٠٠ عام منذ عام ٢٢١٣ قبل الميلاد حتى عام ١٧٠٣ قبل الميلاد.

دائرة المعارف لفريد وجدي، ج ٦، ص ٢٣٢.

الذين كانوا يمتلكون أجساماً ضخمة، وكانت لهم أطوال خارقة، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغة في طول أجسام هؤلاء وصنعوا الأساطير الخرافية من ذلك، وكتبوا فيهم مواضيع تثير السخرية لا يسندها أيّ دليل علمي، وبالأخص فيما كتبوه عن المدعو بـ«عوج» في التواريخ المصطنعة المشوبة بالخرافات والأساطير.

ويبدو أن مثل هذه الخرافات التي تسربت حتى إلى بعض الكتب الإسلامية، إنّما هي من صنع بني إسرائيل، والتي تسمّى عادة بـ«الإسرائيليات» والدليل على هذا القول ما ورد نصاً في التوراة المتداولة من أساطير خرافية تشبه أساطير العمالقة، نقرأ في سفر الأعداد في أواخر الفصل الثّالث عشر «إنّ الأرض التي ذهب بنو إسرائيل إليها لاستقصاء أخبارها هي أرض تبيد ساكنيها وإن جميع من فيها هم أناس طوال وفيهم العمالقة من أبناء «عناق» بشكل كان بنو إسرائيل الذين ذهبوا للتجسس هناك أشبه بالجراد قياساً بأحجام العمالقة الموجودين في تلك الأرض!».

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم الله عليهما بالإيمان والتقوى والورع وشملهما بنعمه الكبيرة، فجمعا صفات الشجاعة والشهامة والمقاومة مع الدرك الاجتماعي والعسكري ممّا دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النّبي موسى عليه السلام فواجها بني إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينة، وحين تدخلون عليهم سيواجهون الأمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، تقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾.

وتؤكّد الآية - بعد ذلك على ضرورة الاعتماد على الله في كل خطوة من الخطوات، والاستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وما ذكره أغلب المفسّرين حول هوية هذين الرجلين هو أنّهما «يوشع بن نون» و«كالب بن يوحنا» وهما من النقباء الاثني عشر في بني إسرائيل، كما ورد سابقاً[1].

مع كل الاحتمالات العديدة الواردة في تفسير جملة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلاّ أنّ الواضح من ظاهر هذه الجملة، هو أنّ الرجلين المذكورين في الآية هما من جماعة تخاف الله وتخشاه وحده دون غيره، ويؤيد هذا التّفسير ما جاء في جملة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ

---

(١) الباب الأوّل من سفر التثنية في التوراة المتداولة، فيه إشارة إلى أنّ اسمي هذين الرجلين هما «يوشع» و«كاليب».

عَلَيْهِمَا. . .﴾ فأي نعمة أكبر وأرفع من أن يخاف الإنسان من الله وحده ولا يخشى أحداً سواه.

وقد يسأل سائل في هذا المجال عن مصدر علم هذين الرجلين، وكيف أنّهما علما أن بني إسرائيل ستكون لهم الغلبة إن هم دخلوا المدينة - أو الأرض المقدّسة - في هجوم مباغت؟

وجوابه: لعل علم هذين الرجلين بتلك الغلبة كان نابعاً من ثقتهما بأقوال النّبي موسى عليه السلام أو أنّهما اعتمدا على قاعدة كلية في الحروب، مفادها أنّ الجماعة المهاجمة إن استطاعت الوصول إلى مقر ومركز العدو - أي تمكنت من محاربة العدو في داره - فإنّها ستنتصر عليه[1] عادة.

والمستهدفون في تلك الحرب هم قوم العمالقة، وهم بسبب ما كانوا عليه من طول خارق، كان أسهل عليهم أن يحاربوا في بر أو فضاء مفتوح بدل الحرب في مدينة، فيها - بحسب العادة - الأزقة والطرق الملتوية (بغضّ النظر عن الجوانب الأسطورية التي تتحدث عن الطول الخارق لهؤلاء العمالقة)، أضف إلى ذلك كله أنّ العمالقة - كما نقل - كانوا على رغم قاماتهم الطويلة أناساً جبناء رعاديد، يرهبهم كل هجوم مباغت، وكل هذه الأسباب أصبحت دليلاً قوياً لدى الرجلين المذكورين ليقولا بحتمية انتصار بني إسرائيل.

والذي حصل حقيقة هو أنّ بني إسرائيل لم يقتنعوا بأي من الاقتراحات المذكورة، فهم بسبب الضعف والجبن المتأصلين في نفوسهم خاطبوا موسى عليه السلام وأخبروه صراحة بأنّهم لن يدخلوا تلك الأرض ما دام العمالقة موجودين فيها، وطالبوا موسى أن يذهب هو وربه لمحاربة العمالقة وسألوه أن يخبرهم عن انتصاره حيث هم قاعدون، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

وتبيّن هذه الآية مدى الوقاحة التي وصل إليها بنو إسرائيل في مخاطبة نبيّهم موسى عليه السلام، فهم بقولهم «لن» و«أبداً» أكدوا رفضهم القاطع للدخول إلى الأرض المقدّسة، كما أنّهم استخفّوا بموسى عليه السلام ودعوته واستهزأُوا بهما، بقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ

---

(١) وقد أشار الإمام علي بن أبي طالب في إحدى خطبه الواردة في كتاب نهج البلاغة الى هذه الحقيقة بقوله عليه السلام: (فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) (الخطبة ٢٧).

أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ . . .﴾ كما أنّهم - أيضاً - لم يعيروا التفاتاً لاقتراح الرجلين المؤمنين المذكورين في الآية، ولم يبدوا حيال ذلك أي جواب.

والطريف في الأمر أن التوراة المتداولة قد أوردت أجزاء مهمّة من هذه القصة، في الباب الرابع عشر من سفر الأعداد، حيث جاء فيها أنّ جميع بني إسرائيل لاموا موسى وهارون أخاه وقالوا جميعاً: ليتنا متنا جميعاً في أرض مصر أو في الفلاة، فلماذا جاء بنا الرّب إلى هذه الأرض لكي نقتل بحدّ السيف، وتسبى عيالنا وأطفالنا بعدنا . . . فحار موسى وأخوه هارون أمام القوم، ماذا يفعلان؟ أمّا يوشع بن نون وكاليب بن يفنة، اللذان كانا من مجموعة الرجال الذين ذهبوا للتجسس على تلك الأرض فقد شقّا جيبهما . . . .

ثمّ نقرأ في الآية التالية أنّ موسى أصابه اليأس والقنوط من القوم، ورفع يديه للدعاء مناجياً ربّه قائلاً: إنّه لا يملك حرية التصرف إلاّ على نفسه وأخيه، وطلب من الله أن يفصل بينهما وبين القوم الفاسقين العصاة، لكي يلقى هؤلاء جزاء أعمالهم ويبادروا إلى إصلاح أنفسهم، حيث تقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

وبديهي أنّ رفض بني إسرائيل القاطع لأمر نبيّهم كان بمثابة الكفر، وما استخدام القرآن لعبارة «الفاسق» في حقّ هؤلاء إلا لأنّ كلمة «الفسق» لها معان واسعة، وتشمل كل خروج وانحراف عن سنة العبودية لله، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم - حين التحدث عن انحراف الشيطان - قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1].

وتجدر هنا الإشارة إلى أنّ جملة: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الواردة في الآيات السابقة تدل على وجود قلة من اليهود كانت تخشى الله، ومنهم الرجلان المذكوران في إحدى الآيات الأخيرة وهما «يوشع» و«كاليب» بينما نلاحظ أنّ موسى عليه السلام لا يذكر هنا غير نفسه وأخيه، ولا يذكر ولو حتى بالتلميح أحداً من تلك القلّة، وقد يكون السبب أنّ هارون لكونه الوصي لأخيه موسى عليه السلام ولكونه أبرز شخصية في بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام . . . لذلك ذكر اسمه دون غيره.

وكانت نتيجة صلف وعناد بني إسرائيل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب الله دعاء نبيّه

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

موسى عليه السلام، فحرم عليهم دخول الأرض المقدّسة، المليئة بالخيرات مدّة أربعين عاماً، وفي هذا المجال تقول الآية القرآنية الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

وزادهم عذاباً إذ كتب عليهم التيه والضياع في البراري والقفار طيلة تلك الفترة، حيث تقول الآية في ذلك: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[١] وقد سميت الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل باسم «التيه» أيضاً، وكانت جزءاً من صحراء سيناء، كما ذكرنا في الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

بعد ذلك تذكر الآية أنّ ما نال بني إسرائيل من عذاب في تلك المدّة، كان مناسباً لما فعلوه، وتطلب من موسى عليه السلام أن لا يحزن على المصير الذي لاقوه حيث تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وربما كان سبب ورود الجملة الأخيرة، هو أنّ موسى عليه السلام قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذي كتبه الله على بني إسرائيل، فطلب من الله العفو لقومه - كما ورد في التوراة المتداولة - فأجابه برد سريع أوضح له أنّ بني إسرائيل يستحقون ذلك العذاب، وهم لا يستحقون العفو الإلهي لأنّهم أُناس فاسقون وعصاة، متكبرون، ومن كان هذا شأنه سيلاقي - حتماً - مثل هذا المصير.

ويجب الانتباه إلى أنّ حرمان بني إسرائيل من الدخول إلى الأرض المقدسة، لم يكن له طابع الانتقام (كما أن جميع العقوبات الإلهيّة ليس فيها طابع انتقامي، بل هي إما أن تكون لأجل تقويم شخصية الفرد، أو تكون نتيجة لأخطائه ومعاصيه).

وقد اشتمل هذا الحرمان على فلسفة خاصّة، حيث تحرر بنو إسرائيل بعد معاناة طويلة قاسوها في ظل الكبت والقمع الفرعوني اللذين خلفا فيهم عقد الإحساس باحتقار النفس والذل والضعة والنقص، لذلك فهم لم يبدوا استعداداً لتطهير أنفسهم وأرواحهم في تلك الفترة بعد التحرر وفي ظل قيادة وزعامة نبيّهم موسى عليه السلام كما لم يكونوا مستعدين لتلك القفزة المعنوية التي كان من شأنها أن تهيئ لهم حياة جديدة مقرونة بالفخر والعز والسؤدد، وجوابهم لموسى عليه السلام - الذي اشتمل على رفضهم الدخول إلى ميدان الجهاد التحرري في الأرض المقدسة - خير دليل على هذه الحقيقة.

---

(١) «يتيهون» مأخوذة من مادة «تيه» بمعنى الحيرة، ثم أُطلق على تلال الصحراء حيث تاه فيها بنو اسرائيل، وهذه الصحراء كما ذكر القرآن في ذيل الآية ٥٧ المذكورة في سورة البقرة هي صحراء «سيناء».

لذلك كان من الضروري أن يعاني بنو إسرائيل من التيه والضياع في الصحراء، ليزول الجيل الضعيف العاجز منهم بشكل تدريجي وليحل محله جيل جديد في محيط الصحراء، محيط الحرية وفي أحضان التعاليم الإلهيّة، وقد صقلت نفوسهم حياة الصحراء القاسية الضارية، ووهبت لأرواحهم وأنفسهم القوة والقدرة، وأعدتهم لخوض غمار ذلك الجهاد ليقيموا حكومة الحق في تلك الأرض المقدسة!

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

أوّل حادثة قتل على الأرض

لقد تناولت هذه الآيات الثلاث الأخيرة قصّة ولدي آدم عليه السلام وكيف قتل أحدهما أخاه الآخر، ولعل وجه الصلة بين هذه الآيات والآيات التي سبقتها في شأن بني إسرائيل، هو غريزة «الحسد» التي كانت دائماً أساساً للكثير من مخالفات وانتهاكات بني إسرائيل حيث يحذرهم الله في هذه الآيات من مغبة وعاقبة الحسد الوخيمة القاتلة، التي تؤدّي أحياناً إلى أن يعمد أخ إلى قتل أخيه! والآية تقول في هذا المجال لنبيّ الله أن يتلو على قومه قصّة ولدي آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾.

ولعل استخدام كلمة «بالحق» في هذه الآية جاء للإشارة إلى أن القصّة المذكورة قد أضيفت لها خرافات مختلفة، ولبيان أنّ القرآن الكريم جاء بالقصة الحقيقية التي حصلت بين ولدي آدم عليه السلام. ولا شك أنّ كلمة «آدم» الواردة في الآية، تشير إلى أبي البشرية الحاضرة، وأنّ ما ذهب إليه البعض من أنّها إشارة إلى شخص من بني إسرائيل اسمه «آدم» لا أساس له من الواقع، لأنّ هذه الكلمة استخدمت مراراً في القرآن للدلالة على اسم أبي البشرية، فلو صحّ الافتراض الأخير لوجب أن تشتمل الآية - أو الآيات - التي بعدها

على قرينة تصرف الاسم عن مسماه الحقيقي الأوّل، ولا يمكن لآية ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ التي سيأتي تفسيرها قريباً، أن تكون قرينة على الافتراض المذكور كما سيأتي تفصيله.

وتواصل الآية سرد القصّة فتقول: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ...﴾.

وقد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ - الذي لم يتقبل الله القربان منه - أخاه بالقتل ويقسم إنّه قاتله لا محالة، كما جاء في قوله تعالى في الآية: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيراً إلى أن عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّة في عمله، وأنّه ليس لأخيه أي ذنب في رفض القربان، مؤكّداً أنّ الله يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وأكد له أنّه لو نفذ تهديده وعمد إلى قتله، فإنه - أي الأخ الذي تقبل الله منه القربان - لن يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف الله ويخشاه، ولن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم حيث تقول الآية: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وأضاف هذا الأخ الصالح - مخاطباً أخاه الذي أراد أن يقتله - أنّه لا يريد أن يتحمل آثام الآخرين، قائلاً له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ[1] بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي لأنّك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبي السابقة أيضاً، لأنّك سلبت مني حق الحياة وعليك التعويض عن ذلك، ولما كنت لا تمتلك عملاً صالحاً لتعوض به، فما عليك إلاّ أن تتحمل إثمي أيضاً، وبديهي أنك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتماً من أهل النار، لأنّ النار هي جزاء الظالمين، كما تقول الآية: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

نقاط مهمّة يجب الانتباه لها

١ - إن القرآن الكريم لم يذكر في هذه الآية - ولا في آيات أُخرى - أي اسم لابني آدم عليه السلام، لكن الروايات الإسلامية تدل على أنّ ولدي آدم المذكورين في هذه الآية كان اسم أحدهما «هابيل» والآخر «قابيل» وقد ورد في سفر التكوين من التوراة في الباب الرابع أنّ ولدي آدم المذكورين اسمهما «قائن» و«هابيل».

وقد ذكر المفسّر المعروف «أبو الفتوح الرازي» أن هذين الاسمين قد وردا بألفاظ

(١) إن كلمة «تبوء» مشتقة من المصدر «بواء» أي «العودة».

مختلفة، فالاسم الأوّل جاء فيه «هابيل» و«هابل» و«هابن»، أما الاسم الثّاني فجاء فيه «قابيل» و«قايين» و«قابل» و«قابن» أو «قبن»، وعلى أي صورة كان الاسم فإنّ الاختلاف بين الروايات الإسلامية ونص التوراة بخصوص اسم «قابيل» نابع عن الاختلاف اللغوي، ولا يشكل أمراً مهماً في هذا المجال.

والغريب في الأمر أنّ أحد الكتاب المسيحيين قد أورد الاختلاف المذكور دليلاً اعترض به على القرآن، فقال: إنّ القرآن أورد لفظة «قابيل» بدل «قائن»!

والجواب أنّ مثل هذا الاختلاف اللغوي أمر شائع وبالأخص في مجال الأسماء، فمثلاً كلمة «إبراهيم» الواردة في القرآن قد وردت في التوراة على شكل «أبراهام»، كما أنّ القرآن الكريم لم يأت مطلقاً باسم «هابيل» و«قابيل» وقد ورد هذان الاسمان في الروايات الإسلامية فقط(١).

٢ - إنّ المعروف عن «القربان» أنّه كل شيء يحصل به التقرب إلى الله، لكن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن ماهية القربان الذي قدمه ولدا آدم، بينما نقلت الروايات الإسلامية - والتوراة في سفر التكوين، الباب الرابع - أن «هابيل» كان يمتلك ماشية فاختار أفضل أغنامه ومنتوجاتها للقربان المذكور، وأن «قابيل» الذي كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

٣ - لم يرد في القرآن أي توضيح عن الأسلوب الذي عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما ورفض قربان الآخر عند الله. والذي ورد في هذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسلامية من أنّ هذين الشخصين كانا قد وضعا قربانهما على قمة جبل، فنزلت صاعقة فأحرقت قربان هابيل دلالة على قبوله، وبقي قربان قابيل على حاله لم يمسه شيء، وكانت لهذه العلامة سابقة معروفة أيضاً.

لكن بعض المفسّرين يعتقدون أنّ قبول ورفض القربانين إنّما أُعلنا عن طريق الوحي لآدم عليه السلام، وما كان سبب ذلك غير أنّ هابيل كان إنساناً ذا سريرة نقية يحبّ التضحية والعفو في سبيل الله فتقبل الله لذلك قربانه، بينما كان قابيل رجلاً ملوث القلب حسوداً معانداً فرفض الله قربانه، والآيات التالية توضح حقيقة ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير وشر.

---

(١) وقد كتب العلاّمة الفقيد الشّيخ «محمّد جواد البلاغي» رسالة في هذا المجال سماها بـ«الأكاذيب الأعاجيب» جمع فيها أكاذيب من نمط الكذبة التي جاء ذكرها أعلاه.

٤ - يستنتج من هذه الآيات - بصورة جلية - أنّ مصدر أول النزاعات والجرائم في العالم الإنساني هو «الحسد» ويدلنا هذا الموضوع على خطورة هذه الرذيلة الأخلاقية وأثرها العجيب في الأحداث الاجتماعية.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

التّفسير

التّستر على الجريمة

تواصل هاتان الآيتان بقية الواقعة التي حصلت بين ابني آدم عليه السلام، فتبيّن الآية الأُولى منهما أن نفس قابيل هي التي دفعته إلى قتل أخيه فقتله، حيث تقول: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾.

ونظراً لأنّ كلمة «طوع» تأتي في الأصل من «الطاعة» لذلك يستدل من هذه العبارة على أنّ قلب «قابيل» بعد أن تقبل الله قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الانتقام من أخيه «هابيل» ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية وشعوره الفطري بقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويداً رويداً على مشاعره الرادعة فطوّعت ضميره الحي وكبلته بقيودها وأعدته لقتل أخيه، وتدلّ عبارة «طوعت» مع قصرها على جميع المعاني التي ذكرناها لأنّ عملية التطويع كما نعلم لا تتمّ في لحظة واحدة، بل تحصل بشكل تدريجي وعبر صراعات مختلفة.

وتشير الآية - في آخرها - إلى نتيجة عمل «قابيل» فتقول ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فأيّ ضرر أكبر من أن يشتري الإنسان لنفسه عذاباً سيلازمه إلى يوم القيامة، ويشمل عذاب الضمير وعقاب الله والعار الأبدي!!

وقد حاول البعض الاستدلال من كلمة «أصبح» على أن جريمة القتل قد وقعت ليلاً، في حين أنّ كلمة «أصبح» من حيث معناها اللغوي لا تنحصر في زمن معين ليلاً كان أو

نهاراً، بل تدل على حدوث شيء ما، كما جاء في الآية (١٠٣) من سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

وتفيد بعض الروايات المنقولة عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ قابيل حين قتل أخاه ترك جثته في العراء حائراً لا يدري ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» - ربّما نتيجة لضغط وجداني شديد - إلى حمل جثة أخيه مدّة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به وهي تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية وفي تلك الأثناء بعث الله غراباً - كما تصرّح الآية - فأخذ يحفر الأرض ويزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفي جزءاً من طعامه - كما هي عادة الغربان - وليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثة أخيه، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾[1].

ولا غرابة في أن يتعلم إنسان شيئاً من طير من الطيور، فالتاريخ والتجربة يدلان على أنّ للكثير من الحيوانات مجموعة من المعلومات الغريزية تعلمها منها البشر على طول التاريخ، مكملاً بذلك معلوماته ومعارفه، وحتى بعض الكتب الطبيّة تذكر أنّ الإنسان مدين في جزء من معلوماته الطبية للحيوانات!

ثمّ تشير الآية الكريمة إلى أنّ قابيل استاء من غفلته وجهله، فأخذ يؤنّب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآية: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

وكانت العاقبة أن ندم قابيل على فعلته الشنيعة كما تقول الآية: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

فهل كان ندمه على جريمته، خوفاً من افتضاح أمره أمام أبويه، أو ربّما إخوته الآخرين الّذين كانوا سيلومونه على فعلته، أم أنّ ندمه كان إشفاقاً على نفسه، لأنّه حمل جسد أخيه القتيل لفترة دون أن يعلم ماذا يفعل به أو كيف يدفنه، أم كان سبب الندم ما يشعر به الإنسان - عادة - من قلق واستياء بعد ارتكاب كل عمل قبيح؟

---

(١) جاء في مجمع البيان أنّ كلمة «يبحث» معناها في الأصل البحث عن شيء في التراب ثمّ استعملت في مختلف أنواع البحوث، أمّا كلمة «سوأة» فهي تعني كل شيء يستاء الإنسان من رؤيته، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميت، وعلى عورة الإنسان، ويجب الإنتباه هنا إلى أنّ الفاعل في جملة «ليريه» قد يكون هو الله، أي إنّ الله أراد أن يري «قابيل» كيف يدفن أخاه، وذلك احتراماً لـ «هابيل» ويحتمل أن يكون الغراب هو الفاعل في الجملة المذكورة.

ومهما كانت أسباب الندم ودوافعه لدى «قابيل» فذلك لا يعني أنّه تاب من فعلته وجريمته التي ارتكبها، فالتوبة معناها أن لا يعاود الإنسان المذنب تكرار الذنب، خوفاً من الله واستقباحاً للذنب، ولم يشر القرآن الكريم إلى صدور مثل هذه التوبة عن «قابيل»، وقد تكون الآية التالية إشارة إلى عدم صدور التوبة عنه.

ورد في حديث عن النّبي ﷺ قوله: «لا تقتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنّه كان أوّل من سنّ القتل»(١).

ويستدل من هذا الحديث أيضاً على أنّ من سنّ سُنّة سيئة، سيبقى يتحمل وزرها ما دامت باقية في الدنيا.

ممّا لا ريب فيه أنّ قصّة ولدي آدم عليه السلام قصّة حقيقية، يثبتها ظاهر الآيات القرآنية الأخيرة والروايات الإسلامية، كما أنّ عبارة «بالحق» الواردة في هذه القصّة القرآنية تعتبر شاهداً على هذا الأمر، وعلى هذا الأساس فإنّ الأقوال التي افترضت لهذه القصّة طابعاً رمزياً من قبيل التشبيه أو الكناية أو القصّة المفترضة لا أساس لها مطلقاً.

ولا مانع من أن تكون هذه القصّة الحقيقية مثالاً من الصراع الدائم الذي يطغى على المجتمعات البشرية، حيث يقف في أحد جانبيه أناس جبلوا على الطهارة والصفاء والإيمان والعمل الصالح المقبول عند الله، وفي الجانب الآخر يقف أفراد تدنسوا بالانحراف وجبلوا على الحقد والحسد والضغينة والبغضاء والعمل الشرير.

وكم هو العدد الكبير من أُولئك الأبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوة الشهادة على أيدي هؤلاء الأشرار الذين سيدركون - في النهاية - فظاعة الأعمال الآثمة التي ارتكبوها، وسيسعون إلى إخفائها والتستر عليها، فتظهر لهم في مثل هذه اللحظات آمالهم السوداء الشبيهة بالغراب - المذكور في الآية القرآنية الأخيرة - فتحثّهم وتدفعهم إلى إخفاء جرائمهم، لكنّهم سوف لا يجنون في النهاية غير الخيبة والخسران.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٨٣ و ٤٣٣؛ كما جاء في تفسير «في ظلال القرآن»، ج ٢، ص ٧٠٣، ذيل الآية مورد البحث.

﴿أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

وحدة الإنسانية وكرامتها

إنّ هذه الآية تقوم باستخلاص نتيجة إنسانية كلية بعد الآيات التي تطرقت إلى قصّة ولدي آدم عليه السلام.

ففي البداية تشير الآية إلى حقيقة اجتماعية تربوية مهمّة، وهي أن قتل أيّ إنسان، إن لم يكن قصاصاً لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمة الإفساد في الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشري بأجمعه، كما أنّ إنقاذ أيّ إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلّها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿مِنْ أَجْلِ(1) ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

ويرد هنا سؤال وهو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساوياً لقتل الناس جميعاً، وكيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

ولقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسّرين على هذا السّؤال... جاء في تفسير «التبيان» ستة أجوبة عليه، وفي «مجمع البيان» خمسة أجوبة، وفي «كنز العرفان» أربعة أجوبة، ولكن بعضاً من هذه الأجوبة يبتعد كثيراً عن معنى هذه الآية(2).

وكما قلنا في بداية تفسير هذه الآية، فإنّها تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لأنّه:

أوّلاً: إن من يقتل إنساناً بريئاً ويلطخ يده بدم بريء يكون - في الحقيقة - مستعداً لقتل أناس آخرين يساوونه في الإنسانية والبراءة، فهو - في الحقيقة - إنسان قاتل، وضحيته إنسان آخر بريء، ومعلوم أنّه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أنّ أي إنسان يقوم - بدافع حب النوع الإنساني - بإنقاذ إنسان آخر من الموت،

---

(1) إنّ كلمة «أجل» التي هي على وزن «نخل» تعني في الأصل الجريمة، وقد شاع استعمالها فيما بعد في كل عمل له عاقبة سيئة، ثمّ استعملت لكل عمل ذي عاقبة، وهي الآية تستخدم للتعليل أو بيان علّة الشيء.

(2) تفسير التبيان، ج ٣، ص ٥٠٢، وتفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٢٢؛ وتفسير كنز العرفان، ج ٢، ص ٣٥٣.

يكون مستعداً للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أيّ إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ يحبّ إنقاذ الناس الأبرياء، لذلك لا فرق لديه بين إنسان بريء وآخر مثله.

ونظراً لكلمة «فكأنّما» التي يستخدمها القرآن في هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت وحياة إنسان واحد، مع أنّه لا يساوي موت وحياة المجتمع، إلاّ أنّه يكون شبيهاً بذلك.

وثانياً: إنّ المجتمع يشكل في الحقيقة كياناً واحداً، وأعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد، وإنّ أي ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحاً - بصورة أو بأُخرى - في سائر الأعضاء، ولأنّ المجتمع البشري يتشكل من الأفراد، لذلك فإن فقدان أي فرد منهم يعتبر خسارة للمجتمع الإنساني الكبير، لأنّ هذا الفقدان يترك أثراً بمقدار ما كان لصاحبه من أثر في المجتمع، لذلك يشمل الضرر جميع أفراد المجتمع.

ومن جانب آخر فإنّ إحياء فرد من أفراد المجتمع، يكون - لنفس السبب الذي ذكرناه - بمثابة إحياء وإنقاذ جميع أفراد المجتمع، لأنّ لكل إنسان أثر بمقدار وجوده في بناء المجتمع الإنساني وفي مجال رفع احتياجاته، فيكون هذا الأثر قليلاً بالنسبة للبعض وكثيراً بالنسبة للبعض الآخر.

وحين نقرأ في الروايات أنّ جزاء وعقاب قاتل النفس المحترمة، يكون كجزاء قاتل جميع أفراد البشر، فإنّما ذلك إشارة إلى هذا المعنى الذي ذكرناه، ولا يعني أنّ الناس متساوون مع بعضهم في كل الجهات، ولذلك نقرأ في تفسير هذه الروايات - أيضاً - أن عقاب القاتل يتناسب مع عدد الأفراد الذين قتلهم تناسباً طردياً قلة وزيادة(١).

وتبيّن هذه الآية بجلاء أهمّية حياة وموت الإنسان في نظر القرآن الكريم، وتتجلى عظمة هذه الآية أكثر حين نعلم أنّها نزلت في محيط لم يكن يعير أي أهمية لدماء أفراد الإنسانية.

وتلفت الانتباه في هذا المجال روايات عديدة ذكرت أنّ هذه الآية مع أنّها تتحدث - أو يشير ظاهرها - إلى الحياة والموت الماديين، إلاّ أنّ الأهمّ من ذلك هو الموت والحياة المعنويين، أي إضلال الفرد أو إنقاذه من الضلال، وقد سأل شخص الإمام الصّادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية فأجابه عليه السلام قائلاً: «من حرق أو غرق، ثمّ سكت عليه السلام ثمّ قال: تأويلها الأعظم: إنْ دعاها فاستجابت له»(٢).

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢١١. (٢) أصول الكافي، ج ٧، ص ٢٧١.

وفحوى قول الإمام الصّادق عليه السلام في هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثمّ يستطرد الإمام عليه السلام - بعد سكوت - فيبيّن أن التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق والخير أو الباطل والشر، وتحقق القبول من الجانب الآخر المخاطب بهذه الدّعوة(١).

والسؤال الآخر الذي يمكن أن يرد في هذا المجال أيضاً، هو عن سبب ورود اسم بني إسرائيل بالذات في هذه الآية، مع أنّها تشمل حكماً لا يخص هذه الطائفة؟

ويمكن القول في الجواب بأن سبب الإتيان باسم بني إسرائيل في هذه الآية هو أنّ هذه الطائفة قد شاعت بينها حوادث القتل وإراقة الدماء، وبالأخص ما كان منها ناشئاً عن الحسد وحبّ الذات والأنانية وحبّ التسلط، وما زال الذين يتعرضون للقتل على أيدي هذه الطائفة - في الوقت الحاضر - هم الأبرياء من الناس غالباً، ولهذا السبب ورد هذا الحكم الإلهي - لأوّل مرّة - في سيرة بني إسرائيل!

وتشيرالآية في آخرها - إلى انتهاكات بني إسرائيل، فتؤكّد أنّ هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلاّ أنّ الكثير منهم قد نقضوا وانتهكوا القوانين الإلهيّة، واتبعوا سبيل الإسراف في حياتهم، حيث تقول الآية: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

ويجدر الانتباه إلى أنّ كلمة «إسراف» لها معانٍ واسعة، تشمل كل تجاوز أو تعدّ عن الحدود، ولو أنّها تستخدم في الغالب في مجال الهبات والنفقات.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢٠ وقد وردت في هذا المجال روايات أُخرى بنفس المضمون.

سبب النّزول

ورد في سبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين، أنّ جماعة من المشركين قدموا إلى النّبي ﷺ وأعلنوا إسلامهم لكنّهم - لعدم تعوّدهم على طقس ومناخ المدينة - أصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النّبي ﷺ أن يذهبوا إلى منطقة ذات مناخ جيد من الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعاً لإبل الزكاة، وأجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم، ففعلوا وتعافوا ممّا كانوا يعانون منه من الأمراض، لكنّهم بدل أن يقدّموا الشكر على صنيع النّبي ﷺ معهم، عمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين والتمثيل بهم وسمل عيونهم، ونهبوا إبل الزكاة وارتدوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النّبي ﷺ بإلقاء القبض عليهم والقصاص منهم بمثل ما ارتكبوه في حق أُولئك الرعاة الأبرياء، وجزاء لهم على جرائمهم فسملت عيونهم وقطعت أوصالهم وقتلوا، لكي يصبحوا عبرة لغيرهم فلا تسوّل لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة، وقد نزلت الآيتان الأخيرتان وهما تبيّنان حكم الإسلام في هذه الجماعة[1].

جزاء مرتكب العدوان

تكمّل الآية الأولى - من الآيتين الأخيرتين - البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، وتبيّن جزاء وعقاب من يشهر السلاح في وجه المسلمين، وينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بارتكاب القتل، فتقول: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

ومعنى قطع الأيدي والأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

ويجدر الانتباه هنا إلى عدّة أمور، هي:

١ - إنّ المراد بجملة ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الواردة في الآية - كما تشير إليه أحاديث أهل البيت ويدلّ عليه سبب نزول الآية - هو ارتكاب العدوان ضد أرواح أو أموال الناس باستخدام السلاح والتهديد به، سواء كان هذا العدوان من قبل قطاع الطرق خارج المدن أو داخلها، وعلى هذا الأساس فإنّ الآية تشمل أيضاً الأشرار الذين يعتدون على أرواح الناس وأموالهم ونواميسهم.

---

(١) تفسير المنار، ج ٦، ص ٣٥٣، وتفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢١٤٥.

والذي يلفت الانتباه في هذه الآية أنّها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب وممارسة العدوان ضد الله ورسوله، وهذه النقطة تبيّن بل تثبت مدى اهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر ورعاية أمنهم وسلامتهم.

٢ - المراد بقطع اليد أو الرجل - المذكور في الآية، وكما أشارت إليه كتب الفقه - هو القطع بنفس المقدار الذي ينفذ في حق السارق لدى قطع يده، أي مجرّد قطع أربعة من أصابع اليد أو الرجل[١].

٣ - هل أنّ العقوبات الأربع المذكورة في الآية لها طابع تخييري؟ أي هل أنّ الحكومة الإسلامية مخيرة في استخدام أي منهما في حق الفرد الذي تراه يستحق ذلك، أم أن العقوبة يجب أن تتناسب ونوع الجريمة التي ارتكبها الفرد؟ أي إذا ارتكب الفرد المحارب جريمة قتل ضد أفراد أبرياء تطبق في حقّه عقوبة الإعدام، وإن ارتكب سرقة عن طريق التهديد بالسلاح تنفذ فيه عقوبة قطع أصابع اليد أو الرجل، وإذا ارتكب الجريمتين معاً يكون عقابه الإعدام والصلب على الأعواد لفترة معينة لكي يعتبر به الناس، وإذا شهر الفرد المحارب السلاح على الناس دون أن يراق أيّ دم أو تتمّ سرقة شيء يكون عقابه النفي إلى بلد آخر؟

لا شك أنّ الاحتمال الثّاني - وهو تطبيق العقوبة المتناسبة مع الجريمة أقرب إلى الحقيقة، وقد أيد هذا المعنى ما ورد في أحاديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أيضاً[٢].

وبالرغم من أنّ بعض الأحاديث أشارت إلى أنّ الحكومة الإسلامية مخيرة في انتخاب أي من العقوبات الأربع الواردة، لكننا - نظراً للأحاديث التي أشرنا إليها قبل قليل - نرى أنّ المراد من التخيير لا يعني أن تنتخب الحكومة الإسلامية واحداً من العقوبات المذكورة انتخاباً اعتباطياً دون أن تأخذ نوع الجريمة بنظر الاعتبار، حيث من المستبعد كثيراً أن تكون عقوبتا الإعدام والصلب متساويتين مع عقوبة النفي، أو أن تكونا بمنزلة واحدة!

ويلاحظ هذا الأمر أيضاً في الكثير من القوانين الوضعية المعاصرة بصورة واضحة، حيث تعيّن عقوبات مختلفة لنوع واحد من الجرائم، وعلى سبيل المثال نرى أنّ بعض الجرائم تتراوح عقوبتها بين ٣ سنين إلى ١٠ سنين من السجن، والقاضي يتعامل في هذا

---

(١) كنز العرفان في فقه القرآن، ج ٢، ص ٣٥٢.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢٢

المجال وفق ما يراه مناسباً لواقع الحال، وليس وفق ما يشتهيه هو، فتارة يكون المناسب في الجريمة أن تطبق العقوبة المشددة، وأُخرى يتناسب معها تخفيف العقوبة، نظراً للظروف المحيطة والملابسات الواردة في حالة ارتكاب الجريمة.

وهذا القانون الإسلامي الذي جاء في حق المحاربين، يتفاوت فيه أُسلوب العقاب ونوعه مع اختلاف الجريمة التي يرتكبها الفرد المحارب أو الجماعة المحاربة.

وغني عن القول أنّ العقوبات المشددة التي جاء بها الإسلام لقطاع الطريق تتوضح فلسفتها في الأهمية القصوى التي أعارها هذا الدين للدماء البريئة، لكي يحول دون اعتداء الأفراد الأشقياء الأشرار القتلة على أرواح وأموال وأعراض الناس الأبرياء(١).

وفي الختام تشير الآية إلى أنّ هذه العقوبات هي لفضح المجرمين في الدنيا، وسوف لا يتوقف الأمر على هذه العقوبات، بل سينالون يوم القيامة عقاباً أشد وأقسى حيث تقول الآية: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ويستدل من هذه الجملة القرآنية على أنّ العقوبات الإسلامية الدنيوية التي تنفذ في حق المجرمين لن تكون حائلا دون نيلهم لعقاب الآخرة، ولكن طريق العودة والتوبة لا يغلق حتى في وجه مجرمين خطيرين كالذين ذكرتهم الآية إن هم عادوا إلى رشدهم وبادروا إلى إصلاح أنفسهم، ولكي يبقى مجال التعويض عن الأخطاء مفتوحاً تقول الآية الثانية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والذي يظهر من هذه الآية أنّ العقاب والحدّ الشرعي يرفعان عن أُولئك المجرمين في حالة انصرافهم طوعاً عن ارتكاب الجريمة وندمهم قبل أن يلقى القبض عليهم فقط.

وبديهي أنّ توبة هؤلاء لا تسقط العقاب عنهم إن كانوا قد ارتكبوا جريمة قتل أو سرقة، إلاّ في حالة ارتكاب جريمة التهديد بالسلاح فإن العقوبة تسقط إن هم تابوا وندموا قبل إلقاء القبض عليهم.

وبعبارة أُخرى فإنّ التوبة في مثل هذه الجرائم لها تأثير في ما يخص الله فقط، أمّا حق الناس فلا يسقط بالتوبة ما لم يرضَ صاحب الحق.

وهكذا فإنّ عقاب المحارب يكون أشدّ وأقسى من عقاب السارق أو القاتل العادي،

---

(١) إنّ الأحكام التي تطرقنا إليها جاءت على شكل بحث تفسيري ملخص، وتفاصيل هذه الأحكام وشروطها موجودة في كتب الفقه.

فهو إن تاب نجا من العقوبة التي تشمله لكونه محارباً، لكنه لا يتخلّص من عقوبة السرقة والقتل العاديين.

وقد يطرأ هنا سؤال وهو كيف يمكن إثبات التوبة ما دامت عملية قلبية باطنية؟

والجواب: إن طرق إثبات التوبة في هذا المجال كثيرة وافرة، ومنها: أن يشهد شاهدان عدلان على أنّهما سمعا توبة المجرم في مكان ما، وأنّه تاب دون أن يرغمه أحد على التوبة، ومنها: أن يغيّر المجرم أُسلوب حياته بشكل تظهر عليه آثار التوبة بجلاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

حقيقة التوسل إلى الله

توجه هذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمّن تكاليف ثلاثة يؤدّي الالتزام بها وتطبيقها إلى نيل الفلاح، وهذه التكاليف هي:

١ - اتّباع الحيطة والتقوى، كما تقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢ - اختيار وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، حيث تقول الآية: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

٣ - الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآية: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾.

وستكون نتيجة الالتزام بهذه التكاليف الإلهية وتطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام والإيمان فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إنّ أهم موضوع سنتناوله بالبحث في هذه الآية، هو الدعوة الموجّهة للإنسان المؤمن لاختيار طريقة تؤدّي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

فكلمة «الوسيلة» في الأصل بمعنى نشدان التقرب أو طلب الشيء الذي يؤدّي إلى التقرب للغير عن ميل ورغبة، وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة «الوسيلة» الواردة في هذه الآية لها معانٍ كثيرة واسعة، فهي تشمل كل عمل أو شيء يؤدّي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأهم الوسائل في هذا المجال هي الإيمان بالله وبنبيّه ﷺ والجهاد

في سبيل الله، والعبادات كالصّلاة والزكاة والصوم، والحج إلى بيت الله الحرام وصلة الرحم والإنفاق في سبيل الله سرّاً وعلانية وكذلك الأعمال الصالحة - كما يقول الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له وردت في «نهج البلاغة» منها: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقامة الصّلاة فإنّها الملّة[1]، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العقاب، وحج البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر، ويرحضان[2] الذنب، وصلة الرحم فإنّها مثراة[3] في المال ومنسأة[4] في الأجل، وصدقة السرّ فإنّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان . . .»[5].

كما أنّ شفاعة الأنبياء والأئمّة والأولياء الصالحين تقرّب - أيضاً - إلى الله وفق ما نصّ عليه القرآن الكريم، وهي داخلة في المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة» - وكذلك اتّباع النّبي والإمام والسير على نهجهما، كل ذلك يوجب التقرب إلى الساحة الإلهيّة المقدسة، وحتى عندما نقسم على الله بمقام الأنبياء والأئمّة والصالحين فإنّه يدلّ على حبّنا لهم والاهتمام بالدين الذي دعوا إليه، هذا القسم يعتبر - أيضاً - واحداً من المعاني الداخلة في المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة».

والذين خصصوا هذه الآية وقيدوها ببعض هذه المفاهيم لا يمتلكون في الحقيقة أي دليل على هذا التخصيص، لأنّ كلمة «الوسيلة» تطلق في اللغة على كل شيء يؤدّي إلى التقرب.

والجدير بالذكر هنا أنّ المراد من التوسل لا يعني - أبداً - طلب شيء من شخص النّبي أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن - عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النّبي والإمام - بطلب الشفاعة منهم إلى الله، أو أن يقسم بجاههم وبدينهم (وهذا يعتبر نوعاً من الاحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من الله بذلك حاجته، وليس في هذا المعنى أيّ أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنية الأُخرى، ولا يخرج عن عموم الآية الأخيرة موضوع البحث «فتدبّر».

(١) «الملة» يعني شريعة الإسلام.
(٢) «يرحضان» يعني يطهران أو يغسلان.
(٣) «مثراة» يعني مكثرة.
(٤) «منسأة» يعني مطيلة.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.

التوسل في القرآن

هناك آيات قرآنية أُخرى تدلّ بوضوح على أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند الله، وطلب شيء من الله عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند الله، لا يعتبر أمراً محظوراً ولا ينافي التوحيد.

فنحن نقرأ في الآية (٦٤) من سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. كما نقرأ في الآية (٩٧) من سورة يوسف، أنّ إخوة يوسف طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم الله، فقبل يعقوب هذا الطلب ونفذه.

والآية (١١٤) من سورة التوبة تشير إلى موضوع استغفار إبراهيم لأبيه، وهذا دليل على تأثير دعاء الأنبياء في حق الآخرين.

وقد ورد هذا الموضوع في آيات قرآنية أُخرى أيضاً.

التّوسل في الرّوايات الإسلامية

إنّ الروايات العديدة التي وردت عن طرق الشيعة والسنّة تفيد بوضوح أنّ التوسل بالمعنى الذي عرضناه لا ريب ولا شبهة فيه، بل إنّه يعد عملاً جيداً أيضاً، وهذه الرّوايات كثيرة وقد نقلتها كتب عديدة، ونحن نورد بعضاً منها ممّا ورد في مصادر جمهور السنّة على سبيل المثال لا الحصر.

١ - جاء في كتاب «وفاء الوفا» لمؤلّفه العالم السنّي المشهور «السمهودي» أن طلب العون والشفاعة من النّبي ﷺ أو التوسل إلى الله بجاه النّبي وشخصه جائز قبل أن يولد ﷺ وبعد ولادته ووفاته وفي عالم البرزخ وفي يوم القيامة، ثمّ ينقل «السمهودي» في هذا المجال عن عمر بن الخطاب الرواية المعروفة التي تتحدث عن توسل آدم عليه السلام إلى الله بنبي الإسلام محمّد ﷺ وذلك لعلم آدم بأنّ هذا النّبي سيأتي إلى الوجود في المستقبل، ولعلمه بالمنزلة العظيمة التي يحظى بها عند الله، فيقول آدم: «ربّ إنّي أسألك في حق محمّد لما غفرت لي»(١).

(١) وفاء الوفاء، ج ٣، ص ١٣٧١، في كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» نقل الحديث المذكور أعلاه كواحد من دلائل النبوة، ص ٢١٥.

ثمّ ينقل «السمهودي» حديثاً آخر عن جماعة من رواة الحديث كالنسائي والترمذي، وهما عالمان مشهوران من أهل السنّة، كدليل على جواز التوسل بالنّبي ﷺ في حياته وخلاصة هذا الحديث أنّ رجلاً بصيراً طلب من النّبي أن يدعو له بشفاء مريضه، فأمره النّبي ﷺ بتلاوة هذا الدعاء: «اللّهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرّحمة يا محمّد إنّي توجهت بك إلى ربّي في حاجتي لتقضى لي، اللّهم شفّعه فيّ»[(١)].

وبعد هذا الحديث ينقل «السمهودي» حديثاً ثالثاً في جواز التوسل بالنّبي ﷺ بعد وفاته، فيذكر أنّ صاحب حاجة جاء في زمن عثمان إلى قبر النّبي ﷺ، فجلس بجوار القبر ودعا الله بهذا الدعاء: «اللّهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّنا محمّد ﷺ نبيّ الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجه بك إلى ربّك أن تقضي حاجتي».

ثمّ يضيف «السمهودي» أنّه لم تمضِ فترة حتى قضيت حاجة الرجل[(٢)].

٢ - أمّا صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» الذي يعارض بشدة موضوع التوسل فهو ينقل (٢٦) حديثاً من كتب ومصادر مختلفة ينعكس منها جواز التوسل، ومع أنّه سعى في أن يطعن بأسانيد تلك الأحاديث، إلاّ أنّ الواضح أنّه متى ما كانت الروايات كثيرة - في موضوع معين لدرجة التواتر - لا يبقى عند ذلك مجال للطعن والتجريح في سند الحديث، والروايات التي وردت في المصادر الإسلامية في شأن التوسل قد تجاوزت حدّ التواتر لكثرتها.

ومن هذه الأحاديث التي رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالي: نقل ابن حجر المكي صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام الشافعي، وهو أحد أئمّة السنّة الأربعة المشهورين، أنّه كان يتوسل إلى أهل بيت النّبي ويقول:

آل النّبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أُعطى غداً بيد اليمين صحيفتي[(٣)]

وينقل صاحب كتاب «التوصل...» أيضاً عن البيهقي أنّ الجفاف أصاب المسلمين في أحد الأعوام من عهد الخليفة الثّاني، فذهب بلال ومعه عدد من الصحابة إلى قبر النّبي ﷺ وقال: «يا رسول الله استسقِ لأُمتك... فإنّهم قد هلكوا...»[(٤)].

---

(١) كتاب (وفاء الوفاء)، ج ٣، ص ١٣٧٢.
(٢) وفاء الوفاء، ص ١٣٧٣.
(٣) كتاب التوصل إلى الحقيقة، ص ٣٢٩.
(٤) كتاب التوصل إلى الحقيقة، ص ٢٥٣.

ونقل أيضاً عن ابن حجر من كتاب «الخيارات الحسان» أنّ الإمام الشافعي كان أثناء وجوده في بغداد يزور أبا حنيفة ويتوسل إليه في حوائجه[١].

ومن صحيح الدارمي ينقل صاحب كتاب «التوصل. . .» أيضاً، أنّ بعض الصحابة في المدينة اشتكوا إلى عائشة ما يعانونه من الجفاف الشديد الذي أصاب البلدة في أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوة في سقف المسجد على قبر النّبي ﷺ حتى ينزل الله المطر ببركة قبر النّبي ﷺ ففعلوا ذلك ونزل مطر غزير!

ونقل الآلوسي في تفسيره الكثير من الأحاديث والروايات الشبيهة بالأحاديث المارة الذكر، ولكنّه بعد إجراء تحليل ونقاش طويل حولها حتى إنّه تشدد في نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنّه بعد البحث الذي أجراه لا يرى مانعاً من التوسل إلى الله بمقام النّبي ﷺ سواء في حياته أو بعد وفاته، ثمّ أطال البحث في هذا المجال، وقال إنّ التوسل إلى الله بمقام غير النّبي لا مانع منه - أيضاً - شريطة أن يكون المتوسَّل به صاحب منزلة عند الله[٢].

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا نرى معه أي حاجة إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

ملاحظات ضرورية

نرى من الضروري - هنا - الإشارة إلى عدّة أُمور:

١ - لقد أسلفنا القول بأنّ التوسل ليس معناه طلب الحاجة من النّبي أو الإمام، بل المراد منه جعل النّبي أو الإمام شفيعاً إلى الله في قضاء الحاجة، وهذا الأمر - في الحقيقة - توجه إلى الله، لأن احترام النّبي ﷺ إنّما هو من أجل أنّه رسول الله والسائر على هداه، والعجب هنا أن يدعي البعض أنّ هذا التوسل نوع من الشرك، في حين أنّ المعروف عن الشرك هو القول بوجود من يشارك الله سبحانه في صفاته وأعماله، والتوسل الذي تحدثنا عنه لا صلة له بالشرك مطلقاً ولا يشابهه.

٢ - يصرّ البعض على وجود الفرق بين حياة النّبي ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام وبين وفاتهم، وكما رأيت فإنّ الكثير من الأحاديث السالفة كان يخصّ ما بعد وفاة

(١) كتاب التوصل إلى الحقيقة، ص ٣٣١.
(٢) روح المعاني، (ج ٤ - ٦)، ص ١١٤ - ١١٥.

النبي ﷺ ، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الفرد المسلم يعتقد بأنّ للنبي والصالحين بعد وفاتهم حياة برزخية أوسع من الحياة الدنيا، وقد صرّح القرآن في هذا المجال بخصوص حياة الشهداء، حيث أكّد أنّهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربّهم(١) . . . .

٣ - وأصرّ آخرون على أنّ هناك فرقاً بين طلب الدعاء من النّبي ﷺ وبين القسم على الله بجاه النّبي، فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء ولا يجيزون ما سواه، في حين لا يوجد بين هذين الأمرين أيّ فرق منطقي.

٤ - يسعى البعض من كتّاب وعلماء السنة وبالأخص «الوهابيين» منهم، وبعناد خاص، إلى ادّعاء ضعف جميع الأحاديث الواردة في موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتى الحجج الواهية.

وهؤلاء يبحثون هذا الموضوع بأُسلوب خاص يظهر من خلاله لكل ناظر محايد أنّهم اختاروا في البداية هذا الاعتقاد لأنفسهم، ثمّ يحاولون - بعد ذلك - فرضه على الرّوايات الإسلامية ويعمدون بشكل من الأشكال إلى إزاحة كل من يخالف معتقدهم هذا عن طريقهم، وهذا الأُسلوب المشوب بالعصبية ومجافاة المنطق لا يقبل به أي باحث منصف مطلقاً.

٥ - لقد بيّنا أنّ أحاديث التوسل قد وصلت بكثرتها إلى حد التواتر، أي إنّها لوفرتها تغني الباحث عن التحقيق في أسانيدها، إضافة إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الروايات والأحاديث الصحيحة، فلا يبقى بذلك لمن يريد الاعتراض على بعض الأسانيد أي مجال.

٦ - ويتبيّن ممّا قلناه سابقاً أن لا تناقض بين الروايات التي وردت في تفسير الآية الأخيرة تلك التي تقول بأن النّبي دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيلة من الله، أو ما جاء عن الإمام علي عليه السلام في كتاب «الكافي» من أنّه قال بأنّ (الوسيلة) هي أرفع وأسمى منزلة في الجنّة، فلا ينافي ما ذكرناه نحن في تفسير الآية، لأنّ الوسيلة - كما أوضحنا - تشمل كل أنواع التقرب إلى الله، وإن تقرب النّبي ﷺ إلى الله، وكذلك ما قيل عن أرفع منزلة في الجنّة، هما من مصاديق الوسيلة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

تعقيباً على الآية السابقة التي كلّفت المؤمنين بالتقوى والجهاد وإعداد الوسيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان وهما تشيران إلى مصير الكافرين، وتؤكّدان أنّهم مهما بذلوا - حتى لو كان كل ما في الأرض أو ضعفه - في سبيل إنقاذ أنفسهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك - وأنّهم سينالون العذاب الشديد، فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد وردت بنفس المضمون آية أُخرى وهي الآية (٤٧) من سورة الرعد.

ويبيّن هذا الأسلوب القرآني أقصى درجات التأكيد فيما يخص العقوبات الإلهيّة التي لا يمكن - مطلقاً - التخلّص منها بأي ثروة أو قدرة مهما بلغت، وحتى لو شملت جميع ما في الأرض أو ضعف ذلك، وإن طريق الخلاص الوحيد يكمن - فقط - في اتّباع التقوى والجهاد في سبيل الله والقيام بالأعمال الصالحة.

بعد ذلك تشيرالآية التالية إلى استمرار عذاب الله، وتوضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا على ذلك، وأنّ عذابهم ثابت وباقٍ لا يتغير، كما تقول الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وسنوافيكم بتفاصيل أكثر عن العقوبة الدائمة الأبدية، وعن خلود الكفّار في نار جهنم، لدى تفسير الآية (١٠٨) من سورة هود، بإذن الله.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ

اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَاَلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَاَللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

التّفسير

عقوبة السّرقة

لقد بيّنت آيات سابقة عقاب وحكم «المحارب» الذي يتعرض لأرواح وأموال ونواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فهي تبيّن حكم السارق والسارقة أي الفرد الذي يسرق خلسة أموال وممتلكات الناس، فتقول الآية أوّلاً: ﴿وَاَلسَّارِقُ وَاَلسَّارِقَةُ فَاَقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

وقد قدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التي ذكرت حد وعقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزاني، ولعل هذا التفاوت ناشىء عن حقيقة أنّ السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشكّلن في الغالب العامل والعنصر المحفّز للزنا!

بعد ذلك تبيّن الآية أنّ العقوبة المذكورة هي جزاء من الله لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اَللَّهِ﴾.

والحقيقة أنّ هذه الجملة القرآنية تشير:

أوّلاً: إلى أنّ العقوبة المذكورة نتيجة لعمل الشخص السارق أو السارقة وأنّها شيء اكتسبه هو لنفسه، أو هي لنفسها.

وثانياً: إلى أنّ الهدف من تنفيذ هذه العقوبة هو وقاية المجتمع وتحقيق الحق والعدل فيه لأنّ كلمة «نكال» تعني العقوبة التي تنفذ لتحقيق الوقاية وترك المعصية، وهذه الكلمة تعني في الأصل «اللجام» وتطلق أيضاً على كل عمل يحول دون حصول الانحراف.

ولكي لا يتوهم الناس وجود الإجحاف في هذه العقوبة، تؤكّد الآية - في آخرها - على أنّ الله عزيز، أي قادر على كل شيء، فلا حاجة له للانتقام من الأفراد، وهو حكيم - أيضاً - ولا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: ﴿وَاَللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أمّا الآية الثانية فهي تفتح لمن ارتكب هذه المعصية باب العودة والتوبة، فتقول: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اَللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والسؤال الوارد هنا: هل أنّ التوبة تكفي لغفران الذنب فقط، أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضاً؟

إنّ المعروف لدى فقهاء الشيعة أنّ مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقته في محكمة إسلامية يسقط عنه حدّ السرقة أيضاً، أمّا إذا شهد شاهدان عدلان على سرقته فإنّ التوبة لا تسقط عنه الحدّ.

والحقيقة أنّ التوبة - في هذه الحالة التي تطرقت إليها الآية - هي تلك التي تتمّ قبل ثبوت الجرم في المحكمة، ولولا ذلك لتظاهر كل سارق بالتوبة لدى ثبوت الجرم عليه، بغية إنقاذ نفسه من الحدّ أو العقوبة، فلا يبقى - والحالة هذه - مبرر لإجراء الحدّ عليه بعد التوبة!

وبعبارة أُخرى: إنّ التوبة الاختيارية هي تلك التي تتمّ قبل أن يثبت الجرم في المحكمة. بينما التوبة الاضطرارية هي التوبة التي تصدر من الإنسان العاصي لدى مشاهدته العذاب الإلهي، أو لدى بلوغه حالة الاحتضار، ومثل هذه التوبة لا قيمة لها مطلقاً.

ثمّ توجه الآية الأُخرى الخطاب إلى النّبي ﷺ فتقول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويجدر الانتباه هنا إلى عدّة نقاط، هي:

أ - شروط معاقبة السارق

لقد بيّن القرآن الكريم في الآيات الأخيرة التي تطرقت إلى حكم السرقة، أساس الحكم الشرعي للقضية، على عادته بالنسبة لسائر الأحكام، وقد ترك التفصيل في ذلك إلى النّبي ﷺ.

والذي يستدل من مجموع الروايات الإسلامية أن تنفيذ هذا الحد الإسلامي (أي قطع اليد) مقيد بشروط كثيرة، لا يجوز - بدون تحققها - المباشرة بإجراء الحدّ، ومن هذه الشروط:

١ - أن يكون الحدّ الأدنى لثمن الشيء المسروق مبلغ ربع دينار[1].

---

(١) الدينار الوارد في هذا الحكم يبلغ مثقالاً شرعياً من الذهب المسكوك ويعادل ثماني عشرة حبة أي ثلاثة أرباع المثقال المتعارف.

٢ - أن تتمّ السرقة من مكان محفوظ، أي أن تكون من دار أو محل للكسب أو من جيوب ومخابىء داخلية.

٣ - أن لا تكون السرقة في زمن الجفاف أو المجاعة التي يعاني الناس فيها من الجوع لعدم حصولهم على المواد الغذائية.

٤ - أن يكون السارق - أثناء ارتكابه لجريمة السرقة - بالغاً عاقلاً حرّ الإرادة.

٥ - لا يطبق حدّ السرقة في حالة سرقة الأب من مال ولده، أو الشريك من مال شريكه المخصوص بالشركة.

٦ - وقد استثنيت الفاكهة المسروقة من البساتين من حدّ السرقة.

٧ - كما استثنيت من ذلك حالة اشتباه السارق بين ماله ومال غيره.

وهناك شروط أُخرى تطرقت إليها كتب الفقه في باب السرقة.

ويجب هنا التأكيد على أنّ السرقة حرام سواء تحققت الشروط المذكورة أعلاه فيها أو لم تتحقق، وأما هذه الشروط فهي مختصة بموضوع الحدّ والعقوبة الخاصّة بالسرقة.

والسّرقة بأي شكل حصلت، ومهما كان مبلغ وثمن الشيء المسروق، حرام في الإسلام.

ب - المقدار الذي يجب قطعه من يد السّارق

لقد اشتهر لدى فقهاء الشيعة - استناداً على روايات أهل البيت عليهم السلام - أنّ حدّ السرقة يتحقق بقطع أربع من أصابع يد السارق اليمنى فقط دون زيادة، بينما قال فقهاء السنّة بأكثر من ذلك.

ج - حدّ السرقة وأقاويل أعداء الإسلام

كثيراً ما كرر أعداء الإسلام أو حتى بعض المسلمين من الذين يجهلون أسرار التشريع الإسلامي، أنّ هذه العقوبة الإسلامية تتسم بالعنف الشديد، وأنّها لو نفذت في عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أيدي الكثير من الناس، وأنّ هذا سيؤدّي بالإضافة إلى حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسة سيؤدّي إلى فضيحة الفرد طيلة حياته بسبب الأثر البارز الذي يخلّفه حد السرقة مدى العمر.

وللردّ على هذا الاعتراض يجب الانتباه إلى الحقائق التالية:

أوّلاً: لقد بيّنا فيما سبق أن حكم السرقة - وفق الشروط التي ذكرناها - لا يشمل كل

سارق، فهذا الحكم يشمل فقط تلك المجموعة من السراق الذين يشكلون خطراً على المجتمع.

ثانياً: إنّ احتمال تنفيذ عقوبة السرقة يقل نظراً للشروط الخاصّة التي يجب توفرها حتى تثبت الجريمة على المتهم بالسرقة.

ثالثاً: إنّ أكثر الاعتراضات التي يوردها الأفراد الذين يجهلون أو الذين لا يعرفون الكثير عن القوانين الإسلامية، منشؤها النظرة الأحادية الجانب التي يرون ويبحثون بها الحكم الإسلامي بعيداً عن الأحكام الأُخرى، أي إنّهم يفترضون هذا الحكم في مجتمع بعيد كل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أنّ الإسلام ليس حكماً واحداً فقط، بل يشتمل على مجموعة كبيرة من الأحكام لو طبقت في مجتمع معين لأدّت إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ومكافحة الفقر والجهل، ولأدت إلى تحقيق التعليم والتربية الصحيحين، ولنشرت الوعي والورع والتقوى بين الناس، وبهذا يتّضح لنا ندرة احتمال بروز حوادث تحتاج إلى تطبيق هذا الحكم أو العقوبة الإسلامية.

ويجب أن لا يجرنا هذا القول إلى الوهم بأنّ هذا الحكم الإسلامي لا يجب تطبيقه في المجتمعات المعاصرة، بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ كل الشروط المذكورة بنظر الاعتبار أثناء إصدار الحكم في هذا المجال.

وخلاصة القول: إنّ الحكومة الإسلامية مكلّفة بأن توفّر لكل أفراد الأُمّة احتياجاتها الأولية وأن توفّر لهم التعليم اللآزم، وتربّي فيهم الملكات والخصال الفاضلة الخيّرة، وتحسن إعدادهم من الناحية الأخلاقية، وطبيعي أنّه إذا حصل هذا الأمر فلا يظهر في محيط كهذا إلاّ القليل النادر ممن يرتكبون مخالفة أو جريمة.

رابعاً: إنّ ما نلاحظه اليوم من ارتفاع في عدد السرقات ناجم عن عدم تطبيق هذا الحكم الإسلامي، بينما يندر في البيئات التي تطبق هذا الحكم بروز مثل هذه الحوادث، فهي تتمتع بوضع أمني جيد فيما يخص حماية أموال الناس، فزوار بيت الله الحرام كثيراً ما تركوا حقائبهم في الأزقة والطرقات دون عين تحرسها فلم يجرؤ أحد على مد يده إليها إلى أن يأتي موظفو ادارة المفقودات ويحملوها إلى الادارة حتى يأتي صاحبها ويستردها بعد ذكر العلامات الخاصّة، وأغلب المحلات تفتقد إلى الأبواب والمغاليق الكافية، وفي هذا الحال لا تمتد يد سارق نحوها. أو أنهم إذا فقدوا شيئاً ثمّ راجعوا لذلك إدارة المفقودات وجدوه عندها.

والأمر الملفت للنظر أنّ هذا الحكم الإسلامي - وعلى الرغم من تطبيقه لعدّة قرون، حيث كان المسلمون ومنذ عصر صدر الإسلام يعيشون آمنين مطمئنين في ظله - لم ينفذ طيلة تلك الفترة إلاّ في حق عدد قليل من الأفراد.

فهل يعتبر قطع عدد من الأيدي الآثمة لكي ينعم المجتمع لقرون عديدة بالأمن ثمناً غالياً لهذا الأمن؟!

د - اعتراضات أُخرى

يقول البعض: إنّ تنفيذ حدّ أو عقوبة السرقة في سارق من أجل ربع دينار يعتبر منافياً للاحترام الفائق الذي يفرضه الإسلام لحياة الإنسان المسلم وحمايتها من كل خطر، بحيث إنّ الإسلام فرض دية باهظة مقابل قطع أربع أصابع من يد أي إنسان، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلى العالم الإسلامي الكبير الشريف المرتضى علم الهدى قبل حوالى ألف سنة، وجاء السؤال في البيت التالي:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟[(١)]

فأجاب السّيد المرتضى رحمه الله ببيت آخر هو:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري[(٢)]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(١) يجب الإنتباه إلى أنّ الخمسمائة دينار إنّما تدفع دية قطع خمس أصابع، وقد أسلفنا أنّ المذهب الشيعي يرى عقوبة السارق في قطع أربع أصابع من اليد.

(٢) ذكر هذه الحادثة الآلوسي في تفسيره، ج ٣، ص ٦، لكنّه ذكر اسم (علم الدين السخاوي) بدل اسم (علم الهدى).

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

سبب النّزول

وردت روايات عديدة في سبب نزول هاتين الآيتين أوضحها ما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا المجال، وخلاصة ذلك أنّ أحد وجهاء اليهود في منطقة خيبر كان متزوجاً، فارتكب عملاً مخالفاً للعفة مع امرأة متزوجة من عائلة خيبرية مشهورة، فاغتم اليهود كيف ينفّذون حكم التّوراة (الرجم) في وجيههم ذلك وفي شريكته في الذنب، فأخذوا يبحثون عن حلّ لهذه المعضلة لينقذوهما من العقوبة المذكورة، وفي نفس الوقت ليظهروا التزامهم بالأحكام الإلهيّة، ودفعهم هذا الأمر إلى الاستعانة بأبناء طائفتهم الموجودين في المدينة المنورة، وطلبوا منهم أن يسألوا النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم عن حكم هذه الحادثة فإذا كان الحكم بسيطاً وخفيفاً أخذوا به، وإذا كان شديداً تجاهلوه وتناسوه، ولعلّهم أرادوا بسؤالهم ذلك أن يلفتوا انتباه نبيّ الإسلام إلى أنفسهم وليظهروا أنفسهم بأنّهم أصدقاء للمسلمين.

ولهذا الغرض توجّه عدد من وجهاء يهود المدينة للقاء النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فسألهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إن كانوا سيقبلون بكل حكم يصدره، فأجابوه بأنّهم قدموا إليه لهذا السبب! فنزل في تلك الأثناء حكم رجم مرتكب الزنا مع المرأة المحصنة، لكن اليهود لم يبدوا استعداداً لقبول هذا الحكم، بدعوى أنّ ديانتهم تخلو من مثله، فردّ عليهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ هذا الحكم هو نفس الحكم الذي عندهم في التّوراة، وسألهم إن كانوا يقبلون بحضور أحد علمائهم ليتلو عليهم حكم التّوراة في تلك القضية ليأخذوا به، فوافقوا على ذلك، فسألهم النّبي عن رأيهم في العالم اليهودي (ابن صوريا) الذي كان يقطن منطقة (فدك) فأجابوه بأنّه خير من يعرف التّوراة من اليهود.

فبعث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا العالم، فلمّا قدم عنده أقسم عليه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالله الواحد الأحد الذي أنزل التّوراة على موسى وفلق البحر لإنقاذ بني إسرائيل وأغرق عدوّهم فرعون وأنزل عليهم نعمه في صحراء سيناء، أن يصدق القول إن كان حكم الرجم قد

نزل في التّوراة في مثل تلك الواقعة أم لم ينزل؟ فأجاب العالم اليهودي (ابن صوريا) بأنّه مرغم بسبب القسم الذي أقسمه للنّبي أن يقول الحقيقة ويعترف بوجود حكم الرجم في التّوراة.

فسأل النّبي ﷺ اليهود عن سبب إحجامهم عن تطبيق الحكم المذكور، فأجاب (ابن صوريا) بأنّهم كانوا يطبّقون هذا الحكم في حقّ العامّة من أبناء طائفتهم ويصونون الأثرياء والوجهاء منهم من تنفيذ هذا الحكم في حقّهم، فأدّى هذا التهاون إلى انتشار الخطيئة المذكورة بين أثرياء اليهود حتى بادر إلى ارتكابها ابن عمّ لأحد رؤساء الطائفة، فلم يطبّق في حقّه الحكم الشرعي بحسب العادة المتّبعة لديهم، وصادف في نفس ذلك الوقت أن ارتكب نفس الخطيئة أحد عامّة الناس من أبناء الطائفة، فأرادوا تطبيق حكم الرجم في حقّه لكن أقاربه اعترضوا على ذلك، وقالوا: إذا كان لابدّ من تنفيذ هذا الحكم فيجب أن ينفّذ في حق الاثنين (الوجيه اليهودي والشخص الآخر العادي)، فعمد عند ذلك علماء الطائفة إلى سنّ حكم أخف من الرجم وهو أن يجلد الزناة ٤٠ جلدة وتسوَّد وجوههم ويركبوا دابّة ويطاف بهم في أزقّة وأسواق المنطقة!

فأمر النّبي محمّد ﷺ على الفور أن يرجم ذلك الرجل الوجيه والمرأة الثريّة أمام المسجد[١] وأشهد الله في ذلك الحين على أنّه هو أوّل شخص يحيي حكم الله بعد أن أماته اليهود.

في تلك الأثناء نزلت الآيتان محل البحث وتحدّثتا عن القضية المذكورة بالإيجاز[٢].

التّفسير

التّحكيم بين الأنصار والأعداء

تدلّ هاتان الآيتان والآيات التي تليهما، على أنّ للقاضي المسلم الحق - في ظلّ شروط خاصّة - في الحكم في جرائم الطوائف الأُخرى من غير المسلمين، وسيأتي شرح هذا الموضوع في تفسير نفس هذه الآيات.

لقد بدأت الآية الأُولى الخطاب بعبارة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ وقد وردت هذه العبارة في

---

(١) ذكرت الرّوايات التي جاء بها (البيهقي) في الجزء الثامن من سننه، ص ٢٦٦ أنّ علماء اليهود حين قدموا إلى النّبي كانوا قد جلبوا معهم الرجل والمرأة الزانيين.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٣٣ و ٣٣٤، ذيل الآية مورد البحث.

مكانين من القرآن: أوّلهما في الآية موضع البحث، والثّاني في الآية (٦٧) من نفس هذه السورة والتي تتعرّض لقضية الولاية والخلافة، وربّما جاء استخدام هذا التعبير من أجل إثارة أكثر لدافع الشعور بالمسؤولية لدى النّبي ﷺ وتعزيز إرادته، ومخاطبته بأنّه هو رسول الله، وعليه أن يستقيم ويصمد في إبلاغ الحكم المكلّف به.

بعد ذلك تُطمئن الآية النّبي ﷺ - كتمهيد لبيان الحكم التالي - فتقول: ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾. ويرى البعض أنّ عبارة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تختلف عن عبارة «يسارعون إلى الكفر» وذلك لأنّ العبارة الأُولى تقال في شأن أفراد كافرين غارقين في كفرهم، ويتسابقون فيما بينهم للوصول إلى آخر مرحلة من الكفر، أمّا العبارة الثّانية فتقال في من يعيشون خارج حدود الكفر لكنّهم يتسابقون للوصول إليه[١].

وبعد أن تذكر الآية تجاوزات المنافقين والأعداء الداخليين، تتناول وضع الأعداء الخارجيين واليهود الذين كانوا سبباً لحزن النّبي ﷺ فتقول الآية: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

ثمّ تشير الآية إلى قسم من تصرّفات هؤلاء المشوبة بالنفاق والرياء، فتؤكّد أنّهم إنّما يستمعون كلام النّبي لا لأجل إطاعته، بل لكي يجعلوا من ذلك وسيلة لتكذيب النّبي والافتراء عليه حيث تقول الآية: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

ولهذه الجملة القرآنية تفسير آخر، هو أنّ هؤلاء اليهود يستمعون كثيراً إلى أكاذيب قادتهم وزعمائهم، لكنّهم لا يبدون استعداداً لاستماع قول الحق والإذعان له[٢].

ثمّ تفضح الآية الصفة الثالثة لليهود، فتبيّن أنّهم يتجسّسون على المسلمين لمصلحة قوم آخرين ممّن لا يحضرون الاجتماعات الإسلامية التي تعقد في مجلس النّبي ﷺ فتقول الآية: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾.

وفي تفسير آخر لهذه الجملة قيل إنّ هؤلاء اليهود كانوا يستمعون إلى أوامر جماعتهم - فقط - وقد كلّفهم قومهم بأن يقبلوا ما وافق أهواءهم من أقوال النّبي ﷺ، وأن يخالفوا أو يرفضوا ما كان عكس ذلك من أقواله ﷺ، وبناء على هذا السلوك فإنّ ما

---

(١) المنار، ج ٦، ص ٣٨٨.
(٢) في التفسير الأوّل تكون اللام في عبارة (للكذب) لام التعليل بينما في التّفسير الثّاني فهي لام التعدية.

كان يظهر من طاعة هؤلاء لبعض أقوال النبي ﷺ لم يكن في الحقيقة إلاّ طاعة منهم لأقوال كبارهم ووجهائهم الذين أمروهم باتّباع هذا الأسلوب، ولذلك أشارت الآية على النّبي ﷺ أن لا يحزن لمخالفات هؤلاء، فهم لم يحضروا عنده أبداً من أجل الاستماع إلى الحقّ واتّباعه!

ثمّ تذكر الآية انحرافاً آخر لهؤلاء اليهود، فتشير إلى تحريفهم لكلام الله سبحانه وتعالى من خلال تحريف الألفاظ أو تحريف المعاني الواردة في هذا الكلام، فهم إن وجدوا في كلام الله حكماً يخالف مصالحهم أوّلوه أو رفضوه جملة وتفصيلاً، كما تقول الآية: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾(١).

والأعجب من ذلك أنّ هؤلاء قبل أن يحضروا مجلس النّبي كانوا يقررون كما يأمرهم كبارهم أنّهم إن تلقّوا من محمّد ﷺ حكماً موافقاً لميولهم وأهوائهم قبلوا به، وإن كان مخالفاً لهوى أنفسهم ردّوه وابتعدوا عنه، تقول الآية الكريمة: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾.

فهؤلاء قد غرقوا في الضلال وتحجّرت عقولهم لغاية أنّهم كانوا يرفضون كلّ شيء يخالف ما عندهم من أحكام محرّفة، دون أن يبذلوا جهداً أو عناء في التفكير لمعرفة الحقيقة، وقد أبعدتهم هذه الحالة عن طريق الرشاد وأخرجتهم من جادة الصواب، بحيث لم يبق أمل في هدايتهم، فاستحقوا بذلك عذاب الله، ولم تعد تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وقد تدنّست قلوب هؤلاء إلى درجة لم تعد قابلة للتطهير، وحرمهم الله لذلك طهارة القلوب، فتقول الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ وعمل الله مقرون بالحكمة دائماً، لأنّ من يقضي عمراً في الانحراف ويمارس النفاق والكذب ويخالف الحق ويرفض الحقيقة، ويحرف قوانين الله لن يبقى له مجال للتوبة والعودة إلى الحق، حيث تقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أمّا الآية الثّانية فتؤكّد - مرّة أُخرى - على أنّ هؤلاء لديهم آذان صاغية لاستماع حديث النّبي ﷺ لا لإطاعته بل لتكذيبه، أو كما يقول تفسير آخر فإنّ هؤلاء آذانهم صاغية لاستماع أكاذيب كبارهم، فتقول الآية: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وقد تكررت هذه

(١) تحدّثنا عن أساليب التحريف التي اتّبعها اليهود في تفسير الآية (١٣) من نفس هذه السورة.

الجملة في آيتين متتاليتين تأكيداً وإثباتاً لوجود هذه الصفة الشنيعة في هؤلاء.

كما أضافت الآية صفة شنيعة أُخرى اتّصف بها اليهود، وهي تعوّدهم وإدمانهم على أكل الأموال المحرّمة والباطلة من الرّبا والرّشوة وغير ذلك، حيث تقول الآية: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾(١).

ثمّ تخيّر الآية النّبي بين أن يحكم بينهم أو أن يتجنبهم ويتركهم، حيث تقول الآية: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ ولا يعني التخيير أن يستخدم النّبي ﷺ ميله ورغبته في اختيار أحد الأمرين المذكورين، بل إنّ المراد من ذلك هو أن يراعي النّبي الظروف والملابسات المحيطة بكل حالة، فإن رأى الوضع يقتضي الحكم بينهم حكم، وإن رأى خلاف ذلك تركهم وأعرض عنهم.

ولكي تعزز الآية الاطمئنان في نفس النّبي ﷺ - إن هو ارتأى الإعراض عن هؤلاء لمصلحة - أكّدت قائلة: ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ...﴾.

كما أكّدت ضرورة اتّباع العدل وتطبيقه إذا كانت الحالة تقتضي أن يحكم النّبي بين هؤلاء فقالت الآية: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في قضية تخيير النظام الإسلامي بين الحكم في غير المسلمين بأحكام الإسلام أو الإعراض عنهم، وهل أنّ هذا التّخيير باقٍ على قوّته أو أنّه أصبح منسوخاً؟

ويرى البعض أنّ الناس في ظلّ الحكم الإسلامي مشمولون من الناحيتين الحقوقية والجزائية بالقوانين الإسلامية، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين. وبناء على هذا الرأي فإنّ حكم التأخير إمّا أن يكون منسوخاً وإمّا أنّه يخصّ غير الكفّار الذميين، أي يخصّ أُولئك الكفّار الذين لا يعيشون في ظلّ حكم إسلامي، بل يرتبطون بالمسلمين باتفاقيات أو مواثيق، أو يكون بينهم علاقات ودّ وتزاور.

ويعتقد مفسّرون آخرون أنّ الحاكم المسلم يكون مخيّراً - حتى في الوقت الحاضر - لدى التعامل مع غير المسلمين، فهو إمّا أن يطبّق فيهم الأحكام الإسلامية إذا اقتضت

(١) تعني كلمة (سحت) في الأصل نزع القشرة، أو شدّة الجوع، ثمّ أُطلقت على كلّ مال غير مشروع، أي محرّم، وبالأخص الرشوة، لأنّ مثل هذه الأموال تنزع الصفاء والمودّة عن المجتمع وتزيل عنه البركة والرخاء مثلما يؤدّي نزع قشر الشجرة إلى ذبولها وجفافها وعلى هذا الأساس فإنّ لكلمة (سحت) معنى واسعاً، وإذا ورد في بعض الرّوايات مصداق خاص لها فلا يدل ذلك على اختصاص الكلمة بذلك.

الضرورة والمصلحة ذلك، وإمّا أن يعرض عنهم ويحيلهم إلى قوانينهم الخاصّة بهم، بحسب ظروف وملابسات كل حالة (للاطلاع أكثر على تفاصيل هذا الحكم تراجع كتب الفقه).

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التّفسير

تتابع هذه الآية موضوع الحكم بين اليهود الذي تطرّقت إليه الآيتان السابقتان، اللتان بيّنتا أنّ اليهود كانوا يأتون إلى النّبي ﷺ ويطلبون منه الحكم فيهم، وقد أظهرت هذه الآية الأخيرة الاستغراب من حالة اليهود الذين كانوا مع وجود التّوراة بينهم، واحتوائها على حكم الله، يأتون إلى النّبي محمّد ﷺ ويطلبون منه الحكم فيهم فتقول: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾.

ويجب الانتباه إلى أنّ المقصود من الحكم في الآية هو حكم الرجم للزاني المحصن من الرجال والنساء والذي ورد في التّوراة أيضاً، في سفر التثنية الفصل الثّاني والعشرين[1].

والعجيب في أمر هؤلاء اليهود أنّهم مع وجود التّوراة بينهم وعدم اعترافهم بنسخها من قبل القرآن ورفضهم للشريعة الإسلامية، كانوا حين يرون حكماً في التّوراة لا يوافق ميولهم وأهواءهم يتركون ذلك الحكم ويبحثون عن حكم آخر في مصادر لم يقرّوا ولم يعترفوا بها.

والأعجب من ذلك أنّهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبي الإسلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقاً لحكم التّوراة لكنّه لم يوافق ميولهم ورغباتهم حيث تقول الآية: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ وما ذلك إلاّ لأنّ هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين في الحقيقة، ولو كانوا مؤمنين لما استهزأوا هكذا بأحكام الله، حيث تؤكّد الآية قائلة: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) القاموس المقدس، سفر التثنية، باب ٢٢، رقم ٢٢.

وقد يرد اعتراض في هذا المجال وهو: إنّ الآية الشريفة تقرّ بوجود حكم الله في التّوراة ونحن نعلم عن طريق القرآن والرّوايات الإسلامية، بأنّ التّوراة قد أصابها التحريف قبل ظهور نبي الإسلام محمّد ﷺ؟

إنّ جوابنا على هذا الاعتراض أنّنا **أوّلاً**: لا نقول بأنّ التحريف قد أصاب التّوراة كلّها، بل نقرّ بوجود أحكام في التّوراة تطابق الحقيقة والواقع، وحكم الرجم - الذي هو موضوع بحثنا الآن - من الأحكام التي لم تصبها يد التحريف في التّوراة.

ثانياً: إنّ التّوراة مهما كان حالها لا يعتبرها اليهود كتاباً محرّفاً، ولذلك فإنّ الغرابة هنا تكمن في رفض اليهود العمل بحكم الله مع وجوده في توراتهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

إنّ هذه الآية والآية التي تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد في الآيات السابقة، وتبيّن هذه الآية أهميّة الكتاب السماوي الذي نزل على النّبي موسى عليه السلام أي التّوراة، حيث تشير إلى أنّ الله أنزل هذا الكتاب وفيه الهداية والنّور اللذان يرشدان إلى الحق، وأنّ النّور والضياء الذي فيه هما لإزاحة ظلمات الجهل من العقول فتقول الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

ولذلك فإنّ الأنبياء الذين أطاعوا أمر الله، والذين تولّوا مهامهم بعد نزول التّوراة كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآية الكريمة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾.

كما أنّ علماء اليهود ووجهاءهم ومفكّريهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هذا الكتاب السماوي الذي حصل أمانة في أيديهم وكانوا شهوداً عليه، حيث تقول الآية: ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[1].

(١) لقد تطرّقنا إلى معنى كلمة (رباني) ومصدرها لدى تفسير الآية (٨٠) من سورة آل عمران، أمّا كلمة=

ثمّ توجّه الآية الخطاب إلى أُولئك العلماء والمفكّرين من اليهود الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام الله، بل عليهم أن يخافوا الله، فلا تسوّل لهم أنفسهم مخالفة أوامره أو كتمان الحق، وإن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء والعقاب، فتقول الآية هنا: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

ثمّ تحذّر الآية من الاستهانة والاستخفاف بآيات الله، فتقول: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

وحقيقة كتمان الحق وأحكام الله نابعة إمّا عن الخوف من الناس، وإمّا بدافع المصلحة الشخصية، وأيّاً كان السبب فهو دليل على ضعف الإيمان وانحطاط الشخصية، وقد أشير في الجمل القرآنية المذكورة إلى هذين السببين.

وتصدر الآية حكماً صارماً وحازماً على مثل هؤلاء الأفراد الذين يحكمون خلافاً لما أنزل الله فتقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وواضح أنّ عدم الحكم بما أنزل الله يشمل السكوت والابتعاد عن حكم الله الذي يؤدّي بالناس إلى الضلال، كما يشمل التحدّث بخلاف حكم الله.

وواضح - أيضاً - أنّ للكفر مراتب ودرجات مختلفة، يبدأ من إنكار أساس وجود الله ويشمل عصيان أوامره، لأنّ الإيمان الكامل يدعو ويحثّ الإنسان على العمل وفق أوامر الله، ومن لا عمل له فليس له إيمان كامل.

وتبيّن هذه الآية - أيضاً - المسؤولية الكبرى التي يتحمّلها علماء ومفكّرو كل أُمّة حيال العواصف الاجتماعية، والأحداث التي تقع في بيئاتهم، وتدعو بأسلوب حازم لمكافحة الانحرافات وعدم الخوف من أيّ بشر - كائناً من كان - لدى تطبيق أحكام الله.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾

= (أحبار) فهي صيغة جمع من (حبر) على وزن (فكر) وتعني كلّ أثر خير، أُطلقت على المفكّرين الذين يخلفون آثاراً خيّرة في مجتمعهم، وتُطلق أيضاً على حبر الدواة الذي يستعمل للكتابة لما فيه من أثر خير.

التّفسير

القصاص والعفو

تشرح هذه الآية الكريمة قسماً آخر من الأحكام الجنائية والحدود الإلهيّة التي وردت في التّوراة، فتشير إلى ما ورد في هذا الكتاب السماوي من أحكام وقوانين تخصّ القصاص، وتبيّن أنّ من يقتل إنساناً بريئاً فإنّ لأولياء القتيل حقّ القصاص من القاتل بقتله، نفساً بنفس. حيث تقول الآية في هذا المجال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

كما بيّنت أنّ من يصيب عين إنسان آخر ويتلفها، يستطيع هذا الإنسان المتضرر في عينه أن يقتصّ من الفاعل ويتلف عينه، إذ تقول الآية في هذا المجال: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾.

وكذلك الحال بالنسبة للأنف والأذن والسن والجروح الأُخرى، ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

وعلى هذا الأساس فإنّ حكم القصاص يطبّق بشكل عادل على المجرم الذي يرتكب إحدى الجرائم المذكورة، دون الالتفات إلى عنصره أو قوميّته أو طبقته الاجتماعية أو طائفته، ولا مجال أبداً لاستخدام التمايز القومي أو الطبقي أو الطائفي لتأخير تطبيق حكم القصاص على الجاني.

وبديهي أنّ تطبيق حكم القصاص على المعتدي شأنه شأن الأحكام الإسلامية الأُخرى، مقيّد بشروط وحدود ذكرتها كتب الفقه، ولا يختصّ هذا الكلام ولا ينحصر ببني إسرائيل وحدهم، لأنّ الإسلام - أيضاً - جاء بنظيره كما ورد في آية القصاص في سورة البقرة - الآية (١٧٨).

وقد أنهت هذه الآية التمايز غير العادل الذي كان يمارس في ذلك الوقت حيث ذكرت بعض التفاسير أنّ تمايزاً غريباً كان يسود بين طائفتين من اليهود، هما بنو النضير وبنو قريظة الذين كانوا يقطنون المدينة المنورة في ذلك العصر، لدرجة أنّه إذا قتل أحد أفراد طائفة بني النضير فرداً آخر من طائفة بني قريظة فالقاتل لا ينال القصاص، بينما في حالة حصول العكس فإنّ القاتل الذي كان من طائفة بني قريظة كان ينال القصاص إن هو قتل واحداً من أفراد طائفة بني النضير.

ولمّا امتد نور الإسلام إلى المدينة سأل بنو قريظة النّبي ﷺ عن هذا الأمر، فأكّد النّبي ﷺ أن لا فرق في الدماء بين دم ودم... فاعترضت قبيلة بني النضير على حكم النّبي محمّد ﷺ وادّعت أنّ حكمه يحطّ من شأنهم، فنزلت الآية الأخيرة وبيّنت أنّ هذا الحكم غير مختصّ بالإسلام، بل حتى الديانة اليهودية أوصت بتطبيق قانون القصاص بصورة عادلة(١).

ولكي لا يحصل وَهْمٌ أنّ القصاص أو المقابلة بالمثل أمر إلزامي لا يمكن الحيدة عنه، استدركت الآية بعد ذكر حكم القصاص فبيّنت أنّ الذي يتنازل عن حقّه في هذا الأمر ويعفو ويصفح عن الجاني، يعتبر عفوه كفّارة له عن ذنوبه بمقدار ما يكون للعفو من أهمية ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ...﴾(٢).

ويجب الانتباه إلى أنّ الضمير الوارد في كلمة (به) يعود على القصاص، وكأنّ الآية جعلت التصدّق بالقصاص عطية أو منحة للجاني واستخدام عبارة «التصدق» والوعد الذي قطعه الله للمتصدّق، يعتبر عاملاً محفّزاً على العفو والصفح، لأنّ القصاص لا يمكنه أن يعيد للإنسان ما فقده مطلقاً، بل يهبه نوعاً من الهدوء والاستقرار النفسي المؤقت، بينما العفو الذي وعد به الله للمتصدّق، بإمكانه أن يعوّضه عمّا فقده بصورة أُخرى، وبذلك يزيل عن قلبه ونفسه بقايا الألم والاضطراب، ويعتبر هذا الوعد خير محفّز لمثل هؤلاء الأشخاص.

وقد ورد عن الحلبي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام (الإمام الصادق) عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: «يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا»(٣).

وتعتبر هذه الجملة القرآنية في الحقيقة خير جواب مفحم للذين يزعمون أنّ القصاص ليس بقانون عادل، ويدّعون أنّه يشجّع روح الانتقام والمثلة.

والذي يفهم من الصياغة العامّة للآية أنّ جواز القصاص إنّما هو لإخافة وإرعاب

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢١٨٨.

(٢) لقد أورد الكثير من المفسّرين احتمالاً آخر، وهو أنّ الضمير الوارد في كلمة «له» يعود على شخص الجاني، بحيث يصبح المعنى أنّ الذي يتنازل عن حقه يرفع بذلك القصاص عن الجاني ويكون ذلك كفارة لعمل الجاني، إلاّ أنّ ظاهر الآية يدل على التّفسير الذي أشرنا إليه أعلاه.

(٣) أصول الكافي، ج ٧، ص ٣٥٨؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٣٧.

الجناة وبالنتيجة لضمان الأمن لأرواح الناس الأبرياء، كما أنّ الآية فتحت باب العفو والتوبة، وبذلك أراد الإسلام أن يحول دون ارتكاب مثل هذه الجرائم باستخدام الروادع والحوافز كالخوف والأمل، كما استهدف الإسلام من ذلك - أيضاً - الحيلولة دون الانتقام للدم بالدم بقدر الإمكان، إذا استحق الأمر ذلك.

وفي الختام تؤكّد الآية قائلة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وأيّ ظلم أكبر من الانجرار وراء العاطفة الكاذبة، وترك القاتل دون أن ينال قصاصه العادل بحجّة أنّ الدم لا يُغسل بالدم، وفسح المجال أمام القتلة للتمادي بارتكاب جرائم قتل أُخرى، وبالنهاية الإساءة عبر هذا التغاضي إلى أفراد أبرياء، وممارسة الظلم في حقّهم نتيجة لذلك.

ويجب الانتباه إلى أنّ التّوراة المتداولة حالياً قد اشتملت على هذا الحكم أيضاً، وذلك في الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج، حيث جاء فيها أنّ النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن واليد باليد والرجل بالرجل والحرق بالحرق والجرح بالجرح والصفعة بالصفعة (سفر الخروج، الجمل ٢٣ و٢٤ و٢٥).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

بعد الآيات التي تحدّثت عن التّوراة جاءت هذه الآية، وهي تشير إلى حال الإنجيل وتؤكّد بعثة ونبوّة المسيح عليه السلام بعد الأنبياء الذين سبقوه، وتطابق الدلائل التي جاء بها مع تلك التي وردت في التّوراة، حيث تقول الآية: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ولهذه الجملة القرآنية تفسير آخر وهو أنّ عيسى المسيح عليه السلام قد أقرّ بحقيقة كلّ ما نزل في التّوراة على النّبي موسى عليه السلام كإقرار جميع الأنبياء عليهم السلام بنبوّة من سبقوهم من الأنبياء، وبعدالة ما جاءوا به من أحكام.

ثمّ تشير الآية الكريمة إلى إنزال الإنجيل على المسيح عليه السلام وفيه الهداية والنّور فتقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وقد أُطلق اسم النّور في القرآن المجيد على

التّوراة والإنجيل والقرآن نفسه، حيث نقرأ بشأن التّوراة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(١).

وأمّا الإنجيل فقد وصفته هذه الآية الشريفة بصفة النور..

والقرآن - أيضاً - حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

فكما أنّ النّور يعتبر - في الحقيقة - ضرورة حتمية لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها، كذلك تكون الأديان الإلهيّة والشرائع والكتب السماوية ضرورة حتمية لنضوج وتكامل بني الإنسان.

وقد ثبت من حيث المبدأ أنّ مصدر كل الطاقات والقوى والحركات وكل أنواع الجمال هو النّور، فكذلك الحال في تعليمات الأنبياء وإرشاداتهم، فلولاها لساد الظلام كل القيم الإنسانية سواء الفردية منها أو الاجتماعية، وهذا ما نلاحظه في المجتمعات المادية بكلّ وضوح.

لقد كرر القرآن الكريم في مجالات متعددة أنّ التّوراة والإنجيل كتابان سماويان، ومع أنّ هذين الكتابين - دون شك - منزلان في الأصل من قبل الله سبحانه وتعالى، لكنّهما - بالتأكيد - قد تعرّضا بعد حياة الأنبياء إلى التحريف، فحذفت منهما حقائق وأُضيفت إليهما خرافات، وأدّى ذلك إلى أن يفقدا قيمتهما الحقيقية، أو أنّ الكتب الأصلية تعرّضت للنسيان والتجاهل وحلّت محلّها كتب أُخرى حوت على بعض الحقائق من الكتب الأصلية(٣).

وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة النّور التي أُطلقت في القرآن الكريم على هذين الكتابين، إنّما عنت التّوراة والإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآية التأكيد على أنّ عيسى عليه السلام لم يكن وحده الذي أيّد وصدّق التّوراة، بل إنّ الإنجيل - الكتاب السماوي الذي نزل عليه - هو الآخر شهد بصدق التّوراة حيث تقول الآية: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤. (٢) سورة المائدة، الآية: ١٥.

(٣) راجع كتابي «الهدى إلى دين المصطفى» و«أنيس الأعلام» لمعرفة تفاصيل التحريف الوارد في الإنجيل والدلائل التّاريخية على ذلك.

وفي الختام تؤكّد الآية أنّ هذا الكتاب السماوي قد حوى سبل الرشاد والهداية والمواعظ للناس المتقين، حيث تقول: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وتشبه هذه العبارة، عبارة أُخرى وردت في بداية سورة البقرة، حين كان الحديث يدور عن القرآن الكريم، حيث جاء قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

إنّ هذه الصفة لا تنحصر في القرآن وحده، بل إنّ كلّ الكتب السماوية تحتوي على سبل الهداية للناس المؤمنين المتقين، والمراد بالمتقين أُولئك الذين يبحثون عن الحق والحقيقة والمستعدون لقبول الحق، وبديهي أنّ الذين يغلقون أبواب قلوبهم إصراراً وعناداً في وجه الحق، لن ينتفعوا بأيّ حقيقة أبداً.

والملفت للنظر في هذه الآية أيضاً، أنّها ذكرت أوّلاً أنّ الإنجيل (فيه هدى) ثمّ كررت الآية كلمة (هدى) بصورة مطلقة، وقد يكون المراد من هذا الاختلاف في التعبير بيان أنّ الإنجيل والكتب السماوية الأُخرى تشتمل على دلائل الهداية للناس - جميعاً - بصورة عامّة، ولكنّها بصورة خاصّة، تكون باعثاً لهداية وتربية وتكامل الأتقياء من النّاس الذين يتفكّرون فيها بعمق وتدبّر.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

التّفسير

الامتناع عن الحكم بالقانون الإلهي

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى نزول الإنجيل، أكّدت هذه الآية - محل البحث - أنّ حكم الله يقضي أن يطبّق أهل الإنجيل ما أنزله الله في هذا الكتاب من أحكام، فتقول الآية: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ...﴾.

وبديهي أنّ القرآن لا يأمر بهذه الآية المسيحيين أن يواصلوا العمل بأحكام الإنجيل في عصر الإسلام، ولو كان كذلك لناقض هذا الكلام الآيات القرآنية الأُخرى، بل لناقض أصل وجود القرآن الذي أعلن الدين الجديد ونسخ الدين القديم، لذلك فالمراد أنّ المسيحيين تلقّوا الأوامر من الله بعد نزول الإنجيل بأن يعملوا بأحكام هذا الكتاب

وأن يحكّموها في جميع قضاياهم[١].

وتؤكّد هذه الآية - في النهاية - فسق الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل الله من أحكام وقوانين فتقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

ويلفت النظر إطلاق كلمة «الكافر» مرّة و«الظّالم» أُخرى و«الفاسق» ثالثة، في الآيات الأخيرة على الذين يمتنعون عن تطبيق أحكام الله، ولعلّ هذا التنوّع في إطلاق صفات مختلفة إنّما هو لبيان أنّ لكلّ حكم جوانب ثلاثة:

أحدها: ينتهي بالمشرّع الذي هو الله.

والثّاني: يمسّ المنفّذين للحكم (الحاكم أو القاضي).

الثّالث: يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبّق عليهم الحكم.

أي إنّ كل صفة من الصفات الثلاث المذكورة قد تكون إشارة إلى واحد من الجوانب الثلاثة، لأنّ الذي لا يحكم بما أنزل الله يكون قد تجاوز القانون الإلهي وتجاهله، فيكون قد كفر بغفلته هذه، ومن جانب آخر ارتكب الظلم والجور - بابتعاده عن حكم الله - على إنسان بريء مظلوم، وثالثاً: يكون قد خرج عن حدود واجباته ومسؤوليته، فيصبح بذلك من الفاسقين (لأنّ «الفسق» كما أوضحنا، يعني الخروج عن حدود العبودية والواجب).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

التّفسير

تشير هذه الآية إلى موقع القرآن بعد أن ذكرت الآيات السابقة الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء السابقين.

---

(١) إنّ الحقيقة التي أكّدها الكثير من المفسّرين هي أنّ جملة «قلنا» تكون مقدرة هنا في هذه الآية حيث يصبح مفهوم الآية كما يلي: «قلنا ليحكم أهل الإنجيل...».

وكلمة «مهيمن» تطلق في الأصل على كل شيء يحفظ ويراقب أو يؤتمن على شيء آخر ويصونه، ولمّا كان القرآن الكريم يشرف في الحفاظ على الكتب السماوية السابقة وصيانتها من التحريف إشرافاً كاملاً، ويكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث تقول الآية: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماوية السابقة، اشتمل - أيضاً - على دلائل تتطابق مع ما ورد في تلك الكتب، فكان بذلك حافظاً وصائناً لها.

إنّ الكتب السماوية جاءت كلّها متناسقة في المبادىء والهدف الواحد الذي تبنّى تربية الإنسان والسمو به إلى مراتب الكمال المعنوي والمادي، على الرغم من الفوارق الموجودة بين هذه الكتب والتي تنبع من مقتضى التكامل التدريجي للإنسان، حيث إنّ كلّ شرعة جديدة ترتقي بالإنسان إلى مرحلة أسمى من مراحل الرقي والكمال الإنساني، وتشتمل على خطط وبرامج أكثر شمولاً وتطوّراً، والإتيان بعبارة: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ بعد جملة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يدلّ على هذه الحقيقة، أي أنّ القرآن في الوقت الذي يصدّق الكتب السابقة، يأتي في نفس الوقت ببرامج وخطط أكثر شمولاً للحياة.

ثمّ تؤكّد على النّبي ﷺ - انطلاقاً من الحقيقة المذكورة - ضرورة الحكم بتعاليم وقوانين القرآن بين الناس، حيث تقول ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وقد اقترنت هذه الجملة بالفاء التفريعية، فتدلّ على شمولية أحكام الإسلام بالنسبة لأحكام الشرائع السماوية الأخرى، ولا تعارض هنا بين هذا الأمر وبين ما سبق من أمر في آية سابقة والتي خيّرت النّبي محمّد ﷺ بين الحكم بين اليهود أو تركهم لحالهم، لأنّ هذه الآية ترشد النّبي ﷺ - إن هو أراد أن يحكم بين أهل الكتاب - إلى أنّ عليه أن يحكم بتعاليم وقوانين القرآن بينهم.

ثمّ تؤكّد عليه أن يبتعد عن أهواء وميول أهل الكتاب، الذين يريدون أن يطوّعوا الأحكام الإلهيّة لميولهم ورغباتهم، وأن ينفّذ ما نزل عليه بالحق، حيث تقول الآية: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

ولأجل إكمال البحث تشير الآية إلى أنّ كل ملّة قد أُفردت لها شرعة ونظام للحياة يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

وكلمة «شرع» أو «الشريعة» تعني الطريق الذي يؤدّي إلى الماء وينتهي به، وإطلاق

كلمة «الشريعة» على الدين لأنّ الدين ينتهي بحقائق وتعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية وضمان الحياة السليمة للبشرية، أمّا كلمة «النهج» أو «المنهاج» فتطلقان على الطريق الواضح.

نقل (الراغب) في كتابه (المفردات)(١) عن ابن عباس قوله بأنّ الفرق بين كلمتي «الشرعة» و«المنهاج» هو أنّ الأُولى تطلق على كل ما ورد في القرآن، وأنّ المنهاج يطلق على ما ورد في سُنّة النّبي محمّد ﷺ: «وهذا الفرق مع كونه جميلاً، إلاّ أنّنا لا نملك دليلاً جازماً لتأييده»(٢).

ثمّ تبيّن الآية أنّ الله لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر أُمّة واحدة، تتبع ديناً وشرعة واحدة لقدر على ذلك، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجي، وحركة مراحل التربية المختلفة، فتقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

وجملة ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ . . .﴾ إشارة إلى ما قلناه سابقاً من أنّ الله قد أودع لدى أفراد البشر استعدادات وكفاءات تنمو في ظلّ الاختبارات وفي ضوء تعاليم الأنبياء، فعندما يطوي بنو الإنسان مرحلة معيّنة، يجعلهم الله في مرحلة أسمى، وحين تنتهي مرحلة تربوية يأتي الله بمرحلة تربوية أُخرى على يد نبي آخر، كما يحصل بالضبط للمراحل التعليمية التي يمرّ بها الشاب في مدرسته.

بعد ذلك تخاطب الآية - في الختام - جميع الأقوام والملل، وتدعوهم إلى التسابق في فعل الخيرات بدل تبذير الطاقات في الاختلاف والتناحر، حيث تقول: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ مؤكّدة أنّ الجميع يكون مرجعهم جميعاً وعودتهم إلى الله الذي يخبرهم في يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

---

(١) المفردات للراغب، مادة (شرع).

(٢) يعتقد البعض من كبار المفسّرين بوجود فرق بين «الدّين» و«الشريعة» ويقولون بأنّ الدين هو مبدأ التوحيد والمبادىء الأُخرى المشتركة بين جميع الديانات، لذلك يكون الدين واحداً في كلّ الأحوال والأزمنة، والشريعة هي القوانين والأحكام والتعاليم التي تختلف أحياناً بين ديانة وأُخرى لكنّنا لا نمتلك - أيضاً - دليلاً واضحاً يؤيّد هذا القول، لأنّ هاتين الكلمتين استخدمتا في الكثير من الموارد للدلالة على معنى واحد.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرين في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قوله: إنّ رهطاً من وجهاء اليهود تآمروا واتفقوا على الذهاب إلى النّبي محمّد ﷺ بغية حرفِهِ عن الإسلام، فذهبوا إليه ﷺ وذكروا له أنّهم قوم من مفكّري وعلماء اليهود، وأنّهم إن اتبعوه ﷺ اقتدى بهم بالتأكيد بقية اليهود، وزعموا أنّ بينهم وبين جماعة أُخرى نزاع (في قضية قتل أو أمر آخر) وطلبوا من النّبي محمّد ﷺ أن يحكم في النزاع المزعوم لمصلحتهم، ووعدوه أنّه إن استجاب لأمرهم يؤمنوا به، فامتنع النّبي محمّد ﷺ عن إصدار حكم غير عادل، فنزلت الآية المذكورة(١).

التّفسير

تكرر هذه الآية تأكيد الباري عزّ وجلّ على نبيّه محمّد ﷺ في أن يحكم بين أهل الكتاب طبقاً لأحكام الله، وأن لا يستسلم لأهوائهم ونزواتهم، فتقول: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ...﴾.

والتكرار للأمر هنا إمّا أن يكون بسبب المواضيع التي اشتملت عليها الآية، وإمّا لأنّ موضوع الحكم في هذه الآية يختلف عن موضوع الحكم في الآيات السابقة، حيث كان موضوع الحكم في الآيات السابقة هو الزنا مع المحصنة، وموضوع الحكم في هذه الآية هو القتل أو شيء آخر.

ثمّ تحذّر الآية النّبي ﷺ من مؤامرة هؤلاء الذين أرادوا عدول النّبي ﷺ عن

(١) تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٢١.

شرعة الحقّ والعدل، وطالبته بأن يراقب تحرّكاتهم، حيث تقول: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾.

وأكّدت هذه الآية - مستمرة في خطابها لنبي الإسلام محمّد ﷺ - أنّ أهل الكتاب هؤلاء إن لم يذعنوا لحكمه العادل فإنّ ذلك يكون دلالة على أنّ ذنوبهم وآثامهم قد طوّقتهم فحرمتهم من التوفيق، وأنّ الله يريد أن يعاقبهم ويعذّبهم بسبب بعض ذنوبهم، حيث تقول الآية: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

وسبب ذكر «بعض الذنوب» لا كلّها، قد يكون لأنّ عقاب كلّ الذنوب لا يتم في الحياة الدنيا بل يذوق وبال بعضها، والباقي منها يوكل أمرها إلى العالم الثّاني، أي بعد الموت.

ولم تصرّح هذه الآية بنوع الذنوب التي طوّقت وأحاطت بهؤلاء، ويحتمل أن تكون إشارة إلى المصير الذي أحاط بيهود المدينة، بسبب الخيانات المتوالية التي مارسوها، ممّا اضطرّهم إلى ترك بيوتهم ومغادرة المدينة المنورة، أو أن يكون فشل هؤلاء وحرمانهم من التوفيق نوعاً من العقاب لهم على ذنوبهم السابقة، لأنّ الحرمان من التوفيق يعتبر - بحدّ ذاته - نوعاً من العقاب، أي أنّ الذنوب المتتالية والعناد والإصرار على الذنب، جزاؤهما الحرمان من الأحكام العادلة، والتورّط في الضّلال والحيرة في متاهات الحياة.

وتشير الآية في النهاية إلى أنّ إصرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثاً للقلق عند النّبي، لأنّ الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق، أي أنّهم فاسقون، حيث تقول الآية: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

سؤال:

يمكن أن يعترض البعض بأنّ هذه الآية توحي باحتمال صدور الانحراف عن النّبي ﷺ - والعياذ بالله - وأنّ الله يحذّره من ذلك، فهل أنّ هذا الأمر يتلاءم ومنزلة العصمة التي يتمتع بها النّبي ﷺ؟

الجواب:

إنّ العصمة لا تعني مطلقاً استحالة صدور الخطأ عن المعصوم، ولو كان كذلك لما بقيت لهم مكرمة أو فضل، ومعنى العصمة هو أنّ النّبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام مع وجود احتمال صدور الذنب أو الخطأ عنهم إلاّ أنّهم لا يرتكبون الذنب أبداً وإن كان عدم

ارتكاب الذنب من قبل المعصوم ناشئاً عن التنبيه والتحذير والتذكير الإلهي للمعصوم، أي إنّ التنبيه الإلهي يعتبر جزءاً من عامل العصمة لدى النّبي ﷺ والذي يحول دون ارتكاب الخطأ، وسنبادر إلى توضيح موضوع العصمة لدى الأنبياء - بتفصيل أكثر - عند تفسير آية التطهير (الآية ٣٣ من سورة الأحزاب بإذن الله).

أمّا الآية الأُخرى فتساءلت بصيغة استفهام استنكاري: هل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم أتباع الكتب السماوية يتوقّعون أن تحكم بينهم (الخطاب للنّبي ﷺ) بأحكام الجاهلية التي فيها أنواع التمايز المقيت؟ حيث تقول الآية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

لكنّ أهل الإيمان لا يرون أيّ حكم أرفع وأفضل من حكم الله، حيث تتابع الآية قولها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولقد بيّنا - عند تفسير الآيات السابقة - أنّ نوعاً من التمايز الغريب كان يسود الأوساط اليهودية بحيث لو أنّ فرداً من يهود بني قريظة قتل فرداً من يهود بني النضير لتعرّض للقصاص، بينما لو حصل العكس لم يكن ليطبّق حكم القصاص في القاتل، وقد شمل هذا التمايز المقيت - أيضاً - حكم الغرامة والدية عند هؤلاء، فكانوا يأخذون ضعف الدية من جماعة، ولا يأخذونها من جماعة أُخرى، أو يأخذون أقل من الحدّ المقرر، ولذلك استنكر القرآن هذا النوع من التمايز واعتبره من أحكام الجاهلية، في حين أنّ الأحكام الإلهيّة تشمل البشر أجمعين وتطبّق دون أيّ تمايز.

وجاء في كتاب «الكافي» عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية»(١).

وهكذا يتّضح أنّ أيّ مسلم يتبع الأحكام الوضعية ولا يلتزم بالأحكام والقوانين الإلهيّة السماوية إنّما يسير في الحقيقة في طريق الجاهلية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ

(١) أصول الكافي، ج ٧، ص ٤٠٧؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤٠.

عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسّرين أنّ عبادة بن الصامت الخزرجي قدم إلى النّبي ﷺ بعد غزوة بدر وذكر له أنّ له حلفاء من اليهود ذوي عدّة وعدد، وأكّد للنّبي أنّه يريد البراءة من صداقتهم ومن عهده معهم ما داموا يهددون المسلمين بالحرب، وقال بأنّه يريد أن يكون حليفاً لله ولنبيّه دون سواهما، أمّا عبد الله بن أُبي فرفض التنصّل من عهده مع اليهود، واعتذر بأنّه يخشى المشاكل وادّعى أنّه يحتاج إلى اليهود.

وأظهر النّبي ﷺ خشيته على عبادة وعبد الله من صداقة اليهود مشيراً إلى أنّ خطر صداقة اليهود على عبد الله أكبر من خطرها على عبادة بن صامت، فقال عبد الله بأنّه ما دام الأمر كذلك فإنّه سيتخلّى عن صداقته وعهده مع اليهود، فنزلت الآيات هذه وهي تحذّر المسلمين من التحالف مع اليهود والنصارى(١).

التّفسير

لقد حذّرت الآيات الثلاث - مورد البحث - المسلمين بشدّة من الدخول في أحلاف مع اليهود والنصارى، فالآية الأُولى منها تمنع المسلمين من التحالف مع اليهود والنصارى أو الاعتماد عليهم (أي إنّ الإيمان بالله يوجب عدم التحالف مع هؤلاء إن كان ذلك لأغراض ومصالح مادية) حيث تقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

وكلمة «أولياء» صيغة جمع من «وليّ» وهي مشتقة من مصدر «الولاية» وهي بمعنى التقارب الوثيق بين شيئين، وقد وردت بمعنى «الصداقة» و«التحالف» و«الإشراف».

لكن بالنظر إلى سبب النّزول والقرائن الأُخرى الموجودة، فإنّ المراد ليس منع

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٦٠٥ و ١٦٨؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

المسلمين من إقامة أيّ علاقات تجارية واجتماعية مع اليهود والنصارى، بل المقصود منع المسلمين من التحالف مع هؤلاء أو الاعتماد عليهم في مواجهة الأعداء.

وكانت قضية التحالف رائجة في ذلك العصر بين العرب، وكان يطلق على ذلك لفظ «الولاء».

والملفت للنظر في هذه الآية أنّها لم تعتمد تسمية «أهل الكتاب» لدى تحدّثها عن أتباع الديانتين السماويتين المعروفتين، بل استخدمت كلمتي «اليهود والنّصارى» وربّما يكون هذا إشارة إلى أنّ اليهود والنصارى لو كانوا يعملون بكتابيهم السماويين، لكان أتباع هذين الدينين خير حليفين للمسلمين، لكنّهم اتّحدوا معاً لا بأمر من كتابيهم بل لأغراض سياسية وتكتّلات عنصرية وأمثال ذلك.

بعد ذلك تبيّن الآية سبب هذا النهي في جملة قصيرة، وتقول بأنّ هاتين الطائفتين إنّما هما أصدقاء وحلفاء أشباههما من اليهود والنصارى حيث تقول: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ أي إنّهما يهتمان بمصالحهما ومصالح أصدقائهما فقط، ولا يعيران اهتماماً لمصالح المسلمين، ولذلك فإنّ أيّ مسلم يقيم صداقة أو حلفاً مع هؤلاء فإنّه سيصبح من حيث التقسيم الاجتماعي والديني جزءاً منهم، حيث تؤكّد الآية هذا المعنى بقولها: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾.

وبديهي أنّ الله لا يهدي الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانة في حقّ أنفسهم وإخوانهم وأخواتهم المسلمين والمسلمات، ويعتمدون على أعداء الإسلام، تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وتشير الآية التّالية إلى الأعذار التي كان يتشبث بها أفراد ذوي نفوس مريضة لتبرير علاقاتهم اللاشرعية مع الغرباء، واعتمادهم عليهم وتحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من الوقوع في مشاكل إن أصبحت القدرة يوماً في يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآية: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾(١).

ويذكّر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء، ذوي النفوس المريضة ردّاً على تعللهم في

---

(١) إنّ كلمة (دائرة) مشتقة من المصدر (دور) أي الشيء الذي يكون في حالة دوران، وبما أنّ القدرات المادية والحكومات هي في حالة دوران دائم على طول التّاريخ، لذلك يقال لها (دائرة) كما تطلق هذه الكلمة - أيضاً - على أحداث الحياة المختلفة التي تدور حول الأشخاص.

التخلّي عن حلفهم مع الغرباء، فيبيّن لهم أنّهم حين يحتملون أن يمسك اليهود والنصارى يوماً بزمام القدرة والسلطة يجب أن يحتملوا - أيضاً - أن ينصر الله المسلمين فتقع القدرة في أيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضمروه في أنفسهم، كما تقول الآية: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

ويشتمل هذا الجواب القرآني - في الحقيقة - على جانبين:

أوّلهما: أنّ أفكاراً كهذه إنّما تخرج من قلوب مريضة لأفراد تزلزل إيمانهم وأصبحوا يسيئون الظن بالله، ولو لم يكونوا كذلك لما سمحوا لهذه الأفكار بأن تدخل نفوسهم.

أمّا الجانب الثّاني في هذا الجواب فهو مواجهتهم بنفس الحجة التي أوردوها لتعللهم ذلك، إذ إنّ احتمالهم لوقوع السلطة في يد اليهود والنصارى يقابله - بالضرورة - احتمال آخر وهو انتصار المسلمين واستلامهم لمقاليد الأُمور، وبهذا لا يكون هناك أيّ مجال لتشبث هؤلاء بحلفهم مع أُولئك أو الاعتماد عليهم.

وعلى أساس هذا التّفسير فإنّ كلمة (عسى) التي لها مفهوم الاحتمال والأمل، تبقى في هذه الآية محتفظة بمعناها الأصلي لكن بعض المفسّرين قالوا بأنّها تعني هنا الوعد الجازم من قبل الله للمسلمين، وهذا ما لا يتلاءم وظاهر كلمة (عسى) البتة.

أمّا المراد من جملة ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ التي جاءت بعد كلمة (الفتح) في هذه الآية فيحتمل أنها تعني أنّ المسلمين - في المستقبل - إمّا أن يتغلبوا وينتصروا على أعدائهم عن طريق الحرب، أو بدونها كأن تتوسع قدرتهم إلى درجة يضطر بعدها الأعداء إلى الخضوع والاستسلام للمسلمين دون الحاجة إلى الدخول في حرب.

وبتعبير آخر: كلمة (الفتح) تشير إلى الانتصار العسكري للمسلمين، وإنّ جملة (أمر من عنده) إشارة إلى الانتصارات الاجتماعية والاقتصادية وما شابه ذلك.

إنّ بيان هذا الاحتمال من قبل الله سبحانه وتعالى، مع كونه عزّوجلّ عالماً بجميع ما سيحصل في المستقبل، يدلّ على أنّ الآية تشير إلى الانتصارات العسكرية والاجتماعية والاقتصادية التي سيحصل عليها المسلمون في المستقبل.

وتشير الآية في الختام إلى مصير عمل المنافقين، وتبيّن أنّه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين وتنكشف حقيقة عمل المنافقين يقول المؤمنون - بدهشة -: هل أنّ هؤلاء المنافقين هم أُولئك الذين كانوا يتشدّقون بتلك الدعاوى ويحلفون بالأيمان

المغلّظة بأنّهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحدّ؟ حيث تقول الآية: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾(١).

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، لأنّها لم تكن نابعة من نيّة خالصة صادقة، ولهذا فقد أصبحوا من الخاسرين - سواء في هذه الدنيا أو في الدنيا والآخرة معاً - حيث تؤكّد الآية هذا الأمر بقولها: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

والجملة الأخيرة تشبه - في الحقيقة - جواباً لسؤال مقدّر، وكأنّ شخصاً يسأل: ماذا سيكون مصير هؤلاء؟

فيجاب بأنّ أعمالهم ستذهب أدراج الرياح، وستطوّقهم الخسارة من كل جانب، أي إنّ هؤلاء حتى لو كانت لهم أعمال صدرت عنهم بإخلاص ونيّة صادقة، فهم لا يحصلون على أيّ نتيجة حسنة من تلك الأعمال الصالحة لانحرافهم صوب النفاق والشّرك بعد ذلك. وقد شرحنا هذا الأمر في الجزء الثّاني من تفسيرنا هذا عند تفسير الآية (٢١٧) من سورة البقرة.

الاعتماد على الغرباء

على الرّغم من أنّ الواقعة - التي ذكرت سبباً لنزول الآيات الأخيرة - تحدّثت عن شخصين هما عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبي إلاّ أنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذين الشخصين لا يشار إليهما باعتبارهما شخصيّتين تاريخيتين - فحسب - بل لأنّهما يمثّلان مذهبين فكريين واجتماعيين، يدعو أحدهما إلى التخلّي عن التعاون والتحالف مع الغرباء، وعدم تسليمهم زمام أمور المسلمين، وعدم الثقة بتعاونهم.

والمذهب الآخر يرى أنّ كل إنسان أو شعب في هذه الدنيا المليئة بالمشاكل والأهوال يحتاج إلى من يتكئ ويعتمد عليه، وأنّ الحاجة تدعو أحياناً إلى انتخاب الدّعم والسند من بين الغرباء بحجة أنّ الصداقة معهم لا تخلو من قيمة وفائدة، ولا بدّ أن تظهر ثمارها في يوم من الأيّام.

وقد دحض القرآن الكريم رأي المذهب الثّاني بشدّة، وحذّر المسلمين بصراحة من مغبّة الوقوع والتورّط في نتائج مثل هذا النوع من التفكير، لكن البعض من المسلمين -

(١) في هذه الآية تكون كلمة «هؤلاء» مبتدأ وخبرها جملة «الذين أقسموا بالله» أمّا جملة «جهد أيمانهم» فهي مفعول مطلق.

ومع الأسف - قد نسوا وتجاهلوا هذا الأمر القرآني العظيم، فانتخبوا من بين الغرباء والأجانب من يعتمدون عليهم، وقد أثبت التّأريخ أنّ كثيراً من النكبات التي أصابت المسلمين تنبع من هذا الاتجاه الخاطىء!

وبلاد الأندلس تعتبر دليلاً حيّاً وبارزاً على هذا الأمر، وتظهر كيف أنّ المسلمين - بالإعتماد على قواهم الذاتية - استطاعوا أن يبنوا أكثر الحضارات ازدهاراً في الأندلس - إسبانيا اليوم - لكنّهم نتيجة لاعتمادهم على قوى غريبة أجنبية فقدوا تلك المكتسبات العظيمة بكلّ سهولة.

والأمبراطورية العثمانية التي سرعان ما ذابت كذوبان الجليد في الصيف، تعتبر دليلاً آخر على هذه الدعوى.

كما أنّ التّأريخ المعاصر يشهد على ما أصاب المسلمين من خسائر ومصائب كبيرة بسبب انحرافهم عن رسالتهم واعتمادهم في كثير من الأُمور على الأجانب الغرباء، والعجب كل العجب من أنّ هذا السبات ما زال يلف العالم الإسلامي، ولم توقظه بعد الكوارث والنكبات التي أصابته بسبب اعتماده على القوى الأجنبية.

على أيّ حال فإنّ الأجنبي أجنبي، ومهما اشترك معنا في المصالح وتعاون معنا في مجالات محدودة فهو في النهاية يعتزل عنّا في اللحظات الحساسة، وكثيراً ما تنالنا منه - أيضاً - ضربات مؤثّرة.

وما على المسلمين اليوم إلاّ أن ينتبهوا أكثر من أيّ وقت مضى إلى هذا النداء القرآني ولا يعتمدوا على أحد سوى الله وقواهم الذاتية التي وهبها الله لهم.

لقد اهتمّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً بهذا الأمر، حتى إنّه رفض مساعدة اليهود في واقعة أُحد حين أعلن ثلاثمائة منهم استعدادهم للوقوف إلى جانب المسلمين ضدّ المشركين، فأعادهم النّبي إلى حيث كانوا ولمّا يصلوا إلى منتصف الطريق، وامتنع عن قبول عرضهم في حين أنّ مثل هذا العدد من الناس كان يمكن له أن يلعب دوراً مؤثّراً في واقعة أُحد، فلماذا رفضهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟

لقد رفضهم لأنّه لم يستبعد منهم أن يخذلوه ويخذلوا المسلمين في أحرج اللحظات وأكثرها خطورة أثناء الحرب، ويتحوّلوا إلى التعاون مع العدوّ ويقضوا على ما تبقّى من جيش المسلمين في ذلك الوقت.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

التّفسير

بعد الانتهاء من موضوع المنافقين، يأتي الكلام - في هذه الآية الكريمة - عن المرتدين الذين تنبّأ القرآن بارتدادهم عن الدين الإسلامي الحنيف، وهذه الآية أتت بقانون عام يحمل إنذاراً لجميع المسلمين، فأكّدت أنّ من يرتد عن دينه فلن يضر الله بارتداده هذا أبداً، ولن يضر الدين ولا المجتمع الإسلامي أو تقدّمه السريع، لأنّ الله كفيل بإرسال من لديهم الاستعداد لحماية هذا الدين، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾.

ثمّ تتطرق الآية إلى صفات هؤلاء الحماة الذين يتحمّلون مسؤولية الدفاع العظيمة، وتبيّنها على الوجه التّالي:

١ - إنّهم يحبّون الله ولا يفكّرون في غير رضاه، فالله يحبّهم وهم يحبّونه، كما تقول الآية: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

٢ و٣ - يبدون التواضع والخضوع والرأفة أمام المؤمنين، بينما هم أشدّاء أقوياء أمام الأعداء الظالمين، حيث تقول الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٤ - إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآية: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ - وآخر صفة تذكرها الآية لهؤلاء العظام، هي أنّهم لا يخافون لومَ اللائمين في طريقهم لتنفيذ أوامر الله والدفاع عن الحق، حيث تقول الآية: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ فهؤلاء بالإضافة إلى امتلاكهم القدرة الجسمانية، يمتلكون الجرأة والشّجاعة لمواجهة التقاليد الخاطئة، والوقوف في وجه الأغلبية المنحرفة التي اعتمدت على كثرتها في الاستهزاء بالمؤمنين.

وهناك الكثير من الأفراد المعروفين بصفاتهم الطيّبة، لكنّهم يبدون الكثير من التحفّظ أمام الفوضى السائدة في المجتمع وهجوم الأفكار الخاطئة لدى سواد الناس أو من

الأغلبية المنحرفة، ويتملّكهم الخوف والجبن، وسرعان ما يتركون الساحة ويخلونها للمنحرفين، في حين أنّ القائد المصلح ومن معه من الأفراد بحاجة إلى الجرأة والشهامة لتطبيق أفكارهم وإصلاحاتهم، وعلى عكس هؤلاء فالذين لا يمتلكون هذه الصفات الروحية الرفيعة، يقفون سدّاً وحائلاً دون حصول الإصلاحات المطلوبة.

وتؤكّد الآية - في الختام - على أنّ اكتساب أو نيل مثل هذه الامتيازات السامية (بالإضافة إلى الحاجة لسعي الإنسان نفسه) مرهون بفضل الله الذي يهبها لمن يشاء، ولمن يراه كفئاً لها من عباده، حيث تقول الآية في هذا المجال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي النهاية تبيّن الآية أنّ مجال فضل الله وكرمه واسع، وهو يعرف الأكفاء والمؤهلين من عباده، وكما تقول الآية: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لقد نقلت الرّوايات الإسلامية التي أوردها المفسّرون أقوالاً كثيرة حول هويّة الأشخاص المعنيين بهذه الآية، فمن هم أنصار الإسلام هؤلاء الذين مدحهم الله بهذه الصفات؟

في الكثير من الرّوايات الواردة عن طرق الشيعة والسنّة نقرأ أنّ هذه الآية نزلت في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام وقتاله للناكثين والقاسطين والمارقين (مثيري حرب الجمل، وجيش معاوية، والخوارج)، وممّا يدل على ذلك قول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حين رأى عجز قادة جيش الإسلام عن فتح حصن خيبر، حيث وجّه صلى الله عليه وآله وسلم لهم الخطاب في إحدى الليالي وفي مقر جيش الإسلام قائلاً: «لأُعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده»(١).

ونقرأ في رواية أُخرى أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن هذه الآية فوضع صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة على كتف «سلمان» وقال ما مضمونه: «هذا وأنصاره وبنو قومه...» وبذلك نبّأ النّبي عن إسلام الإيرانيين وجهودهم ومساعيهم المثمرة في خدمة هذا الدين في المجالات المختلفة، ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان الدين (وفي رواية أُخرى لو كان العلم) معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس»(٢).

---

(١) وقد ورد في تفسير (البرهان) و(نور الثقلين) العديد من الرّوايات منقولة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، كما نقل (الثعلبي) وهو أحد علماء السنة هذه الرّوايات (راجع كتاب إحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٠٠).

(٢) مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٠٨ - نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤٢ - أبو نعيم الإصفهاني في الحلية، ج ٦، =

وذكرت روايات أُخرى أنّ هذه الآية نزلت في شأن أنصار المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف الذين سيواجهون الارتداد والمرتدين بكلّ قوّة وحزم، ويملأون العالم قسطاً وعدلاً وإيماناً.

وممّا لا شك فيه أنّه لا تناقض بين هذه الرّوايات الواردة في تفسير الآية مورد البحث، لأنّ الآية - جرياً على أسلوب القرآن الكريم - تبيّن مفهوماً كلياً عاماً، بحيث تعتبر علي بن أبي طالب عليه السلام أو سلمان الفارسي مصداقين مهمّين ضمن هذا المفهوم الذي يشمل أفراداً آخرين يسيرون على نفس النهج، حتى لو لم تتطرّق الرّوايات إلى أسمائهم.

إنّ الأمر الذي يثير الأسف في هذا المجال، تدخّل العصبيات الطائفية والقومية في تفسير هذه الآية، والتي أدخلت أفراداً لا يمتلكون أيّ كفاءة ولا يتمتعون بأيّ من الصفات المذكورة ضمن مصاديق هذه الآية واعتبرتهم ممّن نزلت الآية في شأنهم، ومن هؤلاء الأفراد «أبو موسى الأشعري» الذي ارتكب تلك الحماقة التّاريخية المعروفة التي دفعت بالإسلام نحو هاوية السقوط، ووضعت أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في أحرج موقف(١).

والغريب في هذا الأمر انتقال آثار التطرّف الذي نلاحظه في الكتب العلمية - بشكل رهيب - إلى سواد الناس، بل إلى متعلّميهم، وكأنّ هناك يداً خفيّة تسعى إلى تشتيت صفوف المسلمين، وتحول دون اتحاد كلمتهم، وقد سرى هذا التطرّف ليشمل تاريخ ما قبل الإسلام، بحيث نرى هؤلاء المتطرّفين وقد سمّوا شارعاً فخماً يقع بجوار بيت الله الحرام باسم «أبي سفيان» وهذا الشارع أكبر وأفخم بكثير من شارع «إبراهيم الخليل عليه السلام» مؤسس الكعبة الشريفة.

وأحد أمثال هؤلاء المتطرّفين يتّهمون كثيراً من المسلمين وبكلّ بساطة بالشرك، لا

= ص ٦٤ نقلوا هذا الحديث على الوجه التالي: «لو كان العلم منوطاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس» أمّا ابن عبد البر فقد نقل الحديث على الصورة التّالية: «لو كان الدين عند الثريا لناله سلمان...» وذلك في الإستيعاب، ج ٢، ص ٥٧٧.

(١) تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٨٤ - إلاّ أنّ بعض الرّوايات ذكرت فقط «قوم أبي موسى» للإشارة إلى أهل اليمن الذين هبوا لنصرة الإسلام في أحرج اللحظات، واستثنى أبو موسى تلميحاً إلى قومه، بينما تصرّح الرّوايات الأُخرى بأنّ (سلمان الفارسي) وقومه هم المشمولون بهذه الآية.

لشيء إلاّ لأنّ تحرّك هؤلاء المسلمين لا يتّفق مع أهوائهم وطريقتهم الخاصة، وكأنّ الإسلام ينحصر في هذه الطريقة، أو كأنّهم - وحدهم - سدنة القرآن وحفظته دون غيرهم، أو كأنّهم هم المكلّفون - دون غيرهم - ببيان من هو المسلم ومن هو الكافر، فيشيرون بكلمة واحدة إلى هذا بأنّه مشرك وإلى ذاك بأنّه مسلم، وفق ما تشتهيه أهواؤهم ورغباتهم.

في حين أنّنا نقرأ في الرّوايات الواردة في تفسير هذه الآية، أنّ الإسلام حين يصبح غريباً بين أهله يبرز أشخاص كسلمان الفارسي لإعادة مجد الإسلام وعظمته، وهذه بشارة وردت على لسان النّبي ﷺ لقوم سلمان.

والمثير للدهشة والحيرة أنّ كلمة التوحيد التي هي رمز لوحدة المسلمين، أصبحت اليوم تستخدم من قبل جهات معلومة للتفريق بين المسلمين واتهامهم بالشرك والوثنية، وقد خاطب أحد العلماء هؤلاء المتطرّفين بقوله: إنّكم قد وصلت بكم الحالة إلى درجة أنّ إسرائيل إذا تسلّطت على جماعة منكم فرحت جماعة أُخرى بهذا التسلّط، وإذا ضربت إسرائيل الجماعة الأُخرى فرحت الجماعة الأُولى بهذا العمل، أوليس هذا هو ما يبتغيه ويهدف إليه أعداء الإسلام؟

ومن الإنصاف القول بأنّ اللقاءات المتكررة التي حصلت بيننا وبين عدد من علماء هؤلاء المتعصّبين المتطرّفين، كشفت القناع عن أنّ الواعين منهم كثيراً ما لا يرضون بهذا الوضع، وقد التقيت بأحد علماء اليمن في المسجد الحرام فقال أمام جمع من كبار مدرسي الحرم المكي: إنّ اتهام أهل القبلة بالشرك يعتبر ذنباً كبيراً، استقبحه السلف الصالح كثيراً، وقد صدر هذا القول منه حين كان الحديث يدور حول مسألة حدود الشرك، وقد أعرب هذا العالم عن استيائه لما يقوم به بعض الجهلاء من اتهام الناس بالشرك مشيراً إلى أنّ هؤلاء يتحمّلون بعملهم هذا مسؤولية عظيمة.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

سبب النزّول

جاء في تفسير مجمع البيان - وتفاسير وكتب أُخرى - نقلاً عن عبد الله بن عباس قوله: إنّه كان في أحد الأيّام جالساً إلى جوار بئر زمزم، ويروي للناس أحاديث النّبي ﷺ، فتقرّب إليهم - فجأة - رجل كان يرتدي عمامة، ويضع على وجهه نقاباً، وكان كلّما تلا ابن عباس حديثاً عن النّبي ﷺ تلا هو حديثاً عن النّبي مستهلاً قوله بعبارة: «قال رسول الله. . .» فأقسم عليه ابن عباس أن يعرّف نفسه، فرفع هذا الشخص النقاب عن وجهه وصاح أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلاّ صمّتا، ورأيته بهاتين وإلاّ فعميتا، يقول: «علي قائد البررة، وقاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله».

وأضاف أبو ذر: أما إنّي صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللّهمَّ اشهد بأنّي سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي عليه السلام راكعاً فأومى إليه بخنصره اليمنى وكان يتختّم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين النّبي ﷺ فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللّهم إن أخي موسى سألك فقال[1]: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾﴾، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا. . .﴾[2] اللّهمَّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك اللّهمّ فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشدد به ظهري».

قال أبو ذر رحمه الله: فما استتمّ رسول الله ﷺ كلامه حتى نزل عليه جبرائيل من عند الله عزّ وجلّ، فقال عليه السلام: يا محمّد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٥ -٣٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٥

(٣) تفسير مجمع البيان: ج٢، ص٢١٠، في ذيل الآية مورد البحث.

وطبيعي أنّ سبب النّزول هذا قد نقل عن طرق مختلفة (كما سيأتي تفصيله) بحيث تختلف الرّوايات أحياناً بعضها عن البعض الآخر في جزئيات وخصوصيات الموضوع، لكنّها جميعاً متّفقة من حيث الأساس والمبدأ.

التّفسير

ابتدأت هذه الآية بكلمة «إنّما» التي تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين في ثلاث هم: الله ورسوله ﷺ، والذين آمنوا وأقاموا الصّلاة وأدّوا الزّكاة وهم في حالة الركوع في الصّلاة كما تقول الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

ولا شك أنّ الرّكوع المقصود في هذه الآية هو ركوع الصّلاة ولا يعني الخضوع، لأنّ الشارع المقدّس اصطلح في القرآن على كلمة الرّكوع للدلالة على الركن الرّابع للصلاة.

وبالإضافة إلى الرّوايات الواردة في شأن نزول الآية، والتي تتحدّث عن تصدّق علي ابن أبي طالب عليه السلام بخاتمه في الصّلاة - وسنتطرّق إليها بالتفصيل - فإنّ جملة ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ تعتبر دليلاً على هذا الأمر، وليس في القرآن أثر عن ضرورة أداء الزّكاة مقرونة بالخضوع، بل ورد التأكيد على دفع الزّكاة بنيّة خالصة وبدون منّة.

كما لا شك في أنّ كلمة «الولي» الواردة في هذه الآية، لا تعني الناصر والمحب، لأنّ الولاية التي هي بمعنى الحب أو النصرة لا تنحصر في من يؤدّون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون، بل تشمل كلّ المسلمين الذين يجب أن يتحابّوا فيما بينهم وينصر بعضهم البعض، حتى أُولئك الذين لا زكاة عليهم، أو لا يمتلكون - أساساً - شيئاً ليؤدّوا زكاته، فكيف يدفعون الزّكاة وهم في حالة الركوع؟! هؤلاء كلّهم يجب أن يكونوا أحبّاء فيما بينهم وينصر بعضهم البعض الآخر.

ومن هنا يتّضح لنا أنّ المراد من كلمة «وليّ» في هذه الآية، هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرّف والزعامة المادية والمعنوية، خاصّة وقد جاءت مقترنةً مع ولاية النّبي ﷺ وولاية الله حيث جاءت الولايات الثلاث في جملة واحدة.

وبهذه الصورة فإنّ الآية تعتبر نصّاً قرآنياً يدل على ولاية وإمامة علي بن أبي طالب عليه السلام للمسلمين.

شهادة الأحاديث والمفسّرين والمؤرخين

لقد قلنا إنّ الكثير من الكتب الإسلامية ومصادر أهل السنّة تشتمل على العديد من الرّوايات القائلة بنزول هذه الآية في شأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد ذكرت بعض هذه الرّوايات قضية تصدّق الإمام علي عليه السلام بخاتمه على السائل وهو في حالة الركوع، كما لم تذكر روايات أُخرى مسألة التصدّق هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية في حقّ علي عليه السلام.

وقد نقل هذه الرّوايات كل من ابن عباس، وعمّار بن ياسر، وعبد الله بن سلام، وسلمة بن كهيل، وأنس بن مالك، وعتبة بن حكيم، وعبد الله بن أُبي، وعبد الله بن غالب، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبي ذر الغفاري(١).

وبالإضافة إلى الرواة العشرة المذكورين، فقد نقلت كتب الجمهور (أهل السنّة) هذه الرواية عن علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه(٢).

والطّريف أنّ كتاب (غاية المرام) قد نقل ٢٤ حديثاً من طرق أهل السنّة و١٩ حديثاً من طرق الشّيعة(٣).

وقد تجاوز عدد الكتب التي أوردت هذه الرّوايات الثلاثين كتاباً، كلّها من تأليف علماء أهل السنّة، منهم: محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ص٨٨، والعلامة القاضي الشوكاني في تفسير فتح القدير ج ٢، ص ٥٠، ومن هذه المصادر المعتمدة أيضاً: جامع الأُصول ج ٩، ص ٤٧٨، وفي أسباب النّزول للواحدي ص ١٤٨، وفي لباب النقول للسيوطي ص ٩٠، وفي تذكرة سبط ابن الجوزي ص ١٨، وفي نور الأبصار للشبلنجي ص ١٠٥، وفي تفسير الطبري ص ١٦٥، وفي كتاب الكافي الشافي لابن حجر العسقلاني ص ٥٦، وفي مفاتيح الغيب للرازي ج ٣، ص ٤٣١، وفي تفسير الدرّ المنثور ج٢، ص٣٩٣، وفي كتاب كنز العمال ج٦، ص٣٩١، وفي مسند ابن مردويه ومسند ابن الشيخ، بالإضافة إلى صحيح النسائي، وكتاب الجمع بين الصحاح الستة، وكتب عديدة أُخرى نقلت حديث الولاية(٤).

---

(١) راجع كتاب إحقاق الحق، ج ٢، ص ٣٠٩ - ٤١٠.

(٢) راجع كتاب (المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين، ص ١٥٥.

(٣) منهاج البراعة، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٤) راجع كتاب إحقاق الحق، ج ٢، ص ٣٩٩؛ وكتاب (الغدير) ج ٢، ص ٥٢؛ وكتاب المراجعات للإطلاع على تفاصيل أكثر بهذا الشأن.

إذن كيف يمكن - والحالة هذه - إنكار هذه الأحاديث والمصادر التي نقلتها، في حين أنّها اكتفت في مجال أسباب نزول آيات أُخرى بحديث واحد أو حديثين؟! لعل التطرّف الطائفي هو سبب تجاهل كلّ هذه الأحاديث والشهادات التي أدلى بها العلماء في مجال سبب نزول هذه الآية.

فلو أمكن التغاضي عن كل الرّوايات التي وردت في تفسير هذه الآية، وهي روايات كثيرة للزم أن لا نعتمد على أيّ رواية في تفسير النصوص القرآنية، لأنّنا قلّما نجد أسباباً لنزول آية أو آيات قرآنية جاءت مدعومة بهذا العدد الكبير من الرّوايات، كما ورد في هذه الآية الكريمة.

إنّ هذه القضية كانت بدرجة من الوضوح بحيث إنّ حسان بن ثابت الشاعر المعروف الذي عاصر وصحب النّبي ﷺ، جاء بمضمون آية الولاية في قالب شعري من نظمه الذي قاله في حق علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول:

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً زكاة فدتك النفس يا خير راكع

فأنزل فيك الله خير ولاية وبيّنها في محكمات الشرائع

وقد وردت هذه الأشعار باختلافات طفيفة في كتب كثيرة، منها كتاب تفسير (روح المعاني) للآلوسي، وكتاب (كفاية الطالب) للكنجي الشافعي، وكتب كثيرة أُخرى.

الرّد على اعتراضات ثمانية

لقد أصرت جماعة من المتطرّفين من أهل السنّة على تكرار الاعتراضات حول نزول هذه الآية في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذلك على تفسير (الولاية) الواردة في الآية الكريمة بمعنى الإشراف والتصرّف والزعامة، وفيما يلي نعرض أهم هذه الاعتراضات للبحث والنقد، وهي:

١ - قالوا: إنّ عبارة «الذين» المقترنة بكلمة «آمنوا» الواردة في الآية لا يمكن أن تطبّق على المفرد، وذلك ضمن اعتراضهم على الرّوايات التي تقول بنزول هذه الآية في حق علي بن أبي طالب عليه السلام وقالوا: إنّ الآية أشارت بصيغة الجمع قائلة ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فكيف يمكن أن تكون هذه الآية في حقّ شخص واحد كعلي عليه السلام؟

الجواب:

لقد زخرت كتب الأدب العربي بجمل تمّ التعبير فيها عن المفرد بصيغة الجمع، وقد

اشتمل القرآن الكريم على مثل هذه الجمل، كما في آية المباهلة، حيث وردت كلمة «نساءنا» بصيغة الجمع مع أنّ الرّوايات التي ذكرت سبب نزول هذه الآية أكّدت أنّ المراد من هذه الكلمة هي فاطمة الزهراء عليها السلام وحدها، وكذلك في كلمة «أنفسنا» في نفس الآية وهي صيغة جمع، في حين لم يحضر من الرجال في واقعة المباهلة مع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم غير علي عليه السلام.

وكذلك نقرأ في الآية (١٧٣) من سورة آل عمران في واقعة أُحد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾.

وقد بيّنا في الجزء الثّالث من تفسيرنا هذا عند تفسير هذه الآية، أنّ بعض المفسّرين ذكروا أنّها نزلت في شأن نعيم بن مسعود الذي لم يكن إلاّ واحداً.

ونقرأ في الآية (٥٢) من هذه السّورة - أيضاً - قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ في حين أنّ هذا الجزء من الآية نزل في شخص واحد، كما جاء في سبب النّزول، وهو عبد الله بن أُبي وقد مضى تفسير ذلك.

وكذلك في الآية الأُولى من سورة الممتحنة، والآية الثامنة من سورة «المنافقون» والآيتين (٢١٥ و٢٧٤) من سورة البقرة، نقرأ فيها كلّها عبارات جاءت بصيغة الجمع، بينما الذي ذكر في أسباب نزول هذه الآيات هو أنّ المراد في كلّ منها شخص واحد.

والتعبير بصيغة الجمع عن شخص واحد في القرآن الكريم إمّا أن يكون بسبب أهميّة موقع هذا الشخص ولتوضيح دوره الفعّال، أو لأجل عرض الحكم القرآني بصيغة كلية عامّة حتى إذا كان مصداقه منحصراً في شخص واحد، وقد ورد في كثير من آي القرآن ضمير الجمع للدلالة على الله الواحد الأحد، وذلك تعظيماً له جلّ شأنه.

وبديهي أنّ استخدام صيغة الجمع للدلالة على الواحد يعتبر خلافاً للظاهر، ولا يجوز بدون قرينة ولكن مع وجود الرّوايات الكثيرة الواردة في شأن نزول الآية تكون لدينا قرينة واضحة على هذا التّفسير وقد اكتفي في موارد أُخرى بأقل من هذه القرينة؟!

٢ - وقال الفخر الرّازي ومتطرّفون آخرون: إنّ علياً عليه السلام بما عرف عنه من خشوع وخضوع لله، بالأخص في حالة الصّلاة (إلى درجة، أنّهم استلّوا أثناء صلاته سهماً كان مغروزاً في رجله، دون أن يحس بالألم كما في الرواية المعروفة) فكيف يمكن القول بأنّه سمع أثناء صلاته كلام السائل والتفت إليه؟!

الجواب:

إنّ الذين جاءوا بهذا الاعتراض قد غفلوا عن أنّ سماع صوت السائل والسعي لمساعدته لا يعتبر دليلاً على الانصراف والتوجّه إلى النفس، بل هو عين التوجّه إلى الله، وعلي عليه السلام كان أثناء صلاته يتجرّد عن ذاته وينصرف بكلّه إلى الله، ومعروف أنّ التنصّل عن خلق الله يعتبر تنصّلاً أيضاً عن الله، وبعبارة أوضح: إنّ أداء الزّكاة أثناء الصّلاة يعدّ عبادة ضمن عبادة أُخرى، وليس معناه القيام بمباح ضمن العبادة، بعبارة ثالثة: إنّ ما لا يلائم روح العبادة هو الانشغال والانصراف أثناءها إلى الأُمور الخاصّة بالحياة الشخصية، بينما التوجّه إلى ما فيه رضى الله تعالى يتلاءم بصورة تامّة مع روح العبادة ويؤكّدها.

ومن الضروري أن نؤكّد هنا أنّ الذوبان في التوجّه إلى الله، ليس معناه أن يفقد الإنسان الإحساس بنفسه، ولا أن يكون بدون إرادة، بل الإنسان بإرادته يصرف عن نفسه التفكير في أيّ شيء لا صلة له بالله.

والطّريف في الأمر أنّ الفخر الرازي قد أوصله تطرّفه إلى الحدّ الذي اعتبر فيه ايماءة الإمام علي عليه السلام إلى السائل بأصبعه - لكي يأخذ الخاتم - مصداقاً للفعل الكثير المنافي للصلاة، في حين أنّ هناك أفعالاً يمكن القيام بها أثناء الصّلاة أكثر بكثير من تلك الإيماءة التي قام بها الإمام عليه السلام، وفي نفس الوقت لا تضرّ ولا تمسّ الصّلاة بشيء، ومن هذه الأفعال قتل الحشرات الضارة كالحيّة والعقرب، ورفع الطفل من محلّه ووضعه فيه، وإرضاع الطفل الرضيع، وكلّ هذه الأفعال لا تعتبر من الفعل الكثير في نظر الفقهاء، فكيف يمكن القول بأنّ تلك الإيماءة تعتبر من الفعل الكثير؟!

وقد لا يكون هذا الخطأ غريباً من عالم استولى عليه التطرّف!

٣ - أمّا الاعتراض الآخر في هذا المجال، فهو أنّ كلمة (وليّ) الواردة في الآية تعني الصديق والناصر وأمثالهما، وليست بمعنى المتصرّف أو المشرف أو وليّ الأمر.

الجواب: لقد بيّنا في تفسير هذه الآية أنّ كلمة (وليّ) - الواردة فيها - لا يمكن أن تكون بمعنى الصديق أو الناصر، لأنّ هاتين الصفتين قد ثبتت شموليتهما لكلّ المسلمين المؤمنين، وليستا منحصرتين بالمؤمنين المذكورين في الآية والذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة أثناء الركوع، وبعبارة أُخرى: إنّ الصداقة والنصرة حكمان عامّان، بينما الآية - موضع البحث - تهدف إلى بيان حكم خاص بشخص واحد.

٤ - وقالوا - أيضاً - إنّ عليّاً عليه السلام لم يكن يمتلك شيئاً من حطام الدنيا حتى تجب عليه الزّكاة، ولو قلنا بأنّ المراد في الآية هو الصدقة المستحبة فهي لا تسمّى زكاة؟!

الجواب:

أوّلاً: إنّ التّاريخ يشهد على امتلاك علي عليه السلام المال الوفير الذي حصل عليه من كدّ يمينه وعرق جبينه وتصدّق به في سبيل الله، وقد نقلوا في هذا المجال أنّ عليّاً عليه السلام أعتق وحرر ألف رقبة من الرقيق، كان قد اشتراهم من ماله الخاص الذي كان حصيلة كدّه ومعاناته، أضف إلى ذلك فقد كان عليه السلام يحصل - أيضاً - على حصّته من غنائم الحرب، وعلى هذا الأساس فقد كان علي عليه السلام يمتلك ذخيرة من المال، أو من نخلات التمر ممّا يتعيّن فيهما الزّكاة.

ونحن نعلم - أيضاً - أنّ الفورية الواجبة في أداء الزّكاة هي «فورية عرفية» لا تتنافى مع أداء الصّلاة، أي لا فرق في أداء الزّكاة سواء كان الأداء قبل وقت الصّلاة أو أثناءها.

ثانياً: لقد أطلق القرآن الكريم في كثير من الحالات كلمة الزّكاة على الصدقة المستحبة، وبالأخص في السور المكّية، حيث وردت هذه الكلمة للدلالة على الصدقة المستحبة، لأنّ وجوب الزّكاة كان قد شرّع بعد هجرة النّبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة، كما في (الآية ٣ من سورة النمل، والآية ٣٩ من سورة الروم، والآية ٤ من سورة لقمان، والآية ٧ من سورة فصّلت وغيرها).

٥ - ويقولون: إنّهم حتى لو أذعنوا بأنّ عليّاً عليه السلام هو الخليفة بعد النّبي مباشرة، فهذا لا يعني أن يكون علي عليه السلام وليّاً في زمن الرّسول صلى الله عليه وآله، لأنّ ولايته في زمن النّبي لم تكن ولاية فعلية، بل كانت ولاية بالقوّة، وأنّ ظاهر الآية - موضع البحث - يدل على الولاية الفعلية.

الجواب:

نلاحظ كثيراً في كلامنا اليومي - وكذلك في النصوص الأدبية - إطلاق اسم معيّن أو صفة خاصّة على أفراد لا يتمتعون بمزاياها الفعلية، بل يمتلكون المزية أو المزايا بالقوّة، وهذا مثل أن يوصي إنسان في حياته ويعيّن لنفسه وصيّاً وقيّماً على أطفاله فيكون الشخص الثّاني فور إقرار الوصية من قبل الشخص الأوّل وصيّاً وقيّماً، ويدعى بهذين العنوانين حتى لو كان الإنسان الموصي باقياً على قيد الحياة.

ونحن نقرأ في الرّوايات التي نقلت في مصادر الشّيعة والسنّة أنّ النّبي ﷺ دعا علياً وصيّه وخليفته، في حين أنّ هذين العنوانين لم يكونا ليتحققا في زمن النّبي ﷺ.

والقرآن المجيد - أيضاً - يشتمل على مثل هذه التعابير، ومن ذلك ما ورد عن (زكريا) الذي توسّل إلى الله بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[1] والمعروف أنّ المراد - هنا - من كلمة (وليّ) المشرف الذي يتولّى شؤون الإشراف بعد الموت كما يعيّن الكثير من الناس في حياتهم من يقوم مقامهم بعد الموت، ويسمّى الشخص المعيّن منذ لحظة تعيينه بالنائب أو الخليفة مع كون هذه الصفات بالقوّة، وليست بالفعل.

٦ - واحتجّوا - أيضاً - بقولهم: لماذا لم يعتمد علي عليه السلام على هذا الدليل الواضح للدفاع عن حقّه؟

الجواب:

لقد لاحظنا - من خلال البحث الذي تناول الرّوايات في سبب نزول هذه الآية - أنّ هذا الحديث قد نقل في كتب عديدة عن الإمام علي عليه السلام نفسه، ومن ذلك ما جاء في مسند «ابن مردويه» و«ابن الشّيخ» و«كنز العمال» وهذا بذاته دليل على احتجاج الإمام علي عليه السلام بهذه الآية الشريفة.

ونقل في كتاب (الغدير) القيّم عن كتاب (سليم بن قيس الهلالي) حديث مفصّل مفاده أنّ علياً عليه السلام حين كان منشغلاً بحرب صفين، تحدّث في ميدان الحرب أمام جمع من الناس محتجاً بدلائل عديدة في إثبات حقّه، وكان من جملة ما احتجّ به الإمام عليه السلام هذه الآية الكريمة[2].

وجاء في كتاب (غاية المرام) نقلاً عن أبي ذر رضي الله عنه أنّ علياً عليه السلام احتجّ في يوم الشورى بهذه الآية[3].

٧ - وقد ادّعوا - أيضاً - أنّ هذا التّفسير الذي أوردناه في الآية موضع البحث لا يتناسب أو لا يتلاءم مع الآيات الواردة قبل وبعد هذه الآية، لأنّ تلك الآيات جاءت فيها كلمة «الولاية» بمعنى الصداقة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥ و ٦. (٢) الغدير، ج ١، ص ١٩٦.
(٣) عن كتاب (منهاج البراعة)، ج ٢، ص ٣٦٣.

الجواب:

لقد قلنا - مراراً - إنّ الآيات القرآنية بسبب نزولها بصورة تدريجية، وبحسب الوقائع المختلفة تكون دائماً ذات صلة بالأحداث التي نزلت الآيات في شأنها، أي إنّ الآيات الواردة في سورة واحدة أو الآيات المتعاقبة، ليست دائماً ذات مفهوم مترابط، كما لا تشير دائماً إلى معنى واحد، ولذلك يحصل كثيراً أن تروى لآيتين متعاقبتين حادثتان مختلفتان أو سببان للنزول، وتكون النتيجة أن ينفصل مسير واتجاه كل آية - لصلتها بحادثة خاصّة - عن مسير الآية التّالية لها، لاختلاف الحادثة التي نزلت في شأنها، وبما أنّ آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ . . .﴾ بدلالة سبب نزولها جاءت في شأن تصدّق الإمام علي عليه السلام أثناء الركوع، أمّا الآيات السابقة واللاحقة لها - كما رأينا وسنرى - فقد نزلت في أحداث أُخرى، لذلك لا يمكن الاعتماد - هنا - كثيراً على مسألة ترابط المفاهيم في الآيات.

وهناك نوع من التناسب بين الآية - موضع البحث - والآيات السابقة واللاحقة لها، لأنّ الآيات الأُخرى تضمّنت الحديث عن الولاية بمعنى النصرة والإعانة، بينما الآية - موضع البحث - تحدّثت عن الولاية بمعنى القيادة والتصرّف، وبديهي أنّ القائد والزعيم والمتصرّف في أُمور جماعة معيّنة، يكون في نفس الوقت حامياً وناصراً وصديقاً ومحبّاً لجماعته، أي إنّ مسألة النصرة والحماية تعتبر من مستلزمات وشؤون الولاية المطلقة.

٨ - وأخيراً قالوا: من أين أتى علي عليه السلام بذلك الخاتم النفيس؟

وسألوا أيضاً: ألا يعتبر التختّم بخاتم بتلك القيمة العالية نوعاً من الإسراف؟

ألا تعتبر هذه الأُمور دليلاً على عدم صحة التّفسير المذكور؟

الجواب:

إنّ المبالغات الواردة في شأن قيمة الخاتم الذي تصدّق به علي عليه السلام أثناء الركوع لا أساس لها مطلقاً، ولا يقوم عليها أيّ دليل مقبول، وما جاء في قيمة ذلك الخاتم من أنّه كان يعادل خراج الشام مبالغة أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، وقد جاء ذلك في رواية ضعيفة[1] ولعل هذه الرواية وضعت لتشويه حقيقة القضية الأصلية وإظهارها بمظهر الأمر التافه، وقد خلت الرّوايات الصحيحة - التي وردت حول سبب نزول هذه الآية - من أيّ أثر لمثل هذه الأسطورة.

---

(١) جاءت هذه الرواية مرسلة في تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٨٥.

وعلى هذا الإساس لم يتمكن أحد من تهميش هذه الواقعة التّأريخية التي أشارت إليها الآية الكريمة، بمثل هذه الحكاية التافهة.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

التّفسير

جاءت هذه الآية مكمّلة لمضمون الآية السابقة، وهي تؤكّد وتتابع الهدف المقصود في تلك الآية، وتعلن للمسلمين أنّ النصر سيكون حليف أُولئك الذين يقبلون القيادة المتمثلة في الله ورسوله والذين آمنوا، الذين أشارت إليهم الآية السابقة.

وتصف الآية الذين قبلوا بهذه القيادة بأنّهم من حزب الله المنصورون دائماً، حيث تقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

وتشتمل هذه الآية - أيضاً - على قرينة أُخرى تؤكّد المعنى المذكور في تفسير الآية السابقة لكلمة (الولاية) وهو الإشراف والتصرّف والزعامة، لأنّ عبارة (حزب الله) والتأكيد على أنّ الغلبة تكون لهذا الحزب - في الآية - لهما صلة بالحكومة الإسلامية، ولا علاقة لهما بقضية الصداقة التي هي أمر بسيط وعادي، وهذا يؤكّد بنفسه أنّ الولاية - الواردة في الآية - تعني الإشراف والحكم والقيادة للمجتمع الاسلامي، لأنّ معنى الحزب يتضمّن التنظيم والتضامن والاجتماع لتحقيق أهداف مشتركة.

ويجب الانتباه إلى نقطة مهمّة وهي أنّ المراد بعبارة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الواردة في هذه الآية ليسوا جميع الأفراد المؤمنين، بل ذلك الشخص الذي ذكر في الآية السابقة وأُشير إليه بأوصاف معيّنة.

أمّا قضية الغلبة أو الانتصار الذي كفلته الآية لحزب الله فهل هو الانتصار المعنوي وحده، أم يشمل الانتصار على كلّ الأصعدة وفي جميع المجالات المادية والمعنوية؟

لا شك أنّ الإطلاق في الآية الكريمة يدل على الانتصار الشامل في جميع الجبهات، وبديهي أنّ أيّ جماعة تنضوي تحت لواء حزب الله، أي تتحلّى بالإيمان القوي وتلتزم التقوى وتدأب على العمل الصالح وتسعى إلى الاتحاد والتكافل والتضامن وتتمتع بالوعي الكافي، فهي لا شك ستنال النصر في كل المجالات وعلى جميع الأصعدة، والعجز الذي نشهده اليوم بين المسلمين عن نيل مثل هذا الانتصار إنّما هو بسبب افتقارهم - في

الغالب - إلى الصفات التي ذكرناها، والتي هي صفات الأفراد المنضوين تحت لواء حزب الله، ولذلك فهم بدلاً من أن يستخدموا قواهم وطاقاتهم في طرد الأعداء وحل مشاكلهم الاجتماعية، يصرفون هذه القوى في إضعاف بعضهم البعض.

وقد ذكرت الآية (٢٢) من سورة المجادلة - أيضاً - قسماً من صفات حزب الله، سنأتي على شرحها بإذن الله عند تفسير هذه السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفاسير مجمع البيان وأبي الفتوح الرازي والفخر الرازي أنّ اثنين من المشركين يدعيان رفاعة وسويداً تظاهرا بإعلان الإسلام ثمّ انضما إلى المنافقين، وكان لبعض المسلمين صحبة مع هذين الشخصين ويظهرون لهما التودد، فنزلت هاتان الآيتان ونهت هؤلاء المسلمين عن عملهما ذلك[1] (ويتّضح هنا أنّه حين تتحدّث هاتان الآيتان عن الولاية فالمقصود هو الصّحبة والصداقة والمودّة لأنّ سبب نزولهما يختلف عن سبب نزول الآيتين السابقتين، ولا يمكن اعتبار إحداهما قرينة للأُخرى).

أمّا بخصوص سبب نزول الآية الثّانية من هاتين الآيتين، فنقل أنّ جماعة من اليهود وبعضاً من النصارى حين كانوا يسمعون صوت الأذان، أو حينما يرون المسلمين وهم يقيمون الصّلاة يبادرون إلى الاستهزاء بهم، لذلك حذّر القرآن المجيد المسلمين من التودد إلى هؤلاء وأمثالهم[2].

التّفسير

يحذّر القرآن في الآية المؤمنين من اتّخاذ أصدقاء لهم من بين المنافقين والأعداء، إلاّ أنّه لأجل استثارة عواطف المؤمنين واستقطاب انتباههم إلى فلسفة هذا الحكم

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٦٥، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) المصدر السابق.

خاطبهم بهذا الأسلوب، كما تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾.

ولتأكيد التحذير تقول الآية في الختام: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بمعنى أنّ التودد مع الأعداء والمنافقين لا يتناسب والتقوى والإيمان أبداً.

«الهزو» هو الكلام المصحوب بحركات تصوّر السخرية، ويستخدم للاستخفاف والاستهانة بشيء أو شخص معيّن، وفسّر الراغب في كتابه (المفردات) الهزو بأنّه يقال لفعل المزاح والاستخفاف الذي يصدر في شأن شخص في غيابه، كما يطلق في حالات نادرة على المزاح أو الاستخفاف الذي يحصل بشخص معيّن في حضوره.

أمّا «اللعب» فهو الذي يصدر عبثاً وبدون هدف صحيح، أو خالياً من أيّ هدف، وسمّيت بعض أفعال الصبيان لعباً لنفس السبب.

والآية الثّانية تتابع البحث في النهي عن التودد إلى المنافقين وجماعة من أهل الكتاب الذين كانوا يستهزئون بأحكام الإسلام، وتشير إلى واحد من ممارساتهم الاستهزائية دليلاً وشاهداً على هذا الأمر، فتقول: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾(١).

بعد ذلك تبيّن الآية الكريمة دوافع هذا الاستهزاء، فتذكر أنّ هذه الجماعة إنّما تفعل ذلك لجهلها وابتعادها عن الحقائق، فتقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

الأذان شعار إسلامي كبير

إنّ لكل أُمّة - في أيّ عصر أو زمان كانت - شعار خاصّ تنادي به أفرادها وتستحثّ به هممهم للقيام بواجباتهم الفردية والاجتماعية، ويشاهد هذا الأمر في عالمنا الحاضر بصورة أوسع.

فالمسيحيون ينادون قومهم ويدعونهم لحضور الصّلاة في الكنائس بدق الناقوس وهذه هي طريقتهم وشعارهم سابقاً وحاضراً.

والإسلام جاء بالأذان شعاراً لدعوة المسلمين، حيث يعتبر هذا الشعار أكثر تأثيراً وجاذبية في نفوس الناس قياساً بشعارات الديانات والأُمم الأُخرى، فقد ذكر صاحب

---

(١) اختلف المفسّرون في الضمير الوارد في كلمة (اتّخذوها) هل يعود إلى الصّلاة أو إلى النداء وتفيد أسباب النّزول - التي أشير إليها سابقاً - صحة الاحتمالين، لأنّ المنافقين والكفار كانوا يستهزئون بالأذان والصّلاة معاً، لكن ظاهر الآية يعزز الاحتمال الأوّل، أي إنّ الضمير يعود على الصّلاة.

تفسير (المنار) أنّ بعض المسيحيين المتطرّفين حين يستمعون إلى أذان المسلمين لا يجدون بدّاً من أن يعترفوا بتأثيره المعنوي العظيم في نفوس سامعيه، وينقل صاحب المنار - أيضاً - أنّه شوهد في إحدى مدن مصر جماعة من النصارى كانوا قد اجتمعوا أثناء أذان المسلمين للاستماع إلى هذا اللحن السماوي.

فأيّ شعار أقرب إلى الذوق وآنس إلى الأسماع من شعار يبدأ بذكر اسم الله ويشهد بتوحيده ووحدانيته وبنبوة رسول الإسلام ﷺ، ويدعو إلى الفلاح والعمل الصالح، وينتهي - كذلك - بذكر الله!! فبدايته اسم (الله) وختامه اسم (الله) في جمل موزونة متناغمة، ذات عبارات قصيرة واضحة المعنى وذات محتوى تربوي بنّاء.

ولذلك أكّدت الرّوايات الإسلامية كثيراً على ضرورة أداء الأذان، فقد ورد عن النّبي ﷺ حديث معروف في هذا المجال، أنّه قال: «المؤذنون أطول النّاس أعناقاً يوم القيامة»[(١)] وهذا العلو هو نفس علو منزلة القيادة التي تدعو الناس إلى الله وإلى عبادة كالصّلاة.

إنّ صوت الأذان الذي ينطلق في أوقات الصّلاة من مآذن المدن الإسلامية بمثابة نداء الحرية والنسيم الذي يهب الحياة لروح الاستقلال والمجد، ويدغدغ آذان المسلمين الأبرار ويثير الرعب والخوف في نفوس الأعداء الحاقدين، ويعتبر رمزاً من رموز بقاء الإسلام، والدليل على هذا الأمر اعتراف أحد رجالات انجلترا المعروفين الذي قال أمام جمع من المسيحيين: ما دام اسم النّبي محمّد يرفع على المآذن، وما دامت الكعبة باقية وما دام القرآن يهدي ويوجّه المسلمين، فلا يمكن أن تترسخ قواعد سياسة الإنجليز في الأراضي الإسلامية[(٢)].

وبالرّغم من ذلك فإنّ بعض المسلمين البؤساء أزاحوا مؤخّراً هذا الشعار الإسلامي العظيم - الذي هو سند ومستمسك حيّ على صمود ومقاومة دينهم وثقافتهم على مرّ العصور - من إذاعاتهم ووضعوا مكانه برامج رخيصة، نسأل الله أن يهدي هؤلاء للعودة إلى صفوف المسلمين.

ومن الطبيعي أنّ الأذان - لفحواه ومحتواه الجميل البديع - يحتاج أداؤه إلى صوت مقبول، لكي لا يشوّه الأداء غير المستساغ هذا المحتوى الجميل الجذّاب.

---

(١) الوسائل: ج٥، ص٣٧٦، باب ٢، ح٢١.

(٢) صاحب هذا القول «كلودستون» الذي يعتبر من السياسيين المتفوّقين في عصره.

نزول الأذان وحياً على النّبي

وردت في بعض الرّوايات المنقولة من طرق أهل السنّة قصص غريبة حول تشريع الأذان لا تتناسب ولا تتلاءم مع المنطق الإسلامي، وممّا نقلوا في هذا الباب أنّ النّبي ﷺ بعد أن سأله أصحابه عن إيجاد طريقة لمعرفة أوقات الصّلاة، استشار الصحابة، فقدّم كل منهم اقتراحاً، ومن ذلك رفع علم خاص في أوقات الصّلاة أو إشعال نار، أو دق ناقوس، لكن النّبي ﷺ لم يوافق على أيّ من هذه الاقتراحات، ثمّ أنّ عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب - رأيا في المنام - شخصاً يأمرهما بأداء الأذان لإعلان وقت الصّلاة، وعلّمهما كيفية هذا الأذان، فقبل النّبي ﷺ ذلك(١).

إنّ هذه الرواية المختلقة تعتبر إهانة لمنزلة النّبي ﷺ الرفيعة، حيث تدّعي أنّ النّبي - بدلاً من أن يعتمد على الوحي - استند في تشريع الأذان على حلم رآه أفراد من أصحابه.

والصحيح في هذا الباب ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام من أنّ الأذان نزل وحياً على النّبي ﷺ، يحدّثنا الإمام الصّادق عليه السلام أنّ النّبي ﷺ كان واضعاً رأسه في حجر علي عليه السلام حين نزل جبرائيل بالأذان والإقامة، فعلّمهما للنّبي ﷺ ثمّ رفع النّبي رأسه وسأل عليّاً إن كان قد سمع صوت أذان جبرائيل، فردّ علي عليه السلام بالإيجاب، فسأله النّبي ﷺ مرّة ثانية إن كان قد حفظ ذلك، فردّ علي عليه السلام بالإيجاب - أيضاً - ثمّ طلب النّبي ﷺ من علي عليه السلام أن ينادي بلالاً - الذي كان يتمتع بصوت جيّد - ويعلّمه الأذان والإقامة، فاستدعى علي عليه السلام بلالاً وعلّمه الأذان والإقامة(٢).

وللاستزادة من التفاصيل في هذا الباب يمكن مراجعة كتاب (النص والاجتهاد)(٣) للسيد عبد الحسين شرف الدين - ص ١٢٨.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٢٥.
(٢) الوسائل، ج ٤، ص ٦١٢.
(٣) النص والاجتهاد، ص ١٢٨.

سبب النّزول

نقل عن عبد الله بن عباس أنّ جماعة من اليهود جاءوا إلى النّبي ﷺ وطلبوا منه أن يشرح لهم معتقداته، فأخبرهم النّبي ﷺ أنّه يؤمن بالله الواحد الأحد، ويؤمن بأنّ كل ما نزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وجميع الأنبياء هو الحقّ، وأنّه لا يفرّق بين أنبياء الله، فأجابوه بأنّهم لا يعرفون عيسى ولا يؤمنون بنبوّته، ثمّ قالوا للنّبي ﷺ إنّهم لا يعرفون ديناً أسوأ من دينه! فنزلت هاتان الآيتان ردّاً على هؤلاء الحاقدين(١).

التّفسير

في هذه الآية يأمر الله نبيّه ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم وانتقادهم للمسلمين، وهل أنّ الإيمان بالله الواحد الأحد والاعتقاد بما أنزل على نبي الإسلام والأنبياء الذين سبقوه يجابه بالاعتراض والانتقاد، حيث تقول الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾(٢).

وتشير هذه الآية - أيضاً - إلى جانب آخر من جوانب صلف ووقاحة اليهود وتطرّفهم غير المبرر، ونظرتهم الضيّقة الأحادية الجانب التي دفعت بهم إلى الاستهانة بكلّ شخص ودين غير أنفسهم ودينهم، وهم لتطرّفهم ذلك كانوا يرون الحقّ باطلاً والباطل حقّاً.

وتأتي في آخر الآية عبارة تبيّن علّة الجملة السابقة، حيث تبيّن أنّ اعتراض اليهود وانتقادهم للمسلمين الذين آمنوا بالله وبكتبه، ما هو إلاّ لأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا في الذنوب، ولذلك فهم - لانحرافهم وتلوّثهم بالآثام - يعيبون على كلّ إنسان شريف اتباعه للصواب وسيره في طريق الحقّ حيث تؤكّد الآية: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

وبديهي أنّ المقاييس في محيط موبوء بالفساد والفسق، تنقلب - أحياناً - بحيث

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٦٧؛ وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٣٣.

(٢) إنّ كلمة «تنقمون» مشتقة من المصدر «نقمة» وتعني في الأصل إنكار شيء معيّن نطقاً أو فعلاً كما تأتي بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

يصبح الحقّ باطلاً والباطل حقاً، ويصبح العمل الصالح والاعتقاد النزيه شيئاً قبيحاً مثيراً للاعتراض والانتقاد، بينما يعتبر كلّ عمل قبيح شيئاً جميلاً جديراً بالاستحسان والمديح، وهذه هي طبيعة المسخ الفكري الناتج عن الانغماس في الخطايا والذنوب إلى درجة الإدمان.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية تنتقد جميع أهل الكتاب، وواضح أنّها عزلت حساب الأقلية الصالحة بدقة عن الأكثرية الآثمة باستخدام كلمة (أكثركم) في العبارة الأخيرة منها.

الآية الثّانية تقارن المعتقدات المحرّفة وأعمال أهل الكتاب والعقوبات التي تشملهم بوضع المؤمنين الأبرار من المسلمين لكي يتبيّن أيّ الفريقين يستحق النقد والتقريع، وهذا بذاته جواب منطقي للفت انتباه المعاندين والمتطرّفين في عصبيّتهم.

وفي هذه المقارنة تطلب الآية من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل هؤلاء: هل أنّ الإيمان بالله الواحد وبكتبه التي أنزلها على أنبيائه أجدر بالنقد والاعتراض، أم الأعمال الخاطئة التي تصدر عن أناس شملهم عقاب الله؟

فتخاطب الآية النّبي بأن يسأل هؤلاء إن كانوا يريدون التعرّف على أناس لهم عند الله أشدّ العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾(١).

ولا شك أنّ الإيمان بالله وكتبه ليس بالأمر غير المحمود، وأنّ المقارنة الجارية في هذه الآية بين الإيمان وبين أعمال وأفكار أهل الكتاب، هي من باب الكناية، كما ينتقد إنسان فاسد إنساناً تقيّاً فيسأل الإنسان التقي ردّاً على هذا الفاسد: أيّهما أسوأ الأتقياء أم الفاسدون.

بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبيّن أنّ أُولئك الذين شملتهم لعنة الله فمسخهم قروداً وخنازير، والذين يعبدون الطاغوت والأصنام، إنّما يعيشون في هذه الدنيا وفي الآخرة وضعاً أسوأ من هذا الوضع، لأنّهم ابتعدوا كثيراً عن طريق الحقّ

---

(١) إنّ كلمة (مثوبة) وكذلك كلمة (ثواب) تعنيان - في الأصل - الرجوع أو العودة إلى الحالة الأُولى، كما تطلقان - أيضاً - لتعنيا المصير والجزاء (الأجر أو العقاب) لكنّهما في الغالب تستخدمان في مجال الجزاء الحسن، وأحياناً تستخدم كلمة (الثواب) بمعنى العقاب وفي الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

وعن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).

وسنتطرق إلى معنى المسخ الذي يتغيّر بموجبه شكل الإنسان، وهل أنّ هذا التغيّر في الشكل يشمل صورته الجسمية، أم المراد التغيّر الفكري والأخلاقي؟ وذلك عند تفسير الآية (١٦٣) من سورة الأعراف، وبصورة مفصّلة بإذن الله.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

التّفسير

الآية الأُولى من هذه الآيات الثلاث - واستكمالاً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة حول المنافقين - تكشف عن ظاهرة الازدواجية النفاقية عند هؤلاء، وتنبّه المسلمين إلى أنّ المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان وقلبهم يغمره الكفر، ويخرجون من عند المسلمين ولا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسلمين واستدلالهم وكلامهم في نفوس هؤلاء المنافقين أيّ أثر يذكر، تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ ولذلك يجب على المسلمين أن لا ينخدعوا بهؤلاء الذين يتظاهرون بالحقّ والإيمان، ويبدون القبول لأقوال المسلمين رياءً وكذباً.

---

(١) إنّ كلمة (سواء) تعني في اللغة (المساواة والإعتدال والتساوي) وإنّ وجه تسمية الصراط المستقيم في الآية بـ(سواء السبيل) لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستوية ولأنّ طرفيه متساويان وممهّدان، كما تطلق هذه التسمية على كلّ طريقة تتسم بالإعتدال وتخلو من الانحراف، ويجب الإنتباه هنا - أيضاً - إلى أنّ عبارة (عبد الطاغوت) عطف على جملة (من لعنه الله) وكلمة (عبد) فعل ماض وليست صيغة جمع لعبد مثلما احتمله البعض من المفسّرين وإطلاق تسمية (عبد الطاغوت) على أهل الكتاب، إمّا أن يكون إشارة إلى عبادة العجل من قبل اليهود، أو إشارة إلى انقياد أهل الكتاب الأعمى لزعمائهم وكبارهم المنحرفين.

وتؤكّد الآية أنّ المنافقين مهما تستّروا على نفاقهم، فإنّ الله يعلم ما يكتمون.

ثمّ تبيّن الآية الأُخرى علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشير إلى أنّ كثيراً من هؤلاء في انتهاجهم طريق العصيان والظلم وأكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾[1] أي إنّ هؤلاء يسرعون الخطى في طريق المعاصي والظلم، وكأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر والمجد، ويتسابقون فيما بينهم في هذا الطريق دون خجل أو حياء.

وتجدر الإشارة - هنا - إلى أنّ كلمة «إثم» قد وردت بمعنى (الكفر) كما وردت لتعني جميع أنواع الذنوب أيضاً، وبما أنّها اقترنت في هذه الآية بكلمة (العدوان) قال بعض المفسّرين: إنّها تعني الذنوب التي تضرّ صاحبها فقط، على عكس العدوان الذي يتعدّى صاحبه إلى الآخرين، كما يحتمل أن يكون مجيء كلمة (العدوان) بعد كلمة (الإثم) في هذه الآية، من باب ما يصطلح عليه بذكر العام قبل الخاص، وأنّ مجيء كلمة «السحت» بعدهما هو من قبيل ذكر الأخص.

وعليه فالقرآن قد ذمّ المنافقين أوّلاً لكل ذنب اقترفوه، ثمّ خصص ذنبين كبيرين لما فيهما من خطر، وهما الظلم وأكل الأموال المحرمة، سواء كانت رباً أو رشوة أو غير ذلك.

وخلاصة القول أنّ القرآن الكريم قد ذمّ هذه الجماعة من المنافقين من أهل الكتاب، لوقاحتهم وصلفهم وتعنّتهم في ارتكاب أنواع الآثام وبالأخص الظلم وأكل المال الحرام، ولكي يؤكّد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وتدل عبارة (كانوا يعملون) على أنّ هذه الذنوب لم تكن تصدر عن هؤلاء صدفة، بل كانوا يمارسونها دائماً مع سبق إصرار.

بعد ذلك تحمل الآية الثالثة على علمائهم الذين أيّدوا قومهم على ارتكاب المعاصي بسكوتهم، فتقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ كلمة (ربّانيون) هي صيغة جمع لكلمة (ربّاني) المشتقة من

---

(١) لقد بيّنا معنى (السحت) في تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة، وشرحنا معنى (يسارعون) في تفسير الآية (٤١) من هذه السورة أيضاً، في هذا الجزء.

أما كلمة «إثم» فقد شرحنا معانيها في ذيل الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

كلمة (رب) وتعني العالم أو المفكّر الذي يدعو الناس إلى الله، لكنّها قد أُطلقت في كثير من الحالات على علماء المسيحيين، أي رجال الدين المسيحي.

أمّا كلمة (أحبار) فهي صيغة جمع لكلمة (حبر) وهي تعني العلماء الذين يخلفون آثاراً حسنة في المجتمع، لكنّها أُطلقت في موارد كثيرة على رجال الدين اليهود.

أمّا خلوّ هذه الآية من كلمة (العدوان) التي وردت في الآية قبلها، فقد استدل بعضهم من ذلك على أنّ كلمة (الإثم) الواردة هنا تشمل جميع المعاني التي تدخل في إطار هذه الكلمة ومن ضمنها (العدوان).

لقد وردت في هذه الآية عبارة (قولهم الإثم) التي تختلف عمّا ورد في الآية السابقة، ولعلّ هذه إشارة إلى أنّ العلماء مكلّفون بردع الناس عن النطق بما يشوبه الذنب من قول، كما أنهم مكلّفون بمنع الناس من ارتكاب العمل السيّئ، ولربّما تكون كلمة (قول) الواردة هنا بمعنى (العقيدة) أي إنّ العلماء الذين يهدفون إلى اصلاح أيّ مجتمع فاسد، عليهم أوّلاً أن يصلحوا أو يغيّروا المعتقدات الفاسدة التي تشيع في هذا المجتمع، فما لم يحصل التغيير الفكري لا يمكن توقّع حصول إصلاحات جذريّة في الجوانب العملية، وبهذه الصورة تبيّن الآية للعلماء أنّ الثورة الفكرية هي الأساس والمنطلق لكلّ إصلاح يراد تحقيقه في كل مجتمع فاسد.

وفي الختام، يمارس القرآن الكريم نفس أسلوب الذم الذي اتّبعه مع أهل المعاصي الحقيقيين، فيذمّ العلماء الساكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقبّح صمتهم هذا، كما تقول الآية: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وهكذا تبيّن أنّ مصير الذين يتخلّون عن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العظيمة - وخاصّة إن كانوا من العلماء - يكون كمصير أصحاب المعاصي، وهؤلاء في الحقيقة شركاء في الذنب مع العاصين.

ونقل عن ابن عباس المفسّر المعروف قوله بأنّ هذه الآية أعنف آية وبّخت العلماء المتجاهلين لمسؤولياتهم الصامتين عن المعاصي.

وبديهي أنّ هذا الحكم لا ينحصر في علماء اليهود والنصارى، بل يشمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سكتوا وصمتوا أمام تلوّث مجتمعاتهم بالذنوب وتسابق الناس في الظلم والفساد، ذلك لأنّ حكم الله واحد بالنسبة لجميع البشر.

وورد عن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام في إحدى خطبه، أنّ سبب هلاك الأقوام السابقة هو ارتكابهم للمعاصي وسكوت علمائهم عنهم وامتناعهم عن النهي عن المنكر فكان ينزل عليهم - لهذا السبب - البلاء والعذاب من الله، وأنّ على الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر لكي لا ينزلقوا إلى مصير أُولئك الأقوام[1].

كما ورد بنفس هذا المضمون كلام للإمام علي عليه‌السلام: في (نهج البلاغة) في آخر خطبته القاصعة (الخطبة ١٩٢) قوله عليه‌السلام: «فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلاّ لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي...».

ويلفت الانتباه هنا أيضاً أنّ الآية السابقة حين كانت تتحدّث عن سواد الناس جاءت بعبارة (يعملون) بينما حين صار الحديث في هذه الآية عن العلماء جاءت بعبارة (يصنعون) والصنع هو كل عمل استخدمت فيه الدقّة والمهارة، بينما العمل يطلق على جميع الأفعال حتى لو كانت خالية من الدقّة، هكذا فإنّ هذه العبارة (يصنعون) تتضمّن بحدّ ذاتها ذمّاً أكبر، وذلك لأنّ سواد الناس إن ارتكبوا ذنباً يكون ارتكابهم هذا - غالباً - بسبب جهلهم، بينما العالم الذي لا يؤدّي واجبه فهو يرتكب إثماً عن دراية وعلم وتفكير، ولهذا يكون عقابه أشد وأعنف من عقاب الجاهل.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

تبرز هذه الآية واحداً من المصاديق الواضحة للأقوال الباطلة التي كان اليهود يتفوّهون بها، وقد تطرّقت الآية السابقة إليها - أيضاً - ولكن على نحو كلي.

ويتحدّث لنا التّأريخ عن فترة من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلى ذروة السلطة

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤٩؛ وأصول الكافي، ج ٥، ص ٥٧.

والقدرة، وكانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعمورة، ويمكن الاستشهاد بحكم سليمان وداود كمثال على حكم الدولة اليهودية، وقد استمر حكم اليهود بعدهما بين رقي وانحطاط حتى ظهر الإسلام، فكان إيذاناً بأفول الدولة اليهودية، وبالأخص في الحجاز، إذ أدّى قتال النبي ﷺ ليهود بني النضير وبني قريظة ويهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصورة نهائية.

وفي ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكّرون سلطتهم القويّة السابقة، كانوا يقولون - استهزاءً وسخرية - إنّ يد الله أصبحت مقيّدة بالسلاسل (والعياذ بالله) وإنّه لم يعد يعطف على اليهود! ويقال: إنّ المتفوّه بهذا الكلام كان الفنحاص بن عازوراء رئيس قبيلة بني القينقاع، أو النباش بن قيس كما ذكر بعض المفسّرين.

وبما أنّ سائر أبناء الطائفة اليهودية أظهروا الرضى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ . . .﴾.

ويجب الانتباه إلى أنّ كلمة (اليد) تطلق في اللغة العربية على معانٍ كثيرة ومنها (اليد العضوية) كما أنّ من معانيها (النعمة) و(القدرة) و(السلطة) و(الحكم)، وبديهي أنّ المعنى الشائع لها هو اليد العضوية.

ولمّا كان الإنسان ينجز أغلب أعماله المهمّة بيده، فقد أُطلقت من باب الكناية على معانٍ أُخرى.

وتفيدنا الكثير من الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الآية تشير إلى ما كان اليهود يعتقدون به حول القضاء والقدر والمصير والإرادة، حيث كانوا يذهبون إلى أنّ الله قد عيّن كل شيء منذ بدء الخليقة، وأنّ كلّ ما يجب أن يحصل قد حصل، وأنّ الله لا يستطيع من الناحية العملية إيجاد تغيير في ذلك[1].

وبديهي أنّ تتمة الآية التي تتضمّن عبارة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ - كما سيأتي شرحه - تؤيّد المعنى الأوّل، كما يمكن أن يقترن المعنى الثّاني بالمعنى الأوّل في مسير واحد، لأنّ اليهود حين أفل نجم سلطانهم، كانوا يعتقدون أنّ هذا الأفول هو مصيرهم المقدّر، وأنّ يد الله مقيّدة لا تستطيع فعل شيء أمام هذا المصير.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤٩، تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٨٦.

والله تعالى يرد على هؤلاء توبيخاً وذمّاً لهم ولمعتقدهم هذا بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ ثمّ لكي يبطل هذه العقيدة الفاسدة يقول سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فلا إجبار في عمل الله كما أنّه ليس محكوماً بالجبر الطبيعي ولا الجبر التّأريخي، بل إنّ إرادته فوق كل شيء وتعمل في كلّ شيء.

والملفت للنظر هنا أنّ اليهود ذكروا اليد بصيغة المفرد كما جاء في الآية موضع البحث، لكن الله تعالى من خلال ردّه عليهم قد ثنّى كلمة اليد فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهذا بالإضافة إلى كونه تأكيداً للموضوع، فهو كناية لطيفة تظهر عظمة جود الله وعفوه، وذلك لأنّ الكرماء جدّاً يهبون ما يشاءون للغير بيدين مبسوطتين، أضف إلى ذلك أنّ ذكر اليدين كناية عن القدرة الكاملة، أو ربّما يكون إشارة إلى النعم المادية والمعنوية، أو الدنيوية والأُخروية.

ثمّ تشير الآية إلى أنّ آيات الله التي تفضح أقوال ومعتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر في صلفهم وعنادهم ويتمادون في طغيانهم وكفرهم بدلاً من تأثيرها الإيجابي في ردعهم عن السير في نهجهم الخاطئ حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

بعد ذلك تؤكّد الآية أنّ صلف هؤلاء وطغيانهم وكفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من الله عذاب شديد في هذه الدنيا، من خلال تفشّي العداء والحقد فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في معنى عبارة (العداوة والبغضاء) الواردة في هذه الآية، لكنّنا لو تغاضينا عن الوضع الاستثنائي غير الدائم الذي يتمتع به اليهود في الوقت الحاضر، ونظرنا إلى تاريخ حياتهم المقترن بالتشتت والتشرّد، لثبت لدينا أنّ هناك عاملاً واحداً لهذا الوضع التّأريخي الخاص لهؤلاء، وهو انعدام الاتحاد والإخلاص فيما بينهم على الصعيد العالمي، فلو كان هؤلاء يتمتعون بالوحدة والصدق فيما بينهم، لما عانوا طيلة تاريخ حياتهم ذلك التشرّد والضياع والتشتت والتعاسة.

وقد شرحنا قضية العداوة والبغضاء الدائمة بين أهل الكتاب بشيء من التفصيل عند تفسير الآية (١٤) من نفس هذه السورة.

وتشير الآية - في الختام - إلى المساعي والجهود التي كان يبذلها اليهود لتأجيج

نيران الحروب، وعناية الله ولطفه بالمسلمين في إنقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾.

وتعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النّبي الأكرم محمّد ﷺ، لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز والأعرف بمسائل الحرب، بالإضافة إلى ما كانوا يمتلكون من قلاع حصينة وخنادق منيعة، ناهيك عن قدرتهم المالية الكبيرة التي كانت لهم عوناً في كل صراع بحيث إنّ قريشاً كانوا يستمدون العون منهم، وكان الأوس والخزرج يسعى كل منهما إلى التحالف معهم وكسب صداقتهم ونيل العون منهم في المجال العسكري، لكنّهم فقدوا فجأة قدرتهم المتفوّقة - هذه - وطويت صفحة جبروتهم دفعة واحدة، بشكل لم يكن متوقعاً لديهم، فاضطر يهود بني النضير وبني قريظة وبني القينقاع إلى ترك ديارهم، كما استسلم نزلاء قلاع خيبر الحصينة وسكّان فدك من اليهود خاضعين للمسلمين، وحتى أُولئك الذين كانوا يقطنون في فيافي الحجاز منهم اضطروا إلى الخضوع أمام عظمة الإسلام، فهم بالإضافة إلى عجزهم عن نصرة المشركين اضطروا إلى ترك ميدان النزال والصراع.

ثمّ تبيّن الآية - أيضاً - أنّ هؤلاء لا يكفّون عن نشر بذور الفتنة والفساد في الأرض فتقول: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾ وتؤكّد أيضاً قائلة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

ويستدلّ من هذا على أنّ أسلوب المواجهة القرآني لليهود لم يكن يتركّز على أساس عنصري مطلقاً، بل إنّ المعيار الذي استخدمه القرآن في توجيه النقد إليهم، هو معيار الأعمال التي يمكن أن تصدر من أي جنس وعنصر أو طائفة، وسنلاحظ في الآيات القادمة أنّ القرآن على الرغم من كل ما صدر من هؤلاء، قد ترك باب التوبة مفتوحاً أمامهم.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

التّفسير

بعد أن وجّهت الآيات السابقة النقد لنهج وأُسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقاً لما تقتضيه مبادىء التربية الإنسانية لتفتحا باب العودة والتوبة أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكي يعودوا إلى الطريق القويم، ولتريهم الدرب الحقيقي الذي يجب أن يسيروا فيه، ولتثمّن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التي عاشت في ذلك العصر لكنّها لم تواكب الأكثرية في أخطائها، فتقول الآية الأُولى في البدء: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدتهم بالجنّة ونعيمها، إذ قالت: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وهذه إشارة إلى النعم المعنوية الأُخروية.

ثمّ تشير الآية الثّانية إلى الأثر العميق الذي يتركه الإيمان والتقوى، في الحياة الدنيوية للإنسان، فتؤكّد أنّ أهل الكتاب لو طبّقوا التّوراة والإنجيل وجعلوهما منهاجاً لحياتهم وعملوا بكلّ ما نزل عليهم من ربّهم، سواء في الكتب السماوية السابقة أم في القرآن، دون تمييز أو تطرّف لغمرتهم النعم الإلهيّة من السماء والأرض، فتقول الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.

وبديهي أنّ المراد من إقامة التّوراة والإنجيل هو اتّباعهم لما بقي من التّوراة والإنجيل الحقيقيين في أيديهم في ذلك العصر، ولا يعني اتّباع ما حرّف منهما والذي يمكن معرفته من خلال القرائن.

والمراد بجملة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ كل الكتب السماوية والأحكام الإلهيّة، لأنّ هذه الجملة يفهم منها الإطلاق، وهي في الحقيقة إشارة إلى النهي عن خلط العصبيات القومية بالوسائل الدينية الإلهيّة، فليس المهم كون هذا الكتاب عربياً أو ذلك الكتاب يهودياً، بل المهم هو الأحكام الإلهيّة الواردة فيهما وفي كلّ الكتب السماوية، أي إنّ القرآن أراد أن يطفىء - ما أمكنه ذلك - نار العصبية القومية عند هؤلاء، ويمهّد السبيل إلى التغلغل في أعماق نفوسهم وقلوبهم، لذلك فالضمائر الواردة في هذه الآية تعود إلى أهل الكتاب وهي: (إليهم، من ربّهم، من فوقهم، ومن تحت أرجلهم) وما ذلك إلاّ لكي يترك هؤلاء عنادهم وصلفهم، ولكي لا يتصوّروا أنّ الخضوع والاستسلام أمام القرآن يعني استسلام اليهود للعرب، بل هو استسلام وخضوع لربّهم العظيم.

ولا شك أنّ المراد بإقامة التّوراة والإنجيل هو العمل بالمبادىء السماوية الواردة فيهما، لأنّ جميع المبادىء والتعاليم كما أسلفنا سابقاً - التي جاء بها الأنبياء أينما كانوا - واحدة لا فرق بينها غير الفرق بين الكامل والأكمل، ولا يتنافى هذا مع النسخ الذي ورد في بعض الأحكام الواردة في الشريعة اللاحقة لأحكام وردت في شريعة سابقة.

ومجمل القول أنّ الآية الأخيرة تؤكّد مرّة أُخرى هذا المبدأ الأساسي القائل بأنّ اتّباع التعاليم السماوية التي جاء بها الأنبياء، ليس لإعمار الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت فحسب، بل إنّ لها - أيضاً - انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية المادية للإنسان، فهي تقوّي الجماعات وتعزز صفوفها وتكثّف طاقاتها، وتغدق عليها النعيم وتضاعف إمكانياتها وتضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن والاستقرار.

ولو ألقينا نظرة على الثروات الطائلة والطاقات البشرية الهائلة التي تهدر اليوم في عالم الإنسان نتيجة للانحراف عن هذه التعاليم، في صنع وتكديس أسلحة فتّاكة، وفي صراعات لا مبرر لها ومساع هدّامة، لرأينا أنّ ذلك كلّه دليل حيّ على هذه الحقيقة، حيث إنّ الثروات التي تستخدم لإشاعة الدمار في هذا العالم - إذا أمعنا النظر جيّداً - إن لم تكن أكثر حجماً من الثروات التي تنفق في سبيل البناء، فهي ليست بأقلّ منها.

إنّ العقول المفكّرة التي تسعى وتعمل جاهدة - اليوم - لإكمال وتوسيع إنتاج الأسلحة الحربية، ولتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنّما تشكّل جزءاً مهمّاً من الطاقات البشرية الخلاّقة التي طالما احتاجها المجتمع البشري لرفع احتياجاته، وكم سيصبح وجه الدنيا جميلاً وجذّاباً لو كانت كل هذه الطاقات تستغل في سبيل الإعمار؟

وجدير بالانتباه - هنا أيضاً - أنّ عبارتي ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ ومن ﴿تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الواردتين في الآية الأخيرة، معناهما أنّ نعم السماء والأرض ستغمر هؤلاء المؤمنين، كما يحتمل أن تكونا كناية عن النعم بصورة عامّة كما ورد في الآثار الأدبية العربية وغيرها قولهم: (إنّ فلاناً غرق في النعمة من قمّة رأسه حتى أخمص قدمه).

كما أنّ هذه الآية تعدّ جواباً على أحد أقوال اليهود الذي ورد ذكره في الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ سبب انقطاع نعم الله عنهم، ليس ما زعموه من أنّ ذات الله المقدّسة المنزّهة قد شابها البخل (والعياذ بالله) أو أنّ يده أصبحت مغلولة، بل لأنّ

أعمالهم الخبيثة قد انعكست آثارها في حياتهم المادية والمعنوية فسوّدتهما، فإن لم يتوبوا لن ينقذهم الله من آثار هذه الأعمال.

وفي الختام تشير الآية الكريمة إلى الأقلية الصالحة من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال في حياتهم خلافاً لنهج الأغلبية المنحرفة، فعزل الله حسابهم عن حساب هذه الأكثرية الضالة، حيث تقول الآية: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد وردت عبارات مشابهة عن الأقلية الصالحة من أهل الكتاب، في الآيتين (١٥٩ و١٨١) من سورة الأعراف، والآية (٧٥) من سورة آل عمران.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾

التّفسير

اختيار الخليفة مرحلة انتهاء الرسالة

إنّ لهذه الآية نَفَساً خاصّاً يميّزها عمّا قبلها وعمّا بعدها من آيات، إنّها تتوجّه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ وحده وتبيّن له واجبه، فهي تبدأ بمخاطبة الرّسول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وتأمره بكلّ جلاء ووضوح أنّ ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(١).

ثمّ لكي يكون التوكيد أشد وأقوى، تحذّره وتقول: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

ثمّ تُطمئن الآية الرّسول ﷺ - وكأنّ أمراً يقلقه - وتطلب منه أن يهدىء من روعه وأن لا يخشى الناس فتقول له: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وفي ختام الآية إنذار وتهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة الخاصّة ويكفرون بها عناداً، فتقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أسلوب هذه الآية، ولحنها الخاص، وتكرر توكيداتها، وكذلك ابتداؤها بمخاطبة الرّسول ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ التي لم ترد في القرآن الكريم سوى مرّتين، وتهديده بأنّ عدم تبليغ هذه الرسالة الخاصّة إنّما هو تقصير - وهذا لم يرد إلاّ في هذه الآية وحدَها - كل

(١) عبارة «بلّغ» كما يقول الراغب في «المفردات» أكثر توكيداً من «أبلغ».

ذلك يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدّاً بحيث إنّ عدم تبليغه يعتبر عدمَ تبليغ للرسالة كلها.

لقد كان لهذا الأمر معارضون أشدّاء إلى درجة أنّ الرّسول ﷺ كان قلقاً لخشيته من أنّ تلك المعارضة قد تثير بعض المشاكل في وجه الإسلام والمسلمين، ولهذا يطمئنه الله تعالى من هذه الناحية.

هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي - مع الأخذ بنظر الاعتبار تأريخ نزول هذه الآية، وهو قطعاً في أواخر حياة الرّسول الأكرم ﷺ -: تُرى ما هذا الموضوع المهم الذي يأمر الله رسولَه - مؤكّداً - أن يبلّغه للناس؟

هل هو ممّا يخصّ التوحيد والشرك وتحطيم الأصنام، وهو ما تمّ حلّه للنّبي ﷺ وللمسلمين قبل ذلك بسنوات؟

أم هو ممّا يتعلّق بالأحكام والقوانين الإسلامية، مع أنّ أهمّها كان قد سبق نزوله حتى ذلك الوقت؟

أم هو الوقوف في وجه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، مع أنّنا نعرف أنّ هذا لم يعد مشكلة بعد الانتهاء من حوادث بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وخيبر وفدك ونجران؟

أم كان أمراً من الأُمور التي لها صلة بشأن المنافقين، مع أنّ هؤلاء قد طردوا من المجتمع الإسلامي بعد فتح مكّة، وامتداد نفوذ المسلمين وسيطرتهم على أرجاء الجزيرة العربية كافة، فتحطّمت قوّتهم، ولم يبق عندهم إلاّ ما كانوا يخفونه مقهورين؟

فما هذه المسألة المهمّة - يا تُرى - التي برزت في الشهور الأخيرة من حياة الرسول ﷺ بحيث تنزل هذه الآية وفيها كلّ ذلك التوكيد؟

ليس ثمّة شك أنّ قلق الرسول ﷺ لم يكن لخوف على شخصه وحياته، وإنّما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين وقيامهم بوضع العراقيل في طريق المسلمين.

هل هناك مسألة تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسألة استخلاف النّبي ﷺ وتعيين مصير مستقبل الإسلام؟!

سوف نرجع إلى مختلف الرّوايات الواردة في الكثير من كتب السنّة والشيعة بشأن هذه الآية، لكي نتبيّن إن كانت تنفعنا في إثبات الاحتمال الذي أوردناه آنفاً، ثمّ نتناول بالبحث الاعتراضات والانتقادات التي أوردها بعض المفسّرين من السنّة حول هذا التّفسير.

نزول آية التبليغ

على الرغم من أنّ الأحكام المتسرّعة، والتعصّبات المذهبية قد حالت - مع الأسف - دون وضع الحقائق الخاصّة بهذه الآية في متناول أيدي جميع المسلمين بغير تغطية أو تمويه، إلاّ أنّ هناك مختلف الكتب التي كتبها علماء من أهل السنّة في التّفسير والحديث والتّأريخ، أوردوا فيها روايات كثيرة تقول جميعها بصراحة:

إنّ الآية المذكورة قد نزلت في علي عليه السلام.

هذه الرّوايات ذكرها الكثيرون من الصحابة، منهم زيد بن أرقم وأبو سعيد الخدري وابن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو هريرة والبراء بن عازب وحذيفة وعامر بن ليلى بن ضمرة وابن مسعود وقالوا: إنّها نزلت في علي عليه السلام وبشأن يوم الغدير.

بعض هذه الأحاديث نقل بطريق واحد مثل رواية زيد بن أرقم.

وبعضها نقل بأحد عشر طريقاً، مثل رواية أبي سعيد الخدري ورواية ابن عباس.

وبعضها نقل بثلاثة طرق، مثل رواية البراء بن عازب، أمّا العلماء الذين أوردوا هذه الرّوايات في كتبهم فهم كثيرون، من بينهم:

الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه «ما نزل من القرآن في علي» (نقلاً عن «الخصائص» الصفحة ٢٩).

وأبو الحسن الواحدي النيسابوري في «أسباب النّزول» الصفحة ١٥٠.

والحافظ أبو سعيد السجستاني في كتابه «الولاية» (نقلاً عن كتاب «الطرائف»)[(١)].

وابن عساكر الشافعي (انظر «الدر المنثور» المجلد ٣ من الصفحة ٢٩٨).

والفخر الرازي في «التفسير الكبير» المجلد ٣ الصفحة ٦٣٦.

وأبو إسحاق الحمويني في «فرائد السمطين».

وابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمّة» الصفحة ٢٧.

وجلال الدين السيوطي في «الدر المنثور» المجلد ٣ الصفحة ٢٩٨.

والقاضي الشوكاني في «فتح القدير» المجلد ٣ الصفحة ٥٧.

وشهاب الدين الآلوسي الشافعي في «روح المعاني» المجلد ٦ الصفحة ١٧٢.

---

(١) الطرائف، للسيّد ابن طاووس الحسني، ص ١٢١.

والشيخ سليمان القندوزي الحنفي في «ينابيع المودة» الصفحة ١٢٠.

وبدر الدين الحنفي في «عمدة القاري في شرح صحيح البخاري» المجلد ٨ الصفحة ٥٨٤.

والشيخ محمّد عبده المصري في تفسير «المنار» المجلد ٦ الصفحة ٤٦٣.

والحافظ ابن مردويه (المتوفى سنة ٤١٦ عن السيوطي في «الدر المنثور»).

وجماعة كثيرون غيرهم أشاروا إلى سبب نزول هذه الآية(١).

ونحن لا نعني - طبعاً - أنّ العلماء والمفسّرين الذين مرّ ذكرهم قد قبلوا نزول الآية في علي عليه السلام، بل نقصد أنّهم ذكروا - فقط - الرّوايات الخاصّة بذلك في كتبهم، ولكنّهم بعد أن نقلوا تلك الرّوايات المعروفة، امتنعوا عن قبولها، إمّا خوفاً من الظروف التي كانت تحيط بهم، وإمّا لأنّ التسرّع في الحكم وقف حائلاً دون إصدار حكم سليم في أمثال هذه الأُمور، بل لقد سعوا - قدر إمكانهم - أن يعتموا الرؤية الصحيحة لها ويظهروها بشكل هامشي.

فهذا الرازي - مثلاً - وهو المعروف بتعصّبه المذهبي في مسائل خاصّة، أدرج سبب نزول هذه الآية كاحتمال عاشر بعد إيراده تسعة احتمالات أُخرى كلّها واهية وضعيفة ولا قيمة لها.

وليس هذا بمستغرب من الرازي، فهذا شأنه في كل المواضيع. لكنّنا نتعجب من كُتّاب مثقفين أمثال سيد قطب، في تفسيره «في ظلال القرآن» ومحمّد رشيد رضا في تفسيره «المنار»، الذين أهملوا - كلّياً - الإشارة إلى سبب نزول هذه الآية المذكور في أُمهات المصادر الإسلامية، أو ضعّفوا أهميّته بحيث أصبح بتصويرهم لا يستلفت نظراً.

هل كانت الظروف المحيطة بهؤلاء لا تسمح لهم بذكر الحقيقة؟ أم أنّ حُجُب التعصّب أكثف من أن تخترقها أشعّة التنوير؟! لا ندري!!

وهناك آخرون اعتبروا نزول الآية في علي عليه السلام أمراً مسلّماً به، ولكنّهم ترددوا في الإقرار بأنّها تدل على الولاية والخلافة. وسنردّ - إن شاء الله - على إشكالات هؤلاء.

على كل حال، إنّ الرّوايات المنقولة في كتب أهل السنّة المعروفة - دع عنك كتب الشيعة - في هذا الموضوع من الكثرة بحيث لا يمكن إنكارها أو تجاوزها بسهولة.

---

(١) لمزيد من الايضاح يراجع الغدير، ج ١، ص ٢١٤.

لسنا ندري لماذا يكتفى في أسباب نزول سائر الآيات بحديث واحد أو حديثين اثنين فقط، ولا تكون كل هذه الرّوايات الواردة بشأن نزول هذه الآية كافية؟!

أفي هذه الآية من الخصوصية ما ليس في الآيات الأُخرى؟

ترى هل هناك دليل منطقي يسوّغ كل هذا التصلّب؟

ثمّة موضوع آخر لابدّ من الإشارة إليه، هو أنّ الرّوايات التي ذكرناها فيما سبق تتعلّق كلّها بنزول هذه الآية في علي عليه السلام، أي الرّوايات الخاصّة بسبب نزول هذه الآية فقط، أمّا الرّوايات الواردة عن حادثة غديرخم وخطبة الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وإعلانه وصاية علي عليه السلام وولايته، فإنّها أكثر بكثير من تلك، حتى إنّ العلاّمة الأميني رحمه الله ينقل في كتابه «الغدير» حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله مع اسنادها، وعن ٨٤ من التابعين، وعن ٣٦٠ من العلماء والأُدباء المسلمين المعروفين بما لا يدع مجالاً للشك في أنّ حديث الغدير واحد من أوثق الأحاديث المتواترة، ولئن شك أحد في تواتر هذه الرّوايات فإنّه لا يمكنه أن يقبل أيّ حديث متواتر آخر.

ولمّا كانت دراسة كل هذه الرّوايات الخاصّة بشأن نزول هذه الآية، وكذلك البحث في الرّوايات الخاصّة بحادث الغدير، يتطلب تأليف كتاب ضخم يخرجنا عن طريقتنا في التّفسير، فإنّنا نكتفي بهذا القدر، ونحيل طالب الاستزادة حول هذا الموضوع الى الكتب التّالية: «الدر المنثور» للسيوطي، و«الغدير» للعلاّمة الأميني، و«إحقاق الحقّ» للقاضي نور الدين التستري، و«المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين، و«دلائل الصدق» للشيخ محمّد حسن المظفر.

حادثة الغدير بإيجاز

على الرغم من أنّ الرّوايات التي تذكر هذه الحادثة كثيرة وهي تصف واقعة بعينها، فإنّ الرّوايات التي عبّرت عنها متنوّعة، فبعض هذه الرّوايات مسهب مطوّل، وبعضها الآخر موجز مكثف، وبعضها يتناول جانباً معيّناً من الحادثة، ومن مجموع تلك الرّوايات ومن التّأريخ الإسلامي ومن ملاحظة القرائن والظروف المحيطة بوقوعها وبمكانها يتبيّن ما يلي:

إنّه في السنة الأخيرة من حياة النّبي صلى الله عليه وآله أدّى المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجّة

الوداع في عظمة وجلال، وكان لهذه الحجة أثر كبير في النفوس، وبعد انتهائها أحاطت بالقلوب هالة من السموّ الروحي، وتشرّبت في الأعماق لذّة هذه العبادة الكبرى.

وكانت الجموع الغفيرة(١) من المسلمين المشاركين في تلك الحجّة يكادون يطيرون فرحاً لهذه السعادة الكبرى التي شرّفهم الله بها.

لم يكن أهل المدينة وحدهم قد رافقوا النبي ﷺ في هذه الحجة، بل التحق بركبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيرة العربية لينالوا شرف الصحبة في هذه الحجّة.

كانت الشمس ترسل أشعّتها اللافحة المحرقة على الوديان والسهول لكن لذّة هذا السفر الروحي يسّرت كلّ شيء. اقترب وقت الظهيرة، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفة، وظهرت من بعيد أرض «غدير خم» القاحلة الجافة المحرقة.

كانت المنطقة، في الحقيقة، تقع على مفترق طرق أربع حيث كان على الحجيج أن يتفرّقوا إلى الوجهة التي يقصدونها فطريق يتّجه إلى المدينة نحو الشمال، وآخر يوصل إلى العراق شرقاً، وطريق الغرب يتّجه إلى مصر، وطريق الجنوب يصل إلى اليمن، وهنا كان لابدّ أن يتحقق أهمّ فصل من فصول هذه الرحلة وآخر ذكرياتها، وكان على المسلمين أن يتلقّوا آخر تكليف لهم، أو المرحلة النهائية من المهمّات الناجحة التي اضطلع بها رسول الله ﷺ، قبل أن يتفرّقوا إلى حال سبيلهم.

كان يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت ثمانية أيّام على عيد الأضحى، وإذا برسول الله ﷺ يصدر أمره للحجيج بالتوقف، فراح المسلمون يتنادون الذين في مقدمة الركب أن يعودوا، وانتظروا حتى يلتحق بهم من كان في المؤخرة أيضاً، كانت الشمس قد تخطّت نقطة الزوال، وصعد مؤذّن النبي ﷺ ينادي في الناس لصلاة الظهر، وأخذ الناس يستعدّون - مسرعين - لأداء الصّلاة، كانت الرياح لافحة محرقة، حتى اضطر بعضهم إلى أن يضع قسماً من عباءته تحت قدميه وقسماً منها فوق رأسه كي يتّقي حرارة الحصى وأشعّة الشمس.

ما كان في تلك الصحراء ما يستظل به، ولا ما تستريح إليه العين من خضرة الأعشاب، اللّهم إلاّ بضع شجيرات عجاف عارية تصارع حرارة الجو صراعاً مريراً.

---

(١) قيل إنّ عددهم ٩٠ ألفاً، وقيل ١٢٠ ألفاً، وقيل ١٢٤ ألفاً.

كان جمع قد لجأ إلى هذه الشجيرات ونشر رداءه عليها ليستظل به رسول الله ﷺ، إلاّ أنّ الرياح الساخنة كانت تعصف بتلك المظلّة فتنشر تحتها حرارة الشمس الحارقة.

انتهت صلاة الظهر، وهرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم ليلوذوا بها من حر الهاجرة، إلاّ أنّ رسول الله ﷺ أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدّوا لسماع رسالة إلهيّة جديدة في خطبته، وكان الذين يقفون على مسافة من رسول الله ﷺ لا يستطيعون رؤيته، لذلك صنعوا له منبراً من أحداج الإبل ارتقاه رسول الله ﷺ فقال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا الذي لا هادي لمن ضلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

أمّا بعد: أيّها الناس قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبيّ إلاّ مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي أوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ، وناره حقّ، وأنّ الموت حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: اللّهم اشهد، ثمّ قال:

أيّها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

ثمّ ساد الجوّ صمت عميق، ولم يُسمع فيه سوى أزيز الرياح... قال رسول الله ﷺ: «... فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين».

فنادى مناد: وما الثقلان، يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عزّوجلّ، وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثمّ أخذ بيد علي فرفعها حتى رئي بياض إبطيهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال:

أيّها الناس: من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه» «يقولها ثلاث مرات»، وفي لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: «أربع مرات». ثمّ قال: «اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبَّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثمّ لم يتفرّقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾(١) الآية. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الرّب برسالتي والولاية لعلي من بعدي».

ثمّ طفق القوم يهنّئون أميرالمؤمنين عليه السلام وممن هنّأه أبو بكر وعمر كلّ يقول: بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وقال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم.

وانبرى حسان بن ثابت، شاعر رسول الله ﷺ يستأذنه في تخليد ذكرى هذه الحادثة في شعره، فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخم وأسمع بالرّسول مناديا
فقال: فمن مولاكم ونبيّكم؟ ... فقالوا، ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت نبيّنا ... ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا عليّ فإنّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه ... فكونوا له أتباع صدق مواليا
هناك دعا اللّهم والِ وليّه ... وكن للذي عادى علياً معاديا(٢)

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) نقل هذه الأبيات جمع من كبار علماء أهل السنة، منهم: الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والحافظ أبو سعيد السجستاني، والخوارزمي المالكي، والحافظ أبو عبد الله المرزباني، والكنجي الشافعي، وجلال الدين السيوطي، وسبط بن الجوزي، وصدر الدين الحموي، وغيرهم (بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ١١٢).

محاورات وشبهات

ليس ثمّة شك في أنّ هذه الآية، لو لم تكن قد نزلت في خلافة علي عليه السلام، لاكتُفي فيها - كما قلنا - بأقل ممّا ورد فيها من روايات ومن قرائن موجودة في الآية نفسها، فكثير من كبار المفسّرين المسلمين يكتفون في تفسير سائر الآيات القرآنية حتى بعُشر الرّوايات الموجودة بشأن هذه الآية، أو أقل من ذلك، ولكن ممّا يؤسف له أنّ حجاب التعصّب قد حال دون قبول كثير من الحقائق.

إنّ الذين يحملون لواء المخالفة تجاه تفسير هذه الآية والرّوايات الكثيرة الواردة بشأن نزولها، والرّوايات المتواترة بخصوص أصل حادثة الغدير، ينقسمون إلى قسمين:

قسم حمل منذ البداية روح العناد والتعنّت، وحمل بشدّة على الشيعة بالإهانة والسب والشتم.

وآخرون حافظوا - إلى حدّ ما - على الروح العلمية في البحث والتحقيق، وتابعوا القضية عن طريق الاستدلال، ولذلك فهم يعترفون بجانب من الحقائق، ولكنّهم بعد إيرادهم بعض الإشكالات - التي ربّما كانت نتيجة لظروفهم الفكرية الخاصّة - يتركون الوقوف عند الآية والرّوايات المرتبطة بها.

والنموذج البارز الذي يمثّل القسم الأوّل هو ابن تيمية في كتابه «منهاج السنّة» حيث يبدو فيه كمن يغمض عينيه في رابعة النهار ويضع أصابعه في أذنيه بشدّة، ثمّ ينادي: أين الشمس؟ فلا هو مستعد أن يفتح طرفاً من عينه ليرى بعض الحقائق، ولا هو يرضى برفع أصابعه عن أُذنيه كي يستمع الى ضجيج المحدّثين والمفسّرين المسلمين، بل يستمر في سبّه وشتمه وإهاناته.

إنّ دافع هؤلاء هو الجهل وعدم الاطلاع والتعصّب المقرون بالعناد، ممّا دفع بهم إلى إنكار البديهيات والواضحات التي لا تخفى على أحد.

لذلك فنحن لا نجشم أنفسنا عناء نقل أقوالهم، ولا نحمل القراء عناء سماع إجاباتهم، فماذا يمكن أن يقال لمن ينبري بكلّ وقاحة لتجاهل هذا الحشد الكبير من كبار علماء الإسلام والمفسّرين - ومعظمهم من أهل السنّة - من الذين أعلنوا أنّ تلك الآية قد نزلت في شأن علي عليه السلام فيدّعي - متعامياً عن الحقّ - أنّ أحداً من العلماء لم يقل شيئاً كهذا في كتابه!! وما قيمة قوله هذا ليستحق البحث فيه؟!

من الجدير بالذكر أنّ ابن تيمية، في محاولته تبرئة نفسه قبال كل هذه الكتب المعتبرة التي تقول بنزول هذه الآية في حقّ علي عليه السلام، يلجأ إلى تعبير مضحك، ويكتفي بقوله: «إنّ العلماء الذين يعرفون ما يقولون لا يرون أنّ هذه الآية قد نزلت في علي»!! . . .

فالظاهر «أنّ العلماء الذين يعرفون ما يقولون» هم أُولئك الذين يضمّون أصواتهم إلى أصوات ابن تيمية وعناده المفرط، أمّا من لا يضمّ صوته إليه فإنّه عالم لا يدرك ما يقول. وهذا منطق من ألقى العناد وحبّ الذات على عقله ظلالاً مشؤومة، فلندَعْ هؤلاء.

أمّا الشبهات التي أوردها القسم الثّاني من العلماء، فمنها ما يجدر بالبحث، وسوف نتناولها فيما يلي:

١ - هل معنى «المولى» هو «الأولى بالتصرّف»؟

إنّ أهم اعتراض يورد على حادثة الغدير هو أنّ من معاني «مولى» الصديق والنصير والمحب، ومن الممكن أن تكون الكلمة هنا بهذا المعنى أيضاً.

ليس رد هذا الاعتراض بصعب، لأنّ كل ناظر منصف يدرك أنّ تذكير الناس بمحبّة علي عليه السلام لا يقتضي كل تلك المقدمات، لا إلقاء خطبة في تلك الصحراء القاحلة وتحت ذلك الحر المحرق، وايقاف تلك الجموع وانتزاع الاعترافات المتوالية منهم. إنّ حب المسلم لأخيه المسلم من المفاهيم الإسلامية الواضحة التي تقررت منذ بداية الدعوة.

ثمّ إنّ هذا الأمر لم يكن من الأُمور التي لم يبلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى ذلك الوقت، بل بلّغه وأعلنه مراراً.

كما أنّه لم يكن من الأُمور التي تثير قلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتخوّفه حتى يطمئنه الله تعالى بشأنه.

ولا كان أمراً على هذا القدر من الأهمية بحيث تتخذ الآية هذا الأُسلوب الشديد في مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

كلّ هذه تدل على أنّ الأمر كان أكثر من مجرّد محبّة عادية تلك المحبّة التي كانت من أوّليات الأُخوّة الإسلامية منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية.

ثم، إذا كان القصد تبيان مثل هذه المحبّة العادية، فلماذا يعمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى

استخلاص الاعترافات من الحاضرين قبل بيان قصده، فيسألهم: «ألست أولى بكم من أنفسكم»(١)؟ أيتناسب هذا مع بيان محبّة عادية؟

ثمّ إنّ المحبّة العادية لا تستدعي من الناس، وحتى من عمر نفسه، أن يهنّىء علياً عليه‌السلام بقوله: «أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»(٢).

حبّ المسلم واجب، وعليّ كسائر المسلمين، ويجب حبّه، وليس في ذلك شيء جديد يستوجب التهنئة في ذلك اليوم وفي آخر سنة من حياة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ثمّ إنّ هناك ارتباطاً بين حديث «الثقلين»(٣) وعبارات وداع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وموالاة علي عليه‌السلام، وإلاّ فإنّ حبّ علي عليه‌السلام حبّاً عادياً لا يستدعي أن يجعله رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في مصافّ القرآن!

أفلا يرى المنصف المحايد في التعبير الوارد في حديث الثقلين أنّ المسألة تتعلّق بالقيادة، لأنّ القرآن هو القائد الأوّل للمسلمين بعد رحيل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل البيت عليهم‌السلام هم القائد الثّاني؟

٢ - ترابط الآيات

قد يقال أحياناً إنّ الآيات السابقة واللاحقة على هذه الآية تخصّ أهل الكتاب ومخالفاتهم. وهذا ما يقول به صاحب تفسير «المنار» في المجلد ٦ صفحة ٤٦٦ ويصرّ على ذلك.

ولكن لا ضير في ذلك - كما قلنا في تفسير الآية نفسها - لأنّ اختلاف لحن الآية يختلف عن مواضيع الآيات التي قبلها وبعدها. وكما سبق أن قلنا مراراً إنّ القرآن ليس

(١) وردت هذه العبارة في روايات كثيرة.

(٢) هذا القسم من الحديث يعرف بحديث «التهنئة» وقد أورده كثير من كبار علماء الحديث والتّفسير والتّأريخ من أهل السنّة، عن طريق عدد من الصحابة، مثل: ابن عباس، وأبي هريرة، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم. وقد نقل العلاّمة الأميني رحمه‌الله هذا الحديث في المجلد الأوّل من كتابه «الغدير» عن ستين عالماً من علماء أهل السنّة!.

(٣) «حديث الثقلين» من الأحاديث المتواترة التي وردت في كتب أهل السنّة عن جمع من الصحابة، منهم: أبو سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة، وحذيفة بن أسيد، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله بن حنطب، وعبد بن حميد، وجبير بن مطعم، وضمرة الأسلمي، وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع، وأم سلمة، عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله.

كتاباً أكاديمياً يلتزم في مواضيعه أسلوب التبويب والتقسيم إلى فصول وفقرات معيّنة، بل إنّ آياته نزلت بحسب الحاجات والحوادث والوقائع المختلفة الطارئة.

لذلك نلاحظ أنّ القرآن في الوقت الذي يتكلّم عن إحدى الغزوات، ينتقل إلى ذكر حكم من الأحكام الفرعية - مثلاً - وفي الوقت الذي يتحدّث عن اليهود والنصارى، يخاطب المسلمين ويذكّرهم بأحد القوانين الإسلامية السابقة. (راجع بحثنا في بداية تفسير هذه الآية لزيادة التوضيح).

من العجيب أنّ بعض المتعصّبين يصرّون على القول بأنّ هذه الآية قد نزلت في أوائل البعثة، مع أنّ سورة المائدة نزلت في أواخر عمر رسول الله ﷺ. فإذا قالوا: إنّ هذه الآية وحدها نزلت في مكّة في أوائل البعثة، ثمّ أُدخلت في هذه الآية للتناسب، نقول: إنّ هذا على عكس ما تبحثون عنه تماماً، لأنّنا نعرف أنّ رسول الله ﷺ في أوائل البعثة لم يصطدم باليهود ولا بالنصارى، وعليه فإنّ ارتباط هذه الآية ينقطع بما قبلها وما بعدها من آيات (تأمل بدقّة).

هذه كلّها أدلة على أنّ هذه الآية قد تعرّضت إلى هبوب عواصف التعصّب، فأحاطت بها بعض علامات الاستفهام ممّا لا يعتور آيات مشابهة أُخرى أبداً، أمّا هذه الآية فكلٌّ يحاول من جهة أن يتشبث بها لصالحه بما حرفها عن مسيرها.

٣ - أتذكر الصّحاح كلّها هذا الحديث؟

يقول بعضهم: كيف يمكن قبول هذا الحديث مع أنّه لم يرد في صحيحي مسلم والبخاري؟

وهذا من عجائب القول أيضاً، فهناك:

أوّلاً: كثير من الأحاديث المعتبرة التي قبل بها أهل السنّة ليست في صحيحي مسلم والبخاري، فهذا الحديث ليس الأوّل من نوعه في هذه الحالة.

ثانياً: هل أنّ هذين الصحيحين هما الكتابان الوحيدان الموثقان عندهم، مع أنّ هذا الحديث قد ورد في سائر الكتب الأُخرى المعتبرة عندهم، وحتى في بعض الصحاح الستة (وهي التي يعتمدها أهل السنّة)، مثل «سنن ابن ماجة»[١] و«مسند أحمد»[٢].

---

(١) سنن ابن ماجة، ج ١، ص ٥٥ و٥٨.

(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ٨٤ و٨٨ و١١٨ و١١٩ و١٥٢ و٣٣١ و٢٨١ و٣٧٠.

وهناك علماء مثل «الحاكم النيسابوري» و«الذهبي» و«ابن حجر» اعترفوا بصحة الكثير من طرق هذا الحديث، على الرغم ممّا عرف عنهم من التعصّب.

لذلك فلا يستبعد أن يقع البخاري ومسلم تحت ضغط السياسة الذي ساد زمانهما، فلم يستطيعا، أو لم يشاءا أن يقولا ما لا يتلاءم ورغبة سلطات زمانهما في كتابيهما.

٤ - لِمَ لَم يحتجّ علي وأهل البيت عليهم السلام بهذا الحديث؟

يقول بعض: لو كان حديث الغدير - على عظمته - صحيحاً فلماذا لم يحتجّ به علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام وأصحابهم ومحبّوهم عند اقتضاء الضرورة؟ ألم يكن من الخير لو أنّهم احتجّوا بمثل هذا السند المهم لإثبات حقّ علي عليه السلام؟

هذا أيضاً قول آخر ينبع من عدم الإحاطة بالمصادر الإسلامية في حقل الحديث والتّفسير والتّأريخ، إذ إنّ كثيراً من كتب علماء السنّة قد ذكرت أنّ علياً عليه السلام وأئمّة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم قد احتجّوا فعلاً بحديث الغدير.

فهذا الخطيب الخوارزمي الحنفي في «المناقب» يروي عن عامر بن واثلة، قال:

كنت على الباب يوم الشورى مع علي عليه السلام في البيت وسمعته يقول: «لأحتجنّ عليكم بما لا يستطيع عربيكم ولا عجميكم تغيير ذلك» ثمّ قال: «أنشدكم الله أيّها النفر جميعاً أفيكم أحد وحّد الله قبلي؟» قالوا: لا (ثمّ استمر في تعديد مناقبه وفضائله... إلى أن قال:) «فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، ليبلّغ الشاهد الغائب، غيري؟».

قالوا: اللهم لا...» الحديث[(١)].

هذه الرواية يذكرها الحمويني في «فرائد السمطين» في الباب ٥٨، وابن حاتم في «الدر النظيم» والدارقطني، وابن عقدة، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

كذلك نقرأ في «فرائد السمطين» في الباب ٥٨ أنّ علياً عليه السلام احتجّ بحديث الغدير أمام جمع من الناس في المسجد على عهد عثمان، وفي الكوفة أيضاً احتجّ بهذا الحديث لتفنيد رأي الذين أنكروا خلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة.

يقول صاحب كتاب «الغدير»: إنّ أربعة من الصحابة وأربعة عشر من التابعين قد رووا هذا الحديث حسب ما نقلته مصادر أهل السنّة المعروفة.

---

(١) «المناقب»، ص ٢١٧.

وكما يقول الحاكم النيسابوري (في الصفحة ٣٧١ من المجلد الثالث من «المستدرك») فإنّ علياً عليه السلام قد احتجّ بهذا الحديث يوم حرب الجمل أمام طلحة.

كذلك في حرب صفين، كما يقول سليم بن قيس الهلالي: إنّ علياً كان في عسكره وأمام جمع من المهاجرين والأنصار والقادمين من أطراف البلاد، فاحتجّ بهذا الحديث فقام اثنا عشر من الذين أدركوا بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكّدوا أنّهم سمعوا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (١).

وبعد علي عليه السلام احتجّ بهذا الحديث سيدة الإسلام فاطمة الزّهراء عليها السلام والإمامان الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر، وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، والمأمون الخليفة العباسي.

بل إنّ عمرو بن العاص في رسالة له إلى معاوية أراد أن يثبت لمعاوية فيها أنّه على علم تام بالحقائق الخاصّة بمكانة كلّ من علي عليه السلام ومعاوية بالنسبة للخلافة، فاحتجّ صراحة بحديث الغدير، وقد نقله الخطيب الخوارزمي الحنفي في كتابه «المناقب» صفحة ١٢٤ (على الذين يرغبون في المزيد من التوضيح بشأن احتجاج علي عليه السلام وأهل البيت وبعض الصحابة وغير الصحابة بحديث الغدير، أن يرجعوا إلى الصفحات ١٥٩ - ٢١٣، من المجلد الأوّل من كتاب «الغدير» فقد أورد العلاّمة الأميني رحمه الله أسماء ٢٢ من الصحابة، وغير الصحابة ممن احتجّوا بهذا الحديث).

٥ - مفهوم الجملة الأخيرة من الآية

يقولون: لو كانت الآية تخصّ تنصيب علي عليه السلام في الخلافة والولاية وترتبط بحديث غدير خم، فما علاقة كلّ هذا بما جاء في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

للردّ على هذا الاعتراض يكفي أن نعرف أنّ لفظة «الكفر» في اللغة وفي القرآن تعني الإنكار والمخالفة والترك. فمرّة يقصد بها إنكار الله ونبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومرّة يراد بها إنكار بعض الأحكام أو مخالفتها، ففي الآية (٩٧) من سورة آل عمران فيما يرتبط بالحج نقرأ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والآية (١٠٢) من سورة البقرة تصف السحرة والذين تلوّثوا بالسحر بأنّهم كفّار: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٌ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾، وفي الآية (٢٢) من سورة إبراهيم نرى أنّ الشيطان يندد يوم القيامة بأُولئك

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ١٤١.

الذين أطاعوه واتّبعوه ويقول لهم: إنّكم بعدم إطاعتكم أوامر الله قد جعلتموني شريكاً له، وإنّي اليوم أكفر بعملكم ذاك: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾، وعليه، فلا عجب أن يطلق القرآن صفة الكفر على الذين يخالفون مسألة الولاية والخلافة.

٦ - هل يمكن وجود وليّين في وقت واحد؟

من الذرائع الأُخرى التي تذرّعوا بها للنكوص عن هذا الحديث المتواتر والآية المذكورة، هي أنّه إذا كان رسول الله ﷺ قد نصب علياً عليه السلام يوم الغدير للخلافة والولاية، فإنّ ذلك يعني وجود وليّين وقائدين في وقت واحد.

إلاّ أنّ الالتفات إلى الظروف الزمانية الخاصّة بنزول الآية وورود الحديث، وكذلك القرائن المستوحاة من خطبة رسول الله ﷺ تنفي هذه الذريعة أيضاً، إنّنا نعلم أنّ هذا الحدث قد جرى في أواخر عمر رسول الله ﷺ وأنّه كان يبلّغ الناس بآخر الأوامر لأنّه قال: «وإنّي أُوشك أن أُدعى فأُجيب».

إنّ من يقول هذا لا شك في أنّه بصدد تعيين خليفته، وأنّه يضع الخطط للمستقبل، لا للحاضر، كذلك من الواضح، أنّه لا يقصد إعلان وجود قائدين أو وليّين في وقت واحد.

وممّا يلفت النظر أنّ بعض علماء أهل السنّة الذين يطرحون هذا الاعتراض، يتقدّم بعضهم برأي يناقض ذلك تماماً، وهو أنّ رسول الله ﷺ قد عيّن علياً عليه السلام لأمر الخلافة والولاية، ولكنّه لم يعيّن تأريخ التعيين، فما المانع أن يأتي ذلك بعد ثلاثة خلفاء؟

إنّه لأمر محيّر حقّاً! يتشبّثون بألوان المتناقضات لكي يبتعدوا عن حقيقة القضية! ألا يسأل هؤلاء أنفسهم: إذا أراد رسول الله ﷺ أن يعيّن خليفته الرابع ضماناً لمستقبل المسلمين، فلماذا لم يعيّن الخليفة الأوّل والثّاني والثّالث في يوم الغدير، وهم يتقدّمون الرّابع وتنصيبهم مقدّم عليه؟!

ومرّة أُخرى نكرر مقولتنا السابقة لنختم بها بحثنا هذا، وهي أنّه لولا وجود نظرات خاصّة في الأمر، لما حدثت كل هذه الاعتراضات والإشكالات بشأن هذه الآية وهذا الحديث، كما لم يحدث شيء من ذلك في غيرهما.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير «مجمع البيان» وتفسير القرطبي، عن ابن عباس قال: جاءت جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ألست تقرّ بأنّ التّوراة من عند الله؟

قال: «بلى».

قالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها (وفي الحقيقة فإنّ التّوراة تعتبر القدر المشترك بيننا وبينكم، ولكنّ القرآن كتاب مختص بكم).

فنزلت الآية الأُولى(١).

التّفسير

لاحظنا في ما سبق من تفسير آيات هذه السورة أنّ قسماً كبيراً منها يدور حول العقبات التي كان يضعها أهل الكتاب «اليهود والنصارى» في طريق المسلمين وما كانوا يوردونه من مجادلة وتساؤل، هذه الآية - أيضاً - تشير إلى جانب آخر من ذلك الموضوع، تردّ فيها على منطقهم الواهي الداعي إلى اعتبار التّوراة كتاباً متّفقاً عليه بين المسلمين واليهود، وترك القرآن باعتباره موضع خلاف.

لذلك فالآية تخاطب الرّسول ﷺ قائلة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾.

وذلك لأنّ هذه الكتب - كما قلنا - صادرة عن مبدأ واحد وأصولها واحدة، ولمّا

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٨٣ و ٣٨٤؛ وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٤٥.

كان آخر هذه الكتب السماوية أكملها وأجمعها فإنّه الأجدر بالعمل به، كما أنّ الكتب السابقة تحمل بشائر وإرشادات إلى آخر الكتب، وهو القرآن، فإذا كانوا - حسب زعمهم - يقبلون التّوراة والإنجيل، وكانوا صادقين في زعمهم، فلا مندوحة لهم عن القبول بتلك البشائر أيضاً، وإذا وجدوا تلك العلامات في القرآن، فإنّ عليهم أن يحنوا رؤوسهم خضوعاً لها.

هذه الآية تقول إنّ الإدّعاء لا يكفي، بل لابدّ من اتّباع ما جاء في هذه الكتب السماوية عملياً، ثمّ إنّ القضية ليست «كتابنا» و«كتابكم»، بل هي الكتب السماوية وما أُنزل من عند الله، فكيف تريدون بمنطقكم الواهي هذا أن تتجاهلوا آخر كتاب سماوي؟

ويعود القرآن ليشير إلى حالة أكثريتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبرة والعظة من هذه الآيات ولا يهتدون بها، بل إنّهم - لما فيهم من روح العناد - يزدادون في طغيانهم وكفرهم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

وهكذا يكون التأثير المعكوس للآيات الصادقة والقول المتّزن في النفوس المملوءة عناداً ولجاجاً.

وفي ختام الآية يخفف الله من حزن رسوله ﷺ إزاء تصلّب هذه الأكثرية من المنحرفين وعنادهم، فيقول له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

هذه الآية ليست مقصورة على اليهود - طبعاً - فالمسلمون أيضاً إذا اكتفوا بادّعاء الإسلام ولم يقيموا تعاليم الأنبياء، وخاصّة ما جاء في كتابهم السماوي، فلن تكون لهم منزلة ومكانة لا عند الله، ولا في حياتهم الفردية والاجتماعية، بل سيظلّون دائماً أذلاّء ومغلوبين على أمرهم.

الآية التّالية تعود لتقرر مرّة أُخرى هذه الحقيقة، وتؤكّد أنّ جميع الأقوام وأتباع كلّ المذاهب دون استثناء، مسلمين كانوا أم يهوداً أم صابئين(٢) أم مسيحيين، لا منقذ لهم من الخوف من المستقبل والحزن على ما فاتهم إلاّ إذا آمنوا بالله وبيوم الحساب وعملوا صالحاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) «فلا تأس» من الأسى، بمعنى الغم والحزن.

(٢) الصابئون هم أتباع يحيى أو نوح أو إبراهيم، وقد ذكرناهم بتفصيل أكثر في المجلد الأول ذيل الآية ٦٢ من سورة البقرة.

هذه الآية، في الحقيقة ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة في ظل قومية معيّنة، ويفضّلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، ويتقبّلون الدعوة الدينية على أساس من تعصّب قومي، فتقول الآية إنّ طريق الخلاص ينحصر في نبذ هذه الأقوال.

وكما أشرنا في تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة، التي تقترب في مضمونها من مضمون هذه الآية سعى بعضهم بجد ليثبت أنّ هذه الآية تعتبر دليلاً على «السلام العام» وعلى أنّ أتباع جميع الأديان ناجون، وأن يتجاهل فلسفة نزول الكتب السماوية بالتتابع الذي يدل على تقدّم الإنسان في مسيرته التكاملية التدريجية.

ولكن - كما قلنا - تضع الآية حدّاً فاصلاً بقولها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لكلّ قول، وتشخّص الحقيقة، بخصوص تباين الأديان، فتوجب العمل بآخر شريعة إلهيّة، لأنّ العمل بقوانين منسوخة ليس من العمل الصالح، بل العمل الصالح هو العمل بالشرائع الموجودة وبآخرها (لمزيد من الشرح والتوضيح بهذا الشأن انظر المجلد الأوّل ص٢١٧).

ثمّ إنّ هناك احتمالاً مقبولاً في تفسير عبارة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو أنّها تختص باليهود والنصارى والصابئين، لأنّ (الذين آمنوا) في البداية لا تحتاج إلى مثل هذا القيد، وعليه، فإنّ معنى الآية يصبح هكذا:

إنّ المؤمنين من المسلمين، وكذلك اليهود والنصارى والصابئين - بشرط أن يؤمنوا وأن يتقبّلوا الإسلام ويعملوا صالحاً - سيكونون جميعاً من الناجين وإنّ ماضيهم الديني لن يكون له أيّ أثر في هذا الجانب، وإنّ الطريق مفتوح للجميع (تأمل بدقّة).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

التّفسير

في آيات سابقة من سورة البقرة(١)، وفي أوائل هذه السورة(٢) أيضاً إشارة إلى عهد

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨٣ و ٨٤ و ٩٣. (٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.

وميثاق أخذه الله تعالى على بني إسرائيل وفي هذه الآية تذكير بهذا الميثاق: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾.

يبدو أنّ هذا الميثاق هو الذي جاءت الإشارة إليه في الآية (٩٣) من سورة البقرة، أي العمل بما أنزل الله!

ثمّ يضاف إلى ذلك القول بأنّهم، فضلاً عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق، ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

هذه هي طرائق المنحرفين الأنانيين وسبلهم، فهم بدلاً من اتّباع قادتهم، يصرّون على أن يكون القادة هم التابعين لأهوائهم، وإلاّ فليس لهؤلاء الهداة والأنبياء حتى حقّ الحياة.

في هذه الآية جاء الفعل «كذبوا» بصيغة الماضي بينما جاء الفعل «يقتلون» بصيغة المضارع، ولعلّ السبب - بالإضافة إلى المحافظة على التناسب اللفظي في أواخر الآيات السابقة والتّالية وكلها بصيغة المضارع - هو كون الفعل المضارع يدل على الاستمرار، والقصد من ذلك الإشارة إلى استمرار هذه الروح فيهم، وأنّ تكذيب الأنبياء وقتلهم لم يكن حدثاً عارضاً في حياتهم، بل كان طريقاً واتجاهاً لهم(١).

في الآية التّالية إشارة إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان وجرائم: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي ظنّوا مع ذلك أنّ البلاء والجزاء لن ينزل بهم، واعتقدوا - كما صرّحت الآيات الأُخرى - أنّهم من جنس أرقى، وأنّهم أبناء الله!!

وأخيراً استحال هذا الغرور الخطير والتكبّر إلى ما يشبه حجاباً غطّى أعينهم وآذانهم: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ عن رؤية آيات الله وعن سماع كلمات الحقّ.

ولكنّهم عندما أصابتهم مظاهر من عقاب الله وشاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومة، ندموا وتابوا بعد أن أدركوا أنّ وعد الله حق، وأنّهم ليسوا عنصراً متميّزاً فائقاً.

وتقبل الله توبتهم: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

إلاّ أنّ حالة الندم والتوبة لم تلبث طويلاً، فسرعان ما عاد الطغيان والتجبّر وسحق الحقّ والعدالة، وعادت أغشية الغفلة الناتجة عن الانغماس في الإثم تحجب أعينهم

---

(١) في الواقع وكما جاء في تفسير «مجمع البيان» وفي غيره أنّ عبارة، «فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون» في الأصل «كذبوا وقتلوا» و«يكذبون ويقتلون».

وآذانهم مرّة أُخرى ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ فلم يعودوا يرون آيات أو يسمعوا كلمة الحقّ، وعمّت الحالة الكثير منهم.

ولعلّ تقديم «عموا» على «صمّوا» يعني أن عليهم أوّلاً أن يبصروا آيات الله ومعجزات رسوله ﷺ، ثمّ يستمعوا إلى تعاليمه ويستوعبوها.

وورود عبارة ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بعد تكرار ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ جاء لتوضيح أنّ حالة الغفلة والجهل والعمى والصمم تجاه الحقائق لم تكن عامّة، بل كان بينهم بعض الأقلية من الصالحين، وفي هذا دليل على أنّ تنديد القرآن باليهود لا ينطوي على أي جانب عنصري أو طائفي، بل هو موجّه إلى أعمالهم فحسب.

هل أنّ تكرار عبارة ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ ذو طابع عام تأكيدي، أم للإشارة إلى حادثتين مختلفتين؟

يرى بعض المفسّرين أنّ التكرار يشير إلى واقعتين مختلفتين حدثتا لبني إسرائيل.

الأُولى: الغزو البابلي لهم، والثّانية: غزو الإيرانيين والروم، والقرآن أشار إليها بشكل عابر في بداية سورة بني إسرائيل.

ولا يستبعد - أيضاً - أنّ بني إسرائيل قد تعرّضوا مرّات عديدة لهذه الحالات فحينما يشاهدون نتائج أعمالهم الشريرة، كانوا يتوبون، ثمّ ينقضون توبتهم، وقد حدث هذا عدّة مرّات لا مرّتين فقط.

في نهاية الآية جملة قصيرة عميقة المعنى تقول: إنّ الله لا يغفل أبداً عن أعمالهم، إذ إنّه يرى كل ما يعملون: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

التّفسير

تعقيباً على البحوث الماضية بشأن انحرافات اليهود التي مرّت في الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات والتي تليها عن انحرافات المسيحيين، فتبدأ أولاً بأهم تلك الانحرافات، أي «تأليه المسيح» و«تثليث المعبود»: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وأيّ كفر أشدّ من أن يجعلوا الله اللامحدود من جميع الجهات متّحداً مع مخلوق محدود من جميع الجهات، وأن يصفوا الخالق بصفات المخلوق، مع أنّ المسيح عليه السلام نفسه يعلن صراحة لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وبهذا يستنكر كل لون من ألوان الشرك، ويرفض الغلوّ في شخصه، ويعتبر نفسه مخلوقاً كسائر مخلوقات الله.

ولكي يشدد المسيح التوكيد على هذا الأمر، وليزيل كل إبهام وخطأ، يضيف قائلاً: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

ويمضي في التوكيد وإثبات أنّ الشرك والغلو ضرب من الظلم الواضح، فيقول أيضاً: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

سبق أن أشرنا إلى أنّ تاريخ المسيحية يؤكّد بأنّ التثليث لم يكن معروفاً في القرون الأُولى من المسيحية، ولا حتى على عهد المسيح عليه السلام، بل إنّ الأناجيل الموجودة - على الرغم من كل ما فيها من تحريفات وإضافات - ليس فيها أدنى إشارة إلى التثليث، وهذا ما يعترف به المحققون المسيحيون أنفسهم، وعليه فإنّ ما ورد في الآية المذكورة عن إصرار المسيح عليه السلام على مسألة التوحيد إنّما ينسجم مع المصادر المسيحية الموجودة، ويعتبر من دلائل عظمة القرآن(١).

وينبغي الالتفات إلى أنّ الموضوع الذي تتناوله الآية هو الغلو ووحدة المسيح بالله، أو بعبارة أُخرى، هو «التوحيد في التثليث»، ولكن الآية التّالية تشير إلى مسألة «تعدد الآلهة» في نظر المسيحيين، أي «التثليث في التوحيد»، وتقول: إنّ الذين قالوا إنّ الله ثالث الأقانيم(٢) الثلاثة لا ريب أنّهم كافرون: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

---

(١) للمزيد من توضيح التثليث والوحدة في التثليث أُنظر المجلد الثالث من هذا التّفسير ذيل الآية ١٧١ من سورة النساء.

(٢) «الأقنوم» بمعنى الأصل والذات، جمعها «أقانيم».

اعتقد كثير من المفسّرين، ومنهم الطبرسي في «مجمع البيان»، والشيخ الطوسي في «التبيان»، والفخر الرازي والقرطبي في تفسيريهما، أنّ الآية السابقة تشير إلى فرقة من المسيحيين باسم «اليعاقبة» يعتقدون أنّ الله متحد بالمسيح عليه السلام، وهذه الآية وردت في شأن فرقة أُخرى هي «الملكانية» و«النسطورية» الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة، أو الآلهة الثلاثة(١).

غير أنّ هذه النظرة عن المسيحية - كما سبق أن قلنا - لا تطابق الواقع، لأنّ الاعتقاد بالتثليث عامّ بين المسيحيين كافة، كما أنّ التوحيد بيننا نحن المسلمين عقيدة عامّة قطعية، ولكنّهم في الوقت الذي يعتقدون حقّاً بتثليث الأرباب، يؤمنون أيضاً بالوحدة الحقيقية، قائلين إنّ ثلاثة حقيقيين يؤلّفون واحداً حقيقياً!

الظاهر أنّ الآيتين المذكورتين تشيران إلى جانبين مختلفين لهاتين القضيتين: في الأُولى إشارة إلى وحدة الآلهة الثلاثة، وفي الثّانية إشارة إلى تعددها، وتوالي المسألتين هو في الحقيقة إشارة الى واحد من الأدلة الواضحة على بطلان عقيدتهم، فكيف يمكن لله أن يكون واحداً مع المسيح وروح القدس مرّة، ومرّة أُخرى يكون ثلاثة أشياء؟ أمن المعقول أن يتساوى الثلاثة مع الواحد؟!

إنّ ما يؤيّد هذه الحقيقة هو أنّنا لا نجد بين المسيحيين أيّة طائفة لا تؤمن بالآلهة الثلاثة!(٢).

ويردّ القرآن عليهم ردّاً قاطعاً فيقول: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وفي ذكر «من» قبل «إله» نفي أقوى لأيّ معبود آخر.

ثمّ ينذرهم بلهجة قاطعة: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يقول بعضهم إنّ «من» في «منهم» بيانية، ولكن الظاهر أنّها تبعيضية تشير إلى الذين بقوا على كفرهم حتى بعد أن دعا القرآن إلى التوحيد، لا الذين تابوا ورجعوا.

يذكر صاحب «المنار» قصّة في المجال تكشف عن غموض تثليث النصارى وتوحيدهم نقلاً عن صاحب (إظهار الحقّ):

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٩١؛ والتفسير الكبير، ج ١٢، ص ٥٩.
(٢) ورد في بعض الرّوايات، وكذلك بعض التواريخ أنّ بين المسيحيين أقلية لاتؤمن بالتثليث، بل يعتقدون اتحاد عيسى بالله، ولكننا لا نرى لهؤلاء في هذا العصر اسم ولا رسم.

«إنّه تنصّر ثلاثة أشخاص، وعلّمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية، سيّما عقيدة التثليث وكانوا في خدمته، فجاء أحد المسيحيين إلى هذا القسيس، وسأله عمّن تنصّر. فقال: ثلاثة أشخاص تنصّروا فسأله: هل تعلّموا شيئاً من العقائد الضرورية؟ فقال: نعم، واستدعى واحداً منهم ليريه ذلك فسأله القسيس عن عقيدة التثليث، فقال: إنّك علّمتني أنّ الآلهة ثلاثة، أحدهم في السماء، والثّاني تولّد من بطن مريم العذراء، والثّالث الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثّاني بعدما صار ابن ثلاثين سنة، فغضب القسيس وطرده وقال: هذا جاهل.

ثمّ طلب الآخر منهم، فسأله فقال: إنّك علّمتني أنّ الآلهة كانوا ثلاثة وصلب واحد منهم فالباقي إلّهان، فغضب عليه القسيس أيضاً وطرده.

ثمّ طلب الثّالث وكان ذكيّاً بالنسبة إلى الأوّلين وحريصاً في حفظ العقائد، فسأله، فقال: يا مولاي، حفظت ما علّمتني حفظاً جيّداً، وفهمت فهماً كاملاً بفضل السيد المسيح: أنّ الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وصلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد، ولا إله الآن، وإلاّ يلزم نفي الاتحاد!

في الآية الثّالثة يدعوهم القرآن إلى أن يتوبوا عن هذه العقيدة الكافرة لكي يغفر لهم الله تعالى، فيقول: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾

التّفسير

تواصل هذه الآيات البحث الذي جاء في الآيات السابقة حول غلوّ المسيحيين في المسيح عليه السلام واعتقادهم بألوهيته، فتفنّد في بضع آيات قصار اعتقادهم هذا، وتبدأ

متسائلة عمّا وجدوه في المسيح من اختلاف عن باقي الأنبياء حتى راحوا يؤلّهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه الله كما بعث سائر الأنبياء من قبله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

إذا كان بعثه من قبل الله سبباً للتأليه والشرك، فلماذا لا تقولون القول نفسه في شأن سائر الأنبياء؟

ولكنّنا نعلم أنّ المسيحيين المنحرفين لا يقنعون باعتبار عيسى عليه السلام مجرّد مبعوث من الله، فاعتقادهم العام في الوقت الحاضر هو اعتباره ابن الله، وأنّه هو الله بمعنى من المعاني وأنّه جاء ليفتدي ذنوب البشر (ولم يأت لهدايتهم وقيادتهم) لذلك أطلقوا عليه اسم «الفادي» أي الذي افتدى بنفسه آثام البشر.

ولمزيد من التوكيد، يقول: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي إنّ من تكون له أُمّ حملته في رحمها، ومن يكون محتاجاً إلى كثير من الأُمور، كيف يمكن أن يكون إلهاً؟! ثمّ إذا كانت أُمّه صديقة فذلك لأنّها هي أيضاً على خط رسالة المسيح عليه السلام، منسجمة معه، وتدافع عن رسالته، لهذا فقد كان عبداً من عباد الله المقربين، فينبغي ألاّ يتخذ معبوداً كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضعون أمام تمثاله إلى حدّ العبادة.

ومرّة أُخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفي الربوبية عن المسيح عليه السلام، فيقول: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

فهذا الذي يحتاج إلى الطعام، ولو لم يتناول طعاماً لعدّة أيّام يضعف عن الحركة، كيف يمكن أن يكون ربّاً أو يقرن بالربّ؟!

وفي ختام الآية إشارة إلى وضوح هذه الدلائل من جهة، وإلى عناد أُولئك وجهلهم من جهة أُخرى، فيقول: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

تكرُّر كلمة «انظر» في الآية توجيه للنظر إلى جهتين: إلى الدلائل الواضحة الكافية لكل شخص، وإلى رد الفعل السلبي المحيّر المثير للعجب الصادر من هؤلاء.

ولكي يكمل الاستدلال السابق تستنكر الآية التّالية عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أنّ له احتياجات بشرية، وأنّه لا قدرة له على دفع الضرر عن نفسه أو نفعها، فكيف

---

(١) «يؤفكون» من مادة «الإفك»: كلّ مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، والمأفوك: المصروف عن الحقّ، وإن كان عن تقصيره، ومن هنا يسمّى الكذب إفكاً، لأنّه يصد الإنسان عن الحقّ.

يتسنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟

فكثيراً ما تعرّض هو وأتباعه للأذى على أيدي أعدائهم، ولولا أنّ الله شمله بلطفه لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة.

وفي النهاية يحذّرهم من أن يظنّوا أنّ الله لا يسمع ما يتقوّلونه أو لا يعلم ما يكنّونه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ممّا يلفت النظر أنّ مسألة كون المسيح عليه السلام بشراً ذا حاجات مادية جسمانية - وهي ما يستند إليه القرآن في هذه الآية وفي آيات أُخرى - كانت من أكبر المعضلات في وجه المسيحيين الذين يدّعون أُلوهيته، فسعوا إلى تبرير ذلك بشتى الأساليب، حتى إنّهم اضطروا أحياناً إلى القول بثنائية المسيح: اللاهوت والناسوت، فهو من حيث لاهوتيته ابن الله، بل هو الله نفسه ومن حيث ناسوتيته فهو جسم ومخلوق من مخلوقات الله، وأمثال ذلك من التبريرات التي هي خير دلالة على ضعف منطقهم وخطئه.

لابدّ من الالتفات أيضاً إلى أنّ الآية استعملت «ما» بمكان «من» والتي تشير عادة إلى غير العاقل، ولعلّ ذلك يفيد الشمول بالنسبة للمعبودات والأصنام المصنوعة من الحجر أو الخشب، فيكون المقصود أنّه إذا جاز أن يعبد الناس مخلوقاً، جازت كذلك عبادتهم الأصنام، لأنّ هذه المعبودات تتساوى من حيث كونها جميعاً مخلوقات، وأنّ تأليه المسيح عليه السلام ضرب من عبادة الأصنام، لا عبادة الإله.

الآية التّالية تأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - بعد اتضاح خطأ أهل الكتاب في الغلو - أن يدعوهم بالأدلة الجلية إلى الرجوع عن السير في هذا الطريق: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

إنّ غلو النصارى معروف، إلاّ أنّ غلو اليهود، الذي يشملهم تعبير ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قد يكون إشارة إلى ما كانوا يقولونه عن العزير وقد اعتبروه ابن الله، ولمّا

---

(١) «لا تغلو» من مادة «الغلو» وهي بمعنى تجاوز الحدّ، إلاّ أنّها تستعمل للإشارة الى تجاوز الحدّ بالنسبة لمقام شخص من الأشخاص ومنزلته، وبالنسبة للأسعار تستعمل كلمة «الغلاء» و«غلو» السهم على وزنة «دلو» ارتفاعه وتجاوزه مداه، وفي الماء يقال «غليان» و«الغلواء» جموح في الحيوان، وهي جميعاً من أصل واحد، ويرى بعضهم أنّ الغلو يعني الإفراط والتفريط معاً، ويحصر بعضهم معناه بالتفريط فقط، ويقابله التقصير.

كان الغلو ينشأ - أكثر ما ينشأ - من اتّباع أهواء الضالين، لذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وفي هذا إشارة أيضاً إلى ما انعكس في التّأريخ المسيحي، إذ إنّ موضوع التثليث والغلو في أمر المسيح عليه السلام لم يكن له وجود خلال القرون الأُولى من المسيحية، ولكن عندما اعتنق بعض الهنود وأمثالهم من عبدة الأصنام المسيحية أدخلوا فيها شيئاً من دينهم السابق، كالتثليث والشرك.

إنّ الثالوث الهندي (الإيمان بالآلهة الثلاثة: برهما، وفيشنو، وسيغا)، كان تاريخياً أسبق من التثليث المسيحي الذي لا شك أنّه انعكاس لذاك، ففي الآية الثلاثين من سورة التوبة وبعد ذكر غلو اليهود والنصارى في مسألة العزير والمسيح عليه السلام يقول سبحانه ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾.

وقد وردت كلمة «ضلوا» في هذه الآية مرّتين بالنسبة للكفار الذين اقتبس منهم أهل الكتاب الغلو، ولعل هذا التكرار من باب التوكيد، إذ إنّهم كانوا قبل ذلك من الضّالين، ثمّ لمّا أضلّوا الآخرين بدعاواهم وقعوا في ضلال آخر، ومن يسعى لتضليل الآخرين يكون أضلّ منهم في الواقع، لأنّه يكون قد استهلك قواه لدفع نفسه ودفع الآخرين إلى طريق التعاسة ولحمل آثام الآخرين أيضاً على كاهله، وهل يرتضي المرء السائر على الطريق المستقيم أن يضيف إلى آثامه آثام غيره أيضاً؟

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذي انتهى إليه الكافرون السابقون، لكي يعتبر به أهل الكتاب فلا يتّبعونهم اتّباعاً أعمى، فيقول: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾.

أمّا لماذا ورد اسما هذين النّبيين دون غيرهما، فللمفسّرين في ذلك أقوال، فمن قائل: إنّ السبب هو أنّهما كانا أشهر الأنبياء بعد موسى عليه السلام، وقيل: إنّ السبب هو أنّ كثيراً من أهل الكتاب كانوا يفخرون بأنّهم من نسل داود.

وتذكر الآية أوّلاً أنّ داود كان يلعن السائرين على طريق الكفر والطغيان.

ويقول بعض: إنّ في الآية إشارة إلى حادثتين تأريخيتين أثارتا غضب هذين النّبيين، فلعنا جمعاً من بني إسرائيل، فداود قد لعن سكّان مدينة (أيلة) الساحلية المعروفين باسم (أصحاب السبت)، وسيأتي تفصيل تأريخهم في سورة الأعراف، وعيسى عليه السلام لعن جمعاً من أتباعه ممن أصرّوا على اتّباع طريق الإنكار والمعارضة حتى بعد نزول المائدة من السماء.

على كلّ حال، فالآية تشير إلى أنّ مجرّد كون الإنسان من بني إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاة لنجاته، بل إنّ هذين النّبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس.

وفي آخر الآية توكيد لهذا الأمر وبيان للسبب: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

وتتحرك الآية التّالية من موقع الذم والتقريع لتؤكّد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبداً بأنّ عليهم مسؤولية اجتماعية، ولم يكونوا يتناهون عن المنكر، بل إنّ بعضاً من صلحائهم كانوا بسكوتهم وممالأتهم يشجّعون العصاة عملياً ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ لذلك فقد كانت أعمالهم سيئة وقبيحة: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وقد وردت في تفسير هذه الآية روايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل البيت عليهم السلام ذات دلالات تعليمية.

ففي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنّه على الحقّ اطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم»(١).

وفي حديث آخر عن الامام الصّادق عليه السلام في تفسير: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أنّه قال: «أما إنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون

(١) تفسير (مجمع البيان) لهذه الآية، وفي تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٢٥٠ حديث مشابه منقول عن الترمذي. وأطره أطراً: عطفه وثناه.

مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم»[١].

الآية الثّالثة تشير إلى معصية أُخرى من معاصيهم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

من البديهي أنّ صداقتهم لأولئك لم تكن صداقة عادية، بل كانت ممتزجة بأنواع المعاصي، وكانوا يشجّعون الأعمال والأفكار الخاطئة، لذلك أدانت الآية في عباراتها الأخيرة الأعمال التي قدّموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التي استوجبت غضب الله وعذابه الدائم: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

أمّا من هم المقصودون بتعبير ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فإنّ بعضاً يقول: إنّهم كانوا مشركي مكّة الذين صادقوا اليهود.

ويرى بعض أنّهم الجبارون والظالمون الذين كان اليهود قديماً يمدّون إليهم يد الصداقة، وهذا الرأي يؤكّده الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام إذ قال: «يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم»[٢].

وليس ثمّة ما يمنع أن تشمل الآية كلا المعنيين، بل وتكون أعم منهما أيضاً.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

التّفسير

هذه الآية تبيّن لهم طريق النجاة من نهجهم الخاطىء، وهو أنّهم لو كانوا حقاً يؤمنون بالله وبرسوله وبما أُنزل إليه، لما عقدوا أواصر الصداقة مع أعداء الله ولا اعتمدوهم أبداً: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

ولكن الذي يؤسف له أنّ الذين يطيعون أوامر الله قلّة، ومعظمهم خارجون عن نطاق إطاعته وسائرون على طريق الفسق ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

(١) تفسير البرهان: ج١، ص٤٩٢، وتفسير نور الثقلين: ج١، ص٦٦١.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٩٧.

من الواضح أنّ كلمة «النّبي» هنا تعني «رسول الإسلام ﷺ» وذلك لأنّ هذه الكلمة قد استعملت في القرآن المجيد في آيات متعددة بهذا المعنى، وهذا الموضوع يتكرر في عشرات الآيات.

ثمّة احتمال آخر في تفسير هذه الآية، هو أنّ الضمير في «كانوا» يعود على المشركين وعبدة الأصنام، أي لو أنّ هؤلاء المشركين الذين يعتمدهم اليهود ويثقون بهم، قد آمنوا برسول الله ﷺ والقرآن، لما اختارهم اليهود أصدقاء لهم، وهذا دليل بيّن على ضلال هؤلاء وفسقهم، وذلك لأنّهم - على الرغم من زعمهم أنّهم يتبعون الكتب السماوية - يتّخذون عبدة الأصنام أصدقاء لهم ما دام هؤلاء مشركين، ولكنّهم يبتعدون عنهم إذا توجّهوا إلى الله والكتب السماوية.

بيد أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى ظاهر الآيات، حيث الضمائر كلّها تعود إلى مرجع واحد هو اليهود.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

سبب النّزول

المهاجرون الأوّل في الإسلام

كثير من المفسّرين - ومنهم الطبرسي في «مجمع البيان»، والفخر الرازي، وصاحب «المنار» - ينقلون في تفاسيرهم عن المفسّرين السابقين أنّ هذه الآيات قد نزلت في حقّ

«النّجاشي» صاحب الحبشة على عهد رسول الله ﷺ وأتباعه، وفي تفسير «البرهان» حديث يشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً(١).

يمكن تلخيص الرّوايات الإسلامية والتواريخ وأقوال المفسّرين بهذا الخصوص في ما يلي:

في السنوات الأُولى من بعثة رسول الله ﷺ ودعوته العامّة كان المسلمون أقلية ضعيفة، وكانت قريش قد تواصت أن تضيّق الخناق على مواليها وأتباعها الذين يؤمنون برسول الله ﷺ، وعلى هذا فقد أصبح كلّ مسلم واقعاً تحت ضغط عشيرته وقومه ويومئذ لم يكن عدد المسلمين يكفي للقيام بجهاد تحرري.

ولكي يحافظ رسول الله ﷺ على حياة هذه الجماعة القليلة، ويهيّىء قاعدة للمسلمين خارج الحجاز، اختار لهم الحبشة وأمرهم بالهجرة إليها قائلاً: «إنّ بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله عزّوجلّ للمسلمين فرجاً»(٢).

كان رسول الله ﷺ يقصد النجاشي (النجاشي اسم عام لجميع سلاطين الحبشة، مثل كسرى لملوك إيران، أمّا النجاشي المعاصر لرسول الله ﷺ فهو «أصحمة»، أي العطية والهبة بلغة الأحباش).

فهاجر أحد عشر رجلاً وأربع نساء من المسلمين إلى الحبشة بحراً على ظهر سفينة صغيرة استأجروها، كان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، وقد أُطلق عليها اسم الهجرة الأُولى.

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى لحقهم جعفر بن أبي طالب وجمع من المسلمين، فكانوا مع السابقين جمعاً مؤلفاً من ٨٢ رجلاً سوى النساء والصبيان، وشكّلت هذه المجموعة النواة الأُولى للتجمّع الإسلامي المنظّم.

كان لظاهرة الهجرة وقع شديد على عبدة الأصنام، لأنّهم أدركوا جيّداً أنّه لن يمضي زمن طويل حتى يكون عليهم أن يواجهوا جمعاً قويّاً من المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام - بالتدريج - ديناً لهم في أرض الحبشة حيث الأمن والأمان.

---

(١) تفسير مجمع البيان، والتفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٤٤.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٠٠؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤١٢.

فشمّروا عن ساعد الجد لإحباط تلك الفكرة، فاختاروا اثنين من فتيانهم الأذكياء المعروفين بالدهاء والمكر، وهما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وحمّلوهما مختلف الهدايا والتحف إلى النجاشي ليوغروا صدره على المسلمين فيطردهم من بلاده. وعلى ظهر السفينة التي أقلت هذين إلى الحبشة سكرا وتخاصما إلاّ أنّهما - لكي ينفذا المهمّة التي جاءا من أجلها - نزلا إلى البر الحبشي، وحضرا مجلس النجاشي بكثير من الأُبّهة، وخاصّة بعد أن اشتريا ضمائر حاشية النجاشي بالكثير من الهدايا والرشاوي، فوعدهم هؤلاء بالوقوف إلى جانبهما وتأييدهما.

بدأ عمرو بن العاص كلامه للنجاشي قائلاً: «أيّها الملك، إنّ قومنا خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا، وصاروا إليك فردّهم إلينا».

ثمّ قدّما ما حملاه من هدايا إلى النجاشي.

فوعدهم النجاشي أن يبتّ بالأمر بعد استجواب ممثلي اللاجئين وبعد التشاور مع حاشيته.

وفي يوم آخر عقدت جلسة حافلة حضرتها حاشية النجاشي وجمع من العلماء المسيحيين، وممثل المسلمين جعفر بن أبي طالب، ومبعوثا قريش، وبعد أن استمع النجاشي إلى أقوال مبعوثي قريش، التفت إلى جعفر وطلب منه بيان ما لديه.

قال جعفر: يا أيّها الملك سلهم، أنحن عبيد لهم؟

فقال عمرو: لا، بل أحرار كرام.

جعفر: سلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟

عمرو: لا، ما لنا عليكم ديون.

جعفر: فلكم في أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟

عمرو: لا.

جعفر: فما تريدون منّا؟ آذيتمونا فخرجنا من دياركم، ثمّ قال: «نعم أيّها الملك خالفناهم، فبعث الله فينا نبيّاً أمرنا بخلع الأنداد وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة، وحرّم الظلم والجور وسفك الدّماء بغير حقّها، والزنا والربا والميتة والدّم ولحم الخنزير، وأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهانا عن الفحشاء والمنكر والبغي».

فقال النّجاشي: بهذا بعث الله عيسى، ثمّ قال النجاشي لجعفر:

هل تحفظ ممّا أنزل الله على نبيّك شيئاً؟

قال جعفر: نعم، فقرأ سورة مريم، فلمّا بلغ قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾(١) قال: هذا والله هو الحقّ.

فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلينا.

فرفع النجاشي يده وضرب بها وجه عمرو وقال: اسكت، والله لئن ذكرته بعد بسوء لأفعلنّ بك وقال: أرجعوا إلى هذا هديّته، وقال لجعفر وأصحابه: امكثوا فإنّكم آمنون.

كان لهذا الحدث أثر بالغ بعيد المدى، ففضلاً عمّا كان له من أثر إعلامي عميق في تعريف الإسلام لجمع من أهل الحبشة، فإنّه شدّ من عزيمة المسلمين في مكّة وحملهم على الاطمئنان والثقة بقاعدتهم في الحبشة لإرسال المسلمين الجدد إليها، إلى أن يشتد ساعدهم وتقوى شوكتهم.

ومضت سنوات، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وارتفع شأن الإسلام، وتمّ التوقيع على صلح الحديبية، وتوجّه رسول الله ﷺ لفتح خيبر، وفي ذلك اليوم الذي كان فيه المسلمون يكادون يطيرون فرحاً لتحطيمهم أكبر قلعة للأعداء اليهود، فإذا بهم يشهدون من بعيد قدوم جمع من الناس صوبهم، ثمّ ما لبثوا حتى عرفوا أنّ أُولئك لم يكونوا سوى المهاجرين الأوائل إلى الحبشة وقد عادوا في ذلك اليوم إلى أوطانهم بعد أن تحطّمت قوى الأعداء الشيطانية، وقويت جذور شجيرة الإسلام النامية.

وإذ شاهد رسول الله ﷺ مهاجري الحبشة، قال قولته التّاريخية: «لا أدري أنا بفتح خيبر أسر أم بقدوم جعفر»؟!(٢)

يروى أنّ جعفراً وأصحابه جاءوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم سبعون رجلاً، اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام فيهم بحيراء الراهب، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة «يسّ» إلى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

وروي عن سعيد بن جبير في سبب نزول الآية أنّ النجاشي أرسل ثلاثين شخصاً من أخلص أتباعه إلى المدينة لإظهار حبّه لرسول الله ﷺ وللإسلام، أُولئك هم الذين

(١) سورة مريم، الآية: ٢٥.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٢.

استمعوا إلى آيات سورة «يسٓ» فأسلموا، فنزلت الآيات المذكورة تقديراً لأُولئك المؤمنين(١).

لا يتعارض سبب النّزول هذا مع كون سورة المائدة قد نزلت في أواخر عمر رسول الله ﷺ، إذ إنّ هذا القول يرجع إلى معظم آيات السورة، وليس ثمّة ما يمنع أن تكون بعض تلك الآيات قد نزلت في حوادث سابقة، ثمّ وضعت - لأسباب - بأمر من رسول الله ﷺ في هذه السّورة.

التّفسير

حقد اليهود ومودّة النصارى

تقارن هذه الآيات بين اليهود والنصارى الذين عاصروا رسول الله ﷺ.

وضعت الآية الأُولى اليهود والمشركين في طرف واحد، والمسيحيين في طرف آخر: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾.

يشهد تاريخ الإسلام بجلاء على هذه الحقيقة، ففي كثير من الحروب التي أُثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولم يتورّعوا عن التوسل بأيّة وسيلة للتآمر، وقليل منهم اعتنق الإسلام، ولكننا قلّما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين في غزواتهم، كما أنّ الكثيرين منهم التحقوا بصفوف المسلمين.

ثمّ يعزو القرآن هذا الاختلاف في السلوك الفردي والاجتماعي إلى وجود خصائص في المسيحيين المعاصرين لرسول الله ﷺ لم تكن موجودة في اليهود:

فأوّلاً كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا - كما فعل علماء اليهود - إلى إخفاء الحقائق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾(٢).

ثمّ كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا، وهي النقطة المناقضة لما كان يفعله بخلاء اليهود الجشعين.

وعلى الرغم من كلّ انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود: ﴿وَرُهْبَانًا﴾.

---

(١) لمزيد من الايضاح راجع، بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤١٠ وما بعد.

(٢) «القسيس» تعريب لكلمة سريانية تعني الزعيم والموجّه الديني عند المسيحيين.

وكثير منهم كانوا يخضعون للحق، ولم يتكبّروا، في حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذي لم يأت على يد عنصر يهودي: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ثمّ إنّ نفراً منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفراً من الأحباش لأنّهم يعرفون الحقّ إذا سمعوه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

فكانوا ينادون بكلّ صراحة وشجاعة، و﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

لقد كان تأثّرهم بالآيات القرآنية من الشدّة بحيث إنّهم كانوا يقولون: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

سبق أن قلنا إنّ هذه المقارنة كانت بين اليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله ﷺ، فاليهود - وإن كانوا من أصحاب الكتب السماوية - بلغت شدّة تعلّقهم بالمادة وحبّهم لها أن انخرطوا في سلك المشركين الذين لم يكن يربطهم بهم أيّ وجه شبه مشترك، مع أنّ اليهود في البداية كانوا من المبشّرين بمجيء الإسلام ولم تكن قد دخلتهم انحرافات كالتثليث والغلو اللذين كانا عند المسيحيين، غير أنّ حبّهم للدنيا حبّ عبادة قد أبعدهم عن الحقّ، بينما معاصروهم المسيحيون لم يكونوا على هذه الشاكلة.

إلاّ أنّ التّاريخ القديم والمعاصر يقول لنا: إنّ المسيحيين في القرون التي أعقبت ذلك قد ارتكبوا في حقّ الإسلام والمسلمين جرائم لا تقل عمّا فعله اليهود في هذا المجال.

إنّ الحروب الصليبية الطّويلة والدّموية في القرون الماضية، والاستفزازات الكثيرة التي يقوم بها الاستعمار ضد الإسلام والمسلمين اليوم غير خافية على أحد، لذلك ليس لنا أن نأخذ الآيات المذكورة مأخذ قانون عام بالنسبة لجميع المسيحيين، بل إنّ الآية: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ وما بعدها دليل على أنّها نزلت في حق جمع من المسيحيين الذين كانوا يعاصرون رسول الله ﷺ.

الآيتان الأخيرتان فيهما إشارة إلى مصير هاتين الطائفتين وإلى عقابهما وثوابهما، أُولئك الذين أظهروا المودّة للمؤمنين وخضعوا لآيات الله وأظهروا إيمانهم بكلّ شجاعة وصراحة: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

(١) «أثابهم» من الثواب، وهي في الأصل بمعنى العودة وما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله.

وأمّا أُولئك الذين ساروا في طريق العداء والعناد فتقول الآية عنهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾

سبب النّزول

لا تتجاوزوا الحدود!

ثمّة روايات متعددة وردت في شأن نزول هذه الآيات منها: في أحد الأيّام أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصف بعض ما يجري يوم القيامة وحال الناس في تلك المحكمة الإلهيّة العظمى، فهزّ الوصف نفوس الناس وراح بعضهم يبكي، وعلى أثر ذلك عزم بعض أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ترك بعض لذائذ الحياة ورفاهها، وأن ينصرف بدلاً من ذلك إلى العبادة، فأقسم أمير المؤمنين عليه السلام أن ينام من الليل أقلّه ويصرفه في العبادة، وأقسم بلال أن يصوم أيّامه كلّها، وأقسم عثمان بن مظعون أن يترك إتيان زوجته وأن ينقطع إلى العبادة.

جاءت زوجة عثمان بن مظعون - وكانت امرأة جميلة - يوماً إلى عائشة فتعجّبت عائشة من حالها فقالت: ما لي أراك متعطّلة؟

فقالت: لمن أتزيّن؟ فوالله ما قاربني زوجي منذ كذا وكذا فإنّه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد في الدنيا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء إليهم وأخبرهم أنّ ذاك خلاف سنّته وقال: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» ثمّ جمع الناس وخطبهم وقال: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إنّي لست آمركم أن

تكونوا قسيسين ورهباناً، فإنّه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء ولا اتّخاذ الصوامع، وإنّ سياحة أُمّتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجّوا واعتمروا وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. . . ».

فقام الذين كانوا قد أقسموا على ترك تلك الأُمور وقالوا: يا رسول الله، لقد أقسمنا على ذلك، فماذا نفعل؟ فنزلت الآيات المذكورة جواباً لهم[١].

لابدّ من القول بأنّ قَسَم البعض مثل قسم عثمان بن مظعون لم يكن مشروعاً لما فيه من غمط لحقوق زوجته، ولكن فيما يتعلّق بقسم الإمام علي عليه السلام بإحياء الليل بالعبادة، فإنّه كان أمراً مباحاً، ولكن المستفاد من الآيات هو أنّ الأولى أن لا يكون ذلك بصورة مستمرة ودائمة، ولا يتعارض مع عصمة علي عليه السلام، لأنّنا نقرأ ما يشبه ذلك بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية الأُولى من سورة التحريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

التّفسير

القسم وكفّارته

في هذه الآية والآيات التّالية لها مجموعة من الأحكام الإسلامية المهمّة، بعضها يشرّع لأوّل مرّة، وبعض آخر جاء توكيداً وتوضيحاً لأحكام سابقة وردت في آيات أُخرى من القرآن، لأنّ هذه السورة - كما سبق أن قلنا - نزلت في أواخر عمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان لابدّ من التأكيد فيها على أحكام إسلامية مختلفة.

في الآية الأُولى إشارة إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهيّة، فنهاهم الله عن ذلك قائلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٢].

إنّ ذكر هذا الحكم، مع أخذ سبب النّزول بنظر الاعتبار، قد يكون إشارة إلى أنّه إذا كان في الآيات السابقة شيء من الثناء على فريق من علماء المسيحية ورهبانها لتعاطفهم مع الحقّ والتسليم له، لا لتركهم الدنيا وتحريم الطيبات، وليس للمسلمين أن يقتبسوا

---

(١) ما ذكر أعلاه في سبب النّزول، قسم منه مأخوذ من تفسير علي بن إبراهيم، وقسم من تفسير مجمع البيان وتفاسير أُخرى.

(٢) في معنى «الحلال» و«الطيب» أنظر المجلد الأوّل من هذا التّفسير ذيل الآية ١٧٢ من سورة البقرة.

منهم ذلك، فبذكر هذا الحكم يعلن الإسلام صراحة استنكار الرهبنة وهجر الدنيا كما يفعل المسيحيون والمرتاضون (ثمّة شرح أوفى لهذا الموضوع في تفسير الآية (٢٧) من سورة الحديد: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾).

ثمّ لتوكيد هذا الأمر تنهى الآية عن تجاوز الحدود، لأنّ الله لا يحبّ الذين يفعلون ذلك ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وفي الآية التي تليها تأكيد آخر للأمر، إلاّ أنّ الآية السابقة كان فيها نهي عن التحريم، وفي هذه الآية أمر بالانتفاع المشروع من الهبات الإلهيّة، فيقول: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾.

والشرط الوحيد لذلك هو الاعتدال والتقوى عند التمتع بتلك النعم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي إنّ إيمانكم بالله يوجب عليكم احترام أوامره في التمتع وفي الاعتدال والتقوى.

هناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو أنّ الأمر بالتقوى يعني أنّ تحريم المباحات والطيبات لا يأتلف مع درجات التقوى المتكاملة الرفيعة، فالتقوى تستلزم أن لا يتجاوز الإنسان حدّ الاعتدال من جميع الجهات.

والآية التي بعدها تتناول القسم الذي يقسم به الإنسان في حالة تحريم الحلال وفي غيره من الحالات بشكل عام، ويمكن القول إنّ القسم نوعان:

فالأول: هو القسم اللغو، فيقول: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

في تفسير الآية (٢٢٥) من سورة البقرة - التي تتناول موضوع عدم وجود عقاب على اللغو في الأيمان - قلنا: إنّ المقصود باللغو في الأيمان - كما يقول المفسّرون والفقهاء - الأيمان التي ليس لها هدف معيّن ولا تصدر عن وعي وعزم إرادي، وإنّما هي قسم يحلف به المرء من غير تمعّن في الأمر فيقول: والله وبالله، أو لا والله ولا بالله، أو إنّه في حالة من الغضب والهياج يقسم دون وعي[(١)].

ويقول بعضهم: إنّ الإنسان إذا كان واثقاً من أمر فأقسم به، ثمّ ظهر أنّه قد أخطأ، فقسمه - يعتبر أيضاً - من نوع اللغو في الأيمان، كأن يعتقد أحدهم خيانة زوجته على أثر سعاية بعض الناس ووشايتهم، فيقسم على طلاقها، ثمّ يتّضح له أنّ ما سمعه في

(١) أصول الكافي، ج ٧، ص ٤٤٣.

حقّها كان كذباً وافتراء، فإنّ قسمه ذاك لا اعتبار له، إنّنا نعلم أيضاً أنّه بالإضافة إلى توفّر القصد والإرادة والعزم في القسم الجاد، يجب أن يكون محتواه غير مكروه وغير محرم، وعليه إذا أقسم أحدهم مختاراً أن يرتكب عملاً محرماً أو مكروهاً، فإنّ قسمه لا قيمة له ولا يلزمه الوفاء به، ويحتمل أن يكون مفهوم «اللغو» في هذه الآية مفهوماً واسعاً يشمل هذا النوع من الأيمان أيضاً.

والقسم الثّاني: هو القَسَم الجاد الإرادي الذي قرره المرء بوعي منه، هذا النوع من القسم هو الذي يعاقب عليه الله إذا لم يف به الإنسان: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾.

كلمة «العقد» تعني في الأصل - كما قلنا في بداية سورة المائدة - جمع أطراف الشيء جمعاً محكماً.

ومنه تسمية ربط طرفي الحبل بـ«العقدة» ثمّ انتقل هذا المعنى إلى الأُمور المعنوية، فأُطلق على كل اتفاق وعهد اسم العقد، فعقد الأيمان - كما في الآية - يعني التعهّد بكلّ جدّ وعزم وتصميم على أمر ما بموجب القسم.

بديهي أنّ الجد وحده في القسم لا يكفي لصحته، بل لابدّ أيضاً من صحة محتواه - كما قلنا - وأن يكون أمراً مباحاً في الأقل، كما لابدّ من القول بأنّ القسم بغير اسم الله لا قيمة له.

وعليه إذا أقسم امرؤ بالله أن يعمل عملاً محموداً، أو مباحاً على الأقل، فيجب عليه أن يعمل بقسمه، فإن لم يفعل، فعليه كفارة التخلّف.

وكفارة القسم هي ما ورد في ذيل الآية المذكورة، وهي واحدة من ثلاث:

الأُولى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾، ولكيلا يؤخذ هذا الحكم على إطلاقه بحيث يصار إلى أيّ نوع من الطعام الدنيء والقليل، فقد جاء بيان نوع الطعام بما لا يقل عن أوسط الطعام الذي يعطى لأفراد العائلة عادة: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

ظاهر الآية يدل على النوعية المتوسطة، ولكن يحتمل أنّه إشارة إلى الكميّة والكيفية كلتيهما، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه الحد الوسط من الكيفية، وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه الحدّ الوسط من الكميّة، الأمر الذي يدل على أنّ المطلوب هو الحد الوسط من كلتيهما(١).

(١) تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٦٦٦ وتفسير «البرهان»، ج ١، ص ٤٩٦.

ولا حاجة للقول بأنّ «الحدّ الوسط» سواء في الكميّة أو الكيفية، يختلف باختلاف المدن والقرى والأزمنة.

وقد احتمل بعضهم تفسيراً آخر للأوسط، وهو أنّه يعني الجيّد الرفيع، وهما من معاني «الأوسط» كما نقرأ في الآية (٢٨) من سورة القلم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

الثّانية: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾.

من الطبيعي أنّ ذلك يعني الملابس التي تغطّي الجسم حسب العادة، لذلك ورد في بعض الرّوايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام بيّن أنّ المقصود بالكسوة في هذه الآية قطعتا اللباس (الثوب والسروال)، أمّا الرواية المنقولة عن الإمام الباقر عليه السلام بأنّ ثوباً واحداً يكفي، فربّما تكون إشارة إلى الثوب العربي الطويل المعروف والذي يكسو الجسم كلّه، أمّا في شأن النسوة فلا شك أنّ ثوباً واحداً لا يكفي، بل لابدّ من غطاء للرأس والرقبة، وهذا هو الحدّ الأدنى لكسوة المرأة لذلك لا يستبعد أن تكون الكسوة التي تعطى كفارة تختلف أيضاً باختلاف الفصول(١) والأمكنة والأزمنة.

أمّا من حيث الكيفية، وهل يكفي الحد الأدنى، أم ينبغي مراعاة الحد الأوسط؟ فإنّ للمفسرين رأيين في ذلك:

١ - إنّ كل كسوة تكفي إذا أُخذت الآية على إطلاقها.

٢ - إنّه ما دمنا قد راعينا الحدّ الأوسط في الإطعام، فلا بدّ أن نراعي هذا الحد في الكساء أيضاً، غير أنّ الرأي الأوّل أكثر انسجاماً مع إطلاق الآية.

الثّالثة: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

وهناك بحث بين الفقهاء عن الرقبة، هل يشترط فيها الايمان والإسلام أو لايشترط وتفصيل البحث مذكور فى الكتب الفقهية، وإن كانت الآية مطلقة في الظاهر.

وهذا ما يدل على أنّ الإسلام يتوسّل بطرق مختلفة لتحرير العبيد، أمّا في الوقت الحاضر حيث يبدو أنّه لا وجود للرق، فإنّ على المسلمين أن يختاروا واحدة من الكفارتين المتقدّمتين.

---

(١) ثمّة حديث بهذا الشأن عن الإمام الباقر عليه السلام أو الإمام الصادق عليه السلام أنظر تفسير «البرهان»، ج ١، ص٤٩٦.

ليس ثمّة شك في أنّ هذه المواضيع الثلاثة متباينة من حيث قيمتها تبايناً كبيراً، ولعلّ القصد من هذا التباين هو حريّة الإنسان في اختيار الكفارة التي تناسبه وتناسب إمكاناته المادية.

ولكن قد يوجد من لا قدرة له على أيّ منها، لذلك فإنّه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

إذن، فصيام ثلاثة أيّام مقصور على الذين لا قدرة لهم على تحقيق أيّ من الكفارات الثلاث السابقة، ثمّ يؤكّد القول ثانية: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

ومع ذلك، فلكي لا يظن أحد أنّه بدفع الكفارة يجوز للمرء أن يرجع عن قَسَم صحيح أقسمه، يقول تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾.

وبعبارة أُخرى: إنّ الالتزام بالقَسَم واجب تكليفي، وعدم تنفيذه حرام، والكفارة تأتي بعد الرجوع عن القَسَم.

في ختام الآيات يبيّن القرآن أنّ هذه الآيات توضّح لكم الأحكام التي تضمن سعادة الفرد والمجتمع وسلامتها لتشكروه على ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

سبب النزّول

تذكر التفاسير الشيعية والسنّية روايات متعددة عن سبب نزول الآية الأُولى تكاد تكون متشابهة، من ذلك أنّه جاء في تفسير «الدر المنثور» عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: إنّ هذه الآية قد نزلت في شأني، حيث كان أنصاريّ قد أعدّ طعاماً دعانا إليه مع جمع من الناس، فتناولوا الطعام وشربوا الخمر، وكان هذا قبل تحريمها في الإسلام، وعندما

صعدت النشوة إلى رؤوسهم أخذوا يتفاخرون وارتفع بينهم الكلام شيئاً فشيئاً حتى وصل الأمر بأحدهم أن تناول عظم بعير فضربني به على أنفي فشجّه فقمت إلى رسول الله ﷺ وحكيت له ما جرى، فنزلت الآية المذكورة[1].

وفي «مسند أحمد» و«سنن أبي داود» و«النسائي» و«الترمذي» أنّ عمر (وكان يكثر من الخمر كما جاء في تفسير «في ظلال القرآن» ج ٣، ص ٣٣) كان يدعو الله أن ينزل حكماً واضحاً في الخمر، وعندما نزلت الآية (٢١٩) من سورة البقرة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ قرأها رسول الله ﷺ، ولكنّه ظل يكرر دعاءه ويطلب مزيداً من التوضيح حتى نزلت الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾

فقرأها رسول الله ﷺ أيضاً، غير أنّه استمر في دعائه، حتى نزلت الآية التي نحن بصددها موضّحة الحكم بشكل كامل، وعندما قرأها رسول الله ﷺ على عمر، فقال: انتهينا انتهينا[2]!

التّفسير

مراحل تحريم الخمر وحكمها النهائي

سبق أنّ ذكرنا في المجلد الثّالث من هذا التّفسير في ذيل الآية (٤٣) من سورة النساء، أنّ معاقرة الخمر في الجاهلية وقبيل الإسلام كانت منتشرة انتشاراً أشبه بالوباء العام، حتى قيل: إنّ حبّ عرب الجاهلية كان مقصوراً على ثلاثة: الشعر والخمر والغزو.

ويستفاد من بعض الرّوايات، أنّه حتى بعد تحريم الخمر فإنّ الإقلاع عنها كان شاقّاً على بعض المسلمين، حتى قالوا: ما حرّم علينا شيء أشدّ من الخمر[3]!

من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية والاجتماعية بنظر الاعتبار لتعذّر الأمر وشقّ تطبيق التحريم، لذلك اتخذ أسلوب التحريم التدريجي وإعداد الأفكار والأذهان لاقتلاع هذه الآفة من

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٣١٥؛ وتفسير الميزان، ج ٦، ص ١٣٢.
(٢) تفسير «المنار»، ج ٧، ص ٥٠. (٣) تفسير «المنار»، ج ٧، ص ٥١.

جذورها، وهي العادة التي كانت قد تأصّلت في نفوسهم وعروقهم، ففي أوّل الأمر وردت إشارات في الآيات المكيّة تستقبح شرب الخمر، كما في الآية (٦٧) من سورة النحل: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

فهنا «سكر» وتعني الشراب المسكر الذي كانوا يستخرجونه من التمر والعنب، قد وضع في قبال الرزق الحسن، فاعتبره شراباً غير طيّب بخلاف الرزق الحسن، إلاّ أنّ تلك العادة الخبيثة - عادة معاقرة الخمرة - كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، ثمّ إنّ الخمر كانت تؤلف جانباً من دخلهم الاقتصادي، لذلك عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية أشدّ في تحريم الخمر من الأُولى، لكي تهيّىء الأذهان أكثر للتحريم النهائي، تلك هي الآية (٢١٩) من سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

فها هنا إشارة إلى منافع الخمر الاقتصادية لبعض المجتمعات، كالمجتمع الجاهلي، مصحوبة بإشارة إلى أخطارها الكبيرة ومضارّها التي تفوق كثيراً منافعها الاقتصادية.

ثمّ في الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ يأمر الله المسلمين أمراً صريحاً بأن لا يقيموا الصّلاة وهم سكارى حتى يدركوا ما يقولونه أمام الله.

وواضح أنّ هذا لم يكن يعني أنّ شرب الخمر في غير الصّلاة جائز، بل هي مسألة التدرّج في تحريم الخمر مرحلة مرحلة، أي أنّ هذه الآية كأنّها تلتزم الصمت ولا تقول شيئاً صراحة في غير مواقع الصّلاة.

إنّ تقدّم المسلمين في التعرّف على أحكام الإسلام واستعدادهم الفكري لاستئصال هذه المفسدة الاجتماعية الكبيرة التي كانت متعمّقة في نفوسهم، أصبحا سبباً في نزول آية صريحة تماماً في تحريم الخمر حتى سدّت الطريق أمام الذين كانوا يتصيّدون الأعذار والمسوّغات، وهذه الآية هي موضوع البحث.

وإنّه لمما يستلفت النظر أنّ تحريم الخمرة يعبّر عنه في هذه الآية بصوره متنوعة:

١ - فالآية تبدأ بمخاطبة المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي إنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.

٢ - استعمال «إنّما» التي تعني الحصر والتوكيد.

٣ - وضعت الخمر والقمار إلى جانب الأنصاب[(١)] (وهي قطع أحجار لا صورة لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلالة على أنّ الخمر والقمار لا يقلاّن ضرراً عن عبادة الأصنام، ولهذا جاء في حديث شريف أنّ رسول الله ﷺ قال: «شارب الخمر كعابد الوثن»[(٢)].

٤ - الخمر والقمار وعبادة الأصنام، والاستقسام بالأزلام (ضرب من اليانصيب)[(٣)] كلّها قد اعتبرها القرآن رجساً وخبثاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾.

٥ - وهذه الأعمال القبيحة كلّها من أعمال الشيطان: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

٦ - وأخيراً يصدر الأمر القاطع الواجب الاتباع: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

لابدّ من التنويه بأنّ لتعبير «فاجتنبوه» مفهوماً أبعد، إذ إنّ الاجتناب يعني الابتعاد والانفصال وعدم الاقتراب، ممّا يكون أشدّ وأقطع من مجرّد النهي عن شرب الخمر.

٧ - وفي الختام يقول تعالى إنّ ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لا فلاح لكم بغير ذلك.

٨ - وفي الآية التّالية لها يعدد بعضاً من أضرار الخمر والقمار، التي يريد الشيطان أن يوقعها بهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٩ - وفي ختام هذه الآية يتقدّم باستفهام تقريري: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟

أي بعد كل هذا التوكيد والتوضيح، هل ثمّة مجال لخلق المبررات أو للشك والتردد في تجنّب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أنّ عمر الذي كان شديد الولع بالخمر (كما يقول مفسّرو أهل السنّة) والذي كان - لهذا السبب - لا يرى في الآيات السابقة ما يكفي لمنعه، قال عندما سمع هذه الآية: انتهينا، انتهينا! لأنّه رأى فيها الكفاية.

١٠ - في الآية الثالثة التي تؤكّد هذا الحكم، يأمر المسلمين: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾.

ثمّ يتوعّد المخالفين بالعقاب، وأنّ مهمّة رسول الله ﷺ هي الإبلاغ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

---

(١) انظر المجلد الثّالث، من هذا التّفسير بشأن الأنصاب والنصيب ذيل الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٣١، وقد جاء هذا الحديث في تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٦٩ عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٣) انظر شرح كيفية الأزلام ذيل الآية ٣ من سورة المائدة من هذا التّفسير.

الآثار المهلكة للخمر والميسر

على الرغم من أنّنا أشرنا في تفسير الآية (٢١٩) من سورة البقرة في المجلد الثّاني من هذا التّفسير إشارة موجزة إلى أضرار هاتين الآفتين الاجتماعيتين، إلاّ أنّنا لتوكيد الأمر - اقتداء بالقرآن الكريم - نضيف هنا أُموراً أُخرى هي مجموعة من الإحصاءات المختلفة كل واحدة منها تعتبر شهادة وافية تدل على عظم تلك الأضرار وعمق تأثيرها:

١ - في إحصائية صدرت في بريطانيا في شأن الجنون الكحولي ومقارنته بالجنون العادي، جاء أنّه في مقابل (٢٢٤٩) مجنوناً بسبب الإدمان على الخمر هناك (٥٣) مجنوناً فقط لأسباب مختلفة أُخرى[١].

٢ - وفي إحصاء آخر من أمريكا أنّ ٨٥٪ من المصابين بأمراض نفسية هم من المدمنين على الخمر[٢].

٣ - يقول عالم إنجليزي اسمه (بنتام): إنّ المشروبات الكحولية تحوّل أهالي الشمال إلى أناس حمقى وبله، وأهالي الجنوب إلى مجانين، ثمّ يضيف: إنّ الدين الإسلامي يحرّم جميع أنواع المسكرات، وهذا واحد من مميزات الإسلام[٣].

٤ - لو أُجري إحصاء عن السكارى الذين انتحروا، أو ارتكبوا الجرائم وحطّموا العوائل، لكان لدينا رقم رهيب[٤].

٥ - في فرنسا يموت كلّ يوم ٤٤٠ شخصاً ضحية للخمور[٥].

٦ - تقول إحصائية أُخرى من أمريكا: إنّ عدد المرضى النفسانيين خلال سنة واحدة بلغ ضعف قتلاها في الحرب العالمية الثّانية، ويرى العلماء الأمريكان أنّ السببين الرئيسيين لهذا هما المشروبات الكحولية والتدخين[٦].

٧ - جاء في إحصائية وضعها عالم يدعى (هور) نشرها في مجلة (العلوم) بمناسبة عيد تأسيسها العشرين، قال فيها: إنّ ٦٠٪ من القتل المتعمد، ٧٥٪ من الضرب والجرح و٣٠٪ من الجرائم الأخلاقية (بما فيها الزنا بالمحارم!) و٢٠٪ من جرائم السرقة، سببها المشروبات الكحولية، وعن هذا العالم نفسه أنّ ٤٠٪ من الأطفال المجرمين قد ورثوا آثار الكحول[٧].

---

(١) كتاب «ندوة الكحول»، ص ٦٥.
(٢) كتاب «ندوة الكحول»، ٦٥.
(٣) تفسير الطنطاوي، ج ١، ١٦٥.
(٤) دائرة المعارف فريد وجدي، ج ٣، ص ٧٩٠.
(٥) الآفات الاجتماعية في قرننا، ص ٢٠٥.
(٦) مجموعة منشورات الجيل الجديد.
(٧) ندوة الكحول، ص ٦٦.

٨ - إنّ الخسائر التي تصيب الاقتصاد البريطاني من جرّاء تغيّب العمّال عن العمل بسبب إدمانهم الخمر تبلغ سنوياً نحو ٥٠ مليون دولار، وهو مبلغ يكفي لإنشاء الآلاف من رياض الأطفال والمدارس الابتدائية والثانوية.

٩ - الإحصاءات التي نشرت عن خسائر الإدمان على الكحول في فرنسا تقول: إنّ الخزينة الفرنسية تتحمل سنوياً مبلغ (١٣٧) مليارد فرنك، إضافة إلى الأضرار الأُخرى كما يلي:

٦٠ مليار فرنك للصرف على المحاكم والسجون.

٤٠ مليار فرنك للصرف على الإعانات العامّة والمؤسسات الخيرية.

١٠ مليارات من الفرنكات للصرف على المستشفيات الخاصّة لمعالجة المدمنين على المسكرات.

٧٠ مليار فرنك للصرف على الأمن الاجتماعي.

وهكذا يتّضح أنّ عدد المرضى النفسانيين ومصحات الأمراض العقلية وجرائم القتل والمخاصمات الدموية والسرقة والاغتصاب وحوادث المرور، تتناسب تناسباً طردياً مع عدد حانات الخمور.

١٠ - أثبتت الدوائر الإحصائية في أمريكا أنّ القمار كان السبب المباشر في ٣٠٪ من الجرائم، وفي إحصائية أُخرى عن جرائم القمار نرى وللأسف الشديد أنّ ٩٠٪ من جرائم السرقة و٥٠٪ من الجرائم الجنسية و١٠٪ من فساد الأخلاق و٣٠٪ من الطلاق و٤٠٪ من الضرب والجرح و٥٪ من حوداث الانتحار إنّما هي بسبب القمار(١).

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير «مجمع البيان» وتفسير «الطبري» وتفسير «القرطبي» وغيرها من التفاسير أنّه بعد نزول آية تحريم الخمر والميسر، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ:

(١) ندوة الكحول، ص ٦٦.

إذا كان هذان العملان على هذا القدر من الإثم، فما حال المسلمين الذين توفاهم الله قبل نزول هذه الآية وكانوا لايزالون يمارسونهما؟ فنزلت هذه الآية جواباً لهم(١).

التّفسير

تجيب هذه الآية الذين يتساءلون عن الماضين قبل نزول آية تحريم الخمر والميسر، أو الذين لم يسمعوا بعد تلك الآية لبعد مناطقهم التي يعيشون فيها، فتقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾(٢) ولكنّها تشترط لتلك التقوى والإيمان والعمل الصالح: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، ثمّ تكرر ذلك ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ وللمرّة الثالثة تكرر الآية بقليل من الاختلاف ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾، وتنتهي بالتوكيد ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

هنالك كلام كثير بين المفسّرين القدامى والمحدثين حول هذا التكرار، فبعض يراه للتوكيد ويقول: إنّ أهميّة التقوى والإيمان والعمل الصالح تقتضي الإعادة والتكرار والتوكيد.

إلاّ أنّ جمعاً آخر من المفسّرين يعتقدون أنّ كلّ جملة من هذه الجمل المكررة تشير إلى حقيقة منفصلة عن الأُخرى، وأنّ هناك احتمالات متعددة في شأن اختلاف كلّ جملة عن الأُخرى، ولكن معظم هذه الاحتمالات لا يقوم عليها دليل أو شاهد.

ولعلّ خير ما قيل بهذا الخصوص قولهم: إنّ المقصود بالتقوى في المرّة الأُولى هو ذلك الإحساس الداخلي بالمسؤولية والذي يسوق الإنسان نحو البحث والتدقيق في الدين، ومطالعة معجزة الرّسول ﷺ والبحث عن الله، فتكون نتيجة ذلك الإيمان والعمل الصالح، وبعبارة أُخرى: إذا لم يكن في الإنسان شيء من التقوى فإنّه لا يتّجه إلى البحث عن الحقيقة، وعليه فإنّ ورود كلمة «التقوى» لأوّل مرّة في هذه الآية إشارة إلى هذا المقدار من التقوى، وليس في هذا تناقض مع بداية الآية التي تقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ لأنّ الإيمان هنا يمكن أن يكون بمعنى التسليم الظاهري، بينما الإيمان الذي يحصل بعد التقوى هو الإيمان الحقيقي.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٢، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تطلق كلمة «الطعام» على المأكولات غالباً، ولكنّها قد تطلق على المشروبات أيضاً، كما جاء في الآية (٢٤٩) من سورة البقرة: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾.

وتكرار التقوى للمرّة الثّانية إشارة إلى التقوى التي تنفذ إلى أعماق الإنسان فيزداد تأثيرها، وتكون نتيجتها الإيمان الثابت الوطيد الذي يؤدّي إلى العمل الصالح، ولذلك لم يرد «العمل الصالح» بعد «الإيمان» في الجملة الثّانية: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ أي إنّ هذا الإيمان من الثبوت والنفاذ بحيث لا حاجة معه لذكر العمل الصالح.

وفي المرحلة الثّالثة يدور الكلام على التقوى التي بلغت حدّها الأعلى بحيث إنّها فضلاً عن دفعها إلى القيام بالواجبات، تدفع إلى الإحسان أيضاً، أي إلى الأعمال الصالحة التي ليست من الواجبات.

وعليه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولية وكأنّها تمثّل المرحلة (الابتدائية) والمرحلة (المتوسطة) والمرحلة (النهائية)، ولكل مرحلة قرينة تدل عليها في الآية.

أمّا ما ذهب إليه مفسّرون آخرون في شأن تناول الآية ثلاثة أنواع من التقوى وثلاثة أنواع من الإيمان فلا قرينة عليه ولا شاهد في الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾

سبب النّزول

جاء في كتاب الكافي وفي كثير من التفاسير أنّه في عام الحديبية، عندما قصد رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين العمرة وهم محرمون، صادفوا في طريقهم كثيراً من الحيوانات البرّية وكانوا قادرين على صيدها باليد أو بالرمح، لقد كان الصيد من الكثرة

بحيث قيل إنّ الحيوانات كانت تجوس بين الخيام وتمر بين الناس، الآية الأُولى من هذه الآيات نزلت في هذا الوقت تحذّر المسلمين من صيدها، وتعتبر امتناعهم عن صيدها ضرباً من الامتحان لهم(١).

التّفسير

أحكام الصّيد عند الإحرام

تبيّن هذه الآيات أحكام صيد البر والبحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة.

في البداية إشارة إلى ما حدث للمسلمين في عمرة الحديبية، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾.

يستفاد من تعبير الآية أنّ الله تعالى يريد إنباء الناس عن قضية سوف تقع في المستقبل، كما يظهر أيضاً أنّ وفرة الصيد في ذلك المكان لم يكن أمراً مألوفاً، فكان هذا امتحاناً للمسلمين، على الأخص إذا أخذنا بنظر الاعتبار حاجتهم الماسة إلى الحصول على طعامهم من لحوم ذلك الصيد الذي كان موفوراً وفي متناول أيديهم، إنّ تحمّل الناس في ذلك العصر الحرمان من ذلك الغذاء القريب يعتبر امتحاناً كبيراً لهم.

قال بعضهم: إنّ المقصود من عبارة ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ أنّهم كانوا قادرين على صيدها بالشباك أو بالفخاخ، ولكن ظاهر الآية يشير إلى أنّهم كانوا حقّاً قادرين على صيدها باليد.

ثمّ يقول من باب التوكيد: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ سبق أن أوضحنا في المجلد الأوّل من هذا التّفسير في ذيل الآية (١٤٣) من سورة البقرة أنّ تعبير «لنعلم» أو «ليعلم» وأمثالها لا يقصد بها، أنّ الله لم يكن يعلم شيئاً، وأنّه يريد أن يعلمه عن طريق اختبار الناس، بل المقصود هو إلباس الحقيقة المعلومة لدى الله لباس العمل والتحقق الخارجي، وذلك لأنّ الاعتماد على نوايا الأشخاص الداخلية واستعدادهم غير كافٍ للتكامل وللمعاقبة والإثابة، بل يجب أن ينكشف كلّ ذلك خلال أعمال خارجية لكي يكون لها تلك الآثار (لمزيد من التوضيح انظر ذيل الآية المذكورة).

والآية في الخاتمة تتوعّد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهي بعذاب شديد: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) أصول الكافي، ج ٤، ص ٣٩٦؛ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤١٥ و ٤١٧.

على الرّغم من أنّ الجملة الأخيرة في الآية تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، ولكن الآية التّالية لها تصدر حكماً قاطعاً وصريحاً وعاماً في شأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ .

وهل تحريم الصيد (وهو صيد البر بدلالة الآية التي تليها) يشمل جميع أنواع الحيوانات البرّية، سواء أكان لحمها حلالاً أم حراماً، أم أنّه يختص بحلال اللحم منها؟

لا تتفق آراء المفسّرين والفقهاء بهذا الشأن، إلاّ أنّ المشهور بين فقهاء الإمامية ومفسّريهم أنّ الحكم عام، ويؤيّد ذلك الرّوايات المروية عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام (١)، أمّا فقهاء أهل السنّة فمنهم - مثل أبي حنيفة - من يتفق مع الإمامية في ذلك، ومنهم - كالشافعي - من يرى الحكم مقصوراً على الحيوانات المحللة اللحوم ولكن الحكم، على كلّ حال، لا يشمل الحيوانات الأهلية، لأنّ الحيوانات الأهلية لا توصف بالصيد، وما يلفت النظر في رواياتنا هو أنّ الصيد ليس وحده المحرّم أثناء الإحرام، بل التحريم يشمل حتى الإعانة على الصيد، والإشارة أو الدلالة عليه أيضاً(٢) .

قد يظن بعض أنّ الصيد لا يشمل ذوات اللحم الحرام، إلاّ أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الغرض من صيد الحيوان متنوّع، فمرّة يكون الغرض لحمها، وأُخرى جلدها، وثالثة لدفع أذاها، ثمّة بيت ينسب إلى الإمام علي عليه السلام من الممكن أن يكون شاهداً على هذا التعميم: يقول:

صيد الملوك أرانب وثعالب   وإذا ركبت فصيدي الأبطال

وللاستزادة من المعرفة في شأن أحكام الصيد الحلال والحرام يمكن الرجوع إلى الكتب الفقهية.

ثمّ بعد ذلك يشار إلى كفارة الصيد في حال الإحرام، فيقول: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ .

فهل المقصود من «مثل» هو التماثل في الشكل والحجم أي إذا قتل أحد حيواناً وحشياً كبيراً مثل النعامة - مثلاً - فهل يجب عليه أن يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة، كالبعير مثلاً، أو إذا صاد غزالاً، فهل كفارته تكون شاة تقاربه في الحجم والشكل؟ أم أنّ «مثل» هو التماثل في القيمة؟

---

(١) التهذيب، ج ٥، ص ٣٠٠؛ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤١٥ و ٤١٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤١٥ باب تحريم صيد البرّ كله على المحرم اصطياداً ودلالةً.

إنّ المشهور والمعروف بين الفقهاء والمفسّرين هو الرأي الأوّل، كما أنّ ظاهر الآية أقرب إلى هذا المعنى، وذلك لأنّه بالنظر لعمومية الحكم على الحيوانات ذوات اللحم الحلال وذوات اللحم الحرام، فإنّ أكثر هذه الحيوانات ليس لها قيمة ثابتة لكي يمكن اختيار مثيلاتها من الحيوانات الأهلية.

وهذا - على كلّ حال - قد يكون ممكناً في حالة وجود المثيل من حيث الشكل والحجم، أمّا في حالة انعدام المثيل، فلا مندوحة من تقدير قيمة للصيد بشكل من الأشكال، ويمكن اختيار حيوان أهلي حلال اللحم يقاربه في القيمة.

ولمّا كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأنّ ذلك ينبغي أن يكون بتحكيم شخصين مطّلعين وعادلين: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أمّا عن مكان ذبح الكفارة، فيبيّن القرآن أنّه يكون بصورة «هدي» يبلغ أرض الكعبة: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾.

والمشهور بين فقهائنا أنّ «كفارة الصيد أثناء الإحرام للعمرة» يجب أن تذبح في مكّة و«كفارة الصيد أثناء الإحرام للحج» يجب أن تذبح في منى، وهذا لا يتعارض مع الآية المذكورة، لأنّها نزلت في إحرام العمرة، كما قلنا.

ثمّ يضيف أنه ليس ضرورياً أن تكون الكفّارة بصورة أضحية، بل يمكن الاستعاضة عنها بواحد من اثنين آخرين: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ و ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾.

مع أنّ الآية لا تذكر عدد المساكين الذين يجب إطعامهم، ولا عدد الأيّام التي يجب أن تصام، فإنّ اقتران الاثنين معاً من جهة، والتصريح بلزوم الموازنة في الصيام، يدل على أنّ المقصود ليس إطلاق عدد المساكين الذين يجب إطعامهم بحسب رغبتنا، بل المقصود تحديد ذلك بمقدار قيمة الأضحية.

أمّا كيف يتمّ التوازن بين الصيام وإطعام المساكين، فيستفاد من بعض الرّوايات أنّ مقابل كلّ «مدّ» من الطعام (ما يعادل نحو ٧٥٠ غراماً من الحنطة وأمثالها) يصوم يوماً واحداً[١]، ويستفاد من روايات أُخرى أنّه يصوم يوماً واحداً في مقابل كلّ «مدّين» من الطعام[٢]، وهذا يعود في الواقع إلى أنّ الذي لا يستطيع صوم رمضان يكفّر عن كل يوم

(١) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٥٨؛ وأصول الكافي، ج ١٤، ص ٣٨٦.
(٢) أصول الكافي، ج ٤، ص ٨٥ و ٣٨٧.

منه بمدّ واحد أو بمدّين اثنين من الطعام للمحتاجين[١] (لمزيد من الاطلاع بهذا الخصوص انظر الكتب الفقهية).

أمّا إذا قتل محرم صيداً فهل له أن يختار أيّاً من هذه الكفارات الثلاث، أو أنّ عليه أن يختار بالترتيب واحدة منها، أي الذبيحة أوّلاً، فإن لم يستطع فإطعام المساكين، فإن لم يستطع فالصيام، فالفقهاء مختلفون في هذا، ولكن ظاهر الآية يدل على حرية الاختيار.

إنّ الهدف من هذه الكفارات هو ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾[٢].

ثمّ لمّا لم يكن لأيّ حكم أثر رجعي يعود إلى الماضي، فيقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

أمّا من لم يعتنِ بهذه التحذيرات المتكررة ولم يلتفت إلى أحكام الكفارة وكرر مخالفاته لحكم الصيد وهو محرم فإنّ الله سوف ينتقم منه في الوقت المناسب: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

ثمّة نقاش بين المفسّرين عمّا إذا كانت كفارة صيد المحرم تتكرر بتكرره، أو لا. ظاهر الآية يدل على أنّ التكرار يستوجب انتقام الله، فلو استلزم تكرار الكفارة لوجب أن لا يكتفي بذكر الانتقام الإلهي، وللزم ذكر تكرار الكفارة صراحة، وهذا ما جاء في الرّوايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام[٣].

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾.

لكن ما المقصود من الطعام؟ فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّه ذلك النوع من السمك الذي يموت بدون صيد ويطفو على سطح الماء، مع أنّنا نعلم أنّ هذا الكلام ليس صحيحاً، لأنّ السمك الميت بهذا الشكل حرام، مع أنّ بعض الرّوايات التي يرويها أهل السنّة تدل على حلّيته[٤].

إنّ ما يستفاد من التعمّق في ظاهر الآية هو أنّ القصد من الطعام ما يهيّأ للأكل من

---

(١) لمزيد من الايضاح، راجع كتب الفقه.

(٢) في «مفردات الراغب» أنّ «وبال» من «الوبل والوابل» وهو المطر الغزير، ثمّ أطلق على العمل الشاق الجسيم، ولمّا كان العقاب شديداً وثقيلاً عادة، فقد وصف بأنّه «وبال».

(٣) أصول الكافي، ج ٤، ص ٣٩٤؛ وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٩٤ و ٩٥.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي، ص ٢٥٥.

سمك الصيد إذ إنّ الآية تريد أن تحلل أمرين: الأوّل هو الصيد، والثّاني هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

وبهذه المناسبة، ثمّة فتوى معروفة بين فقهائنا تعتمد مفهوم هذا التعبير، وذلك فيما يتعلّق بصيد البر، فإنّ هذا الصيد ليس وحده حراماً، بل إنّ طعامه حرام أيضاً.

ثمّ تشير الآية إلى الحكمة من هذا الحكم وتقول: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، أي لكيلا تعانوا المشقّة في طعامكم وأنتم محرمون، فلكم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد، ذلكم هو صيد البحر.

ولمّا كان من المألوف أن يكون السمك الذي يحمله المسافر معه هو السمك المملح، فقد ذهب بعض المفسّرين إلى تفسير العبارة المذكورة في الآية بأنّه يجوز «للمقيمين» أن يطعموا السمك الطازج و«للمسافرين» السمك المملح.

ولابدّ من التنبيه إلى أنّ حكم ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ ليس حكماً مطلقاً وعاماً في حلّية صيد البحر كافة كما يظن بعضهم، وذلك لأنّ الآية ليست في معرض بيان أصل حكم صيد البحر، بل هدف الآية أن تبيّن للمحرم أنّ صيد البحر الذي كان حلالاً قبل الإحرام له أن يطعمه في حال الإحرام أيضاً، وبعبارة أُخرى: لا تبيّن الآية أصل تشريع القانون، وإنّما تشير إلى خصائص قانون سبق تشريعه فليست الآية في معرض عمومية الحكم، بل هي تبيّن حكم المحرم فحسب.

وللتوكيد تعود الآية إلى الحكم السابق مرّة أُخرى وتقول: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾.

ولتوكيد جميع الأحكام التي ذكرت، تقول الآية في الخاتمة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

حكمة تحريم الصّيد حال الإحرام

معلوم أنّ الحج والعمرة من العبادات التي تفصل الإنسان عن عالم المادة وتنقله إلى محيط مليء بالمعنويات، فخصوصيات الحياة المادية، والجدال والخصام، والرغبات الجنسية، واللذائذ المادية كلّها تنفصل عن الإنسان في مناسك الحج والعمرة، ويبدأ الإنسان ضرباً من الرياضة الإلهيّة المشروعة، ويبدو أنّ تحريم صيد البرّ في حال الإحرام يرمي إلى الهدف نفسه.

ثمّ لو أُحلّ الصيد لزائري بيت الله الحرام، مع الأخذ بنظر الاعتبار كثرة الزوار وكثرة

ترددهم في كلّ سنة على هذه الأرض المقدسة، لقضي على وجود الكثير من الحيوانات القليلة أصلاً في تلك الأرض القاحلة الخالية من الماء والزرع، فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقة والحفاظ عليها من الانقراض.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّه حتى في غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، وكذلك قطع أشجاره وحشائشه، تبيّن لنا أنّ لهذا التشريع ارتباطاً وثيقاً بقضية الحفاظ على البيئة وعلى النبات والحيوان في تلك المنطقة، وصيانتها من الإبادة.

إنّ هذا التشريع من الدّقة والإحكام بحيث إنّه يمنع فيه حتى هداية الصيّاد إلى مكان الصيد، فقد جاء في بعض الرّوايات من طرق أهل البيت عليهم السلام أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال لأحد أصحابه: «لا تستحلن شيئاً من الصيد وأنت حرام ولا أنت حلال في الحرم ولا تدلن محلاً ولا محرماً فيصطاده، ولا تشر إليه فيستحل من أجلك، فإنّ فيه فداء لمن تعمّده»[1].

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

التّفسير

بعد الكلام في الآيات السابقة عن تحريم الصيد في حال الإحرام، يشير القرآن الكريم في هذه الآية إلى أهمّية مكّة وأثرها في بناء حياة المسلمين الاجتماعية، فيقول أوّلاً: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

فهذا البيت المقدس رمز وحدة الناس ومركز لتجمّع القلوب حوله، ومؤتمر عظيم لتوثيق الرّوابط المختلفة، فهم في ظل هذا البيت المقدس وفي مركزيته ومعنويته المستمدة من جذور تاريخية عميقة يستطيعون إصلاح الكثير ممّا يستوجب الإصلاح والترميم في حياتهم، وإقامة سعادتهم على قواعده المتينة، لذلك فقد وصف هذا البيت في سورة آل

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٧٥.

عمران (الآية ٩٦): ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

في الحقيقة أنّ المسلمين يستطيعون - انطلاقاً من المفهوم الواسع لقوله: ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ - أن يصلحوا كلّ أُمورهم بالركون إلى هذا البيت وفي إطار تعاليم الحج البنّاءة.

ولـمّا كانت هذه المناسك يجب أن تجري في جوّ آمن وخال من الحروب والمنازعات والمخاصمات، فقد أشارت الآية إلى أثر الأشهر الحرم (وهي الأشهر التي تمنع فيها الحرب مطلقاً) وقالت: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[1] كما أشارت إلى الأضاحي الفاقدة للعلامة ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ والأضاحي ذات العلامة ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ التي منها يطعم الناس في موسم الحج، وتؤمّن جانباً من احتياجات الحاج للقيام بمناسكه، فقالت: ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

ولمّا كان مجموع هذه الأحكام والقوانين والتشريعات في شأن الصيد، وكذلك في شأن حرم مكّة والشهر الحرام وغير ذلك، يحكي عمق تدبير الشارع وسعة علمه تقول الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بناءً على ما مرّ بنا في تفسير هذه الآية يتّضح الارتباط بين بدايتها ونهايتها، إذ إنّ هذه الأحكام التشريعية لا يستطيع أن ينظّمها إلاّ من كان عليماً بأعماق القوانين التكوينية، فالذي لا علم له بدقائق شؤون السماء والأرض وبما استقرّ في روح الإنسان وجسمه عند خلقه، لا تكون له القدرة على تقرير أحكام كهذه، فالقانون الصحيح السليم هو ذاك الذي ينسجم مع قانون الخلق والفطرة.

الآية التّالية تؤكّد تلك التشريعات، وتحثّ الناس على اتّباعها وتهدد المخالفين والعاصين فتقول: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولعلّ تقديم (شديد العقاب) على (غفور رحيم) إشارة إلى أنّ عقاب الله الشديد يمكن إطفاؤه بماء التوبة والدخول في رحمة الله وغفرانه.

ومرّة أُخرى تؤكّد الآية على أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم، وأنّ النّبي مسؤول عن تبليغ الرّسالة لا غير (وما على الرّسول إلاّ البلاغ) وفي الوقت نفسه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

أهمّية الكعبة

إنّ الكعبة - التي ذكرت في هذه الآية وفي الآيات السابقة مرّتين - من مادة «كعب»

---

(١) مرّ ذكر الأشهر الحرم في تفسير الآية (١٩٤) من سورة البقرة، ارجع إلى المجلد الثّاني من هذا التّفسير.

أي بروز خلف القدم، ثمّ أُطلق على كلّ بروز، والمكعب كذلك لأنّه بارز من جهاته الأربع، والكاعب (وجمعها كواعب) هي الأنثى التي برز صدرها.

والظاهر أنّ تسمية بيت الله بالكعبة يرجع أيضاً، إلى ارتفاعه الظاهري وبروزه، كما هو رمز لارتفاع مقامه وعظمة مكانته.

إنّ للكعبة تاريخاً عريقاً حافلاً بالحوادث والوقائع، وكلّ هذه الحوادث تنطلق من عظمتها ومكانتها المهمّة.

أهمّية الكعبة تبلغ حدّاً بحيث إنّ الأحاديث الإسلامية تعتبر هدمها في مصاف قتل النّبي والإمام[١] والنظر إليها عبادة، والطواف بها من أفضل الأعمال، وقد جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «لا ينبغي لأحد أن يرفع بناءه فوق الكعبة»[٢].

طبيعي أنّ أهمّية الكعبة واحترامها لم يأتيا من بنائها، فقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخطبة القاصعة: «ألا ترون أنّ الله، سبحانه، اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام (الذي جعله للنّاس قياماً) ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً...»[٣].

أهمّية مكانة الكعبة عند الله تعود إلى أنّها أقدم مراكز العبادة والتوحيد، ونقطة تجتذب إليها أنظار الشعوب والأقوام المختلفة.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

الأكثرية ليست دليلاً على الحقّ

دار الحديث في الآيات السّابقة حول تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام وصيد البر في حال الإحرام، ولكن قد نجد أناساً يتذرّعون لارتكاب هذه المعاصي

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٢٩٩. (٢) «سفينة البحار»، ج ٢، ص ٤٨٢.
(٣) «نهج البلاغة»، الخطبة القاصعة، رقم ١٩٢.

بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها في بعض الأمصار، فيقولون مثلاً: إنّ أكثر أهل المدينة الفلانية يعاقرون الخمرة، أو إنّهم يمارسون القمار، أو إنّ أكثرية الناس في ظروف خاصّة لا يقيمون وزناً لتحريم الصيد ولغيره. لذلك، فهم أيضاً يحذون حذوهم ويهملون العمل بتلك التشريعات، فلكيلا يتذرّع الناس بأمثال هذه الأعذار، يضع الله سبحانه قاعدة كلية عامّة ورئيسية في عبارة قصيرة شاملة يخاطب بها رسوله الكريم: (قل لا يستوي الخبيث والطّيب ولو أعجبك كثرة الخبيث).

وعليه فإنّ الخبيث والطيب - في الآية - يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاماً كان ذلك أم فكراً.

وفي الختام يخاطب العلماء وأصحاب العقول والأذكياء فيقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أمّا أنّ مدلول الآية من قبيل توضيح الواضحات، فذلك لأنّ ثمّة من يظن أنّ أُموراً عارضة، مثل كثرة أتباع الخبيث، أو ما يسمى بـ«الأكثرية» تجعل ذلك الخبيث في مصاف الطيب، كما يحدث أحياناً أن نرى بعضهم يقع تحت تأثير الجماعة واتجاه أهواء الأكثرية، ظانّاً أنّه حيثما مالت الأكثرية كان ذلك دليلاً قاطعاً على صحة ما مالت إليه، بينما الأمر ليس كذلك، والقضايا التي أيّدتها الأكثرية وظهر بطلانها كثيرة جدّاً.

في الواقع إنّ ما يميّز الخبيث من الطيب هو الأكثرية الكيفية لا الكميّة، أي إنّ المطلوب هو أفكار أقوى وأرفع وأسمى وأنقى لا كثرة المؤيّدين.

هذه القضية لا تلائم أذواق بعض الناس في العصر الحاضر، بعد أن تشبّعت أذهانهم على أثر التلقين ووسائل الإعلام بأنّ الأكثرية هي معيار معرفة الخبيث من الطيب، إلى حدّ الإيمان بأنّ «الحقّ» هو ما أرادته الأكثرية، و«الطيب» هو ما مالت إليه الأكثرية، وليس كذلك. فإنّ معظم مشاكل العالم ناتجة عن هذا اللون من التفكير.

نعم، إذا تمتّعت الأكثرية بقيادة صادقة وتعليمات صحيحة، بحيث تؤلّف أكثرية ناضجة بما للكلمة من معنى، فيمكن حينئذ اعتبار هذه الأكثرية واتجاهاتها مقياس تمييز الخبيث عن الطيب، لا الأكثرية الفجّة غير الناضجة.

على كل حال، يشير القرآن إلى هذا الأمر في هذه الآية، ويحذّر الناس من الانجراف مع أكثرية الخبثاء، وفي مواضع أُخرى تكاد تبلغ العشرة يقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) أمّا تقديم «الخبيث» على «الطيب» في الآية، فذلك لأنّ الكلام موجّه إلى الذين يحسبون كثرة الخبيث دليلاً على صحة ما يذهبون إليه، فلا بدّ من الردّ على هؤلاء، وتعريفهم بأنّ معيار الخباثة والطيبة لم يكن في يوم من الأيّام هو الأكثرية أو الأقلية، بل في كل زمان ومكان كان «الطيب» خيراً من «الخبيث» وأنّ أصحاب الحجى والتبصّر لا ينخدعون بالكثرة، فهم يتجنّبون الخبيث دائماً حتى وإن تلوّث به جميع المحيطين بهم، ويندفعون نحو الطّيب حتى وإن ابتعد عنه الجميع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

سبب النّزول

الأقوال في سبب نزول هاتين الآيتين مختلفة في مصادر الحديث والتّفسير، ولكن الذي ينسجم أكثر مع سبب نزول هاتين الآيتين، هو ما جاء في تفسير «مجمع البيان» عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنّ الله كتب عليكم الحج» فقام عكاشة بن محصن - وقيل سراقة بن مالك - فقال: أفي كلّ عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرّتين أو ثلاثاً، فقال رسول الله: «ويحك ما يؤمنك أن أقول: نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(٢).

ينبغي ألاّ يظن أحد بأنّ سبب نزول هاتين الآيتين - كما سنتطرّق إلى ذلك في تفسيرهما - يعني غلق أبواب السؤال وباب تفهّم الأُمور في وجوه الناس، لأنّ القرآن في آياته يأمر الناس صراحة بالرجوع إلى أصحاب الخبرة في فهم الأُمور: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ

(١) سورة الاعراف: ١٨٧؛ يوسف؛ ٢١، ٤٠، ٦٨؛ النحل: ٣٨؛ الروم: ٦ و ٣٠؛ سبأ: ٢٨ و ٣٦؛ غافر: ٥٧؛ الجاثية: ٢٦.

(٢) تفسير «مجمع البيان» ج ٣، ص ٤٢٨ وتفسير «الدر المنثور» ج٢، ص ٣٣٥، و«المنار» في ذيل الآية المذكورة مع بعض الاختلاف.

﴿ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١] بل المقصود هو الأسئلة التافهة والتحجج، والإلحاح المؤدّي غالباً إلى تشويش أفكار الناس وقطع التسلسل الفكري للخطيب.

التّفسير

الأسئلة الفضولية

لاشك أنّ السؤال مفتاح المعرفة، ولذلك من قلّت أسئلته قلّت معرفته، وفي القرآن وفي الرّوايات الكثير من التوكيد على الناس أن يسألوا عمّا لا يعرفون[٢]، ولكن لكلّ قاعدة استثناء، ولهذا المبدأ التربوي الأساس استثناءاته أيضاً، منها أنّ هناك - أحياناً - بعض المسائل التي يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعي ولمصلحة أفراد المجتمع، ففي أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح في السؤال عنها والسعي لكشف النقاب عن حقيقتها بعيداً عن الفضيلة فحسب، بل يكون مذموماً أيضاً، مثلاً:

يرى معظم الأطبّاء ضرورة كتمان الأمراض الصعبة الشفاء والمخيفة عن المريض نفسه، وقد يخبرون أهله شريطة أن يلتزموا كتمان الأمر عن المريض، والسبب أنّ التجارب قد دلّت على أنّ المريض إذا عرف أنّ مرضه لا يشفى بسرعة انتابه الرعب والهلع وقد يؤخّر ذلك شفاءه إن لم يكن مرضه مهلكاً، فعلى المريض أن لا يلح في إلقاء الأسئلة على طبيبه العطوف، لأنّ هذا الإلحاح قد يحرج الطبيب، فيصرّح للمريض بما لا ينبغي أن يصارحه به تخلّصاً من هذا الإصرار واللجاج.

كذلك الناس عموماً، فهم في التعامل فيما بينهم يحتاجون إلى أن يحسن بعضهم الظن ببعض، فللحفاظ على هذا الرصيد الهام، خير لهم ألاّ يعرفوا خفايا الآخرين، إذ إنّ لكل امرىء نقاط ضعيفة، فانكشاف نقاط ضعف الناس يضرّ بالتعاون فيما بينهم فقد يكون امرؤ ذو شخصية مؤثرة قد ولد في عائلة دنيئة ومنحطّة، وإذا انكشف هذا فقد تتزلزل آثاره الوجودية في المجتمع، لذلك ينبغي على الناس ألاّ يلحّوا في السؤال والتفتيش في هذا المجال.

كما أنّ الكثير من الخطط والمناهج الاجتماعية يلزمها الكتمان حتى يتمّ تنفيذها، فالإعلان عنها يعتبر ضربة تؤخّر سرعة إنجاز العمل.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٢١١ و ٢١٢.

هذه وأمثالها نماذج لما لا يصح فيه الإلحاح في السؤال، وعلى القادة أن لا يفشوا أمثال هذه الأسرار ما لم يقعوا تحت ضغط شديد.

والقرآن في هذه الآية يشير إلى الموضوع نفسه ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

ولكن إلحاح بعض الناس بالسؤال من جهة، وعدم الإجابة على أسئلتهم من جهة أُخرى، قد يثير الشكوك والريب عند الآخرين بحيث يؤدّي الأمر إلى مفاسد أكثر، لذلك تقول الآية: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فيشقّ عليكم الأمر.

أمّا قصر إفشائها على وقت نزول القرآن، فذلك لأنّ تلك التساؤلات كانت متعلّقة بمسائل ينبغي أن تنزل أجوبتها عن طريق الوحي.

ثمّ لا تحسبوا الله غافلاً عن ذكر بعض الأُمور إن سكت عنها، فقد ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يقول علي عليه السلام: «إنَّ الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها»(١).

سؤال: •

قد يسأل سائل: إذا كان إفشاء هذه الأُمور يتعارض مع مصلحة الناس، فلماذا يماط اللثام عنها على أثر الإلحاح؟

الجواب:

السبب هو ما قلناه من قبل، فالقائد إذا لزم الصمت رغم الإلحاح بالسؤال، فقد تنجم عن ذلك مفاسد أخطر، ويثار سوء ظن يشوب أذهان الناس، مثل صمت الطبيب إزاء إلحاح المريض في السؤال عن مرضه، فإنّ ذلك يثير شكوك المريض، وقد يحمله على الظن بأنّ الطبيب لم يشخّص مرضه بعد، فيهمل استعمال ما يصفه له من علاج، عندئذ لا يسع الطبيب إلاّ أن يفشي له سرّ مرضه، ولو سبب له ذلك بعض المشاكل.

الآية التي بعدها تؤكّد هذه الحقيقة، وتبيّن أنّ أقواماً سابقين كانت لهم أسئلة كهذه،

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٢٩؛ ذيل الآية المذكورة.

وبعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها وعصوا: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾.

وللمفسّرين أقوال مختلفة في شأن تلك الأقوام، منهم من ذهب إلى أنّ الأمر يخصّ تلامذة عيسى عليه السلام عندما طلبوا مائدة من السماء، فعندما تحقق لهم ما أرادوا عصوا، ويقول بعض: إنّها حكاية مطالبة النّبي صالح عليه السلام بمعجزة، ولكنّ الظاهر أنّ هذه الاحتمالات بعيدة عن الصواب، لأنّ الآية تتحدّث عن «سؤال» عن مجهول يراد الكشف عنه، لا عن «طلب» شيء، ولعلّ استعمال كلمة «سؤال» في كلا الحالين هو سبب هذا الخطأ.

قد تكون تلك الأقوام من بني إسرائيل أُمروا بذبح بقرة للتحقيق في أمر جريمة (انظر شرح ذلك في المجلد الأوّل من هذا التّفسير) فراحوا يمطرون موسى بالأسئلة عن خصائص البقرة ومميزاتها ولم يكن قد نزل من ذلك أيّ شيء، ولكنّهم بسؤالاتهم المتكررة التي لم تكن ضرورية أخذوا يشقّون على أنفسهم، بحيث إنّ العثور على تلك البقرة الموصوفة أصبح من الصعوبة بمكان وتحمّلوا الكثير من النفقات في سبيل ذلك، حتى كادوا ينصرفون عن التنفيذ.

في تفسير قوله تعالى: ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ احتمالان:

الأوّل: أنّ المقصود بالكفر هو العصيان، كما سبقت الإشارة إليه.

والثّاني: أنّ الكفر قصد بمعناه المعروف، وذلك لأنّ سماع الإجابات المزعجة التي تثقل على السامع قد تدفع به إلى إنكار أصل الموضوع وصلاحية المجيب، كأن يسمع مريض جواباً لا يروقه من طبيبه، فيؤدّي ردّ الفعل به إلى إنكار صلاحية الطبيب واتهامه بعدم الفهم مثلاً أو بالهرم ونسيان المعلومات.

في ختام هذا البحث نجد لزاماً أن نكرر ما قلناه في بدايته، وهو أنّ هذه الآيات لا تمنع أبداً إلقاء الأسئلة المنطقية التربوية والبنّاءة، بل تتحدد بالأسئلة التي لا لزوم لها، وبالتعمّق في أمور لا ضرورة للتعمّق فيها والتي من الأفضل بل من اللازم - أحياناً - بقاؤها في طيّ الكتمان.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ

أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

التّفسير

في الآية الأُولى إشارة إلى أربع «بدع» كانت سائدة في الجاهلية، فقد كانوا يضعون على بعض الحيوانات علامات وأسماء لأسباب معيّنة ويحرّمون أكل لحومها ولا يجيزون شرب لبنها أو جزّ صوفها أو حتى امتطاءها، كانوا أحياناً يطلقون هذه الحيوانات تسرح وتمرح دون أن يعترضها أحد، أي أنّهم كانوا يطلقونها سائبة دون أن يستفيدوا منها شيئاً، لذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

بحوث

١ - «البحيرة» هي النّاقة التي ولدت خمسة أبطن خامسها أنثى - وقيل ذكر - فيشقّون أُذنها، وتترك طليقة ولا تذبح.

«البحيرة» من مادة «بحر» بمعنى الواسع العريض، ولهذا سمي البحر بحراً، وتسمية الناقة بالبحيرة جاءت من شقّ أذنها شقّاً واسعاً عريضاً.

٢ - «السائبة» هي الناقة التي تكون قد ولدت اثني عشر بطناً - وقيل عشرة أبطن - فيطلقونها سائبة ولا يمتطيها أحد، ولها أن ترعى حيثما تشاء وترد حيثما تشاء دون أن يعترضها أحد، وقد يحلبونها أحياناً لإطعام الضيف، و«السائبة» من مادة «سيب» أي جريان الماء أو المشي بحرّية.

٣ - «الوصيلة» هي الشاة التي ولدت سبعة أبطن - وقيل إنّها التي تلد التوائم - من مادة «وصل» وكانوا يحرّمون ذبحها.

٤ - «الحام» واللفظة اسم فاعل من مادة «حمى»، ويطلق على الفحل الذي يتخذ للتلقيح، فإذا استفيد منه في تلقيح الإناث عشر مرات وولدن منه، قالوا: لقد حمى ظهره، فلا يحقّ لأحد ركوبه، ومن معاني «الحماية» المحافظة والحيلولة والمنع.

هناك احتمالات أُخرى وردت عند المفسّرين وفي الأحاديث في شأن تحديد هذه المصطلحات الأربعة، لكن القاسم المشترك بين كل هذه المعاني أنّها تدل جميعاً على

حيوانات قَدّمت خدمات كبيرة لأصحابها في «النتاج» فكان هؤلاء يحترمونها ويطلقون سراحها لقاء ذلك.

صحيح أنّ عملهم هذا ضرب من العرفان بالجميل ومظهر من مظاهر الشكر، حتى نحو الحيوانات، وهو لهذا جدير بالتقدير والإجلال، ولكنّه كان تكريماً لا معنى له لحيوانات لا تدرك ذلك.

كما كان - فضلاً عن ذلك - مضيعة للمال وإتلافاً لنعم الله بتعطيلها عن الاستثمار النافع، ثمّ إنّ هذه الحيوانات، بسبب هذا الاحترام والتكريم، كانت تعاني من العذاب والجوع والعطش لأنّه قلّما يقدم أحد على تغذيتها والعناية بها.

ولمّا كانت هذه الحيوانات كبيرة في السن عادة، فقد كانت تقضي بقية أيّامها في كثير من الحرمان والحاجة حتى تموت ميتة محزنة، ولهذا كله وقف الإسلام في وجه هذه العادة!

إضافة إلى ذلك، يستفاد من بعض الرّوايات والتفاسير أنّهم كانوا يتقرّبون بذلك كلّه، أو بقسم منه إلى أصنامهم، فكانوا في الواقع ينذرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام، ولذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيداً لمحاربة كل مخلّفات الشرك.

والعجيب في الأمر، أنّهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً (وكأنّهم يتبرّكون بها) وكان هذا عملاً قبيحاً آخر[1].

ثمّ تقول الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ قائلين إنّ هذه قوانين إلهيّة دون أن يفكّروا في الأمر ويعقلوه، بل كانوا يقلّدون الآخرين في ذلك تقليداً أعمى ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

الآية الثّانية تشير إلى منطقهم ودليلهم على قيامهم بهذه الأعمال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾.

في الواقع، كان كفرهم وعبادتهم الأصنام ينبع من نوع آخر من الوثنية، هو التسليم الأعمى للعادات الخرافية التي كان عليها أسلافهم، معتبرين أنّ لممارسات أجدادهم دليلاً قاطعاً على صحتها، ويردّ القرآن بصراحة على ذلك بقوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾.

---

(١) تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٦٨٤.

أي لو كان أجدادكم الذين تستندون إليهم في العقيدة والعمل من العلماء والمهتدين لكان اتّباعكم لهم اتّباع جاهل لعالم، لكنّكم تعلمون أنّهم لا يعلمون أكثر منكم ولعلّهم أكثر تخلّفاً منكم، ومن هنا فإنّ تقليدكم إيّاهم تقليد جاهل لجاهل، وهو مرفوض ومذموم في ميزان العقل.

تركيز القرآن في هذه الآية على كلمة «أكثر» يدل على أنّه كانت في ذلك المحيط الجاهلي المظلم فئة - وإن قلّت - على قدر من الفهم بحيث تنظر بعين الاحتقار والاشمئزاز إلى تلك الممارسات.

وثن اسمه «الأسلاف»

من الأُمور التي كانت سائدة في الجاهلية والتي تكررت الإشارة إليها في القرآن التفاخر بالآباء والأجداد وإجلالهم إلى حدّ التقديس الأعمى واتباع أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم. وليس هذا مقصوراً على الجاهلية الأُولى، فهو موجود بين كثير من الأقوام المعاصرة، ولعلّه أحد أسباب إشاعة الخرافات وانتقالها من جيل إلى جيل، وكأن «الموت» يضفي هالة من القدسية والاحترام والإجلال على الأسلاف.

لا شك أنّ روح الاعتراف بالجميل ورعاية المبادىء الإنسانية توجب علينا احترام الماضين من آبائنا وأجدادنا، ولكن لا أن نعتبرهم معصومين عن كل خطأ ومصونين عن كل نقد وتجريح لأفكارهم وسلوكهم فنتّبع خرافاتهم ونقلّدهم فيها تقليداً أعمى، ليس هذا في الواقع سوى لون من ألوان الوثنية والمنطق الجاهلي، إنّنا من الممكن أن نحترم أفكارهم وتقاليدهم المفيدة، ونحطّم في الوقت نفسه عاداتهم غير الصحيحة، خاصّة وأنّ الأجيال الحديثة أوسع علماً وأعمق معرفة من الأجيال السابقة بسبب مضي الزمن وتقدّم العلم والتجربة، وما من عقل رصين يجيز تقليد الماضين تقليداً أعمى.

ومن العجيب أن نرى بعض العلماء وأساتذة الجامعة يعيشون هذا اللون من التقديس الأعمى لعادات السلف، فيبلغ بهم التعصّب القومي إلى التمسك بعادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان متّبعين بذلك منطق العرب في جاهليتهم الأُولى.

تناقض بلا مبرّر

جاء في تفسير «الميزان» و«الدر المنثور» عن عدد من الرواة منهم الحكيم الترمذي في «نوادر الأُصول» وعن غيره، عن أبي الأحوص عن أبيه، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خَلقان من الثياب، فقال لي: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أيّ المال؟»

قلت: من كل المال، من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «فإذا آتاك الله، فليُرَ عليك». أي لا ينبغي أن تعيش كالمساكين مع أنّك صاحب ثروة.

ثمّ قال: «تنتج إبلك رافية آذانها؟» قلت: نعم وهل تنتج الإبل إلاّ كذلك؟ قال: «فلعلّك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحر، وتشق آذان طائفة منها وتقول: هذه الصرم؟» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل، إنّ كل ما آتاك الله لك حلّ، ثمّ قال: ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام»(١).

نفهم من هذه الرواية أنّهم كانوا يجمدون قسماً من أموالهم، ولكنّهم في الوقت نفسه كانوا يقتصدون في ملبسهم، بل ويبخلون فيه، وهذا نوع من التناقض الذي لا مسوّغ له.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

التّفسير

كلّ امرىء مسؤول عن عمله

دار الحديث في الآية السابقة حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالّين، فأنذرهم القرآن بأنّ تقليداً كهذا لا ينسجم مع العقل والمنطق، فمن الطبيعي أن يتبادر إلى أذهانهم السؤال: إنّنا إذا كان علينا أن ننفصل عن أسلافنا في هذه الأُمور، فماذا سيكون مصيرهم؟ ثمّ إذا نحن أقلعنا عن هذه التقاليد فما مصير الكثير من الناس الذين ما يزالون متمسكين بها وواقعين تحت تأثيرها فكان جواب القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

ثمّ يشير إلى موضوع البعث والحساب ومراجعة حساب كل فرد: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ردّ على اعتراض:

أثار بعضهم شبهة حول هذه الآية، فظن أنّ بين هذه الآية والأمر بالمعروف والنهي

(١) تفسير «الميزان»، ج ٦، ص ١٦١. والإبل الرافية الآذان: أي العظيمة الآذان في استرخاء

عن المنكر - وهو من التشريعات الإسلامية الصريحة المسلّم بها - ضرب من التضاد أو التناقض، إذ إنّ هذه الآية تقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

هناك أحاديث وروايات تدل على أنّ هذا الموضوع أثار شبهة حتى في عصر نزول الآية، يقول جبير بن نفيل: كنت في جمع من أصحاب رسول الله ﷺ جالسين بحضرته، وكنت أحدثهم سناً، وكان الحديث يدور حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقاطعتهم وقلت:

ألم يأت في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (أي بهذه الآية لا يبقى ما يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإذا بالحاضرين يجمعون على توبيخي وتقريعي قائلين: كيف تقتبس آية من القرآن دون أن تعرف معناها وتفسيرها؟ فندمت على ما قلت أشدّ الندم، وعادوا إلى بحثهم السابق.

وعند انفضاض المجلس التفتوا إليّ قائلين: إنّك شاب حدث السن، قمت بفصل آية من القرآن عمّا حولها بغير أن تعرف معناها.

وقد يطول بك العمر حتى ترى كيف يحيط البخل بالناس ويسيطر عليهم، وتسيطر عليهم أهواؤهم ويعتدّ كلّ منهم برأيه، فلتحذر يومئذ من أن يضرّك من ضلّ منهم (أي أنّ الآية تشير إلى ذلك الزمان).

واليوم نجد الراكنين إلى الدعة وطلاّب الراحة، عندما يدور الحديث حول القيام بهاتين الفريضتين الإلهيتين الكبيرتين - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - يتذرّعون بهذه الآية ويحرّفونها عن موضعها، مع أنّنا بقليل من الدقّة في النظر ندرك ألاّ تضاد بين هاتين الفريضتين وما جاء في هذه الآية:

فأوّلاً: تبيّن الآية أنّ كل امرىء يحاسب على انفراد، وأنّ ضلال الآخرين من الأسلاف وغير الأسلاف لا يؤثّر في هداية الذين اهتدوا، حتى وإن كانوا قريبين كالأخ أو الأب أو الابن، لذلك فلا تتبعوهم وانجوا بأنفسكم (لاحظ بدقّة).

وثانياً: تشير هذه الآية إلى الحالة التي لا يكون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها أيّ أثر، أو تكون شروط فاعليتهما غير متوفرة، ففي أمثال هذه الحالات يشعر بعض المؤمنين بالألم، ويتساءلون عمّا ينبغي لهم أن يفعلوه، فتجيبهم الآية: لا تثريب عليكم، فقد أدّيتم واجبكم، إذ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

نجد هذا المعنى في الحديث الذي ذكرناه أعلاه، وكذلك في بعض الأحاديث

الأُخرى فقد سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك وذر عوامهم»[1].

وهنالك روايات أُخرى بالمضمون نفسه وتفيد هذه الحقيقة ذاتها.

فخر الدين الرازي - حسب عادته - يذكر عدّة أوجه في الإجابة على السؤال المذكور، ولكنّها تكاد تعود كلّها إلى الأمر الذي ذكرناه، ولعلّه ذكرها جميعاً لبيان كثرة عددها[2].

على كلّ حال، لا شك أنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أركان الإسلام التي لا يمكن التغاضي عنها بأيّ شكل من الأشكال، ولا تسقط إلاّ عند اليأس من تأثيرها أو من توفّر شروطها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

سبب النّزول

جاء في «مجمع البيان» وبعض التفاسير الأُخرى في سبب نزول هذه الآيات أنّ أحد المسلمين، ويدعى ابن أبي مارية ومعه أخوان مسيحيان من العرب يدعيان (تميماً)

---

(١) تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٦٨٤.

(٢) التفسير الكبير، ج ١٢، ص ١١٢، ذيل الآية مورد البحث.

و(عديّاً) خرجوا من المدينة للتجارة، وفي الطريق مرض ابن أبي مارية المسلم، فكتب وصية أخفاها في متاعه، وعهد بمتاعه إلى رفيقيه - النصرانيين - في السفر، وطلب منهما أن يسلّماه إلى أهله، ثمّ مات ففتح النصرانيان متاعه واستوليا على الثمين والنفيس فيه، وسلّما الباقي إلى الورثة، وعندما فتح الورثة متاعه لم يجدا فيه بعض ما كان ابن أبي مارية قد أخذه معه عند سفره وفجأة عثروا على الوصية، ووجدوا فيها ثبتاً بكلّ الأشياء المسروقة، ففاتحوا المسيحيين بالموضوع، فأنكرا وقالا: لقد سلّمناكم كلّ ما سلّمه لنا، فشكوا الرجلين إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات تبيّن حكم القضية[1].

غير أنّ سبب النّزول المذكور في «الكافي» يقول: إنّهما أنكرا أوّلاً وجود متاع آخر، ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ ولمّا لم يكن هناك دليل ضدّهما طلب منهما رسول الله ﷺ أن يحلفا اليمين، وبرّأهما، ولكن بعد أيّام قليلة ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلين فثبت كذبهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فانتظر حتى نزلت الآيات المذكورة، عندئذ أمر أولياء الميت بالقسم، وأخذ الأموال ودفعها إليهم.

التّفسير

من أهم المسائل التي يؤكّدها الإسلام مسألة حفظ حقوق الناس وأموالهم وتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذه الآيات تبيّن جانباً من التشريعات الخاصّة بذلك، فلكيلا تغمط حقوق ورثة الميت وأيتامه الصغار، يصدر الأمر للمؤمنين قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ﴾.

المقصود بالعدل هنا العدالة، وهي تجنّب الذنوب الكبيرة ونظائرها، ولكن يحتمل في معنى الآية أيضاً أن يكون المقصود من العدالة: الأمانة في الشؤون المالية، إلاّ إذا ثبت بدلائل أُخرى ضرورة توفّر شروط أُخرى في الشاهد.

و«منكم» تعني من المسلمين بإزاء غير المسلمين، الذين تأتي الإشارة إليهم في العبارة التّالية من الآية.

لابدّ من القول بأنّ القضية هنا لا تتعلّق بالشهادة العادية المألوفة، بل هي شهادة مقرونة بالوصيّة، أي إنّ هذين وصيّان وشاهدان في الوقت نفسه، أمّا الاحتمال القائل

(١) أصول الكافي، ج ٧، ص ٥.

باختيار شخص ثالث كوصي بالإضافة إلى الشاهدين هنا، فإنّه خلاف ظاهر الآية ويخالف سبب نزولها، لأنّنا لاحظنا أنّ ابن أبي مارية لم يكن يرافقه في السفر غير اثنين اختارهما وصيّين وشاهدين.

ثمّ تأمر الآية: إذا كنتم في سفر ووافاكم الأجل ولم تجدوا وصيّاً وشاهداً من المسلمين فاختاروا اثنين من غير المسلمين: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وعلى الرغم من عدم وجود ما يفهم من الآية أنّ اختيار الوصي والشاهد من غير المسلمين مشروط بعدم وجودهما من المسلمين، إلاّ أنّ مثل هذا الشرط واضح، لأنّ الاستعاضة تكون عندما لا تجد من المسلمين من توصيه، كما أنّ ذكر قيد السفر يفيد هذا المعنى أيضاً، وعلى الرغم من أنّ (أو) تفيد «التخيير» عادة، إلاّ أنّها هنا - وفي كثير من المواضع الأُخرى - تفيد «الترتيب»، أي اخترهما أوّلاً من المسلمين، فإن لم تجد، فاخترهما من غير المسلمين.

وغني عن القول إنّ المقصود بغير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى طبعاً، لأنّ الإسلام لم يقم وزناً في أيّة مناسبة للمشركين وعبدة الأصنام مطلقاً.

ثمّ تقرر الآية حمل الشاهدين عند الشهادة على القسم بالله بعد الصّلاة، في حالة الشك والتردد: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾.

ويجب أن تكون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا على استعداد أن نبيع الحقّ بمنافع مادية فنشهد بغير الحقّ حتى وإن كانت الشهادة ضدّ أقربائنا: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وإنّنا لن نخفي أبداً الشهادة الإلهيّة، وإلاّ فسنكون من المذنبين: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

ولابدّ أن نلاحظ مايلي:

أوّلاً: إنّ هذه التفاصيل في أداء الشهادة إنّما تكون عند الشك والتردد.

وثانياً: لا فرق بين المسلم وغير المسلم في هذا كما يبدو من ظاهر الآية، وإنّما هو في الحقيقة وسيلة لإحكام أمر حفظ الأموال في إطار الاتهام، وليس في هذا ما يناقض القبول بشهادة عدلين بغير تحليف، لأنّ هذا يكون عند انتفاء الشك في الشاهدين، لذلك فلا هو ينسخ الآية ولا هو مختص بغير المسلمين (تأمل بدقّة).

ثالثاً: الصّلاة بالنسبة لغير المسلمين يقصد بها صلاتهم التي يتوجّهون فيها إلى الله

ويخشونه، أمّا بالنسبة للمسلمين فيقول بعض: إنّها خاصّة بصلاة العصر، وفي بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إشارة إلى ذلك، إلاّ أنّ ظاهر الآية هو الإطلاق ويشمل الصلوات جميعها، ولعلّ ذكر صلاة العصر في رواياتنا يعود إلى جانبه الاستحبابي، إذ إنّ الناس يشتركون أكثر في صلاة العصر، ثمّ إنّ وقت العصر كان الوقت المألوف للتحكيم والقضاء بين المسلمين.

رابعاً: اختيار وقت الصّلاة للشهادة يعود إلى أنّ المرء في هذا الوقت يعيش آثار الصّلاة التي ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١) وأنّه في هذا الظرف الزماني والمكاني يكون أقرب إلى الحقّ، بل قال بعضهم: إنّ من الأفضل أن تكون الشهادة في «مكّة» عند الكعبة وبين «الركن» و«المقام» باعتباره من أقدس الأمكنة، وفي المدينة تكون جنب قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الآية التّالية يدور الكلام على ثبوت خيانة الشاهدين إذا شهدا بغير الحقّ، كما جاء في سبب نزول الآية، فالحكم في مثل هذه الحالة - أي عند الاطلاع على أنّ الشاهدين قد ارتكبا إثم العدوان على الحقّ وإضاعته - هو أن تستعيضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأوّلان (أي ورثة الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾.

يذهب العلاّمة الطبرسي في «مجمع البيان» إلى أنّ هذه الآية تعتبر من حيث المعنى والإعراب من أعقد الآيات وأصعبها(٢)، ولكن بالالتفات إلى نقطتين نجد أنّها ليست بتلك الصعوبة والتعقيد.

فالنّقطة الأُولى: هي أنّ معنى «استحق» هنا بقرينة كلمة «إثم» هو إثم العدوان على حقّ الآخرين.

والنّقطة الثّانية: هي أنّ «الأوليان» تعني هنا «الأوّلان» أي الشاهدان اللذان كان عليهما أن يشهدا أوّلاً ولكنّهما انحرفا عن طريق الحقّ.

وعليه يكون المعنى: إذا ثبت أنّ الشاهدين الأوّلين ارتكبا مخالفة، فيقوم مقامهما اثنان آخران ممن وقع عليهم ظلم الشاهدين الأولين(٣).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥. (٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٤١.

(٣) على هذا يكون إعراب «آخران» مبتدأ، وجملة «يقومان مقامهما» خبر، و«أوليان» فاعل «استحقا» و«من الذين» أي من ورثة الميت الذين وقع عليهم الظلم، والجار والمجرور صفة لـ«آخران» (تأمل بدقّة).

ثمّ يبيّن ما ينبغي على هذين الشاهدين أن يفعلاه ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لمّا كان أولياء الميت على علم بالأموال والأمتعة التي أخذها معه عند سفره أو التي يملكها عموماً، فيمكن أن يشهدوا على أنّ الشاهدين الأولين قد خانا وظلما، وتكون هذه الشهادة حسية مبنيّة على القرائن، لا حدسية.

والآية الأخيرة، في الحقيقة، بيان لحكمة الأحكام التي جاءت في الآيات السابقة في شأن الشهادة وهي أنّه إذا أُجريت الأمور بحسب التعاليم، أي إذا طلب الشاهدان للشهادة بعد الصّلاة بحضور جمع، ثمّ ظهرت خيانتهما، وقام اثنان آخران من الورثة مقامهما للكشف عن الحقّ، فذلك يحمل الشهود على أن يكونوا أدق في شهادتهم، خوفاً من الله أو خوفاً من الناس: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

في الواقع سيكون هذا سبباً في الخشية من المسؤولية أمام الله وأمام الناس، فلا ينحرفان عن محجّة الصواب.

ولتوكيد الأحكام المذكورة يأمر الناس قائلاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

التّفسير

هذه الآية، في الحقيقة، تكملة للآيات السابقة، ففي ذيل تلك الآيات الخاصّة بالشهادة الحقّة والشهادة الباطلة، كان الأمر بالتقوى والخشية من عصيان أمر الله، وفي هذه الآية تذكير بذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الرسل ويسألهم عن رسالتهم ومهمّتهم وعمّا قاله الناس ردّاً على دعواتهم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.

لقد نفوا عن أنفسهم العلم، وأوكلوا جميع الحقائق إلى علم الله و﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وعليه فإنّكم أمام علاّم الغيوب وأمام محكمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتكم عن الحقّ والعدل[1].

(١) يتّضح من هذا أنّ (يوم...) مفعول به لفعل محذوف تفسّره الآية السابقة وتقديره «اتقوا يوم».

هنا يبرز سؤالان: الأوّل: إنّ ما يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الأنبياء شهداء على أُممهم، بينما نجدهم في هذه الآية ينكرون كل علم ويوكلون علم كل شيء إلى الله.

ولكن ليس في هذا اختلاف ولا تضاد، بل هو يحكي عن مرحلتين، في المرحلة الأُولى - وهي التي تشير إليها الآية التي نحن بصددها - يُظهر الأنبياء الأدب بإزاء سؤال الله، فينفون العلم عن أنفسهم، ويوكلون علم كلّ شيء إلى الله، ولكنّهم في المراحل التّالية يبيّنون ما يعرفونه عن أُممهم ويشهدون، وهذا يكاد يشبه المعلّم الذي يطلب من تلميذه أن يجيب على سؤال فيظهر التلميذ التأدب أوّل الأمر ويقول: إنّ علمه لا شيء بالنسبة لعلم المعلّم، ثمّ بعد ذلك يدلي بما يعرف.

والسؤال الآخر: كيف ينفي الأنبياء العلم عن أنفسهم مع أنّهم إضافة إلى العلوم العادية يعلمون الكثير من الحقائق الخفيّة التي علّمها الله لهم.

رغم أنّ للمفسّرين كلاماً كثيراً في جواب هذا السؤال، نرى أنّ الموضوع واضح وهو أنّ الأنبياء يرون علمهم لا شيء بالنسبة لعلم الله، والحقّ كذلك، فوجودنا لا شيء بالنسبة لوجود الله الأبدي وعلمنا لا وزن له بإزاء علم الله، فمهما يكن «الممكن» فإنّه لا يكون شيئاً بإزاء «الواجب»، وبعبارة أُخرى: إنّ علم الأنبياء، وإن كان في حدّ ذاته غزيراً، لكنّه لا شيء بالقياس إلى علم الله.

في الحقيقة، العالم الحقيقي هو الذي يكون حاضراً وناظراً في كلّ مكان وزمان، وعارفاً بتركيب كلّ ذرّة من ذرّات العالم، وبكلّ أجزاء هذا العالم المترابط في وحدة واحدة، وهذه صفة تختص بالله سبحانه.

يتّضح ممّا قلناه أنّ هذه الآية ليست دليلاً على نفي كلّ علم بالغيب عن الأنبياء والأئمّة كما زعم بعضهم، وذلك لأنّ «علم الغيب» بالذات يختص بمن يكون حاضراً في كلّ مكان وزمان، وأمّا غيره تعالى فإنّه لا علم له بالغيب سوى ما يعلّمه الله.

وهذا مأخوذ من آيات عديدة في القرآن، منها الآية (٢٦) من سورة الجن: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ والآية (٤٩) من سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾.

يستفاد من هذه الآيات وأمثالها أنّ علم الغيب مختص بذات الله، ولكنّه يُعلِّمه لمن يشاء وبالقدر الذي يشاء.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

التّفسير

نعم الله على المسيح

هذه الآية والآيات التّالية لها حتى آخر سورة المائدة تختص بسيرة حياة السيد المسيح عليه السلام والنعم التي أسبغها الله عليه وعلى أُمّه، يبيّنها الله هنا لتوعية المسلمين وإيقاظهم فتقول الآية: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾.

ومعنى «إذ قال»: واذكر إذ قال.

وحسب هذا التّفسير، تشرع هذه الآيات ببحث مستقل، له جانبه التربوي للمسلمين ويرتبط بهذه الدنيا، إلاّ أنّ عدداً من المفسّرين - كالطبرسي والبيضاوي وأبي الفتوح الرازي - يرون أنّ هذه الآية تابعة للآية السابقة وتتعلّق بالحوار الذي يدور بين الله والأنبياء يوم القيامة[1]، وعلى هذا يكون الفعل الماضي «قال» بمعنى «يقول» المضارع، غير أنّ هذا يخالف ظاهر الآية، خاصّة وأنّ تعداد النعم التي أُنزلت على شخص ما يستهدف إحياء روح الاعتراف بالجميل والشكر فيه، وهذا لا مكان له يوم القيامة.

ثمّ تشرع الآية بذكر النعم: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

لقد بحثنا معنى «روح القدس» في المجلد الأوّل من هذا التّفسير بحثاً مستفيضاً وأحد الاحتمالات المقصودة هو أنّه إشارة إلى ملك الوحي، جبرائيل، والاحتمال الآخر هو تلك القوّة الغيبية التي كانت تعين عيسى على إظهار المعجزات وعلى تحقيق رسالته المهمّة، وهذا المعنى موجود في غير الأنبياء أيضاً بدرجة أضعف.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٤٨.

من نعم الله الأُخرى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي إنّ كلامك في المهد، مثل كلامك وأنت كهل، كلام ناضج ومسؤول، لا كلام طفل غرّ.

ثمّ أيضاً: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إنّ ذكر التوراة والإنجيل بعد ذكر كلمة كتاب مع أنّهما من الكتب السماوية، إنّما هو من باب التفصيل بعد الإجمال.

ومن النعم الأُخرى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾.

ومع ذلك فإنّك تشفي بإذن الله الأعمى بالولادة والمصاب بالمرض الجلدي (البرص): ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾.

ثمّ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

وأخيراً كان من نعمي عليك بأن منعت عنك أذى بني إسرائيل يوم قام الكافرون منهم في وجهك ووسموا ما تفعل بأنّه السحر، فدفعت أذى أُولئك المعاندين اللجوجين عنك وحفظتك حتى تسير بدعوتك: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وممّا يلفت النظر في هذه الآية أنّها تكرر «بإذني» أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو في المسيح عليه السلام وادعاء الأُلوهية له، أي أنّ ما كان يحققه المسيح عليه السلام بالرغم من إعجازه وإثارته الدهشة ومشابهته للأفعال الإلهيّة، لم يكن ناشئاً منه، بل كان من الله وبإذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد الله، مطيع لأوامره، وما كان له إلاّ ما يستمدّه من قوّة الله الخالدة.

وقد يسأل سائل: إن كانت هذه النعم كلّها قد أُسبغت على عيسى عليه السلام فلماذا تعتبر الآية هذه النعم قد أُسبغت على أُمّه أيضاً؟

لا شك أنّ كلّ موهبة تصل الابن تكون قد وصلت الأُم أيضاً، فكلاهما من أصل واحد، ومن شجرة واحدة.

وكما ذكرنا في ذيل الآية (٤٩) من سورة آل عمران، فإنّ هذه الآية والآيات المشابهة دلائل على ولاية أولياء الله التكوينية، ففي تاريخ حياة المسيح عليه السلام ينسب إليه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولكن بأمر الله وإذنه.

يتّضح من هذا أنّ من الممكن أن ينعم الله على من يشاء، قدرة كهذه تمكّنه من التصرّف بعالم التكوين والقيام بأمثال هذه الأعمال أحياناً، إنّ تفسير هذه الآية بأنّها تشير إلى دعاء الأنبياء واستجابة الله لدعائهم هو خلاف ظاهر الآية، وإنّ ما نقصده بولاية أولياء الله التكوينية هو هذا الذي قلناه آنفاً، إذ ليس ثمّة دليل على أكثر من هذا المقدار (انظر تفسير سورة آل عمران الآية (٤٩) لمزيد من التوضيح).

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

التّفسير

قصّة نزول المائدة على الحواريين

تعقيباً على ما جاء في الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم الله به على المسيح عليه السلام وأمّه، يدور الحديث هنا حول النعم التي أنعم الله بها على الحواريين، أي أصحاب المسيح عليه السلام.

ففي البداية تشير الآية إلى ما أُوحي إلى الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله المسيح عليه السلام فاستجابوا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

إنّ للوحي في القرآن معنى واسعاً لا ينحصر في الوحي الذي ينزل على الأنبياء، بل إنّ الإلهام الذي ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضاً، لذلك جاء هذا المعنى

في الآية (٧) من سورة القصص في شأن أم موسى التي أُوحي إليها[1] بل إنّ الكلمة تطلق في القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند الحيوان، كالنحل.

وهناك احتمال أن يكون المقصود هو الإيحاء الذي كان يلقيه المسيح عليه السلام بواسطة المعاجز في نفوسهم.

لقد تناولنا الحواريين وأصحاب المسيح عليه السلام بالبحث في تفسير الآية (٥٢) من سورة آل عمران من هذا التّفسير.

ثمّ تذكر الآية نزول المائدة من السماء: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

«المائدة» تعني في اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعني الطعام الذي يوضع عليها وأصلها من «ميد» بمعنى التحرّك والاهتزاز، ولعلّ سبب إطلاق لفظة المائدة على السفرة والطعام هو ما يلازمها من تحريك وانتقال.

شعر المسيح عليه السلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذي يدل على الشك والتردد، على الرغم من كلّ تلك الأدلة والآيات، فخاطبهم و﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ولكنّهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السلام أنّ هدفهم بريء، وأنّهم لا يقصدون العناد واللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافاً إلى الحالة النّورانية في قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوي لأنّ للغذاء ونوعيته أثر مسلّم به في روح الإنسان) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، ولتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهي من أثر في الروح ومن زيادة في الثقة واليقين.

ولمّا أدرك عيسى عليه السلام حسن نيّتهم في طلبهم ذاك، عرض الأمر على الله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

من الواضح هنا أنّ الأُسلوب الذي عرض به عيسى بن مريم الأمر على الله كان أليق وأنسب، ويحكي عن روح البحث عن الحقيقة ورعاية الشؤون العامّة للمجتمع.

(١) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

فاستجاب الله لهذا الطلب الصادر عن حسن نيّة وإخلاص، ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فبعد نزول المائدة تزداد مسؤوليات هؤلاء وتقوى الحجة عليهم، ولذلك فإنّ العقاب سيزداد أيضاً في حالة الكفر والانحراف.

ملاحظات

هنا لابدّ من التحقيق في عدّة نقاط من هذه الآيات الكريمة:

١ - ما القصد من طلب المائدة؟

لاشك أنّ الحواريين لم يكونوا مدفوعين بقصد سيّئ في طلبهم هذا، ولا كانوا يريدون المشاكسة والمعاندة، بل كانوا يرغبون في بلوغ مرحلة الاطمئنان الأقوى وإبعاد ما بقي من رواسب الشك والوسوسة من أعماقهم، فكثيراً ما يحدث أنّ إنساناً يتأكّد من أمر بالمنطق وحتى بالتجربة، ولكن إذا كان الأمر مهماً جدّاً فإنّ بقايا من الشك والتردد تظل في ثنايا قلبه، لذلك فهو شديد الرغبة في أن تتكرر تجاربه واختباراته، أو أن تتبدل استدلالاته المنطقية والعلمية إلى مشاهدات عينية تقتلع من أعماق قلبه جذور تلك الشكوك والوساوس، ولهذا نرى إبراهيم عليه السلام، على ما كان عليه من مقام ويقين يسأل الله أن يرى المعاد رأي العين لكي يتبدل إيمانه العلمي إلى «عين اليقين» وإلى «شهود».

ولكن أُسلوب طلب الحواريين تميّز بشيء من الفظاظة لذلك ظنّ عيسى عليه السلام أنّهم بصدد البحث عن الأعذار والحجج، فوعظهم بما تقدم في الآية، وبعد أن شرحوا له حقيقة موقفهم وافق على طلبهم.

٢ - ما المقصود بعبارة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؟

لا شك أنّ ظاهر هذا الكلام يوحي بأنّ الحواريين كانوا يشكّون في قدرة الله على إنزال مائدة، إلاّ أنّ المفسّرين المسلمين لهم آراء أُخرى في تفسيرها، منها أنّ هذا الطلب وقع في بداية أمرهم وقبل أن يتعرّفوا على جميع صفات الله[1].

ورأي آخر يقول: إنّ سؤالهم يعني: هل يرى الله أنّ من المصلحة أن ينزل عليهم مائدة من السماء؟ كأن يقول شخص: لا أستطيع أن أعهد إلى فلان بكل ثروتي، ولا

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٥٢.

يعني أنّه ليس بقادر على ذلك، بل يعني أنّه لا يرى مصلحة في الأمر[١].

ورأي ثالث يقول: إنّ «يستطيع» تعني «يستجيب» لأنّ مادة (طوع) تعني الانقياد، فإذا وردت من باب (الاستفعال) فيمكن أن تفيد المعنى نفسه[٢]، فيكون المعنى: هل يستجيب الله لطلبنا في شأن إنزال مائدة من السماء؟

٣ - ما هي تلك المائدة السماوية؟

لم يذكر القرآن شيئاً عن محتوياتها، ولكن يستفاد من بعض الأحاديث، وخاصّة الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّ تلك المائدة كانت تحوي أرغفة من الخبز ومقداراً من السمك، ولعلّ سبب طلب هذه المعجزة كان ما سمعوه عن المائدة السماوية التي نزلت على بني إسرائيل بإعجاز من موسى عليه السلام فطلبوا هم أيضاً من عيسى عليه السلام مثل ذلك[٣].

٤ - هل نزلت عليهم مائدة؟

رغم أنّ الآيات المذكورة تكاد تصرّح بنزول المائدة، فالله لا يخلف وعده، ولكن العجيب أنّ بعض المفسّرين يشكّون في نزول المائدة، ويقولون: إنّ الحواريين حين عرفوا عظم المسؤولية التي سوف تقع عليهم بعد نزول المائدة، تخلّوا عن طلبهم، ولكنّ الواقع أنّ المائدة قد نزلت فعلاً.

٥ - ما العيد؟

«العيد» في اللغة من «العود» أي الرجوع، لذلك فذكرى الأيّام التي تنزاح فيها المشاكل عن قوم أو مجتمع وتعود أيام الفوز والهناء الأوّل تكون عيداً، كذلك هي الأعياد الإسلامية فبعد شهر من طاعة الله في صوم رمضان، أو بعد أداء فريضة الحج العظيمة، يعود إلى النفس طهرها وصفاؤها الأوّلين الفطريين، ويزول التلوّث عن الفطرة، فيكون العيد، ولمّا كان يوم نزول المائدة يوم العودة إلى الفوز والطهارة والإيمان بالله، فقد سمّاه المسيح عليه السلام عيداً.

وقد ورد في الأخبار أنّ نزول المائدة كان في يوم الأحد[٤]، ولعل هذا هو سبب الاحترام الذي يكنّه المسيحيون لهذا اليوم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٥٢.
(٢) تفسير التبيان، ج ٤، ص ٥٨.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص٤٥٥.
(٤) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٦٢.

إنّنا نقرأ لأمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو يوم عيد»(١).

وفي هذا إشارة إلى الموضوع نفسه، لأنّ يوم ترك المعصية هو يوم فوز وطهارة وعودة إلى الفطرة الأُولى.

٦ - لماذا العقاب الشديد؟

هنا أمر مهم ينبغي ألاّ نغفل عنه، وذلك أنّه عندما يبلغ الإيمان مرحلة الشهود وعين اليقين، أي عندما ترى الحقيقة رأي العين، ولا يبقى مكان لأيّ شك أو تردد، فإنّ مسؤولية المرء تزداد وتثقل، لأنّ هذا المرء لم يعد ذلك الذي كانت تنتابه الوساوس والشكوك من قبل، بل هو امرؤ ورد مرحلة جديدة من الإيمان وتحمّل المسؤولية، فأقل تقصير أو غفلة من جانبه يستدعي العقاب الشديد، ولهذا فإنّ مسؤولية الأنبياء وأولياء الله أشد وأثقل، بحيث إنّهم كانوا في خشية دائمة منها، إنّنا في الحياة اليومية نصادف نماذج من هذا القبيل أيضاً، فمثلاً يعلم كلّ شخص أنّ في بلده أو مدينته جياعاً يتحمّل مسؤوليتهم، ولكنّه عندما يرى بعينيه إنساناً بريئاً يتضوّر جوعاً ويتألم سغباً، فلا شك أنّ درجة مسؤوليته تكون عندئذ أعلى.

٧ - «العهد الجديد» والمائدة

في الأناجيل الأربعة الموجودة حالياً لا نجد كلاماً عن المائدة كما في القرآن، عدا ما جاء في إنجيل يوحنا، في الباب (٢١)، حول استضافة المسيح الإعجازية جمعاً من الناس بالخبز والسمك، ولكننا بقليل من التفحّص ندرك أنّ ذلك لا علاقة له بالمائدة التي نزلت من السماء للحواريين(٢).

ثمّة كلام في كتاب «أعمال الرسل» وهو من كتب العهد الجديد، يدور حول نزول مائدة على أحد الحواريين واسمه بطرس، ولكن هذا أيضاً ليس هو الموضوع الذي نحن بصدده، غير أنّنا نعلم أنّ كثيراً من الحقائق التي نزلت على عيسى عليه السلام لا أثر لها في الأناجيل السائدة، كما أنّ كثيراً ممّا نراه في هذه الأناجيل لم ينزل على المسيح عليه السلام(٣).

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٤٢٨.

(٢) «الهدى إلى دين المصطفى»، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

التّفسير

براءة المسيح من شرك أتباعه

هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين الله والمسيح يوم القيامة، بدليل أنّنا بعد بضع آيات نقرأ: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ ولا شك أنّه يوم القيامة.

ثمّ إنّ جملة ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ دليل آخر على أنّ الحوار قد جرى بعد عهد نبوة المسيح عليه السلام، والفعل «قال» الماضي لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، لأنّ القرآن مليء بذكر أُمور عن يوم القيامة استعمل فيها الزمن الماضي، وهو إشارة إلى أنّ وقوعه حتمي، أي إنّ مجيئه في المستقبل على درجة من الثبوت والحتمية بحيث إنّه يبدو وكأنّه قد وقع فعلاً، فيستعمل له صيغة الماضي.

على كل حال تقول الآية الأُولى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾.

لا ريب أنّ المسيح عليه السلام لم يقل شيئاً كهذا، بل دعا إلى التوحيد وعبادة الله، إلاّ أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أُمّته وبيان إدانتها.

فيجيب المسيح عليه السلام بكلّ احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

١ - أوّلاً ينزّه الله عن كلّ شرك وشبهة: ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾.

٢ - ثمّ يقول: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ أي ما لا يحق لي قوله ولا يليق بي أن أقوله.

فهو في الحقيقة لا ينفي هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفي أن يكون له حق في قول مثل هذا القول الذي لا ينسجم مع مقامه ومركزه.

٣ - ثمّ يستند إلى علم الله الذي لا تحدّه حدود، تأكيداً لبراءته فيقول: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١).

٤ - ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ﴾، لا أكثر من ذلك.

٥ - ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

أي كنت أحول دون سقوطهم في هاوية الشرك مدّة بقائي بينهم، فكنت الرقيب والشاهد عليهم، ولكن بعد أن رفعتني إليك، كنت أنت الرقيب والشاهد عليهم.

٦ - ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي على كلّ حال فالأمر أمرك والإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك وليس بإمكانهم أن يفرّوا من عذابك، فهذا حقّك بإزاء العصاة من عبيدك، وإن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوي الحكيم، فلا عفوك دليل ضعف، ولا عقابك خالٍ من الحكمة والحساب.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤالان:

١ - هل يوجد في تاريخ المسيحية ما يدل على أنهم اتّخذوا من (مريم) معبودة؟ أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثليث أو الآلهة الثلاثة: (الإله الأب) و(الإله الابن) و(روح القدس) على اعتبار أنّ (روح القدس) هو الوسيط بين (الإله الأب) و(الإله الابن) وهو ليس (مريم).

للإجابة على هذا السؤال نقول: صحيح أنّ المسيحيين لم يؤلّهوا مريم، ولكنّهم كانوا يؤدّون أمام تمثالها طقوس العبادة، كالوثنيين الذين لم يكونوا يعتبرون الأصنام آلهة، ولكنّهم كانوا يعتبرونها شريكة لله في العبادة.

وهناك فرق بين «الله» بمعنى الخالق، والـ«إله» بمعنى المعبود، وكانت (مريم) عند المسيحيين (إلّهة) لا أنّها بمثابة «الله».

يقول أحد المفسّرين: إنّ المسيحيين على اختلاف فرقهم، وإن لم يطلقوا كلمة (إلّه) أو معبود على مريم، واعتبروها أُمّ الإله لا غير، فهم في الواقع يقدّمون لها طقوس

---

(١) إطلاق كلمة «نفس» على الله لا يعني الروح، فمن معاني النفس الذات.

(٢) في معنى «توفى» وكونها لا تعني موت المسيح عليه السلام أُنظر ذيل الآية (٥٥) من سورة آل عمران في المجلد الثاني.

الدعاء والعبادة، سواء أطلقوا عليها هذا الاسم أم لم يطلقوه، ثمّ يضيف قائلاً: قبل مدّة صدر في بيروت العدد التاسع من السنة السابقة من مجلة (المشرق) المسيحية بمناسبة الذكرى الخمسين للبابا (بيوس التاسع) وفيها مواضيع مثيرة عن السيدة مريم، منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقية والغربية تعبدان (مريم).

وفي العدد الرّابع عشر من السنة الخامسة من المجلة نفسها مقال بقلم (الأب انستانس الكرملي) حاول فيه أن يعثر على أُصول عبادة مريم حتى في العهد القديم، فراح يفسّر حكاية الأفعى (الشيطان) والمرأة (حواء) باعتبارها حكاية مريم(١).

وعليه فإنّ عبادة مريم موجودة بينهم.

٢ - **السؤال الثّاني**: كيف يتحدّث المسيح عليه السلام عن مشركي أُمّته بعبارات يشم منها رائحة الشفاعة لهم فيقول: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؟ أيكون المشرك أهلاً للشفاعة والغفران؟

في الجواب نقول: لو كان قصد عيسى عليه السلام هو الشفاعة لهم لكان عليه أن يقول: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأنّ غفران الله ورحمته هما اللذان يناسبان مقام الشفاعة، ولكنّنا نراه يقول: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من هذا يتّضح أنّه لم يكن في مقام الشفاعة لهم، بل كان يريد أن ينفي عن نفسه أيّ اختيار، وأن يوكل الأمر كلّه إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عاقب، وكلّ مشيئة منه سبحانه تستند إلى حكمة.

ثمّ ربّما كان بينهم جماعة أدركت خطأها وسارت على طريق التوبة، فتكون هذه الجملة قد قيلت في حقها.

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾

التّفسير

الفوز العظيم

بعد الحوار الذي جرى بين الله والمسيح عليه السلام يوم القيامة - كما شرحناه في تفسير

(١) تفسير «المنار»، ج ٧، ص ٢٦٣.

الآيات السابقة - تقول الآية: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

طبيعي أنّ المقصود من هذا هو أنّ الصدق في القول والعمل في هذه الدنيا هو الذي ينفع في الآخرة، لأنّ الصدق في الآخرة - التي لا تكليف فيها - لا ينفع شيئاً ثمّ إنّ الوضع في تلك الحياة مختلف بحيث لا يستطيع أحد إلاّ أن يقول الصدق، حتى المذنبون يعترفون بسيئات ما عملوا، وعلى هذا فلا وجود للكذب يوم القيامة.

وعليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلّفوا به من مسؤولية ورسالة ولم يسيروا إلاّ في طريق الصدق، مثل المسيح عليه السلام وأتباعه الصادقين، أو أتباع سائر الأنبياء الآخرين الذين التزموا الصدق سينالون ثوابهم.

يتّضح لنا من هذا أنّ جميع الأعمال الصالحات يمكن أن تنطوي تحت عنوان الصدق في القول والفعل، وأنّه الرصيد الذي ينفع يوم القيامة لا غير.

وهؤلاء الصادقون: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وخير من هذه النعمة المادية أنّهم: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ولا شك أنّ هذه النعمة الكبرى التي تجمع بين النعم المادية والنعم المعنوية شيء عظيم: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يلفت النظر أنّ الآية، بعد ذكر بساتين الجنّة ونعمها الكثيرة، تذكر نعمة رضى الله عن عباده، ورضى عباده عنه وتصف ذلك بأنّه الفوز العظيم، وهذا يدل على مدى أهمّية هذا الرضى المتبادل، فقد يكون امرؤ غارقاً في أرفع نعم الله، ولكنّه إذا أحسّ بأنّ مولاه ومعبوده ومحبوبه ليس راضياً عنه، فإنّ جميع تلك النعم والهبات تصير علقماً في ذائقة روحه.

كما يمكن أن يتوفر لامرىء كل شيء، ولكنّه لا يكون راضياً ولا قانعاً بما عنده، فمن الواضح أنّ هذه النعم بأجمعها غير قادرة على إسعاد تلك الروح، بل تكون دائماً معرّضة لعذاب قلق غامض واضطراب نفسي مستمر يقضيان على الراحة النفسية التي هي من أعظم نعم الله.

ثمّ إذا كان الله راضياً عن امرىء فإنّه يعطيه كل ما يريد، فإذا أعطاه كل ما يريد فإنّه يكون راضياً عن ربّه أيضاً، من هنا فإنّ أعظم النعم هي أن يرضى الله عن الإنسان ويرضى الإنسان عن ربّه.

وفي آخر الآية إشارة إلى امتلاك الله كل شيء وسيطرته على السموات والأرض وما فيهما، وأنّ قدرته عامّة تشمل كل شيء: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه الآية - في الواقع - تعتبر سبب رضى عباد الله عن الله، وذلك لأنّ الذي يملك كلّ شيء في عالم الوجود له القدرة أن يعطي عباده ما يريدون وأن يغفر لهم وأن يفرحهم ويرضيهم، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال النصارى في عبادة مريم، لأنّ العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التي لا تزيد على كونها مخلوقة مثلهم.

فهرس الجزء الخامس

سورة النساء

١ - موضع نزول هذه السورة ٥
٢ - محتويات هذه السورة ٥
٣ - فضل تلاوة هذه السورة ٧
مكافحة التمييزات والاستثناءات .. ٧
كيف كان زواج أبناء آدم؟ ٩
الدعوة إلى العناية بالرحم ١٠
لا... للخيانة في أموال اليتامى .. ١١
ماذا يعني الحوب؟ ١٢
«مثنى» و«ثلاث» و«رباع» ١٥
ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟ ١٦
تعدد الزوجات ضرورة إجتماعية .. ١٧
الصداق دعامة اجتماعية للمرأة ... ٢٣
من هو السفيه؟ ٢٦
أموالكم قوام لكم ٢٨
تعليمان في شأن اليتامى ٢٨
تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم ٢٩
خطوة أخرى لحفظ حقوق المرأة .. ٣١
حكم أخلاقي ٣٢
دعوة إلى العطف على اليتامى ٣٤
إيضاح ضروري ٣٥
الوجه الحقيقي لأفعال البشر ٣٦
الإرث حق طبيعي ٣٩
الإرث في الأمم السابقة ٤٠
لماذا يرث الرجل ضعف المرأة؟ .. ٤٣
إرث الأب والأم ٤٤
الإرث بعد الوصية والدين ٤٦
سهم الأزواج بعضهم من بعض ... ٤٦
عودة إلى تفسير الآية ٤٨
ميزات قانون الإرث الإسلامي ٥٢
ما هو العول، وما هو التعصيب؟ .. ٥٣
العقوبات الإسلامية السهل الممتنع ٥٨
شرائط قبول التوبة ٥٩
الدفاع عن حقوق المرأة ٦٤
تحريم الزواج بالمحارم ٧٠
الزواج المؤقت في الإسلام ٧٦
هل نسخ هذا الحكم؟ ٧٨

الزواج المؤقت ضرورة اجتماعية .. ٨١
مآخذ على الزواج المؤقت ٨٢
«راسل» والزواج المؤقت ٨٤
التزوج بالإماء ٨٦
هذه القيود لماذا؟ ٩٠
سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الاقتصاد ٩١
المعاصي الكبيرة والصغيرة ٩٤
متى تنقلب الصغيرة إلى كبيرة؟ ... ٩٦
التفاوت الطبيعي بين الناس لماذا؟ ٩٩
القوامة في النظام العائلي ١٠٣
النساء المقصرات الناشزات ١٠٥
محكمة الصلح العائلية ١٠٧
١ - واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ١١٠
٢ - وبالوالدين إحساناً ١١٠
٣ - وبذي القربى ١١٠
٤ - واليتامى ١١١
٥ - والمساكين ١١١
٦ - والجار ذي القربى ١١١
٧ - والجار الجنب ١١١
٨ - والصاحب بالجنب ١١٣
٩ - وابن السبيل ١١٣
١٠ - وما ملكت أيمانكم ١١٤
الإنفاق رياءً والإنفاق قربةً ١١٥
ما هي «الذرة»؟ ١١٧
شهود يوم القيامة ١١٩
بعض الأحكام الفقهية ١٢٢
بحوث حول الآية ١٢٥
فلسفة التيمم ١٢٦
جانب آخر من أعمال اليهود ١٢٨
مصير المعاندين ١٣٠
أرجى آيات القرآن ١٣٢
أسباب مغفرة الذنوب ١٣٤
تزكية النفس ١٣٥
المداهنون ١٣٨
الجبت والطاغوت ١٣٩
دور الحسد في الجرائم ١٤٢
بحث حول الآية ١٤٥
قانونان إسلاميان مهمان ١٤٧
أهمية الأمانة والعدل في الإسلام .. ١٤٨
من هم أولو الأمر؟ ١٥٠
شهادة الأحاديث ١٥٧
حكومة الطاغوت ١٥٩
نتائج حكم الطاغوت ١٦٠
التسليم أمام الحق ١٦٥
رفقاء الجنة ١٦٩
الحذر الدائم ١٧١
إعداد المؤمنين للجهاد ١٧٤
الاستعانة بالعواطف والمشاعر الإنسانية ١٧٦
قوم بضاعتهم الكلام دون العمل .. ١٨٠
سنة النبي ﷺ بمنزلة الوحي ١٨٧

خلو القرآن من الاختلاف دليل حي على إعجازه ١٩٠
نشر الإشاعات ١٩١
أضرار اختلاق الإشاعة ونشرها .. ١٩٢
كل إنسان مسؤول عما كلف به ... ١٩٤
معنى كلمتي «عسى» و«لعل» في كلام الله ١٩٥
عواقب التحريض على الخير أو الشر ١٩٦
دعوة إلى مقابلة الود بالود ٢٠٠
السلام، تحية الإسلام الكبرى ... ٢٠٠
الترحيب باقتراح السلم ٢٠٨
عقاب ذي الوجهين ٢١٠
أحكام القتل الناتج عن الخطأ ٢١١
عقوبة القتل العمد ٢١٦
جريمة القتل العمد والعقاب الأبدي ٢١٧
ما هي أنواع القتل؟ ٢١٩
الجهاد الإسلامي نفي من البعد المادي ٢٢٢
نكات مهمة حول المجاهدين ٢٢٥
الأهمية البالغة للجهاد ٢٢٦
نقاط يجب الالتفات إليها ٢٢٩
١ - تجرد الروح ٢٢٩
٢ - ملك الموت أو ملائكة الموت؟ ٢٢٩
٣ - من هو المستضعف؟ ٢٣١
الهجرة حكم إسلامي بناء ٢٣١
الإسلام والهجرة ٢٣٢
صلاة المسافر ٢٣٥
ملاحظات جديرة بالإنتباه ٢٤١
كيفية صلاة الخوف ٢٤٢
أهمية فريضة الصلاة ٢٤٢
قرع السلاح بسلاح يشابهه ٢٤٤
منع الدفاع عن الخائنين ٢٤٨
جريمة البهتان ٢٥٣
مصدر عصمة الأنبياء ٢٥٥
النجوى أو الهمس ٢٥٦
حجية الإجماع ٢٦٠
الشرك ذنب لا يغتفر ٢٦٢
مكائد الشيطان ٢٦٣
امتيازات حقيقية وأخرى زائفة ٢٦٨
ما معنى الخليل؟ ٢٧٠
عود على حقوق المرأة ٢٧٢
الصلح خير ٢٧٣
العدالة شرط في تعدد الزوجات ... ٢٧٥
جواب عن سؤال ضروري ٢٧٧
العدالة الاجتماعية ٢٨١
مصير المنافقين المعاندين ٢٨٥
النهي عن المشاركة في مجالس يعصى الله فيها ٢٨٧
صفات المنافقين ٢٨٩
العقاب الإلهي ليس دافعه الانتقام . ٢٩٤

العفو عن المعتدي وأثره على نزعة العدوان ٢٩٧
لا تمييز بين الأنبياء ٢٩٨
التناسب بين الذنب والعقاب ٢٩٩
هدف اليهود من اختلاق الأعذار .. ٣٠١
نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانية ٣٠٣
أسطورة الصليب؟ ٣٠٥
مصير الصالحين والطالحين من اليهود ٣١١
أسطورة التثليث الوهمية ٣١٩
عقيدة التثليث أكبر خرافة مسيحية . ٣٢٣
المسيح هو عبد الله ٣٢٨
النور المبين ٣٣٠

فهرس الجزء السادس

الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق ... ٣٣٥

سورة المائدة

ثمانية أحكام في آية واحدة ٣٤١
التعاون في أعمال الخير ٣٤٣
الاعتدال في تناول اللحوم ٣٤٩
سؤال يفرض نفسه ٣٥٥
الحلال من الصيد ٣٥٨
حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزواج معهم ٣٦٠
حكم الزواج بغير المسلمات ٣٦٤
تطهير الجسم والروح ٣٦٦
فلسفة الوضوء والتيمم ٣٧١
فلسفة الغسل ٣٧٢
العهود الربانية ٣٧٥
دعوة مؤكدة إلى العدالة ٣٧٧
العدل ركن إسلامي مهم ٣٧٨
الممارسات التحريفية لليهود ٣٨٧
هل يجعل الله قلب الإنسان قاسياً؟ . ٣٨٧
العداء الأبدي ٣٨٩
بنو إسرائيل والأرض المقدسة ٤٠١
نقاط مهمة يجب الانتباه لها ٤١٠
التستر على الجريمة ٤١٢
وحدة الإنسانية وكرامتها ٤١٥
جزاء مرتكب العدوان ٤١٨
حقيقة التوسل إلى الله ٤٢١
التوسل في القرآن ٤٢٣
التوسل في الروايات الإسلامية ... ٤٢٣
عقوبة السرقة ٤٢٨
التحكيم بين الأنصار والأعداء ... ٤٣٤
القصاص والعفو ٤٤١
الامتناع عن الحكم بالقانون الإلهي ٤٤٥
الاعتماد على الغرباء ٤٥٥

شهادة الأحاديث والمفسرين والمؤرخين ٤٦٣
الرد على اعتراضات ثمانية ٤٦٤
الأذان شعار إسلامي كبير ٤٧٢
نزول الأذان وحياً على النبي ٤٧٤
اختيار الخليفة مرحلة انتهاء الرسالة ٤٨٦
نزول آية التبليغ ٤٨٨
حادثة الغدير بإيجاز ٤٩٠
محاورات وشبهات ٤٩٤
١ - هل معنى «المولى» هو «الأولى بالتصرف»؟ ٤٩٥
٢ - ترابط الآيات ٤٩٦
٣ - أتذكر الصحاح كلها هذا الحديث؟ ٤٩٧
٤ - لم لم يحتج علي وأهل البيت عليهم السلام بهذا الحديث؟ ٤٩٨
٥ - مفهوم الجملة الأخيرة من الآية ٤٩٩
٦ - هل يمكن وجود وليين في وقت واحد؟ ٥٠٠
المهاجرون الأول في الإسلام ٥١٤
حقد اليهود ومودة النصارى ٥١٨
لا تتجاوزوا الحدود! ٥٢٠
القسم وكفارته ٥٢١
مراحل تحريم الخمر وحكمها النهائي ٥٢٦
الآثار المهلكة للخمر والميسر ٥٢٩
أحكام الصيد عند الإحرام ٥٣٣
حكمة تحريم الصيد حال الإحرام . ٥٣٧
أهمية الكعبة ٥٣٩
الأكثرية ليست دليلاً على الحق ٥٤٠
الأسئلة الفضولية ٥٤٣
بحوث ٥٤٦
وثن اسمه «الأسلاف» ٥٤٨
تناقض بلا مبرر ٥٤٨
كل امرىء مسؤول عن عمله ٥٤٩
رد على اعتراض ٥٤٩
نعم الله على المسيح ٥٥٧
قصة نزول المائدة على الحواريين . ٥٥٩
١ - ما القصد من طلب المائدة؟ .. ٥٦١
٢ - ما المقصود بعبارة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؟ ٥٦١
٣ - ما هي تلك المائدة السماوية؟ . ٥٦٢
٤ - هل نزلت عليهم مائدة؟ ٥٦٢
٥ - ما العيد؟ ٥٦٢
٦ - لماذا العقاب الشديد؟ ٥٦٣
٧ - «العهد الجديد» والمائدة ٥٦٣
براءة المسيح من شرك أتباعه ٥٦٤
الفوز العظيم ٥٦٦
الفهرس ٥٦٩